الإسلام والمذاهب الاشتراكية

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

الاسلام هو الدين الربانى الذي ختم الله بـــه دعوات الرسل وهدايتهم للبشر وهو دين خالد باق الى قيام الساعة له كتاب ضمن الله حفظه من التبديل والتغيير والزيادة والنقص وله سنة محمدية تفسر هذا الكتاب وتوضح معانيه وتبسط احكامه وتبين قواعده وتشرح فروعه ولم يحصل مثل ذلك لاي كتاب من الكتب السماوية السابقة لانها كانت موقوتة بوقت محـدود ينتهى العمل بها بانتهائه . اما القرآن والهداية المحمدية فهما باتيان الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهـو خير الوارثين لا ينسخهما ناسخ ولا يحدهما حـد ولا يقف فى طريقهما شيء وان بلغ اعداؤهما فى الكيـد والمكر كل مبلغ « يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متـم نـوره ولو كـره الكافـرون ، هـو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » سورة الصف وقـال تعالى فى سورة آل عمران « ان الدين عند اللـه الاسلام » وقال تعالى ايضا : « ومن يبتغ غيـر الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين فعلى كل من بلغه الاسلام بوجه تقوم به الحجة عليه ان يدخل فيه ويتبعه ويتمسك به وهو دين صالـح لكل الشعوب فى كل زمان ومكان ومعناه التسليـم والانقياد لامر الله باللسان والقلب والجوارح والاسلام فى عقيدته واحكامه وآدابه وهى الاخلاق وسط بين طرفين لا افراط فيه ولا تفريط فهو شبيت فى عقيدته توحيد الله تعالى فى ربوبيته وعبادته واسمائه وصفاته لا يعطى منها غير الله سبحانه مثقال ذرة ولو كان ملكا مقربا او نبيا مرسلا او صديقا صالحـا .

فأما توحيد الله فى ربوبيته فيتبين فى نحو قوله تعالى فى سورة المؤمنـون :

« قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل افلا تذكرون قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل افلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليـه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فانى تسحرون بل اتيناهم بالحق وانهم لكاذبون » .

هذه محاجة امر الله رسوله محمد صلى اللـه عليه وسلم ان يحاج المشركين بها فقال له :

« قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعترفون بأن الله رب كل شيء وخالق كل شيء وهو المدبر لشؤون الخلق كلهم ومع ذلك يعبدون معه غيره قل لهم لمـن الارض ومن فيها من حيوان عاقل وغير عاقل ونبات بسائر انواعه وجماد . من خلق ذلكم ومن يملكه ومـن يسيره فيعترفون بأن الله وحده هو الذي يملك الارض ومن فيها فقل لهم افلا تذكرون فلماذا تعبدون معـه غيره بالخوف والرجاء والذبح والنذر والدعاء والطلب والالتجاء عند الشدائد والملمات مع ان اولئك الذين تعبدونهم فقراء عاجزين لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا فكيف بغيرهم ثم قال تعالى:« قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم » قل لهم يا محمد قل للمشركين من رب السماوات وما فيها من الكواكب السيارة والنجوم وغير ذلك من الآيات من خلقها ؟ ومن

يدبر شؤونها ؟ ومن رب العرش العظيم ؟ الذي هو سقف المخلوقات ولا يعرف قدره الا الله فانهم سيعترفون ويقولون هو رب ذلك كله قل أفلا تتقون الله وتتركون ما انتم عليه من عبادة غيره ، ثم قال تعالى : « قل من بيده ملكوت كل شيء » أي من يملك كل شيء وغيره لا يملك شيئا بل هو نفسه مملوك ومن السيد العظيم الذي يجير اي يحمي من شاء فلا يستطيع احد ان يناله باذى ولا يجار عليه ولا يستطيع احد ان يحمي ويؤمن من اراد الله عذابه او اهلاكه فسيعترفون ويقولون الله وحده هو الذي يستطيع ذلك قل لهم كيف تذهب عقولكم فتشركون مع الله غيره في عبادته . قال تعالى في سورة الاعراف : « ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين » .

قال في اللسان الرب في اللغة يطلق على المالك والسيد المدبر والمربي والقيم والمنعم ولا يطلق غير مضاف الا على الله عز وجل .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات يخبر تعالى انه خالق العالم سماواته وارضه وما بين ذلك في ستة ايام كما اخبر بذلك في غير ما آية من القرآن . واختلفوا في هذه الايام هل كل يوم منها كهذه الايام كما هو المتبادر الى الذهن او كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والامام احمد بن حنبل ويروي ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس هـ .

وقوله تعالى : « ثم استوى على العرش ، قال فيه الامام مالك رحمه الله الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وهذا احسن ما قيل في تفسيره فان الاستواء في لغة العرب معلوم معناه وكيفية ذلك لا يعلمها الا الله واعتقاد السلف الصالح امرار آيات الصفات كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل ثم قال ابن كثير وقوله تعالى : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » اي يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا اي سريعا لا يتأخر عنه بل اذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى اي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ولهذا قال منبها « الا له الخلق والامر » اي له الملك والتصرف « تبارك الله رب العالمين » كقوله تعالى « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » الآية .

قال صاحب اللسان : « وتبارك الله تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم لا تكون هذه الصفة لغيره » هـ. والعالمون اجناس الخلق فهو ربهم ومالكهم والمتصرف فيهم وحده لا شريك له وقوله « أدعوا ربكم تضرعا وخفية » قال ابن كثير ارشد تبارك وتعالى عباده الى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وآخراهم قيل معناه تذللا واستكانة وخفية كقوله « واذكر ربك في نفسك » الآية وفي الصحيحين عن أبي موسى الاشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ايها الناس اربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون اصم ولا غائبا ان الذي تدعون سميع قريب » الحديث وعن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم اني اسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها ، فقال : يا بني سل الله الجنة وعذ به من النار فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور ، فرفع الصوت في الدعاء والابتداع فيه من الاعتداء الذي نهى الله عنه وقوله « ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها » ينهى تعالى عن الافساد في الارض وما بعد الاصلاح فانه اذا كانت الامور ماشية على السداد ثم وقع الفساد بعد ذلك كان آخر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وامر بعبادته ودعائه والتضرع اليه والتذلل لربه فقال : « وادعوه خوفا وطمعا » اي خوفا مما عنده من وبيل العقاب وطمعا فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال تعالى : « ان رحمة الله قريب من المحسنين» اي ان رحمته مرصودة للمحسنين الذين يتبعون اوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون » قاله ابن كثير في تفسيره هـ.

واما توحيد العبادة فمعناه توحيد التوجه والطلب فاذا تقرر ان الله رب العالمين هو خالقهم ومالكهم ورازقهم ومدبر شؤونهم كلها وبكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وجب ان لا يتوجهوا في طلب جلب النفع ودفع الضر الا اليه ولا يتخذوا من دونه وليا ولا نصيرا وانتهى في الاستدلال على ذلك بآيتين في سورة فاطر وآيتين في سورة الاحقاف ففي سورة فاطر قال تعالى بعد ذكر دلائل ربوبيته « ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا

يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير» فاخبر سبحانه ان كل من يدعى من دونه كيف ما كانت مرتبته لا يملك للداعي شيئا من نفع او ضر وان غيره لا يسمع دعاء الداعين وهو يسمع لم يقدر على اجابتهم ولا اسماعهم بشيء مما طلبوا وان المدعوين من دونه سواء اكان ملائكة ام رسلا ام صالحين ام غيرهم سيكفرون يوم القيامة بدعاء من دعاهم فى الدنيا وسمى دعاءهم شركا ومعنى سيكفرون يتبرأون .

وفى سورة الاحقاف « ومن اضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

فاخبر سبحانه انه لا اضل ولا ابعد عن الحق ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب لهم الى يوم القيامة وهو اي المدعو غافل عن دعاء الداعى ان كان من الانبياء والصالحين فهو مشغول بما اعده الله له من الكرامة والنعيم وان كان من الطالحين فهو مشغول بما اعده الله من العذاب الاليم واذا حشر الناس يوم القيامة وعلم المدعون بدعاء الداعين لهم كانوا لهم اعداء وكفروا بدعائهم وسماه الله عبادة وكذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة فى الحديث الصحيح « الدعاء هو العبادة » وفى حديث آخر « الدعاء مخ العبادة » .

رواهما الترمذي واما الاحكام فقد احل الاسلام جميع الطيبات ولم يحرم منها شيئا قال تعالى فى سورة الاعراف « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

وحرم الخبائث كلها ولم يبح منها شيئا ومنها الخنزير والميتة والدم والخمر وكل مفسد للعقل الذي هو اعظم نعمة انعم الله بها على البشر واكل الربا والغصب والسرقة والغش والنجش وهو الاحتيال فى البيع والقذف وهو اتهام المحصنات والمحصنين بالزنا والزنا والسرقة وقطع الطريق واكل اموال الناس بالباطل كالقمار وبيع الغرر وسائر انواع الاحتيال .

واما الادب فقد جاء الاسلام باكمل الادب واكرم الاخلاق فمنها بر الوالدين وصلة الرحم بالاحسان الى الاقارب واكرام الجار كيف ما كان جنسه او لونه او دينه واطعام الطعام وافشاء السلام واكرام اليتامى والرفق بالضعفاء واقامة العدل بين الناس قال تعالى فى سورة النحل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » الآية . وامر بايفاء الكيل والوزن ، واوعد على نقصها بالويل قال تعالى : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون » وامر بكظم الغيظ والعفو عن الناس ومدح الذين يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة وذم التبذير والاسراف وحث على الصدقة وذم الكبر والعجب والحسد والبخل والرياء والغيبة والنميمة والتجسس وقبول اخبار الفساق بدون تثبت وامر بالصبر والتواضع والتواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى ووضع النبى صلى الله عليه وسلم ميزانا دقيقا يميز المسلم الصادق من المنافق المدعى الكذب فقال فيما رواه البخاري ومسلم « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا اتتمن خان » وفى رواية انفرد بها مسلم : « وان صلى وصام وزعم انه مسلم » قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده رواه البخاري .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة » يعني من قتل شخصا من غير المسلمين بينه وبين المسلمين عهد لا يشم رائحة الجنة ، وسوى الاسلام بين جميع البشر على اختلاف الوانهم واجناسهم لا فضل لاحد على احد الا بالتقوى والعمل الصالح غير ذلك من مكارم الاخلاق التى لا تجدها فى غيره ابدا ولو ذهبنا نعدده لطال بنا القول .

شريعة الاسلام فى الاموال

اعلم ايها القاريء الكريم ان للاسلام نظاما اقتصاديا مستقلا مخالفا لنظام راس المال والاشتراكيات بانواعها والشيوعية كل ما يدعى فى هذه المذاهب من خير فقد سبق اليه الاسلام قبل التفكير فيها بقرون كثيرة ، وكل ما فيها من شر فقد ابتعد عنه وحذر اهله منه ، فهو يخالف نظام راس المال بفرض الزكاة فى الذهب والفضة والابل والبقر والغنم وما يخرج من الارض من حبوب وثمرات والحق فى المعدن والركاز وهو ما وجد مدفونا فى الارض من الازمنة السابقة وكذلك فرض كفارات ككفارة الايمان وكفارة الظهارة وكفارة قتل النفس خطأ وكفارة الافطار فى رمضان بلا عذر وحرم الربا وبيع الضرر والبيوع الفاسدة وبذلك ضمن

التوازن النسبي في الممتلكات الثابتة والمنقولة وحفظ الفقراء من استبداد الاغنياء واحتكارهم للثروة ، ولم يحجر على اصحاب الكفاءات بل تركهم احرارا في استخدام مواهبهم واكتساب الاموال بطرق مشروعة اذا ادوا حقهما ، ومن اراد ان يجعل الناس سواء فليس لجهله دواء قال تعالى في سورة النحل « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » وسبب التفاضل في الرزق التفاضل في المواهب التي بها يكتسب الرزق ولن يستطيع احد من الافراد والجماعات لا بسيف ولا مطرقة ولا محراث ولا بأي نوع من انواع الارهاب ان يجعل الناس في المواهب سواء ، واذا اختلفوا في المواهب فلابد ان يختلفوا في الرزق ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، نزل المطر في ارض يثمر الكمأة بالعامية المغربية « الترفاس » فانطلق جماعة من الناس يبحثون عن الكمأة ثم رجعوا بعضهم حصل عشرين رطلا وبعضهم حصل رطلين وبين هذين درجات كثيرة متفاوتة ، فهل يجب على صاحب العشرين ان يقتسم مع صاحب الرطلين ؟ هذا جور وظلم ، وتلك الامثال نضرب بها للناس وما يعقلها الا العالمون . خرج ثلاثة صيادين الى البحر فوضعوا شباكهم او القوا سناراتهم فخرج كل واحد بما قسم له ، فهل يجب ان يخلطوا ويقتسموا ؟ لا . لا هذا ظلم وجور ، خرج ثلاثة صيادين لصيد الحجل في الهضاب والغابات وآخرون لصيد الغزلان في الصحراء فهل يجب ان يجمعوا ما حصلوا عليه ويقتسموا بالسوية ؟ لا . لا هذا ظلم وجور التفاوت في المواهب يستلزم التفاوت في الارزاق لا محالة ودواؤه فرض الزكاة والقرض بلا منفعة وفرض الكفارات والحث على الصدقات .

الاشتراكية ثلاثة انواع :

النوع الاول :

الاشتراكية القومية وهي التي دعا اليها موسوليني وهتلر وحاصلها ان يعتبر الشعب كله عمالا والحكومة هي التي تتصرف في جميع الاموال فتعين لكل عامل عمله واجره ولا يجوز لاحد ان يرفض ما عينته له الحكومة وليس الا حزب واحد وعلى الشعب ان ينتخب حكومته في ذلك الحزب فهو الوصي على الشعب الذي ينظر في مصالحه في سلمه وحربه . وغاية الحزب والحكومة ان يكون شعبه فوق جميع الشعوب غنى وقوة وسعادة ولكل فرد من افراد الشعب في الحصول على عمل واجر يكفل معيشته وله الحق ان يدخر ويملك ما قدر عليه من المتملكات المنقولة وغيرها بشرط ان يؤدي الضرائب المفروضة والملاك يقولون ان تلك الضرائب ثقيلة وكثيرة حتى انه لا يبقى لهم بعد اخذها الا قليل يعيشون به ويدعون ان حال العامل افضل من حالهم وان الحكومة تحصي عليهم كل شيء هذا مبلغ علمي فيما رايته وسمعته ولكن لم اسمع قط بوجود رشوة .

اما المناصب العالية فهي خاصة بالمنتسبين الى الحزب وهذا النظام لم يعمر طويلا حتى يعلم صلاحه او فساده ولما جر على اهله حربا طاحنة احرقت الاخضر واليابس فان جمهور الشعب الالماني مقت هذا النظام ورفضه ولا يريد العودة اليه ومن المؤسف ان بعض البلدان العربية اختارته وتمسكت به وعضت عليه بالنواجذ ودانت به مع ان اهله تبرأوا منه ، هذا مع ما لهم من العلم والخبرة والتعاون والنجدة وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين .

الاشتراكية الديمقراطية

النوع الثاني :

الاشتراكية الديمقراطية كالتي عليها حزب العمال البريطاني الحاكم واحزاب اخرى في فرنسة والمانية وغيرهما . وهذا النوع من الاشتراكية ليس فيه استبداد ولا خنق لحريات الشعوب وانما يبنى على الدعاية ولا يمنع الملك الفردي لكنه يوجب ان تكون المصالح العامة كالمعادن والمناجم وسكك الحديد وما اشبه ذلك ملكا للحكومة التي تمثل الشعب فهذه الموارد يجب ان تكون ملكا لعموم الشعب لا يستبد باستغلالها فرد ولا جماعة لان ذلك يفضي الى احتكار بعض الافراد والجماعات مقدارا كبيرا من الاموال والممتلكات على حساب ابناء جنسهم وبذلك تنقسم الامة الى اغنياء طاغين قد تفاحش غناهم وتجاوز الحدود وفقراء مدقعين قد تفاحش فقرهم فهم في غاية الذلة والاستكانة لا راي لهم ولا كرامة موطوئين بالاقدام عبيدا ارقاء ليس لهم الا السمع والطاعة وذلك ظلم وحيف في نظر الاشتراكية الديمقراطية ولا تمنع هذه الاشتراكية وجود احزاب مخالفة لها لانها كما قلنا لا تنشر مبادئها بالقهر والجبر بل بالدعاية والاقناع وتقدس حرية الراي والكلام والعقيدة والعمل والتنقل .

ولما كان هذا النوع من الاشتراكية يبيح الملك الا ما تقدم استثناؤه خاف من تفاحش الغنى وتعاظم الثروة ففرض ضرائب تصاعدية على قدر الدخل

والمحاصل حتى لا تتسع المسافة بين الاغنياء والفقراء وهذه الاشتراكية لا تتعرض للدين ولا تتدخل فى عقائد الناس ، واقطابها متدينون معظمون لرجال الكنائس متفقون معهم وهم يحاربون نظام راس المال ويتهمون المتبعين له بانهم كاذبون فى ما يزعمون من الدعوة والديمقراطية لانه متى لم تقيد الثروة بالقيود التى تقدم ذكرها طغى الاغنياء على الفقراء (كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) ، فالرجل الذي يملك معامل او مزارع او متاجر تحتاج الى آلاف العمال لابد ان يفرض ارادته على اولئك العمال فلا يستطيعوا ان ينتخبوا غيره اذا رشح نفسه ليكون نائبا فى مجلس النواب او يكون عينا فى مجلس الاعيان . وهذا يتنافى مع تحقيق الحرية واقامة العدل والمساواة التى يزعم اصحاب رؤوس الاموال انهم انصارها . اما انصار عقيدة راس المال فلهم حجج يدفعون عن انفسهم منها ان الحكومة تستنكر الاحتكار على افراد الشعب وجماعاتهم وتحرمه عليهم وتحله لنفسها ، ومنها ان الاستيلاء على المصالح العامة يعطل حركة التنافس بين الافراد والجماعات فيضعف النشاط ويقل الحماس ، ونتيجة ذلك قلة المحاصيل وفرق كبير بين من يشتغل لنفسه ويشتغل فى ما يعود عليه بالنفع والخير العميم وبين عامل يعمل فى مصلحة حكومية لا يهمه ربحها او خسارتها وانما يهمه الراتب الذي يحصله فى نهاية الاسبوع او فى نهاية الشهر هذا مع اتفاق الفريقين على حرية الراي والعقيدة وسائر الحريات ولذلك نراهم متعايشين فى شعب واحد متعاونين على ما يرون فيه الخير لامتهم وان اختلفت وسائلهم ، وقد مضى على هذا النوع من الاشتراكية زمان طويل فى بلدان مختلفة وظهر انه صالح للبقاء عندهم .

النوع الثالث :

من الاشتراكية ، الاشتراكية التى يزعم اهلها انها مقدمة للشيوعية وتسمى (البولشفية) وهذا النوع ، يبنى على سلب جميع الممتلكات وجميع الحريات والمعتقدات ويجعل الانسان آلة صماء يحركها الرؤساء فتتحرك ويقفونها فتقف ، ويأمرونها ان تنطق فتنطق بما يشتهون ، وان تسكت فلا تسكت وان تمدح فلانا فى اول النهار ثم يأمرونها ان تلعنه فى آخر النهار فتأتمر ولا تفكر فى الاشتراكية ، المخلص عندهم هو الذي يكون كالعقل الالكترونى وليس مقصودي بهذا الكلام ان اشتمهم ، ولكنى اريد بيان الحقيقة كما هى فى نظري قد دخلت برلين الشرقية وبقيت فيها اياما وانا اذكر ما شاهدته وخبرته وتحققته .

فاما سلب الاموال والممتلكات فانه لا يجوز لاحد ان يملك ارضا ولا دارا ولا سيارة ولا متجرا ولا يملك الا ثيابه التى على ظهره والا اجرة عمله بشرط ان لا يذخرها لو كان فيها متسع للادخار .

ودونك مثلا يعينك على تصور هذه الحقيقة . رايت فى برلين الغربية سنة 1954 بتاريخ النصارى قبل بناء سور برلين عجوزا تسكن فى غرفة حقيرة من الفندق الذي كنت فيه نازلا فاخبرتنى صاحبة الفندق ان تلك العجوز قبل الحرب كانت لها ثروة طائلة فلما انتهت الحرب بخسران المانيا اراضيها الشرقية استولى الشيوعيون على املاكها كلها ، ولم يبقوا لها منها شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، وبقى لها جزء قليل من بيت فى برلين الغربية وقد اعطاها الشيوعيون غرفة فى بيت من برلين الشرقية وجعلوا لها اجرة لسد الرمق وفرضوا عليها ان تشتغل فى كنس الشوارع فهى تشتغل مدة طويلة الى ان يجتمع لها من كراء ذلك الجزء الضئيل الذي تملكه من ذلك البيت فى برلين الغربية مقدار من المال فتنتقل الى برلين الغربية وتستاجر غرفة رخيصة الثمن وتنفق مما اجتمع لها حتى ينقضى ثم ترجع الى الجحيم .

اما بعد بناء السور الذي هو عكس ما قال الله تعالى : (ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب) فلا ادري ما فعل الله بتلك المسكينة وامثالها من الاغنياء الذين قلب لهم الزمان ظهر المجن فاصبحوا بؤساء بين عشية وضحاها بسبب الاحتلال الروسى وفرض الحكم الشيوعى على ذلك الشعب المنكوب . ودونك مثلا آخر شهود عيان ان اهل بيت من الاغنياء (ولا اقول اسرة ولا عائلة) من المانيا الشرقية لما دهمهم الاحتلال الروسى امروا باحضار طعام الضيافة للفاتحين الغزاة فامروا خدمهم بذبح المواشى وطهى الطعام وتوجهوا الى الغابة وعلقوا فيها حبالا وقتلوا انفسهم خنقا لانهم يعلمون ان الضيوف الثقلاء بعد اكلهم وشربهم الخمور يسلبونهم كل شيء حتى الخواتم التى فى اصابعهم ويطردونهم من ديارهم ومزارعهم ويفرضون على كل من سلبوا ارضه وداره ان يكون بعيدا من الارض المسلوبة او الدار المغصوبة والمعمل مسافة لا تقل عن ثلاثين كيلو مترا ، ومتى وجد فى مكان يقرب من ممتلكاته السابقة اقل من ثلاثين كيلو مترا يعاقب عقابا شديدا .

ودونك مثالا ثالثا من المعلوم ان الشعب الجرمانى الذي يسمونه بالالمان من ارقى شعوب اوروبة مدينة

وحضارة لا يمتري فى ذلك اثنان ولا ينتطح فيه عنزان ، وقد انقسمت هذه البلاد الجرمانية ، وهذا هو الاسم الذي سمتها به العرب فى علم تخطيط البلدان بعد الحرب العالمية الاخيرة قسمان غربى وشرقى ، فالقسم الغربى مع ما اصابه من النكبات فى زمان الحرب الطاحون رجع احسن مما كان يشهد بذلك كل مسافر وسائح راى تلك البلاد . فالمبانى التى تهدم ثمانون منها فى المائة بفعل قنابل الاعداء اعيدت احسن مما كانت وكذلك المعامل والمزارع والطرق ، هذا فى القسم الغربى .

اما فى القسم الشرقى فانه خراب كأنه انتقل من يد دولة متمدنة الى دولة همجية ، سافرنا بالسيارة من المغرب فعبرنا المضيق من سبتة الى الجزيرة وعبرنا اسبانيا ففرنسة فالقسم الغربى من المانيا وكان الطريق من كلونيا الى هنوفر التى هى على حدود المانيا الشرقية من احسن طرق اوروبا مقسوما قسمين بينهما حاجز ، وكل منهما تسير فيه اربع سيارات ولا تحتاج السيارة الى توقف ، لان السيارات التى تعبر الطريق عرضا لها ممرات اما تحت الارض واما فوق الجسور ، وقد تعجب من ذلك الحاج احمد هارون ، فقال لى : اريد ان اجرب هل اضطر الى نقص سرعة السيارة ام لا اضطر فبقى ساعتين بمقياس واحد ولم يضطر الى ان ينقص شيئا منه واسماء الاماكن وعلامات الطرق المختلفة والاضواء التى تقوم مقام شرطة المرور ، كل ذلك فى غاية الاتقان بحيث قلما يحتاج المسافر الى ان يسأل عن شىء او يضل طريقه هذا فى القسم الغربى .

اما فى القسم الشرقى ، فالامر بعكس ذلك الطريق مهمل لم يصلح منذ سنين كأنه فى صحراء وليس فيه علامات ولا اضواء فتجد السائحين ضائعين يسأل بعضهم بعضا ولا هادي ولا مرشد .

والشعب الذي يسكن القسمين شعب واحد لا يختلف الا فى نظام الحكم وهناك مثل آخر وهو برلين الغربية وبرلين الشرقية ، من المعلوم ان مدينة برلين مدينة واحدة كانت عاصمة جرمانية كلها قبل الحرب . وبعد هزيمة الجرمانيين فى الحرب العالمية الاخيرة اصبحت برلين جزيرة فى بحر المانيا الشرقية تحيط بها اراضى المانيا الشرقية من كل جانب ، فاقتسمها الغالبون ، فاخذ الامريكيون والبريطانيون والفرنسيون القسم الغربي منها وحكموه مدة ثم سلموه الى حكومة المانيا الاتحادية . اما القسم الشرقى فبقى تابعا لحكومة المانيا الشرقية تحت نفوذ الروسيين ، وكل من زار قسمى برلين الشرقى والغربى لا يكاد ينقضى عجبه ، يرى القسم الغربى وسكانه ثلاثة ملايين يعيشون فى ارغد عيش فى غاية الرفاهية والازدهار فترى المخازن والمتاجر ملأى بانواع التحف والبضائع والمطاعم والمشارب والحدائق والملاعب والشوارع غاصة باجمل السيارات والمبانى التى تهدمت كلها فى زمان الحرب قد اعيد بناؤها حتى صارت اجمل مما كانت وترى السكان يرفلون فى افخر الثياب والزي . اما اذا اردت ان تدخل الى برلين الشرقية فانك تجىء الى مدخل السور وتسلم جواز سفرك وتعطى بطاقة صغيرة وتقف مع صفوف الواقفين حتى يجىء دورك فتنزل الى سرداب تحت الارض وتنتظر حتى تمتحن فى اربعة مكاتب بأسئلة واجوبة ، والمكتب الرابع بعدما يعرف مقدار ما عندك من النقود ويسجلها يرد لك الجواز ، فتدخل فى القسم الشرقى وتجده يبابا خرابا كأن خيلا اغارت عليه ونهبته ، وابدلت سعده نحسا ونضارته كآبة وسعادته شقاء ، فلا مبانى تعجبك ولا اسواق ولا مطاعم ولا سيارات جميلة ولا بضائع فى المخازن ، والناس فى ثياب حقيرة والنساء لابسات ثيابا خسيسة ، فكأنك خرجت من عالم الى عالم ، فان قلت وما الموجب لبناء هذا السور ؟ فالجواب ان الشيوعيين او الاشتراكيين كما يحبون ان يدعوا يزعمون انهم وحدهم يعيشون فى النعيم فى الحرية والديمقراطية والعالم كله يعيش فى شقاء العبودية تحت نظام راس المال الطاغى او الاستبداد الظالم ولكن رعاياهم لا تصدق هذا الزعم ، ولذلك لم يزالوا يفرون من ذلك الفردوس المزعوم الى برلين الغربية ، فتنقلهم الطائرات الى المانيا الغربية حيث يستنشقون نسيم الحرية ويشعرون بأنهم احرار يسيرون فى ارض الله الواسعة حيث يشاؤون ، فلما عجزت حكومة المانيا الشرقية تحت المراقبة الروسية ان تقنعهم بما تزعم من الدعاوي ارادت ان تضرب سورا على ذلك الفردوس وتنصب عليه الاسلاك الشائكة والرشاشات والحرس المسلح ليلا ونهارا حتى لا يفر واحد من فردوس الشيوعية ونعيمها الى عذاب نظام راس المال وجحيمه ، ومع ذلك كله لم تنقطع الهجرة والفرار وقد هرب من المانيا الشرقية الى المانيا الغربية بواسطة برلين الغربية منذ نهاية الحرب اكثر من اربعة ملايين وحتى بعد بناء السور لا يزال الناس يهربون ويتركون بيوتهم وأمتعتهم ويفرون بأنفسهم مؤثرين الحرية على كل شىء سواها من متاع الدنيا وحوادث هذا الفرار لا تزال تتلى صباح مساء فى الاذاعات على مسامع القراء وما احسن المثل العامى الذي يقول :

« حتى كلب ما هرب من دار العرس » معناه بالفصحى « لا كلب يفر من الدار التى تصنع فيها وليمة العرس بل بالعكس كل كلب يجب ان يأتيها لينال من فضلات الطعام » ومن اغرب ما سمعته من اذاعة لندن فى هذا الصدد ان خمسة وعشرين شخصا اتفقوا على ان يحفروا نفقا يبتدئونه من دار احدهم وكانت داره بقرب السور فقضوا مدة من الحفر كل ليلة يحفرون ساعات ويقومون باعمالهم المفروضة فى النهار حتى اوشكوا النصف الى مبنى فى القسم الغربى ولما انتهى النصف خرجوا كلهم ذات ليلة وتركوا الدار تفتي من بنائها وهناك حوادث كثيرة طريفة وعجيبة يعرفها من تتبع مثل هذه الاخبار ، واما سلب الحريات فيجب على كل عضو فى الحزب ان يكفر بجميع الاديان وان يومن بعملة شارل ماركس فى كل ما شرعه واعتقده وليمة ، وكان من ستالين ثالثة ثلاثة الى ان خلفه نائبه وشريكه وكل ما ارتكبه بعد وفاته فبطلت قدسيته عن بعض الشيوعيين وبقت ثانية عن بعضهم . اما من لم يكن من المشتركين فى الحزب فيجوز له ان يقول انه مسلم او نصرانى بشرط الا يرد شيئا ولن يتفق من نظام شارل ولا من الانظمة التي يصنعها الحزب الشيوعي ومع ذلك يكون موضع سخرية واستهزاء اما فى السياسة فلا يجوز له أن يعتقد الا سياسة الحزب وان تناقضت يتناقض معها مثل الزعماء الذين رفضهم الحزب يجب على جميع الناس ان يقبلوا لهم ظهر المجن ويذموهم بعدما مدحوهم اعظم المدح كتروسيكي وماليونوسى ومالوتوف وخروتشوف ؟

واما استالين فقد تقدم خبر رفعهم له الى درجة التقديس ثم خفضهم له الى درجة الاجرام . اما حرية العمل فهى معدومة فيجب على كل انسان ذكرا كان او انثى ان يقبل العمل الذي تفرضه عليه الحكومة فى المكان الذي تعينه له بالاجر الذي تعينه له والساعات التى تعينها له ولا يجوز له أن ينتقد شيئا من ذلك والا صار متهما بالخيانة واستحق العقاب الشديد على قدر انتقاده وكذلك حرية التنقل والسفر الى الخارج لا يجوز لاحد ان يفكر فيه وقد شاهدت فى برلين الشرقية الصبيان فى سن 14 سنة يوبخون والديهم ويتهمونهم بالرجعية وعدم الاخلاص للحزب والجمود على الافكار السخيفة والاباء والامهات يخافونهم والواجب على كل ملك ورئيس من رؤساء المسلمين ان يحفظ شعبه من هذه المذاهب التى تجلب الشقاء والشر ويجب ان تسعى بحق سل الشعوب اذا كان غلاة الشيوعيين وكلهم غلاة يسمون الدين افيون الشعوب فنحن نسعى غلاتهم سل الشعوب ولسنا من المترين المحتكرين حتى نتهم باننا نعارضهم محافظة على اموالنا ولكن النصيحة لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم اوجبت علينا ان ننصح لجميع الشعوب وخصوصا المسلمين ان يبتعدوا من جميع انواع الاشتراكية اسما وعقيدة وعملا . ففى ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم غنية لهم وكفاية ومن لم يسعه ما وسع السلف الصالح فلا وسع الله عليه ومن لم يسعه ما آتى عن محمد : فلا وسع الرحمن ما اتاه على العمر

⁂

اما التسمية فقد قال الله تعالى : « هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكون شهداء على الناس آخر سورة الحج .

اما العقيدة والعمل فقد تقدم ان الاسلام سبق الى كل خير وتجنب كل شر وكل ما يدعونه من المساواة وابتغاء العدالة بين افراد الشعب ظهر انه غير صحيح فقد اخبرنى السيد احمد موسلى المسلم الالمانى فى بيته ببرلين الغربية قال كنا نعيب على حكومة هتلر انها تدعى الاشتراكية لتحقيق المساواة بين افراد الشعب ومع ذلك كان طعام الضباط يختلف على طعام الجنود فكان للضباط مطبخ فيه الوان من الطعام ولعامة الجنود مطبخ آخر فيه الوان دونه فى الجودة فلما انهزم الجنس الالمانى وقعت فى اسرى الروسيين فاخذونى الى موسكو وبقيت هناك سنتين فرايت للجنس الروسى خمسة مطابخ بعضها على بعض يعنى ان الطعام عندهم خمس درجات الدرجة العليا لكبار الضباط والثانية للمتوسطين والثالثة للصغار والرابعة للعرفاء والخامسة لعامة الجيش قال فعلمت ان كلام الفرنسيين كاذب فى دعواه الاشتراكيون القوميون والاشتراكيون الشيوعيون كلهم مخادعون وصدق الله العظيم اذ يقول فى سورة البقرة : ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الاخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون . وقال تعالى فى سورة آل عمران يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون » .

مكناس : تقي الدين الهلالي

أكبر معمل في العالم

للدكتور نقولا زيدان الهدلي

- 16 -

فـــــال الاستـــاذ كريسي مورسن رئيس المجمع العلمي الامريكي سابقا في ابتداء الفصل : لقد الفت كتبا في فيزولوجية الهضم ، اي علم خـــواص اعضاء الهضم ولكن كل عام يمر علينا يجيء باكتشافات جديدة مدهشة تجعـل هذا الموضوع جديـــدا على الدوام . واذا فكرنا في الهضم من حيث هو عمـل في معمل كيماوي ، وفكرنا في الطعام الذي نتغذى بـــه على انه مواد اولية ينكشف لنا ان ذلك عمـل عجيب لانه يهضم كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها . اولا نحن نضع في هذا المعمل انواعا مختلفة من الاغذية على انها مادة اوليـــة دون ان نحسب اي حســـاب لذلك المعمل ولا ان نفكر كيف يعالج هضمها بطريقة كيميائية بديعة . فنحن ناكل قطع اللحم والكرنب والحبـــوب والسمك المقلي وندفعها الى اسفل بأي قدر من المـاء ونضيف اليها الخمر والخبز والفول . وقد نضم الى ذلك كبريتا وعسلا اسود ، دواء ناخـذه في زمـــان الربيع . ومن بين هذا الخليط تختار المعـدة الاشياء المفيدة بتحليل كـل صنف الى اجزائـه الكيميائيـة الدقيقة دون اعتبار للفضـلات ، ثم تركب الباقـــي فتجعله (بروتينات) جديدة ، و (البروتين) مـــادة غذائية اولية توجد في البيض والبن والجبن ، وتتألف من الكربون والادرجيـــن والاكسجيـــن والنترجيـــن وبعض الكبريت) وهذه المـادة تصير غـذاء للخلايـا المختلفة . وتختار اداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل مادة اخرى ضرورية ، وتعتني بعـــدم ضيـــاع الاجـزاء الجوهريـــة حتى يمكـن استخراج الهرمونات بان تكون جميع الضرورات اللازمة للحياة موجودة بمقادير منظمة معدة لمواجهـــة كل احتياج . وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية لتلافي كل حالة طارئة كالجوع القاتل ، تفعل ذلك كله دون ان يشاركها الانســان بتفكير او راي . ونحن نصب هذه المـــواد المختلفة التي لانحصى في هذا المعمل الكيميائي بقطـع النظر تقريبا عما ناكله ونشربه ، معتمدين على مانعتبره عملا سائرا من تلقاء نفسه ليحفظ علينا الحياة . واذا تحللت هذه الاطعمة وجهزت من جديد تسلم باستمرار الى كل خلية من الخـلايا التي يتالـف منهـا الجسم البشري وتعد بالبلايـين وعددهـا في جسم الانسان اكثر من عدد جميع البشر الذين يعيشون على وجـه الارض . ويجب ان يكون تقديم هذا الغذاء الى كـل خلية على حدتها باستمرار ، ولا يجوز ان يقـدم لاي خلية من المواد الغذائية الا ما تحتاج اليه بخصوصهـا ليتحول ذلك الغذاء الى عظام واظفار ولحم وشعـر ، وكذلك العيون والاسنان كل خلية منها تتلقى غـذاء خاصا . فهذا معمل كيميائي ينتج من المواد اكثر مما ينتجه اي معمل اوجده الانسان بذكائه . وهنا نظـام للتوزيع اعظم من اي نظام عرفـه العالـم للنقـل او التوزيع ، يسير هذا النظام في غاية الدقة والكمال . ومن الطفولة الى ان يبلغ سن الانسان خمسين سنـة مثلا لايصدر من هذا المعمل اي خطأ لـه بـال مع ان المواد التي يعالجها يمكن ان تكون اكثر من مليون نوع من ذرات المادة ، واذا صارت قنوات التوزيع متكاسلة من طول الاستعمال نحس بضعف في قابلياتنا ثم تاتي الشيخوخـة على اثـره .

وحين تاخذ كل خلية حصتها من الغذاء المذكور فانه لايزال غذاء مجردا . ثم يصير عمل كل خليـة منحصرا في الاحراق ومن ذلك تنشأ حرارة الجسـم كله . وانت لاتستطيع ان تحدث احراقا بدون ايقاد . فلا بد ان توقد النار اولا ، وكذلك الطبيعة باذن الله تهيىء تركيبا كيميائيا يوقـد نـارا مضبوطة لاجـل

الاوكسجين والهيدروجين والكربون ، فى الغذاء فى كل خلية وبذلك ينتج الدفء اللازم كما يكون فى كل نار ، والنتيجة هي بخار الماء ، وثاني أوكسيد الكربون ، والدم يحمل ثاني أوكسيد الكربون الى الرئتين وهذا الشيء هو الذي يجعلك تستنشق بتنفسك نسيم الحياة . والشخص الواحد ينتج تقريبا فى كل يوم رطلين (زهاء كلو غرام) من ثاني أوكسيد الكربون ولكنه يتخلص منه بعمل عجيب . كل حيوان يهضم الطعام ويلزمه ان يحصل على المواد الكيميائية اللازمة لحياته الخاصة . حتى فى التفاصيل الدقيقة تختلف المحتويات الكيمائية فى الدم ، تختلف فى كل نوع مثلا . ولاجل ذلك يوجد عمل تشكيلي خاص لكل نوع . ففي حالة العدوى يغزو الجسم جيش من الجراثيم المعادية ولكن الجسم فيه ايضا جيش من الذرات المدافعة تنازل ذلك العدو المغير فتقاتله وتنتصر عليه فى اكثر الاحيان فيسلم الجسم من الموت . ومثل هذه المعجزات المجتمعة لايمكن ان توجد باي حال من الاحوال الا مع وجود الحياة . وكل ذلك يقع فى نظام كامل ، والنظام هو ضد المصادفة على خط مستقيم . فهل يدل ذلك على مدبر عليم حكيم ؟ ان كان الامر كذلك فهو ناشيء عن الحياة . وما هي الحياة .

تعليقـــــات

1) قوله ــ ولكن كل عام يمر علينا يجيء باكتشافات جديدة الخ . هذا شان عقيدة الحق لايزيدها مرور الزمان الا اتضاحا ورسوخا وثباتا ولا يزداد اهلها الا تمسكا بها وارتباطا . قال تعالى فى سورة فصلت : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) فكل من قرأ هذا الفصل وفهمه وامعن فى التفكر يرى حجة الله قائمة عليه فى نفسه كما قال تعالى : (وفى انفسكم أفلا تبصرون) فمن كابر بعد قراءة هذا الفصل وما تقدمه فى وجود الله واحاطة تدبيره وعلمه وقدرته ، فانه لايحترم نفسه ، الا ان يكون امعة غمرا عطل فكره وقلد غيره تقليد الاعمى لقائده ، فمثل هذا لا كلام معه انما هو كالانعام ، بل اضل سبيلا .

2) قوله ــ مواد اولية . اي بسيطة لم تدخلها الصنعة والتركيب

3) قوله ــ ما عدا المعدة نفسها الخ . ذكرني قول طبيب الامراض الباطنية فى معهد طبي تابع لجامعة (بون) عاصمة المانيا الاتحادية فى الوقت الحاضر . فقد اصابني التهاب فى المعدة بسبب تبدل الجو والغذاء وشدة البرد فى شتاء سنة 1937 فقال لي ذلك الطبيب وهو يشرح اسباب الالتهاب ان فى المعدة سائلا هو الذي يهضم الطعام . السائل يكون بمقدار محدود فان نقص ساء الهضم . وان زاد احرق الطعام بسرعة فلا تستخرج منه المواد التي تعوض الجسم ما يفقده بالقدر الذي يحتاج اليه فتفرغ المعدة بسرعة غير معتادة فلا يجد ذلك السائل ما يهضم فيشرع فى هضم المعدة نفسها فيحس المصاب بالالم والجوع فياكل . ثم يهضم ما اكل بسرعة كما تقدم . ولذلك يحتاج المريض الى ان ياكل فى كل ساعتين سدس مايتغذى به فى اليوم . واذا اشتد به المرض يحتاج الى ان ياكل فى كل ساعة من ساعات النهار . واذا لم يعالج هذا الالتهاب علاجا ناجعا تنشا عنه قرحة المعدة أو قرحة المصير الاثنى عشري وهي خطيرة . ولم استطع ملازمة الحمية بالدقة التي يتطلبها المرض ، كذلك لم استطع الاكل فى كل ساعتين لاني أظل طول النهار فى الجامعة فاصبت بقرحة الاثنى عشرى وبقيت اقاسي الآلام والهزال والحرمان من الاغذية القوية كاللحم ماعدا الدجاج والخبزالطري والتمر والحوامض والموالح والتوابل اكثر من عشرين سنة . ولم ينصحني الاطباء الالمانيون باجراء عمل جراحي ولكن طبيبا اسبانيا فى مدريد نصح لي بذلك . وكذلك نصح لي طبيب ايطالي فلم اقبل نصيحتهما . ودخلت المستشفى فى المانيا مرتين فلم اخرج منه بطائل . ولما اراد الله الشفاء زرت الدكتور بن زاكين فى الدار البيضاء لعلاج مرض آخر فلما اراد ان يكتب لي الدواء اخبرته بان عندي قرحة الاثنى عشرى مخافة ان يكتب دواء يزيد فى المها فكتب لي دواء للقرحة ايضا فاستعملته فشفيت من ذلك الداء العضال . وبعثت به الى مريض فى المانيا الشرقية فشفي بعد ما اقام فى المستشفى ببرلين شهرا كاملا بلا طائل وخرج بورقة الحمية المحتوية على قائمة الاطعمة الممنوعة كما خرجت بها انا قبله والحمد لله الذي لم ينزل داء الا انزل له دواء كما فى الحديث . وانما اثبت هذه القصة هنا على طولها رجاء ان ينفع الله بها بعض القراء . ومن شاء معرفة هذا الدواء فاني مستعد ان انشر اسمه فى صفحات هذه المجلة .

4) قوله ــ كبريتا او عسلا اسود ، دواء ناخذه فى زمن الربيع . هكذا جاء فى الكتاب . وانا لا ادري

هل يعني المصنف دواء مرض بعينه ام يقصد دواء عاما ينفع جميع الناس .

5) قوله ـ البليون بكسر الباء فى امريكا الف مليون . وفى بريطانيا مليون مليون . ولما كان المؤلف امريكيا يحمل كلامه على الاصطلاح الامريكي . اقول ويذكرنا هذا المعنى بقول الشاعر :

لئن كان جسمك جسما لطيفا
ففيك انطوى العالم الاكبر

6) قوله ـ واذا صارت قنوات التوزيع متكاسلة من طول الاستعمال . يريد المصنف ان ذلك التكاسل يكون بعد الخمسين فيشعر الانسان بالضعف شعورا بينا وبعد ذلك يجيء الهرم ، وما بعد الهرم الا الفناء (كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون)

7) قوله ـ ففي حالة العدوى الخ . اكثر الناس او كلهم يظنون ان المكروبات لم تكتشف فى زمان العرب ، وانما اكتشفت على يد اطباء أوربيين في العصور المتاخرة . وهذا خطأ كبير ، سببه تأخر المسلمين والعرب واهمالهم لتراث اسلافهم . فقد الف لسان الدين ابن الخطيب السلماني رسالة سماها (مقنعة السائل عن المرض الهائل) وصف فيها الطاعون الذي حدث فى اواسط القرن الثامن الهجري بدا فى الصين واكتسح اسيا وافريقيا وجزءا كبيرا من اوربا ، قال : ومات بسببه سبعة اعشار سكان الارض . وفى هذه الرسالة وصف ابن الخطيب المعركة التي تقع بين جراثيم المرض المغيرة على الجسم وبين جيش الذرات الساهرة على حراسة الجسم . وهذه الرسالة موجودة فى مكتبة اسكوريال باسبانيا . وقد اخذت صورة فوتوكرافية لهذه الرسالة ونشرت ملخصا منها فى الجزء الاول والثاني من مجلة لسان الدين التي انشأتها فى تطوان سنة 1946 . ولولا خوف الاطالة لنقلت هنا كلام ابن الخطيب بالفاظه .

8) قوله ـ والنظام هو ضد المصادفة على خط مستقيم . فهل يدل ذلك على مدبر عليم حكيم ؟ الجواب نعم واهم دلالة لاتبقي ادنى ريب فى نفس المنصف المفكر السالم من التقليد والتبعية فمن ترك عقله جانبا وزعم ان ذلك كله وقع على سبيل المصادفة ، فهو اما بليد الطبع او مكابر .

أئمة الدّولة العَلوية، وَتمسكهم بكتاب الله وبيان رَسُوله الكريم، صَلّى الله عَليه وَسلّم

للدكتور تقي الدين الهلالي

قال الله تعالى فى سورة الاحزاب (33 انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا)

اخرج ابن ابي شيبة واحمد ومسلم وابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم عن عائشة قالت : خرج النبي (ص) غداة ، وعليه مرط مرحل من شعر اسود ، فجاء الحسن والحسين فادخلهما معه ، ثم جاءت فاطمة فادخلها معه ، ثم جاء علي فادخله معه ، ثم قال (انما يريد الله) الاية .

ومن حديث واثلة بن الاسقع عند ابن ابي شيبة واحمد وغيرهما ان النبي (ص) قال بعد ما غطاهم بالكساء : اللهم هؤلاء اهل بيتي ، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

فاهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هم احق الناس بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونشر الويتهما بين الناس ، وتبوأ اعلى المراتب فى الدين والدنيا ، فهم سرج هداية ، ومصابيح الظلام ، كلما عظمت الخطوب ، واظلمت الآفاق بدا منهم سراج ، ولاح منهم بدر كشف الظلام ، وجدد الدين ، وقاد السفينة الى شاطيء السلامة والكرامة .

ومن هؤلاء المصابيح الغر الميامين الامام الحجة المجاهد ، الورع ، التقي الزكي ابو الاشبال علي بن الحسن بن محمد بن الحسن بن قاسم رضوان الله عليهم ، وكان هذا الامام على قدر محبته للعلم ، والجهاد فى سبيل الله ، وحج بيت الله الحرام ، والاجتهاد فى عبادة الله يكره الامارة .

وقد طلب منه اعيان غرناطة من العلماء والصالحين ، واهل الحل والعقد ان يبايعوه بامارة المومنين لما راوا من بلائه الحسن في جهاد اعداء الاسلام ، وكشف الغمة عن المسلمين بالجيش الذي جاء به من المغرب من المجاهدين ، فأبى عليهم كل الاباء ، ورعا وزهدا ، وتباعدا عن زهرة الحياة الدنيا اقتداء بجده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الله اخرج من ذريته رجال صدق ، وائمة هدى، ومصابيح ظلام انقذوا المغرب من نكبته واقالوه من عثرته ، واقاموا من كبوته ، فقطعوا رؤوس الفتن ، وجمعوا شمل الشعب ، وطهروا الثغور من رجس الاعداء المغتصبين ، ولم يتم لهم ذلك الا لتمسكهم بكتاب الله ، واهتدائهم بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فان العز والنصر ، والسعادة والسيادة فى بلادنا هذه ، وفى سائر البلدان التي فتحها الله على المسلمين ، كل ذلك منوط باعلاء كلمة الله ، واتباع كتاب الله ، وهذه مواقف شريفة وقفها هؤلاء الائمة امام كتاب الله وسنة رسوله تدل على مبلغ تمسكهم بهما .

الموقف الاول للامام المولى محمد بن الشريف لما بايع اهل سجلماسة واهل درعة ونواحيهما المولى محمد بن الشريف ، وكانت هاتان الناحيتان وغيرهما من الاراضي الجنوبية من بلاد السوس تحت حكم ابي حسون ، فتقلص ظله منهما ، واجمع اهاليهما على نصرة هذا الامير الجليل توجه الناحية الشرقية من

المغرب ، فبايعته الاحلاف ، وهم العمارنة ، وعرب بني معقل ، فسار بهم الى بني (يزناسن) ، فاستولى عليها، ثم انثنى الى وجدة ، وكان اهلها حزبين : حزب يدعو الى الاتراك ، وحزب ثابت على ولائه لدولته المغربية فاعتز المواطنون الصادقون بمقدم الامير العلوي محمد ابن الشريف ، فانقضوا على الحزب الداعي الى الاتراك، فخضدوا شوكتهم ، وفتكوا بهم وردوهم الى الصراط المستقيم ، وصفت وجدة ونواحيها للامير محمد بن الشريف ، ولم يبق فيها معارض ولا مشاغب ، وكان ذلك سنة 1060 هـ .

ثم استولى المولى محمد بن الشريف على ندرومة وتلمسان ، وما يحيط بهما من القبائل ، وتصدت له الحامية التركية التي كانت في تلمسان ، فهزمها شر هزيمة ، وقدم عليه محمود شيخ حميان مع اعيان قبيلته وبايعه ، ودخل في طاعته ، ووصل الى عين ماضي والاغواط في الناحية الشرقية من الجزائر ، واستبشرت قبائل العرب كلها في الجزائر بهذا الامير الميمون ، وكانوا كارهين لحكم الاتراك المغيربن المغتصبين ، ثم رجع الامير سالما غانما منصورا مظفرا، بعد ما شب نيران الحرب في الايالة التركية ، ونسفها نسفا ، وضرب اولها بآخرها ، كما يقول الناصري في الاستقصا ، وخاف الاتراك على انفسهم ، فاستعملوا العقل والحكمة وبعثوا وفدا مؤلفا من عالمين وقائدين تركيين ، فوصلوا الى سجلماسة ، ومعهم كتاب من رئيسهم عثمان باشا يناشد المولى محمد بن الشريف الله ، ويحاكموه الى شريعة جده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول له : نحن مسلمون ، فبما ذا تستحلون قتالنا ؟

فتأثر الامير محمد بهذه الرسالة ، واخذته القشعريرة وقال : والله ما اوقعنا في هذه المحذورة الا شياطين العرب ، انتصروا بنا على اعدائهم ، واوقعونا في معصية الله ، وابلغناهم غرضهم ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

واني اعاهد الله تعالى لا اعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء ، واني اعطيكم ذمة الله ، وذمة رسوله ، لا قطعت وادي تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضي الله ورسوله . وكتب لهم بذلك عهدا الى صاحب الجزائر ، وقنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة واعمالهما . انتهى .

وهذا الموقف الذي وقفه هذا الامير الجليل يدل على خوف من الله ، واتهام للنفس ، ووقوف عند حدود الشريعة ، وتعظيم لحرماتها ، مع انه لو اراد ان يتأول ، لكان له في التأويل مجال .

فقد اخرج الطبراني بسند صحيح من حديث عبد الله بن السائب قال : قال رسول الله (ص) : قدموا قريشا ولا تقدموها ، وتعلموا من قريش ولا تعلموها ، ولولا ان تبطر قريش لاخبرتها ما لخيارها عند الله تعالى . وله شاهد عند البزار من حديث علي ابن ابي طالب ، وآخر عند ابن عدي من حديث ابي هريرة .

وفي الصحيح عن النبي (ص) انه قال : الخلافة في قريش ما اقاموا الدين ، لا يعاديهم احد الا كبه الله على وجهه في النار .

فكان للامير محمد بن الشريف الحق في ان يتقبل بيعة من بايعه من تلك القبائل ، وان يتقدم ويحكم ، فهو احق بالحكم من اولئك الاتراك ، ولكن كما تقدم من شيعة آل البيت النبوي الكريم التواضع لله ولاخوانهم المسلمين اقتداء برسول الله (ص) الذي امره الله تعالى بقوله في سورة الشعراء (142 ـ 215 وانذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) .

امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يحذر اقرب الناس اليه ان يتكلموا على قرابتهم منه ولا يعملوا عملا صالحا ينجيهم من عذاب الله ، فحذرهم النبي (ص) امتثالا لامر ربه فقال عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين : يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، وانقذي نفسك من النار ، لا اغني عنك من الله شيئا ، ثم قال : يا صفية عمة رسول الله انقذي نفسك من النار ، لا اغني عنك من الله شيئا ، يا عباس عم رسول الله انقذ نفسك من النار لا اغني عنك من الله شيئا ، يا بني هاشم ، لا يأتيني الناس بالاعمال وتأتوني بالدنيا فتقولون : يا محمد ، فاقول : لا ، قد بلغت . او كما قال عليه الصلاة والسلام . فمثل هذه النصوص هي التي جعلت الامير محمد بن الشريف يعتذر للاتراك ويعاهدهم كما تقدم .

فان قيل : ما علاقة هذا الخبر التاريخي بالموضوع الذي انت متصد للكتابة فيه ، وهو تمسك ائمة الدولة العلوية بكتاب الله وبيان رسوله صلى الله عليه وسلم، فالجواب :

ان معنى التمسك بكتاب الله ، هو اتباع الكتاب العزيز ، والوقوف عند حدود الله ، والتحاكم الى كتاب

الله عند النزاع ، والرضا بحكمه والتسليم له ، كما قال تعالى في سورة النور (51 ـ 52 انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ، ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا واطعنا ، واولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فاولئك هم الفائزون) وهذا عين ما فعله الامير محمد بن الشريف رحمه الله .

واخرج البخاري عن ابن عباس قال : قدم عيينة ابن حصن بن حذيفة ، فنزل على ابن اخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء اصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهولا كانوا او شبابا، فقال عيينة لابن اخيه : يا ابن اخي ، لك وجه عند هذا الامير ، فاستاذن لي عليه ، قال : سأستاذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستاذن الحر لعيينة فاذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا امير المؤمنين ان الله تعالى قال لنبيه : (7 : 199 خذ العفو وامر بالعرف ، واعرض عن الجاهلين) وان هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل . وهكذا كان ائمة الدولة العلوية الذين سادوا وقادوا هذه الامة خير قيادة .

الموقف الثاني موقف مؤسس الدولة العلوية الشريفة ، ومرسي قواعدها الامام رشيد ابن الشريف رحمه الله . كان هذا الامام متمسكا بكتاب الله وسنة رسوله ، محبا لاهل العلم بهما ، ومقربا لهم ، يكرمهم غاية الاكرام ، ويستشيرهم في جميع الامور ، ويصدر عن ارشادهم ونصيحتهم ، ولذلك مكن الله له في الارض وقطع بسيفه رؤوس الفتنة ، وجمع به الشمل بعد الشتات ، واصلح به الامور بعد الفساد .

وقال صاحب الاستقصا نقلا عن صاحب النزهة ج 7 ص 35 ما نصه : وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين اوائل ذي الحجة سنة 1076 وبويع بها يومه ذلك ، ولما تمت له البيعة افاض المال على علمائها ، وغمرهم بجزيل العطاء ، وبسط على اهلها جناح الشفقة والرحمة ، واظهر احياء السنة ونصر الشريعة ، فحل من قلوبهم بالمكان الارفع ، وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة . اه

ثم قال في ص 44 نقلا عن صاحب (نشر المثاني) من اخبار الامام رشيد بن الشريف : وكان يحضر مجلس الشيخ اليوسي بالقرويين . اه وهذه لعمري منقبة فخيمة ، ومأثرة جسيمة ، فرحم الله تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقدره قدره . ثم قال : وفي ايامه كثر العلم ، واعتز اهله ، وظهرت عليهم ابهته ، وكانت ايامه ايام سكون ودعة ، ورخاء عظيم . اه

الثالث مواقف الامام المؤيد بالله ركن الدولة وصاحب القوة والعزم والصولة مولاي اسماعيل بن الشريف رحمه الله

منها ما حكاه صاحب الاستقصا ص 58 قال : واما سبب تسمية هذا الجيش (بعبيد البخاري) فان المولى اسماعيل رحمه الله لما جمعهم ، وظفر بمراده بعصبيتهم ، واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض ، حمد الله تعالى واثنى عليه ، وجمع اعيانهم، واحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم : (انا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما امر به نفعله ، وكل ما نهى عنه نتركه ، وعليه نقاتل) .

فعاهدوه على ذلك، وامر بالاحتفاظ بتلك النسخة وامرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها امام حروبهم ، وما زال الامر على ذلك الى هذا العهد ، فلهذا قيل لهم (عبيد البخاري) اه .

لما قرات هذا الموقف اصابتني قشعريرة ، ولم ادر كيف اقدر هذا الامام ، وكيف اثني عليه ، فان كلمته هذه لها مغزى عظيم يهز القلوب ، ويسمو بارواح المؤمنة الى اعلى مستوى من الايمان واليقين ، هذا الملك العظيم الذي كانت تحسب له ملوك اوربا الف حساب ، وكان يخاطبهم في مراسلاته معهم بأخشن خطاب ، وكان الامير شكيب رحمه الله معجبا اشد الاعجاب بمواقفه مع ملوك اوربا ، لا يمل من عرضها وتكرارها على كل زائر وكل مجالس ، وكانت تأخذه اريحية عظيمة حين يقرا علينا سيرة هذا الامام العلوي العظيم .

استمع اليه يقول لعبيده وجنده : (انا وانتم عبيد لسنة رسول الله (ص) وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما امر به نفعله ، وكل ما نهى عنه نتركه ، وعليه نقاتل ،) هذا الكلام الحكيم البليغ يشبه كلام اصحاب رسول الله (ص) ، وكلام التابعين والائمة المجتهدين في دقته واحكامه .

فقد دل هذا الكلام على ستة اركان ، كل دولة حافظت عليها لابد ان تبلغ اوج السعادة والعزة والنصر

المبين ، ولا يستغرب بعد الاطلاع على هذا ما اعطى الله اسماعيل من العزة والنصر ، والقاء الرعب في قلوب اعدائه داخل المملكة وخارجها ، وكون راياته في حروبه الكثيرة مقرونة بالنصر والظفر .

الركن الاول (انا وانتم عبيد لسنة رسول الله (ص) وشرعه) استوى المالك والمملوك ، ومن خدم سنة رسول الله (ص) وسوى فيها نفسه بعبيده وجنده فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، وما احسن قول البوصيري اذا فسر بهذا المعنى :

ومن تكن برسول الله نصرته
تلقه الاسد في آجامها تجم

يعني من يكن خادما لسنة رسول الله بصدق واخلاص تنفتح له جميع الابواب ، وتنهزم امامه جميع الاعداء ، وترتجف قلوب الاسد ، وهي في عرائنها هيبة له واجلالا .

الركن الثاني ان شرع رسول الله (ص) مجموع في صحيح البخاري ، اذن فلا بد من العمل به ، كما سيصرح به هذا الامام تصريحا يتقشع معه كل ظلام ، اما سرد الفاظه سردا مجردا عن الدراسة والعلم والعمل ، فان ذلك لا يغني فتيلا .

الركن الثالث (كل ما امر به نفعله) يعني بلا قيد ولا شرط ، لانه معصوم (من يطع الرسول فقد اطاع الله) (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) .

الركن الرابع (وكل ما نهى عنه نتركه) وهو كذلك بلا قيد ولا شرط .

الركن الخامس (وعليه نقاتل) اي وعليه نوالي وعليه نعادي ، وعليه نحب وعليه نبغض ، وهذا معنى الخبر (اوثق عرى الايمان ، الحب في الله والبغض في الله ، والموالاة لله والمعاداة لله .

الركن السادس (فعاهدوه على ذلك) اي عاهد الجند ملكهم وقائدهم معاهدة الرعية راعيها ، **ونحن نشهد بالله اننا ايضا عبيد لسنة رسول الله (ص) ، واننا نعاهد على ما عاهد عليه اولئك الجنود ذلك الامام العظيم .**

ومنها ما ذكره صاحب الاستقصا ص 69 من حوادث سنة 1099 قال : وفي خامس جمادى الاولى استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضيه ابي عبد الله المجاصي فحضروا واكرمهم ووصلهم . اه

قد سمعت ما شفى وكفى في تمسك الامام اسماعيل بسنة النبي (ص) ، وهذا الخبر يدلك على مقدار عنايته بتفسير كتاب الله عز وجل ، وهذه شروط السعادة والعزة والقوة ، فكل من فسر تلك القوة العظيمة ، والنصر المبين المتكرر المتوالي عشرات السنين الذي منحه الله هذا الملك السعيد بغير التمسك بالكتاب والسنة ، فقد خبط خبط عشواء في ليلة ظلماء .

ومنها ما ذكره صاحب الاستقصا ص 78 قال : ولما ولي المامون على مراكش امر برئيس الحضرة ، وامام الكتاب الفقيه ابي العباس احمد اليحمدي ان يعطيه التقليد ويوصيه بما ينبغي الوصاية به ، وكان المولى المامون منحرفا عن الوزير المذكور ، فمشى اليه على كره منه ، وحاز منه التقليد ، واستمع لوصيته امتثالا لامر والده ، ثم عاد اليه وقال : يا مولانا ان اليحمدي ينقصك ، ويزعم انه الذي علمك دينك ، في كلام آخر .

فقال له السلطان رحمه الله : والله ان كان قد قال ذلك ، انه لصادق ، فانه الذي علمني ديني وعرفني بربي . نقل هذه الحكاية صاحب البستان وصاحب الجيش ، وكلاهما قال : انه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله ، وهي منقبة فخيمة للمولى اسماعيل في الخضوع للحق والاعتراف به ، رحم الله الجميع . اه

ومنها ان الشيخ ابا علي الحسن اليوسي وجه رسالة الى الامام اسماعيل رحمة الله عليه بقصد النصح ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانتقد حكمه فيها من ثلاثة اوجه : الاول في جباية المال من وجه شرعي ، وصرفه بوجه شرعي . الثاني في اقامة الجهاد والمرابطة في الثغور . الثالث في الانتصاف للظالم من المظلوم ، وكف اليد العادية عن الرعية .

وكان نقده صريحا مكشوفا شديدا ، فقبله هذا الامام الجليل مع ما كان له من الهيبة عند الخاصة والعامة في داخل المملكة وخارجها ، ولم يكن احد يتجرأ على معارضته ، وان جل قدره .

ومن المعلوم ان الشيخ اليوسي كان استاذ اهل زاوية الدلاء وربيب نعمتهم قد ابدا واعاد في مدحهم وموالاتهم ، والحنين اليهم ، وهم من اشد اعداء الدولة العلوية ، ولولا ان الامام اسماعيل كان عنده من تعظيم العلماء ، وخفض الجناح لهم ، وقبول نصحهم ، وان كان مرا ، لاتهم اليوسي لتشيعه لارباب نعمته ، والنظر

الى الحكم العلوي بعين السخط التي تبدي المساوىء ويطش به ، ولكنه رحمه الله كان فوق ذلك . ومن اراد الوقوف على هذه الرسالة ليرى ما فيها من النقد الشديد ، ويعلم فضل الامام اسماعيل ، واذعانه للحق فليقراها في كتاب الاستقصا ص 82 ، ولولا طولها لنقلتها ، ولكني اكتفي بالاحالة عليها . واقتصر على هذا القدر ، لان المقام لا يتسع لاكثر منه في ذكر تمسك هذا الامام بالكتاب والسنة .

اما السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل الذي يسمى بحق : عالم الملوك وملك العلماء، فحدث عن البحر ولا حرج في تمسكه بالكتاب والسنة، ونشره علم الحديث ، وعكوفه على دروسه ، وبذله كل جهد في ذلك ، ولم يكتف بذلك حتى الف كتبا نفيسة خلدت له ذكرا وفخرا لا تمحوه الايام منها مسانيد الائمة الاربعة ، ومنها محاذي الرسالة ، وكان نقادا مجتهدا يكره مختصرات الراي وينفر الناس عنها ، ويرغب في كتب الحديث ، والفقه المبسوطة التي تجعل كل مسالة مقرونة بدليلها من الكتاب والسنة ، وقد ذكرت بشيء من التفصيل مواقف هذا الامام من علوم الكتاب والسنة ، وتنفيره عن الراي والبدعة ، وتمسكه بالعقائد السلفية الخالصة من كل شبهة في الجزء الخاص بامجاد الدولة العلوية من مجلة دعوة الحق الصادر في ذي القعدة 86 هـ مارس 67 م فاغنى عن اعادته هنا ، وقد جبلت الطباع على معاداة المعادات .

وكذلك السلطان مولاي سليمان بن محمد ذكرت في ذلك المقال نبذة من تمسكه بالكتاب والسنة، ووقوفه عند ورود كتاب الامير عبد الله بن سعود امير مكة يشرح فيها دعوة آل سعود ، ودعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمهما الله ، فقد وقف السلطان الجليل المولى سليمان رحمة الله عليه موقف الناقد البصير ، المتحري للحق ، القائل به غير خائف في الله لومة لائم .

ومن المعلوم ان السلطان العثماني كان قد اغتاظ غيظا شديدا على استقلال العرب عن حكمه ، ورجوع امارة بلادهم ، وخصوصا الحرمين الشريفين اللذين كان السلطان العثماني يتخذ الحكم فيهما دليلا على صحة خلافته وشمولها لجميع المسلمين ، حتى يعد من خرج عن حكمه خارجا على امام المسلمين .

ومن المعلوم ان بلاد العرب كلها ، وبلاد الاسلام في افريقيا وآسيا كانت خاضعة للسلاطين آل عثمان الا المملكة المغربية ، فانها لم تخضع قط لهم ، بل كانت تسالمهم اذا سالموها ، وتحاربهم اذا حاربوها ، وكانوا معترفين باستقلال ملوكها . فالملك العلوي سليمان بن محمد لم يبال بعداوة السلطان العثماني لآل سعود ، لانه عزيز مستقل لا يخضع الا لله ، ولم يكن رحمه الله من قلة العلم بالمكان الذي يستطيع جيش العلماء المرتزقة الذين عباتهم السلطنة العثمانية لتكفير آل سعود وتضليلهم ، حسبما سول لها حبها للاستيلاء على بلاد العرب ، اقول : لم يكن هذا الملك الجليل من قلة العلم بالمكان الذي يستطيع فيه اولئك العلماء المرتشون ان يضعوه الى صفوفهم ، وان يلبسوا عليه الحق بالباطل ، ويوهموه ان عقيدة آل سعود ضالة ومخالفة للكتاب والسنة ، كما لبسوا على غيره من الامراء والقادة فاعلن مولاي سليمان موافقته لما يدعو اليه عبد الله بن سعود ، لانه وجده مطابقا للكتاب والسنة ، ولم يكتف بان يجيب رسالة برسالة ، بل اوفد ابنه ابا اسحاق المولى ابراهيم ، ومعه وفد من علماء المغرب الى الامير عبد الله بن سعود ، وبعث معه هدايا وتحفا فاكرم الامير السعودي وفادتهم ، وتباحث العلماء المغاربة برئاسة اميرهم مع العلماء السعوديين برئاسة اميرهم ، فكللت المباحثات بالوفاق التام على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وترك الغلو في قبور الصالحين وغيرهم ، وتجريد توحيد العبادة لله رب العالمين .

وعلى اثر ذلك الف السلطان مولاي سليمان رسالته المشهورة المتضمنة لاتباع الكتاب والسنة ، ومحاربة البدع والمحدثات ، ومنها الغلو في قبور الصالحين الذي يصيرها اوثانا تعبد من دون الله ، وامر ان تقرا على المنابر في جميع انحاء المملكة المغربية ، فتركها منقبة خالدة على مرور الايام ، فرحمه الله واثابه رضاه .

اما الملوك الثلاثة الائمة الابرار الحسن الاول ، وعبد العزيز الاول ، ومحمد الخامس ، فتمسكهم بالكتاب والسنة امر مشهور . اما الحسن الاول ، وعبد العزيز الاول ، فقد حدثني غير واحد من الثقات انهما كانا يعتمدان كل الاعتماد على الامام المحدث المجتهد ، ناصر السنة ، وقامع البدعة ، عبد الله السنوسي نزيل طنجة في آخر حياته ، وبها توفي رحمه الله ، واجل من حدثني عنه العالم السلفي ، والمصلح البر الوفي مولاي عبد العزيز بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن رحمهم الله رحمة واسعة ، وهذا الرجل الكريم ، وان لم ينجح في ايام ملكه لصغر سنه ، وكثرة الفتن ، وفساد الرؤساء ، فقد نجح بعد اعتزاله الملك

ايما نجاح ، فقضى عمره فى دراسة العلوم السلفية مع استاذه المذكور ، ومن سعد بمجالستهما من الناس ، مكثرا من الاعمال الصالحة وافاضة البر والاحسان ، واحيل القاريء الكريم على ما كتبته فى ترجمته فى جزء دعوة الحق من جزء ذي القعدة 86 هـ ما رس 67 م .

ومن اخبار عبد الله السنوسي الطريفة ما حدثني به اخي فى الله العالم السلفي الورع الرباني الاستاذ محمد ابو طالب الادريسي الحسني ، رحمة الله عليه قال : كان عند الفقهاء بفاس احتفال بدعي فى بعض الاضرحة، فانكر عليهم عبد الله السنوسي واعتزلهم فجاءه احد الفقهاء واراد ان يداعبه بكلام يغضبه ليستخرج ما عنده من الدرر التي تجيء عفوا فى حال غضبه فقال له المقولة الجاهلية المشهورة عند المقلدين (نحن خليليون ، ان دخل خليل الجنة دخلناها معه ، وان دخل النار دخلناها معه) فاجابه الامام السنوسي على البديهة بقوله تعالى فى سورة الانبياء (67 اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون) .

اما الامام المنقذ الذي اجرى الله على يديه الكرامة الكبرى ، والمزية العظمى ، وهي تحرير المغارب الثلاثة من براثن عدو قوي ، فصارت له منقبة خالدة لم يسبقه فيها سابق ، ولا لحقه فيها لاحق :

وما احاشي من الاقوام من احد الا شبله وخليفته ووارث سره امام الوقت جلالة الحسن الثاني ايده الله ووفقه وزاده من فضله ، فانه شريكه فى تلك الحركات المباركة التي عم نفعها للاولياء ، وكانت قاصمة الظهر على الاعداء ، اقول : ان الامام محمدا الخامس كان سلفيا ، ليس عنده حجة الا فى كتاب الله وسنة رسوله ، وكان لا يرد ولا يصدر الا عن استشارة العلماء السلفيين كالامام الحجة ، خاتمة المحققين ، بقية السلف ، وعمدة الخلف شعيب الدكالي ، والامام الحجة ، بحر العلوم ، منطوقها والمفهوم ، سيف الله المسلول ، على اهل البدع والغلول ابي مصطفى محمد ابن العربي العلوي الحسني رحمهم الله رحمة واسعة

اما امام الزمان ، ونابغة العصر والاوان ابو محمد الحسن الثاني ، حفظه الله بالسبع المثاني ، فانه سار على سنن سلفه ، وزاده الله من فضله ، فلم يزل يبديء ويعيد ، وتصدر منه المكرمة تلو المكرمة ، والاية بعد الاية ، ومفاخره التي اكرمه الله بها لا يمكن احصاؤها ، فلنقتصر على ما نحن بصدده، وهو التمسك بالكتاب والسنة ، وبذل الجهد فى ذلك.

فانه ايده الله بنصره كان وزيرا لوالده ، ومشاركا له فى سلوكه ومناقبه ، ولما انتقل والده المبرور الى رحمة الله ، وتقلد ابناء الدولة ، سار على ذلك النهج القويم ، واشهد بالله اني سمعت المعلقين السياسيين من البريطانيين يبدون تحفظا شديدا فى استطاعة الحسن الثاني ان يتم حل المشاكل التي بدا يسعى فى حلها والده ، وان يحافظ على الاستقرار ، وهيبة الدولة والصولة التي كانت لوالده رحمه الله فى داخل المملكة وخارجها لعلمهم بصعوبة تلك المشاكل وشدة تعقدها ، ووجود العقاب فى طريق حلها ، واخذ اولئك السياسيون يراقبون سير الحسن الثاني ، ويحصون خطواته ، فاخذ ربيهم يتبختر ويذوب شيئا فشيئا ، فما دار الحول على حكمه حتى زال عنهم كل ريب ، وانطلقت السنتهم بالاعجاب والاجلال .

ومن حدث عما يذاع فى اذاعة لندن العالمية ، فانه لا يفشي سرا ، وقد وفقه الله لحل تلك المشاكل السياسية والاقتصادية على وجه فوق ما كانوا يتصورون ، ثم حدثت له مشاكل اعظم منها ، فسلك فيها مسلك الحكيم البارع المتوكل على الله ، المتبرىء من حوله وقوته ، فخرج منها مظفرا مؤيدا منصورا اقوى مما كان حين دخلها ، وانعقد الاجتماع اليوم على كفاءته ونبوغه ، وكمال سياسته .

اما عنايته بكتاب الله وسنة رسوله ، فقد بذل فى ذلك جهودا محمودة ، وسعى مساعي مشكورة ، فمنها تاسيسه لدار الحديث ، وهي امنية طالما اخذت بالباب الملوك السابقين ، ولكن الله ادخرها لهذا الامام الجليل ، وكم ترك الاول للاخر ، ولا حاجة الى شرح ما لهذه المنقبة من الاهمية ، فانها قائمة بعينها تحدث عن نفسها ، وقد قال النبي (ص) : من احي سنة من سنتي قد اميتت بعدي فله اجر مائة شهيد . وفى دار الحديث احياء سنن كثيرة .

ومنها مدارس القرءان التي امر نصره الله بانشائها فى جميع انحاء المملكة ، ولا تزال فى اول نشاتها لا تخلو من ضعف ، وكذلك الامور فى بدايتها ، واول الغيث قطر ثم ينسكب .

ومنها المحافل القرءانية السنية التي يقيمها في كل سنة ، ويدعو لها كبار العلماء من انحاء الدنيا وارجائها .

ومنها خطبه البليغة التي صرح فيها ايده الله بنصره بوجوب اتباع الحجة ، وترك الراي والتقليد . ومنها كثرة الدعاء فى عهده الميمون الى الاصلاح باتباع

كتاب الله وسنة رسوله ، وترك كل ما خالفهما ، فان ذلك يقع بحضرته الشريفة ، كما هو ظاهر من خطب العلامة الفاروقي ، ويقع في انحاء مختلفة من مملكته المحروسة بالله على أيدي دعاة يصرحون بالحق كله ، ولا يستطيع مخالفوهم على كثرتهم ان يمنعوهم ، وارجو ان أكون منهم ، فاني كنت في العراق قبل ثورة عبد الكريم قاسم ادعو الى اتباع الكتاب والسنة عشرات السنين ، وكان المفسدون والمعارضون كثيرا ما يوسوسون الى ملوك العراق ، ويلقبونني بالقاب تدعو الى الريبة ، فلم ينجحوا قط في ذلك .

فلما جاء عبد الكريم قاسم اشتدت الازمة ، وضاق الحبل على الودج ، لانه اطلق العنان للفوضويين والشيوعيين يقتلون ويخنقون ويسلحون في الشوارع في رابعة النهار ، واخيف العلماء ودعاة الاصلاح ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، وصار الشيوعيون ، وان كانوا كاذبين في شيوعيتهم يتجمهرون امام مسجدنا ، فخاف التلاميذ على انفسهم وتفرقوا ، وكذلك المصلون الجمعة، وما استطعت الخروج من العراق الا بعد اللتي والتي ، فرجعت الى وطني ومسقط راسي ووطن اجدادي ، فوجدت ابوابه مفتحة ، وما رايت من ملكه وزعيمه الامام محمد الخامس الا كل ترحيب واقبال ، وكذلك خلفه الابر الملك العبقري الهمام ابو محمد الحسن الثاني ، زاده الله نصرا على نصر ، وتوفيقا على توفيق ، وخلد ملكه ، واطال عمره ، وبارك في ولي عهده ، واقر به عينه وعين شعبه ، وبارك في جميع آل هذا البيت الكريم .

بقيت لي كلمة اقولها راجيا من ملكنا الهمام ان يتسع صدره لها ، كما اتسع صدر سلفه الامام اسماعيل لنصيحة الشيخ اليوسي ، وهي ان القدر الذي يريده جلالته من اصلاح امور الدين ، وتحقيق اتباع الكتاب والسنة ، قولا وعملا وحكما ، اذ بذلك تنال السعادة العاجلة والآجلة ، ويتشتت شمل الاعداء ، ويقضي عليهم القضاء المبرم ، ويقوم الملك على اساس متين،وتصلح السياسة،ويسعد الراعي والرعية لما نصل اليه حتى الان ، فأرجو من جلالته ، ويشاركني في هذا الرجاء جميع دعاة الاصلاح ان يجرد عزمة حسنية علوية هاشمية لتحقيق تلك الامنية وقطع دابر اهل الفساد ، ولا يعنيه على ذلك ، ويبلغه اليه الا الله وحده ، ثم صالحو المؤمنين .

وانا اعلم بالعقبات الكؤود التي تقف في طريق هذا الاصلاح ، وان الذنب في ذلك ذنبنا جميعا كل على حسب قدرته ، ولكن :

اذا كان عون الله للمرء ناصرا
تهيا له من كل صعب مراده

* * *

واذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن امان

واصطد بها العنقاء فهي حبائل
واقتد بها الجوزاء فهي عنان

وهذه العناية الربانية هي التي نسال الله تعالى ان تكون مصاحبة لعبده الخاضع لامره ، الحسن الثاني وولي عهده سيدي محمد .

منقبة عظيمة للحسن الثاني

كنت اريد ان اخص هذه المنقبة بمقال حتى جاءت هذه المناسبة المباركة ، فليكن جزء مقال ، وهذه المنقبة العظيمة هي طبع كتاب (التمهيد لما في الموطا من الاسانيد) تاليف الامام الحافظ ، امام المغرب الكبير باتفاق ائمة الشرق والغرب العالم البحر ، والمسند الاكبر ، ابي عمر يوسف بن عبد البر النمري رحمه الله، ولا اريد ان اذكر فضائل هذا الامام ، لانها مشهورة ، لها غرر معلومة وحجول ، فهي في كتب اسماء الرجال مبسوطة ، وفي مقدمة كتاب (التمهيد) مسطورة ، ولكني اريد ان اسجل هنا كلمتين اولاهما في المؤلف ـ بكسر اللام ـ وثانيهما في المؤلف ـ بفتحها ـ اما الاولى فقد قال الامام الحافظ ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة (238 حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ما نصه :

وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس ، رواه ابن حاتم عن ابن عمر ، وفي صحته ايضا نظر ، والعجب ان هذا القول اختاره الشيخ ابو عمر بن عبد البر النمري امام ما وراء البحر ، وانها لاحدى الكبر ، اذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا اثر . اهـ

اقول : قد صح عن النبي (ص) بما لا يدع مجالا للشك ان الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، وليس مقصودي تحقيق القول في هذه المسالة ، وانما الذي يهمني هنا هو شهادة ذلك الامام الحافظ لابي عمر بن عبد البر ، بانه امام ما وراء البحر ، ومعنى ذلك انه امام المغرب كله من مصر الى سنكال . وهذه شهادة لها قيمة رفيعة .

أما الثانية فهي مذكورة في مقدمة كتاب التمهيد، وهي للامام الحافظ ابي محمد علي بن حزم رحمه الله قال : التمهيد لصاحبنا ابي عمر بن عبد البر ، لا اعلم في الكلام على فقه الحديث مثله اصلا ، فكيف احسن منه . وقال : وممن ادركنا من اهل العلم على الصفة التي بلغها ، واستحق الاعتداد به في الاختلاف ، مسعود بن سليمان ، ويوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر . انتهى .

ومن اراد ان يعرف قيمة هذه الشهادة فليطالع كتاب المحلى لابن حزم ليرى شدته وصرامته ، وغلظته على مخالفيه كائنين من كانوا ، لا يهاب احدا . ومن المعلوم ان ابن حزم يخالف ابن عبد البر في المذهب اصولا وفروعا ، ولكن عبقريته الانت قناة ابن حزم التي لم تلن قط لغامز ، فهي كقناة عمرو بن كلثوم وقبيلته التي يقول فيها مخاطبا الملك عمرو بن هند :

فان قناتنا يا عمرو اعيت
على الاعداء قبلك ان تلينا

اذا عض الثقاف بها اشمازت
وولته عشوزنة زبونا

عشوزنة اذا انقلبت ارنت
تشج قفا المثقف والجبينا

وقد الف هذا الكتاب العظيم منذ ما يربو عن تسعمائة سنة . ولا شك ان نشره ودراسته التي لا تتاتى الا به لم يزل امنية كل عالم ، وكل ملك وامير ، وكل غني ورئيس ، ومن جملة الملوك الذين كانوا يتمنون نشره السلطان العالم الجليل مولاي عبد العزيز ابن الحسن ، كما اخبرني بذلك مرارا ، واخبرني ان والده السلطان المكرم مولاي الحسن بن محمد اعطاه نسخة مخطوطة من التمهيد قال : وهي باقية ضمن كتبي بفاس ، وسبب اختياره لي بذلك لاول مرة انني قلت له : اني سمعت ان الامام عبد الله السنوسي كانت عنده نسخة كاملة من التمهيد ، فقال لي : لا ادري ، ثم ذكر لي الخبر المتقدم ، ومنه تعلم عناية السلطان مولاي الحسن بن محمد بهذا الكتاب ايضا ، فلم يتح لواحد منهم ان ينشره ، لا بتكثير المخطوطات ، ولا بالطبع حتى كاد ينقرض ، ولكنها مكرمة ومفخرة ادخرها الله تعالى لجلالة الملك الحسن الثاني ، وهي يد بيضاء على كل طالب علم وعالم ، لا من المسلمين فقط ، بل من جميع البشر ، فلا توجد خزانة في الدنيا ، لا في امريكا ولا في اوربا ، ولا في آسيا تستغني عن نسخة فاكثر ، ولا اقصد خزائن الافراد ، بل جميع الخزائن العامة التابعة للجامعات وغيرها .

وسيحدث نشر هذا الكتاب انقلابا عظيما في دراسات الفقه على جميع المذاهب الاسلامية ، ولذلك التمس بالنيابة عن كل طالب علم في الدنيا من جلالة الملك المظفر ، ثم من معالي وزير الاوقاف الاستاذ الحازم السيد الحاج احمد بركاش التعجيل بانجاز طبع هذا الكتاب ، وبذل كل جهد في ذلك ، فان للتأخير آفات .

ولي التماس آخر ، وهو ان يباع الكتاب بالدراهم وان لا يوهب الا لضرورة ، او للخزائن العامة ، اما العلماء وطلبة العلم ، ومن يريدون ان يزينوا خزائنهم ، فالواجب الحتم ان يؤدوا ثمنه ، وحسب الوزارة كرما ان يكون الثمن معتدلا ، فان هذا الكتاب لا ينشر النشر اللائق به الا اذا بيع ، وحجتي على ما ذكرت القصة التالية :

من المعلوم ان الكاتب القصصي (برناردشو) الانكليزي الشهير ، كانت القصة الواحدة من تاليفه يبلغ حق طبعها عشرين الف جنيه فاكثر ، وتتنافس فيها الدول لا الناشرون فقط ، ومن المأثور عنه انه الف كتابا ، فلما طبع ، كتبت اليه رئيسة نادٍ نسائي تلتمس منه ان يقدم لخزانة النادي نسخة من ذلك الكتاب على سبيل الهدية ، فكتب لها في الجواب : ان الكتاب الذي لا يدفع ثمنه لا يقرأ ، فصدمت بخيبة الامل ، وقصدت بائع كتب لتشتري نسخة من ذلك الكتاب ، واشتكت لذلك البائع غلبة المادية على المؤلفين وبخلهم وزهدهم في التبرع للنوادي الخيرية ، وحكت له قصتها مع برناردشو ، فقال لها : واين جواب برناردشو الذي كتب اليك ؟ فارته اياه ، فقال لها : انا اقبل هذا الجواب ثمنا لنسخة من الكتاب ، ففرحت بذلك ومنحته اياه ، فباعه هو من شخص آخر يجمع الآثار والتواقيع بخمسة دنانير .

اقول هذا : وانا مستعد ان ادفع ثمن النسخة من كتاب التمهيد التي تكرمت وزارة الاوقاف الموقرة باهدائها الي المجلد الاول منها . والذي يحملني على ذلك حرصي على نشر هذا الكتاب ، فجزى الله الملك الحسن الثاني على هذه اليد البيضاء احسن الجزاء ، ووفقه الى امثالها وامثال امثالها انه سميع مجيب .

مكناس : الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

التمسك بالكتاب والسنة في تاريخ ملوك المغرب ونتائجه الحسنة

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

كل من نظر في تاريخ هذه الدولة المغربية منذ نشاتها على يد ادريس الاول رحمه الله الى دولة جلالة الحسن الثاني ايده الله وسدد خطاه ، يجد ان العز والنصر والسعد والاقبال كلها مقرونة بالتمسك بالكتاب والسنة علما وتعليما وعملا وتحكيما ومتابعة . وساذكر هنا نموذجا لذلك . ليكون القارىء على بصيرة واطمئنان بالدليل القاطع والبرهان الساطع .

قال ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، في كتاب الاستقصا اثناء الكلام في دولة امير المومنين عبد المومن بن علي الكومي رحمه الله في الجزء الثاني صفحة 127 ـ مطبعة الدار البيضاء سنة 1954 م. الموافق لسنة 1374 هـ تقريبا ما نصه : ولما كانت سنة خمسين وخمسمائة امر امير المومنين عبد المومن بن علي باصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه وبتغيير المنكرات ما كانت وامر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة كتب الحديث واستنباط الاحكام منها وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة فجزاه الله خيرا ...

وقول المؤلف المذكور بعد نقله هذا الخبر (فجزاه الله خيرا) يدل على استحسانه لذلك مع انه كان يعيش في العقد الثاني من هذا القرن الرابع عشر. ومن ذلك نعلم ان المحبين لاتباع الكتاب والسنة ونبذ آراء الرجال غير المعصومين لم يخل منهم زمان وان كان عددهم قليلا في العصور المتاخرة . وسانقل من كلام الامام الحافظ ابي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي الذي شرح كتاب الموطا لامام مالك رحمه الله ثلاثة شروح شرح مطول. وشرح متوسط. وشرح مختصر . والشرح المطول هو كتاب « التمهيد » الذي امر بطبعه جلالة الملك الحسن الثاني وفقه الله . وقد طبع منه الى الان ستة من

المجلدات ، لا يزال طبعه جاريا ببطء شديد يتأسف له . وهذه مزية عظيمة اذخرها الله تعالى لجلالة الملك الحسن الثاني . ولم يوفق لها اي ملك قبله . وقد مضى على تأليف هذا الكتاب اكثر من تسع مائة وخمسين سنة . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . اقول سانقل من كتاب الامام ابن عبد البر الذي سماه جامع بيان العلم وفضله ، من الادلة وكلام الائمة ما يؤيد ما فعله الملك عبد المومن بن علي رحمه الله حتى يتبين للقارىء الكريم انه الحق المبين ، الذي لا تسعد امة مسلمة بدونه .

قال الحافظ ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله في الصفحة 32 من الجزء الثاني بسنده المتصل الى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « انما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فمن قال بعد ذلك شيئا برايه فما ادرى افي حسناته يجده ام في سيئاته »

ثم روى بسنده الى المزني والربيع بن سليمان، قالا ، قال الشافعي ليس لاحد ان يقول في شيء حلال ولا حرام الا من جهة العلم . وجهة العلم ما نص في الكتاب او في السنة او في الاجماع او القياس على هذه الاصول ما في معناها . قال : قال ابو عمر بن عبد البر : اما الاجماع فماخوذ من قول الله : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » لان الاختلاف لا يصح مع هذا الظاهر . وعندي ان اجماع الصحابة لا يجوز خلافهم . والله اعلم . لانه لا يجوز على جميعهم جهل التاويل . وفي قول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » دليل على ان جماعتهم اذا اجتمعوا حجة على من خالفهم . كما ان الرسول حجة على جميعهم . ودلائل الاجماع من الكتاب والسنة كثيرة ليس كتابنا هذا موضعا لتقصيها . وبالله التوفيق .

يقول كاتب هذا المقال ، ويؤيد ما قاله الحافظ ابن عبد البر ، في اجماع الصحابة قوله تعالى في سورة التوبة رقم 100 : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم » . وقال بعض الائمة شعرا :

العلم قال الله قال رسوله
قال الصحابة ليس خلف فيه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة
بين الرسول وبين قول فقيه

ثم قال ابو عمر في الجزء الثاني من الكتاب المذكور صفحة 133 باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع . قد ذم الله تبارك وتعالى ، التقليد في غير موضع من كتابه ، فقال : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » . وروى عن حذيفة وغيره قالوا لم يعبدوهم من دون الله . ولكنهم احلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم .

وقال عدي بن حاتم . اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب فقال لي (يا عدي القِ عنك هذا الوثن من عنقك) وانتهيت اليه وهو يقرا سورة براءة حتى اتى على هذه الآية : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » قال : قلت : يا رسول الله انا لم نتخذهم اربابا . قال بلى ، اليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما احل الله فتحرمونه . فقلت بلى . فقال تلك عبادتهم .

ثم روى بسنده الى ابي البختري في قوله عز وجل « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله» قال . اما انهم لو امروهم ان يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ولكنهم امروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فاطاعوهم وكانت تلك الربوبية » . وقال عز وجل « وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون . قل اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم » فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا « انا بما ارسلتم به كافرون » . وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وقال : « اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرا منهم كما تبرأوا منا . كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم » . وقال عز وجل عائبا لاهل الكفر

قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون
سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا » ومثل هذا في القرءان الكريم كثير في ذم تقليد الآباء والرؤساء وقد احتج العلماء بهذه الآيات في ابطال التقليد . ولم يمنعهم كفر اولئك في الاحتجاج بها . لان التشبيه لم يقع من جهة كفر احدهما وايمان الآخر . وانما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد . كما لو قلد رجل فكفر . وقلد آخر فاذنب فقلد آخر في مسالة دنياه فاخطأ وجهها كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لان كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وان اختلفت الاثام فيه ، وقال الله جل وعز : « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » . وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب قبل هذا وفي ثبوته ابطال التقليد ايضا ، فاذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للاصول التي يجب التسليم لها وهي الكتاب والسنة او ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك ، ثم روى ابو عمر بسنده الى كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف المزني عن ابيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « تركت فيكم امرين : لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله » . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم مما قد ذكرناه انه قال : « تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالا يسالون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون » وهذا كله نفي للتقليد وابطال له لمن فهمه وهدى لرشده .

وعن سفيان بن عيينة ، قال : اضطجع ربيعة مقنعا راسه وبكى . فقيل له ما يبكيك ؟ فقال رياء ظاهر ، وشهوة خفية والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور امهاتهم وما نهوهم عنه انتهوا وما امروهم به ائتمروا . وقال ايوب رحمه الله : ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره . وهذا كله لغير العامة فان العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها لانها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل بعدم الفهم الى علم ذلك لان العلم درجات لا سبيل منها الى اعلاها الا بنيل اسفلها . وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة والله أعلم .

ولم تختلف العلماء ان العامة عليها تقليد علمائها وانهم المرادون بقول الله عز وجل : « فاسألوا أهل اشكلت عليه . فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه . وكذلك لم يختلف العلماء ان العامة لا يجوز لهم الفتيا وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم وقد نظمت في التقليد وموضعه ابياتا رجوت في ذلك جزيل الاجر لما علمت ان من الناس من يسرع اليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور وهي من قصيدة لي :

يا سائلي عن موضع التقليد خذ
مني الجواب بفهم لب حاضر

واصغ الى قولي ودن بنصيحتي
واحفظ على بوادري ونوادري

لا فرق بين مقلد وبهيمة
تنقاد بين جنادل ودعائر

تبا لقاضي او لمفت لا يرى
عللا ومعنى للمقال السائر

فاذا اقتديت فبالكتاب وسنة الـ
ـمبعوث بالدين الحنيف الطاهر

ثم الصحابة عند عدمك سنة
فاولاك اهل نهى واهل بصائر

وكذلك اجماع الذين يلونهم
من تابعيهم كابرا عن كابر

اجماع امتنا وقول نبينا
مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر

وكذا المدينة حجة ان اجمعوا
متتابعين اوائلا باواخر

واذا الخلاف اتى فدونك فاجتهد
ومع الدليل فمل بفهم وافر

وعلى الاصول فقس فروعك لا تقس
فرعا بفرع كالجهول الحائر

والشر ما فيه ـ فديتك ـ اسوة
فانظر ولا تحفل بزلة ماهر

وأريد أن أشرح هذه الابيات . لان بعض القراء يعسر عليه فهمها :

يا سائلي عن موضع التقليد خذ
مني الجواب بفهم لب حاضـــر

المعنى أيها السائل عن التقليد بالنسبة الى المفتي العالم بالادلة الشرعية والمستفتي الجاهل العامي العاجز عن معرفتها خذ مني جوابا شافيا . وتأمله بقلب وفهم حاضر غير غافل .

واصغ الى قولي ودن بنصيحتي
واحفـظ على بوادري ونوادري

معنى أصغ . استمع . ودن بنصيحتي ، اتخذها دينا تدين الله به . واحفظ على بوادري . قال صاحب القاموس البادرة ما يبدر من حدتك في الغضب من قول أو فعل . والمراد بالبوادر هنا اقوال الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر في حدة غضبه على المفتي بالتقليد . والنوادر . الفوائد التي يندر وجودها . أي يقـــل .

لا فرق بين مقلـد وبهيمـة
تنقاد بين جنـادل ودعائـر

يقول الحافظ لا فرق بين بهيمة يقودها صاحبها حيث شاء لا ارادة لها ولا علم لها اين يذهب بها فكذلك المقلد الذي عجز عن معرفة الحكم وعميت بصيرته عن استنباطه من ادلة الكتاب والسنة فسأل غيره من أهل العلم فافتاه فاخذ الفتوى وعمل بها وهو جاهل بدليلها . والجنادل جمع جندل بفتح فسكون ففتح هو ما يحمله الرجل من الحجارة قالـه في القاموس والدعائر جمع دعثور بحذف الياء وهو المكان المحفور.

تبا لقاضي أو لمفت لا يـــرى
عللا ومعنى للمقال السائـــر

التب والتباب الهلاك . والمراد هنا المفتي بلا دليل بل بمجرد التقليد والقاضي الذي يصدر الاحكام في الدماء والاموال والفروج وهو لا يعلم دليلها .

فاذا اقتديت فبالكتاب وسنة الـ
ـمبعوث بالدين الحنيف الطاهر

يقول يجب عليك أيها المفتي او القاضي الا تفتي ولا تقضي الا بدليل من الكتاب او السنة او منهمـا جميعـــا .

ثم الصحابة عند عدمـك سنـــة
فأولاك أهل نهى وأهل بصائـــر

يقول اذا لم تجد دليلا لا في الكتـــاب ولا في السنة ووجدت الصحابة قد اتفقوا على حكم او افتى به جماعة منهم ولم يخالفهم غيرهم فاياك ان تخالـف اجماعهم فانه حجة . قال الله تعالى في سورة التوبة: « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه . واعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم » . وقد تقدمت هذه الآية . امـا اذا اختلف الصحابة فمن بعدهم . فالواجب بذل الجهد في الترجيح بالدليل لا بالتقليد وآراء الرجال غيـر المعصومين من الخطأ .

وكذلك اجماع الذين يلونهـــم
من تابعيهم كابرا عـن كابـــر

يقول وكذلك اجماع السلف من ائمة التابعيـن ومن بعدهـم حجـة .

اجماع امتنا وقـول نبينـــا
مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر

يقول كما أن نصوص الكتاب العزيز وحديـث رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة فكذلك اجماع الامة أي اجماع علمائها الذين يحكمـون بالادلـة لا المقلدين فانهم ليسوا من العلماء كما تقدم .

وكذا المدينة حجة ان اجمعـوا
متتابعيـن أوائلا بأواخـــر

يقول وكذلك اجماع علماء المدينة من الصحابة والتابعين وتابعيهم اذا لم يوجد نص من الكتـاب او السنة حجة وهذا احسن ما قيل في عمل اهل المدينة.

واذا الخلاف اتى فدونك فاجتهد
ومع الدليل فمل بفهم وافـــر

يقول واذا اختلف الائمة في مسالة فابذل جهدك في ترجيح احد القولين او الاقوال بالدليل لا بالتقليد والتعصـــب .

وعلى الاصول فقس فروعك لا تقس
فرعا بفرع كالجهول الحائـــر

يقول : واذا اضطررت الى القياس عند فقدك نص القرءان او السنة او الاجماع فقس الفروع على الاصول ، والمراد بالاصول آيات القرءان والاحاديث الصحيحة او الحسنة ، والمراد بالفروع ما افتى به احد الائمة بلا دليل مثال ذلك ، اخراج صدقة الفطر من الارز في شرقي الهند وما بعـده الى الصيـن واليابان فهو فرع ، والاصل حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعا من تمر او صاعا مـن شعير على العبد والحر والذكر والانثى والصغيـر والكبير من المسلمين وامر بها ان تؤدى قبل خروج الناس الى الصلاة متفق عليه .

وعن ابي سعيد الخدري ، قال : كنا نعطيها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم صاعا من طعـام او صاعا من تمر او صاعا من شعير او صاعا من زبيـب متفق عليه . وفي رواية او صاعا من اقط ، قال ابو سعيد : اما انا فلا ازال اخرجه كما كنت ، اخرجه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولابي داود لا اخرج ابدا الا صاعا . والمراد بالطعام هنا البـر . وقول ابي سعيد . اما انا فلا اخرج الا صاعا رد على من قال في اول عهد بني امية ان نصف صاع من بر يعدل صاعا من شعير . فقياس الارز على هذه الاصناف في البلاد التي يكون غالب قوتها منه قياس فرع على اصل فان المراد بزكاة الفطر اغناء المساكين عـن الطواف على البيوت لسؤال الطعام . وفي البلاد التي تقدم ذكرها لا يغني المساكين ويشبعهم الا الارز . والاقط ، هو اللبن المخيض مجففا يابسا ، وشـرح ذلك ان اللبن الحليب اذا كثر عند اهل البادية يجعلونه رائبا ثم يضعونه في الشكوة وهي وعاء من جلد مدبوغ لا شعر فيه ولا صوف يمخض فيها اللبن حتى تجتمع الزبدة فتخرج من اللبن ويكون معدا للشرب فاذا زاد عن الحاجة طبخ في قدر فيتميز اللبن وينعقد ويخرج ما يتولد منه من الماء فذلك اللبن المتكتل هو الاقط واذا زاد عن الحاجة يوضع في الشمس حتى ييبس فذلك هو الاقط المذكور . في حديث ابي سعيد الخدري وفي بادية نجد يقدمونه للضيف مع السمن المـذاب فيكون بدلا من الخبز عندهم وانما يعيشون باللبـن المخيض المنزوع الزبدة حتى اذا جاءهم ضيف عزيز ذبحوا له شاة وطبخوا الارز وجعلوه مع اللحم مشويا او مطبوخا فتلك الضيافة الكبرى عندهم ، وهم اقوياء الابدان ، رايت الشيوخ البالغين من العمر ستين سنة لا يرضون ان ينيخوا البعير ليركبوه بل يثبون عليـه وثبا فيجلس احدهم على ظهره .

والشر ما فيه ـ فديتك ـ اسوة
فانظر ولا تحفل بزلة ماهـــر

يقول : ان التقليد في الدين شر ، فلا تقتـد باهله واذا زل العالم المتبحر في العلم وتبين خطأ ما ذهب اليه فلا تتبعه في زلته تقليدا بل انظر في الادلة ورجح ما رجحه الدليل . انتهى شرح القصيدة .

ثم روى ابو عمر بن عبد البر رحمه الله بسنده المتصل عن ابي هريرة ، ان النبي صلى الله عليـه وسلم قال : (من قال على ما لم اقل فليتبوأ مقعـده من النار ، ومن استشار اخاه فاشار عليه بغير رشده فقد خانه ، ومن افتى بفتيا عن غير تثبت فانما اثمها على من افتـاه) .

ثم قال ابو عمر وقد احتج جماعة من الفقـاء واهل النظر على من اجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم فاحسن ما رايت من ذلك قول المزنـي رحمه الله . وانا اورده . قال : يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به ؟ فان قال نعم ابطل التقليد . لان الحجة اوجبت ذلك عنده لا التقليد . وان قال حكمت فيه بغير حجة قيل له فلم ارقـت الدماء وابحت الفروج واتلفت الاموال وقد حرم الله ذلك الا بحجة . قال الله جل وعز « هل عندكم مـن سلطان بهذا » اي من حجة بهذا . قال فان قال انـا اعلم اني قد اصبت وان لم اعرف الحجة لاني قلدت كبيرا من العلماء وهو لا يقول الا بحجة خفيت علي .

قيل له اذا جاز لك تقليد معلمك لانه لا يقول الا بحجة خفيت عليك فقلد معلم معلمك لانه لا يقول الا بحجة خفيت على معلمك . فان قال نعم ترك تقليد معلمه الى تقليد معلم معلمه . وكذلك من هو اعلى حتى ينتهي الامر الى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وان ابى ذلك نقض قوله وقيل له كيف تجوز تقليد من هو اصغر منك واقل علما ولا يجوز تقليد من هو اكبر واكثر علما ؟ وهذا متناقض . فان قال : لان معلمي وان كان اصغر فقد جمع علم من هو فوقه الى علمه . فهو ابصر بما اخذ واعلم بما ترك قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه الى علمه فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك وكذلك انت اولى ان تقلد نفسك من معلمك لانك جمعت علم معلمك وعلم من فوقه الى معلمك فان اعاد قوله جعل الاصغر ومن يحدث من صغار العلماء اولى بالتقليد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله . والاعلى الادنى ابدا . وكفى بقول يؤول الى هذا قبحا وفسادا .

قال ابو عمر وقال اهل العلم والنظر حد العلم التبيين وادراك المعلوم على ما هو به . فمن بان له الشيء فقد علمه . قالوا والمقلد لا علم له . ولم يختلفوا في ذلك ، ومن ههنا والله اعلم ، قال البحتري:

عرف العالمون فضلك بالعلـ
ـم وقال الجهال بالتقليد

وارى الناس مجمعين على
فضلك من بين سيد ومسود

اقول وصاحب الجلالة ملكنا الحسن الثاني ادام الله توفيقه للخير واعانه عليه جدير بان ينسج على هذا المنوال وبذلك يحيي سنة جده المصطفى صلى الله عليه وسلم . ويعيد للشريعة الغراء عزها ونصرها وفي ذلك سعادة العاجل والآجل له ولشعبه ولجميع المسلمين . وحينئذ ينشد قول الشاعر :

لسنا وان احسابنا كرمت
يوما على الاحساب نتكل

نبني كما كانت اوائلنا تبني
ونفعل مثل ما فعلوا

مكناس : د. محمد تقي الدين الهلالي

معارضة لنونية ابن زيدون

للدكتور تقي الدين الهلالي

وافتنا هذه القصيدة العذرية الرقيقة التي جادت بها قريحة الدكتور الاديب تقي الدين الهلالي يعارض بها القصيدة الغرامية المشهورة للاديب الاندلسي ابن زيدون فاحببنا ان نتحف بها قراء دعوة الحق في عددها الممتاز :

هل بعد عشر مضت بالبين تكوينا ... يغير الدهر يوما حكمه فينا

وهل ظلام الاسى الغاشي لانفسنا ... يجلوه نور ابتهاج من تلاقينا

متنا ونحن مع الاحياء بعدكم ... من لوعة واسى قد كاد يفنينا

وما لنا باعث الا لقاؤكم ... فالبين يقتلنا والوصل يحيينا

فالشمس ليست بشمس بعد بعدكم ... والبدر ليس ببدر في نواحينا

عم الظلام فلا نور يلوح لنا ... الا سنى امل يبدو احايينا

يامن لقلب غدا بالشوق محترقا ... يذيقه الوجد الما افانينا

يا جنة كان فيها عيشنا رغدا ... ولدانها من رحيق الانس تسقينا

رضوانها بالرضا والبشر يلحظنا ... وماء كوثرها السلسال يروينا

وريح ازهارها بالعطر تبهجنا ... وظل اشجارها الالفاف يؤوينا

وخمرها دون غول السكر تثملنا ... والطير فوق افانين تغنينا

والدهر في سنة والسعد منتبه ... حال بها شرقت غيظا اعادينا

حتى اتانا مريد البين يخدعنا ... بالاكل من دوحة الآمال يغرينا

لما اكلنا من المحظور بان لنا ... انا اقتطفنا رزايانا بايدينا

فاصبح الوصل بينا والصفا كدرا ... والانس حزنا وكاس الراح غسلينا

وقد هبطنا وامر الله ليس له ... رد الى الارض اشتاتا مثاوبنا
فالشمل مفترق والهم مجتمع ... والشوق يبسطنا والياس يطوينا
لو كان شوق مقل جسم صاحبه ... لكان عن طائرات الجو يغنينا
وان عتبنا على الايام جفوتها ... او اشتكينا لها مما يعنينا
فقد عتبنا على من ليس يعتبنا ... وقد شكونا الى من ليس يشكينا
لا يأس من رحمة الوهاب ان له ... لطفا بعاصفة الباساء مقرونا
عسى الذي قد شفا يعقوب من حزن ... ورد ملك سليمان سيشفينا
يا نازحين وهم فى القلب قد سكنوا ... وغائبين وهم فى الذكر تاوونا
انا نحييكم مع كل شارقة ... وكل غاربة دوما فحيونا
وطالما هب من ارجائكم ارج ... مع الصبا فملا طيبا مغانينا
ما سرنا بعدكم شيء يلذ لنا ... الا وذكراكم تاتي فتشجينا
ولا غفونا غرارا فى مضاجعنا ... الا وطيفكم باد يناجينا
وزادني حزنا علمي بانكم ... مثل الذي انا لاقيه تقاسونا
نعلل النفس بالآمال نبسطها ... حينا وتغلبنا اشجانا حينا
فالقلب منفطر والدمع منهمر ... والصبر منعدم والشوق يبرينا
انا قرانا الاسى يوم النوى سورا ... لكننا لم نلق الصبر تلقينا
بان الحبيب فلا شيء يصبرنا ... عنه ولا شيء فى الدنيا يسلينا
من كانت الراح والاوتار تشغله ... فما اقام على الحب البراهينا
والحب ذو درجات لاتعد وقد ... حزنا اعاليها بين المحبينا
خلع العذار غدا فى الحب مذهبنا ... بحنا استرحنا ولم نعبأ بواشينا
حتى لقد عدل العذال عن عذل ... لما راوا قولهم بالحب يغرينا
وليس يشفي وصال بات مختلسا ... والقلب يخفق خوفا من مراعينا
والحب دون عفاف لابقاء له ... فليس غير الهوى العذري يرضينا
احبابنا ما شككنا فى وفالكم ... ولا نرى انكم فينا تشكونا
وان يكن حال بعد دون وصلكم ... فانتم على وداد لا تحولونا
ونحن نعلم لاريب يخامرنا ... بانكم مثل ما نلقي تلاقونا
والغدر فى الحب ذنب ليس يغفره ... الا الذي حاد عن نهج المحقينا
لا خير فى ثقة ليست مبادلة ... بين المحبين اخلاصا وتمكينا
عليكم من سلام الله اطيبه ... ما غنت الورق فى الاغصان تلحينا
وفاح مسك وما هب النسيم على ... روض يضاحك فيه الورد يسرينا
وما تحرك قلب من صبابته ... فعاد تحريكه بالوصل تسكينا

دراسات إسلامية

الزمان

بقلم الدكتور تقي الدين الهلالي

- 18 -

الكلام في الزمان وما اودع الله فيه من الاسرار ، هو الفصل الثالث عشر من كتاب (ليس الانسان مهملا) قال مؤلفه : ان العلم التام بوجود الزمان خاص بحياة الحيوان . والانسان وحده هو الذي يقيسه ويوزعه. والعناصر التي تتالف منها الاشياء كلها من النادر ان تتغير على مر الزمان . وقد تتالف العناصر الكيميائية او تفترق ، غير ان الزمان وان كان ضروريا لانجاز تغير كيميائي ، فلا اهمية له بالنسبة للذرات . ومع ذلك نرى عصا من الديناميت تتحول من مادة صلبة الى غاز في جزء من خمسة وعشرين الف جزء من الثانية ، ولكن الذرات لا تتغير .

يمكن ان يرتفع جبل من مكانه ثم يتفتت ويصير هباء منثورا ، ولكن الذرة المحبوسة في قلبه لا تنتظر بقلق الوقت الذي تتحلل فيه الصخرة لتخرج من سجنها وتصير حرة ، ولو ان الكتروناتها تدور كالمغزل في افلاكها على الدوام . ان كامرتك تلتقط الصورة في جزء من مائة جزء من الثانية باهتزاز قدره الف وثمانمائة ميل في الاثير الفضائي لاحداث التغير الكيميائي . وهكذا تسجل الافلام بالالوان كل ما في المنظر من جمال . فالذرات تهتز ويعاد تنظيمها ولكنها لا تتغير .

ويظهر ان الاشياء الحية تقيس الزمن ، غير ان الجمادات الخالية من الحياة هي التي تسجله . ان مياه الانهار الجليدية التي سالت بعد ما ذابت في العصر الجليدي قد تركت طبقات من الصلصال تدل على كل سنة مضت على حدتها ، وتخبر ولو بطريق غير دقيق على مراتب درجات الحرارة التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، وكذلك الطبقات الكلسية التي تتكون في سقوف الكهوف . والطبقات التي تعلو ارضها من الرواسب باشكال مخروطية تفعل مثل ذلك لمائة الف سنة واكثر ، ولكنها لا تدري ماذا صنعت .

ان الراديوم والرصاص تتغير نسبهما في الصخور الصم فتخبر ببليون من السنين منذ استقرار الارض ، ولا تفكر في الماضي اصلا . ولا تستطيع الكائنات الحية ان تدرك كنه الزمان ، لان الحياة لها غايتها ، والفرد وجوده ينتهي وينقضي قبل انقضائها ، وليس هنالك كائن حي في حالته الطبيعية يستطيع ان يقيس الزمان في وعي وانتباه ، ولكن الزمان ياتي على جميع الكائنات الحية ويسود تقلباتها واعمالها من الولادة الى الوفاة .

وقد انكشف ان هناك شيئا يسمى الزمان البيولوجي (اي الخاص بعلم الاحياء) . ويظهر ان الزمان بالنسبة للصبيان يسير ببطء . اما بالنسبة للطاعنين في السن فيظهر انه يجري بسرعة عظيمة . وهذه الظاهرة المعروفة قد وجد انها مرتكزة على دورة حياة الخلايا . ويمكن ان يعبر عن ذلك بايسر طريق فيقال ، ان خلايا كل مخلوق حي تتطور بسرعة في ابتداء الحياة ، ثم تاخذ في البطء كل ما دنت من نهايتها . واذا تكلمنا على ذلك من وجهة علم الاحياء نقول : ان كثرة حوادث الخلايا التي تقع في الطفولة تجعل الطفل يشعر بطول الزمان كالمسجون على حين ان بطء عمل الخلايا في الكبير، يشعر المسن ان الزمان يجري بسرعة . ويظهر ان دورة الحياة لا علاقة لها

بالزمان المطلق الذي نقيسه بحركات الاجرام السماوية . فالمكروب يتوالد ويتكاثر فى ساعة واحدة. اما الانسان فلا يتناسل الا فى سنين عديدة . وذبابة مايو لا تستطيع ان تقيس الزمان تحت الماء ، لكن كل جيل من نسلها يعيش فى حياة سعيدة تحت الشمس . هل يمكن ان يكون العلماء على صواب فى قولهم ، اننا اذا صرنا الى دار الخلود سنقيس الزمان بالحوادث ، لا بالفلك ؟ .

والاسماك فى البحر لها وقتها الذي تضع فيه بيضها ، ولكنها فى ذلك انما تطيع قانون الطبيعة ، ولا تعرف لماذا تفعل ذلك . والزرع والحصاد لهما وقتهما، وقد تحصد مساحات شاسعات من الزرع ، اي يحين وقت حصادها فى يوم واحد . اما الاشجار فلا تثمر الا بعد مضي سنين عديدة على غرسها . وحلقاتها السنوية تسجل اعمارها .

وقد وجد ان بعض الصراصير تصر مرات معلومةطبقا لدرجات الحرارة ، وقد احصيت مرات صريرها بدقة ، فوجد انها تسجل درجات الحرارة مع فرق درجتين . وقد روقب صرصور لمدة ثمانية عشر يوما فوجد انه يبدا اغنية حبه او فرحه كل يوم قبل الساعة الاصلية بخمس دقائق . وهناك نوع من البط فى قناة باوربا يجيء بانتظام الى جسر لاجل الغذاء كل يوم فى ساعة معينة ويضرب جرسا قد اعد له . والطير لها وقتها الذي تطير فيه من الشمال الى الجنوب ، وكل فرد منها يلتحق بسربه فى الوقت المعلوم ، ثم تطير كل سنة فى يوم يكاد يكون محددا معلوما . وذباب مايو يخرج من البحيرات فيطير طيران العرس ، وتسقط منه ملايين ميتة فى الشوارع فى اليوم نفسه .

والجراد البالغ من العمر سبع عشرة سنة فى (نيوانكلاند) يعيش فى غيران تحت الارض ، حيث يقيم فى الظلام مع تغير قليل فى الحرارة ، ويظهر بملايين فى شهر مايو من سنته السابعة عشرة . وقد يتخلف بعض المتعثر منه عن سائره بالطبع ، ولكن اكثره يتم نموه فى تلك السنوات المظلمة ، ويضبط يوم ظهوره بدون سابقة ترشده الى ذلك .

ودودة البوصة تدب بانتظام عظيم من مكان الى ءاخر ، ولو استطاعت ان تعد لامكنها ان تقيس الوقت والمسافة بعدد قفزاتها . ولكن لا حاجة بها الى ان تقيسهما . فلا تضحك من قفزتها ، لاننا معشر البشر نقيس المسافة بالقدم ، (وانما نسبت الى البوصة لان كل قفزة من قفزاتها بقدر بوصة) .

كل حي على العموم يراقب الزمان ويسجله بالعمل ، ولكنه لا يبدي دليلا على توقيت واع . ويظهر ان الفصول الاربعة ، ودرجة الحرارة ، والنهار والليل، والمد الفائض ، كلها ضوابط لاطراد الحياة . وقد اوجد التطور عادات لقياس الوقت بغير شعور ، وهي تعمل بطريقة اوتوماتيكية كنبضات القلب والهضم . وكثير من الناس يعتاد ان يستيقظ فى ساعة بعينها ، فيستيقظ فى ذلك الوقت بالضبط بدون ساعة منبهة، وسواء انام فى الوقت المعتاد ام بعده ، لابد ان يستيقظ فى ذلك الوقت . وقد اضاف الانسان الزمان الى المادة التي لا زمان لها . والزمان لا يمكن وزنه ولا تحليله . فهو بالنسبة الينا يتعلق بهذه الارض وحدها ، ومقاييسنا للزمان يمكن ان لا يكون لها تعلق بالعالم فى مجموعة ، ولكن الزمان يملي علينا دوافع بدون شعور منا ، وقد بلغت هذه الدوافع فى القوة الى حد انها تتحكم فى كل كائن حي . والانسان من حيث هو حيوان ليس له شعورخاص بالزمان ، ولكنه يستطيعان يضبط الى حد محدود اثر الزمان فى دوافعه . فالانسان البدائي لا يستطيع ان يخبركم كم عاش من الزمان الا بمقارنة الحوادث . فالاعداد بالنسبة اليه تدل على قليل او كثير لا يميز بينهما . اما الانسان العصري فقد ينسى مثلا ايام ذكرياته السنوية ، ولكن زوجته لا تنساها ، فهل المراة مرتقية اكثر من الرجل ام تطالع التقاويم خفية ؟ لا هو ولا هي يستطيعان ان يحددا اليوم الرابع والعشرين من مايو بعد سبع عشرة سنة كما يفعل الجراد فى الظلام .

تعليقات :

1) قوله ان الزمان لا اهمية له بالنسبة الى العناصر، وهي الذرات التي تتالف منها الاشياء ، هذا مبني على راي الفلاسفة وغيرهم من العلماء الذين يقولون ، ان المادة لا تفنى ، وانما تتحلل لتتركب من جديد وتكون شيئا ءاخر . وكان ابو العلاء المعري على هذا الراي ، وقد صرح بذلك فى قصيدته الدالية التي يقول فيها :

صاح هذي قبورنا تملأ الار
ض فاين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما اظن اديم الار
ض الا من هذه الاجساد

وقبيح بنا وان قدم العهـ
ـد هواذ الابـاء والاجـداد

وتسمى المادة التي اشار اليها المصنف عند فلاسفة العرب ، الهيولي. فكل مركب عندهم اذا تحلل يعود الى هيولاه . فالذي يتغير ، انما هو المركبات بصورها واشكالها ، واما الهيولي فلا تتغير ابدا .

2) ضرب المصنف المثل بعصا الديناميت ، وبين ان عصا الديناميت اذا انفجرت تتحلل وتعود الى عناصرها الاولى في لحظة قصيرة جدا لا تزيد على جزء من خمسة وعشرين الفا من الثانية التي هي جزء من ستين جزءا من الدقيقة . فتعلق الزمان بتعلق المادة وانتقالها من التصلب الى الهباء ، انما بين الجزء الذي يقع فيه التحول من شكل العصا وتصلبها الى حالة الهباء ، والزمان لم يؤثر شيئا في ذلك التحول ، وانما هو ظرف له . وقد يقال في بادىء الراي ، ان الزمان فيما يظهر يؤثر في اجسام الحيوان ، اذ بمروره تفنى تلك الاجسام وتتحلل . قال الشاعر العربي .

افنى الشباب تقلب الشمس

وطلوعها بيضاء صافية

وغروبها صفراء كالورس

فنسب الشاعر افناء الاجسام الى الزمان ، ولكن علماء اللغة يجعلون هذا من المجاز العقلي ، وهو اسناد الفعل او ما شابهه الى غير ما هو له ، لان تقلب الشمس ليس هو الذي افنى الشباب في الحقيقة ، وكلام شعراء العرب في هذا المعنى كثير .

3) ثم ضرب المثل بالجبل والذرات التي تتالف منها الصخور ، واخبر انها لا تشعر بسجن في وقت تركيبها في صخرتها ولا بحرية في وقت تفتت الجبل . والكتروناتها تدور في افلاكها كما تدور الاجرام السماوية . فالزمان عندها سواء في وقت التركيب وفي وقت التحلل .

4) ثم ضرب المثل بالتقاط ءالة التصوير للصور في لحظة قصيرة بالاهتزاز الذي يحدث تفاعلا كيميائيا معروف القدر تسجل به المناظر بالوانها وجمالها دون ان يؤثر ذلك على الذرات .

5) قوله ويظهر ان الاشياءالحية تقيس الزمان الخ يريد بذلك ان الحيوان العاقل وغير العاقل هو الذي يهتم بالزمان ويقيسه بالعصور ، فالقرون ، فالسنين ، فالايام ، فالساعات ، فالدقائق ، فالثواني ، وهلم جرا ، ولكنه يستعين بالجماد على قياس الزمان ، ثم مثل لذلك بالانهار التي كانت جامدة في العصر الجليدي ثم ذابت بعد ذلك وتركت طبقات من الصلصال تدل على السنين الماضية ، فقد استعان الانسان على معرفة الزمان بالجماد . وكذلك يقال فيما ذكر بعده من طبقات الكلس التي في سقوف الكهوف وما يعلو ارضها من الرواسب .

6 قوله ، ولا تستطيع الكائنات الحية ان تدرك كنه الزمان الخ. امر واضح ، لان الزمان محيط بالكائنات الحية ، فيه تنشأ وفيه تفنى ، فلا يمكن ان تحيط به علما ، واذا كانت الكائنات الحية حتى اشرفها وهو الانسان عاجزة عن ادراك كنه الزمان ، فكيف تستطيع ان تدرك كنه صفات خالق الزمان ومجريه ، العالم باوله وءاخره ؟ وصدق الله العظيم اذ يقول : (يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) . ثم سال المصنف عن امكان صحة الراي القائل: اننا معشر البشر اذا انتقلنا الى الدار الباقية نقيس الزمان بالحوادث ، لا بحركات اجرام الفلك . والجواب عن هذا السؤال (طارت به في الجو عنقاء مغرب) ، فمن ذا الذي يستطيع ان يجزم بالنفي او الايجاب ، وهو بعد في سجن الحياة ؟ . والتفكير في هذه المسالة من النهم الذي يصيب العلماء . وما اصدق الخبر القائل : منهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال .

7) قوله : وقد تحصد مساحات شاسعات الخ . يقال احصد الزرع اذا حان وقت حصاده .

8) قوله : ومقاييسنا للزمان يمكن ان لا يكون لها تعلق بالعالم في مجموعه الخ . بيان ذلك ، اننا نقيس الزمان على حسب طلوع الشمس وغروبها ، وبعبارة ادق حسب دوران الارض . فاذا كانت الكواكب الاخرى كالمريخ مثلاماهولة بمخلوقين عاقلين، يقيسون زمانهم ، فان قياسهم للزمان يخالف قياسنا ، هذا مع ان المريخ اذا قابلناه بالشعرى نجده قريبا منا . واذا واذا كان في الكواكب التي تدور حول الشعرى عقلاء يقيسون الزمان ، فلا بد ان يكون قياسهم مخالفا لقياس سكان المريخ. واذا كان الزمان مرتبطا بالشمس بالنسبة الينا والى كل من يستضيء بها في سائر الكواكب السيارة ، ان كانوا موجودين فقبل وجود الشمس كان الزمان معدوما ، وبعد عدمها سيكون كذلك . وكل ذلك يبرهن على نقصان علم الانسان وضيق معرفته . وصدق الله اذ يقول (انه كان ظلوما جهولا) .

9) قوله : لا هو ولا هي يستطيعان ان يحددا اليوم الرابع والعشرين من مايو بعد سبع عشرة سنة كما يفعل الجراد في الظلام . تقدم في المقالات السابقة ان الله الذي خلق فسوى وقدر فهدى قد وهب بعض انواع الحيوان من الغرائز والالهام ما يعجز عنه الانسان العاقل ، فسبحان الذي اتقن كل شيء خلقه.

مكناس ـ الدكتور تقي الدين الهلالي

السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن العلوي رحمه الله

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

التمست مني ادارة مجلة «دعوة الحق» الغراء كعادتها كل سنة منذ زمان طويل كتابة مقال ينشر في العدد الخاص بعيد العرش العلوي المجيد. واقترح على ان يكون المقال في سيرة السلطان المكرم مولاي عبد العزيز ابن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن قدس الله ارواحهم . ولم ادر اين أجد ترجمة هذا الملك مع اني لقيته مرارا وتحدثت معه في مجالس خاصة بطنجة فكلمت بالهاتف صديقي الاستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة وسالته اين اجد ترجمة وافية للسلطان المذكور . فاملى علي كلمة مختصرة مفيدة في مولد صاحب الترجمة ووفاته أستفتح بها هذا المقال .

ولد السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن العلوي سنة 1298 . وامه شركسية اسمها السيدة رقية جلبها الحاج العربي بريشا التطواني احد خاصة السلطان مولاي الحسن والد صاحب الترجمة ، وبويع مولاي عبد العزيز بعد وفاة والده السلطان مولاي الحسن رحمه الله سنة 1311 وعمره اذ ذاك نحو اربع عشرة سنة وتنازل عن العرش لاخيه السلطان مولاي عبد الحفيظ في شهر رمضان سنة 1326 . وكانت وفاته في صبيحة يوم ثامن جمادى الثانية سنة 1362 ونقل الى فاس فدفن بضريح جده مولاي عبد الله .

وقال لي مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور : لا اعرف كتابا يشتمل على ترجمة السلطان مولاي عبد العزيز . ولكن كثيرا من اخباره مذكور في ترجمة أحمد بن موسى الوزير في تاريخ مكناس لمولاي عبد الرحمن بن زيدان في الجزء الاول منه فتوجهت الى خزانة مكتب البلدية بمكناس ، وسألت مديرها السيد احمد اجانا . ان يعيرني الجزء الاول من الكتاب المذكور . فاعتذر لي عن اعارة الجزء الاول لانه مفقود ، وقال لي يمكنك ان تطالعه هنا وامرت تلميذي محمد بن سلام ، ان يبحث عن ترجمة احمد ابن موسى الوزير فوجدناها مطولة وفيها كثير من اخبار المولى عبد العزيز ولكنها تتلف مبعثرة ، ويستفاد من هذا الكتاب ان الوزير احمد بن موسى كان مسيطرا على السلطان مولاي عبد العزيز وهو الذي كان يحكم المغرب باسمه لصغر سنه وعدم استعداده وكان رجلا جازما ذا علم وذكاء وتمسك بالدين الحنيف . وهو الذي بايع السلطان مولاي عبد العزيز بدون استشارة العلماء والاعيان كما جرت به العادة نص على ذلك مؤلف كتاب تاريخ العالم الحديث المقرر تدريسه في المدارس الثانوية المغربية وكان زمان تولي هذا السلطان مملوءا بالفتن والثورات. منها ثورة الريسوني في الشمال وثورة ماء العينين في

الجنوب ، والثورة العظمى التي هي ادهى وامر ثورة الجلالي الزرهوني الملقب بابي حمارة . وفي تاريخ مكناس انه لقب بذلك لانه كان في اول امره يركب أتانا وكانت ثورته في القسم الشرقي من المملكة وقد هزم جيش الحكومة هزائم فظيعة متوالية . وثورته هذه هي التي اضعفت الدولة المغربية واوصلتها الى الحضيض . ومهدت الطريق لدول الاستعمار الاوربي وكانت الدولة الفرنسية مصممة على نصب الحبائل لاستعمار المغرب فبدأت التدخل في شؤونه باستغلال ناحية الضعف الشديد في الدولة المغربية وهي الناحية المالية فان اموال الدولة المغربية كانت تتألف من الزكاة واخذ العشر من الحبوب فعرض الفرنسيون قروضا على الدولة المغربية لينقذوها بزعمهم من ضيقها المالي واقترحوا على السلطان ان يستبدل اخذ الاعشار والزكاة بفرض جباية ضرائب على الممتلكات من المواشي والبهائم والاراضي الزراعية وبضائع التجار المستوردة وغير ذلك ولكن الدولة كانت عاجزة عن اخذ الضرائب القديمة والجديدة على السواء بسبب اختلال الامن في كل مكان وعجز الجيش المغربي عن اخماد الثورات وتعميم الامن فكان الفرنسيون وغيرهم من الاوربيين اذا قتل الثوار او اللصوص واحدا منهم طالبوا وزارة المالية المغربية بدية فادحة ثقيلة ومقصودهم افقار الدولة المغربية لتشتد حاجتها الى المال ثم يعرضوا عليها المساعدة المالية ويتولوا هم بانفسهم جباية المكوس في المراسي وتلك وسيلة بل ذريعة من ذرائع المستعمرين فهذه الاسباب وهي اختلال الامن وفقر الدولة وعجز جيشها بسبب الهزائم التي اصيب بها من الثورات يضاف الى ذلك تنافس دول الاستعمار على استعمار المغرب الخصيب ثم تصالحهم على ان يسمح لايطاليا بالاستيلاء على ليبيا ويسمح لبريطانيا بالاستيلاء على مصر ، وتقتسم فرنسا واسبانيا الاراضي المغربية فتستولي اسبانيا على الجهة الموالية لارضها وهي الشمال وتجعل طنجة ونواحيها دولية وتستولي فرنسا على بقية اراضي المغرب وقد تم لهم هذا الاتفاق في مؤتمر الجزيرة الخضراء المجاورة للمغرب من الاراضي الاسبانية. وكان ذلك سنة 1904 يضاف الى ذلك أن السلطان كان في اول امره طفلا . وكان الحاكم في المغرب الوزير احمد بن موسى . واول ما بدا به هذا الوزير بعد استيلائه على الحكم الانتقام من الوزير الاكبر في زمان السلطان مولاي الحسن الحاج المعطي الجامعي واخيه محمد الصغير فحبس الحاج المعطي الى ان مات وحبس اخاه زمانا طويلا . وكان عليه ان يجهز الجيوش لاخماد الثورات وان يجتبي الاموال اللازمة لذلك وقد بذل في المحافظة على سلامة الدولة جهدا عظيما ولكن الامر كما قال الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه
اذا كنت تبنيه وغيرك يهدمه

وقال آخر :

وما يصنع الباني وتمت هادم
فكيف ببان خلفه الف هادم

فهذه الاسباب كلها مجتمعة اضعفت دولة مولاي عبد العزيز وهناك سبب آخر لم تذكره وذلك ان السلطان مولاي عبد العزيز عمل بنصيحة الاوربيين اذ اخذ ببعض الانظمة الاوربية كفرض الضرائب والمكوس المعروفة مراكزها عند المغاربة (بالديوانات) وبعث الطلبة للدراسة في اوربا وتعيين بعض الفرنسيين في المراسي المغربية جباة للمكوس يضاف الى ذلك كون السلطان شابا فتيا لم تحنكه التجارب . وبايع بعضهم اخاه المولى عبد الحفيظ فاستولى على الحكم واستعد لحرب اخيه فتنازل عن الحكم حقنا للدماء لئلا يزداد الخرق اتساعا ووعد السلطان مولاي عبد الحفيظ الشعب المغربي باصلاح كل ما افسده الزمان والاعداء واخوه مولاي عبد العزيز فكان في وعده لهم كما قال الشاعر في عجوز متصابية :

عجوز ترجي ان تكون فتية
وقد لحب الجنبان واحدودب الدهر

تدس الى العطار سلعة اهلها
وهل يصلح العطار ما افسد الدهر

كذلك كانت الدولة المغربية في ذلك الزمان ولا يستطيع مولاي عبد الحفيظ ان يرد لها شبابها . لان ذلك مكتوب عند الله لغيره الا وهو الملك الهمام الذي اجرى الله على يده المعجزات محمد بن يوسف الملقب بالخامس وسليله النابغة جلالة الملك الحسن الثاني الذي كان ردءا له وعضدا في تاسيس الدولة المغربية العصرية . وابدال تلك العجوز الشمطاء

الحيزبون بشابة جميلة فتية وهي الدولة الحاضرة وفق الله امامها لاستكمال رد شبابها . وشفاء عللها والله كريم . وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

تنازل المولى عبد الحفيظ عن الملك ولم يقض فيه الا مدة يسيرة ذاق فيها الامرين . وخلفه اخوه مولاي يوسف وتوجه مولاي عبد الحفيظ الى المشرق وزار البيت الحرام ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام واحسن الى المعوزين من المغاربة في تلك البلاد . ثم رجع الى اسبانيا وسكنها مدة من الزمان . واخبرني بعض اهل مجريط (مدريد) والعهدة عليه انه كان متبذرا فضاق رزقه فطلب الالتجاء الى فرنسا . فاجابته الى ما طلب . واجرت عليه راتبا الى ان توفي بها .

واما السلطان مولاي يوسف رحمه الله فانه كان متمسكا بالدين محبا لاهل العلم مجالسه عامرة بالمذاكرات العلمية ، ومن مزاياه التي اطلعت عليها في السنة التي اقمتها في وجدة في زمان حكمه وذلك ان الاديب الشاعر ذا التاليف العديدة الشيخ احمد الشكيرج دعاني وانا مستقر بالجزائر لتعليم ابنه السيد عبد الكريم الشكيرج وابن اخيه السيد عبد السلام الشكيرج الادب العربي فقد كتب الي قائلا : انا لا اثق باحد في تعليم الادب لابني وابن اخي الا بك. وكانت الطريقة التجانية تجمعنا هو شيخ مقدم فيها وانا كنت متمسكا بها،حتى سنة 1340 للهجرة النبوية وفيها التقيت بالعالم الاديب المتقطع النظير المجاهد الوطني الذي وقف في وجه الاستعمار الفرنسي بحزم وشجاعة في وقت لم يكن احد فيه يستطيع ان ينبس ببنت شفة ، عصى امر المرشال اليوطي المستعمر الغشوم واغلظ له القول فنفاه من بلده سلا الى وجدة ، في تلك السنة علمت ان السلطان مولاي يوسف رحمه الله اعتنى عناية منقطعة النظير بتوحيد الصوم والافطار بطريقة فقهية دقيقة . وبيان ذلك انه كلف جميع القضاة فيما كان يسمى بالمنطقة السلطانية من المغرب ان يصعدوا الى المنارات قبل غروب شمس التاسع والعشرين من شعبان ومعهم المشهورون بحدة ابصر في ذلك البلد . وطبيب عيون ، وعالم فلكي . فاذا راى احد اولئك الرجال الهلال بعد ما يعين له الفلكي مطلعه ، يقول الطبيب اره رفقاءك فان راوه ابرق القاضي ومن معه من العدول الى السلطان بشهادتهم . وان راه واحد ولم يره الآخرون فحص الطبيب عينيه وعيون رفقائه . فان وجده اقوى بصرا منهم اقره على شهادته واعترف بها . وان راه مثلهم او دونهم في الابصار رد شهادته وحكم عليه بالوهم . وفي نصف الليل تجتمع عند السلطان الحكيم مولاي يوسف بن الحسن رحمه الله برقيات كثيرة فيحكم هو وعلماؤه بالصيام او الافطار او عدمهما وهذا الضبيع لم اسمع به عن احد من الملوك ولا قراته في كتاب وهو ابو البطل الاكبر الذي حرر الله على يده بمشاركة وفي عهده صاحب الجلالة الحسن الثاني جميع البلاد المغربية من العبودية من حدود شنقيط الى حدود مصر اذ لم ينل احد من الملوك والرؤساء بلاء يشبه ما ابلاه هذان المجاهدان فله لهما يرجع الفضل في استقلال المغرب الاقصى وموريطانيا والجزائر وتونس وليبيا ايضا . ولذلك لم تعجب شعوب العالم بجهاد رئيس او ملك في هذا الزمان مثل ما اعجبت بسليل مولاي يوسف وحفيده ولا ينبئك مثل خبير ، فانني كنت مستوطنا العراق في وقت تنازل المجاهد الاكبر محمد الخامس وولي عهده عن العرش الذي يخضع لاستعمار الاجانب الى المنفى القصي وتجرع مرارة الغربة والتجرد عن الجاه ، وكنت اسافر كل سنة الى الهند ثم سافرت الى اوربا ووجدت جميع الشعوب في دهشة عظيمة بهذا العمل العظيم ، وبهذا العمل الجليل ارتفع عنا الذل نحن معشر المغاربة المبعدين عن وطننا فانني كلما لقيني انسان من اي جنس كان ، كان يسالني عن وطني . فاقول : انا من المغرب فيبادرني بقوله انت من المغرب الفرنسي ام من المغرب الاسباني ، ام من طنجة الدولية ؟ فاقول ان المغرب مملكة واحدة عريقة في الشرف فقدت استقلالها ، وسيعود لها ان شاء الله فيسخر مني ويضحك ويقول : دعنا من الاساطير البالية فلا اجد ما اجيب به وكذلك قال لي نائب رئيس الوزراء العراقي سنة 1934 ، بتاريخ النصاري حين اراد ان يمنحني الجنسية العراقية فقال لي ما هي جنسيتك الحاضرة ؟ قلت مغربية . فقال لي هذا كلام فارغ قل فرنسية فاظلمت الدنيا في عيني وغضبت ولم اعد ادر من اخاطب فقلت له هل انت قبل سنتين اي قبل تحصيل الاستقلال الاسمى اللفظي كنت انجليزيا وكان معي الاستاذ كمال الدين الطائي من كبار علماء المذهب الحنفي في بغداد فاعتذر لنائب رئيس الوزراء وجدبني حتى اخرجني من مكتبه ولامني اوما خفيفا على تلك الجراة . فقلت دعه يفعل ما يشاء ونسيت ان اقول اني قلت لذلك الرئيس في وقت الغضب

«أمبير شرفين» معناه الامبراطورية الشريفة فهل كتب عليه الامبراطورية الفرنسية فاكتفى ذلك الرجل في الانتقام مني بأن كتب على اوراق الطلب التي شغلتني اربعة اشهر ، شهرين في البصرة وشهرين في بغداد كلمة – مرفوض – ووقع تحتها فلم تدم تلك الوزارة في الحكم الا اثني عشر يوما ثم سقطت وكانت وزارة جميل المدفعي فجاءت بعدها وزارة علي جوده الايوبي ومنحتني اجنسية العراقية في ثلاثة ايام بشفاعة صديق شهم . ومنذ ثار البطل العظيم محمد الخامس وسليله جلالة الملك الحسن الثاني على الاستعمار الفرنسي لم يعد احد من اى جنس كان يتجرأ على السخرية منا معشر المغاربة المغتربين بل كان الناس ينظرون الينا بعين الاجلال والاكبار فاذا سئل الواحد منا عن وطنه فقال انا مغربي يبادره السائل انت من بلاد المجاهد محمد الخامس . لله دره ، ما رأينا ملكا مثله . ثار في وجه الاستعمار واسترخص عرشه من اجل دينه ووطنه وهذا الامر لا يعرفه الا من ذاقه من المغتربين المبعدين عن وطنهم المغربي ، اما المغاربة الذين لم يبعدوا ولم يخالطوا الشعوب المختلفة فانهم وان كانوا مجمعين على اكبار عمل هذا المجاهد البطل فانهم لم يذوقوا ما ذقناه نحن من مرارة السخرية اولا وحلاوة التكريم بعد تلك الثورة المباركة فرحم الله المجاهد ابا الحسن وبارك في المجاهد الحسن .

* * *

اجتماع كاتب هذا المقال بالسلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن رحمهما الله

كل ما كتبته من قبل فهو مما قرأته في الكتب، أما ما احدث به الآن فهو حديث مشاهدة وسماع في شهر مارس من سنة 1942 ، ارسلني الاستاذ المجاهد صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين الحسيني من برلين الى تطوان ، واتماما للفائدة اقول ، ان هذا الاستاذ المجاهد كان مع الاستاذ رشيد عالي الكيلاني نسبة الى الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمهما الله هكذا ينطق به اهل العراق بالكاف نسبة الى كيلان قرية من بلاد الاكراد في شمال العراق ، ارسلني للاجتماع بالزعيم عبد الخالق الطريس لامر فيه مصلحة للمسلمين وكان سفري بجواز ارسله الي الزعيم المذكور من تطوان على اني من اهلها بعد ما نزعت مني الجنسية العراقية بائتمار كاذب بين سفير العراق في رومة مراجم الياجيجي مع السفير الانكليزي في رومة بدون علم الحكومة العراقية لاني اذيت الحكومة الانكليزية بالاحاديث التي كنت القيها من اذاعة برلين العربية دفاعا عن وطني لا تكليفا من الالمانيين ولما وصلت الى تطوان كنت جاهلا بالاستعمار الاسباني والفرنسي وحاجتهما الى التملق وبدونه تعتريهم الشكوك فنزع مني مدير الشرطة الاسباني ذلك الجواز باعتباره انه مزور وقد بسطت هذا الخبر في كتابي (الدعوة الى الله) فاضطررت ان ابقى فيما كان يسمى بالمنطقة الاسبانية فاضطررت الى البقاء في تطوان وما حولها فيما كان يسمى بالمغرب الاسباني. من الاراضي المغربية الى سنة 1947 . حين تيسر لي الرجوع الى العراق . وفي هذه السنة سنة 1942 . اجتمع الزعيم عبد الخالق الطريس بالسلطان مولاي عبد العزيز الذي كان قد اتخذ طنجة مقرا له بعد اعتزال الملك فجاءني الزعيم عبد الخالق الطريس بتحية من السلطان مولاي عبد العزيز فعزمت على زيارته وقال لي الاستاذ عبد الخالق الطريس ما عليك الا ان تأتي وكيل مولاي عبد العزيز في طنجة وهو يوصلك الى قصره في الجبل بالسيارة فتلقاني رحمه الله بغاية الترحيب والفرح وقال لي كنت اسمع برحلتك الواسعة وكنت احب ان اراك فجلست عنده قدر ساعة وكان طويلا ابيض ذا لحية وافرة الا انها مقصوصة الاطراف فتحادثنا وحدثته بما جرى لي في اسفاري ومحاربة الاستعمار الانكليزي والفرنسي اي دفاعي عن وطني وتحدثنا ايضا في العقيدة السلفية في توحيد الاسماء والصفات وتوحيد العبادة بالتبرؤ من عباد القبور . وتوحيد التوجه الى الله تعالى بلا واسطة . وتوحيد اتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام بغير تقليد ولا تمذهب فوجدته راسخ العقيدة في السلفية قدس الله روحه واخبرني ان استاذه في العقيدة السلفية هو العالم السلفي المحدث المحقق الشيخ عبد الله السنوسي رحمه الله ، واخبار هذا الامام كانت معروفة عند اهل طنجة وشمال المغرب وساذكر طرفا منها باختصار لان المقال قد طال واخاف ان هذا العدد الخاص من مجلة (دعوة الحق) الغراء لا يتسع له . من ذلك انه كان يعلن توحيد العبادة واتباع الكتاب والسنة في جميع مجالسه وستتعجب ايها القارىء اذا اخبرتك انني رويت كتب الحديث والاثبات عن شيخنا عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك فوري الهندي ، مؤلف (تحفة الاحوذي

فيما شرح الترمذي) في خمسة من المجلدات مع المقدمة وقد طبع ونشر ، وذكرني رحمه الله في آخر المجلد الآخر عند ذكر القصيدة التي قرظت به الكتاب بطلب منه عن شيخ شيخنا الامام نذير حسين الدهلوي عن الشيخ محمد اسحاق الدهلوي الى آخر السند . ومن جملة شيوخ محمد اسحاق في اسانيد الحديث الشيخ عبد الله السنوسي وبسط لي اخباره السلطان مولاي عبد العزيز رحمه الله . وقال لي في جملة ما قال ان هذا الشيخ الامام لما حضرته الوفاة ترك خزانة كتبه عندي ولا أدري انا ما اصنع بهذه الخزانة وعند من اودعها لينتفع الناس بها دون ان تصل اليها أيدي لصوص الكتب ، فلم ابد له رأيا ولا اعرف الآن ما ذا جرى على هذه الخزانة واخبرني رحمه الله بأن كتبه هو تركها في فاس .

ولقد حدثني الثقات من اهل طنجة ان المحدث الحجة الشيخ عبد الله السنوسي استاذ السلطان مولاي عبد العزيز سافر الى العرائش وكان له بها محبون يلتمسون منه زيارته لهم حينا بعد حين ليغترفوا من بحر علمه الغزير وكان له خادم جاهل بتوحيد العبادة فلما وصل الشيخ الى العرائش قال الخادم : (أحنا اضياف الله عندك يا للا منانة) معناه نحن ضيوف الله عندك يا سيدتنا منانة ، ومنانة اسم لوثن يعبده الجهال وهو ضريح للمرأة المذكورة فأسرها الشيخ في نفسه وكان من عادة الشيخ ان ينزل عند احد المحبين ويذهب خادمه الى المقهى فيسمر فيه الى وقت النوم حتى اذا رجع يقدم له عشاؤه . اما في تلك الليلة فقال الشيخ لاهل هذا البيت لا تتركوا للخادم عشاء فانه مدعو للعشاء عند بعض الناس ، فلما رجع وجلس ينتظر العشاء كالعادة قال له الشيخ كيف كان عشاء منانة عسى ان يكون جيدا ، فقال له الخادم يا سيدي انا ما تعشيت فقال الشيخ يا عجبا انت طلبت الضيافة من منانة فكيف تركتك بلا عشاء اذهب لتنام فليس لك عشاء في هذه الليلة جزاء لك على الشرك بالله . وحدثني العالم السلفي الورع التقي النقي الاستاذ الشيخ محمد أبو طالب رحمه الله هنا في مكناس ان الفقهاء في فاس كان لهم اجتماع في الضريح الادريسي كعادتهم عندما تدعو الحاجة الى الاجتماع فلما انصرفوا من ذلك الاجتماع لقي أحدهم المحدث الامام عبد الله السنوسي فقال له يا سيدي كنا نرجو أن تحضر معنا في ضريح مولاي ادريس فقال له أنت تعلم اني لا أدخل الاضرحة ولا اصلي في المساجد المبنية عليها فقال له ان الشيخ خليلا اباح الصلاة فيها ونحن خليليون ، ان دخل خليل الجنة دخلنا معه وان دخل النار دخلناها معه .

ومن المعلوم ان اتخاذ المساجد على القبور بدعة منكرة ، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره غير انه خشي أن يتخذ مسجدا) . وروى مالك في الموطأ عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) هكذا رواه مالك في الموطأ مرسلا ، قال الحافظ بن عبد البر ووصله عمرو بن محمد فقال ، عن عطاء بن يسار عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . فزالت عنه علة الارسال وصلح للاحتجاج على أن هذا الحكم ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة وأسانيد صحيحة تكاد تبلغ حد التواتر .

مكناس : محمد تقي الدين الهلالي

الشمس في نصف الليل

للدكتور تقي الدين الهلالي

كنت قرات منذ زمان طويل اخبار القبائل التي تسمى (اسكمو) واحوال معيشتهم ، ومساكنهم واسفارهم وحالة الجو فى بلادهم ، وذلك معروف فى كتب الجغرافية . والذي يهمنا هنا من اخبار الاراضي القطبية ما شاع ان السنة عندهم يوم واحد ، نهار وليلة ، ستة اشهر للنهار ، وستة اشهر لليل .

ولم اؤمل قط ان ارى تلك الاراضي ، لما قراته من شدة البرد وتراكم الثلوج هناك ، وانهم يلجاون الى لبس الجلود والاختباء فى بيوت يحيط بها الثلج من كل جانب ، الى غير ذلك من الاخبار .

وفى صيف سنة 1963 اجتمعت بالدكتور زين العابدين خير الله الجلبي كان استاذا فى مستشفى الامراض الخاصة بالنساء فى جامعة ماربورك بالمانيا ، فاخبرني ان الاراضي القطبية واسعة ، وليست محصورة فى الاراضي التي يسكنها قبائل (اسكمو) وانه هو نفسه زار الاراضي القطبية فى شمال النرويج ، وركبنا القطار والسيارات مدة يومين ، اثنى عشر يوما لم ير فيها ظلمة ولا ليلا ، بل كانت كلها نهارا .

ومن ذلك الحين عزمت على زيارة هذه الاراضي فى اقرب وقت ممكن . فلما اشرفت السنة الدراسية على نهايتها ذهبت الى السفارة النرويجية فى الرباط ، وسألتهم عن الاراضي القطبية التي لا تغيب فيها الشمس بضعة اشهر ، فاخبرني ان الامر كذلك ، وان هناك نواحي تابعة للحكومة النرويجية تبقى الشمس فيها مشرقة مدة ثلاثة اشهر من اول مايو (ايار) الى آخر يوليوز (تموز) فتأهبت للرحلة وتوجهت من مكناس فى سيارتي يسوقها الحاج احمد هارون فى اليوم الثاني من يوليو ، وسرنا متوكلين على الله من مكناس الى تطوان ، ثم عبرنا البحر من سبتة الى الجزيرة الخضراء ، ثم سرنا عبر اسبانيا ففرنسا فالمانيا ، فالدانمارك فالسويد فالنرويج ، وتركنا السيارة فى مدينة (اوسلو) عاصمة النرويج ، وان سكانها متمدنون ، وانه اقام هناك نحو فوصلنا مدينة (ناروك) ، وشاهدنا الشمس مشرقة مدة اربع وعشرين ساعة .

أوقات الصلاة فى الاراضي القطبية :

كنت عازما قبل ان اصل الى تلك البلاد على ان اصلى خمس صلوات فى مدة اثنتى عشرة ساعة ، ثم اترك الصلاة اثنتى عشرة ساعة ، فتكون خمس صلوات فى اربع وعشرين ساعة .

فلما وصلت الى تلك البلاد تغير رايي ، وظهر لي ان تتبع اوقات الصلاة فى تلك البلاد الاراضي الجنوبية من البلاد النرويجية ، فيصلي المصلي صلاة الصبح وقت طلوع الفجر فى الجنوب ، ويصلي الظهر حين تزول الشمس فى الجنوب ، وهكذا الشان فى جميع الصلوات ، بناء على قاعدة : ما قرب من الشيء يعطي حكمه ، وكذلك يفعل الصائم فى رمضان اذا جاء فى وقت الشمس ، او فى وقت الظلام.

هل فى الاراضي القطبية فصول ؟

ينبغي ان يعلم ان فى تلك البلاد ما يشبه الفصول الاربعة ، وقد تقدم ان الشمس تستمر مشرقة من اول مايو (ايار) الى آخر يوليوز (تموز) ثم تغيب غيابا جزئيا فى اول غشت (آب) فى كل يوم تبقى غائبة اكثر من اليوم الذي قبله ، فيكون الليل

قصيرا والنهار طويلا ، ولا يزال الامر كذلك ، يزداد الليل طولا والنهار قصرا الى آخر اكتوبر (تشرين الاول) فتغيب الشمس وتبقى ثلاثة اشهر غائبة ..

وفى اول فبراير (شباط) تطلع الشمس ، ثم لا تلبث ان تغيب ، فيكون النهار قصيرا والليل طويلا ، ولا يزال النهار يطول ، والليل يقصر الى آخر ابريل (نيسان) ثم ينعدم الليل . فهذه مدد تشبه الفصول الاربعة فى البلاد التي يكون الليل والنهار طول السنة .

وقد عرفنا حكم اوقات الصلاة فى الاشهر الثلاثة الشمسية ، ومثلها الاشهر الثلاثة المظلمة . بقي حكم اوقات الصلاة فى ربيع تلك البلاد وخريفها ، وهما مدتان ، يكون فيهما ليل جزئي ونهار جزئي ، فكيف الحكم فى اوقات الصلاة والصيام ؟

لا يمكن ان نفكر فى هذه المسألة ثم نبدي راينا فيها الا اذا احطنا علما بليلها ونهارها ، كيف يطول وكيف يقصر . فالليلة الاولى بعد انتهاء مدة الشمس، وهي اول ليلة من غشت (آب) كم طولها ؟

فاذا كان طولها نصف ساعة او اقل ، فهل يحكم عليها بانها ليلة تصلى فيها المغرب والعشاء والصبح عند نهايتها ، ويفطر الصائم ، ويتسحر فيها ، ويصوم نهارها ، ويصلي الظهر والعصر فى وسطه ، ام يستمر على اعتبار توقيت العاصمة (اوسلو) ويعتبر الليل ليلا ، والنهار نهارا ؟ وما مقدار الساعات التي يبلغها الليل طولا حتى يعتبر انه ليل ؟ واذا مضى اكثر الاشهر الثلاثة وقصر النهار جدا يعود السؤال نفسه . وهكذا يقال فى المدة الثانية التي تبتدىء من شهر فبراير (شباط) وتنتهي فى آخر ابريل (نيسان) .

فان قيل : انت اول من بدا هذا البحث ، فعليك ان تجيب عن اسئلتك ، وتبدي رايك ؟ قلت : يمنعني من ذلك انني من اهل الحديث المتبعين للسلف الصالح المتجنبين للراي ، المعتبرينه كالميتة لا يجوز الاكل منها الا بقدر الضرورة . فما نزل من المسائل ، وتحقق وقوعه ، وسئلنا عنه افتينا فيه بالراي قائلين: ان كان صوابا فمن الله ، وان كان خطأ فمنا ، والله برىء منه ، كما قال عبد الله بن مسعود .

أما مدة الشمس فقد وجب علينا ان نجتهد فى حكم اوقات الصلاة فيها ، لان ذلك وقع ونزل ، وقسنا عليه مدة الظلام ، لانهما سواء . أما المدتان الاخريان فندعهما حتى يحتاج بعض المسلمين الى معرفة الحكم ، فييسر الله له من يفتيه .

وقد كان السلف الصالح ، اذا سئل احدهم عن مسالة استحلف السائل بالله ، انها وقعت ، فان حلف له افتى فيها برايه ، والا قال : دعها حتى اذا نزلت ييسر الله لها من يفتي فيها .

وما زعمه بعض المتقدمين من ان بلاد بلغار يقصر فيها الليل والنهار جدا وهم ، وقد لاحظت ان الليلة الاخيرة التي مضت قبل وصولنا الى بلاد الشمس فى نصف الليل ، كما يسمونها ، لم تكن مظلمة ، حتى اني مع ضعف بصري ، وانا راكب فى السيارة ، كنت ارى الاشجار ، واغصانها تتحرك ، ولا توجد ظلمة اصلا ، الا ان الشمس مختفية . ومن حين يتوسط الانسان بلاد النرويج متوجها من الجنوب الى الشمال تقل ظلمة الليل شيئا فشيئا حتى تنعدم بانعدام الليل نفسه . فسبحان الخلاق العليم .

ولاحظت ايضا : كما لاحظ من معي ان الشمس فى نصف الليل تكون قريبة من الارض ، كانها تريد ان تغيب ، لكنها لا تغيب ، بل تاخذ فى الارتفاع وتدور فى السماء ، فتشكل دائرة من نصف الليل الى نصف الليل . قال الله تعالى فى سورة الحج (46 افلم يسيروا فى الارض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، او آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمي القلوب التي فى الصدور) فاخبر سبحانه وتعالى ان السير فى الارض يزيد فى العقل والعلم المكتسب بالتجارب ، وقل رب زدني علما .

وهناك فى تلك الناحية قبائل بدوية تسكن الخيام ، ولها ماشية ، وهي الايائل ، وهي نوع من الحيوان يشبه الظباء ، الا انها اكبر منها ، وقرونها متشعبة كالاشجار يحلبونها ويأكلون لحومها ، وينتفعون بجلودها . ولا يستطيع شيء من سائر الحيوان كالبقر والغنم ان يعيش فى تلك البلاد غير الايائل ، لشدة بردها ، وكثرة ثلوجها ، ولتلك القبائل لباس خاص .

وسمعت انهم وثنيون ، لا يدينون بالنصرانية التي يدين بها اهل تلك البلاد ، ولا اعلم مقدار هذا الخبر من الصحة ، وليس هذا الجو خاصا بشمال النرويج ، بل يعم كذلك شمالي السويد .

وقد علمت أن من اراد ان يشاهد الاراضي القطبية التي فى شمال السويد يستطيع ان يسافر اليها بالقطار .

اما مدينة ناروك التي تقدم ذكرها فقد سافرنا اليها من (اوسلو) ، بعض المسافة بالقطار ، وبعضها بالسيارة ، وكنا في كل بضع ساعات نجتاز خليجا من خلجان البحر ، بمعدية ، وهي باخرة كبيرة ، تدخلها السيارات ، فتبقى فيها نصف ساعة او اكثر حتى تصل بها الى البر ، فتخرج السيارة منها وتستانف سيرها .

وقد رايت القطار نفسه يعبر البحر في معدية بين المانيا الشرقية والدانمارك في مدة ساعتين . وتلك المعدية ضخمة عظيمة الحجم ، ذات ثلاث طبقات، يصعد الى الطبقة العليا بالمصعد الكهربائي .

وهناك معدية رايتها تستعمل بين سبتة والجزيرة الخضراء ، وهي ايضا عظيمة ، ولكنها دون تلك . وليس مقصودي ان اصف هذه الرحلة ، لان وصفها يحتاج الى مؤلف مستقل ، وانما ذكرت ما تقدم استطرادا .

من وحي الاندلس — قصيدة من بحر جديد

لما مررنا بارض الاندلس في رحلتنا الى شمال اوربا تذكرت اهل الاندلس المسلمين ، وما كان لهم من المجد والسؤدد ، فقلت هذه القصيدة ، وهي من بحر جديد اخترعته . واجزاؤه اربعة : مستفعلاتكم مستفعلن مرتين . له عروض واحدة صحيحة ، لها ضربان ، اولهما مذيل ، والثاني عار عن التذييل ..

وكل هذه التفاعيل بفتح العين ومعناها : مستخرجاتكم مستخرج ايها المسلمون ، فالزموا مستخرجاتكم ولا تهملوها .

وقد احدث العرب المولدون اوزانا شعرية زائدة على بحور الشعر بعد زمان العرب الاقحاح ، ونظموا عليها شعرا كثيرا ، ثم جاء زمان الموشحات والازجال ، فاشتغل بها العرب في الشرق والغرب ، واشتملت على ادب جم . ونظم بهاء الدين زهير شعرا اخترع له وزنا خاصا ، وهو قوله :

يا من لعبت به شمول
ما الطف هذه الشمائل

فلا غرابة اذا اقتديت به ، والقيت دلوي في الدلاء . وهذا نص القصيدة :

لما بدا لنا جمالكم
اضحت قلوبنا اسرى الغرام
واتبعت بها مودة
تنمو وتزدهي على الدوام
قد طال هجركم وصدكم
وما رثيتم للمتهام
ولم تنزل نفسي بعهدكم
وما رعيتم لنا ذمام
فهل سمعتم بقاتل
لمن يحبه هذا حرام
هبوا اسيركم لو نظرة
صلوا عميدكم لو بالكلام
اما ترونني متيما
لم تدر مقلتي اي منام
محبتي لكم عفيفة
غدت برينة من كل ذام
وعاذل اتى يلومني
كلامه غدا مثل الكلام
فقلت : يا فتى ويحك اتئد
فانت طالب ما لا يرام
عذلك زادني صبابة
فكف او فزد من الخصام
يا موطنا غدا مفتخرا
بخير امة من الانام
بالعرب اذ علوا مراتبا
قد بلغوا بها اقصى المرام
اندلسا دعيت في الورى
وجنة سميت خير مقام
معجزة فلم ير الورى
لها مماثلا لو في المنام
كيف افتخارنا بمجدهم
ونحن لم نزل بلا نظام
والخلف ما لهم مفتخر
لكن عليهم بالاحتشام
الا اذا حيوا واتحدوا
وارتجعوا الى نهج الكرام
واتبعوهم في دينهم
دين محمد بدر التمام
فالعرب ما لهم معتصم
الا بحبله ولا التئام
والعز عنهم مبتعد
الا اذا اقتدوا بذا الامام
فهو حياتكم في بدئهم
وهو حياتهم على الدوام

وكلما اقتفوا خلافه
فهو ضلالة وهو الحسام
صلى عليه من ارسله
هدى ورحمة يجلو الظلام
ما غردت ضحى حمامة
واشرقت ذكا بعد غمام
والآل والصحاب كلهم
ازكى صلاته مع السلام

وقد اطلع على هذه القصيدة الاديب الكبير العالم المحقق العبقري سيدي عبد الله كنون فاعجبته واثنى عليها ، فاحببت ان اتحف بها القراء الاعزاء ، وساستانف حلقات (تقويم اللسانين) بعد نشرها ان شاء الله .

وفي الاياب من هذه الرحلة عرجنا على قرطبة وزرنا مسجدها ، فاعتراني شعور فيه روعة واجلال واعجاب ، وحزن ، لا اقدر ان اصفه بلسان ولا بقلم : ولا اظن ان شخصا له شعور انساني يرى ذلك المسجد ولا يعتريه مثل ذلك الشعور ، سواء اكان مسلما ام غير مسلم .

وصف جامع قرطبة

من امثال العرب : ان الحديث لذو شجون ، وقد بدا لي ان انقل هنا وصف مسجد قرطبة الجامع من كتاب مدنية المور في الاندلس الذي ترجمه بالعربية من اصله الانكليزي لمؤلفه (جوزيف ماك كيب) ليرى القارىء العربي المسلم شيئا من مجد اسلافه وهذا نص ما قاله في وصف مسجد قرطبة :

لم يبق من آثار قرطبة في القرون الوسطى الا اثر واحد ، وهو جامعها الذي لا يزال الى اليوم ، جميع اطفال قرطبة يسمونه مسجدا ، ولولاه ما تجشم احد عناء السفر لمشاهدة قرطبة ، ولو كانت على خمسة اميال منه ، ولكن الناس من جميع انحاء الدنيا يسافرون اليها ليشاهدوه .

وهو اعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة (سنت بيترس) ، وهو آية لا نظير لها من الهندسة والبناء ، وظاهر هذا المسجد لا يستولي على اللب ، ولم يكن المور الذين كانوا يفضلون الاقامة داخل البيوت اكثر من خارجها يهتمون نسبيا كثيرا بالظاهر .

واما في الداخل فهناك العجائب ، اذا دخلت الجامع من اي باب من ابوابه التسعة عشر يخيل اليك انك تائه في غابة من اشجار المرمر ، ففيه ثمانمائة وستون سارية رقيقة من المرمر والرخام واليسر ، وفيه غير ذلك الف واثنتا عشرة سارية .

وفيه تسعة عشر رواقا ، ينتهي كل منها بباب من الابواب التسعة عشر ، وله سقف خشبي منخفض نسبيا ، قد زخرف احسن زخرفة بالارجوان والذهب .

وفي الاعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس ، يحترق فيها الزيت العطر ، وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح ، فتلقي انوارها على ذلك المشهد . واكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثون قدما (قوت) يحمل الفا واربعمائة واربعا وخمسين مصباحا ، ولها مرآة تعكس النور ، فيزيد شعاعه تسعة اضعاف . وفيها (6000) الف طبق من الفضة مسمرة بالذهب ، ومرصعة باللؤلؤ .

وكان الجامع قد شيد مع مضافاته في القرن الثامن والتاسع والعاشر . والمحراب الذي هو اقدس محل في مسجد المور ، كان فيه حنيتان ، وكان اعظم زخرفا من سائر المساجد . وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام ، وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص او الديباج بفسيفسائه الجميلة . واحيل القارىء على كتب زخرفة البناء او كتب الاستدلال ، ليرى عجائب هذا الجامع العظيم .

وكان بناؤه من النصارى المنتمين الى الكنيسة اليونانية ، وكانت بينهم وبين المور مودة ، فجلبوهم لبنائه ، وهو اثر لمدينة زاهرة ، لا يضاهيها اليوم شيء في الدنيا كلها . وكان عبد الرحمان الاول مؤسس هذه الدولة ، قد جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق التي قضى فيها اوائل عمره ، وهو الذي ابتدا بناء الجامع ، واتمه الخلفاء الذين جاءوا بعده . وبلغت نفقاته على ما حدث به مؤرخو العرب (300.000.000) دولار ، وكان هذا آخر عمل عمله في حياته ، وقد شيد غير هذا هو وخلفاؤه ورجال دولتهم قصورا فخمة ، ومساجد كثيرة ، كانت تزيد المدينة في كل سنة جلالة وبهاء اهـ

اولئك آبائي فجئني بمثلهم
اذا جمعتنا يا جرير المجامع

لكن لا ينبغي لنا ان نقتصر على الافتخار بمجدهم ، بل ينبغي لنا ويتحتم علينا ان نعمل بقول من قال :

لسنا وان احسابنا كرمت
يوما على الاحساب نتكل
نبني كما كانت اوائلنا
تبني ونفعل مثل ما فعلوا

فنسأل الله ان يوفقنا لاحياء ذلك المجد الشامخ ، انه على ذلك قدير .

الدكتور تقي الدين الهلالي

القرآن والثقافة العربية

د. محمد تقي الدين الهلالي

هذا موضوع مهم جدا وواسع يحتاج بيانه بالتفصيل الى تاليف كتاب مستقل ، ولكن نجمل الكلام فيه اجمالا حسبما يسمح به المقام ، فنقول ... ان كل شعب يريد ان يعيش سعيدا يحتاج الى امور ، ... اولها القوة الروحية وهي تتوقف على الدين الصحيح الذي يملا قلوب ابناء الشعب ايمانا وحماسة ويؤلف بينهم ويكون العروة الوثقى التي لا تنفصم . ومن اراد ان يرى بعينه شاهدا على ذلك فلينظر الى العرب قبل الاسلام وبعده . اما حالهم قبل الاسلام فكل من له ادنى المام بالتاريخ يعرفها حق المعرفة. ومن لم يكن له المام بالتاريخ ففي القرآن الذي هو كتاب متواتر ، لا يشك في تواتره احد لا موافق ولا مخالف. فيرى فيه ان العرب كانوا يقتلون اولادهم بسبب الفقر وكانوا يئدون بناتهم لاسباب سخيفة وكانوا لا يورثون الاناث ولا الصبيان ، لانهم كانوا يحصرون امتلاك الاموال في من يحمل السلاح ويقاتل ، لان العاجز عن ذلك كالنساء والصبيان لا يستطيع ان يدافع عن المال ويصد عنه غارات المغيرين المتوالية ، اذ كان يجب على كل من يملك شيئا ان يقاتل عنه ، ضرورة انه لم يكن لهم قانون ولا دولة ولا نظام ولا وازع ديني يكفهم عن سلب الاموال والارواح ، بل كانوا يرثون النساء زيادة على عدم توريثهن ، كما قال الله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها .) وكانوا يعضلون النساء ويمنعونهن من الزواج لاغراض خسيسة فنهاهم الله عن ذلك في مواضع من كتابه . وانما ذكرنا بعض اخلاقهم قبل الاسلام ليعلم من لا يعلم فضل الاسلام الصحيح عليهم وعلى كل من دان به من غيرهم . واما حالهم بعد الاسلام فهي اوضح واظهر من شمس الضحى يوم الصحو . فما الذي غير حالهم من التشتت الى الاجتماع ، ومن التخاذل الى التعاون ، ومن الجهل الى الحلم ، ومن الذل الى العز ، ومن الفقر الى الغنى ، ومن الخوف الى الامن ومن الضعة الى الرفعة والسيادة ، ومن الضعف الى القوة ، ومن الخمول الى الظهور ، ومن الفوضى الى النظام ، ومن تلك البقعة القاحلة الجرداء ، الى الاراضي المخصبة ، والجنات المثمرة ، والانهار المطردة ، والازهار الجميلة ، ومن البيوت الحقيرة ، الى القصور الشامخة في آسيا واروبة وافريقية . وكيف صارت الدول التي كانت قبل اسلامهم هي الصالحة للبقاء لا تصلح الا للفناء ؟ الجواب ان علماء التاريخ وعلماء العمران وعلماء تطور الامم قد اتفقوا على امر وهو ان العرب بعد اسلامهم صاروا اقوياء اغنياء سعداء متمدنين ذوي دولة ونظام ، ثم اختلفوا فالعقلاء المؤمنون بالله قالوا ان السبب المباشر في ارتفاعهم من حضيض الهمجية الى سماء المدنية الفضلى هو الدين . واما الذين لا يؤمنون بالله وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون فقد اعتقدوا ان القرآن ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم نفخ فيهم روح الحياة وهذه الروح جعلتهم يتعلمون العلوم من الامم المغلوبة التي اندثرت مدنيتها وقد نسي هؤلاء او تناسوا القاعدة العظيمة وهي ان فاقد الشيء لا يعطيه .

وهذا القرآن وهذه الدعوة المحمدية ليسا من الاشياء التي كانت فبانت ، كما يتوهمه الجاهلون . وليسا من الفضائل الحيوانية والنباتية التي انقرضت وحلت محلها فضائل اخرى ولن تعود الى الوجود ابدا كما يريد الاستعمار القديم والجديد (رحم الله الملك الراحل محمد الخامس الذي انشا هذه العبارة) ان يعلمنا ، بل هما قوة باقية خالدة لا تزول ولا تحول . ولك ان تطالب الدليل البارز المشاهد وعلى ان ادلي به فاقول ... كيف نشات الدولة العثمانية ، ومن اين استمدت قوتها امن هولاكو وتيمور لنك وجنكيز خان ؟ لا والله فان هؤلاء كانوا غزاة متوحشين ، والتاريخ اصدق شاهد وانما استمدت قوتها ووجودها وصارت امبراطورية عظيمة استولت على آسية وقسم كبير من اوربة وافريقية من الاسلام . ودونك شاهدا غير بعيد

ولا منقرض بل هو قائم حاضر وهو المملكة السعودية. كيف نشأت هذه الدولة في قلب الامبراطورية العثمانية وناهيك بما كان للامبراطورية العثمانية من الحول والطول وقد تصدت بجميع قواها الحربية والدعائية لتحطيم الحركة الدينية الاصلاحية التطهيرية التي اشرق نورها من قلب جزيرة العرب بجوار الحرمين الشريفين اللذين هما شريان الخلافة العثمانية ، لان اجل القاب السلطان العثماني (خادم الحرمين) وزوال هذا اللقب ينذر بزوال الخلافة ثم بزوال الامبراطورية وهو نتيجة محتومة لزوال الخلافة . ولذلك جمع الخليفة العثماني كل قواه ، وعبأ جيشه العظيم تحت قيادة محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا وزحفوا على الامارة السعودية بعد ما شنوا عليها حملات اقلام مضللة ، وتمكنوا من قتل رئيس الدولة السعودية ورئيس الامور الدينية بعد ما اسروهما وخربوا مدينة الدرعية التي كانت عاصمة للامارة السعودية ، وظنوا انهم قد قضوا على الحركة الاصلاحية الدينية والنهضة العربية التحريرية ، فخاب ظنهم ورجعت الحركة السعودية الدينية والسياسية اقوى مما كانت عليه . ولم تزل في تقدم واتساع حتى صارت اعظم مملكة في جزيرة العرب وما يليها الى حدود الشام والعراق . والمراد بجزيرة العرب في حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال ... اخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب ... هو الحجاز ونجد . وهو الذي عنيت بقولي السابق .

وهناك شاهد ثالث من نوع آخر على ان الاسلام قوة عظيمة معنوية ومادية لمن تمسك به باخلاص ؛ وهو ان جميع دول اوربا بملوكها وجيوشها غزت البلاد المقدسة فلسطين واوقدت فيها نار حرب بينها وبين المجاهدين من المسلمين دامت مائتي سنة وختمت بهزيمة تامة لدول اوربا . ومن قابل ذلك بحال فلسطين في هذا الزمان لا يجد مندوحة من الاعتراف بان الاسلام الصحيح قوة لا تقهر ، وان كل شعب سعد اسلافه وارتفعوا بالاسلام لن يسعد ولن يرتفع الا بما ارتفع به اسلافه . ومن ظن خلاف هذا فهو مخدوع يخبط خبط شعواء في ليلة حالكة ظلماء ومضمون له الخيبة والخسران .

وانما قيدت الدين بكونه صحيحا في اول المقال احترازا من الدين المبدل الذي لايقوم على القرآن بدون تنطع بل كما فهمته العرب في القرن الاول وسيرة الرسول والخلفاء الاربعة . واما الدين المبدل في العقائد والاخلاق والاحكام فلن ياتي بتلك الثمرة ابدا . بل قد يبلغ به التبديل والتغير الى ان يصير شرا وضررا محضا وياتي بعكس المطلوب . وبذلك يفسر نجاح الاستعمار وفشل الحركات الدينية التي تصدت لمقاومته . وانما الدين الاسلامي دواء وصفة طبيب نطاسي بارع في معرفة العلل النفسية للامم والشعوب. فمن خالف وصفة الطبيب في التركيب او الاستعمال فمن تلك المخالفة اتى لا من الدواء فهو صالح كما قدمنا شواهده لكل زمان ومكان الى ان ينتهي اجل هذا النظام الشمسي الذي نعيش فيه . وفي كلام برنارد دشو الانكليزي وديني الفرنسي وكارلايل وتولستوي وغيرهم من فلاسفة الغرب الاوروبي وحكمائه اعتراف صريح بما ذكرته . وبعد هذا التمهيد والبحث المفيد نخرج بالنتيجة التالية وهي .. ان الركن الاول من ثقافة العرب الذين نحن جزء منهم وثقافة المسلمين الذين يؤلفون الامة التي ننتمي اليها هو تعليم الدين تعليما عمليا عقديا اخلاقيا جديا من روضة الاطفال الى آخر سنة في الجامعة . وكل ثقافة تخل هذا الركن الاساسي او تقرره تقريرا لفظيا فارغا من معناه ومن العقيدة والعمل والخلق والجد والمعلمين الاكفاء فنتيجتها صفر على اليسار .

ومن زعم ان الدول الاوربية السعيدة القوية التي مضت على سعادتها وقوتها وتعاونها وثباتها في وثباتها ونجاحها في جهادها في حربها وسلمها مآت السنين قد هجرت الدين وكان ذلك سبب نجاحها فهو لا يخلو من ان يكون جاهلا مقلدا امعة قد استهداه الاستعمار الروحي وافسد فطرته وتفكيره ، او عالما بالحقيقة لكنه منافق مخادع يظهر خلاف ما يعتقد جبنا وخوفا من فوات رغبة شخصية او طمعا في رغبة جديدة تصل اليها نفسه الامارة .

على ان دينهم ليس فيه من الحياة والقوة والمطابقة للعقل والكفالة بسعادة الروح والبدن مثل ما في ديننا .

(لغة القرآن)

واذا تقرر ان الركن الاساسي من اركان الثقافة التي نحتاج اليها هو معرفة الدين الصحيح والعمل به والتقيد باحكامه والدعوة اليه فمفتاح هذه الثقافة هي لغة القرآن والسنة ، فبدونها لا يمكن ان نعرف هذا الكنز العظيم الذي خلفه اسلافنا من العلوم والاداب

الدينية والدنيوية . وهذا فرض مقدس على جميع الشعوب العربية والاسلامية وعلى قدر ادائه والتقدم فيه يكون تقدمها العام ، ولا افشي سرا اذا قلت اننا معشر المغاربة احوج الى هذا النوع من الثقافة من جميع الشعوب العربية لان لغتنا العامية اصابها من الفساد ما لم يصب غيرها من العاميات . فلا يوجد شعب عربي لا يميز في كلامه العام بين المذكر والمؤنث ويا للاسف الا الشعب المغربي الا قليلا من بواديه وقراه ، ولقد جاءني طالب مغربي يدرس في الكلية العسكرية من جامعة بغداد فقال لي ما معناه .. تعسا لهذه اللغة التي تعلمناها من آبائنا وامهاتنا، فاني قدرت على اصلاح لساني واخراج الحروف من مخارجها ، ولكن بقي في لساني عيب كبير يفضحني كلما تكلمت في مجلس من المجالس فتلاحظني العيون بنظرات الاستغراب فاذوب خجلا . الا وهو كسر تاء المخاطب المذكر في الافراد والجمع . اضف الى ذلك ان كثيرا من سكان المدن يعجزون عن النطق ببعض الحروف العربية كالثاء والجيم والسين والذال والشين والظاء والتاء . ولقد اجتمعت بالاديب الكبير الاستاذ احمد البلغيثي رحمه الله على ظهر باخرة بين السويس وجدة وتذاكرنا وتناظرنا وكان في المجلس جماعة من المغاربة منهم الاستاذ الحسن بوعياد ناظر الاوقاف بفاس وجماعة من اهل العراق فلما انفض المجلس تعجب العراقيون من نطق الشيخ البلغيثي لانه كان ينطق بالتاء فيحدث فيها صفيرا ورخوة كالزاي الالمانية وكما لو جمعت بين التاء والسين وكان ينطق بالثاء مثل ذلك فلم يفهموا كلامه فاخبرتهم بمكانته العالية في الادب العربي وان ذلك التلفظ هو الجاري في المغرب ، وهذا التلفظ قد بلغ الى تبديل آيات القرءان . فباذني سمعت القارىء يقرأ قوله تعالى (الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) . فقلب الشين من كلمة (شاء) سينا والجيم من كلمة (مجذوذ) زايا ، فتغير المعنى وقد نقل القاضي عياض في كتاب الشفا الاجماع على ان من بدل حرفا من القرآن عمدا فهو كافر . وبقطع النظر عن هذا لا تهاونا به ولكن تنزلا وافتراضا فمن العار على اهل المغرب ان لا يعالجوا هذا الداء ويحسموا مادته ويسعوا في اصلاح المنطق . وقد قال الشاعر .

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالت العرب .. المرء باصغريه .. قلبه ولسانه وتجويد القرآن فرض . قال بن الجزري في ارجوزته .

والاخذ بالتجويد حتم لازم
من لم يجود القرءان آثم
لانه به الاله انزل
وهكذا منه الينا وصلا
وهو ايضا حلية التلاوة
وزينة الاداء والقراءة
فواجب عليهم محتم
قبل الشروع اولا ان يعلموا
مخارج الحروف والصفات
لينطقوا بافصح اللغات

وانا اقترح على وزارة الاوقاف المغربية المحترمة ان تقوم بهذا الاصلاح وتقضي هذا الفرض بايفاد الطلبة الى مصر ليتخصصوا في التجويد او تأسيس مدرسة هنا لهذا الغرض وتدعو لها الاساتذة الاكفاء من مصر . ونحن في زمان بلغت فيه عناية الامم المتقدمة بتجويد منطق لغاتها الى حد انها تدرس هذا الفن (فونتيك) بالتصوير فتؤخذ صور الفم عند النطق بكل حرف . وتسجل الوف الكتب الناطقة بقراءة الفصحاء للمكفوفين وغيرهم .

وسبب هذا النقص في منطق كثير من المغاربة كثرة المخالطة للاعاجم ، فقد استولى المغرب على اسبانيا وبقي مختلطا معها ثمانيمائة سنة ، ثم هاجر كثير من مسلمي الاندلس الى المغرب واختلطوا باهله . وقبل ذلك كان ملوك الدول المغربية تاتي بالاف الجنود العجم من اسبانيا الى المغرب فيندمجون في المغاربة مع مرور الزمن . واهل الاندلس ، وان كانوا قد بلغوا الغاية في الفصحى فان لغاتهم العامية كانت منحرفة ومعوجة وبعيدة من اللغة العربية الفصحى . انظر بحث اللغة من كتاب الاحكام في اصول الاحكام للامام بن حزم

ثم جاء الاستعمار فزاد في الطين بلة، وفي الطنبور نغمة . فاستعجم الشعب المغربي واستعمرت اللغة الفرنسية والاسبانية اللغة العربية وقضتا عليها قضاء تاما . وقد انجر بنا الكلام الى مشروع التعريب من غير قصد . ونحن مع استحساننا لمؤتمرات التعريب التي تنعقد في المغرب نرى ان التعريب له طريق آخر وهو بعث الطلبة للتمرين على مختلف الادارات المدنية والعسكرية في البلاد العربية . والى ان يتم تمرين العدد الكافي من الموظفين يجب استيفاد الموظفين من

البلاد العربية في كل سنة عدد منهم يحل محل الموظفين العجم والمستعجمين الذين يتوجهون لطلب الاستعراب في البلدان العربية . ولا ينبغي ان يفهم احد من كلامنا ان الشعوب العربية الاخرى قد قامت بواجبها كاملا مع لغة القرآن . فانها مقصرة كل التقصير ، ومتخلفة كل التخلف عن الامم الناهضة في ميدان اللغات وآدابها تبعا لتخلفها في الميادين الاخرى ، والمقام لا يحتمل التفصيل .

واقترح على وزارة التربية والتهذيب المحترمة ان تختار المعلمين الفصحاء والمعلمات الفصيحات من روضة الاطفال الى الجامعة وتلزمهم باصلاح السنة تلاميذهم وازالة ما ذكرناه من الفساد بعد ازالته من السنتهم اعني المعلمين انفسهم .

وكل تهاون بهذا النوع من الاصلاح يترك ابناء المغرب متخلفين في اللغة العربية مستعجمين . واما العلوم العصرية واللغات الاجنبية فالافضل ان تأخذها راسا من اوربا وامريكا بلا واسطة . وذلك بايفاد البعثات من الطلبة للتعلم واستيفاد الاساتذة بقدر الحاجة والوسع . ولا ينبغي لنا ان نقتصر على شعب واحد من الشعوب الاوربية لا نتعداه ، بل ينبغي لنا ان نطلب العلوم العصرية في بلدان مختلفة لنجمع خلاصة ما جد من الاكتشافات والاختراعات ونترجم ذلك بانفسنا وننقله الى لغتنا ونعلمه ابناءنا ، ولا نبقى اسراء في يد دولة واحدة على لغة واحدة . ونحن نرى الشعوب الاوروبية نفسها تتبادل الطلاب والاساتذة ولا يستغني شعب منها بما عنده من العلوم وان بلغ الغاية في الرقي والتقدم .

واهم شيء يجب ان نوجه اليه عنايتنا من العلوم العصرية العلوم التي تهيئنا الى استخراج الكنوز المخزونة في ارضنا بانفسنا ونستغلها وننعم بها ولا نبقي منها شيئا مهملا ثم الصناعات والفنون التي نحتاج اليها في معاشنا ونستورد على الدوام منتوجاتها من الخارج . ثم اعداد الموظفين الاداريين والمهندسين والاطباء والاخصائيين في سائر الفنون . وينبغي لنا ان نراقب البعثات من التلامذة الذين يدرسون في الخارج مراقبة كفيلة باداء المهمة التي سافروا من اجلها حتى يكون كل عائد منهم الى الوطن قد اتم دراسته واستعداده لان يحل محل الاستاذ او المدير او الموظف الاجنبي ويدير عمله بنجاح لا يقل عن نجاح سلفه بل يزيد . ويجب ان نحذر من بعث الطلاب غير الاكفاء مع عدم مراقبتهم في مراحل دراستهم في الخارج حتى لا يقضوا سنين عديدة تكلفنا نفقات طائلة ثم يرجعوا بخفي حنين او بشهادات ملفقة يحملونها ، حتى اذا كلفوا بالاعمال او الادارة او التعليم يظهر عجزهم وفشلهم . ويحكى ان امبراطور اليابان لما بعث البعثة الاولى من الطلبة الى اوربا قضوا مدة هناك على نفقة حكومتهم ثم رجعوا يحملون شهادات ليس معها معلومات تمكنهم من القيام بالاعمال التي يشغلها الاجانب في بلادهم . فلما كلفوا بتلك الاعمال ظهر افلاسهم وعجزهم ، فامر الامبراطور بمحاكمتهم فظهر انهم مذنبون وحكم عليهم بعقوبات شديدة . ثم بعث البعثة الثانية وقضت المدة المعينة نفسها فلما رجعوا بشهادات معها علم وكفاءة حل كل واحد منهم محل موظف من الاجانب وقام بعمله خير قيام ، واني لاعرف رجلا درس الادب في اوربا ثم درس في جامعة عربية من اشهر الجامعات وتخرج بشهادة الدكتور في الادب العربي ثم اخذ يدرس ادب اللغة العربية فوصل الى رسالة بعث بها عمر بن الخطاب الى معاوية ، جاء فيها (ولم آل جهدا في النصيحة) فقال للطلبة يا عجبا . كيف دخلت لم على الاسم (فكلمة (آل) اسم ولم لا تدخل الا على الفعل المضارع فتحير الطلبة ايضا . ودعا بمعجم فأخذ يفتش فيه عن معنى الال فلم يجد ما يحل المشكلة . ثم ذهب الى كلمة (ءال) بكسر الهمزة فلم يحصل على شيء . وبقيت المعضلة على حالها حتى سألني احد اولئك الطلبة وقلت له : ان (لم) لم تنحرف عن سنتها ولم تسلك واديا غير واديها ولا ابتغت بالفها وهو الفعل المضارع بديلا ، وانما اتى صاحبكم من تبلد الذهن وسوء الفهم وخوضه فيما لا يعنيه . وآل فعل مضارع مجزوم بحذف الواو . وهذا الفعل من الافعال الشائعة الاستعمال وهو موجود في القرءان في سورة آل عمران (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايالونكم خبالا)

وقد آن لنا ان نمسك عنان القلم ، اذ لو تركناه لجرى اشواطا لا يحتملها المقام وبالله التوفيق .

الموازين والضوابط

للدكتور
فتحي الحبي الصفدي

- 17 -

ما اعجب نظام الضوابط والموازين الذي منع اي حيوان ، وان بلغ من الضراوة والقوة وعظم الجسم والمكر كل مبلغ ، من التحكم في اهل الارض والسيطرة عليهم منذ عصر الحيوان القشري المتجمد ، لكن الانسان وحده قلب هذه الموازين الطبيعية بنقله الاشجار وسائر النبات والحيوان من مكان الى مكان ، الا انه قد ادى ثمن تلك السيطرة وعوقب عقابا شديدا بسبب تطور الحيوان والحشرات والنبات وما نشأ عن ذلك من الآفات .

والحقيقة التالية مثال واضح يدل على اهمية تلك الضوابط وذلك التوازن بالنسبة لوجود الانسان ، قبل سنين عديدة زرع نوع من التين الشوكي (الهندية) في استراليا على شكل سياج (زرب) وقائي ، ولا توجد في استراليا حشرات مضادة لشجر التين الشوكي ، فلذلك نمى بسرعة غريبة حتى غطى مساحة واسعة تساوي مساحة البلاد الانكليزية كلها وضايق اهل المدن والقرى ، واتلف مزارعهم ، وحال بينهم وبين الزراعة ، ولم يستطع اهل تلك البلاد ان يجدوا وسيلة لوقفه عن الانتشار ، واصبحت استراليا في خطر من جراء جيش من الزرع الصامت يكتسحها ، لاطاقة لها بدفعه . وعند ذلك اخذ علماء النبات يبحثون في جميع انحاء الدنيا عن وسيلة تقاوم انتشاره ، حتى عثروا في نهاية بحثهم على حشرة لا تعيش الا على التين الشوكي ، ولا تأكل شيئا ءاخر ، وهي سريعة النمو والتكاثر وليس لها عدو يقاومها في استراليا ، فاخذت في اكل التين الشوكي حتى قضت عليه ، ثم قل عددها ولم يبق منه الا القدر الكافي لوقف ذلك النوع من النبات عند حده الى الابد .

وكذلك خلق الله الضوابط والموازين لوقف كل نوع من المخلوقات عند القدر الصالح حتى لا يطغى بعضها على بعض .

لماذا لم تسيطر بعوضة الحمى الناقض (ملاريا) على اهل الارض فتجعل اسلافنا عبر الاعصار والقرون يموتون بسببها او يكتسبون مناعة ؟ ومثل ذلك يقال في بعوضة الحمى الصفراء التي انتشرت شمالا في احد الفصول حتى وصلت نيويورك ، والبعوض كثير جدا في المناطق المتجمدة ، ولماذا لم يتطور ذباب (تسي تسي) حتى يعيش في غير المناطق الحارة ، وحينئذ يقضي على البشر ويمحوهم من الوجود ؟ ، وهنا ينبغي لنا ان نذكر الطواعين والاوبئة القتالة التي لم يكن للناس ما يحميهم او يمنعهم منها الى امس القريب ، ويذكر ما كان عليه الانسان من الجهل التام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم ان بقاء الجنس البشري مع كثرة اعدائه امر عجيب تتحير فيه الالباب هذه الحقائق العجيبة من اسرار الطبيعة تستحق الذكر والاعتبار ، وان كانت لا تكون بالضرورة برهانا تاما على وجود العناية الربانية من طريق مباشر ، ولكنها تضاف الى البراهين السابقة فتزيدها قوة ووضوحا .

ان الحشرات ليست لها رئتان كما للانسان ، وانما تتنفس بواسطة انابيب ، فاذا نمت وكبرت اجسامها لا تنمو تلك الانابيب بنمو الحشرات، فيتوقف نموها بسبب ذلك ، فلا تجد حشرة تزيد في طولها على بضع بوصات (البوصة هي الانتش باللغة الانكليزية ، وقد تقدم وهي تساوي ثلاث سنتمترات الا قليلا) ولا تطول اجنحتها الا قليلا ، وبسبب تكوينها الجسمي

وطريقة تنفسها لم توجد قط حشرة ضخمة الجسم ، وهذا الحد من نمو الحشرات منعها من الطغيان والسيطرة ووقفها عند حدها ، ولولا وجود هذا القانون الطبي ما امكن وجود الانسان فتصور الانسان في اول اطواره يصادف زنبورا في حجم الاسد او عنكبوتا مثل ذلك .

ولم يكتب الا قليل من انظمة انواع الحيوان الكثيرة بتلك الانظمة الفيزيولوجية العجيبة التي بدونها لا يمكن وجود حيوان ولا نبات ايضا ، واذا وجد الم يمكن استمرارهما ، وتلك الحقائق بلغت من الاهمية غايتها حتى صار ذكرها واجبا حتما ، لقد انتبه العالم الى وجود هذه الحقيقة ، وهي ان هناك اشياء كالفيتامينات ، وكان الناس من قبل يجهلونها وعرفوا ان فقد هذه الفيتامينات يسبب امراضا : نحو بلاكرا ، وبربرز وسكرفوي وسائر الامراض التي تعرف بامراض سوء التغذية ، ولابد ان الانسان قد عاش ملايين السنين قبل ان يعرف هذه المواد التي هي ضرورية لاستمرار حياته ، فان الاسفار الطويلة في البحر بدون غذاء تام تفضي الى مرض (سكرفوي) وقد اكتشف ان عصير الليمون دواء نافع لهذا المرض، وكان الملاحون في السفن الكبيرة في الزمن القديم يسمون عاصري الليمون ، ولم يكن الملاحون الاقدمون يعرفون سبب مرض سكرفوي وهذا الدواء البسيط اكتشفه فاسكودي عاما لما كان ملاحوه يموتون في مدغشقر ، غير انه مضى قرن من الزمان او اكثر قبل ان تكتشف العلاقات بين الليمون وبين اختفاء مرض سكرفوي ، وقد زال هذا المرض الفتاك وانقطع عن المسافرين في البحار بسبب ما ذكرنا ، انقضى قرن ءاخر او اكثر قبل ان يعرف الانسان قيمة الفيتامينات التي توجد في الليمون ، ولكنه لم يكن يعرف حينئذ ما تشتمل عليه هذه الفاكهة ، كذلك عاش ملايين السنين ايضا قبل ان يعرف وظائف المعامل الكيمائية الصغيرة المعروفة بالغدد الصم ، التي تمده بالتركيبات الكيميائية التي هي جد ضرورية له ، وهي تصنعها وتسيطر على حركاته واعماله ، اضف الى ذلك ان تلك المواد التي هي جد ضرورية له ، وهي تصنعها وتسيطر على حركاته واعماله ، اضف الى ذلك ان تلك المواد التي بلغت من القوة ان جزءا من بليون منها يحدث ءاثارا بعيدة المدى ، هي منطقة ، ينظم كل منها غيره ويحفظ توازنه ، وقد علم يقينا ان هذه الافرازات المعقدة اذا اختل توازنها حدث اختلال عقلي وجسمي في غاية الخطورة ، ولو عمت هذه المصيبة لاضمحلت المدنية وانحط الجنس البشري الى حالة الحيوان الاعجم ، هذا ان امكن بقاؤه ، على اننا لو اعتمدنا على هذه الضوابط والموازين وحدها التي بدونها لا يمكن وجود الحياة كما نعهدها لواجهنا بقاء الانسان بمسالة حسابية تستحق قدرا كبيرا من الاهتمام عند المدافعين عن عقيدة المصادفة .

تعقيبات :

1) تعجب المصنف من التوازن الذي جعله الله بين اجناس المخلوقات بسبب التضاد الذي فطرت عليه حتى لا يطغى بعضها على بعض ويستمر بقاء كل منها بالقدر الذي يصلح به نظام الحياة وعمارة الارض ، وكل ذلك سخره الله للانسان فهو السيد الحاكم المتصرف المستقل المستمتع ، وقد جاء في كتاب الله من التنبيه على هذه القاعدة ما فيه عبرة لاولي الالباب المنصفين الاحرار ، قال تعالى في سورة البقرة (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين) وقال تعالى في سورة الحج (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) الصوامع (معابد الرهبان والراهبات التي انقطعوا فيها الى العبادة وتركوا امور الدنيا يريدون بذلك التقرب الى الله والبعد عن فتنة الدنيا حسب اعتقادهم كما قال تعالى في سورة الحديد : (ورهبانية ابتدعوها) وقد امر النبي (ص) المسلمين اذا وقع بينهم وبين النصارى قتال ان يحترموا الرهبان والراهبات ولا يتعرضوا لهم بسوء الا اذا اشتركوا في القتال . والبيع جمع بيعة وهي في الاصل الكنيسة التي بنيت قبتها على شكل بيضة ، لان البيعة باللغة السريانية هي البيضة ، قلبوا الضاد عينا كما فعلوا ذلك في ضاد الارض فقالوا (ارعا) ومن المعلوم عند من يعرف اللغة السامية ان الضاد تصعب على السريانيين والعبرانيين فيقلبونها ويبدلونها بحرف ءاخر ، ثم عم لفظ البيعة كل كنيسة للنصارى ، والصلوات جمع صلاة ، وهي معبد اليهود ويسمى في اللغة العبرانية المستعملة الى اليوم (بيت تفلا) اي بيت الصلاة ، والمساجد معابد المسلمين وقد جاء الاسلام باحترام هذه المعابد وسلط على كل ظالم مقاوما يردعه ويرده عن غيه وما احسن قول الشاعر :

وما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيبلى بظالم

هذا فيما بين البشر وكذلك انواع الحيوان ياكل بعضها بعضا ، ولا ينقرض اي نوع من الانواع المفيدة الصالحة للبقاء واذا انقرض يخلفه نوع اجود منه وقد يقع التصاول بين النبات والحيوان فيكون احدهما غذاء للاخر ، والاكثر ان يكون النبات هو المأكول .

2) قوله : لكن الانسان وحده قلب هذه الموازين الطبيعية) ولقد كرمنا بني ءادم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وانما ساد الانسان وتحكم في نواصي غيره من الحيوان وان بلغ الغاية في القوة وضخامة الجسم بالعقل والتفكير والنطق الذي فضله الله به .

3) في قصة شجر التين الشوكي ويسمى عند بعض المغاربة (بالهندي) وعند بعضهم (بكرموس النصارى) والكرموس بالمغربية هو التين ، ويسمى في بلاد الشام (بالصبير) ، ويسمى في الحجاز (بالبرشوم وبابي برشوم) وله اسماء اخرى عند شعوب اخرى ، ومن العجيب ان المغاربة ينسبونه الى الهند، مع انه لا يوجد في بلاد الهند ولا يعرف ، في هذه القصة عبرة تدل على تسليط بعض المخلوقات على بعض حفظا لبقاء كل نوع منها، وكنت اتحدث مع احد العلماء المفكرين فقال لي : ان الاستهلاك لا ينقص النوع المستهلك ، بل يزيده ويوفره ، اذ على قدر الاستهلاك تكون العناية والعمل على تكثير ما يستهلك من حيوان ومزروعات وغيرها ، ففي كل يوم تذبح الاف من الغنم والبقر في كل بلاد يستحل اهلها اكل اللحم ولا ينقص ذلك الغنم والبقر بل يزيدها اقول وهذا نظر صحيح لان بلاد الهند واسعة الارجاء يعد اهلها بمئات الملايين ومساحتها واسعة جدا ، واهلها لا ياكلون اللحم الا المسلمين والنصارى ، وعددهم قليل خصوصا بعد انفصال الباكستان عن الهند ، فلم يبق في الهند من المسلمين الا اربعون مليونا وعدد النصارى بضعة ملايين فلو كان الاستهلاك ينقص الغنم والبقر لكانت بلاد الهند اكثر البلاد غنما وبقرا والواقع ان الغنم قليلة ، ونوع الضان منها لحمه رديء حتى ان الاغنياء هناك لا يضحون الا بالمعز او بالبقر ان امكنهم ، لان ذبح البقرة في البلاد التي يكون سكانها خليطا من المسلمين والهناديك يكلف ثمنا غاليا تزهق فيه ارواح وتقع حروب اهلية لاجل ذبح بقرة واحدة والمقصود هنا الاستدلال على ان الاستهلاك لا ينقص الجنس المستهلك .

4) قوله : على انا لو اعتمدنا على هذه الضوابط والموازنات وحدها ..الخ ، يريد المصنف ان يوضح انه مع استحالة بقاء الانسان والحيوان والنبات بدون تلك الضوابط وذلك التوازن فهي غير كافية وحدها لحياته وبقائه على ما هو عليه ، بل لابد من وجود العناية الربانية التي تتكفل بوجوده واستمراره الى ما شاء الله ، ويحتاج القائلون بان العالم وجد بالمصادفة وهو يسير بالمصادفة الى الجواب عن مشاكل حسابية عسيرة لاقبل لهم بها ، وقد تقدم في هذه المقالات السبع عشرة من قيام الحجج عليهم واقامة البراهين الخانقة شيء كثير فله يقنع المنصف فضلا عن جله وبالله التوفيق .

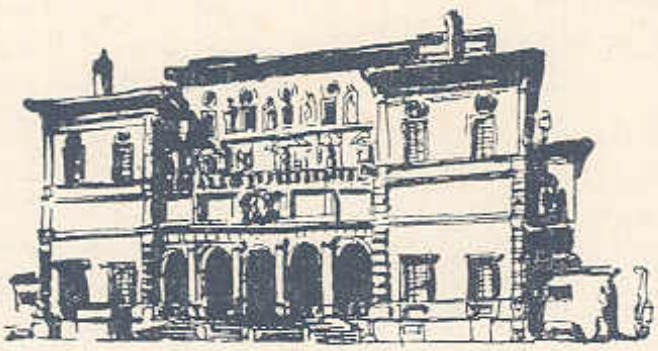

تعاليم الإسلام ومقتضيات العصر

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

تعاليم الاسلام اذا خلت من الجمود والجحود وبقيت على صفاتها لم تتلوث بالبدع المحدثة صالحة لكل زمان ومكان وكفيلة بسعادة الدارين للجنس البشري بأسره ، وهي مبنية على ثلاثة اصول : توحيد الله تعالى واتباع رسوله (ص) والخلق الحسن . فأما توحيد الله سبحانه فهو على ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية وهو اعتقادنا ان الله هو خالق هذا العالم والمتصرف فيه والمدبر لشؤونه لا يشاركه في ذلك احد كما قال تعالى في سورة الاعراف : « ان ربكم الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين » . معناه : ان مالككم وسيدكم الذي انعم عليكم بنعمتي الايجاد والامداد والذي بيده مقاليد اموركم وبيده ملكوت كل شيء واليه يرجع الامر كله هو الله الذي خلق السموات والارض ، اي انشأها وأوجدها من العدم على غير مثال سابق في ست مدد ثم استوى على العرش الذي هو اعظم المخلوقات . يغشى الليل النهار اي يغطي الليل بالنهار ، فيقصر الليل ويطول النهار ، ويغطي النهار بالليل فيقصر النهار ويطول الليل ، وسخر الشمس والقمر ، بأن جعل لهما نظاما بديعا دقيقا في مشارقهما ومغاربهما وفي انتفاع عباده بهما ، ثم قال تعالى الا له الخلق والامر ، فهو خالق كل شيء وله وحده الامر والتصرف في مخلوقاته وهي كلها خاضعة لارادته تبارك وتعالى .

وقال تعالى في سورة فاطر : « والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر اولئك هو يبور والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ازواجا وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ان ذلك على الله يسير وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك » . تضمنت هذه الآيات الكريمة من دلائل ربوبية الله تعالى امورا اولها ارسال الرياح التي تثير السحاب وتسوقه لانزال المطر حيث يشاء الله وثانيهما ان ذلك المطر يحيي الله به الارض بعد موتها فتخرج من خيراتها وبركاتها انواعا كثيرة من المعايش والارزاق التي تقوم بها حياة الانسان والحيوان ، ثالثها ان الله الذي احيا الارض بعد موتها قادر على احياء الموتى ببعثهم من مراقدهم لتجزى كل نفس بما عملت وذلك مقتضى عدله وحكمته ، افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ، رابعها ان العزة بيد الله من اعزه فلا مذل له ومن اذله فلا معز له فيجب على من يريد العزة ان يطلبها بطاعة

الله وامتثال أمره واجتناب نهيه وتحكيم شرعه باتباع كتابه ورسوله فبذلك تنال وبضده تنال الذلة لا مبدل لكلمات الله ، خامسها ان كل كلمة طيبة وكل عمل صالح يقبلهما الله تعالى ويثيب عليهما وكل كلمة خبيثة وعمل سيء لا يرضاهما الله تعالى ويعاقب مرتكبيهما . سادسها ان المجرمين الذين يخادعون الله والمؤمنين ، ويمكرون السيئات ويدبرون المكايد في محاربة الحق اتباعا لاهوائهم ، لهم عذاب شديد في الدنيا والاخرة ، ووبال مكايدهم لا يعود الا عليهم ، فيبور مكرهم ، اي يبطل : كما قال تعالى « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله . سابعها ان الله خلق الانسان من تراب ثم من نطفة في اطوار كثيرة حتى استوى انسانا كاملا وجعله اصنافا مختلفة في الخلق والاخلاق مع أن أصلهم واحد . فسبحان الخلاق العليم . ثامنها ان ذلك يستلزم كمال علمه بكل دقيق وجليل من احوال خلقه اذ كمال الصنعة يدل على كمال الصانع . تاسعها تفضله على عباده بان خلق نوعين من المياه أحدهما عذب ويلذ شرابه وثانيهما ملح مر طعمه مغاير للاول تمام المغايرة . عاشرها انه خلق لنا في كل من المائين اسماكا طرية اللحم ،لذيذة الطعم متشابهة مع تغاير مستقرهما العذب والملح . حادي عشرها انه خلق لنا في البحر الملح اللآلىء ومرجانا للزينة والتحلي . ثاني عشرها انه سخر لنا السفن والبواخر تمخر عباب البحور وتنقل الناس والبضائع من بلد الى بلد لتبادل المنافع والتوسع في المكاسب واوجب علينا الشكر ووعدنا بالمزيد . ثالث عشرها وقد تقدم ادخال الليل في النهار وادخال النهار في الليل وتسخير الشمس والقمر . ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك) ، فالذي فعل ذلك وامثاله هو المالك المربي وغيره عبد مملوك عاجز .

القسم الثاني توحيد العبادة : وهو التوجه الى الله وحده بالدعاء والصلاة والاستعاذة والاستغاثة وهي طلب الحفظ من الشر ، والتوكل ، وهو الاعتماد عليه في جلب الخير ودفع الشر ، والنسك وهو الذبح بقصد التعظيم ، والنذر وهو الذي يسمى بالمقربية (بالوعدة) والخوف بالغيب والخضوع بالقلب وهو الانابة والحلف والتصدق لوجهه والعبودية والتذلل له ، والتحاكم الى شرعه في كل شيء ، ونبذ كل تشريع لا يستند اليه ، والرضا بقضائه والصبر على المصائب لوجهه ، والتحاب فيه والتباغض لأجله والموالاة والمعاداة من اجله الى غير ذلك من انواع العبادات كالصوم والحج والجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك المحرمات والشبهات والاحسان الى خلقه والرحمة والشفقة عليه ، كل ذلك وما أشبهه لا يفعل الا لله ، ومن فعل شيئا منه لغيره فقد اشرك به (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من انصار) .

القسم الثالث : توحيد الاسماء والصفات وهو ان لا يوصف الله تعالى الا بما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في حديثه

الاصل الثاني اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيجب على كل مؤمن أن يحبه اكثر من نفسه واولاده ووالديه والناس اجمعين لقوله عليه السلام : (لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من والده وولده والناس اجمعين) رواه البخاري ومسلم من حديث انس ، وعلامة صدق محبته محبة ما جاء به ، واتباعه بتحليل ما احل وتحريم ما حرم ، وفعل ما امر به ، وترك ما نهى عنه ، والتخلق باخلاقه بقدر الامكان . والدليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به . رواه البغوي وصححه النووي ، ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل ، قال تعالى في سورة النساء (65) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » هذا قسم مؤكد من الله تعالى ، انه لا يؤمن احد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في كل نزاع يقع بينه وبين غيره ، ثم يرضى بحكمه ، ويسلم لذلك تسليما تاما ، حتى لا يقع في قلبه ادنى شيء من الاشمئزاز . ولو كان ذلك ذهاب نفسه وماله واحب الناس اليه ، وتحكيمه بعد انتقاله الى الرفيق الاعلى هو تحكيم كتاب الله وسنة رسوله. ولا يمكن تحكيمهما الا بالعناية بدراستهما ومعرفة ما فيهما ، والتهاون في هذا الامر هو سبب كل ما أصاب المسلمين . افرادا وجماعات ، من الشقاء الحسي والمعنوي ، ولا يزول عنهم هذا الشقاء الا بالرجوع الى ما كان عليه أسلافهم .

والاصل الثالث . الاخلاق ، وهذا الاصل هو ثمرة الايمان والاعمال الصالحة . قال تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم . والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا

بالحق وتواصوا بالصبر » . فكل ايمان وعمل صالح لا يبعثان صاحبهما على التواصي بالحق والتواصي بالصبر فهما باطلان لا خير فيهما ، والدليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان ، اخرجه البخاري ومسلم من حديث ابي هريرة وانفرد مسلم بقوله عليه الصلاة والسلام : وان صلى وصام وزعم انه مسلم

ومعناه ، أن من اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث منافق خالص ليس عنده شيء من الايمان ولو قال انا مسلم ونطق بالشهادتين وصلى وصام وحج وفعل كل ما امر به . ويزيد وضوحا ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها اذ أؤتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر ، ومعنى اذا خاصم فجر اذا اكد الوعد بالعهد يغدر فلا يوفي بعهده واذا خاصم احدا كذب وجحد الحق واندفع في الباطل ليغلب خصمه بذلك .

ورب قائل يقول : ان كل ما ذكرته في هذا الحديث ينطبق على تعاليم الاسلام . فاين مقتضيات العصر الحاضر التي هي من صلب الموضوع الذي تتحدث فيه فاقول في الجواب : لعلك تريد التقدم الاقتصادي ، والاجتماعي والسياسي والعلمي والحربي الى آخر ذلك . فتيقن أيها القارىء العزيز ان ذلك لم يغب عن بالي ، فاضمن لي وجود ما تقدم من الاصول الثلاثة : التوحيد ، واتباع الرسول ، والتخلق بالاخلاق التي جاء بها ، اضمن لك التقدم والتفوق في جميع الميادين حتى القنابل الذرية والهيدروجية والصعود الى الفضاء اكثر مما بلغت اليه امريكا والاتحاد السوفياتي زيادة على الرفاهية في العيش واستتباب الامن . اما اذا اهملت الاصول فالتخلف والشقاء التام والذلة والهوان كل ذلك مضمون للمسلمين والعرب ، وان سعوا بكل وسيلة من الوسائل المستوردة والعقائد المجلوبة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مكناس : الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

قال رجل لعمر بن عبد العزيز :

— متى اتكلم ؟

قال : اذا اشتهيت أن تصمت .

قال :

— فمتى أصمت ؟

قال : اذا اشتهيت أن تتكلم .

تعليق على مقالين في العدد السابق

للدكتور تقي الدين الهلالي

أما المقال الاول فهو بقلم الكاتب العبقري الذي قل ان يقري قرية كاتب لا في المغرب العربي وحده بل في البلاد العربية والاسلامية بأسرها، مقال كحد السيف بين القبائل اذا بان لم يترك مقالا لقائل والمقال الثاني في الجزء نفسه للاستاذ محمد بن احمد بن عبد الله في توحيد الصوم والاعياد .

وابدا بالمقال الاول الموسوم : بالدراسات الاسلامية للاستاذ عبد الله كنون فاقول : ان الاستاذ كنون في ذلك المقال قد تكلم بلسان اثنى عشر مليونا كما قال بحق وصدق ، ومن شذشذ في النار ، وتكلم كذلك بلسان الاسلام الذي يدين به مآت الملايين ، وتكلم بلسان العرب وعددهم سبعون مليونا وعزز كل ما ادعاه بالبراهين القاطعة والادلة الساطعة كما يفعل المحامي القدير امام القضاة ، فيسد على خصمه كل طريق ، ويقف له بالمرصاد ، ويلحقه بموكله فيسجنهما جميعا في قفص الاتهام ، وكل من قرأ هذا المقال وكان عنده من العربية ما يمكنه من فهمه ومن الانصاف ما يحبب له الحق ويبغض له الباطل يصل الى النتيجة التي وصلت اليها ، وما دام في النواب الذين يتصدون لوضع الدستور مثل هذا البطل فلا خوف على الحق واهله من سطوة المبطلين وتلبيس الملبسين وخيانة الخائنين . ويتلخص هذا المقال القيم في الحقائق التالية :

1) ان المغرب قطر يسكنه اثنا عشر مليونا من الناس كلهم يدينون بالاسلام ويقدسون العروبة ويتمسكون بمغربيتهم اعظم تمسك ، وهذا باستثناء اقلية صغيرة من اليهود كانت قبل هجرة الكثير منهم الى فلسطين المغتصبة تعد بمائتي الف نسمة ، وبعض ذوي الافكار المضادة لهذه المبادىء وهم مهما بالغنا في تعدادهم تصديقا لدعواهم فلن يتجاوزوا بضع مآت .

2) اسلام المغاربة واخلاصهم فيه لا يحتاج الى اقامة دليل لا عند المغاربة وحدهم بل عند كل من زار المغرب واطلع على احواله وهذه حقيقة مسلمة لا تحتاج الى مراء ولا جدال .

3) يقول الاستاذ كنون : اما الصيام فلم يكن احد يخل به حتى طفت علينا هذه الحرية الموبوءة التي نرجو ان يكون الدستور وقاية لنا من عقابيلها الفتاكة ، اقول: سمى الاستاذ كنون هذا التفسخ والفوضى الخلقية حرية موبوءة ، وهي في الحقيقة عبودية للشهوات والاغراض الفاسدة ، وقوله : نرجو ان يكون الدستور وقاية لنا من عقابيلها الفتاكة ، العقابيل جميع عقبول وهو ما يخلفه المرض من العواقب والنتائج وما يظهر على الشفة بعد الحمى ، وتشبيهه لعواقب الفوضى الخلقية بالعقابيل من ابلغ التشبيه وغريبه ، ونحن نرجو كما يرجو الاستاذ كنون ان يكون الدستور المرتقب واقيا وشافيا للمغاربة من هذه الامراض الاجتماعية المهلكة ، فان لم يكن كذلك فوجوده وعدمه سواء. وقد امر جلالة الملك محمد الخامس ايده الله ان يبنى الدستور على الاساسين العظيمين كتاب الله وسنة رسوله فاذا كانت الكلمة لممثلي الشعب الحقيقيين الاحرار المخلصين كالاستاذ عبد الله كنون فسيكون الدستور بلسما شافيا وحصنا واقيا من تلك الامراض ، قوله : فالمغربية تلي العربية واذا تعارضتا فرضا وتقديرا فهو عربي فكرا وشعورا وانف الوطنية الاقليمية الضيقة راغم ، تماما كما لو تعارضت العربية — وهي لا تتعارض — مع الاسلام فهو مستعد للتضحية بها والتنكر لها ؛

يشتمل هذا الكلام على قضيتين ، الاولى هي تنافر المغربية مع العربية قال الاستاذ كنون : انهما لا تتنافيان ولو لم يمكن الجمع بينهما لتنازل المغاربة عن مغربيتهم وتمسكوا بعروبتهم . اقول : ان سكان المغرب قسمان او غصنان من شجرة واحدة وهم العرب والبربر ، والبربر شعب يتصل بالعرب في النسب ، وقد ضرب بسهم وافر في بناء مجد العروبة والاسلام لا يستطيع العرب ان يدلوا باكثر منه ، وان علماء اللغات المعروفين في اللغات الاوربية بلفظ (الفيلولوجيين) مجمعون على ما يعلمونه علم اليقين ان البربر وقدماء المصريين يتصل نسبهم بالعرب ، فلا شك عندهم ان اصلهم واحد ، وقد اخبرني البروفسر تشرماك : مدير المعهد الافريقي في جامعة فيينا انه القى محاضرات في الجامعة المصرية اثبت فيها بالبرهان القاطع من طريق علم اللغات ما ذكرته آنفا . اذن فالمغربية والعربية شيء واحد ، والقضية الثانية ، هي فرض اختلاف العروبة مع الاسلام وانهما لو اختلفا لنبذنا العروبة وتمسكنا بالاسلام فاننا مسلمون قبل ان نكون عربا كيف وقد قال الله تعالى في الكتاب الكريم : «انما المؤمنون اخوة» . وقال تعالى في آخر المجادلة « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه » .

ونحن نعيد تاكيدنا للشعوب العربية التي تتالف منها الامة العربية انها لن تفلح ابدا ولن تعود لها السيادة والمجد اللذان سعد بهما العرب في صدر الاسلام الا بالرجوع الى الاسلام ، ولا اقصد الاسلام اللفظي ولا الاسلام المشوب بالبدع والخرافات والشرائع المحرفة ، وانما اقصد الاسلام الذي كان عليه النبي والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار بلا زيد ولا نقص ولو مثقال ذرة . وما اجمل واصدق قول الاستاذ كنون : فالذي يريد ان يسوس المغرب ويحظى بثقة المغاربة عليه ان يرعى هذه المباديء الثلاثة في كل عمل يعمله وكل سياسة ينهجها ، والا فانه سيبوء بالفشل الذريع والخذلان الشنيع . وبقية مقال الاستاذ كنون ليس عندي ما ازيده عليها الا اني اعيد هنا ما قلته من قبل ما دام الرجال المنتخبون لتاسيس الدستور يوجد بينهم مثل هذا الرجل الحر فلا خوف على الدستور ولا خوف على المغرب ان شاء الله .

واما المقال الثاني في توحيد الصوم والاعياد فليس عندي ما اعلق عليه الا اني اقول ان الاستاذ ابن عبد الله قد استوفى الكلام على هذه المسالة من جميع الوجوه اصولا وفروعا وجمع خلاصة مذاهب اهل السنة من زمان السلف الى يومنا هذا ، وخرج بنتيجة حاسمة لاتبقي شكا عند من له ادنى نصيب من الفقه بمعناه الحقيقي المقصود بقول النبي (ص) (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ومن سوء الحظ ان الفقهاء بهذا المعنى عددهم قليل في المغرب في الوقت الحاضر فكثر الله من امثاله . فعلى وزارة الاوقاف ان تتلقى هذه الفتوى بما تستحقه من العناية والاعتبار وتسعى للعمل بمقتضاها فان القول بتعدد المطالع اوقع المسلمين في فوضى عظيمة حتى صار اهل القطر الواحد يختلفون في الصوم والعيدين وصار الحجاج يقفون بعرفات يؤدون مناسك يوم النحر على حكم المملكة السعودية ، وكثير من الاقطار الاخرى تخالفهم في يوم العيد . وان علم الفلك ليؤيد ما جاء عن الفقهاء الثلاثة ابي حنيفة ومالك واحمد واحدى الروايات عن الشافعي كل التاييد ، ولو كان المفتون من المسلمين يبحثون ويفكرون بالطريقة التي سلكها الاستاذ ابن عبد الله ويتجنبون الجمود والتعصب والتقليد الاعمى لاتحدت افكارهم وزال الاختلاف بينهم في كثير من المسائل ولاجتمعوا على مذهب واحد كما كان الامر في زمان النبي (ص) والصحابة والتابعين ، وتلك هي القرون المفضلة بنص الرسول (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) . فنسأل الله ان يجمع كلمة المسلمين على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ويشفيهم من داء التفرق في الدين انه سميع مجيب .

استشر في امرك الذين يخشون الله

عن الزهري قال قال عمر رضي الله عنه لا تعترض فيما لا يعنيك واحتفظ من خليلك الا الامين فان الامين من القوم لا يعادله شيء ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره ولا تفش اليه سرك واستشر في امرك الذين يخشون الله .

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

المراد باللسانين ـ اللسان والقلم ، فان العرب تقول : القلم احد اللسانين . والمقصود هنا اصلاح الاخطاء التي تفاقم أمرها في هذا الزمان حتى أصبحت مألوفة عند اكثر الخاصة بله العوام ، فشوهت وجه اللسان العربي المبين ، ورنقت صفو زلاله المعين ، مما يسوء كل طالب علم يحرص على حفظ لغة القرآن وصيانتها من الافساد والتشويه ، والعبارات الجافية التي تشين جمالها ، وتذهب بهائها .

ولم يزل علماء اللغة معتنين بهذا الموضوع ، باذلين جهدهم في تنظيف الانشاء العربي من الالفاظ الدخيلة ، والتعابير الثقيلة . وقد ألف في ذلك الامام أبو محمد القاسم بن علي الحريري كتابا نفيسا سماه (درة الغواص في أوهام الخواص) وهو مطبوع متداول . وألف الشهاب الخفاجي كتاب (شفاء العليل في العامي والمولد والدخيل) وألف الشيخ ابراهيم اليازجي الناقد البصير كتابا سماه (لغة الجرائد) وألف الاديب اسعد داغر في ذلك كتابا سماه (تذكرة الكاتب)

وقد بدا لي أن اكتب مقالات في هذا الموضوع اداء لواجب لغة الضاد ، وصونا لجمالها من الفساد ، راجيا أن ينفع الله بما اكتبه تلاميذتي في الشرق والمغرب وفي أوربا ، وانا على يقين انهم يتلقون ما اكتبه بشوق وارتياح . وكذلك رفقائي الكتاب المحافظون سيستحسنون ذلك . أما الكتاب الذين يكرهون التحقيق ويرخون العنان لاقلامهم بدون تبصر ولا تمييز ، بين غث وسمين ، وكدر ومعين ، فانهم سيستثقلون هذا الانتقاد وقد يعدونه تكلفا وتنطعا ، وتقييدا للحرية ـ بزعمهم ـ فلهؤلاء أقول : اني لم اكتب لكم ، فما عليكم الا ان تمروا على ما اكتب مرور الكرام وتدعوه لغيركم الذين يقدرونه حق قدره . وهذا أوان الشروع في المقصود ، وبالله أستعين ، فهو نعم النصير ونعم المعين .

1 ـ الكاف الدخيلة الاستعمارية

اما تسميتها دخيلة ، فلا اشكال فيه ، لانها لا توجد في الانشاء العربي الذي قبل هذا الزمان . واما تسميتها استعمارية ، فانها دخلت في الانشاء العربي مع دخول الاستعمار البلدان العربية ، فان جهلة المترجمين تحيروا في ترجمة كلمة تجيء في اللغات الاوربية قبل الحال ، وهي في الانكليزية (AS) وفي الفرنسية Comme وفي الالمانية (ALS) مثال ذلك : فلان كوزير لا ينبغي له ان يتعاطى التجارة . وفلان يشتغل في الجامعة كمحاضر ، وفلان مشهور ككاتب .

وهذا الاستعمال دخيل لا تعرفه العرب ، ولا يسيغه ذوق سليم ، وليس له في قواعد اللغة العربية موضع ودونك البيان . قال ابن مالك :

شبه بكاف وبها التعليل قد
يعنى وزائدا لتوكيد ورد
(واستعمل اسما)

تاتي الكاف في كلام العرب لأربعة أمور :

1 ـ التشبيه كقول المتنبي في ممدوحه :

كالبحر يقذف للقريب جواهرا
جودا ويبعث للبعيد سحائبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها
يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

واركان التشبيه اربعة ـ المشبه ـ والمشبه به ـ واداة التشبيه ـ ووجه الشبه . فالمشبه في البيتين المذكورين هو الممدوح ، والمشبه به ، الشمس والبحر ، واداة التشبيه ، الكاف ، ووجه الشبه ، حصول النفع للقريب والبعيد . فالشمس على فرط بعدها من الارض ينتفع اهل الارض بضوئها ودفئها وانضاجها للثمار الى غير ذلك ، فكذلك الممدوح يصل احسانه الى من كان بعيدا منه ، ولا يقتصر على من كان قريبا منه

والمشبه في البيت الاول هو الممدوح ، والمشبه به هو البحر ، واداة التشبيه هي الكاف ، ووجه الشبه ، وصول الاحسان الى القريب والبعيد ، فالقريب يستخرج الجواهر من البحر ، والبعيد ينتفع بمطر السحائب الناشئة من البحر ، فكذلك الممدوح يعطي من كان حاضرا عنده الجوائز والصلات ويبعث بها الى من كان بعيدا عنه

وبهذا تعلم ان الكف الاستعمارية لا يجوز ان تكون للتشبيه البتة لعدم وجود اركانه

2 ـ **هو التعليل** ، تجيء الكاف للتعليل كقوله تعالى في سورة البقرة (198 ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم ، فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وان كنتم من قبله لمن الضالين) . اي واذكروا الله لانه هداكم .

3 ـ **ان تكون زائدة** اذا دخلت على كلمة بمعناها ، وجعل منه قوله تعالى في سورة الشورى 11 « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) فان قلت : ان كانت زائدة لا فائدة في ذكرها ، فلما ذا جاءت في القرآن ؟ فالجواب ، ان فائدتها التوكيد ، وانما سميت زائدة ، لان الكلام يتم بدونها ، كما تزاد (من) للتوكيد كقوله تعالى في سورة المائدة (19 ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) فمن هنا زيدت لتوكيد النفي ، ولو حذفت لكان الكلام تاما .

4 ـ **ان تكون اسما بمعنى مثل** كقول الشاعر :
اتنتهون ولن ينهى ذوي شطط
كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

الاستفهام هنا انكاري . يقول الشاعر لأعدائه : كيف تنتهون عن ظلمكم وبغيكم ولن ينهى ذوي الظلم شيء مثل الطعن المبيد المهلك الذي لا يترك لهم شيئا . لا انفسا ولا اموالا ، فان ذهاب الزيت والفتيلة كناية عن الهلاك التام، وهذا ينبغي ان يقال للمستعمرين اذا كانت الرماح التي يطعن بها حاضرة ، وهي في هذا الزمان القنابل المحرقة التي لا تبقي ولا تذر . فهذه معاني الكاف عند العرب ، وما سواها شاذ لم يجيء في الكلام البليغ

وانما وقع جهلة المترجمين في هذا الاستعمال الفاسد لضعفهم في اللغتين او احداهما فلا يستطيعون ادراك معنى الجملة مجتمعة ليصوغوا في اللغة الاخرى جملة تؤدي المعنى المطلوب بالفاظ جيدة الاستعمال، واقعة في مواضعها التي يقتضيها النظم الفصيح . وهذا العجز هو الذي يلجئهم الى ان يبدلوا كل مفرد في احدى اللغتين بمفرد اخر في اللغة الاخرى فيجيء التركيب فاسدا معوجا لا تستغيه اذواق الفصحاء في اللغة التي ينقل اليها المعنى . وستأتي في هذه المقالات ان شاء الله امثله عديدة توضح ذلك .

وليس المترجمون العرب وحدهم هم الذين يقعون في اخطاء الترجمة ، بل يقع فيها كبار العلماء الاوربيين . وقد احصيت الاخطاء الموجودة في ترجمة (جورج سيل) للقرءان الكريم بالانجليزية فوجدت في الجزء الاول وحده ، وهو حزبان بتجزئة المغاربة ستين خطأ . و (جورج سيل) مستشرق انكليزي كبير ، وقد تبعه من بعده من المترجمين في اخطائه ، حتى الاستاذ (محمد مار مادیوك بكثال) المسلم الانكليزي رحمه الله تبعه في اول خطأ كبير ارتكبه ، وقد ناظرته في ذلك مناظرة طويلة حتى اقتنع ورجع عن خطأه ، وكان ذلك في ترجمة قوله في سورة البقرة 13 (الا انهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون) فانهما ترجماها بما معناه (اليسوا سفهاء) وسبب وقوعهما في هذا الخطأ عدم التمييز بين (الا) الاستفتاحية البسيطة ، و (الا) المركبة من همزة الاستفهام ولا النافية ، فان (الا) في قوله تعالى : (الا انهم هم السفهاء) استفتاحية خالية من النفي يجب ان تترجم بلفظ انكليزي يدل على التوكيد ومثال المركبة الذي اوردته على الاستاذ الانكليزي المذكور فاقتنع بوجود الفرق بين الكلمتين قوله تعالى في سورة الملك 14 (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)

وليس كل الكتاب البلغاء في العصر الحاضر يتورطون في استعمال الكاف الاستعمارية فان فيهم طائفة من عليتهم لا تشين انشاءها بذلك الاستعمال .

2 ـ فتـــــرة

شاع استعمال الفترة في هذا الزمان في وقت العمل فيقولون : فترة الصبح ، وفترة الظهيرة ، وفترة المساء ، يريدون بذلك زمان العمل . قال البيضاوي في قوله تعالى في سورة المائدة (19 يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) اي جاءكم على حين فتور من الارسال وانقطاع من الوحي . اه

قال ابن منظور في لسان العرب : والفترة : ما بين كل نبيين . وفي الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة . وفي الحديث : فترة ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . اه

ومن ذلك تعلم ان الفترة ليست وقت العمل ، بل هي ما بين عملين . فالوقت الذي لا يكون فيه عمل هو الذي يجب ان يسمى فترة ، وقد عكسه عامة الكتاب والمذيعين . ومن سوء الحظ ان اكثر الناس في هذا الزمان لا يتعلمون الانشاء في مدارس اللغة العربية ولا في كتب اللغة العربية ، وانما يتلقونه من الاذاعات والصحف ، فكل خطأ يشيع في هذين المصدرين تنطلق به الالسنة والاقلام بدون تفكير ولا تمييز . وربما استعمله بعض كبار الاساتذة الذين يرجى منهم المحافظة على صحة الاستعمال وجمال اللغة العربية وتنقيتها من المولد والدخيل الذي لا حاجة اليه .

3 ـ الخلـــق

كثر استعمال الخلق في هذا الزمان بمعنى الانشاء او الايجاد . يقال مثلا : يجب علينا ان نسعى لخلق نهضة ثقافية . **وهو استعمال فاسد، جاء من جهلة المترجمين لكلمة فى اللغات الاوربية مشتركة تستعمل فى انشاء الله تعالى المخلوقات وايجادها على غير مثال سابق** وتستعمل في تلك اللغات ايضا في معنى الانشاء المطلق .

اما في اللغة العربية فان الخلق بمعنى الايجاد والانشاء خاص بالله تعالى . ومن اسمائه سبحانه : الخالق والخلاق . قال تعالى في سورة النحل (17 افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون) وقال تعالى في السورة نفسها (19ـ20 والله يعلم ما تسرون وما تعلنون يخلقـــون)

وقال تعالى في سورة الرعد : (16 ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار)

اما في هذا الزمان الذي اختلت فيه الموازين والمقاييس ، وعمت الفوضى في الانشاء العربي فلم يبق الخلق خاصا بالله تعالى بل صار الناس كلهم خالقين وخلاقين

قال في لسان العرب : خلق : الله تعالى وتقدس الخالق والخلاق . وفي التنزيل : « هو الله الخالق البارىء المصور » . وفيه : « بلى ، وهو الخلاق العليم » . وانما قدم اول وهلة ، لانه من اسماء الله تعالى .

الازهري : ومن صفات الله تعالى الخالق والخلاق . ولا تجوز هذه الصفة بالالف واللام لغير الله عز وجل ، وهو الذي اوجد الاشياء جميعها بعد ان لم تكن موجودة . واصل الخلق التقدير ، فهو باعتبار تقدير ما منه وجودها ، وبالاعتبار للايجاد على وفق التقدير خالق

والخلق في كلام العرب : ابتداع الشيء على مثال لم يسبق اليه . وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق اليه : « الا له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين » . اه

ويطلق الخلق ايضا على التقدير قال في اللسان : وخلق الاديم يخلقه خلقا ، قدره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادة او قربة او خفا . قال زهير يمدح رجلا :

ولانت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يقول : انت اذا قدرت امرا قطعته وامضيته ، وغيرك يقدر ما لا يقطعه ، لانه ليس بماضي العزم ، وانت مضاء ما عزمت عليه . اه

اقول : وقد رأيت اهل البادية في الصحراء يدبغون جلد البعير ويقطعونه نعالا ، فكلما احتاج احدهم الى نعلين يضع قدمه اليمنى على قطعة كبيرة من الجلد المذكور ، فياتي الشخص الذي يقطع النعلين ويخط الى جانب القدم دائرا بها ، وذلك هو الخلق ، ثم يقطع النعل على ذلك التخطيط ، وذلك القطع هو

الفري ، ثم يفعل ذلك بالقدم الاخرى ، فتجيء النعلان على قدر القدمين بلا زيد ولا نقص .

نقول الشاعر : ولانت تفري ما خلقت ، وبعض القوم يخلق ثم لا يفري ، يريد ان ممدوحه متى عزم على شيء نفذ عزمه ، وغيره يعزم ويقدر ثم لا ينفذ شيئا ، لانه خائر العزيمة ، ضعيف الارادة

والمعنى الثالث للخلق هو الكذب . قال تعالى في سورة العنكبوت : (17 انما تعبدون من دون الله اوثانا وتخلقون افكا) اي تكذبون كذبا . وقال الشاعر :

لـي حيلـة فيمـن ينـم
وليس في الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو
ل فحيلتي فيه قليله

4 ـ بينمـا

لقد اعتدى عامة كتاب العصر على هذه الكلمة ، فشوهوا جمالها ، وسلخوها عن معناها الحقيقي والبسوها معنى مكذوبا ، فانهم يستعملونها في معنى (على حين) كقول بعضهم : كما ان هذه المحاولات قد اتخذت اشكالا مختلفة ، بعضها اقتصادي صرف ، وبعضها سياسي صرف (بينما) البعض الاخر اتخذ الشعارين معا .

فهذا الاستعمال فاسد مختلق لا اصل له في كلام العرب ، وهو ايضا من جنايات جهلة المترجمين ، فانهم ترجموا كلمة (While) الانكليزية فوضعوا مكانها (بينما) فظلموهما جميعا . والترجمة الصحيحة لهذه الكلمة (على حين ، او في حين) .

اما الاستعمال الصحيح العربي (لبينما) ، فانها تكون في صدر الكلام ولا بد لها من جملتين كأدوات الشرط . فمن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله (ص) اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر ـ الحديث . وكقول الشاعر :

وبينما المرء في الاحياء مغتبط
اذ هو في الرمس تعفوه الاعاصير
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه
وذو قرابته في الحي مسرور

وشواهده في كلام العرب لا تعد ولا تحصى .

5 ـ وتحدثوا لبعضهم البعض

هذا ايضا استعمال فاسد ناشيء عن فقدان الملكة في اللغة العربية . والصواب : وتحدث بعضهم الى بعض ، كما قال تعالى في سورة القلم : (30 فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون) .

والذي اوقعهم في هذا الخطأ جهلهم بالنحو ، فان من كان عالما بالنحو في اي لغة كانت يتخذه مصباحا يضيء له طريق انشائه ، سواء اكان كاتبا ام متكلما ، فلا يضع قدمه الا بعد ان يبصر موطئها . اما الجاهل بالنحو، فانه يمشي كالاعمى يضع قدمه دون ان يرى موطئها فتزل به القدم ويسقط في حفر الاخطاء

6 ـ والادهى من ذلك

هذا الخطأ ايضا ناشيء عن الجهل بالنحو ، فكل من يعرف احكام اسم التفضيل اقل معرفة لا يقع في هذا الخطأ . قال ابن مالك في الالفية .

وافعل التفضيل صلة ابدا
تقديرا ، او لفظا ، بمن ان جردا

قال ابن عقيل في شرحه لالفية ابن مالك : لا يخلو افعل التفضيل عن احد ثلاثة احوال . الاول ان يكون مجردا . الثاني : ان يكون مضافا . الثالث : ان يكون بالالف واللام ، فان كان مجردا ، فلا بد ان تتصل به (من) لفظا او تقديرا جارة للمفضل عليه نحو : زيد افضل من عمرو . ومررت برجل افضل من عمرو . وقد تحذف (من) ومجرورها للدلالة عليهما كقوله تعالى : (انا اكثر منك مالا واعز نفرا) اي واعز نفرا منك

وفهم من كلامه : ان افعل التفضيل اذا كان (بأل) او مضافا لا تصحبه (من) فلا تقل : زيد الافضل من عمر ولا زيد افضل الناس من عمرو . اه

فتبين ان قولهم : والادهى من ذلك خطأ ، لان افعل التفضيل اذا دخلت عليه (ال) لا تلحقه (من) ومن العجيب ان افعل التفضيل في الانكليزية والالمانية جار على هذا المنوال .

هذا وموعدنا الجزء التالي ان شاء الله

الدكتور تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

(2)

7 ـ قاتل ضد

هذه العبارة ، وما اشبهها من المصائب الاستعمارية اللغوية التي نكبت بها اللغة العربية . والاصل في ذلك ان قاتل في اللغة الانكليزية والالمانية من الأفعال اللازمة التي لا يتعدى فعلها الى المفعول به الا بحرف، وهو في الانكليزية (Against) وفي كل من الالمانية والفرنسية لفظ يقابله يتعدى به الفعل الى مفعوله . والمترجم الجاهل الذي يضع مقابل كل كلمة من اللغة التي يترجمها كلمة تقابلها من اللغة التي ينقل اليها المعنى ، ولم يدر ان (قاتل) في اللغة العربية فعل متعد بنفسه لا يحتاج الى حرف . قال تعالى في سورة البقرة 190 (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) .

وقد شاع ذلك التعبير الفاسد كقولهم مثلا : (امريكا تقاتل ضد فيتنام الشمالية) واذا نظرنا في هذه الجملة بعين الناقد البصير الذي يدري ما يقول نجدها تدل على ضد ما يريده قائلها وتعكس مراده ، لان الضد هو العدو .

قال صاحب اللسان : الضد كل شيء ضاد شيئا ليغلبه . اه

وقال عكرمة في قوله تعالى في سورة مريم 81 ـ 82 : (واتخذوا من دون الله ءالهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) اي اعداء .

فاذا قلنا : ان امريكا تقاتل ضد فيتنام الشمالية ، كان معناه : ان امريكا تقاتل عدو (فيتنام الشمالية) اي تقاتل نفسها ، وهذا مسخ للغة العربية يدمي قلب كل من يحبها ويغار عليها ، ويريد لها الانتعاش ، فالحياة فالازدهار ، وان يعاد لها مجدها فتساير ركب الحضارة الانسانية ، وتكتسي حلة التقدم في مجالات المدنية ، وتنال الحظ الاوفر اللائق بمكانتها من التعبير عن العلوم والاداب ، حتى يستغني الناطقون بها عن تكفف اللغات الاجنبية .

8 ـ جمع الرومي على الرمان

مما هو شائع على السنة الكتاب والخطباء والمعلمين والاساتذة التعبير بلفظ (الرومان) فاذا سألناهم عن مفرده ـ وقف حمار الشيخ في العقبة ـ ، او اجابوا بانه جمع رومي ، وهذا جواب غير صحيح .

والحقيقة ان هذا التعبير مأخوذ من اللغات الاوربية كالانجليزية مثلا . والالف والنون يقابلان

الياء في العربية (فرومان) في هذه اللغة نسبة الى رومة يقال للواحد ، والجمع بزيادة سين ساكنة فيه ، فاتعمله جهلة المترجمين بلفظه ، ولم يعلموا ان ترجمته الصحيحة في المفرد (رومي) وفي الجمع (روم) . قال الله تعالى : (الم غلبت الروم في ادنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) .

والعرب تطلق لفظ الروم على الاغريقيين والايطاليين ، ومن اليهم . قال ابن منظور في لسان العرب : والروم جيل معروف ، واحدهم رومي ، ينتمون الى عيصو بن اسحاق النبي عليه السلام . ورومان بالضم ، اسم رجل .

قال الفارسي : روم ورومي ، من باب زنجي وزنج . قال ابن سيدة : ومثله عندي فارسي وفرس . قال : وليس بين الواحد والجمع الا الياء المشددة كما قالوا : تمرة وتمر ، ولم يكن بين الواحد والجمع الا الهاء . اه

فرومان في اللغة العربية لا يدل على جيل من الناس ، وانما هو علم يسمى به الرجال ، ورومان ابو قبيلة

قال « الفيروزابادي » في القاموس : ورومان بالضم (موضع) ورومان الرومي ، وابن نعجة صحابيان ، وام رومان ، ام عائشة الصديقة ، والروماني (موضع) باليمامة ، ورومية (بلد) بالمدائن خرب ، و (بلد) بالروم سوق الدجاج ، فيه فرسخ ، وسوق البر ثلاثة فراسخ ، وتقف المراكب فيه على دكاكين التجار في خليج معمول من النحاس ، ارتفاع سوره ثمانون ذراعا في عرض عشرين ، فيما نقله ابن خرداذبه ، فان يك كاذبا فعليه كذبه . اه

وقد تبين بما ذكرناه ان لفظ (رومان) لا وجود له في العربية ، وانما يوجد للمفرد رومي وللجمع روم . وقد توسع الكتاب في هذا الزمان فقالوا : يوناني ويونان ، فكأنهم قاسوه على رومي وروم ، وزنجي وزنج . والذي في القاموس هو : واليونانيون جيل انقرضوا اه

وقول « الفيروزابادي » : انقرضوا ، له في ذلك عذر ، لان بلاد اليونانيين في زمانه كانت ولاية من ولايات الدولة العثمانية . ووجود الشعوب مرتبط باستقلال دولها ، وما بالعهد من قدم . ففي الامس القريب ، كنت انا بنفسي ، كلما سالني سائل في اوربا او في آسيا ، وحتى في افريقية ، كلما سالني سائل ، من اين انت اقول : من المغرب فيبادر بسؤال اخر ، انت من المغرب الاسباني او من المغرب الفرنسي ، او من طنجة الدولية؟ فاقول : المغرب بلد واحد ، وهو للمغاربة ، فلا يريد ان يصدقني احد ، كأن المغرب خلقه الله ، يوم خلق السموات والارض مجزأ ثلاثة اجزاء ، مع ان تقسيمه نشأ منذ زمان قريب ، ولم يستمر الا ثلاثا واربعين سنة .

واغرب من ذلك اني لما اردت التجنس بالجنسية العراقية سنة 1934 قدمت طلبا الى الدوائر المختصة في البصرة فبقيت الاوراق تتنقل من دائرة الى دائرة مدة شهرين ثم بعثت الى بغداد العاصمة ، فسافرت لاتعقبها الى بغداد ، وبقيت شهرين استنجد واتشفع حتى وصلت الاوراق الى يد مدير وزارة الداخلية ، فاخذ جواز سفري يتأمله وانا واقف امامه ، والى جانبي الاستاذ كمال الدين الطائي من كبار علماء بغداد تفضل بمرافقتي ليعينني وينفع لي ، فقال المدير : بفظاظة ، ما هي جنسيتك ؟ فقلت : مغربي فاستشاط غضبا وقال : (جنسية هتشي ماكو) يعني لا توجد جنسية هكذا ، قل : فرنسي فقلت : بل هي موجودة ، فانظر ما هو مكتوب على الجواز باللغة الفرنسية (امبير شريفيان) اي الدولة الشريفية ، فلم يقتنع بذلك ، فقلت له : هل كنت انت انكليزيا قبل سنتين ؟ اي قبل المعاهدة الاخيرة ، فقال لي : (حنا كنا عثمانيين ، ومن بعد صرنا عراقيين) ، فقلت له انا ونحن دولة مغربية منذ ما يزيد على الف سنة ، منذ اسس الامام ادريس بن عبد الله الدولة المغربية واستقلت عن الدولة العباسية ، فجذبني الاستاذ كمال الدين من ثيابي وقال لي : دع هذه القضية ، فاتعقبها انا ، لانه راى ان القضية قد دخلت في طور خطير بالجدال مع مدير الداخلية .

فكتب ذلك المدير على اوراقي الطلب مرفوض ، وبذلك احبط لي عمل اربعة اشهر ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحم ضعفي وغربتي ، فسقطت تلك الوزارة ، وكانت احدى وزارات جميل المدفعي ، ولم تلبث في الحكم الا اثنى عشر يوما ، ولا توجد فيما اعلم وزارة عراقية تماثلها في قصر العمر .

وجاءت بعدها وزارة علي جودة الايوبي فاعدت الطلب وحصلت على الجنسية في ثلاثة ايام بمساعدة النبيل الشهم عارف قفطان العاني ، وكان صديقا حميما لعلي جودة الايوبي .

وفي سنة 1341 هـ حججت الحجة الاولى ، ووقع خصام بيني وبين صاحب حانوت بمكة فعيرني ، وزعم اني فرنسي ، فقلت له : انت انكليزي ، فنحن في البلية سواء ، وكان في زمان الشريف حسين بن علي . اذن فلا غرابة في قول صاحب القاموس : ان اليونانيين انقرضوا.

والذي يهمنا هنا هو انه لا يقال : يوناني ويوتان ، وانما يقال : يوناني ويونانيون .

ومن ذلك قولهم : الماني والمان . والصواب : جرماني وجرمانيون ، لان البلاد التي تسمى في هذا الزمان المانية ، كانت العرب تسميها (جرمانية) هكذا سماها ابن الفقيه البغدادي المتوفى في اواخر المائة الثالثة للهجرة في كتابه الذي سماه (كتاب البلدان) وذكر فيه جغرافية العالم . وقد ترجمته مع الاستاذ (باول كالي) باللغة الجرمانية ، ولفظ (المانية) فرنسي ، فاذا اردنا ان نتساهل ونترك اللفظ العربي ، ونستعير اللفظ الفرنسي وجب علينا ان نقول : (الماني والمانيون) ، والافضل لنا ان نستعمل اللفظ العربي ونحببه ونستغني به .

استطـــــراد

كل من يقرأ مقالاتي يعلم ان الاستطراد محبب الي فيما اقرو ، وفيما اكتبه ، لان الاستطراد كالطعام المؤلف من الوان متعددة ، ولذلك رايت ان اذكر تفسير اول سورة الروم تتميما للفائدة وتلوينا للغذاء .

قال البيضاوي في تفسيره : (الم غلبت الروم في ادنى الارض) ارض العرب منهم ، لانها الارض المعهودة عندهم ، او في ادنى ارضهم من العرب ، واللام بدل من الاضافة (وهم من بعد غلبهم) اي من اضافة المصدر الى المفعول . وقرىء غلبهم ، وهو لغة كالجلب والجلب (سيغلبون في بضع سنين) .

روي ان فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى ، وقيل بالجزيرة ، وهي ادنى ارض الروم من الفرس ، فغلبوا عليهم ، وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا : انتم والنصارى اهل كتاب ، ونحن وفارس اميون ، وقد ظهر اخواننا على اخوانكم ، ولنظهرن عليكم ، فنزلت

فقال لهم ابو بكر : لا يقرن الله اعينكم ، فو الله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين . فقال له ابي ابن خلف : كذبت ، اجعل بيننا اجلا اناحبك عليه ، فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعلا الاجل ثلاث سنين ، فاخبر ابو بكر رسول الله (ص) فقال : البضع ما بين الثلاث الى التسع ، فزايده في الخطر وماده في الاجل ، فجعلاه مائة قلوص الى تسع سنين . ومات ابي من جرح رسول الله (ص) بعد قفوله من احد .

وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، فاخذ ابو بكر الخطر من ورثة ابي ، وجاء به الى رسول الله (ص) فقال : تصدق به . واستدلت به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب ، واجيب بأنه كان قبل تحريم القمار .

والاية من دلائل النبوة ، لانها اخبار عن الغيب وقرىء غلبت بالفتح ، وسيغلبون بالضم ، ومعناه : ان الروم غلبوا على ريف الشام ، والمسلمون سيغلبونهم . وفي السنة التاسعة من نزوله غزاهم المسلمون ، وفتحوا بعض بلادهم، وعلى هذا تكون اضافة الغلب الى الفاعل .

توضيحات لكـلام البيضـاوي

1 ـ قوله (واللام بدل من الاضافة) يعني ان اداة التعريف في (الارض) بدل من الضمير المضاف اليه . والتقدير : غلبت الروم في اقرب ارضهم ، وهي ارض العرب التي كانوا مستولين عليها ، لان اذرعات وبصرى هما من بلاد الشام ، وبلاد الشام ليست ملكا للروم ، وانما استولوا عليها بالتسلط والقهر ، هذا على القول بان المراد بالارض (بصرى واذرعات) . واما على القول بانها الجزيرة ، فهي كذلك ليست للروم ، بل هي من بلاد العرب ، لانها واقعة بين دجلة والفرات

2 ـ قوله : (من اضافة المصدر الى المفعول) يعني ، وهم من بعد غلبت الفرس لهم سيغلبون الفرس في مدة لا تتجاوز البضع ، وهو ما بين ثلاث الى تسع .

3 ـ قوله : (روي ان فارس غزوا الروم) من المعلوم ان البيضاوي ، مع علمه بالنحو والصرف واللغة والفقه الشافعي والاصول ، وعلم الكلام مزجى البضاعة في علم الحديث . ففي تفسيره احاديث موضوعة يذكرها في فضائل السور . وروى بصيغة الفعل المبني للنائب لا يستعملها اهل الحديث الا اذا كان المروي ضعيفا ، فلذلك اردت ان الم بتخريج هذا الحديث وبيان رتبته .

اما تخريجه فقد رواه الامام احمد والترمذي والنسائي ، وابن ابي حاتم ، وابن جرير بطرق تختلف الفاظها ، ويتفق معناها في الجملة ، ورواه كذلك سنيد ابن داوود في تفسيره . وروايته اقرب الى ما ذكره البيضاوي

واما رتبته فقد قال الترمذي في بعض طرقه : حسن غريب ، وفي بعضها حسن صحيح .

4 ـ قوله : (اناجبك عليه) اي اراهنك واخاطرك . والقلوص الشابة من النوق .

5 ـ قوله : (ومات ابي بن خلف من جرح رسول الله (ص) قال ابن القيم رحمه الله في « زاد المعاد » ج 2 ص 93 : ادرك رسول الله(ص) ابي بن خلف (يعني في غزوة احد) على جواد له ، يقال له العود ، زعم عدو الله انه يقتل رسول الله (ص) ، فلما اقترب منه ، تناول رسول الله (ص) الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها ، فجاءت في ترقوته ، فكر عدو الله منهزما . فقال له المشركون : والله ما بك من بأس ، فقال : والله لو كان ما بي بذي المجاز لماتوا اجمعون .

وكان يعلف فرسه بمكة ويقول : اقتل عليه محمدا، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فقال : بل انا اقتله ان شاء الله تعالى ، فلما طعنه ، تذكر عدو الله قوله : انا قاتله، فأيقن بانه مقتول من ذلك الجرح ، فمات منه في طريقه بسرف مرجعه الى مكة . اه

5 ـ قوله : (وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية) الخ . الحديبية بصيغة التصغير وتخفيف الياء على الصحيح عند اهل اللغة . موضع يبعد عن مكة بنحو عشرة اميال . وقع فيه الصلح بين النبي (ص) وبين اهل مكة في ذي القعدة سنة ست للهجرة .

6 ـ قوله : (واستدلت به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب) الخ . يعني ان الحنفية استدلوا بمراهنة ابي بكر الصديق مع ابي بن خلف ، وعلم النبي (ص) بذلك واقراره عليه ، وامره ابا بكر ان يتصدق بما ربحه من الابل ، استدلوا بذلك على جواز القمار وغيره من العقود المحرمة ، مع اعداء الاسلام في دار الحرب ، ومنع ذلك الشافعية ، واجابوا عن الاحتجاج بفعل ابي بكر ان ذلك كان قبل ان يحرم القمار ، وحينئذ لا حجة فيه على جواز القمار مع المحاربين ولا غيره من المحرمات كالربى ، فلا يجوز التعامل بالربا، لا مع المسلمين ولا مع المسالمين ، ولا مع المحاربين ، وهذا هو الصحيح ، لان المراهنة على ما يظهر كانت في مكة قبل الهجرة . ويؤيد ذلك ما جاء في بعض روايات الحديث ان هزيمة الروم وقعت بعد المراهنة بسبع سنين .

ومن المعلوم ان اية تحريم القمار ، وهي قوله تعالى في سورة المائدة 90 : (يا ايها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون) نزلت بالمدينة والخمر التي حرمت مع القمار في الاية كانت حلالا عند ما قدم النبي (ص) المدينة ، وكانت تشرب ويتجر فيها ، ثم حرمت بعد ذلك اولا في اوقات الصلاة بقوله تعالى في سورة النساء 43 : (يا ايها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ثم حرمت بتة باية المائدة .

7 ـ قوله : (والاية من دلائل النبوة) الخ . هذه معجزة باقية خالدة يستوي في ادراكها من كان في زمان النبي (ص) وشاهدها بنفسه ، ومن ياتي بعد ذلك الى يوم القيامة ، لان سورة الروم مكية ، وكان المسلمون عند نزولها في غاية القلة والضعف يسخر منهم اعداؤهم ولا يابه بهم احد

وقد اخبر الله سبحانه في اول هذه السورة ان الروم البيزنطيين هزمهم الفرس شر هزيمة ، وكان الروم اعظم دولة في الغرب ، والفرس اعظم دولة في الشرق الادنى على الاقل ، ولم تجر العادة ان دولة عظيمة تمنى بهزيمة منكرة تلم شعثها وتجمع شملها ، وتعيد الكرة في بضع سنين فتهجم على الدولة التي هزمتها وتكيل لها صاعا بصاع .

فلو قال قائل بعد هزيمة جرمانية (المانيا) : ان الدولة الجرمانية ستعيد الكرة على اعدائها وتهزمهم في بضع سنين ، ثم وقع الامر طبق ما قال ذلك القائل لصدقه جميع الناس في كل ما يقول وءامنوا به ، فما ذا يقول المنكرون لعجزات القرءان من غلاة اعدائه الاجانب ، واذنابهم من الاغمار من سكان البلاد العربية والاسلامية في هذه المعجزة الخالدة ؟ ؟ وكم وكم من امثالها في القرءان لمن تدبر القرءان ، وسلمت عين بصيرته من غشاوة التعصب الممقوت والجهل والتهور والطيش .

8 ـ قوله : (وقريء غلبت بالفتح ، وسيغلبون بالضم) الخ هذه قراءة ضعيفة خارجة عن السبع شاذة والمعنى على هذه القراءة : غلبت الروم فارس ، وسيغلبهم العرب المسلمون . وقد غزا المسلمون الروم قصاصا منهم في السنة التاسعة من نزوله . والقراءة الاولى هي المعتمدة

9 ـ قوله : (وعلى هذا تكون اضافة الغلب الى الفاعل) يعني على القراءة الشاذة ، يكون المصدر مضافا الى فاعله . والتقدير : من بعد ان غلب الروم الفرس سيغلبون ـ بضم الياء وفتح اللام ـ اي يغلبهم المسلمون . وهذا آخر المقال الثاني من تقويم اللسانين . وموعدنا الجزء التالي بحول الله وقوته

مكناس : تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 3 -

9 — في اية مناسبة

من الاخطاء التي شاعت وذاعت في هذا الزمان تانيث (اي) اذا اضيفت الى مؤنث كقولهم : يمكن ان يجيء في اية لحظة ، ولم ترد اية انباء ، وهذا الاستعمال كثير يسمع في كل وقت من الاذاعات ويقرا في الصحف ، وهو فاسد ، فان (ايا) اذا اضيفت الى مؤنث او مذكر و جمع كيفما كان تبقى على حالها . قال الله تعالى في سورة الانفطار (في اي صورة ما شاء ركبك) .

وقال تعالى في سورة المؤمن (فاي آيات الله تنكرون) وقال تعالى في سورة الرحمن (فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

قال الخضري في حاشيته على ابن عقيل في الكلام على الحكاية بعد تقرير حكم (اي) المحكي بها ، وبيان انها تتبع اللفظ الذي حكي بها في الاعراب والتذكير والتانيث والافراد والتثنية والجمع ما نصه : خرج المسؤول بها ابتداء فلا يحكي بها شيء ، بل تكون بحسب العوامل ، ومفردة مذكرة لا غير مثل من ، وشذ قوله :

باي كتاب ام باية سنة
ترى حبهم عارا علي وتحسب

وقال الصبان في حاشيته على الاشموني مثل ذلك .

وقول الخضري : ابتداء ، احترز بذلك من المسؤول بها حكاية ، فانها تذكر وتؤنث ، فاذا قال لك قائل : جاءني رجل تقول : اي . واذا قال لك : جاءتني امراة تقول : اية . فاي مسؤول بها في الحالين ، الا انك اذا سالت بها ابتداء تلزم الافراد والتذكير . واذا سالت بها حكاية تجيء على حسب المحكي .

10 — نسيت انا الآخر

هذا خطأ شائع في البلاد العربية ، يقول شخص مثلا : نسي صديقي وعده ونسيت انا الآخر ، او نسي هوالاخر. فاستعمال الآخر هنا خطأمحض. والصواب: ونسيت انا ايضا .

وهذا الاستعمال موجود في اللغة العامية المصرية بابدال الهمزة راء ، يقولون مثلا : نسيت انا (راخر) والظاهر ان اول من ارتكب هذا الخطأ عامة الكتاب المصريين ، لانه موجود في لغتهم العامية فاستعملوه في الفصحى ، وتبعهم غيرهم من عامة كتاب البلاد العربية والمتكلمين بها من غير العرب .

11 — اعتناق الدين .

قال صاحب اللسان : وعانقه معانقة وعناقا : التزمه ، فادنى عنقه من عنقه . وقيل : المعانقة في المودة ، والاعتناق في الحرب . قال :

يطعنهم ما ارتموا ، حتى اذا اطعنوا
ضارب ، حتى اذا ما ضاربوا اعتنقا

وقد يجوز الافتعال في موضع المفاعلة ، فاذا خصصت بالفعل واحدا دون الآخر لم تقل الا عانقه في الحالين . قال الازهري : وقد يجوز الاعتناق في المودة كالتعانق ، وكل في كل جائز . اهـ

فظهر ان المعانقة والاعتناق كلاهما ماخوذ من ادناء العنق من العنق ، والدين ليس له عنق . ولا يعانق من دخل فيه . فالفعل هنا من جانب واحد .

والعرب لا تقول ابدا : اعتنق الاسلام ، او اعتنق النصرانية ، او اعتنق الفكرة ، وانما تقول : اسلم ، وتنصر ، واعتقد كذا وكذا قال تعالى في سورة آل عمران (10 فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين اسلمتم ، فان اسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا ، فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد) .

ومثل هذه العبارات في الكتاب والسنة كثيرة جدا . ولا يوجد التعبير باعتناق الاسلام في اي موضع . لا يقال : ان اعتناق الاسلام استعارة ، لاننا نقول : ليس كل استعارة مستحسنة ، ولو كان التعبير بالاعتناق مستحسنا لعبر به القرآن او السنة او فصحاء العرب .

وقال الفيروزابادي في القاموس : واسلم : انقاد وصار مسلما اهـ

اقول : اسلم في اللغة اذا كان لازما معناه : انقاد واستسلم . واما في اصطلاح الشريعة فمعناه: انقاد الى ما جاء به رسول الله (ص) وقبله كله في الظاهر ، فان كان قبوله له ظاهرا وباطنا فهو مسلم حقا ومؤمن ، وان كان قد قبل ما جاء به النبي (ص) وانقاد له في الظاهر فقط فهو منافق، تجري عليه احكام الاسلام ، وهو في الحقيقة كافر . قال تعالى في سورة الحجرات (14 قالت الاعراب آمنا ، قل لم تومنوا ، ولكن قولوا : اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وان كان هذا الفعل متعديا فمن معانيه : اخلاص التوجه الى الله تعالى .

قال تعالى في سورة النساء (125 ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا) .

ومن معانيه : الالقاء في الهلكة قال صاحب اللسان : قال ابن الاثير : يقال : اسلم فلان فلانا اذا القاه في الهلكة ولم يحمه من عدوه ، وهو عام في كل من اسلم الى شيء ، لكن دخله التخصيص ، وغلب عليه الالقاء في الهلكة .

ومنه الحديث : اني وهبت لخالتي غلاما فقلت لها : لا تسلميه حجاما ولا صائغا ولا قصابا ، اي لا تعطيه لمن يعلمه احدى هذه الصنائع .اهـ

اقول : والعجب من ابن منظور ، كيف وقع في خطأ عامي ، وهو تعديته (اعطى) الى المفعول الثاني باللام ، وهو متعد بنفسه الى مفعولين يقال : اعطاه الله علما . قال تعالى : (انا اعطيناك الكوثر) ولكن لكل سيف نبوة ، ولكل جواد كبوة ، والكمال لله .

ومن اسلم المتعدي قول النبي (ص) : المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) اي لا يخذله بل يحميه ويدافع عنه . والحديث رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر .

وهذا التعبير ايضا من استعمار لغة الاجانب واستعبادها للغة العربيةفهو فيالانكليزية (Embrace) وقال تعالى : اذا جاء نصر الله والفتح ، ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا) ولم يقل : يعتنقون دين الله .

12 — البساطة .

يقال : هذا شيء بسيط ، وتكلم ببساطة ، وهذا لا يعتقده الا البسطاء ، وذلك كله خطأ قال صاحب اللسان : ورجل بسيط : منبسط بلسانه ، وقد بسط بساطة . الليث : البسيط المنبسط اللسان ، والمراة بسيط . ورجل بسيط اليدين : منبسط بالمعروف ، وبسيط الوجه متهلل ، وجمعهما :بسط اهـ

اقول : فقد رايت ان البسيط والبساطة لا يدلان على ما يريد الكتاب بهما ، فانهم يريدون بالبسيط من الناس الغر والمغفل ، ويريدون بالبسيط من الامور ، السهل الهين ، وذلك كله بعيد عن استعمال العرب ، بل هو ضده ، لان البسيط في اللغة العربية ، هو الواسع ، ومن اجل ذلك سميت الارض البسيطة لسعتها .

والبساطة كما تقدم في كلام العرب طلاقة الوجه . واصل هذا الخطأ آت من اصطلاح الاطباء في تسميتهم الدواء الذي هو من مادة واحدة بسيطا ، ويقابله : المركب الذي يتالف من اجزاء ، كل جزء من مادة .

وقد استعمله الفلاسفة ايضا فقسموا الجهل الى قسمين : جهل بسيط ، وجهل مركب ، فالجهل البسيط هو ان يكون الشخص جاهلا ، ويعلم انه

جاهل . والجهل المركب ان يكون الشخص جاهلا ، ويجهل انه جاهل ، فجهله مركب من جهلين . قال بعض الشعراء على لسان حمار الطبيب توما :

قال حمار الحكيم توما
لو انصفوني ما كنت اركب
لان جهلي غدا بسيطا
وراكبي جهله مركب

ومما يحكى من اخبار هذا الطبيب انه قرأ فى كتاب (الحبة السوداء شفاء من كل داء ، فقراها خطأ (الحية السوداء شفاء من كل داء) فاخذ حية سوداء وصار يعالج بها المرضى ، فكانوا يموتون من سمها .

وليس بالكاتب حاجة الى ان يترك اللغة الفصحى ويستعمل اصطلاحا طبيا ليعبر به عما يريده الا اذا كان باقليا من من اهل العي والحصر.

وقد ارتقى الكتاب من ذلك الى خطأ آخر ، وهو استعمال التبسيط فيقولون : كتاب مبسط ، يعني انه الف بلغة سهلة غير معقدة . ويقولون : يجب تبسيط قواعد النحو ، اي تسهيلها وتيسيرها ، فانتقلوا من خطأ الى خطأ لان التبسيط هو التوسيع، فهو بمعنى البسط ، الا ان التبسيط فيه مبالغة كالتقتيل بمعنى القتل ، اي كثرته . وفعل المضاعف اذا اشترك مع الثلاثي فى معنى واحد دل الرباعي على الكثرة والمبالغة فى اللغة العربية ، وفى اختيها العبرانية والآرامية .

13 — نكران الذات

ومن الاخطاء التي جاءت مع الاستعمار تعبيرهم بـ (نكران الذات) عن الايثار ، وهذه العبارة ترجمة فاسدة للفظ الانكليزي (Self-denial) والتعبير العربي الصحيح عن هذا المعنى هو الايثار قال تعالى فى سورة الحشر (9 ويؤثرون على انفسهم ولو كانت بهم خصاصة) وضد الايثار هو : الاستئثار ، ويسميه جهال الكتاب «انانية» نسبة فاسدة الى لفظ (انا) وهو ايضا من الترجمة الفاسدة للفظ الانكليزي (Selfishness) وقد يعبرون عن هذا المعنى ايضا بحب الذات ، وهو تعبير فاسد ، لان كل انسان يحب نفسه وليس ذلك بعيب ، وانما يعاب عليه ان يبالغ فى حب نفسه الى حد الاستئثار بالطيبات ، وغمط حقوق الناس ، وكذلك لا ينبغي للانسان ان ينكر نفسه ولا يستطيع ذلك لو حاوله .

وكيف ينكر نفسه ، وهو يعلم العلم الضروري انه موجود ؟ واذا انكر الانسان نفسه ، فبمن يعترف ؟ وهذا كله ناشىء عن الجهل باللغة العربية ، وعدم تعلمها من مصادرها الصحيحة .

14 — التصدير والتوريد

ومن الاخطاء الشائعة الذائعة استعمالهم لفظ التصدير فيما تخرجه البلاد من البضائع ليباع فى خارجها فيقولون مثلا : المغرب يصدر الفوسفاط والحوامض والسردين ، فدعنا نبحث فى صحة هذا التعبير قال فى اللسان : وصدر كتابه جعل له صدرا ، وصدره فى المجلس فتصدر اهـ والصواب فى هذا ان يعبر بالاصدار .

ثم قال صاحب اللسان : وقد اصدر غيره وصدره ، والاول اعلى . وفى التنزيل العزيز : « **حتى يصدر الرعاء** » .

قال ابن سيدة : فاما ان يكون هذا على نية التعدي ، كأنه قال : حتى يصدر الرعاء ابلهم ، ثم حذف المفعول . واما ان يكون يصدرها هنا غير متعد لفظا ولا معنى ، لانهم قالوا : صدرت عن الماء فلم يعدوه .اهـ

وقال البيضاوي فى قوله تعالى فى سورة القصص (23 قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء) تصرف الرعاة مواشيهم عن الماء حذرا عن مزاحمة الرجال ، وحذف المفعول ، لان الغرض هو بيان ما يدل على عفتهما ، ويدعوه الى السقي لهما ثمة دونه .

وقرأ ابو عمرو ابن عامر (يصدر) اي ينصرف .اهـ

اقول : قول البيضاوي : تصرف الرعاة مواشيهم يرجح الوجه الاول من الوجهين اللذين نقلهما صاحب اللسان عن ابن سيدة ، وهو ان يصدر فعل متعد حذف مفعوله ، لان البلاغة تقتضي حذفه كما اشار اليه البيضاوي ، لان الغرض لا يتعلق به ، وانما المراد الدلالة على عفاف ابنتي شعيب وكراهيتهما للاختلاط بالرعاة .

وعلى قراءة يصدر الرعاء بفتح الياء لا يختلف المعنى ، لان الرعاء لابد ان تكون معهم مواش ، والا لم يكونوا رعاة . فالمواشي مفهومة من المقام ، اذا قلنا : ان الفعل الثلاثي لازم ، وهو الذي رجحه ابن سيدة .

ويؤيده قوله تعالى في سورة الزلزلة (يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم) قال البيضاوي في تفسيره : (يصدر الناس) من مخارجهم من القبور الى الموقف .اهـ

حاصله : ان الصدر بفتحتين هو الرجوع من الماء بعد وروده لشرب او سقي ماشية او غير ذلك . ثم استعمل في كل خارج من شيء الى شيء آخر . وفعله ثلاثي من باب نصر ، وهو فعل لازم على الاصح ، فاذا دخلت عليه الهمزة صار متعديا يقال : اورد الماشية ، ثم اصدرها ، اي صرفها عن الماء ثم استعمل الاصدار في كل اخراج . فالصواب ان يقال مثلا : ان المملكة المغربية تصدر الفوسفاط والحوامض والسردين بضم التاء واسكان السادـ

واما التوريد : فقال في اللسان ، قال ابو حنيفة : الورد نور كل شجرة وزهر كل نبتة ، واحدته وردة . قال : والورد ببلاد العرب كثير ريفية وبرية وجبلية .

وورد الشجر : نور ، ووردت الشجرة اذا خرج نورها . ثم قال : وورد الثوب : جعله وردا . ويقال وردت المراة خدها اذا عالجته بصبغ القطنة المصبوغة

ثم قال : تقول : وردت الابل والطير هذا الماء وردا . ثم قال : ابن سيدة : وورد الماء وغيره وردا ووروداً . وورد عليه : اشرف عليه ، دخله او لم يدخله . قال زهير :

فلما وردن الماء زرقا جمامه

وضعن عصي الحاضر المتخيم

معناه : لما بلغن الماء اقمن عليه . ثم قال : وكل من اتى مكانا منهلا او غيره ، فقد ورده .

ثم قال الجوهري : ورد فلان وروداً حضر ، واورده غيره واستورده اي احضره . ثم قال : وفي حديث ابي بكر : اخذ بلسانه وقال : هذا الذي اوردني الموارد . اراد الموارد المهلكة .اهـ

قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى في سورة القصص (23 ولما ورد ماء مدين) وصل اليه ، وهو بئر كانوا يسقون منها (وجد عليه) وجد فوق شفيرها (امة من الناس) جماعة كثيرة مختلفين (يسقون) مواشيهم .

وقال تعالى في سورة هود (97—98 وما امر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار، وبئس الورد المورود) .

قال البيضاوي : (وما امر فرعون برشيد) اي مرشد ، او ذي رشد ، وانما هو غي محض وضلال صريح (يقدم قومه يوم القيامة) الى النار كما يقدمهم في الدنيا الى الضلال . يقال : قدم بمعنى تقدم (فاوردهم النار) ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه، ونزل النار لهم منزلة الماء ، فسمى اتيانها موردا .

ثم قال (وبئس الورد المورود) اي بئس المورد الذي وردوه ، فانه يراد لتبريد الاكباد ، وتسكين العطش ، والنار بالضد . والاية كالدليل على قوله : « وما امر فرعون برشيد» ، فان من كان هذه عاقبته لم يكن في امره رشد ، او تفسير له ، على ان المراد بالرشيد ما يكون مامون العاقبة حميدها .اهـ

حاصله : ان التوريد معناه : ان تخرج الشجرة وردها ، وان تصبغ المراة خدها بلون الورد . فالصواب ان يقال في جلب البضائع من خارج البلاد : الايراد والاستيراد . وفي اخراج البضائع منها : الاصدار

15 — التعبير بالعمل الجنسي عن المباشرة

من العبارات الاجنبية التي تزري بمن يعبر بها ، وتدل على انه مزجى البضاعة في لغة الضاد ترك عبارات القرآن ، وهي اجمل وابلغ ، واوجز لفظا ، واوضح معنى ، وابعد عن التصريح بما لا يستحسن التصريح به ، والتعبير بعبارة اجنبية ثقيلة ، مبهمة ، طويلة اللفظ اعجمية ، لا جرم انه لا يعبر بها الا من لا يعرف القرآن وبلاغته ، واسرار اعجازه ومن لا يعرف القرآن لا يمكن ان يعرف اللغة العربية معرفة تمكنه من ناصيتها ، سواء اكان مسلما ام غير مسلم ، فان الادباء من نصارى العرب يحرصون كل الحرص على قراءة القرآن لا ليدينوا بالاسلام ، بل ليتمكنوا من الفصاحة اذا تكلموا او كتبوا باللغة العربية ، ومن الفهم الصحيح اذا قراوا ما كتب بها ، وبعضهم لم يكتف بقراءة القرآن ، بل حفظه عن ظهر قلب ، كالشيخ ناصيف اليازجي والشيخ ابراهيم اليازجي ، فلذلك جاءت تاليفهما في الاداب العربي لابسة حلة من البهاء والبلاغة تسحر الالباب ، نظيفة من الدخيل والمولد ، والتراكيب الاعجمية الثقيلة الباردة .

وقد كان الشيخ ابراهيم اليازجي حريصا على التعبير بعبارة القرآن كل الحرص ، ولما دعاه النصارى ليرشدهم في ترجمة الاناجيل كان يختار لهم العبارات البليغة فيرفضونها تعصبا ، زاعمين انها تشبه عبارات القرآن . انظر كتابه كشف المخبا في الرحلة الى اوربا . ومجلة الضياء ثمانية مجلدات ، ومجلة البيان مجلد

واحد ، ولغة الجرائد جزء ، والواسطة فى اخبار مالطة جزء .

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بعبارات من ابلغ الكنايات واجملها وادلها على المعنى ولم يصرح قط باللفظ المخصص لهذا الحدث . قال تعالى فى سورة البقرة (187 فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم) .

وقال تعالى فى سورة البقرة ايضا (237 وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم ، الا ان يعفون او يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وان تعفوا اقرب للتقوى) .

وقال تعالى فى سورة النساء (43 او لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) .

فهذه ثلاثة الفاظ المباشرة ، والمس ، والملامسة كلها كنايات . وفى اللغة العربية كنايات اخرى لاداء هذا المعنى لا تعد ولا تحصى فما حاجتنا الى جلب تلك العبارة الاجنبية الركيكة الغامضة التي تمسخ الانشاء العربي وتخدش وجهه ، وتسجل العجز على لغة الضاد ، وتصمها بما هي منه براء .

على ان لفظ الجماع الذي يعبر به الفقهاء فى كتب الفقه وفى الوثائق هو ايضا كناية .

قال فى القاموس : وجماع الشيء جمعه ، يقال: جماع الخباء الاخبية ، اي جمعها لان الجماع ما جمع عددا . ثم قال : والمجامعة المباضعة ، وجامعه على امر كذا اجتمع معه .اهـ

على ان التشدد فى امر الالفاظ ينافي طباع العرب ويسيء الى ادب اللغة العربية بل والى اللغة نفسها ، فان العرب تتساهل فى التعبير والتلفظ ، وانما تتورع فى الاقوال والافعال التي تعد محرمة شرعا ، ولا ترى العرب ان تتأدب بأدب الكنيسة النصرانية واتباعها الذين يقول لسان حالهم ومقالهم : افعل كل شيء ، ولا تقل شيئا والعكس عند العرب هو الصواب .

فالحريري فى مقاماته كان عفيف النفس ، ولكنه لم يتحرج من التعبير عن المعاني والاشياء الواقعة التي لا ينفك الناس عنها . ومن يريد ان يقلد الكنيسة واتباعها ويستهجن مخالفتها يلزمه ان يحذف اربعة اخماس المقامات الحريرية ، ويحذف قسما كبيرا من الادب العربي شعره ونثره ، وذلك هو الخسران المبين .

وقد كان ابن عباس سائرا محرما فى طريقه الى الحج ، فاخذ ينشد بيتا وهو :

وهن يهمسن بنا هميسا
ان تصدق الطير ننك لميسا

فقال له رجل : كيف تقول هذا ، وانت محرم بالحج ، وقد قال الله تعالى (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) فقال له ابن عباس : انما الرفث ما كان بحضرة النساء .

اكتفي بهذا القدر وموعدنا المقال التالي بحول الله وقوته .

مكناس : **الدكتور تقي الدين الهلالي**

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

(7)

37 ـ قال عنه :

من البدع المحدثات في الكلام العربي التي شاعت وذاعت في زمان الاستعمار ، وكثرة ما يترجم من اللغات الاعجمية حين ضعفت الشعوب العربية ، ولم يبق لها قول الا ما تنقله من كلام المستعمرين المتغلبين قولهم (قال عنه) انه كذا وكذا مدحا او ذما ، وهذا خطأ ، والصواب ان يقال (قال فيه) . والادلة على هذا اكثر من ان تحصى اقتصر على قليل منها .

قال ابن منظور في مادة (ق و ل) وفي حديث سعيد بن المسيب حين قيل له : ما تقول في عثمان وعلي ؟ فقال : اقول فيهما ما قولني الله تعالى (59 : 10 والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) .

وفي حديث علي عليه السلام : سمع امراة تندب عمر فقال : اما والله ما قالته ، ولكن قولته ، اي لقنته وعلمته والقى على لسانها ، يعني من جانب الالهام ، اي انه حقيق بما قالت فيه . اهـ

الشاهد هنا في ثلاثة مواضع ، في قول سعيد بن المسيب : اولهما قوله : (اقول فيهما ما قولني الله تعالى) ، والثاني في سؤال من سأله (ما تقول في عثمان وعلي) ، والثالث في خبر علي مع المراة ، وقد فسره صاحب اللسان بقوله : (انه حقيق بما قالت فيه) . ومعنى حقيق هنا : جدير بما قالت فيه تلك المراة من المدح والثناء . ومراد سعيد بن المسيب بتلاوة الاية انه يقول فيهما خيرا .

وبيان ذلك ان الله تعالى اثنى على المهاجرين في سورة الحشر بقوله (8 للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، اولئك هم الصادقون) ، واثنى على الانصار بقوله : (9 والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) ، واثنى على التابعين لهم باحسان بقوله : (10 والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

« ذكر تفسير الحافظ ابن كثير لهذه الايات باختصار»

قال ابن كثير : يقول تعالى مبينا حال الفقراء المستحقين لمال الفيء انهم الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، اي خرجوا من ديارهم ، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه (وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون) اي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهم سادات المهاجرين . الفيء كل مال اخذه المسلمون من اعدائهم بدون قتال كاموال بني النضير ، وهي المعنية بهذه الاية .

ثم قال تعالى مادحا للانصار ، ومبينا لهم فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم ، وايثارهم مع الحاجة فقال تعالى (والذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم) اي سكنوا دار الهجرة من المهاجرين ، وآمنوا قبل كثير منهم .

قال عمر (يعني في وصيته عند موته) : واوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الاولين ان يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم ، واوصيه بالانصار خيرا الذين تبؤوا الدار والايمان من قبل ان يقبل من محسنهم ، وان يعفو عن مسيئهم . رواه البخاري .

ثم روى عن احمد بسنده الى انس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما راينا مثل قوم قد منا عليهم احسن مواساة في قليل ، ولا احسن بذلا في كثير ، لقد كفونا المؤونة ، واشركونا في الهنا (الهنا ما اتاك من الرزق بلا مشقة) حتى لقد خشينا ان يذهبوا بالاجر كله ، قال : لا ما اثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم .. اهـ

ومعناه ان النبي (ص) لما آخى بين المهاجرين والانصار صار الاخ الانصاري يقوم بالعمل كله في ارضه ويقاسم اخاه المهاجري الغلة والثمر . فخاف المهاجرون ان كل ما عملوه من عمل مقبول عند الله يكون اجره لاخوانهم الانصار الذين كفوهم مؤونة العمل ، واشركوهم في الغلة والثمرة ، فاخبرهم النبي (ص) ان اجرهم ثابت لهم ، ان كافاوا اخوانهم الانصار بالثناء والشكر ودعوا الله لهم . روى احمد والترمذي من حديث ابي سعيد ان النبي (ص) قال : من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وروى عن البخاري بسنده الى يحى بن سعيد سمع انس بن مالك حين خرج معه الى الوليد قال : دعا النبي (ص) الانصار ان يقطع لهم البحرين ، قالوا : لا الا ان تقطع لاخواننا من المهاجرين مثلها ، قال اما لا فاصبروا حتى تلقوني فانه سيصيبكم اثره . اهـ

قال في مجمع البحار : وفي الحديث ستلقون بعدي اثره ـ بفتحتين ـ اسم من آثر يوثر ايثارا ، اي اعطى ، اراد انه يستأثر عليكم ، فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء . والاستئثار : الانفراد بالشيء . اهـ

ثم قال ابن كثير : (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا) اي ولا يجدون في انفسهم حسدا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري (ولا يجدون في صدورهم حاجة) يعني الحسد (مما اوتوا) قال قتادة : يعني فيما اعطى اخوانهم ، وكذا قال ابن زيد .

ومما يستدل به على هذا المعنى ما ورواه احمد بسنده الى انس قال : كنا جلوسا مع رسول الله (ص) فقال : يطلع عليكم الان رجل من اهل الجنة ، فطلع رجل من الانصار تنطف لحيته (اي تقطر) من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله (ص) مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الاولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله (ص) مثل مقالته ايضا ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الاولى .

فلما قام رسول الله (ص) تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص فقال : اني لاحيت ابي (اي خاصمته) فاقسمت اني لا ادخل عليه ثلاثا ، فان رايت ان تؤويني اليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم ، قال انس : فسكان عبد الله يحدث انه بات معه تلك الثلاث الليالي ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير انه اذا تعار (اي استيقظ) تقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير اني لم اسمعه يقول الا خيرا ، فلما مضت الثلاث الليالي ، وكدت ان احتقر عمله قلت : يا عبد الله ، لم يكن بيني وبين ابي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله (ص) يقول لك ثلاث مرات : يطلع عليكم الان رجل من اهل الجنة ، فطلعت انت الثلاث المرات ، فاردت ان آوي اليك لانظر ما عملك فاقتدي به ، فلم ارك تعمل كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله (ص) ؟ قال : ما هو الا ما رايت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو الا ما رايت ، غير اني لم اجد في نفسي لاحد من المسلمين غشا ، ولا احسد احدا على خير اعطاه الله اياه ، قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك ، وهي التي لا تطاق . اهـ

استفدنا من الاية والحديث الذي رواه عبد الله ابن عمرو عن الرجل الانصاري ان العمل القليل مع سلامة الصدر من الحسد والغل والغش خير من العمل الكثير الذي ليس معه تلك السلامة ، ولكن عندنا هنا اشكال في ادعاء عبد الله بن عمرو انه خاصم اباه فغضب عليه ، واتخذ ذلك وسيلة الى ان يكون ضيفا عند الانصاري ليراقب عمله بالليل من صلاة ، وقراءة قرءان ودعاء ، فهل كان ذلك جائزا ان يتذرع المرء بالكذب البحت ليتوصل الى خير ، وهو ما يسمونه في لغة اهل هذا الزمان المأخوذة من اللغات الاجنبية : الغاية تسوغ الواسطة .

والذي نفهمه من ادلة الكتاب والسنة ان الكذب في مثل هذا لا يجوز ، فهي هفوة ارتكبها هذا الصحابي الناشيء حرصا منه على الخير ، واكتشاف الاسرار ليعرف ما يقوم به ذلك الانصاري من العبادة بالليل حتى شهد له النبي (ص) انه من اهل الجنة ثلاث مرات في ثلاثة أيام متوالية .

ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) يعني حاجة ، اي يقدمون المحاويج على حاجة انفسهم ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم الى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن النبي (ص) انه قال : افضل الصدقة جهد المقل ، وهذا المقال أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى (76 : 8 ويطعمون الطعام على حبه) ، وقوله (2 : 177 وآتى المال على حبه) فان هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة اليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على انفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم الى ما انفقوه .

ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله (ص) : ما ابقيت لاهلك ؟ فقال ابقيت لهم الله ورسوله . وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة واصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم امر بدفعه الى صاحبه ، وهو جريح مثقل احوج ما يكون الى الماء ، فرده الاخر الى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشربه احد منهم رضي الله عنهم وارضاهم .

وقال البخاري بسنده الى ابي هريرة قال : اتى رجل رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله ، اصابني الجهد ، فارسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبي (ص) : الا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ، فقام رجل من الانصار فقال : انا يا رسول الله ، فذهب الى اهله فقال لامراته : هذا ضيف رسول الله (ص) لا تدخريه شيئا ، فقالت : والله ما عندي الا قوت الصبية ، قال : فاذا اراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله (ص) فقال : لقد عجب الله عز وجل ، اوضحك من فلان وفلانة ، وانزل الله تعالى (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) وفي رواية لمسلم تسمية هذا الانصاري بابي طلحة .

وقوله تعالى (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) اي من سلم من الشح فقد افلح وانجح . روى احمد ومسلم بالسند الى جابر بن عبد الله ان النبي (ص) قال : اياكم والظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فان الشح اهلك من كان قبلكم ، حملهم على ان سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم .

وقوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء ، وهم المهاجرون ثم الانصار ، ثم التابعون لهم باحسان، كما قال في آية براءة (100 والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) فالتابعون لهم باحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة واوصافهم الجميلة ، الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال تعالى في هذه الاية الكريمة : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون) اي قائلين : (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا) اي بغضا وحسدا (للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

وما احسن ما استنبط الامام مالك رحمه الله من هذه الاية الكريمة ان الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصاله بما مدح الله به هؤلاء في قلوبهم (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

وقال ابن ابي حاتم بسنده الى عائشة انها قالت: امروا ان يستغفروا لهم فسبوهم ، ثم قرات هذه الآية : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) الاية .

وروى البغوي بسنده الى عائشة ايضا قالت : امرتم بالاستغفار لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فسببتموهم ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : لا تذهب هذه الامة حتى يلعن آخرها اولها . اهـ

قال محمد تقي الدين : وهذا ما قصده الامامان سعيد بن المسيب ومالك ، اذ فهما من الايات الثلاث ان الله قسم المسلمين ثلاثة اقسام : المهاجرين والانصار ، والذين جاءوا من بعدهم اذا كانوا يحبونهم ، ويستغفرون لهم ولا يسبونهم ، فمن سبهم فلا حق له في الفيء ، لانه خارج عن الاصناف الثلاثة التي استوعبت المسلمين . فالمتبعون لهم باحسان كما في سورة التوبة لا يقولون فيهم الا خيرا ، ولا يتشيعون لبعضهم ويسبون غيرهم ويبغضونهم .

قال الحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي في كتابه (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) ابان بن جبلة الكوفي ابو عبد الرحمن ، ضعفه الدارقطني وغيره . قال البخاري : منكر الحديث ونقل ابن القطان ان البخاري قال : كل من قلت فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه .

ثم قال : اعلم ان كل من اقول فيه : مجهول ، ولا اسنده الى قائل ، فان ذلك قول ابي حاتم فيه . ا هـ فقوله (اقول فيه مجهول) وقوله (فان ذلك قول ابي حاتم فيه) مطابقان للاستعمال العربي السليم . والشواهد في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الجرح والتعديل كتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ، ولسان الميزان له اكثر من ان تحصى ، ولم يرد في شيء منها قال عنه او قالوا عنه .

واذا سأل سائل ماذا يقول النصارى في عيسى ابن مريم ، يكون الجواب : يقولون فيه : انه ابن الله ، وانه ثالث ثلاثة ، وانه الا قنوم الثاني ، تعالى الله عن ذلك . وقال البوصيري في الهمزية في وصف امراة أبي لهب وعداوتها للنبي (ص) :

يوم جاءت غضبي تقول اقي مثـ
ـلي من احمد يقال الهجاء

تعني اقي يقال الهجاء الصادر من احمد صلى الله عليه وسلم ، تعني بالهجاء سورة (تبت يدا ابي لهب) فقال (في مثلي ، ولم يقل : عن مثلي) والقول يعدى بـ (في) في المسائل كذلك يقال : ما تقول في مسالة كذا وكذا . وقال عبد الله بن مسعود في مسالة سئل عنها : اقول فيها برأيي ، فان كان صوابا فمن الله ، وان كان خطأ فمني ومن الشيطان .

وقد اكثر من ذلك ابن بري في منظومته كقوله :

القول في التعوذ المختار
وحكمه في الجهر والاسرار

كيف تستعمل قال عنه

فان قلت : قد فهمنا من كلامك ان تعبير عامة الكتاب يقال عنه في موضوع قال فيه خطأ ، فأين تستعمل قال عنه ؟ فالجواب : يستعملها المحدثون في الرواية ، وقد اكثر من ذلك البخاري رحمه الله . فمن ذلك قوله في كتاب العلم من صحيحه . وقال شقيق عن عبد الله سمعت النبي (ص) . وقال ابو العالية عن ابن عباس عن النبي (ص) . وقال انس عن النبي (ص) . وقال ابو هريرة عن النبي (ص) . ا هـ

فمعنى قال هنا : روى وحدث . فهذا هو الفرق بين قال فيه وقال عنه . يجب علينا ان نميز بينهما وان نستعمل كلا منهما فيما يناسبه ، والله الموفق .

38 ـ الخلط والخبط في استعمال الغداء بالمهملة واستعمال الغذاء بالمعجمة . اذا استمعت الى الاذاعات ، او قرات الصحف تجد اكثر المتكلمين والكتاب لا يميزون بين الغداء والغذاء ، ودونك معناهما وضبطهما . فالغداء ـ بفتح الغين المعجمة ودال مهملة ـ ممدودا ، هو طعام الغدوة ، وهي اول النهار . قال الله تعالى في سورة الكهف في قصة موسى مع الخضر : (62 فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) .

قال البيضاوي : (فلما جاوزا) مجمع البحرين (قال لفتاه آتنا غداءنا) ما نتغدى به ، (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قيل لم ينصب حتى جاز الموعد ، فلما جاوزه وسار الليلة والغد الى الظهر القى عليه الجوع والنصب . ا هـ

وقال الراغب في غريب القرءان : (غدا) الغدوة والغداة من اول النهار ، والغداء طعام يتناول في ذلك الوقت . ا هـ

وقال صاحب اللسان : والغداء : الطعام بعينه ، وهو خلاف العشاء . ابن سيده : الغداء طعام الغدوة ، والجمع اغدية ، عن ابن الاعرابي . ابو حنيفة : الغداء رعي الابل في اول النهار ، وقد تغدت وتغدى الرجل وغديته . ورجل غديان وامراة غديا ، على فلعى ، واصلها الواو ، ولكنها قلبت استحسانا ، لا عن قوة علة ، وغديته فتغدى . ا هـ

اذا فهمت هذا علمت ان تسمية الناس اليوم للطعام الذي يؤكل بعد الظهر غداء مخالف لاستعمال العرب ، لان العرب لم يكونوا ياكلون في وقت الظهر ، وليس في لغتهم اسم لطعام يؤكل وقت الظهر ، ولم يكونوا ياكلون بالليل ، ولذلك لا يوجد في لغتهم اسم لطعام يؤكل بالليل ، وانما كان عندهم غداء وعشاء ، فالغداء تقدم بيانه ، والعشاء طعام العشي .

قال صاحب القاموس : والعشي بالكسر ، والعشاء كسماء طعام العشي ، الجمع اعشية ، وعشى وتعشى اكله ، وهو عشيان ومتعش ، وعشاه عشوا ، اطعمه اياه كعشاه واعشاه . ا هـ

وفيما سوى هذين الطعامين لا يتقيد الاكل بوقت معتاد متى جاع الانسان اكل . ومن امثال العرب : خير النهار بواكره ، وخير العشاء سوافره ، والبواكر هي ساعات الابكار ، الساعات الاولى من الصبح . والسوافر ساعات العشي التي لا يزال فيها ضوء النهار موجودا قبل ان يجيء الظلام ، ومرادهم بذلك التبكير للاشغال والاعمال ، وتعجيل العشاء قبل أن يأتي الظلام .

ولا يزال كثير من العرب عاملين بذلك الى يومنا هذا ، فاني كنت اسكن بقرية الزبير بقرب البصرة ، وسكانها من اهل نجد ، وهم محافظون على العادات العربية ، فكنت اذا خرجت الى المسجد لصلاة المغرب، ووقفت في الصف اشم رائحة الدسم تنبعث عن يميني وشمالي ، وذلك دليل على انهم تعشوا قبل غروب الشمس ، ولكنهم لم يحافظوا على الغداء في وقته الذي كانت عليه العرب ، فانهم يفطرون في الصبح بما تيسر، ويؤخرون الغداء الى ان يصلوا الظهر .

ولما كنت ساكنا بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة الف وثلاثمائة وست وأربعين وسبع وأربعين رايت سكان المدينة كلهم يتغدون في الضحى، ويتعشون بين العصر والمغرب كما كان العرب الاولون يفعلون . اما في هذه السنة فقد اقمت في المدينة ستة عشر يوما ودعاني كثير من الاخوان الى الطعام ، فرايت تلك العادة قد تبدلت ، وصار سكان المدينة يأخذون بعادة أهل المدن وهي ثلاث اكلات في النهار حين يصبحون ، وحين يظهرون ، وحين يمسون .

وقد تجنبت ذكر الوجبة التي اعتاد الكتاب التعبير بها عن كل واحدة من الاكلات الثلاث المعتادة ، لانهم يستعملونها خطأ .

قال صاحب اللسان : الوجبة : الاكلة في اليوم والليلة . قال ثعلب : الوجبة اكلة في اليوم الى مثلها من الغدا . اهـ

والاوربيون ايضا يعملون بشطر المثل العربي ، وهو خير العشاء سوافره ، فانهم يأكلون عادة اعشيتهم بين الساعة السادسة والسابعة ، وتكون الشمس في الصيف لا تزال مرتفعة . ويقول علماء الصحة : ان ذلك خير من تاخير الطعام الى ان يكون قبيل النوم ، فان النوم على امتلاء المعدة تنشأ عنه امراض ، ولا يكون النوم معه هنيئا . اما اذا تعشى الانسان مبكرا ، فانه يتحرك بعد العشاء ، فلا يأتي وقت النوم حتى يتم الهضم الاول للطعام .

مكناس : تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 8 -

39 ـ من الاخطاء الشائعة في هذا الزمان قولهم يستهدف كذا او يهدف الى كذا يريدون انه يقصده ويتخذه هدفا ولم تستعمله العرب بهذا المعنى قال صاحب اللسان الازهري : روى شمر باسناد له ان الزبير وعمرو بن العاص اجتمعا في الحجر فقال الزبير: اما والله لقد كنت اهدفت لي يوم بدر ولكني استبقيتك لمثل هذا اليوم فقال عمر وانت والله لقد كنت اهدفت لي وما يسرني ان لي مثلك بفرتي منك قال شمر قوله اهدفت لي ، الاهداف الدنو منك والاستقبال لك والانتصاب يقال اهدف لي الشيء فهو مهدف واهدف لك السحاب والشيء اذا انتصب . ثم قال وفي حديث ابي بكر قال له ابنه عبد الرحمن لقد اهدفت لي يوم بدر فضفت عنك فقال ابو بكر لكنك لو اهدفت لي لم اضف عنك اي لو لجأت الى لم اعدل عنك وكان عبد الرحمن وعمرو يوم بدر مع المشركين وضفت عنك اي عدلت انتهى . ومن ذلك تعلم ان استعمال العرب للاهداف والاستهداف في واد واستعمال المعاصرين لهما في واد آخر فالعرب تقول اهدف الشيء واستهدف بمعنى قرب وانتصب وصار امامك، كالهدف الذي تتمكن من رميه اذا كان قريبا ومنتصبا امامك اما استعمال المعاصرين فانه يريدون به القصد الى الشيء ومما يزيدذلك وضوحا قول العلماء من الف فقد استهدفت اي نصب نفسه هدفا للمنتقدين يرمونه بسهام نقدهم وكان قبل ذلك مستورا وقول ابي بكر رضي الله عنه لابنه عبد الرحمن : لكنك لو اهدفت لي لم اضف عنك اي لو تمكنت من قتلك ما ابقيت عليك دليل على قوة ايمانه وتحقيقه لقوله تعالى في سورة التوبة الآية 24 (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بامره والله لايهدي القوم الفاسقين). فهذه المحبوبات الثمانية اذا لم يكن معها حب الله ورسوله تلقى صاحبها في التهلكة واذا كان معها حب الله ورسوله وقع التنازع بين الحبين، الصديقون والصالحون لا يبالون بهذه المحبوبات وهي المذكورة في الآية وهي : الآباء والابناء والاخوان والازواج والعشيرة والاموال والتجارة والمساكن الطيبة اذا تنافت مع حب الله ورسوله فيقدمون حب الله ورسوله عليها ولذلك قال الصديق لابنه عبد الرحمن (لكنك لو اهدفت لي لم اضف عنك) ولا شك ان الصديق كان يحب ابنه عبد الرحمن لان حب الولد من طبيعة البشر وغير البشر ولكن لما التقيا في الحرب ابو بكر ينصر الله ورسوله وابنه عبد الرحمن كان ينصر الشرك ويوالي اعداء الله كان ابو بكر عازما ان يقتله لو عرض له وتمكن من قتله ترجيحا لحب الله تعالى على حب غيره وهذه المحبوبات الثمانية هي عقبات في سبيل الايمان الكامل الذي يفوز صاحبه برضوان الله تعالى ويسعد السعادة الابدية وكم فتنت هذه المحبوبات من ناس اذا تغلب حبها عندهم على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فخسروا وضلوا ضلالا بعيدا .

40 – ومن الاخطاء التي جاءتنا بها الترجمة الفاسدة وهي من استعمار اللغات الاجنبية للغتنا العربية قولهم فلان يؤدي واجبه نحو الله وواجبه نحو وطنه وواجبه نحو ابنائه وما اشبه ذلك والصواب ان يقال فلان يؤدي حقوق الله الواجبة عليه وحقوق المواطنين وحقوق الابناء وهكذا يقال في الكلام الفصيح عندما يقول من احسنت اليه لك علي فضل هذا من حقك علي هذا واجب لك علي والكلمة التي اوقعتهم ترجمتها في هذا الخطا في اللغة الانجليزية مثلا Toward وفي كل من اللغة الالمانية والفرنسية كلمة تؤدي معناها واساليب هذه اللغة هذه اللغات ونظمها متقارب في الغالب كما ان نظمها العربية واخواتها كالعبرانية والسريانية متقارب وسبب وقوع مثل هذه الاخطاء ان المترجم يكون متمكنا من اللغة الاجنبية ضعيفا في اللغة العربية يترجم كلمة بكلمة والمترجم الكامل يقرا الجملة من اللغة التي يترجمها ويستوعب معناها في ذهنه ثم يصوغ لها جملة فصيحة في اللغة التي يترجم بها حتى اذا قرا القارىء العربي كتابا مترجما لا يشعر انه مترجم حتى يخبر بذلك كما ترى في ترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة وترجمة البنداري للشاهنامة .

41 – ومن الاخطاء الشائعة استعمالهم كلمة بالرغم او على الرغم في غير موضعها فيقولون مثلا حضر فلان الاحتفال بالرغم من كونه مريضا او بالرغم من كثرة اشغاله والآن ندرس ما قاله الائمة في استعمال الكلمة قال صاحب اللسان الرغم مثلثة الراء الكره والمرغمة مثله قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت مرغمة للمشركين المرغمة الرغم اي بعثت هوانا وذلا للمشركين ثم قال ابن الاعرابي الرغم التراب والرغم الذل والرغم القسر وفي الحديث وان رغم انفه اي ذل وفي حديث معقل ابن يسار رغم انفي لامر الله اي ذل وانقاد وتقول فعلت ذلك على الرغم من انفه انتهى . وهذا الاستعمال الصحيح لهذا اللفظ اذا فعلت شيئا وهناك من يكرهه تقول فعلت ذلك على رغم انفه فاما ان يراد بذلك بقصد ان اذله وعبر بالانف لان المستكبر يشمخ بانفه اي يرفعه عزا وتكبرا انتهى فخفض الانف والصاقه بالتراب واذلاله ضد شموخه وهو رفعه فلذلك يعبر برغم الانف عن الذلة والاهانة والقسر والاكراه وبشموخ الانف عن الرفعة والتكبر اما قوله حضر الاحتفال برغم كثرة اشغاله مثلا فهو استعمال فاسد مأخوذ من الترجمة الفاسدة لكلمة In spite وفي كل من الفرنسية والالمانية كلمة

تشبه هذه الكلمة في المعنى والاستعمال العربي الصحيح ان يقال فلان حضر الاحتفال مع كثرة اشغاله او مع كونه مريضا وتستعمل على في موضع مع قال تعالى في سورة البقرة الآية 117 « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآت المال على حبه الآية اي اعطى المال مع حبه له ولا يقال بالرغم من حبه له كما يقوله من يأخذ انشاءه من الصحف والاذاعات وقال تعالى في سورة الرعد الآية 6 «وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم» وقد استشهد ابن هشام في المغني بآية البقرة وآية الرعد على أن (على) فيهما للمصاحبة بمعنى مع ولا يقال ولو في خارج القرآن وان ربك لذو مغفرة للناس بالرغم من ظلمهم وقد تبين معنى على وبقي علينا ان نذكر تفسير قوله تعالى «وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم» فقد يتوهم متوهم ان المعنى ان الله يغفر للناس مع اصرارهم على الظلم ظلم بعضهم لبعض وذلك باطل قال الحافظ ابن كثير في تفسيره وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم اي انه تعالى ذو صفح وستر للناس مع انهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ثم قرن هذا الحكم بانه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى : « فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » انتهى ومثل آية البقرة في قوله تعالى في سورة الانسان رقم 8 ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا » اي مع حبهم له ولا يقال في خارج القرآن فلان يطعم الطعام المساكين بالرغم من حبه له او بالرغم من قلة ما عنده منه .

42 – ومن الاخطاء الشائعة في هذا الزمان في الصحف والاذاعات وعلى السنة الناس قولهم القطاع الزراعي والقطاع الصناعي ويضيفون الى ذلك خطأ آخر فيجمعونه على قطاعات والمصدر الاول لهذه الكلمات هي اذاعة لندن ومنها سمعت ما يلي : والملونون في بريطانية يشكلون قطاعا كبيرا من عمال النقل فالقطاع عندهم يطلق على جماعة من الناس يجمعهم عمل واحد ولم تستعمل العرب القطاع بهذا المعنى البتة وسنرى ما يقوله ائمة اللغة فقد وجدنا القطاع بكسر القاف يجيء مفردا ويجيء جمعا فاما المفرد فقال فيه ابن منظور والقطاع اي بكسر القاف وفتحها صرام النخل مثل الصرام والصرام بكسر الصاد وفتحها انتهى . قال محمد تقي الدين وهو مأخوذ من القطع لان الصارم يقطع العكاكيل وهي في النخل بمنزلة العناقيد في الكرم، وهو شجر العنب

واما الجمع فقال فيه انه جمع قطع بكسر القاف وسكون الطاء وهو السهم وما تقطع من الشجرة وقطع الليل طائفة منه والبساط والطنفسة تكون تحت الراكب وضرب من الثياب الموشاة وقطيع الغنم ايضا يجمع على قطاع الى غير ذلك من المفردات التى تجمع على هذا الجمع والقطع والقطعة والقطيع والقطع والقطاع طائفة من الليل تكون من اوله الى ثلثه وقيل للفزاري ما القطع من الليل فقال حزمة تهورها اي قطعة تحزرها ولا تدري كم هي والقطع ظلمة آخر الليل ومنه قوله تعالى «فاسر باهلك بقطع من الليل» قال الاخفش بسوادمن الليل والصواب ان يقال بدل القطاع الزراعي والقطاع الصناعي القسم الزراعي والقسم الصناعي وان يقال بدل قولهم الملونون فى بريطانيا يشكلون قطاعا كبيرا من عمال النقل : والملونون فى بريطانيا يؤلفون جماعة كبيرة من عمال النقل والعرب تعبر بالجماعة والطائفة والفريق والجمع ولا تعبر بالقطاع وكذلك تعبر بالامة قال تعالى فى سورة الاحزاب رقم 13 « واذ قالت طائفة منهم يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » والطائفة هنا جماعة من المنافقين وقال تعالى فى سورة الصف رقم 14 «فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة» وقال تعالى فى سورة آل عمران رقم 113 «ليسوا سواء من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله اناء الليل وهم يسجدون» وقال تعالى فى سورة الاعراف رقم 30 « فريقا هدى وفريق حقت عليهم الضلالة ».

43 ــ ومن التراكيب الركيكة الفاسدة لفظا ومعنى وهي استعمارية بلا ريب ماخوذة ترجمة حرفية من اللغات الاجنبية قولهم منحتهم السماء كذا وكذا فاسناد المنح الى السماء فاسد عقلا ونقلا ولغة اما عقلا فان السماء لا تعطي ولا تمنع وليست سببا فى الاعطاء حتى يقال ان الاسناد اليها مجاز عقلي كما فى قولهم انبت الربيع البقل وبنى الامير المدينة لان السببية فى هذين المثالين ظاهرة اما قولهم منحتهم السماء فليس كذلك والاوروبيون ينسبون الاشياء الى السماء فى لغاتهم ويدعونها ويستشيشون بها كما يفعلون مع الله تعالى ومع المسيح وامه ومن العجائب التى تستنكرها عقول الموحدين واذواقهم انهم اذا اصابهم فزع يهتفون قائلين يا ام الله ومقصودهم بذلك مريم الصديقة فاذا قلنا لهم ان الله لا ام له ولا اب يشمئزون ويغضبون ولا يصح ان يكون قولهم منحتهم السماء مجازا عقليا بالنسبة الى المسلم لان المسلم يعتقد ان السماء لا تمنح شيئا وليست سببا للمنح كما فى بنى الامير المدينة فان السبب فى بنائها هو الامير لانه امر العملة ببنائها والحقيقة العقلية هي اسناد الفعل او ما فى معناه الى ما هو له فى اعتقاد المتكلم كقول المومن انبت الله البقل وانزل الله المطر وكقول الكافر انبت الربيع البقل، وانزلت السماء المطر، وكقول النصارى فى عيسى وامه، انهمايعطيان ويمنعان كقول الكافر شفى الطبيب المريض فهو اسناد حقيقي لان الكافر يعتقد ان الطبيب هو الفاعل الحقيقي والنصارى يعتقدون عيسى وامه الاهين والمجاز العقلي كقول المومن انبت الربيع البقل وشفى الدواء المريض لانه يعتقد ان الله هو الذى انبت البقل والربيع سبب وان الله هو الذى شفى المريض والدواء سبب ومن المجاز العقلي قول الشاعر وهو ابو النجم :

قد اصبحت ام الخيار تدعي
علي ذنبا كله لم اصنع

من ان رات راسي كراس الاصلع
ميز عنه قنزعا عن قنزع

جذب الليالي ابطئي او اسرعي

والدليل على انه مجاز قوله بعد ذلك :

افناه قيل الله للشمس اطلعي
حتى اذا واراك افق فارجعي

هذا الشعر من مشطور الرجز وهو لابى النجم العجلي وام الخيار زوجته وكانت تعيب عليه صلع راسه لكبر سنه وكانت ابنة عمه بدليل قوله فى موضع آخر من القصيدة :

يا ابنة عما لا تلومي واهجعي
لا تسمعيني منك ما لم اسمع

يمشي كمشي الاهدا المكنع
الم يكن شيبك لو لم يصلع

فهي تعيب عليه شيخوخته وما يلازمها من الانحناء والاكباب فان الاهداء هو الذى يمشي منحنيا مكبا كانه راكع والمكنع المنقبض : يقول لها يا ابنة عمى لا تلوميني على كبر سني وضعفي وصلع راسي فانه لو لم يصلع وبقي فيه شعره لصار ابيض بالشيب وانت تكرهين رؤية الشيب كما تكرهين الصلع . والشاهد فى قوله ميز عنه قنزعا عن قنزع. جذب الليالي اي فرق شعر الراس حتى صار قنازع مجموعة شعيرات هنا واخرى هناك . جذب الليالي اختلافها ذهابا ومجيئا يعني ان سبب الصلع كثرة الليالي التي

مرت عليه حتى طعن في السن فاسناد ميز الى جذب الليالي من المجاز العقلي لان الشاعر لا يعتقد ان شيخوخته هي التي جعلته اصلع وانما هي سبب الصلع والفاعل الحقيقي هو الله سبحانه بدليل قوله فيما بعد : افناه قيل الله للشمس اطلعي يعني افنى شعر رأسه قول الله للشمس اطلعي كل يوم . وقوله حتى اذا واراك افق فارجعي دليل قاطع على ان العرب من قديم الزمان وان لم يشتهروا بتعاطي العلوم بل كانوا امة امية اكثرهم لا يكتبون ولا يقرأون كانوا يعرفون ان الارض كرة وان الشمس حين تغيب عن قوم تكون مشرقة عند قوم آخرين لانها لم تنعدم وانما سترها افق اي جانب من الارض وان الله هو الذي امرها بذلك كما كانوا يعلمون ان المطر ينشأ سحابا من البحر حتى اذا علا السحاب في الجو وبرد ساقته الرياح الى الارض التي يريد الله ان ينزل فيها المطر فينزل المطر بقدرة الله يدلك على ذلك قول شاعرهم:

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجج خضر لهن نئيج

قال الخضري في حاشيته على شرح الالفية لابن عقيل ما نصه قول شربن الخ ضمنه معنى روين فعداه بالباء او هي بمعنى من التبعيضية . واللجج جمع لجة بالضم وهي معظم الماء ونئيج بنون فهمزة فياء فجيم كصهيل اي صوت عال وجملة لهن نئيج حال من نون شربن العائد للسحاب لزعم العرب والحكماء انها تدنو من البحر الملح في اماكن مخصوصة فتمتد منها خراطيم عظيمة كخراطيم الابل فتشرب من مائه بصوت مزعج ثم تصعد في الجو فيلطف ذلك الماء ويعذب باذن الله تعالى في زمن صعودها في الهواء ثم تمطره حيث شاء الله تعالى انتهى

وحكاية الخراطيم التي ذكر للسحاب وانها تدنو من البحر في اماكن مخصوصة فتشرب بصوت عال تدل على ان الخضري لم يفهم قول الحكماء ، والذي قاله الحكماء هو ان ماء البحار يتبخر بحرارة الشمس فيصعد في الجو بخارا فاذا بلغ اعالي الجو برد ثم نزل مطرا كما تقدم . وقول الخضري يلطف ويعذب يريد انه صفي من الاملاح فيصير ماء عذبا صالحا للشرب ولسقي الاشجار والنباتات وقد اخبرني بعض الاخوان في الكويت ان الماء الذي يصفى في معامل التصفية يصير عذبا كماء المطر ولكنه لا يصلح لسقي الزرع والاشجار الا اذا موزج بماء الآبار وهذا ان صح يدلنا على السر الكامن في تصفية الله تعالى والفرق بينها وبين تصفية الانسان بالآلة والصنعة اما العذوبة فهي كماء المطر ولا فرق وقد شربت الماء المصفى بالآلات في مطار الظهران بالمملكة العربية السعودية فوجدته كما ذكرت ولله في خلقه شؤون .

بقلم الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

« 9 »

44 ـ **تاشيرة السفر** ، ومن الاخطاء الشائعة الفاضحة التعبير بالتاشيرة فى جواز السفر بمعنى الاذن الذى تعطيه سفارة دولة من يريد السفر الى بلادها ، فهذا اللفظ بهذا المعنى لا اساس له فى اللغة العربية ، وسبب استعماله ان بعض البلدان العربية يستعملون فى لغتهم العامية اشر بفتح الهمزة وتشديد الشين مفتوحة بمعنى اشار فيقولون يؤشر له بيده اي يشير له ، فاستعمل بعض جهلة الكتاب التاشير بمعنى الاشارة يريد بذلك سمة الدخول الى بلاد دولة من الدول وتبعه امثاله فى ذلك وانتشرت هذه الكلمة عند العامة واستعملتها الخاصة تبعا لهم بدون مبالاة والذين لا يعرفون اللغات الاجنبية منهم يظنون انها مقتبسة منها وانها شيء محتم لا بد منه ولا غنى عنه فيذعنون له كما يذعنون الى غيره من الالفاظ الدخيلة والمولدة وبذلك يخدش وجه اللغة العربية وتزول محاسنها ويقضى عليها ، حتى اذا قابل العالم بها انشاء اهل هذا الزمان بانشاء اسلافهم يصيبه من الدهشة مثل ما يصيبه اذا قابل هممهم بهممهم واعمالهم بأعمالهم فينشد قول الشاعر :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

وقول الآخر :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
والمنكرون لكل امر منكر
وبقيت فى خلف يزكي بعضهم
بعضا ليسكت معور عن معور

المعور : الذى فيه خلل .

والتاشير فى كلام العرب غير مهمل ولكن له معنى ، غير ذلك قال صاحب اللسان تأشير الاسنان تحزيزها وتحديد اطرافها وقد اشرت المراة اسنانها تأشرها اشرا واشرتها (بتشديد الشين) حززتها .

ثم مضى الى ان قال : والتاشيرة ما تعض به الجرادة والتاشير شوك ساقيها ، اهـ . المراد منه .

والصواب ان يقال بدل التاشيرة (السمة) بكسر السين وفتح الميم مخففة وهذا اللفظ مستعمل فعلا فى العراق يقال فلان منح سمة الدخول الى البلاد العراقية او المرور بها وهو استعمال صحيح .

45 ـ **سلام حار، وشكر حار** هذا مما اخذه المستعمرون يفتح الميم من المستعمرين بكسرها ، والسلام عند العرب لا يوصف بالحرارة بل بالكثرة والطيب والزكاة ، فيقال ازكى السلام واطيبه ويشبه السلام عند العرب بالنسيم الذى يهب على الروض فيحمل اطيب روائحه الى المحبوب قال بعضهم :

سلام على الاحباب فى القرب والبعد
سلام كما هب النسيم على الورد

لا يقال هذا اقتباس حسن يقتبسه الكاتب العربي من الكاتب الاوربي لا ان نقول ان انشاء العربي

سبق الانشاء الاوروبي وبلغ اوج الكمال فلا حاجة به الى ان يقتبس من الآداب الاوروبية شيئا سبقهم اليه وعلمهم اياه وليس هذا من المخترعات ولا من المكتشفات التي كانت مجهولة حتى يقتبسها العرب من مخترعيها ومكتشفيها اهـ .

46 ـ الليلة الماضية او ليلة امس ، ومن الجهل باللغة العربية تعبيرهم بالليلة الماضية او ليلة امس كما تعبر به الاذاعات ويقتدي بها المتكلمون ، والصواب ان يقال البارحة . قال صاحب اللسان : والبارحة اقرب ليلة مضت ، تقول : لقيته البارحة ولقيته البارحة الاولى . وقال ثعلب : تقول مذ غدوه الى ان تزول الشمس رايت الليلة في منامي فاذا زالت قلت رايت البارحة، ومن امثال العرب : ما اشبه الليلة بالبارحة ، اي ما اشبه الليلة التي نحن فيها بالليلة الاولى التي قد برحت وزالت ومضت ، اهـ كلام صاحب اللسان . وقد ضمن بعضهم هذا المثل فقال في ذم اصدقائه :

كل خليل كنت خاللته
لا تـرك الله له واضحة
كلهم اروغ من ثعلب
ما اشبه الليلة بالبارحة

يقول ان اصدقاءه يشبه بعضهم بعضا في الخيانة والغدر ويدعو عليهم بان لا يترك الله لاحدهم واضحة اي سنا ، اقول البارحة الاولى : هي الليلة التي قبل البارحة وهذه العبارة لا تزال مستعملة عندنا في سجلماسة (تافيلالت) وقد غير لفظها الى ان صار هكذا (البارحتلولى) .

47 ـ **اما عن كذا وكذا ..** وهو من التعابير المأخوذة من لغات المستعمرين ولا تزال طرية يعرفها كل من يعرف اللغات الاجنبية واستعمارها للعربية وطغيانها عليها ومسخها لجمالها والصواب ان يقال اما ويؤتى بالكلمة المقصودة مرفوعة ، ان كانت عارية عن العوامل التي توجب نصبها نحو :

ولم ار كالمعروف اما مذاقه
فحلو واما وجهه فجميل

واما ان كانت في متناول عامل ينصبها فيؤتى بها منصوبة كقوله تعالى : (فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر)

واما ان كانت الكلمة جارا ومجرورا فيوتى بها بعد اما نحو (واما بنعمة ربك فحدث)

واما هؤلاء الكتاب المخطئون فانهم جعلوا كل كلمة تاتي بعد اما مجرورة بعن ، فيقولون مثلا : اما عن فلان فقد فعل كذا وكذا . فيقحمون عن بدون معنى لموافقة جهلة المترجمين ، ولو سالت احدهم : لماذا عبرت بهذه العبارة لقال لك: سمعت كتابا محترمين وخطباء ومذيعين يعبرون بها فهل يجوز ان يكون هؤلاء كلهم مخطئون ، ولو سالت اولئك الكتاب والخطباء لما كان جوابهم افضل من جواب مقلدهم وهذا مضرب المثل (تمسك غريق بغريق) .

اعمى يقود اعمى !، وما المانع ان يكون مخطئين فهل هم معصومون ؟.. فالمعصوم من الخطا عند علماء هذا الشان هو القرآن وما صح من كلام العرب الخلص الى آخر عهد بني امية قبل ان يفشو اللحن والخطا وتختل اللغة ويرجع كذلك الى قواعد اللغة ، ومن نظر في كتاب الله وكلام العرب يتبين له لاول وهلة جهل هؤلاء المركب ، فانهم يجهلون ويجهلون انهم يجهلون ، وما اكثر هذا الجهل المركب في البلدان المتاخرة التي اختلط حابلها بنابلها ، والتبس حقها بباطلها .

48 ـ **لم ترضخ للاستعمار** ـ من الافعال الشائعة الاستعمال في الصحف والمجلات والخطب وكلام الناس والاذاعات استعمال رضخ له بمعنى خضع وهو استعمال مخترع مكذوب لا اصل له فان الرضخ اذا تعدى بنفسه فمعناه الكسر ، واذا تعدى باللام فمعناه العطاء القليل ، يقال رضخ راس الحية اي كسره ، ورضخ له من ماله اي اعطاه شيئا قليلا ، ورضخت المراة النوى بالمرضخة اي كسرته لتجعله علفا للمواشي ، ومن لا يزن كلامه بقسطاس مستقيم بل ياخذ انشاءه من كلام كل من هب ودب فانه يقع في اخطاء لا تعد ولا تحصى ولا نتعجب من العامة اذا فعلوا ذلك وانما نتعجب من الخاصة الذين يرجى منهم ان يسهروا على تحقيق اللغة واصلاح الخطا ، فاذا بهم يرتكبون الاخطاء ولا يبالون وربما يغضبون اذا نبهوا ويتعصبون، وهذا مضرب المثل: (بالملح يصلح ما فسد، فكيف اذا الملح فسد) فلسان اللغة العربية ينشدهم :

اذا رمتم قتلي وانتم احبتي
اذن فالاعادي واحد والحبائب

49 ـ ومن مساوىء استعمار بل استعباد اللغات الاوروبية للغة القرآن تسميتهم الرجل العظيم شخصية ، والرجال العظماء شخصيات .

وقد راجعت كتب اللغة على سبيل الاحتياط فلم ازدد الا يقينا بفساد هذا الاستعمال ، والصواب ان يقال بدل الشخصية رجل عظيم او نبيل او سري، والشخصية لفظ مؤنث ففيه نقص وذم لمن وصف به فكيف يكون تعظيما ، وفي لسان العرب ما نصه : والشخيص العظيم الشخص والانثى شخيصة والاسم الشخاصة . قال ابن سيده ولم اسمع له بفعل فاقول ان الشخاصة مصدر ابو زيد ، رجل شخيص اذا كان سيدا ، وقيل شخيص اذا كان ذا شخص وخلق عظيم بين الشخاصة وشخص الرجل بالضم فهو شخيص اي جسيم . اهـ .

قال محمد تقي الدين يرحم الله ابن سيده ما اشد حرصه على سلامة اللغة العربية والمحافظة عليها من الاختلال فحيا الله ذلك الزمان الذى كان فيه اللغة العربية حماتها وانصارها يذودون عن حماها ويصونونها من العابثين والجاهلين فانه رحمه الله لم يستطع ان يقيس فيوجد لهذه الصفة فعلا لانه لم يسمعه مرويا عن العرب مع انه قياس وجيه فان فعيلا ياتي في الغالب من فعل بالضم كعظم فهو عظيم وجمل فهو جميل وكرم فهو كريم وقد ذكر بعد ذلك صاحب اللسان الفعل فان لم يسمعه ابن سيده فقد سمعه غيره واثبته وتبين مما نقلته من كلام اللسان انه يمكن ان يقال رجل شخيص بمعنى سيد نبيل فيكون بديلا عن اللفظ الاعجمي الاصل وهو الشخصية ، فيقال شخيص وشخصاء بدل شخصية وشخصيات وشخيص اجمل لفظا مع كونه مرويا وليس فيه تانيث فينبغي ان يكون ترجمة لذلك اللفظ الانكليزي اذ احتيج اليه .

واقبح من ذلك لفظ تحيرت في معناه الالباب اخترعه شخص جاهل فنشرته مجلة دعوة الحق الغراء بدون تعليق مع انه تكرر في مقالات هرف بها ذلك الشخص ولا نقول انه شخيص وقد تعجب احد كبار العلماء المصريين وهو صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمان الوكيل من هذا اللفظ حين كتب اليه ذلك الشخص كتابا خاصا واستعمل فيه ذلك اللفظ المخترع المكذوب على اللغة العربية الا وهو (الشخصانية) ثم ولد لفظا آخر وهو (التشخصن) فصار ابنا للشخصانية ومثل هذا يزرى بمجلة دعوة الحق وهي مجلة لها مقام سام في النوادي الادبية في انحاء العالم فعسى ان يتنبه سيادة رئيس التحرير لذلك وما نقلته من تعجب الاستاذ الوكيل وتحيره في ذلك اللفظ نشره في مجلة (الهدي النبوي) التي كان يصدرها في القاهرة الى ان توقفت بعد حرب يونيو .

50 ــ ومن التعابير التي شاعت في هذا الزمن قولهم **ساعدته الظروف او حالت الظروف بينه وبين ما يريد** وهو كثير في كلام الخاصة والعامة وهو استعمال غير عربي ولنبدا بمعرفة معنى الظرف والظروف لننظر هل يصح اسناد الفعل اليها على سبيل المجاز العقلي كما يسند الى الزمن والدهر والليل والنهار او لا يصح ؟ اما اسناد الفعل الى الدهر على سبيل المجاز العقلي فهو شائع في كلام العرب، فمن ذلك قول وزير عزله ملكه من الصباح الى الزوال ثم رضي عنه ورده الى مكانته من مخلع « البسيط»

عاداني الدهر نصف يوم
فانكشف الناس لي وبانوا

يا ايها المعرضون عني
عودوا فقد عاد لي الزمان

وذلك انه حين عزل تنكر الناس له وتغيروا فقال لهم ارجعوا الى ما كنتم عليه من التملق والتعظيم والتعلق فان الزمان الذى عاداني واعرض عني فاقتديتم به قد عاد الي واقبل علي فعودوا انتم ايضا، فاسند العداوة الى الدهر والعود الى الزمن على سبيل المجاز والزمن لم يعاده في الحقيقة ولم يقبل عليه .

ومثل ذلك قول آخر :

رايت الدهر في خفض الاعالي
وفي رفع الاسافلة اللئام

فقبحا صح في فتواه قول
بتفضيل السجود على القيام

والدهر لم يرفع احدا ولم يخفضه بل الخافض الرافع هو الله تعالى وانما ذلك مجاز اسند الفعل فيه الى ملابسه وهو زمانه الذى وقع فيه ، فقوله عاداني الدهر اي عاداني الناس او السلطان في الدهر، وعادني الزمان اي عاد لي الحظ في الزمان ، ومثل ذلك اسناد الفعل الى الدنيا والعرب تفعل ذلك كثيرا قال ابن الوردي في لاميته :

اترك الدنيا فمن عادتها
تخفض العالي وتعلي من سفل

وقال غيره :

سألت عن الدنيا الدنية قيل لي
هي الدار فيها الدائرات تدور

اذا اقبلت ولت وان احسنت است
وان عدلت يوما فسوف تجور

واسناد الفعل الى الدنيا كاسناده الى الزمان لان الدنيا في الاصل صفة الحياة وبذلك جاء القرآن في غير موضع .

والمراد بالدنيا القربى فعلى من الدنو وتقابلها الحياة الاخرى واسناد الافعال الى الظروف يقصد به ما قصد باسنادها الى الزمان والدهر فالظاهر انهم اخذوا ذلك من تعبير النحاة بظرف الزمان ، فان قيل فهمنا من كلامك انك لا تنكر اسناد الفعل الى الزمان على سبيل المجاز وقد اعترفت بان مراد المعبرين بالظروف الازمنة والاوقات فلماذا حملت عليهم هذه الحملة الشديدة ؟ فالجواب ان هناك فرقا كبيرا بين اسناد الفعل الى الزمان واسناده الى الظرف مفردا او مجموعا لان تعبير النحاة اصطلاح وليس بحقيقة لغوية فان العرب لم تسم الزمان ظرفا ولا الاوقات ظروفا ، قال صاحب اللسان وظرف الشيء وعاؤه ، ومنه ظروف الازمنة والامكنة الليث الظرف وعاء كل شيء حتى ان الابريق ظرف لما فيه والصفات في الكلام التي تكون مواضع لغيرها تسمى ظروفا من نحو امام وقدام وما اشبه ذلك ، تقول خلفك زيد انما انتصب لانه ظرف لما فيه وهو موضع لغيره ، وقال غيره الخليل يسميها ظروفا والكسائي يسميها المحال والفراء يسميها الصفات والمعنى واحد اهـ . فالظرف كما قلنا اصطلاح لبعض النحاة يشمل الزمان والمكان ولا يجوز ان يعبر في اللغة عن الزمان فلا يقال اقمت في المدينة الفلانية ظرفا طويلا او قصيرا وانما يقال اقمت زمانا .

ولما قول الشاعر رايت الدهر في خفض الاعالي ... فانه يشير الى خلاف جار بين الفقهاء فيما هو افضل اطول القيام في صلاة النوافل ام كثرة السجود؟ اي السجدات ، فقال قوم كثرة السجود افضل واحتجوا بما رواه مسلم عن ربيعة بن مالك الاسلمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سل . فقلت : اسالك مرافقتك في الجنة . فقال : اوغير ذلك؟ . قلت: هو ذاك . قال: فاعني على نفسك بكثرة السجود . وقال اخرون طول القيام افضل من كثرة السجود واستدلوا بحديث ورد في ذلك اهـ .

51 ـ **ثلاثينات او الثلاثينيات** ـ ومن التقليد القردي ما يعبر به المذيعون في اذاعة لندن وغيرها اذا ارادوا ان يؤرخوا حادثة من الحوادث انهم يقولون وقع ذلك في حدود الثلاثينات او الثلاثينيات او الاربعينات من القرن التاسع عشر مثلا وهذه العبارة ترجمة لفظية للتعبير الانجليزي وهي في غاية الفساد لان القرن الواحد لا تتعدد فيه اربعون ولا ثلاثون ولا عشرون فلا حاجة الى جمعها ولا معنى له .

52 ـ **بيانات وخلافات وقرارات** وما اشبه ذلك . ومن الاخطاء التي شاعت وذاعت في هذا الزمان جمع كثير من الاسماء المذكورة من مصادر غيرها بالالف والتاء ، فيقولون في جمع بيان بيانات، وفي جمع قرار قرارات ، وفي جمع خلاف خلافات، وفي جمع جواز السفر جوازات وهذا من ابين الخطا لان المفردات التي تجمع هذا الجمع معروفة ولا تجوز الزيادة عليها الا ما سمع من العرب وقد جمعها بعضهم في قوله :

وقسه في ذي التا ونحو ذكرى
ودرهم مصغرا وصحرا
وزينب ووصف غير العاقل
وغير ذا مسلم للناقل

فالاول ذو التاء يعني تاء التانيث كغرفة وغرفات وصلاة وصلوات وكاتبة وكاتبات وفاطمة وفاطمات ولو كان مذكرا كطلحة وطلحات . والثاني ما كان آخره الف التانيث المقصورة نحو ذكرى وذكريات ، وبشرى وبشريات ، وحبلى وحبليات . والثالث الاسم اذا صغر وكان لمذكر ولما لا يعقل ، كدريهم ودريهمات ، وغزيل وغزيلات . الرابع الف التانيث الممدودة ، كحمراء وحمروات ، وصفراء وصفروات . كل اسم علم مؤنث وان لم تكن فيه التاء كزينب وزينبات، وهند وهندات . السادس وصف غير العاقل كقوله تعالى (الحج اشهر معلومات) (اذكروا الله في ايام معدودات) فان معلومات جمع معلوم ، ومعدودات جمع معدود . هذه ستة يقاس فيها الجمع بالالف والتاء ، وقد سمع من العرب جمع الحمام على حمامات وجمع السرادق على سرادقات ، قال في اللسان السرادق ما احاط بالبناء والجمع سرادقات ، قال سيبويه : جمعوه بالتاء وان كان مذكرا حين لم

بكسر وفي التنزيل « احاط بهم سرادقها » ، في صفة النار اعاذنا الله منها سورة الكهف رقم 29 . وقال ابن كثير في تفسيره وقال ابن جريج قال ابن عباس احاط بهم سرادقها قال حائط من نار اهـ . فان قلت فكيف نجمع هذه الالفاظ اقول ، اما القرار فيستغني بجمع المقرر عن جمعه فيقال المقررات وهو داخل في القسم السادس مما تقدم ، واما البيان فيجمع على ابينة لان فعالا يجمع على افعلة ، واما الخلاف فهو مصدر لا حاجة الى جمعه فاذا اردنا كثرته نقول : خلاف كثير ، اما جواز السفر فيجمع على اجوزة ، وكل اسم يراد جمعه ينظر في قواعد جموع التكسير ويجرى عليها .

المدينة المنورة ـ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

شاع في هذا الزمن قولهم تأكدت من الشيء ، وانا متأكد منه ، وهو خطأ ..

قال في اللسان (اكد العهد والعقد لغة في وكده وقيل هو بدل والتاكيد لغة في التوكيد) .

قال صاحب القاموس (اكد الحنطة داسها واكده تاكيدا وكده والاكيد الوثيق)

وقال صاحب المنجد (اكد ووكد العهد او السرج شده واوثقه ، تاكد وتوكد توثق واشتد الاكيد المحكم الوثيق ، وقال ايضا اكد ووكد الشيء قرره ، تاكد وتوكد تقرر الاكيد الثابت) اه .

وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى في سورة النحل : (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها رقم 91 (بعد توكيدها) بعد توثيقها بذكر الله تعالى ، ومنه اكد بقلب الواو همزة اه .

وقال الاشموني في شرح الالفية التوكيد هو في الاصل مصدر ويسمى به التابع المخصوص ، ويقال اكد تاكيدا ووكد توكيدا ، وهو بالواو اكثر .

شرح ما تقدم

قول صاحب اللسان اكد العهد والعقد لغة في وكده ، نفهم منه ان التوكيد اصله بالواو والتاكيد بالهمزة لغة فيه ، وقال بعضهم ليس هو لغة وانما ابدلت الواو همزة يقال اكدت العهد واليمين ووكدتهما توكيدا وتاكيدا فهما موكدان ومؤكدان ، وقول صاحب القاموس اكد الحنطة داسها اي درسها ليتميز حبها من تبنها ، والحنطة هي البر بالضم ، وتسمى القمح ، فالحنطة ماكودة . واكده تاكيدا اكد العهد او اليمين يؤكد تاكيدا ووكده كذلك فهو موكد ومؤكد ووكده بالتخفيف ثلاثيا واكده فهو موكود واكيد وفعيل هنا بمعنى مفعول والتوكيد التوثيق .

وقول صاحب المنجد اكد ووكد العهد او السرج شده واوثقه ، نفهم منه ان توكيد العهد واليمين توثيق معنوي وتوكيد السرج توكيد حسي ، وتاكد العهد او السرج مطاوع اكد وعليه نقول اكدت العهد والخبر والسرج مثلا ، فتاكد اى توثق وصار محكما ، والعجب من صاحب اللسان وصاحب القاموس اذ اهملا فعل المطاوعة وهو تاكد ومن دواعي الاسف انه لا يوجد عندي الان من كتب اللغة الا الثلاثة المذكورة ، وسائر كلامه واضح .

وقوله تعالى : (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) دليل على ان التوكيد بالواو واضح من التاكيد بالهمزة سواء اقلنا قلب الواو همزة ام قلنا انها بدل منه ، واطلاق التوكيد في كتب النحو على التابع مجاز من باب اطلاق المصدر وارادة اسم الفاعل لان التابع مؤكد بكسر الكاف للمتبوع ، فاذا قلنا جاء زيد نفسه ، او عينه لدفع احتمال ان يكون المراد جاء كتابه او رسوله

فان النفس والعين ، مؤكدتان لمجيء زيد حقيقة لا مجازا ، وكلام الاشموني واضح . نفهم من ذلك كله ان العهد واليمين والخبر وما اشبه ذلك يتاكد او لا يتاكد ، اما المتكلم فلا يؤكد ولا يتاكد فلا يقال اكدت فلانا فتاكد حتى يستطيع هو ان يقول انا متؤكد ، بقي ان يقال اذا كان قول الكاتب او المتكلم انا متاكد من ذلك الامر خطا فما هو الصواب علمنا يرحمك الله فالجواب انه يجب ان يقول انا مستيقن هذا الخبر او انا مستيقن لهذا الخبر ، قال تعالى في سورة النمل رقم 14 (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين 13 ، 14) . فالضمير في استيقنتها يعود على الآيات المبصرة اى البينة المذكورة قبل هذا ، وقال تعالى في سورة الجاثية حكاية عن الكافرين المكذبين بالبعث : (واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين) 32 . قال صاحب اللسان : (اليقين العلم وازاحة الشك وتحقيق الامر ، وقد ايقن يوقن ايقانا ، فهو موقن ، ويقن ييقن يقنا فهو يقن ، واليقين نقيض الشك والعلم نقيض الجهل تقول علمته يقينا ، وفي التنزيل وانه لحق اليقين ، اضاف الحق الى اليقين وليس هو من اضافة الشيء الى نفسه ، لان الحق هو غير اليقين انما هو خالصه واصحه فجرى مجرى اضافة البعض الى الكل ، وقوله تعالى : (واعبد ربك حتى ياتيك اليقين) اى حتى ياتيك الموت ، كما قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وقال ما دمت حيا وان لم تكن عبادة لغير حي لان معناه اعبد ربك ابدا واعبده الى الممات ، واذا امر بذلك فقد امر بالاقامة على العبادة .

ويقنت الامر بالكسر ابن سيده يقن الامر يقنا ويقنا وايقنه وايقن به وتيقنه واستيقنه واستيقن به وتيقنت بالامر واستيقنت به كله بمعنى واحد ، وانا على يقين منه وانما صارت الياء واوا في قولك موقن للضمة قبلها ، واذا صغرته رددته الى الاصل وقلت مييقن وربما عبروا بالظن عن اليقين وباليقين عن الظن ، قال ابو سدرة الاسدي ، ويقال الهجيوي .

تحسب هواس وايقن انني
بها مفتد من واحد لا اغامره

يقول تشمم الاسد ناقتي يظن انني افتدي بها منه واستحمي نفسي فاتركها له ولا اقتحم المهالك بمقاتلته وانما سمي الاسد هواسا لانه يهوس الفريسة اى يدقها . اه

ومما شاع في هذا الزمن استعمالهم قولهم عاش احداثها ، اى احداث الايام او احداث الحرب وهذا استعمال غير صحيح لان الاحداث ليست ظرف مكان ولا زمان حتى تنصب بتقدير (في) يقال عاش مائة سنة فمائة منصوب على انه ظرف زمان ، قال الحريري في ملحة الاعراب :

الظرف منصوب على اضمار في
فاعتبر الظرف بذاك واكتف
تقول صام خالد اياما
وغاب ظهرا واقام عاما

فهذه ظروف زمان منصوبة بتقدير في ، وتقول في ظرف مكان جلست امام زيد او خلفه وجلست تحت الشجرة وفوق السطح فهذه ظروف مكان منصوبة بتقدير (في) اما الاحداث فليست ظرف زمان ولا مكان ، فلا يصح ان تكون منصوبة باضمار حرف الجر ولا يصح ان تكون مفعول به لعاش لانه فعل لازم . لا يقال اذا كانت الاحداث مضافة الى الايام يجوز ان تقوم مقامها فتكتسب الظرفية باضافتها اليها كما وقع في مائة سنة والف سنة ، كما قال تعالى في سورة العنكبوت الآية 14 : (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما) ، وتقول اقمت في البلد سبعة ايام فانت ترى ان العدد لما اضيف الى الظرف اكتسب الظرفية منه ، فلماذا لا تكتسب الاحداث الظرفية اذا اضيفت الى ظرف كقولهم عاش احداث تلك الايام لانا نقول ان هناك فرقا شاسعا بين اضافة العدد الى الظرف المعدود وبين اضافة غيره اليه ، لان مائة هي السنون نفسها وليست اجنبية عنها وكذلك الالف والسبعة بخلاف الاحداث فانها مغايرة للايام بل هي مظروفة والايام ظرفها ، فان الاحداث واقعة في الايام فلا يصح ان تقوم مقامها ، اما قولهم عاش احداث تلك الحرب فهو ابعد من الظرفية ، وانما جاء هذا الاستعمال الفاسد من اقتباس المترجمين معاني الالفاظ الاعجمية واستعمالها في اللغة العربية ظنا منهم انما جاز في لغة يجوز في لغة اخرى وهذا في غاية الفساد ، فان المترجم لو ترجم كلاما عجميا بكلام عربي بدون مراعاة ، لطبيعة كل من اللغتين واسلوبهما وقواعدهما بل ابدل كل كلمة اعجمية بكلمة عربية لجاءت عبارته في غاية الركاكة والقبح ، وبعضها لا يكاد يفهم ، وقد اشرت الى هذا المعنى فيما سلف ، فلا حاجة الى اعادته ، فان قيل فما هو الصواب الذي

يجب التعبير به بدلا من قولهم عاش احداث تلك الحرب او احداث تلك الايام ؟ فالجواب انه ينبغي ان يقال شاهد احداثها فهو شاهد عيان لها .

ومن الالفاظ الدخيلة قول بعضهم (**بذل فلان كل الجهود لبلورة الشخصية الافريقية**) وهو مصدر قولهم بلور المخترع ، واخترعوا له ايضا فعلا مطاوعا وهو تبلور وهذه الالفاظ لا وجود لها في اللغة العربية التي يعرفها العرب وهي ماخوذة من اللغة الانكليزية يقينا وهذا نص ما في المعاجم الانكليزية To crystalize بلور ، To be crystalized تبلور ، Crystal Glass الزجاج ، Flint Glass بلور صخري . وقال صاحب المنجد : (تبلر وتبلور ، صار شبيها بالبلور ، البلور والبلور نوع من الزجاج جوهر ابيض شفاف (فارسية) ، وقد ظهر ان هذه الالفاظ الثلاثة البلورة ، وفعلها بلور ، والتبلور ، وفعله تبلور ، هذه الالفاظ الاربعة لم تستعملها العرب في ما نعلم من كلامهم ، ويمكن ان يقال ان سلمنا لك ان العرب لم تستعملها تكون دخيلة او مولدة ؟ والدخيل والمولد كثير في استعمال المحدثين وان لم تستعمله العرب فما المانع من استعماله ؟ والجواب ان الاشياء التي حدثت بعد زمان العرب من الاعيان والمعاني يجب علينا ان نبحث لها عن الفاظ تدل عليها مما يناسبها من لغة العرب ، او نقبل اسماءها الاعجمية ونمزجها بالالفاظ العربية كما فعل العرب الاولون حين ادخلوا كثيرا من الالفاظ اليونانية والرومانية والفارسية .

اما الاشياء التي كانت موجودة في زمان العرب ولها الفاظ تدل عليها في لغتهم فلا يجوز ان نعدل عنها الى الفاظ تترجم ترجمة حرفية ونشوه بها لغة القرءان حتى تفقد جمالها وبلاغتها ، فما المراد بالشخصية الافريقية ؟ وما المراد ببلورتها ؟ هذان لفظان مبهمان لا يمكن فهمهما الا اذا رجعنا الى اللغة الاجنبية ، التي اخذا منها ، وقد رجعنا فعلا الى اللغة الاجنبية فوجدنا معنى بلورة الشيء ان يجعل شبيها بالبلور ، والبلور من الجواهر .

ولكنا تحيرنا في معنى الشخصية الافريقية مع معرفتنا لاصلها باللغة الاعجمية وهو : Personality والظاهر ان الكاتب يريد بالشخصية القوة والعظمة والشرف وعلو المنزلة في اعين الدول الاخرى . ويريد بالبلورة الرفعة والترقية والتقوية والسعي في سمو المنزلة وعلو المكانة ، والالفاظ التي تدل على هذه المعاني وافرة في العربية فلا حاجة بنا الى استعمال ذينك اللفظين المولدين الذين على ما فيهما من الركاكة معناهما غامض لا يعرف الا بمراجعة اللغة العجمية .

(**على ما اعتقد**) هذه العبارة ماخوذة من اللغة الانكليزية بترجمة فاسدة ، فان لفظة Believe تدل تارة على الاعتقاد وتارة على الظن ، والقرينة هي التي تميز بينهما فذكر هذه الكلمة اذا تجردت عن القرينة لا تدل الا على الظن ، الغالب او المستوى الطرفين ولا تدل على اليقين ، وقد اخذها عامة الكتاب فاساءوا استعمالها فان لفظة اعتقد في اللغة العربية ، تدل على الجزم فتقول مثلا : انا اعتقد صحة هذا الخبر . واعتقد ان الاسلام حق ، وان الله واحد ، ومن ذلك سمي ما يومن به المرء مما يجب لله تعالى من صفات الكمال وما يجب للرسل عليهم الصلاة والسلام من الصدق والتبليغ والامانة والتنزيه عن النقائص التي لا تليق بمقامهم العالي ، سمي كل ذلك عقيدة ، واظن انها فعيلة بمعنى مفعولة كالذبيحة والنطيحة بمعنى المذبوحة والمنطوحة لان القلب قد عقدها واحكم توثيقها ، فان قيل عهدناك في مثل هذه المعاني تفزع الى لسان العرب والقاموس وتحتج بنصوصهما فما بالك عدلت عنهما في هذا الحرف ؟ فالجواب اني لم اجد فيهما نصا على ما اريده وهذا من العجب وساسوق هنا نص اللسان ثم احاول ربطه بالمعنى المقصود (العقد نقيض الحل عقده يعقده عقدا ، وتعقادا ، وعقدة ثم قال واعتقده كعقده ثم قال وعقدة النكاح والبيع وجوبهما قال الفارسي هو من الشد والربط ، وانعقد النكاح بين الزوجين والبيع بين المتبايعين ، وعقدة كل شيء ابرامه ثم قال واعتقد الشيء صلب واشتد ، وقال البيضاوي في سورة البقرة . (ولا تعزموا عقدة النكاح 235) ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد اي ولا تعزموا عقد النكاح وقيل معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح فان اصل العزم القطع ، وقال القاسمي في تفسيره : قال الرازي اصل العقد الشد ، وسميت العهود والانكحة عقودا لانهما تعقد كما يعقد الحبل . وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى : (ولكن يواخذكم بما عقدتم الايمان) رقم 89 سوره المائدة بما وثقتم الايمان عليه بالقصد والنية ، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم اذا حنثتم او بنكث ما عقدتم فحذف للعلم ، به وقرءا حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم عقدتم بالتخفيف وابن عامر برواية ابن ذكوان عاقدتم وهو من فاعل بمعنى فعل اه . وقال ايضا في تفسير قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد) ومن شر النفوس او النساء

السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها ، والنفث النفخ من ريق .

بيان وجه الاحتجاج بما تقدم

حاصله ان العقد هو الشد والربط والابرام والتوثيق وضده الحل والنكث والنقض وعقد واعتقد معناهم واحد ، ويكون في الحسيات كعقد الخيط والحبل ، وفي المعنويات كعقد النكاح والبيع واليمين والعهد والاعتقاد الذي نحن بصدده من القسم الثاني وهو المعنوي ، فاعتقاد الانسان امرا من الامور ، جزمه وتصديقه وايمانه فكأنه عقد الايمان والتصديق بذلك الامر بقلبه حين جزم به فلو كفر به لكان كفره حلا لما عقد ونقضا له وذلك يتنافى مع الظن المرجوح والمستوي الطرفين ، والغالب ايضا لانه متى داخله شك في امر من الامور لا يصح ان يقال انه يعتقده الا مع البيان تقوله اعتقادا غير جازم ، فان قيل فماذا ينبغي ان يقال بدل ذلك فالصواب ينبغي ان يقال اظن لما تقدم من قوله تعالى حكاية عن الكفار : (ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين) ولما جاء في الخبر الصحيح مرفوعا الى النبي ص (اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث) وقوله تعالى : (ان الظن لا يغني من الحق شيئا) .

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين

بقلم الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

- 11 -

55 ـ فلان يريد مقابلة الرئيس

من العبارات التي شاعت وذاعت في هذا الزمان وهي من الكلمات المولدة التي لم تستعملها العرب قولهم فلان يريد مقابلة الرئيس على صيغة المصدر ويستعملونه ايضا فعلا كقابلته واقابله او ان الرئيس لا يقابل احدا في هذا اليوم وكل ذلك استعمال فاسد ولا حاجة اليه والصواب ان يقال فلان يريد لقاء الرئيس او الاجتماع به وما اشبه ذلك قال صاحب اللسان واستقبل الشيء وقابله حاذاه بوجهه وقال في موضع آخر ويقال فلان جلس قبالته اي تجاهه ثم قال ومقابلة الكتاب بالكتاب وقباله في معارضته، وتقابل القوم استقبل بعضهم بعضا ، وقوله تعالى في وصف اهل الجنة «اخوانا على سرر متقابلين»، جاء في التفسير انه لا ينظر بعضهم في اقفاء بعض ثم قال المقابلة المواجهة والتقابل مثله قال محمد تقي الدين نفهم من كل ما تقدم ان المقابلة المواجهة بين انسانين او شيئين غيرهما والتقابل التواجه وهو ان يستقبل الواحد الآخر وجها الى وجه سواء اكان قريبا ام بعيدا وهذا المعنى وان كان يمكن تأويله باللقاء والاجتماع فانه لم تجربه عادة العرب الفصحاء في تخاطبهم وانما هي عامية مصرية ادخلها الكتاب المصريون فيما يكتبونه من الفصيح فتبعهم غيرهم من الكتاب كما تقدم في النقد العاشر من هذه المجموعة من قول المصريين نسيت انا الآخر او غاب هو الآخر فهي عامية مصرية ايضا والمصريون لهم فضل وتقدم في الادب العربي وغيره من العلوم فلا ينبغي لاحد ان يستنكف من الاقتداء بهم في صوابهم ولكنهم مع ذلك كغيرهم غير معصومين من الخطأ فلا يجوز تقليدهم تقليد الاعمى بل يجب على الكاتب ان يكون بصيرا بما يكتب وبما يتكلم به ويقراه ويجعل الحكم للدليل .

56 ـ ويقولون مثلا في منتصف شوال او مارس القادم يريدون الشهر الآتي والشهر لا يوصف بالقدوم الا على سبيل التشبيه بالمسافر والتشبيه لا يحسن في كل موضع وقد صار ديدن الكتاب الا يقولوا في الغالب الا العام القادم وذلك تعبير يشين وجه اللغة العربية وأظنهم اخذوه من اللغة الانجليزية لانها ، لضيقها ، ليس لها الفاظ بازاء كل معنى من المعاني فليس لها لفظ خاص بمجيء المسافر ولفظ خاص بمجيء السنة او العام فليس لها الا لفظ واحد تستعمله لكل آت والقراء الذين يعرفون الانجليزية يفهمون هذا حق الفهم وليس عندي الآن من يكتبه بالانجليزية اذا امليته عليه فلذلك تركته واكتفيت بالاشارة (وكل لبيب بالاشارة يفهم) الدليل على ما قلته قال الفيروزبادي في القاموس المحيط ما نصه : وقدم من سفره كعلم قدوما وقدما بالكسر ءاب فهو قادم ، ومنه تعلم ان القدوم لا يستحسن استعماله للعام والسنة والشهر بل يقال الشهر الآتي والسنة القابلة والعام القابل . ولو استفتيت بالوصف فقلت مثلا لم استطع ان ازورك في هذا العام وسازورك في القابل ان شاء

الله لجاز ذلك وكان فصيحا اما الشهر فيقال فيه لآتي واما قوله سبحانه وتعالى في سورة هود رقم 98 حكاية عن فرعون يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وبئس الورد المورود) فهو من قدم بفتح الدال في الماضي وضمها في المضارع بمعنى يتقدمهم يسير امامهم الى جهنم حتى يوردهم النار اي يدخلهم اياها وشبهت النار بالمورد وهو الماء الذي يقصد للشرب والاستقاء اي اخذ الماء والتزود منه فعبر الكتاب العزيز بأورد واما قدم المسافر فهو بكسر الدال في الماضي وفتحها في المضارع كما اشار اليه صاحب القاموس بقوله كعلم

57 ـ ومن ذلك قولهم جلسة الامس

يعنون بذلك الجلسة التي وقعت في نهار اليوم الذي قبل يومك الذي انت فيه وهذا خطأ سببه الجهل باللغة وعدم التفريق بين معنى الامس بالالف واللام وامس بدونهما وبين اللفظين بون بعيد تضل فيه القطا فانه اذا جاء بالالف واللام معناه الزمان الذي قبل زمانك دون تعيين يوم قريب او بعيد، واما امس بدون الالف واللام فمعناه نهار اليوم الذي قبل يومك، اما الليلة التي قبل يومك فتسمى البارحة واكثر الكتاب لا يميزون بين امس والبارحة فيظنونهما سواء قال سليمان بن عمر الملقب بالجمل في حاشيته على تفسير الجلالين عند قوله تعالى (رقم 24 من سورة يونس: «فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس» ما نصه قوله بالامس المراد به الزمن الماضي لا خصوص اليوم الذي قبل يومك، واما امس الذي هو اسم لنهار اليوم الذي قبل يومك الذي انت فيه ففيه لغتان للعرب لغة الحجاز ولغة تميم ، اما اهل الحجاز فهو مبني عندهم على الكسر في حال الرفع والنصب والجر تقول مضى امس بكسر السين فهو فاعل مبني على الكسر في محل رفع وتقول في النصب فعلت ذلك امس فامس ظرف مبني على الكسر في محل نصب وتقول ما رايته مذ امس فمذ حرف جر وامس مبني على الكسر في محل جر وفي كل هذه الاحوال تكسر السين من امس بدون تنوين . اما لغة تميم فانهم يجرونه على اعراب ما لا ينصرف تقول على لغتهم مضى امس بالرفع بدون تنوين فامس فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة في آخره وتقول في النصب فعلت ذلك امس بدون تنوين فامس ظرف زمان منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة في آخره وتقول في حال الجر ما رايته منذ امس فمذ حرف جر وامس مجرور وعلامة جره الفتحة الظاهرة في آخره لانه اسم لا ينصرف وعنى هذه اللغة قول الشاعر :

لقد رايت عجبا مذ امسا
عجائزا مثل السعالي خمسا

يأكلن ما في رحلهن همسا
لا ترك الله لهن ضرسا

فقوله مذ امس الالف زائدة لاطلاق القافية وامس مجرور وعلامة جره الفتحة النائبة عن الكسرة لانه اسم لا ينصرف ، والسعالي جمع سعلاة قال صاحب القاموس السعلاة والسعلاء بكسر السين فيهما الغول او ساحرة الجن وتشبه المرأة العجوز عند ارادة ذمها بالسعلاء قال الشاعر :

يا قبح الله بني السعلاة
زيد ابن عمرو من شرار النات

قاله يهجو بني زيد بن عمرو وشبه امهم العجوز بالسعلاة وقوله في آخر البيت من شرار النات يعني من شرار الناس بابدال السين تاء وقال ابو حيان في تفسيره المسمى بالبحر المجلد الخامس صفحة 144 في تفسير الآية المتقدمة ما نصه وقوله « كأن لم تغن بالامس» مبالغة في التلف والهلاك حتى كانها لم توجد قبل ولم يقم بالارض بهجة خضرة تسر اهلها وهو من غني بكذا اقام به ، قال الزمخشري ـ والامس مثل في الوقت كانه قيل كأن لم تغن آنفا اهـ وليس الامس عبارة عن مطلق الوقت ولا هو مرادف لقوله آنفا لان آنفا معناه الساعة والمعنى كأن لم يكن لها وجود فيما مضى من الزمان ، انتهى كلام ابي حيان وهو واضح في أن الامس تدل على الزمان الماضي قبل النطق بها من غير تعيين ليوم بعينه وقد خطأ ابو حيان الزمخشري في التعبير عن ذلك الوقت الماضي بقوله آنفا لان معنى آنفا وقت قريب جدا من وقت النطق فلذلك عبروا عنه بالساعة أي في هذه الساعة وهذا اللفظ بمعناه الذي اشار اليه ابو حيان موجود في سورة القتال رقم 16 قال تعالى « ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفا »

معناه ومن المنافقين من يستمع اليك يا محمد وانت تحدث الناس حتى اذا خرجوا من عندك قال المنافقون للمؤمنين الذين اتاهم الله العلم بكتابه وسنة رسوله ماذا قال محمد آنفا اي في هذه الساعة

حين كنا عنده . ولقد صدق ابو حيان في تخطئة الزمخشري فان الامس تدل على وقت من الزمان الماضي غير معين ، وقال الامام بن جرير الطبري في تفسير الجزء الحادي عشر الصفحة 72 ما نصه قوله: «اتاها امرنا ليلا او نهارا» يقول جاء الارض امرنا يعني قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات اما ليلا واما نهارا فجعلناها يقول فجعلنا ما عليها حصيدا يعني مقطوعا مقلوعا من اصوله وانما هي محصودة صرفت الى حصيد كان لم تغن بالامس يقول كان لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الارض نابتة قائمة على الارض قبل ذلك بالامس واصله من غنى (بكسر النون) فلان بمكان كذا يغنى (بفتح النون) به اذا اقام به كما قال النابغة الذبياني :

غنيت بذلك اذ هم لي جيرة
منها بعطف رسالة وتودد

يقول فكذلك ياتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها فيفنيها ويهلكها كم اهلك امرنا وقضاؤنا نبات هذه الارض بعد حسنها وبهجتها حتى صارت كان لم تغن بالامس كان لم يكن قبل ذلك نبات على ظهرها ، انتهى كلام ابن جرير ، وعبارة البغوى والخازن موافقة لما نقلنا عن الامام بن جرير ثم تاملت كلام النسفي في تفسيره فوجدته قد اقتدى بالزمخشري فاخذ كلامه بلفظه وقد رايت ما رد به ابو حيان عليه وقال صاحب المصباح في (امس) اسم علم على اليوم الذى قبل يومك ويستعمل فيما قبله مجازا وهو مبني على الكسر وبنو تميم تعربه اعراب ما لا ينصرف فتقول ذهب امس بما فيه بالرفع . قال الشاعر :

لقد رايت عجبا مذ امسا
عجائزا مثل السعالي خمسا

انتهى كلام المصباح

وقال ابن هشام في القطر ص (20) واما امس اذا اردت به اليوم الذى قبل يومك فاهل الحجاز يبنونه على الكسر فيقولون مضى امس واعتكفت امس ورايته مذ امس بالكسر في الاحوال الثلاثة :

قال الشاعر :

منع البقاء تقلب الشمس
وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها حمراء صافية
وغروبها صفراء كالورس

اليوم اعلم ما يجيء به
ومضى بفصل قضائه امس

انتهى كلام ابن هشام

ثم ذكر بعد ما نقلت عنه ما تقدم في كلام المصباح ان بني تميم يعربونها اعراب ما لا ينصرف الا انه ذكر تفصيلا في ذلك لم ار نقله فراجعه ان شئت ، وقد يدخل الالف واللام على امس الذي يراد به نهار اليوم الذى قبل يومك الذى انت فيه لضرورة الشعر ..

قال زهير بن ابي سلمى في معلقته :

واعلم ما في اليوم والامس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم

ومن استعمال الامس بمعنى الزمان الماضي قول بعض المحدثين

ان الوجوه التي قد كنت تعرفها
بالامس كانوا هنا واليوم قد رحلوا

يعني ان الاحبة كانوا هنا فيما مضى من الزمان واليوم لا يجدون . وخير ما يحتج به في هذا المقام قول الله تعالى المتقدم ذكره في سورة يونس « فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس » ولا يصح بوجه ان يراد به كان لم تكن قبل يوم واحد كما رايت نصوص الائمة في ذلك اذا تقرر هذا فاعلم ان صاحب لسان العرب وصاحب القاموس ذكرا كلاما مفصلا في احكام (امس) اللفظية ولم يحققا معناه اذا كان بالالف واللام واذا كان بدونها. واذا اريد بامس يوم من الايام الماضية فانه يعرب وينون تقول لم يقع ذلك في اي امس من الاموس اي لم يقع هذا الامر في اي يوم من الايام الماضية .

ومن ذلك تعلم ان امس اذا كان نكرة يجمع على اموس في جمع الكثرة وامس بضم الميم كفلس وافلس في جمع القلة ويظهر لي ان اداة التعريف تدخل على امس النكرة ولا تدخل على امس اذا كان معرفة الا لضرورة الشعر كما تقدم مثاله .

رقم 58 – ومن ذلك قولهم في الشيء الذى هو في غاية الكمال او الجمال **(هتاز)** وهو ماخوذ

من اللغة الاجنبية لان العرب لا تقول في الاستحسان والتفوق (ممتاز) بل تقول حسن ، جميل جدا . فائق . بلغ الغاية في الكمال ، ونحو ذلك . اما الممتاز فهو الذي يتميز عن غيره قال تعالى في سورة يس رقم 59 (وامتازوا اليوم ايها المجرمون) جاء في تفسير الجلالين في هذه الآية ما نصه (سلام قولا من رب رحيم) سلام مبتدا قولا اي بالقول خبره من رب رحيم بهم اي يقول لهم سلام عليكم (و) يقول (امتازوا اليوم ايها المجرمون) اي انفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم ا هـ. قال محمد تقي الدين : في اعراب قوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) وجوه :

احدها ما ذكره واحسن منه ان يقال سلام مبتدا وسوغ الابتداء بالنكرة امور منها العموم وقولا مفعول مطلق لفعل مقدر تقديره سلام يقال لهم قولا والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدا اما المعنى فهو ان الله سبحانه وتعالى يقول للمؤمنين السعداء سلام عليكم تكريما لهم وهم في دار كرامته ويقال للمجرمين الكافرين والمنافقين امتازوا اليوم ايها المجرمون انفردوا وتميزوا عن المؤمنين لتنالوا العذاب المهين. فالمجرمون ممتازون عن المؤمنين وليس ذلك من المدح في شيء فقد يتميز الانسان او الشيء عن غيره بالحسن او القبح او السعادة او الشقاء فاطلاق ممتاز للاستحسان من غزو اللغات الاوربية للغة القرآن نسال الله ان ياخذ بيدها ويرد لها شبابها وجمالها وقال صاحب القاموس وتميز القوم وامتازوا صاروا في ناحية. وفي التنزيل العزيز : (وامتازوا اليوم ايها المجرمون) اي تميزوا وقيل انفردوا عن المؤمنين .

رقم 59 ــ ومن الاخطاء الشائعة عند المذيعين والمعلمين الا قليلا منهم كسر الجيم من **جده** وهي بضم الجيم مدينة معروفة على ساحل البحر الاحمر وهي فرضة مكة شرفها الله قال صاحب القاموس والجد بالضم ساحل البحر بمكة كالجدة وجدة موضع بعينه عنه اهـ. نفهم منه ان الجد بضم الجيم والجدة بالضم ايضا اسم لساحل البحر يقرب مكة وجدة موضع بعينه من ذلك الساحل . وهذه قال محمد تقي الدين وهذه الكلمة من مثلثات اللغة العربية التي هي بحر زاخر بالالفاظ والمعاني والمراد بالكلمة المثلثة هي التي يتغير معناها بتغير حركة الحرف الاول منها فيكون لها اذا فتح الحرف الاول فيها معنى واذا ضم يكون لها معنى ثان واذا كسر يكون لها معنى ثالث فالجدة بفتح الجيم ام الاب وام الام والجدة بضم الجيم ساحل البحر بقرب مكة والجدة بكسر الجيم ضد البلى والقدم وفي لغة القرآن من هذه المثلثات شيء كثير خصه بالتاليف امام النحو قطرب فنظم قصيدة ضمنها كثيرا من المثلثات منها قوله :

الغمر ماء غزرا
والغمر حقد ستـرا

والغمر ذو جهل سرى
من عجم او عرب

افاد بذلك ان الغمر بفتح الغين هو الماء الكثير والغمر بكسرها هو الحقد الكامن في الصدر والغمر بضم لغين هو الجاهل الذي لا يميز بين الحق والباطل والحالي والعاطل ، وهكذا كل ابيات هذه القصيدة ويوجد كتاب اوسع من ذلك واشمل للمثلثات وهو مثلثات العرب لبعض المتاخرين واسمه حسن قويدر .

والى الجزء التالي بحول الله وقوته .

المدينة النبوية ــ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانيين

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

(12)

60 ـ ومن الاخطاء الشائعة فى هذا الزمن فى الاذاعة وعلى السنة الناس استعمال **التصليح** فى معنى الاصلاح ، ولم نجد ذلك فى كتب اللغة ولا فى القرآن الكريم الذى هو اساس اللغة العربية . اما القرآن فقد قال تعالى فى سورة النساء رقم 114 « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس » وقال تعالى فى سورة الحجرات رقم 10 « انما المومنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم » وهو كثير فى القرآن ، وكله من اصلح ، واما كتب اللغة فقد قال صاحب القاموس (الصلاح) ضد الفساد كالصلوح صلح كمنع وكرم وهو صلح بالكسر وصالح وصلح واصلحه ضد افسده . اهـ

61 ـ ومن العبارات المأخوذة من اللغات الاجنبية (الاوروبية) التعبير عن علماء الدين **برجال الدين** وهو تعبير ظاهر الفساد لان كل من كان له دين يدين به سواء أكان من العلماء بالدين ام لم يكن منهم فهو من رجال الدين ، ورجال الدين عند النصارى هم اصحاب الرتب الدينية وهي متفاوتة عندهم كتفاوت رتب قواد الجيش ، فكما ان رتب قادة الجيش تبتديء من ملازم وتنتهي فى رتبة مشير فكذلك رتب رجال الدين عند طوائف النصارى ، فعند الكاثوليكيين تبتديء من ادنى قسيس يجوز له ان يؤم الناس فى كنيسة وتنتهي فى رتبة البابا . وعند البروتستانتيين الذين لا يؤمنون بالبابا لهم رتب معلومة عندهم ، اما الاسلام فليس فيه رهبانية ولا رتب دينية ، ولكن ينقسم المسلمون الى علماء بالكتاب والسنة وعلومهما ترجع اليهم العامة فى الاستفتاء والقضاء وامامة الصلاة .

وليس فى الاسلام رتب دينية ولا بابوية ولا رهبانية ، ولا مجمع يمنح الرتب الدينية ويسلبها فالصواب اذن التعبير بعلماء الدين قال تعالى فى سورة المجادلة (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) اهـ

62 ـ ومن الاخطاء الشائعة التى يؤسف لها من كان عنده ادنى شيء من محبة اللغة العربية والغيرة عليها جمعهم **المدير** وهو الذي يدير شؤون مصلحة من مصالح الدولة على مدراء توهما منهم انه من باب فعيل بفتح الفاء وكسر العين الذى يجمع على فعلاء بضم الفاء وفتح العين كحكيم وحكماء ، وكريم وكرماء وبخيل وبخلاء ، وبينهما بون شاسع ، لا يلتبس احدهما بالآخر الا على من ليس له من علم اللغة العربية ادنى نصيب ، فان المدير وزنه مفعل من ادار يدير الرباعي فالصواب جمعه جمع مذكر سالم على مديرين ، كمقيم من اقام يجمع على مقيمين قال الله تعالى فى سورة الحج رقم 35 بعد قوله تعالى « وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

قال ابن مالك في الالفية :

ولكريم وبخيل فعلا
كذا لما ضاهاهما قد جعلا

وناب عنه افعلاء في المعل
لاما ومضعف وغير ذاك قل

قال ابن عقيل في شرح هذين البيتين ، من امثلة جمع الكثرة فعلاء هو مقيس في فعيل بمعنى فاعل صفة لمذكر عاقل غير مضاعف ولا معتل نحو ظريف وظرفاء وكريم وكرماء وبخيل وبخلاء واشار بقوله كذا لما ضاهاهما الى ما شابه فعيلا في كونه دالا على معنى وهو كالغريزة يجمع على فعلاء نحو عاقل وعقلاء وصالح وصلحاء وشاعر وشعراء وينوب عن فعلاء في المضاعف والمعتل افعلاء نحو شديد واشداء وولي واولياء وقل مجيء افعلاء مجيء جمعا لغير ما ذكر نحو نصيب وانصباء وهين واهوناء والقياس نصباء وهوناء .

توضيح لكلام ابن عقيل :

رب قائل يقول ان كلام ابن عقيل واضح لا يحتاج الى توضيح وتوضيح الواضحات من الفاضحات، فاقول على رسلك اني احب ان يستفيد من هذه المقالات القراء كلهم او اكثرهم وانا اعلم ان فيهم ضعفاء يصعب عليهم ان يفهموا كلام ابن عقيل فهما تاما ولذلك يدرس في الجامعات والمعاهد ولو كانت قراءته تكفي ما احتاج الطلبة الى مدرس يوضحه لهم فاقول في توضيحه فيه مسائل :

الاولى : ان هذا الجمع وهو فعلاء واخوه افعلاء من جموع الكثرة وقد تقدم ذكر جموع القلة في هذا الباب من كلام ابن مالك وشرحه لابن عقيل وهي اربعة .

الثانية : ان كل فعيل بمعنى فاعل احترز به من فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول وجريح بمعنى مجروح وكحيل بمعنى مكحول وكسير بمعنى مكسور فقد تقدم ذكر جمعها فبخيل اذا وصف به شخص فهو فاعل البخل وهو المتصف به وكريم وهو فاعل الكرم المتصف به وهكذا يقال في ظريف وشريف وعظيم وما اشبه ذلك .

الثالثة : احترز بقوله صفة من فعيل اسما كقضيب فلا يجمع على فعلاء واحترز بقوله مؤنث كشريفة المؤنث فانه يجمع على شرائف وشريفات واحترز بقوله ، عاقل من فعيل صفة لغير العاقل كمكان فسيح اي متسع فلا يجمع على فعلاء بل يجمع على فسح بضمتين واحترز بقوله بمعنى فاعل من فعيل بمعنى مفعول كقتيل وقد تقدمت الاشارة اليه واحترز بقوله غير مضاعف من المضاعف كشديد وخليل فانهما يجمعان على افعلاء كما سياتي قريبا ، واحترز بقوله غير معتل اللام من معتل الآخر كولي وغني فانهما يجمعان على افعلاء .

الرابعة : ان ما شابه فعيلا المذكور في معناه وان خالفه في لفظه يجمع كذلك على فعلاء اذا كان دالا على معنى هو كالغريزة اي لازم لمن اتصف به لا ينفك عنه كعاقل وعقلاء وصالح وصلحاء وما اشبه ذلك فعاقل وصالح يشبهان بخيلا وكريما في المعنى لانهما يدلان على صفة لازمة للموصوف بخلاف آكل وضارب فانهما صفتان لا تلازمان الموصوف وانما يتصف بهما في بعض الاحيان .

الخامسة : اذا كان فعيل مضاعفا ، اعني ان عينه ولامه حرف واحد متكرر كشديد وخليل وجليل فانه ينوب عن فعلاء اخوه افعلاء فتقول اخلاء واشداء واجلاء ، وكذلك اذا كان معتل اللام كولي وغني وسخي فانه يجمع على افعلاء كاولياء واغنياء واسخياء.

السادسة : جاء جمع فعيل على افعلاء لغير ما ذكر بقلة فيما لم توجد فيه الشروط المتقدمة كنصيب وانصبة فان نصيبا اسم وليس بصفة . وهين واهونة فانه ليس فعيلا وهو صفة ليست خاصة بالعقلاء .

63 – ومن المصائب التي جاء بها الاستعمار الاجنبية لفظ **(العملية)** استعملوها اولا في الجراحات الطبية فاخذوا يقولون فلان ادخل المستشفى فأجريت له عملية جراحية ثم توسعوا فيها فصاروا يعبرون بها عن كثير من الاعمال فيقولون عملية التفتيش وعملية انزال البضائع من الباخرة فيقحمونها قبل مصدر يدل على المعنى المطلوب فتكون عبثا وتكثيرا للكلام بلا فائدة وهذا الاستعمال ماخوذ من اللغات الاجنبية ترجم بها جهال المترجمين كلمة بالفرنسية Opération وبالانكليزية ، «بيشن» ولم تستعملها العرب ولا من جاء بعدهم من الكتاب والشعراء والمؤلفين . فاستعمالها يخدش وجه اللغة العربية

ويشينها فينبغي للاديب الذى يحافظ على جمال لغة القرآن وفصاحتها الا يستعملها فى انشائه فان كان ولابد فنيقل علاج جراحي او عمل جراحي ، اما عملية التفتيش او عملية انزال البضائع من الباخرة ففي مثل ذلك يحذفها ويعبر بالتفتيش او انزال البضائع بدون ذكر العملية وبالله التوفيق .

64 – ومن الكلمات الدخيلة التى جاء بها هذا العصر **التبسيط** يقال شرح الكتاب شرحا مبسطا ويقال يجب تبسيط كتب النحو يريدون بذلك التسهيل اخذ ذلك من لفظ بسيط وقد تقدم انتقاد استعماله فى نقد استعمال البساطة للتعبير عن السهولة فى النقد الثاني عشر (12) من تقويم اللسانين وهذا ايضا مما اخذ من اللغات الاجنبية بلا علم ولا هدى، قال صاحب القاموس المحيط = بسطه، نشره كبسطه بالتشديد اهـ . فالبسط والتبسيط معناهما التوسيع والنشر قال الله تعالى فى سورة الشورى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير) .

وقال تعالى فى سورة القصص رقم 83 فى قصة قارون لما رآه الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها حين خرج عليهم بزينته وامواله (يا ليت لنا مثل ما اوتي قارون انه لذو حظ عظيم) فرد عليهم الذين اوتوا العلم والايمان بقولهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) مما اوتي قارون من بهجة الحياة الدنيا وزينتها فلما رأوا ما حل به من الهلاك حين خسف الله به وبداره الارض ندموا على ما فرط منهم كما حكي الله عنهم بقوله (واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا ان من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون) فقوله سبحانه يبسط الرزق لمن اي يوسعه لمن يشاء من عباده ، ويقدر اي يضيقه على من يشاء من عباده ، وقولهم شيء بسيط هو ترجمة للكلمة الاجنبية Simple يراد به شيء سهل غير مركب غير معقد واخذوا منهم بجهلهم بسط بتشديد السين الشيء جعله بسيطا اي سهلا غير معقد قليلا او حقيرا ، وكل ذلك ضلال مبين .

65 – ومن الامثال العربية قولهم ليس الخبر كالعيان بكسر العين ومعناه لا يستوي ما سمعته واخبرت به وما رايته بعينك وقد نظم هذا المعنى شاعر فقال :

يا ابن الكرام الا تدنو فتبصر ما
قد حدثوك فما راء كمن سمعا

فالعيان بكسر العين هو المعاينة والمشاهدة اي الرؤية بالعين وكثير من المتكلمين بالعربية بفتح العين فى العيان فتعمى الكلمة اي تفسد فابصارها فى كسرها وعماها فى فتحها ، ومن كان عنده علم بقواعد العربية يدرك ذلك لان العيان بكسر العين مصدر عاين ومثله المعاينة كقاتل قتالا ومقاتلة وجادل جدالا ومجادلة وحاسبه حسابا ومحاسبة ، قال ابن مالك فى الالفية :

لفاعل الفعال والمفاعلة
وغير ما مر السماع عادله

66 – ومن الاخطاء الشائعة بين المذيعين والقراء قولهم **كسب** فلان المعركة او السباق بكسر سين كسب والصواب فتحها فى الماضي وكسرها فى المضارع قال تعالى فى سورة البقرة (لها ما كسبت) بفتح السين وقال تعالى فى سورة النساء رقم 111 (ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه) فقوله سبحانه وتعالى لها ما كسبت اي لكل نفس جزاء ما عملت من خير وعليها عقاب ما اكتسبت من شر ، وقال صاحب القاموس كسبه بفتح السين يكسبه بكسرها كسبا وتكسب واكتسب طلب الرزق او كسب اصاب واكتسب تصرف اهـ . وبانعام النظر فى ما نقلته هنا يظهر لك خطأ آخر وهو استعمالهم كسب بمعنى ربح كانه يقابل خسر فيقولون ليس فى هذه الصفقة كسب بل فيها خسارة وقد عرفت فساد ذلك .

67 – ومن الاخطاء التى يقع فيها كثير من المذيعين والقراء كسر الذال من كذب وهذا الفعل لفظه مشهور جدا ، مذكور فى القرآن وهو بفتح الذال من الباب الثاني من الفعل الثلاثي كضرب يضرب بفتح العين فى الماضي وكسرها فى المضارع ومن ضعف اللغة العربية فى هذا الزمن ان اكثر المدرسين والطلبة المتخرجين فى الجامعات لا يعرفون الابواب الستة التي اولها فعل يفعل بفتح العين فى الماضي وضمها فى المضارع وثانيها فعل يفعل بفتح العين فى الماضي وكسرها فى المضارع كضرب يضرب وكسب يكسب ، وثالثها فعل يفعل بفتح العين فى الماضي والمضارع كنصح ينصح وقطع يقطع وهذا الباب

لابد ان يكون عينه اي الحرف الثاني منه او لامه الحرف الثالث منه حرف حلق ، ولم يشذ عن هذه القاعدة الا فعل واحد وهو ابى يأبى فان عينه وهي الباء مفتوحة في الماضي والمضارع مع ان عينه ولامه ليستا من حروف الحلق ، فهذا الباب محصور في كون عينه او لامه حرف حلق الا ما استثنى غير ان الافعال التي عينها او لامها من احرف الحلق لا تنحصر في هذا الباب بل تكون فيه وفي غيره كدخل يدخل فانه من باب نصر وصحب يصحب فانه من الباب الرابع الذي سنذكره بعد وكنت اشبه ذلك في زمن الاستعمار حين اقرر هذه القاعدة لطلبة بالدولة المستعمرة بكسر الميم والشعب المستعمر بفتحها ففعل يفعل بفتح العين في الماضي والمضارع شبيه بالشعب المستعمر لا يجوز له ان يخرج عن الحلقي فان الشعب الذي تستعمره فرنسا مثلا لا يجوز لاحد من اهله وان كان ملكا ان يتصل بدولة غير فرنسا والشعب الذي تستعمره بريطانيا لا يجوز لاحد من اهله وان كان ملكا ان يتصل بدولة اخرى كفرنسا مثلا وقد وقع لي مثل ذلك حين كنت ضيفا على ملكة (بهوبال) في زمن الاستعمار الانكليزي في الهند فقد جاءها بعض المتعصبين المبغضين لاهل الحديث نضر الله وجوههم في الدنيا والآخرة وبالخصوص استاذي العالم المحدث الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الانصاري اليمني الى الملكة وقال لها ان هذا الشخص الذي في ضيافتك وهو محمد تقي الدين الهلالي ليس عربيا من جزيرة العرب كما اخبرك به شيخه ولكنه من عرب المغرب ، ومن شروط الحماية البريطانية التي يجب عليك التزامها ان لا تتصلي بدولة اجنبية ولا برعاياها فراجت هذه المكيدة على الملكة وارسلت الي تعتذر وامرت رئيس الضيافة الكولونيل عبد القيوم خان ، ان ينقلني من دار الضيافة الملكية الى بيته ويكرمني فلم يأذن له في ذلك شيخنا المذكور رحمه الله ونقلني الى ضيافته تغمده الله برحمته .

اما الافعال التي يوجد فيها حرف الحلق عينا او لاما فهي كالدولة المستعمرة حرة تخالط اهل مستعمراتها وتخالط من تشاء من الدول .

الرابع ، فعل يفعل بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع وهذا قياس مضطرد سواء اكان الفعل متعديا كعلم يعلم او لازما كفرح يفرح .

الخامس ، فعل يفعل بضم العين في الماضي والمضارع معا كحسن يحسن وعظم يعظم وكرم يكرم .

السادس ، فعل يفعل بكسر العين في الماضي والمضارع معا كورث يرث وولي يلي وعدد هذا القسم لا يزيد على ستة افعال وهي على هذا الترتيب في الكثرة والقلة في كلام العرب ، والباب الاول والثاني سماعيان لا ينضبطان الا بالحفظ ، والثالث كثير في كلام العرب يقرب ان يكون قياسيا ، اما الرابع والخامس فهما قياسيان ، والسادس ، قليل عدده ، سهل حفظه ، فان قيل هذه الافعال غير القياسية التي تحتاج الى الحفظ هي مما جعل اللغة العربية صعبة التعليم وجعل الشباب يعرض عنها ويقبل على اللغة الاوروبية ، اقول في جوابه من جهل شيئا عاداه ، ان اللغة العربية اسهل من اللغات الاوروبية الشائعة ، فالفرنسية فيها افعال وتصاريف خارجة عن القياس تزيد على الالف وفيها صعوبات اخرى ليس هذا مقام بسطها واللغة الاسبانية مثلها في صعوبة معرفة الافعال ، واللغة الالمانية فيها صعوبات كثيرة جدا في افعالها واسمائها ومعرفة المبني والمعرب ، من الاسماء واعرابها اصعب ، من اعراب اللغة العربية لان المعربات في اللغة العربية اذا وقفت على احدها تسكنه فتستريح ..اما المعربات في اللغة الالمانية فلا يتغير اعرابها لا في الوقف ولا في الوصل وفيها صعوبات اخرى ليس هذا محل بسطها ، واما الانكليزية فان اكثر كلماتها تكتب بخلاف ما تقرأ وقد عكف احد كبار العلماء البريطانيين على دراسة هذه المسألة فخرج بنتيجة وهي ان التلميذ الانكليزي لو كتب اللغة الانجليزية كما ينطق بها لوفر ذلك عليه سنتين كاملتين يتفرغ فيهما لدراسة علوم اخرى وطرح بحثه امام مجلس العموم الانجليزي فاختلف النواب فاخذت الآراء وذلك ما يسمى بالاقتراع او اخذ الاصوات فكان اكثر الآراء مع المانعين لتغيير كتابة اللغة الانجليزية القائلين نكتبها كما كتبها اسلافنا وان كانت معرفة الكلمات على ما هي عليه يكلف ابناءنا دراسة سنتين كاملتين ، والحق ان السبب الذي يفض الناس في اللغة العربية ليس اعرابها ولا صعوبة قواعدها ولكن خذلان اهلها لها وعدم شعورهم بواجب خدمتها فضيعوها كما ضيعوا غيرها من الواجبات .

والى اللقاء في المقال التالي بعون الله .

المدينة المنورة ـ د. محمد تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين مستقيم
وقد عدلت في تعديلك عن العدالة

للدكتور تقي الدين الهلالي

من ادعية النبي (ص) هذا الدعاء (آمنت بالله ، واعتصمت بحول الله ، وتوكلت على الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله .) اللهم اني اعوذ بك من ان اضل او اضل ، او ازل او ازل ، او اظلم او اظلم ، او اجهل او يجهل علي.

وبهذا الدعاء افتتح الرد على هذا المنتقد الذي حاد عن منهج النقد المستقيم ، وتنكر ، وتنقب ، كأنه يعلم انه مليم . وقبل ذلك اشكر الاستاذ الاديب رئيس تحرير (دعوة الحق) على الكلمات التي اثنى بها على مقالات تقويم اللسانيين .

ثم اعيد ذكر ما قدمته في فاتحة هذه المقالات ونصه : وقد بدا لي ان اكتب مقالات في هذا الموضوع ، اداء لواجب لغة الضاد ، وصونا لجمالها من الفساد ، راجيا ان ينفع الله بما اكتبه تلاميذتي في الشرق والمغرب وفي اوربا ، وانا على يقين انهم يتلقون ما اكتبه بشوق وارتياح ، وكذلك رفقائي الكتاب المحافظون سيستحسنون ذلك .

اما الكتاب الذين يكرهون التحقيق ، ويرخون العنان لاقلامهم بدون تبصر ولا تمييز، بين غث وسمين، وكدر ومعين ، فانهم سيستثقلون هذا الانتقاد ، وقد يعدونه تكلفا وتنطعا ، وتقييدا للحرية – بزعمهم – فلهؤلاء اقول : اني لم اكتب لكم ، فما عليكم الا ان تمروا على ما اكتب مرور الكرام ، وتدعوه لغيركم الذين يقدرونه حق قدره . اهـ

فكان هذا الرجل راى نفسه من الكتاب الذين يرخون العنان لاقلامهم ، ويكرهون التحقيق ، فاخذه المقيم المقعد ، وفقد رشده ، فاخذ يلتمس العيوب للبرآء

فان يخلق لي الاعداء عيبا
فقول العائبين هو المعيب

وما ابرىء نفسي من الخطأ ، فالكمال لله ،والعصمة للانبياء ، . ولا اكره الانتقاد المستقيم الذي يريد به صاحبه الاصلاح والبناء ، ويشهد الله اني ما تصديت لكتابه هذه المقالات الا اداء للواجب ، ونصحا للامة ، وغيرة على لغة القرآن التي هجمت عليها لغات المستعمرين في عقر دارها ، فاتت بنيانها من القواعد ، وهدمت اركانها ، وذهبت ببهائها وجمالها ، ولم اشك ان دعاة الاصلاح يرحبون بهذا المجهود ويؤازرونه ، كما انني اعلم ان دعاة الهدم والفوضى – اكررها مرة اخرى، على رغم انف المتنطع – سيشرقون بهذا الاصلاح ويغصون به ولكن :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي
فلا زال غضبانا على لئامها

ودونكم ايها القراء الاعزاء ما كتب به الي الاستاذ المؤلف الذائع الصيت ابو الحسن علي الحسني الندوي من لكناو في الهند في الترحيب بهذه المقالات .

قال حفظه الله : « استفدنا كثيرا من مقالكم القيم في العدد الاخير من مجلة (دعوة الحق) في موضوع (عثرات الاقلام ، وغلطات اللسان ، في كتابات المعاصرين) وارجو ان تتفسحوا في هذا الموضوع ، فكلنا في حاجة مثل هذه التوجيهات التي تصدر من ضليع محقق مثلكم . ابقاكم الله طويلا لتلاميذكم الكثيرين في الشرق والغرب .

تلميذكم الصغير ابو الحسن علي بن العلامة السيد عبد الحي الحسني ر ح 2– 2 – 1387 هـ .

اما هنا في المغرب فقد رحب بها غير واحد من القراء مكاتبة ومشافهة ، ولا يظنن هذا المنتقد ان الجو خلا له ، حتى يبيض ويصفر ، وينقر ما شاء ان ينقر ، فان بين قراء هذه المجلة العالمية فحولا لا يقعقع لهم بالشنان ، ولا يخدعون بالمغالطات والروغان ، يزنون الاقوال بالقسطاس المستقيم ، ويميزون بين الصحيح والسقيم ، وسيحكمون بيني وبين هذا المعترض الذي نصب نفسه حكما ، وتوهم ان حكمه لا ينتقض .

وقبل ان اخوض معه غمار المعركة مستعينا عليه بالله الذي يحق الحق ويبطل الباطل اذكر للقراء الاعزاء بعض ما اعرفه من اخباره ، واترك سائرها الى ان يحين اوانه .

كان هذا الرجل يدرس في فرنسا ، وكان مبتلى بهذا التنطع من اول امره ، فوجه انتقادا الى امير البيان الزعيم العربي الاوحد الذي .

حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يا زمان فكفر

الا وهو الامير شكيب ارسلان رحمه الله ، وكنت انا اذ ذاك ادرس في جرمانية ، واحاضر في اللغة العربية بجامعة (بن) فكتب الي الامير شكيب المسائل التي انتقدها عليه المعترض والتمس مني الحكم ، فنظرت فيها ، فوجدت الحق في اكثرها مع الامير شكيب ، ووجدت اعتراض المعترض ساقطا الا في النادر .

وابن اللبون اذا ما لز في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

ولكن الامير شكيب رحمه الله ، كان عنده من الانصاف والتواضع ، ومكارم الاخلاق ، ما يندر وجوده في هذا الزمان ، فلذلك لم يرد ان يجيبه حتى يعلم رايي فيما انتقده عليه ، ثم عرفت المعترض بعد ذلك معرفة تامة ، وكان يجمعنا بيت واحد ، نشتغل فيه جميعا ، وهو من الكتاب المشهورين في النثر ، وله نظم لايبلغ حد الجودة ، ولكن لا بأس به .

وقد طرق هذا الباب الذي طرقته انا اليوم من قبل في الصحف العراقية وفي الاذاعة ، ولم ينجح فيه بل كان عامة القراء يستهزئون به ، ولم اتعرض قط الى نقده ، مع اني وجدت في ما كتبه ثغرات واخطاء ، لاني اعلم انه من الاساتذة القليلين الذين يكتبون انشاء حسنا ويتكلمون كلاما قليل الخطأ ، فغض الطرف عن هفوات هؤلاء عندي هو الصواب ، والسعي في هدم ما بنوه من الفساد .

وانا لا اطمع ان يكون له من اصالة الراي وسداده ما يحمله على ان يعاملني بمثل ما عاملته به ، لان طبعه لا يسمح له بذلك ، وحسبي ان يكون انتقاده معتدلا خاليا من الجور وامارات سوء القصد ، ولكن الامر كما قيل :

(وكل اناء بالذي فيه يرشح) .

1 – (بدون) فالمعترض قال في مقالته : (ويرخون العنان لاقلامهم بدون تبصر ولا تمييز) ، ثم قال : (وانما سميت زائدة ، لان الكلام يتم بدونها) ، فانا اقول له : من استعمل كلمة (دون) من فصحاء الامة العربية هذا الاستعمال ؟ ولهذا المعنى ؟ ان معنى بدونها هو بأقل منها .

المجيب : يا لله للعجب ، من جهل هذا المعترض بقواعد النقد ، كيف يحتج بكلام المؤلفين من الفقهاء ، كان كلامهم قرآن ، او حديث نبوي ، او شعر امريء القيس او النابغة الذبياني ، ومن قال لك : ان كلام الفقهاء حجة في اللغة العربية ؟ يرجع اليه ويعتمد في الحكم عليه ؟ كان يجب عليك قبل ان تتصدى للاعتراض ان تعلم ان الحجة انما هي في ما صح عن العرب في جاهليتهم ، وفي دولة النبي (ص) والخلفاء ، ودولة بني امية ، قبل ان يختلط العرب بالأعاجم ، وتفسد السنتهم . اما كلام المولدين ، ولو كانوا من فحول الادباء والشعراء، كابن الرومي والبحتري والمتنبي ، بل بشار بن برد ايضا لا يحتج بشعره ، مع قربه من العصر الاموي ، فهذه حجتك التي جئت تصول بها ؟

معنى (دون)

قال الراغب في غريب القرآن : يقال للقاصر عن الشيء (دون) قال بعضهم : هو مقلوب من الدنو ، والا دون الدنيء . وقوله تعالى : (لا تتخذوا بطانة من دونكم) اي ممن لم يبلغ منزلته منزلتكم في الديانة ، وقيل : في القرابة . وقوله : (ويغفر من دون ذلك) اي ما كان اقل من ذلك ، وقيل : ما سوى ذلك، والمعنيان يتلازمان، وقوله تعالى : (أانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله) ، اي غير الله ، وقيل معناه : الهين متوصلا بهما الى الله ، انتهى .

فانظر الى قول الراغب (وقيل ما سوى ذلك) يعني ان بعض اللغويين فسروا (ما دون ذلك) بسوى

ذلك ، ثم قال : والمعنيان متلا زمان ، فبايهما عبرت يفهم المعنى الاخر . ثم انظر الى قوله فيما حكى الله تعالى عن عيسى بن مريم في آخر سورة المائدة : (أانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله) اي غير الله. فقد استعملت هنا (دون) بمعنى (غير) بغير اختلاف، فما هو جواب المعترض ؟ .

وقال صاحب لسان العرب بعد ما ذكر تسعة معان (لدون) وقال : (يعني الفراء) في قوله تعالى : (ويعملون عملا دون ذلك) دون الغوص ، يريد سوى من البناء . اهـ . الانبياء 82 .

فهذا من استعمال (دون) بمعنى سوى ، فماذا يقول المعترض في تفسير الفراء ؟ .

وقال الفيروز ابادي في القاموس : (دون) بالضم نقيض فوق ، ويكون ظرفا ، وبمعنى امام ووراء وفوق ضد ، وبمعنى (غير) قيل : ومنه ليس فيما دون خمس اواق صدقة ، اي في غير خمس اواق . قيل : ومنه الحديث : اجاز الخلع دون عقاص راسها ، اي بما سوى عقاص راسها ، او معناه بكل شيء حتى عقاص راسها . اهـ

اقول : فقد رايت نقل الفيروز ابادي عن ائمة اللغة ان (دون) تستعمل بمعنى (غير) لكن الاحتجاج على ذلك بالحديثين غير صحيح ، اذ يحتمل (دون) ان يكون في كل منهما بمعنى اقل ، ولذلك حكاه بصيغة التمريض . ومعنى الحديث الاول : ان الزكاة لا تجب في اقل من خمس اواق من الفضة ، والاوقية اربعون درهما ، فالمقدار الذي تجب فيه الزكاة من الفضة لا يقل عن مائتي درهم .

ومعنى الحديث الثاني : ان المراة الناشز التي طلبت فراق زوجها كراهية له ، يجوز ان تفتدي نفسها بكل ما تملك ، الاضفائر راسها ، هذا معنى الحديث . وقد اختلف الائمة في هذه المسالة ، وليس هذا محل ذكر الخلاف .

وقال صاحب مجمع بحار الانوار : وفيه (اي في الحديث) الحاكم يحكم بقتل ، على من وجب عليه ،

وقال تعالى في سورة الانعام 14 : (قل اغير الله اتخذ وليا ، فاطر السموات والارض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل اني امرت ان اكون اول من اسلم ، ولا تكونن من المسلمين .)

المعنى ، قل يا محمد ، اغير الله اتخذ وليا ، اتوجه اليه في جلب الخير ودفع الضر ، والله خالق السموات والارض ، وغيره لا يخلق شيئا ، بل هو نفسه مخلوق ، والمخلوق لا يستحق ان يتخذ وليا ، اي الها ، والله يطعم كل طاعم ، ولا يحتاج الى من يطعمه ، وكل طاعم ، اي آكل محتاج الى الله ، والمحتاج لا يكون الها .

قل يا محمد لجميع الناس : ان الله امرني ان اكون اول من اسلم وجهه اليه ، ووحده في ربوبيته وعبادته ، ثم قال تعالى: (ولا تكونن من المشركين) خطاب للنبي (ص) او لكل من يصلح للخطاب .

وقال تعالى في سورة الشورى 6 : (والذين اتخذوا من **دونه** اولياء الله حفيظ عليهم ، وما انت عليهم بوكيل)

وقال تعالى فيها ايضا 9 (ام اتخذوا من **دونه** اولياء ، فالله هو الولي ، وهو يحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير) وامثال هاتين الايتين كثيرة جدا في القرآن .

والمراد بلفظ من (دونه) في آيتي الشورى هو بعينه المراد بغير الله في آية الانعام ، فهذا تفسير القرآن بالقرآن ، فما ذا يقول فيه المعترض ؟

وقال تعالى في سورة النجم 57 ـ 58 : (ازفت الآزفة . ليس لها من **دون** الله كاشفة) الآزفة القيامة .

قال القاسمي في تفسيره : اي ليس لقيامها غير الله مبين لوقته كقوله (لا يجليها لوقتها الا هو) و (كاشفة) صفة محذوف ، اي نفس كاشفة ، او حال كاشفة ، او التاء للمبالغة ، او هو مصدر بني على التانيث . ومن (دون) الله بمعنى غير الله . اهـ

اقول : ينبغي ان امسك عنان القلم بعد ما تبين الحق في هذه المسالة ، ورجع المعترض يجر اذيال الهزيمة ، نادما على قفوه ما ليس له به علم .

قوله : وهو فقيه ، ولعله درس في الفقه (زواج المراة بدون مهرها) اي باقل من مهرها الخ ارجو ان اكون كما قال فقيها عند الله ، وعند عباده المؤمنين ، فقد قال النبي (ص) : « **من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**) ذكره البخاري تعليقا في كتاب العلم من صحيحه. والعبارة التي ذكرها المعترض ، ونسبها الى كتب الفقه فاسدة ، لم ارها في شيء من كتب الفقه التي اطلعت عليها من كتب اهل السنة ، فان كانت موجودة في فقه الشيعة الذين ينسب اليهم المعترض ، فليذكر لنا اين وجدها ، وعلى فرض وجودها ، لا يصح الكلام الا بتاويل، اذ ليس للمراة مهر معين عند اهل الحديث بدليل (التمس ولو خاتما من حديد) وبدليل (املكناكها بما معك من القرآن) رواه البخاري وغيره . وحده بعض

الفقهاء بربع دينار ، ولكن الفقهاء يقولون : « اذا لم يسم لها مهرا ، أي صداقا ، فلها صداق امثالها » ، فان صحت العبارة التي نسب الى الفقه ، كان الكلام على حذف مضاف (أي بدون مهر نظيراتها من النساء) .

وانا لا انكر ان **دون** تستعمل بمعنى اقل ، بل كلامي لا باباه ، لان **دون** الكاف الاستعمارية هو اقل منها ، اي ناقص عنها ، ولكن ضلاله كان في حصره معنى (دون) في اقل وجهله انها تكون بمعنى (غير) . وسائر كلامه ساقط لا يحتاج الى جواب .

2 ــ واعتراضه على قولي (لعدم وجود اركانه) بقوله : (لان الوجود لا يعدم ، وانما الذي يعدم هو (الموجود) تنطع وتفلسف عقيم .

قال في اللسان والقاموس : وجد من العدم فهو موجود . اه

وقال الراغب في غريب القرآن : وقال بعضهم : الموجودات ثلاثة اضرب ، موجود لا مبدا له ولا منتهى ، وليس ذلك الا الباري تعالى ، وموجود له مبدا ومنتهى ، كالناس في النشاة الاخيرة ، انتهى .

وقال الراغب ايضا : الوجود اضرب ، وجود باحدى الحواس الخمس ، نحو : وجدت زيدا ، ووجدت طعمه ، ووجدت صوته ، ووجدت خشونته ، ووجود بقوة الشهوة ، نحو وجدت الشبع ، ووجود بقوة الغضب : كوجود الحزن والسخط ، ووجود بالعقل او بواسطة العقل ، كمعرفة الله تعالى ، انتهى .

ومن ذلك تعلم ان وجود الشيء في نفسه هو ضد عدمه ، ووجود الناس له ، هو غير وجوده في نفسه ، فاذا نفينا وجوده قلنا : لا وجود له ، انتفى باللازم وجود الناس له ، اي ادراكهم اياه .

واركان التشبيه في الكاف الاستعمارية لا وجود لها في نفسها ، ولا يدركها احد ، فوجود الناس لها معدوم ، ولعل المعترض لا يفهم هذا المعنى ، وهو متلهف الى الطعن ، فتوهم انه وجد مطعنا ، فارتد طعنه عليه في هذه كما وقع له في الاولى .

فلا تحفرن بئرا تريد بها اخا
فانك فيها انت من دونه تقع
كذاك الذي يبغي على الناس ظالما
تصبه على الرغم عواقب ما صنع

قوله : (ان الفصحاء لم يستعملوا كلمة (عدم) هذا الاستعمال) الخ ، دعوى بلا دليل ، رغم ومتى نصبك الفصحاء قاضيا ، ووضعوا زمام الفصاحة في يديك ؟ ووكلوا امرها اليك ، تثبتها لمن تشاء وتنفيها عمن تشاء ، الا يحق لي ان اتمثل في حكمك هذا بالشطر الاول من قول الشاعر العربي القح :

ما انت بالحكم الترضى حكومته

واما الشطر الثاني ، فاتركه تكرما .

3 ــ قال المعترض : وقد خالف الفصاحة العربية باستعماله جمع القلة المنكر (انفسا) مع ان مقتضى الحال يوجب استعمال النفوس) اعني جمع الكثرة ، فذوو الظلم كثيرون ، او كثير على الافصح . وانما قلت المنكر) لان المعرف (بال) او الاضافة من هذا الجمع يجوز ان يستعمل للكثرة . الخ

يا ايها الناس : اقرؤوا واسمعوا وتعجبوا من المعترض الذي يصدر الاحكام ، واحدا بعد واحد بدون دليل ولا برهان ، ولا استناد الى قاعدة ، ولا عزو الى امام ، فكانه يظن ان القراء اطفال في المدرسة الابتدائية ، يتقبلون منه كلما حدثهم به . ودونكم ما قاله الائمة في جمع القلة وجمع الكثرة ، ونيابة احدهما عن الاخر وضعا او استعمالا .

قال الازهري في التصريح ج 2 ص 300 ما نصه : وله (أي لجمع التكسير الذي يتغير فيه بناء مفرده لفظا) سبعة وعشرون بناء ، منها اربعة موضوعة للعدد القليل ، وهو من الثلاثة الى العشرة ، يدخول العشرة على القول بدخول الغاية في المغيا ، ولو قال : وهو الثلاثة والعشرة وما بينهما لكان اولى ، وهي افعل ــ بضم العين ــ كاكلب ، جمع كلب ، وافعال ، كاجمال بالجيم جمع جمل ، وافعلة ــ بكسر العين ، كاحمرة ، جمع حمار ، وفعلة بكسر الفاء وسكون العين ، كصبية جمع صبي ، وخصت هذه الاوزان الاربعة بالقلة ، لانها تصغر على لفظها نحو : اكيلب ، واجيمال ، واحيمرة ، وصبية ، بخلاف غيرها من الجموع ، فانها ترد الى واحدها في التصغير ، وتصغير الجمع يدل على التقليل ، واليها اشار الناظم بقوله :

افعلة افعل ثم فعله
ثمت افعال جموع قله

وليس من جموع القلة (فعل) بضم الفاء وفتح العين ، كغرف ، ولا فعل بكسر الفاء وفتح العين ، كنعم ، ولا فعلة ، بكسر الفاء وفتح العين ، كقردة خلافا للفراء .

وثلاثة وعشرون موضوعة للعدد الكثير ، وهو ما تجاوز العشرة . وقد يستغنى ببعض ابنية القلة عن بناء الكثرة وضعا او استعمالا ، اتكالا على القرينة . قاله فى التسهيل .

قال الشاطبي : وحقيقة الوضع ان تكون العرب لم تضع احد البنائين استغناء عنه بالاخر ، والاستعمال ان تكون وضعتهما معا ، ولكنها استغنت فى بعض المواضع عن احدهما بالاخر . انتهى

فالاول ، كارجل ، جمع رجل بسكون الجيم ، واعناق ، جمع عنق ، وافئدة جمع فؤاد ، قال الله تعالى: (5 – 6 وارجلكم الى الكعبين) (8 – 12 فاضربوا فوق الاعناق) (14 – 43 وافئدتهم هواء) فاستغنى فيها ببناء القلة عن بناء الكثرة ، لانها لم يستعمل لها بناء كثرة .

والثاني كاقلام جمع قلم،قال الله تعالى : (31–27 من شجرة اقلام) والمقام المقام مبالغة وتكثير قطعا ، وقد استعمل فيه وزن القلة ، مع انه سمع له وزن كثرة ، وهو قلام ، وقد يعكس ، فيستغنى ببعض ابنية الكثرة عن بناء القلة وضعا او استعمالا اتكالا على القرينة .

فالاول كرجال جمع رجل بضم الجيم ، وقلوب جمع قلب ، وصرد ان بكسر الصاد ، جمع صرد بضمها وفتح الراء ، اسما لطائر ، تقول : خمسة رجال بخمسة قلوب ، معهم خمسة صردان ، فيستغنى بجمع الكثرة عن جمع القلة لعدم وضعه .

وليس منه ، اي من هذا القسم ، وهو ما لم تضع العرب له بناء قلة ، ما مثل به الناظم وابنه من قولهم فى جمع صفاة ، وهي الصخرة الملساء : صفي ، بضم الصاد وكسر الفاء وتشديد الياء ، لقولهم فى جمع قلتها : اصفاء ، حكاه الجوهري وغيره ، بل هو من القسم الثاني ، وهو ما وضعت العرب له بناء قلة ، ولكنها استغنت ببناء الكثرة عنه كقوله تعالى : (2 – 227 يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء) ففسر ثلاثة بجمع الكثرة، مع وجود جمع القلة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : دعى الصلاة ايام اقرائك ، وعلى ذلك يحمل قول الناظم :

وبعض ذي بكثرة وضعا يفي
كارجل والعكس جاء كالصفي

انتهى

وقد طالعت ما عندي من شروح الالفية كالاشموني بحاشية الصبان ، وابن عقيل بحاشية الخضري ، والفية ابن بنا بحاشيته ، فوجدتهم لا يختلفون فيما نقلته عن التصريح . واخترت كلامه ، لانه اوسع واوضح. ومنه تعلم ان ما زعمه المعترض من ان جمع القلة لا يستعمل فى موضع جمع الكثرة الا اذا كان مضافا او معرفا بالالف واللام ، لا وجود له فى كلام اولئك الاعلام، ومحال ان يهملوه لو كان ثابتا فى القواعد الصحيحة المسلمة .

فنحن نطالبه بتصحيح النقل ، ان كان ناقلا ، وان لم يكن ناقلا ، فقد كذب على النحاة ، واخترع قاعدة من عنديا ته ، فان جاء بالنقل عن بعض علماء اللغة قابلنا نقله بتلك النقول ، وهي اكثر ، فيسقط نقله ، او يكون مرجوحا . ولو ثبتت القاعدة التي ادعاها ما اغنته شيئا، لان جمع القلة المنكر قد استعمل فى موضوع جمع الكثرة فى افصح الكلام وابلغه ، وهو كتاب الله . قال تعالى فى سورة لقمان (27 ولو ان ما فى الارض من شجرة **اقلام** ، والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ، ما نفدت كلمات الله) والمقام يقتضي استعمال جمع الكثرة، ومع ذلك ، عدل عنه الى التعبير بجمع القلة ، اكتفاء بالقرينة ، هذا مع ان القلم جمع كثرة على (قلام) .

قال ابن منظور فى لسان العرب : القلم : الذي يكتب به ، والجمع اقلام وقلام . قال ابن بري : وجمع اقلام اقاليم . وانشد ابن الاعربي :

كانني حين آتيها لتخبرني
وما تبين لي شيئا بتكليم
صحيفة كتبت سرا الى رجل
لم يدر ما خط فيها بالاقاليم

وقال ايضا فى مادة ط ل ح : وطلحة الطلحات : طلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعي . ثم نقل عن ابن الاعرابي فى طلحة هذا انه : انما سمي طلحة الطلحات بسبب امه ، وهي صفية بنت الحارث بن طلحة بن ابي طلحة – زاد الازهري – ابن عبد مناف ، قال : واخوها ايضا طلحة بن الحارث ، فقد تكنفه هؤلاء الطلحات كما ترى ، وقبره بسجستان ، وفيه يقول ابن قيس الرقيات :

رحم الله اعظما دفنوها
بسجستان طلحة الطلحات

انتهى

قوله (اعظما) دفنوها ، يريد عظام طلحة الطلحات المذكور ، وهو من استعمال جمع القلة فى موضع جمع الكثرة ، لان عظام الجسم كثيرة ، وجمع القلة يدل على تسعة او عشرة ، فاين ما زعمه المعترض من ان جمع القلة اذا كان نكرة لا يستعمل فى موضع جمع الكثرة .

وقال تعالى في سورة القيامة (3 ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه) فعبر بجمع الكثرة ، لان عظام الانسان كثيرة ، وعبر الشاعر بجمع القلة لوجود القرينة الدالة على انه يريد الكثرة ، فما يقول المعترض في هذه النصوص القاطعة ؟ ، وهذه القواعد المحكمة ؟ .

قوله (وكانني بالدكتور ، وقد قرأ هذا الاعتراض يلجأ الى (ثلاثة قروء) اقول في جوابه : انا لا الجأ الى ثلاثة قروء ، وانما تلجأ اليها النساء المطلقات ، واشباههن من الرجال الذين يقاتلون من وراء جدر ، وقد اقمت الدليل على بطلان ما ادعاه دون ان التجيء الى ما توهمه.

4 ـ قوله : فما معنى القنابل في اللغة العربية ؟ اقول في جوابه :

جاء شقيق عارضا رمحه
ان بني عمك فيهم ومـاح

* * *

ومن قدمته نفسه دون غيره
رأى غيره التأخير ذاك التقدما

اتظن انه لا يعرف معنى القنابل والقنابر في الدنيا احد غيرك ، لقد كذبتك نفسك ، انا ما جاريت جهلة المترجمين ، بل انت جاريتهم ، واجليت بخيلك العجاف، ورجلك الضعاف ، لتصحح اخطاءهم ، وتقف في طريق المصلحين الناصحين لقومهم ، لتكتسب بذلك شهرة ، وما نقلت عن اولئك المؤرخين ، ولم تسم احدا منهم من استعمالهم القنبر والقنابر ـ بالراء ـ لا يساوي عند علماء اللغة جناح بعوضة ، لانهم ليسوا من العرب ، وكلامهم ليس بحجة .

فالعرب لم تعرف هذه الاشياء المتفجرة التي تسمى في هذا الزمان (قنابل) وليس من واجباتها ان تضع لها لفظا ، بل ذلك من واجبتنا نحن ، وانت تعلم انه ليس للمتكلمين بالعربية دائرة معارف ، او موسوعة كما يسمونها ، متفق عليها تجمع شتات ما يحتاجون اليه من الكلمات التي حدثت بعد زمان العرب ، فليس امامنا الا طريقان لا ثالث لهما في ترجمة ما نحتاج اليه: اما ان نستعمل اللفظ الذي اصطلح عليه جماهير الكتاب والقراء ، ليكون كلامنا مفهوما عند قرائنا ، واما ان يخترع كل واحد منا ما يعجبه من الالفاظ ، فلا يفهمه احد سواه ، فكانه يكتب لنفسه، لا لقراء كتابه او مجلته، ولا شك ان الصواب هو اختيار الطريق الاول .

وما المانع لنا من ان نضع لفظ القنبلة ـ بفتح فسكون ففتح ـ الذي عبرت به العرب عن الطائفة من الناس ومن الخيل لما يسمى بالانجليزية (Bomb) وبالفرنسية (Bombe) ولا سيما وقد شاع استعمال هذا اللفظ بين المتكلمين بالعربية من عرب وغيرهم ، فيكون بالنسبة الى اهل زمننا يدل على المعنيين كليهما ؟

وما الذي يجعل لفظ (القنبر) اولى بالتعبير من القنبلة والقنبل ، هل عندك شاهد من القرآن او من كلام العرب الذين يحتج بكلامهم على صحة ما زعمت ؟ اما القنبر في لغة العرب ، فدونكم معناه ايها القراء الاعزاء .

قال ابن منظور في لسان العرب : والقبر ، والقبرة، والقنبر والقنبرة ، والقنبراء : طائر يشبه الحمرة . الجوهري : القبرة واحدة القبر ، وهو ضرب من الطير . قال طرفه وهو يصطاد هذا الطير في صباه .

يا لك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت ان تنقري
قد ذهب الصياد عنك فابشري
لا بد من اخذك يوما فاصبري انتهى

ومثله باختصار في القاموس ، وفي حياة الحيوان للدميري ما نصه : القبرة ـ بضم القاف وتشديد الباء الموحدة ، واحدة القبر . قال الجوهري : وقد جاء في الشعر (قنبرة) كما تقوله العامة . وقال البطليوسي في شرح ادب الكاتب : وقنبرة ايضا بائبات النون ، قال : وهي لغة فصيحة ، وهو ضرب من الطير يشبه الحمر . وكنية الذكر منه : ابو صابر ، وابو الهيثم ، والانثى : ام العلل ، وانشد ابيات طرفة المتقدمة . انتهى .

فظهر مما تقدم ان استعمال القنبر فيما يسميه الاوربيون (Bomb) ليس من اللغة العربية في قبيل ولا دبير .

واقول لك ايها المعترض الكريم : ان احتجاجك بكلام غير العرب باطل ، فالكلمة التي نبحث فيها لم تسمها العرب ، لا قنبرة ، ولا قنبلة ، ولنا ان نصطلح على تسميتها بما نشاء ، وليس ما يشتهيه بعضنا حجة على غيره .

وانا لا اعيب على المترجمين الا خطأهم فيما عرفته العرب وتكلمت به ، ومنعهم جهلهم من معرفته ، فعبروا عنه بعبارات فاسدة ، لا مستند لها . اما آلاف المحدثات من الاجرام والاعمال ، والآلات ، والمكتشفات ، فلا اتعرض لها ، اذ لا يستطيع ان ينشرها الا جماعة من العلماء اللغويين تنتخبهم الامة العربية ، وتتلقى ما يضعونه من الكلمات بالقبول والاستعمال ، ولا يستطيع شخص واحد ان يقوم بهذا العمل ، فدع المغالطة ، واستقم واقتصر على هذا القدر ، وموعدنا الجزء التالي ان شاء الله .

الدكتور تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين مستقيم
وقد عدلت في تعديلك عن العدالة

للدكتور تقي الدين الهلالي

(2)

5 ــ قال المعترض الفاضل والناقد العادل : وقال (وعمت الفوضى فى الانشاء العربي) فما هذه الفوضى؟ ومن استعملها هذا الاستعمال من فصحاء الامة العربية ؟ انها من استعمال جهلة المترجمين الذين عاب عليهم الدكتور استعمالهم كلما عربية فى غير مواضعها ، انها ترجمة كلمة (Anarchie)

قال الاب بلو (Belot) فى ترجمتها : عدم الحكم فى الشعب ، امر فوضى . فالرجل على كونه غير عربي استعمل (الفوضى) صفة لا اسما كما استعملها الدكتور (فالفوضى) صفة كالشتى ، فالصواب : وعمت الحال الفوضى . وكأني بالدكتور يقول : قد حذفنا الموصوف واتخذنا الصفة اسما ، فنقول له : ليست هذه بقاعدة مطردة ، وانت تدعو الى اتباع كلام الفصحاء واقوالهم ، وهذا ليس بذاك ولا هناك ، ثم ليس هذا موضع التدقيق والتحقيق فنقول : ان الفوضى اصلها (الفضى) كشتى جمع شتيت ، وهي مشتقة من الفعل (فضه يفضه فضا) اي فرقه تفريقا ، ثم ابدلت احدى الضادين واوا ، والتفرقة هي المعنى المراد بالفوضى ، فالفوضى جمع كالشتى ، تستعمل للجمع او لما يمكن ان يتجزا ، وان كان مفردا ، فكيف يجوز استعمالها اسما جامدا مع لزوم الوصفية الجمعية لها ا ه .

قال محمد تقي الدين : ايها المعترض الكريم ، متى اصطفاك فصحاء الامة العربية نقيبا لهم ، وفوضوا اليك امر النقض والابرام فى الفصيح من لغتهم وغير الفصيح؟ لقد ارتقيت مرتقا صعبا ، وطرت فى غير مطارك ، واخاف عليك السقوط . ان ميزان الفصاحة ليس هو فهمك ولا ذوقك ، وانما هو قواعد وضعها الائمة يرجع اليها ويعتمد فى النقد عليها ، وساضع نقدك فى الميزان ، ليرى القراء ، ايثقل ، فتكون من المفلحين ام يخف فتكون من الخاسرين .

وسنرى هل استعمالي لهذه الكلمة من استعمال جهلة المترجمين ، ام نقدك انت ينتمي الى جهلة المنتقدين . انا لم اخذ هذه الكلمة من معاجم آبائك الاجانب ، لا من معجم بلو ولا من غيره ، وانما اخذتها من كلام العرب الافحاح ، ومعاذ الله ان اكون فى لغة قومي عالة على الاجانب ، فاسمع ما يقوله ائمة اللغة العربية .

قال ابن منظور فى لسان العرب فى مادة ف و ض ما نصه : وقوم فوضى ، مختلطون ، وقيل : هم الذين لا امير لهم ولا من يجمعهم . قال الافوه الاودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وصار الناس فوضى ، اي متفرقين ، وهو جماعة الفائض ، ولا يفرد كما يفرد الواحد من المتفرقين . والوحش فوضى : متفرقة تتردد . ا ه .

ومثله فى القاموس للفيروزابادي فى مادة ف و ض. ثم قرات مادة ف ض ض فى القاموس ، فلم اجد فيها اثرا لما زعمه المعترض من ان أصل (الفوضى) فضى ، كشتى وشتيت ، ولم يذكر للفوضى مفردا ، ومقتضى كلامه ان يكون فضيضا ، وذلك ضل بتضلال .

فالفوضى من مادة ف و ض ، ومفردها (فائض) كما تقدم من كلام لسان العرب . ومن المعلوم ان الهمزة فى فائض منقلبة عن واو .

قوله : وكأني بالدكتور يقول : قد حذفنا الموصوف واتخذنا الصفة اسما . الخ هذا كلام رجل لم يدرس علم النحو ، فهو يخبط خبط عشواء ، او كلما حذفنا الموصوف وجب علينا ان نتخذ الصفة اسما ؟ من قال هذا من ائمة النحو ؟ فهل درست الفية ابن مالك او ما يساويها من كتب النحو ؟ الظاهر انك لم تدرس شيئا

من ذلك ، فكيف تتصدر وتنصب نفسك حكما واماما في علوم الادب ، وانت لا تعرف ما في الالفية ؟ اسمع ما يقوله ابن مالك :

وما من المنعوت ، والنعت عقل
يجوز حذفه ، وفي النعت يقل

قال ابن عقيل في شرحه ، وهو اسهل شروح الالفية في شرح البيت السابق : يجوز حذف المنعوت واقامة النعت مقامه اذا دل عليه دليل ، نحو قوله تعالى (أن اعمل سابغات) اي دروعا سابغات ، وكذلك يحذف النعت اذا دل عليه دليل ، لكنه قليل ، ومنه قوله تعالى (قالوا : الان جئت بالحق) اي البين ، وقوله تعالى (انه ليس من اهلك) اي الناجين . ا هـ .

وقال الاشموني في شرحه لالفية ابن مالك، الشرح ممزوج بالمتن ، ما نصه : (وما من المنعوت والنعت عقل) أي علم (يجوز حذفه) ويكثر ذلك في المنعوت (وفي النعت يقل) فالاول شرطه ، اما كون النعت صالحا لمباشرة العامل نحو : (ان اعمل سابغات) اي دروعا سابغات ، او كون المنعوت بعض اسم مخفوض بمن او في ، كقولهم : منا ظعن ومنا اقام ، اي منا فريق ظعن ، ومنا فريق اقام . وكقوله :

لو قلت ما في قومها لم تيثم
يفضلها في حسب وميسم

اصله : لو قلت : ما في قومها احد يفضلها لم تاثم، فحذف الموصوف وهو احد ، وكسر حرف المضارعة من تاثم ، وابدل الهمزة ياء ، وقدم جواب لو فاصلا بين الخبر المقدم ، وهو الجار والمجرور ، والمبتدا المؤخر ، وهو احد المحذوف ، فان لم يصلح ولم يكن المنعوت بعض ما قبله من مجرور بمن او في ، امتنع ذلك ، اي اقامة الجملة وشبهها مقامه الا في الضرورة كقوله :

لكم قبصة من بين انرى واقترا
ترمي بكفي كان من ارمى البشر

وقوله :

كانك من جمال بني أقيش
يقعقع بين رجليه بشن
انتهى

فظهر مما نقلته من كلام النحويين انه يجوز حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه بكثرة ، بشرط ان تصلح الصفة التي حذف موصوفها لمباشرة العامل ، بان لا تكون جملة ولا شبه جملة ، مع كون الموصوف فاعلا او مفعولا او مجرورا او مبتدا لان الجملة لا تصلح لذلك قاله الخضري في حاشيته على ابن عقيل .

وهذا الشرط ينطبق اتم الانطباق على عبارتي التي انتقدها المعترض جهلا وتهورا ، فاننا نقول : عمت الفوضى ، اي الاحوال الفوضى ، لا الحال كما قدره المعترض ، لان الحال مفرد والفوضى صفة للجمع كما تقدم في كلام لسان العرب ، وهو كقوله تعالى في سورة سبا 10 — 11 (والنا له الحديد . أن اعمل سابغات) .

يخبر الله تعالى انه الان الحديد ، اي جعله لينا لداوود قائلا له : اعمل دروعا واسعات . ففي كلامي حذفت الاحوال وهي (فاعل) واقيمت صفتها مقامها ، وفي كلام العلي العظيم : حذفت (دروعا) وهي مفعول به ، واقيمت سابغات مقامها . وحذف الموصوف واقامة الصفة مقامه يقال فيه : حدث عن البحر ولا حرج ، يستعمله الناس كل يوم في كتاباتهم وكلامهم بالعربية الفصحى وبالعامية ، ولا يكاد احد يستغني عن استعماله، قال الله تعالى في سورة المائدة (38 والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما) اي الرجل السارق والمراة السارقة.

وقال تعالى في اول سورة النور (الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة) اي الرجل الزاني لا ينكح الا امراة زانية او مشركة . وقال تعالى في سورة البقرة 280 (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) اي ان وجد شخص مدين ذو عسرة لا يجد ما يؤدي به دينه ، فلا تضيقوا عليه وامهلوه الى ان يتيسر له قضاؤه .

فكيف يزعم هذا المعترض المتخبط ان حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه ليس من كلام الفصحاء ، يا هادي الطريق ضللت :

يا ايها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وانت سقيم

اما اذا كانت الصفة جملة او شبه جملة، فيشترط لحذف الموصوف بها أن يكون بعض اسم مجرور (بمن او في) مثال المجرور بمن : قول العرب : منا ظعن ومنا اقام ، اي منا فريق ظعن ، اي سافر ، ومنا فريق اقام . ففريق الذي هو موصوف محذوف وهو بعض ما يدل عليه الضمير (نا) المجرور بمن . ومثال المجرور (بفي) قولهم : فينا سلم ، وفينا هلك ، اي فينا فريق سلم وفريق هلك ، وفيما سوى ذلك لا يجوز الحذف .

قوله : (لو قلت ما فى قومها) البيت ، قاله ابو الاسود الحماني يصف امراة بالحسب والجمال ، والموصوف المحذوف هنا تقديره (احد) أي لو قلت ايها المعجب بجمالها وكمالها : ما فى قومها احد من النساء فى الحسب ، وهو مفاخر الآباء . والميسم ـ بكسر الميم ، وهو الجمال ـ لم تاثم ، لانك صادق فى قولك . والمحذوف هنا ، وهو (أحد) بعض اسم مجرور بـ (في) .

قوله (لكم قبصة) البيت ، وصدره : لكم مسجدا الله المزوران والحصى

والحصى : العدد الكثير . وقبصة بكسر القاف ايضا العدد الكثير من الناس . والشاهد فى قوله من بين اثرى ، والتقدير : من بين رجل اثرى ، اي كثر ماله ، ورجل اقتر اي قل ماله ، فحذف الموصوف ، واقام الصفة مقامه ، مع ان الموصوف ليس بعض اسم مجرور بمن او فى لضرورة الشعر .

اقول : ان كانت القصيدة التي مدح بها الكميت بني امية كلها مثل هذا البيت ولم يعاقبوه عليها ، فانهم كانوا حلماء ، لان البيت ركيك جدا .

وقوله (ترمي بكفي) البيت . التقدير : ترمي بكفي رجل كان من ارمى البشر ، فحذف الموصوف وهو (رجل) واقام الصفة مقامه ، وهي جملة كان ، وانما فعل ذلك للضرورة كالذي قبله .

قوله (كانك من جمال بني اقيش) البيت . بنو اقيش بصيغة التصغير حي من العرب ، وزعم بعضهم انهم حي من الجن . وابلهم وحشية شديدة النفور ، وزعموا انها كانت هي ايضا من الجن . والشن القربة اليابسة ، ويقعقع يصوت ، وجمال هذه القبيلة تنفر بدون سبب ، فكيف اذا صوت مصوت بين ارجلها بضربة قربة يابسة . واراد الشاعر ذم المهجو ووصفه بسرعة الغضب . والشاهد فى حذف الموصوف للضرورة ، والتقدير : كانك جمل من جمال بني اقيش .

فان قلت : وما الذي يضطرنا الى تقدير هذا الموصوف ، مع ان الكلام يتم بدونه ؟ اقول : لو لم نقدره لم يكن فى البيت ما يعود عليه ضمير رجليه ، ولا بد له من شيء يعود عليه .

ايها المعترض الكريم ، اظنك ادركت زمان الامام العلامة السيد محمود شكري الالوسي رحمه الله ، ولم تكن من تلاميذه ، بل حرمت الاستفادة من بحر علمه الغزير ، ولم يصحبك التوفيق الذي صحب تلاميذته ، كالاستاذ محمد بهجة الاثري ، وشاعر العرب معروف الرصافي وغيرهما . ولو انك كنت من تلاميذته لم تهذ الينا هذا الهذيان ، متوهما انه من جواهر البيان .

وقول المعترض : ان الفوضى ، أصلها الفضى ، كشتى جمع شتيت ، وهي مشتقة من الفعل (فضه يفضه فضا) أي فرقه تفريقا ، ثم ابدلت احدى الضادين واوا ، والتفرقة هي المعنى المراد بالفوضى ، فالفوضى جمع كالشتى . الخ

ان كان جمعا فما هو مفرده ؟ على مقتضى زعمك يكون مفرده فضيضا ، فان كنت ناقلا ، فعليك بتصحيح النقل ، فاني لم اجد فى كتب اللغة احدا اشار الى شيء مما ذكرت ، وقد تقدم انه من مادة (ف و ض) وان كنت مخترعا لهذا الاشتقاق الفاسد ، وظننت انك تستطيع ان تروجه على قراء دعوة الحق اجمعين ، فقد بلغ بك الغرور كل مبلغ .

واعلم ايها القارىء العزيز انني لم استفد لفظ (الفوضى) من كلام المترجمين الجاهلين او العالمين كما هو شأن المعترض الذي اتخذ القسيس (انسطاس الكرملي) اماما معصوما فى علوم اللغة العربية ، ولم يأت علومها من ابوابها كما فعل غيره من ادباء العراق النبلاء ، فكان الشاعر عناه بقوله :

اذا ما اتيت الامر من غير بابه
ضللت ، وان تدخل من الباب تهتد

وانما اخذت ذلك اللفظ من شعر الافوه الاودي انشده بعض المؤلفين فى علم العروض فقال :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولاسراة اذا جهالهم سادو
والبيت لا يبتنى الا باعمدة
ولا عمود اذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أوتاد واعمدة
وساكن بلغوا الامر الذي كادوا

وليت شعري ، ما معنى قوله : ثم ليس هذا موضع التدقيق والتحقيق ؟ ما المراد بهذا اهو لفظ الفوضى ؟ ام حذف الصفة واقامة الموصوف مقامها ؟ وايهما قصده لم يكن لكلامه معنى .

وقوله : فالفوضى : جمع كالشتى ، تستعمل للجمع ، أو لما يمكن ان يتجزأ ، الخ . اما كونها صفة جمع ، فمسلم ، ولكن اذا عرف ذلك ، فكيف قدر موصوفها مفردا فى تصحيحه الفاسد ؟ بقوله : فالصواب : وعمت الحال الفوضى ؟

يصيب وما يدري ويخطي وما درى
وكيف يكون النوك الا كذلك

ثم ان ادعاءه ان هذا اللفظ يكون صفة للجمع ، او لما يمكن ان يتجزا ، وان كان مفردا ، وما هو هذا الشيء الذي يتجزا وهو مفرد ، أهو جنة تتجزا الى اشجار ؟ فنقول : شجرة من جنة ، ام روضة تتجزا الى أزهار ؟ فنقول : زهرة من روضة ، أم ما ذا؟ وهل هذا الادعاء نقل او اختراع ؟ فان كان نقلا فليصححه ، بأن ينسبه الى قائله من الائمة ، وان كان اختراعا فهو من تخيلاته الفاسدة ، وبنات غيره ، فلا يساوي قلامة ظفر عند المحققين .

ثم اقول له : والحال التي قدرتها محذوفة ، وجعلت الفوضى صفة لها ، والامر الذي نقلته من كلام ابيك (بلو) وأعجبت به كل الاعجاب ، هل هما من المفرد الذي يتجزا ؟ فكيف تجزئهما ؟ اثلاثا او رباعا او خماسا؟ او اجزاء لا يعرف عددها ؟ هل فكرت في هذا الامر قبل ان تكتبه وترسله من بغداد الى الرباط هدية ثمينة الى ادباء المغرب وادباء العالم ؟ ما اخال ان ادباء العراق يرضون بخطتك هذه ، ويعتبرونها شيئا مشرفا ، وقد يعتبرونك كبراقش التي كانت تجني على اهلها ، ونحن ننزه ادباء العراق المحققين عن مثل هذه السفاسف المرتجلة .

ثم ان تمثيل الامام ابن عقيل لحذف النعت اي الصفة بقوله تعالى في سورة البقرة 71 (قالوا : الان جئت بالحق) أي البين ، فحذفت الصفة وهي البين ، تمثيل غير صحيح ، لان موسى قال لهم : « ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا : أتتخذنا هزؤا ، قال اعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» . فلم يكن بنو اسرائيل يعتقدون أن موسى اجابهم في اول الامر بالحق المبهم ، وفي آخر الامر بالحق البين ، بل ظنوا انه يتخذهم هزؤا ، وفهم موسى ذلك من كلامهم ، فاستعاذ بالله منه ، وعده من الجهل ، وهو السفه .

وكذلك تمثيله بقوله تعالى في سورة هود 46 (انه ليس من اهلك) أي الناجين ، لا حاجة الى تقدير هذا النعت ، لان نوحا عليه السلام حين قال : (رب ان ابني من اهلي) ، لم يرد بذلك ان يخبر ان الابن الهالك من ذريته، وانما أراد ان يقول : انه من اهله الذين يستحقون الرحمة والعفو لقربه من رسول الله نوح احد اولي العزم، فأخبره الله ان ذلك الابن ليس من المؤمنين بما جاء به ابوه ، فلا يستحق النجاة ولا الرحمة بالقرابة المجردة ، فانها لا قيمة لها عند الله . قال تعالى في سورة الطور 21 : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم) .

وقال تعالى في سورة الانعام بعد ذكر الرسل 87 – 88 (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) فمن أشرك من ذرية الرسل حبط عمله واستحق الخلود في العذاب ، ولم تغن عنه قرابته من الرسول شيئا .

والصواب ما مثل به الاشموني حيث قال : والثاني كقوله تعالى 18 : 79 (يأخذ كل سفينة غصبا) اي كل سفينة صالحة . وقوله :

فلم اعط شيئا ولم امنع .

اي شيئا طائلا . وقوله :

ورب أسيلة الخدين بكر
مهفهفة لها فرع وجيد

اي فرع فاحم ، وجيد طويل .

6 – قال المعترض : وقال (ربما استعمله بعض كبار الاساتذة الذين يرجى منهم المحافظة على صحة الاستعمال) اراد بالبعض هنا غير واحد منهم ، مع ان (بعضا) لم تكرر في الجملة حتى تدل على غير الواحد ، فالمكررة كالقول الذي قاله الدكتور في نقده هذا (تحدث بعضهم الى بعض) وكما في الآية الكريمة التي اتخذها شاهدا ، وهي (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) فاذا لم تكرر ، وكان المضاف اليه الذي اضيفت اليه ذا اجزاء منفصلة ، او ممكن فصلها دلت على واحد أو واحدة .

أقول في جوابه بالعامية العراقية (يا باه ! شاباش !) وبالعامية المصرية (عفارم !) ما هذا العلم الغزير ، والتحقيق البديع ؟ والان اضع في الميزان هذا النقد ، ليعرف القراء الاعزاء قيمته .

ادعى المعترض ان لفظ (بعض) اذا كرر دل على اكثر من واحد ، واذا لم يكرر ، وكان المضاف اليه ذا اجزاء منفصلة ، او ممكن فصلها دل على واحد او واحدة، اقول : من وضع هذه القاعدة ؟ ان كنت ناقلا ، فلم لم تعز ما نقلت الى قائله وتذكر فيه الخلاف او الاجماع ان كنت من المحققين كما تزعم ، وان كنت مخترعا ، فما انت علي ، ولا ابو الاسود ، ولا الخليل ، ولا سيبويه ، ولا من هو دونهم من النحاة واللغويين ، فما تضعه من القواعد هوس لا قيمة له ، وما أحسن ما قال بعضهم في امثالك :

تصدر للتدريس كل مهوس
سفيه يسمى بالفقيه المدرس
فحق لاهل العلم ان يتمثلوا
ببيت قديم شاع في كل مجلس
(لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس)

اسمع ما يقوله الائمة في (بعض) ، قال ابن منظور في لسان العرب : (بعض) الشيء : طائفة منه ، والجمع ابعاض . قال ابن سيدة : حكاه ابن جني ، فلا ادري أهو تسمح ام هو شيء رواه . واستعمل الزجاجي (بعضا) بالالف واللام فقال : وانما قلنا البعض والكل مجازا ، وعلى استعمال الجماعة له مسامحة ، وهو في الحقيقة غير جائز ، يعني ان هذا الاسم لا ينفصل من الاضافة .

قال ابو حاتم : قلت للاصمعي ، رايت في كتاب ابن المقفع : العلم كثير ، ولكن اخذ البعض خير من ترك الكل، فانكره اشد الانكار ، وقال : الالف واللام لا يدخلان في (بعض وكل) .

ومضى الى ان قال : وقوله تعالى (تلتقطه بعض السيارة) بالتانيث في قراءة من قرا به ، فانه انث ، لان بعض السيارة ، سيارة كقولهم : ذهبت بعض اصابعه ، لان بعض الاصابع يكون اصبعا واصبعين واصابع . اه

تامل قول ابن منظور في بيان قول العرب : ذهبت بعض أصابعه ، لان بعض الاصابع ، يكون اصبعا واصبعين واصابع ، وكذلك (بعض الاساتذة) يكون استاذا واستاذين واساتذة ، ولا فرق ، فبطل بذلك ما زعمه المعترض من ان (بعضا) اذا لم يكرر يدل على واحد او واحدة فقط .

قوله (وشاهدنا كتاب الله العزيز ففيه (يلتقطه بعض السيارة) الخ . اقول : نعم الشاهد كتاب الله ، ولا حجة لك فيه ، لان لفظ (بعض) مذكر ومفرد ، والضمير يعود عليه مفردا حسب لفظه ، فليس فيه دليل على ما زعمت ، لاننا نقول كما قال ابن منظور : ان (بعضا) اذا اضيف الى جمع يدل على واحد او اثنين او اكثر ، فنحن لا ننكر انه يدل على واحد في بعض الاحيان ، ولكننا ننكر ما ادعيت من انه لا يدل الا على واحد او واحدة بالشرط الذي ذكرته من مخترعاتك .

وقوله : و (قالوا لولا انزل على بعض الاعجميين فقراه) ايها المعترض المسكين ، لقد استهدفت ونصبت نفسك للرماح دريئة ، نحن نعلم ان الله حرمك من حفظ القرآن ، ولكنه لم يحرمك من مصحف يوجد في خزانة كتبك ، فهلا راجعته قبل ان تحرف كتاب الله وتغيره ، ففي اي سورة وجدت هذا اللفظ ؟ وفي اي آية ؟ لقد خانتك ذاكرتك الواهمة ، واظنك تريد قوله تعالى في سورة الشعراء 198 ــ 199 (ولو نزلناه على بعض الاعجمين . فقراه عليهم ما كانوا به مؤمنين) .

وغاية ما في الآيتين أن (بعض) هنا تدل على واحد ، وانا لا انكره ، ولا حجة لك فيه ، وكذلك يقال في آية التحريم . واما قول الشاعر :

ولانت تفري ما خلقت وبعـ
ـض القوم يخلق ثم لا يفري

فلا اسلم ان (بعض) هنا يدل على واحد فقط ، والقرينة والواقع يحتمان انه يدل على اكثر من واحد . اما الواقع، فان الذين يرسمون الخطط لعمل من الاعمال ويعزمون على تنفيذه فريقان : فريق ذوو عزائم ماضية وهمم عالية ، ينفذون كل ما رسموا له خطة . وفريق ذوو عزائم واهية ، وهمم سافلة ، يقولون ما لا يفعلون ، ويعزمون ولا ينفذون ، ولا يمكن ان ينحصروا في واحد.

واما القرينة ، فان الشاعر يريد ان ممدوحه من ذوي الهمم العالية الذين اذا قالوا فعلوا واذا وعدوا انجزوا ، وكثير من الناس تقصر هممهم عن التخلق بهذا الخلق ، وعلى تاويل المعترض ، يكون الناس كلهم ينجزون وعودهم ويوفون بعهودهم ، وينفذون ما رسموا من الخطط الا واحدا ، فلا يكون فيه مدح ، وقد ظهر ان هذا البيت حجة عليه لا له .

واما بيت ابي دلامة وبيت بشار ، فمع تسليمي لدلالة (بعض) فيهما على واحد اقول : لا حجة في كلام احد من المولدين ، وبشار بن برد كان مجوسيا عجميا ، وكان يزمزم على الطعام قبل ان يظهر اسلامه ، ومع ذلك هو من فحول الشعراء المحدثين ، ولا حجة في كلامه .

واما قول لبيد : او يعتلق بعض النفوس حمامها . فقد اختلفوا في دلالة (بعض) هنا ، والصحيح انها تدل على واحد ، ولا حجة للمعترض فيه ، لان الخلاف بيني وبينه ليس في صحة دلالتها على واحد .

وقال تعالى في سورة الزخرف 63 (ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ، ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه) .

قال الراغب في غريب القرآن : قال ابو عبيدة : (ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه) اي كل الذي كقول الشاعر :

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

وفي قوله هذا قصور نظر منه ، وذلك ان الاشياء على اربعة اضرب : ضرب في بيانه مفسدة ، فلا يجوز لصاحب الشريعة ان يبينه ، كوقت القيامة ، ووقت الموت . وضرب معقول ، يمكن للناس ادراكه من غير نبي ، كمعرفة الله ومعرفته في خلق السموات والارض، فلا يلزم صاحب الشرع ان يبينه . الا ترى انه كيف أحال معرفته على العقول في نحو قوله (قل انظروا ما ذا في السموات والارض) وبقوله (اولم يتفكروا) وغير ذلك من الآيات . وضرب يجب عليه بيانه كاصول الشرعيات المختصة بشرعه . وضرب يمكن الوقوف عليه بما بينه صاحب الشرع ، كفروع الاحكام .

واذا اختلف الناس في امر غير الذي يختص بالنبي بيانه فهو مخير بين ان يبين وبين ان لا يبين حسبما يقتضي اجتهاده وحكمته . فاذن قوله تعالى (ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه) لم يرد به كل ذلك ، وهذا ظاهر لمن القى العصبية عن نفسه . اه

قال محمد تقي الدين : قول الراغب (ضرب في بيانه مفسدة) الخ . خطأ ، لان صاحب الشريعة لا يعرف وقت القيامة لقوله تعالى في سورة الاعراف 187 (يسألونك عن الساعة ايان مرساها ، قل انما علمها عند ربي) ، وقوله سبحانه في سورة لقمان 34 (وما تدري نفس بأي أرض تموت) .

وقوله (وضرب معقول ، يمكن للناس ادراكه) الخ . جرى في ذلك على مذهبه الاعتزالي أن العقل وحده كاف لمعرفة الله، والحق ان العقل وحده لا يكفي في ذلك، فلا بد من بيان الرسل . وسائر كلامه لا اشكال فيه .

وعلى ما زعمه المعترض يكون معنى قوله تعالى (ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه) ولابين لكم مسالة واحدة من الذين تختلفون فيه ، وكفى بقول يفضي الى هذا فسادا . ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة آل عمران 50 (ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم) .

قال القنوجي في فتح البيان : عن الربيع قال : كان الذي جاء به عيسى اليين مما جاء به موسى ، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى ، لحوم الابل والثروب ، فاحلها لهم على لسان عيسى ، وحرم عليهم الشحوم فاحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفي أشياء من السمك، وفي اشياء من الطير ، وفي أشياء اخرى حرمها عليهم ، وشدد عليهم فيها ، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الانجيل . اه

فعلى قول المعترض لا يمكن ان يحل عيسى لبني اسرائيل الا شيئا واحدا ، وقد احل لهم أشياء عديدة كما رايت ايها القارىء الكريم ، وهذه نصوص القرآن التي زعم أنها تنصره ، فاذا بها تخذله ، لانه ليس من اهل القرآن ، لا حفظا ، ولا عملا وايمانا ، فان القرآن يقول في سورة البقرة 185 (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وهو يأكل ويشرب في رمضان جهارا على أعين الناس ، وهو شاهد غير مسافر .

والقرآن يقول في غير ما آية (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وهو لا يقيم الصلاة ، ولا يؤتي الزكاة ، ويحتج علي بنصوص الفقه في مسالة لغوية لا علاقة لها بالفقه . والمبتدئون من تلاميذ الادب ، فكيف بالعلماء يعلمون ان اقوال الفقهاء ليست حجة في اللغة ، وهل سمعتم بفقيه لا يصلي ولا يصوم ، ورأسه منذ عشرين سنة أبيض كالثغامة ، يسوء الغانيات اذا رأينه ؟

وهذا آخر هذا المقال ، وموعدنا الجز التالي بحول الله وقوته .

مكناس : تقي الدين الهلالي

"تقويم اللسانين مستقيم"

وقد عدلت في تعديلك عن العدالة

للدكتور تقي الدين الهلالي

«3»

7 — قال المعترض : وقال : (فان من كان عالما بالنحو في اي لغة كانت يتخذه مصباحا) وهذا التعبير كان أولى من غيره بتقويم اللسانين ، فان مراده : من كان عالما بنحو لغة من اللغات يتخذه مصباحا ، (ايا) هذا الاستعمال الغريب ، وظن ان الضمير في (كان) يعود الى اللغة ، فالحق به تاء التأنيث ، مع ان الفعل ينبغي ان يكون للعلم المفهوم من اسم الفاعل . وبيان ذلك من كان عالما بنحو لغة كائنا ما كان هذا العلم بالنحو ، فاذا اراد اللغة وجب تقديمها فيقال (من كان عالما بلغة اي لغة كانت) فالفعل الذي يأتي بعد (اي) يعود ضميره الى الاسم الذي قبلها ، وهذه ادنى مراتب الصحة او دنياها . اه .

اقول :

قولي : في (اي) لغة كانت — جار ومجرور ، في محل نصب متعلق بمحذوف حال من النحو ، وكانت فعل تام ، وفاعله ضمير مستتر جوازا ، تقديره : هي ، يعود على اللغة ، وهذه الجملة في محل جر صفة للغة ، وهذا كلام مستقيم لا اشكال فيه .

وما قدره وزعم اني اردته باطل لم اراده .

وقوله (فاذا اراد اللغة وجب تقديمها فيقال : من كان عالما بلغة اي لغة كانت) انا لم ارد العلم باللغة ، وانما اردت العلم بنحوها ، ولو اردت العلم بها لما وجب تقديم الموصوف مذكورا ، فقد تقدم ما يشفي العليل ، ويروي الغليل في جواز حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه بكثرة وتقدمت الشواهد على ذلك . فمعنى كلامي : من كان عالما بالنحو في اي لغة كيفما كانت ، وهو واضح لكل ذي قلب سليم .

8 — قال المعترض : وقال (ينتفع اهل الارض بضوئها ودفئها وانضاجها للثمار الى غير ذلك) فكيف نصل (الى غير ذلك) بالجملة ، وهي لا تحتاج الى (الى) التي هي منتهى لابتداء الغاية ، فلو قال (من ضوئها ودفئها الى غير ذلك لصح التعبير ، فالصواب : العطف (وغير ذلك) فتكون الجملة (بضوئها ودفئها وانضاجها للثمار الى غير ذلك) ا هـ

اقول : ومن قال ان (الى) محصورة في انتهاء الغاية ، ولو درست كتابا من كتب النحو المتوسطة لعرفت ان لها معاني اخرى غير انتهاء الغاية فدونك ما قاله الاشموني في شرحه لالفية ابن مالك في معاني (الى) .

قال الاشموني : واما (الى) فلها ثمانية معان : الاول انتهاء الغاية مطلقا كما تقدم . الثاني المصاحبة نحو (ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم) . الثالث ، التبيين ، وهي المبينة لفاعلية مجرورها بعدما يفيد حبا او بغضا من فعل تعجب او اسم تفضيل نحو (رب السجن احب الي) . الرابع موافقة اللام نحو (والامر اليك) ، وقيل لانتهاء الغاية ، اي منته اليك . الخامس موافقة في ، نحو (ليجمعنكم الى يوم القيامة) وقوله :

فـلا تتركنـي بـالوعيـد كأننـي
الى الناس مطلي به القـار اجـرب

السـادس موافقـة مـن كقولـه
تقول وقد عاليت بالكـور فوقهـا
أيسقى فلا يروى الي ابن احمـرا
السابع موافقة عنـد كقولـه
ام لا سبيل الـى الشبـاب وذكـره
اشهـى الي مـن الرحيـق السلسـل

الثامن : التوكيد ، وهي الزائدة . اثبت ذلك الفراء مستدلا بقراءة بعضهم (أفئدة من الناس تهوى اليهم) بفتح الواو ، وخرجت على تضمين تهوى معنى تميل .. اهـ

وقال ابن منظور في لسان العرب : وتكون (الى) بمعنى (مع) كقوله تعالى (ولا تأكلوا اموالهـم الـى اموالكم) معناه مع اموالكم . وكقولهم : الذود الى الذود ابل . وقال الله عز وجل (من انصاري الى الله) اي مع الله . وقال عز وجل (واذا خلوا الى شياطينهم) اهـ .

فظهر ان استعمالي (لالى) بمعنى (مع) صحيح مستقيم ، وان انتقاد المعترض سقيم .

9 ــ قال المعترض : وقال (ورنقت صفو زلالـه المعين مما يسوء كل طالب علم) فمن هنا للبيان والتفسير فكيف يكون الزلال المعين مما يسوء كل طالـب ؟ واذا عددناها للتعليل يكون ترنيق الصفو بسبب ما يسوء كل طالب علم ، وهو غير مراد الكاتب ، فالصـواب : وذلك مما يسوء كل طالب علم) على الابتداء والاخبار .

اقول : لم اقصد (بمن) بيانا ولا تعليلا ، وانما قصدت ان ترنيق الصفو مما يسوء كل طالب علم ، الخ . فهي هنا للتبعيض ، والمبتدا محذوف ، التقدير : وهـو اي الترنيق ، مما يسوء ، الخ. وهكذا يفهم اولوا الالبـاب اجمعون

10 ــ قال المعترض : وقال في الكاف التي سماها استعمارية (وهذا الاستعمال دخيل لا تعرفه العـرب) اراد : لم تعرفه العرب) والا فان العرب عارفـة بـه ، فالمراد نفي الماضي لا المستقبل . جاء في الصحـاح (لا) حرف نفي لقولك : يفعل ، ولم يقع الفعـل ، اذا قال : هو يفعل غدا ، قلت : لا يفعل غدا ، ولا تنفي الماضـي الا اذا كررت ، او عوض عـن تكرارها ، وليس هـذا موضع الجدال ، لان الفعل في الجملـة المنقودة مضارع جعلته (لا) للاستقبال ، مع ان المراد نفي معرفة العرب قديمـا . اهـ

اقول : من الشائع الذائع في كتب النحاة ، وعلـى السنتهم : العرب لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحـرك فهل معناه : لن تبدأ ولن تقف ؟ ، بل المراد انه ليس من عادتها ولا من شأنها ان تفعل ذلك ، فالمعنى غيـر مقيد بالمضي ، ولو قلنا : لم تبدأ ولم تقف لم يحصل المراد . وكلام الصحاح قد ساء فهم المعترض له ، فان قولـه : (لا يفعل غدا) لا يدل على ان (لا) هي التي عينت الفعل للاستقبال ، بل القرينة (غدا) هي التي عينته له . قال ابن بونا في الفيته :

واجعـل في الاستقبـال الامر واقعا
وقـل بـه والحـال فيما ضارعـا

قال الناظم نفسه في شرح هذا البيت : اي المضارع ولو نفي (بلا) خلافا لمـن خصصها بالمستقبل ، ومـن وروده مع (لا) للحال قوله تعالى (والله اخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) اهـ .

فهذه حكاية حال ماضية ، وهي تحكـي بالمضارع كما رايت شاهده في كتاب الله ، ولكن فهم المعتـرض منحصر في دائرة ضيقة لانه لم يأت البيوت من ابوابها .

وقال ابن منظور في لسان العرب في الكلام علـى (لا) ما نصه : قال الليث : العرب تطرح (لا) وهي منوية كقولك : والله لا اضربك ، تريد : والله لا اضربـك ، وانشد :

وآليـت آسـى علـى هالـك
وأسال نائحـة مـا لهـا (اهـ)

فقول الليث وهو من ائمة اللغة : والعرب تطرح (لا) هو كقولي انـا (لا تعرفه العرب) الا ان الفعل في كلامه مثبت ، وهو في كلامي منفي (بلا) ، وقد تقدم أن (لا) لا تعينه للاستقبال فبطل كلام المعترض .

وقال ابن منظور ايضا : التهذيب : قال الفـراء : والعرب تجعل (لا) صلة اذا اتصلت بجحد قبلها . وقـال الشاعـر :

مـا كان يرضى رسـول الله دينهم
والا طيبـان ابـو بكـر ولا عمر .اهـ

ومثل هذا في اقوال ائمة اللغة كثير .

وقوله (والا فان العرب عارفة به) من اعجـب العجب ، هل يستطيع ان يأتينا بدليل على ان العرب كانت تعرف الكاف الاستعمارية وتستعملها في كلامها ؟ فانا اتحداه ان يأتي بشاهد واحد عن العرب ، بـل لا يستطيع ان يأتي بدليل من كلام المولدين الذيـن جـاءوا

بعد العرب ، ولا يجده ابدا قبل هذا الزمان النحس ، زمان الاستعمار المادي والسياسي واللغوي . والذي يؤسفني ان هذا المعترض يعلم يقينا ان هذه الكاف هي ترجمة (Comme) بالفرنسية ، و (As) بالانكليزية، و (Als) بالجرمانية ، وان هذه الكلمات تأتي في هذه اللغات قبل الحال ، وقد تأتي قبل غيرها ، وتأتي للتشبيه ايضا ، فاستعملها المترجمون استعمالا فاسدا ، وهو يعلم فساده ، ويجادل بالباطل عمدا ليغمط غيره ويبخسه حقه ، وينصب لنفسه عرشا يجلس عليه ، ولم يدر ان من رام أن يرتفع بالباطل خفضه الحق، ولو انه لم يجادل الا فيما لا يعرفه ، وقصر عنه فهمه لهان الخطب وما احسن ما قال ذو الاصبع العدواني

الله يعلمني والله يعلمكم
والله يجزيكم عني ويجزيني

قوله (ولا تنفي الماضي الا اذا كررت) باطل ، فقد جاء الفعل الماضي في كلام العرب منفيا (بلا) غير متكررة ، قال الشاعر :

ردوا فوالله لاذدناكم ابدا
ما دام في مائنا ورد لوراد

قال العلامة المحقق احمد بن امين العلوي الشنقيطي في الدرر اللوامع شرح شواهد همع الهوامع للسيوطي بعد ايراد البيت المتقدم : استشهد به على تعيين الماضي المنفي (بلا) للاستقبال .

ذدناكم ، كففناكم ، وهو بالذال لا بالزاي ، ولم اعثر على قائله . اهـ

واستشهد به ايضا على ذلك ابن يونا في حاشية الفيته . واعلم ايها القارىء الكريم ان المضارع في كلام العرب يأتي بمعنى الماضي في مواضع ، وان يأتي للحال وللاستقبال بشروط وقرائن ذكرها السيوطي في همع الهوامع شرح جمع الجوامع له ، وذكرها ابن يونا في الفيته . واظن ان المعترض لم يسمع بهذين الكتابين ، فضلا عن ان يدرسهما ، وحسبه ما كتبه القسيس (انسطاس الكرملي) والقسيس بلوت الفرنسي ، فبهما يصول ويجول ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

11 ــ قال المعترض : وقال (بين غث وسمين ، وكدر ومعين) ظانا ان المعين هو الصافي والرائق مع انه الجاري ، وقد يكون الجاري رائقا او كدرا بحسب ارضه وجريته ومنبعه وعينه وما يحدث فيه. اهـ

اقول : صدق المعترض ، فان المعين هو الذي تراه العين ، كما قال البيضاوي ، وهو الماء الجاري ، ولكن اكثر الماء الجاري ، وهو البحر يكون صافيا على الدوام ولا يتكدر ، فان قيل : ان البحر غير جار ، نقول : بلى ، بدليل قول النبي (ص) في الدعاء الذي كان يقوله اذا رأى قرية : اللهم رب السموات وما اظللن ، ورب الارضين وما اقللن ، ورب الشياطين وما اضللن ، ورب البحار وما جرين ، ورب الرياح وما ذرين ، الحديث ، واذا علمت أن ثلاثة ارباع الارض يغطيها البحر ، وان الانهار في اغلب الاوقات صافية ، وكذلك العيون جارية ، ولا تكدر الا عند نزول الامطار وسيلان الاودية تعلم ان الجريان يلازم الصفاء ، والتعبير باللازم وارادة الملزوم شائع في كلام البلغاء ، والقرينة لا تبقي شكا في أني أريد الصافي ، وكذلك قول الشاعر :

ان حمامنا الذي نحن فيه
اي ماء به واية نار
قد نزلنا به على ابن معين
وروينا به صحيح البخار

قوله (على ابن معين) فيه تورية ، فالمقصود هو الماء المعين الصافي في الحمام ، والمعنى الذي ورى به هو الاشارة الى الامام الحافظ احد ائمة الجرح والتعديل يحيى بن معين . وفي قوله صحيح البخاري تورية اخرى، فان المقصود بخار الحمام ، والتورية بصحيح الامام الحافظ امير المومنين في الحديث ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري . ومن المعلوم ان ماء الحمام غير جار ، ولكنه عبر باللازم واراد الملزوم . والمناقشة في مثل هذه الصغائر من الشطط ، والتماس العيوب للبراء .

12 ــ قال المعترض : وقال (وستاتي في هذه المقالات ان شاء الله امثلة عديدة توضح ذلك) اراد بعديدة (كثيرة) مع أن العديدة هي المعدودة، قليلة كانت او كثيرة، واستعمل (امثلة) جمع القلة مع ارادته الكثرة، فالصواب مثل كثيرة. الخ .

اقول : صدق المعترض في قوله : ان العديدة ، يراد به المعدودة ، سواء أكانت قليلة ام كثيرة ، الا ان القرينة التي فهم بها هو الكثرة كافية لجعل القارىء يفهم الكثرة . واستعمال اللفظ في احد مدلوليه مع القرينة الصارفة عن ارادة المدلول الآخر شائع في كلام البلغاء جار على الاصول ، لا سبيل الى انكاره فلا يعد عيبا ولا خطأ .

على ان ابن منظور فى لسان العرب قال ما نصه : والعديد : الكثرة. اهـ واذا كان العديد هو الكثرة ، فلتكن العديدة كذلك ، وعلى ذلك اقول : لو كان اعتراض هذا المعترض كله مثل هذين الاعتراضين الاخيرين لتلقيته بكل سرور ، ولكن اكثره كان الباعث عليه القصور وسوء الفهم ، او ارادة السوء والغش المتعمد للقراء .

واما قوله : ان (امثلة) جمع قلة ، فقد تقدم الكلام عليه مستوفي فى الجواب عن النقد الثالث.

13 ــ قال المعترض: نعود الى الكاف الاستعمارية التي جرب استعمالها فى قول القائل (فلان كوزير لا ينبغي له ان يتعاطى التجارة) لانه استعمال دخيل ، مع انه ذكر من معاني الكاف (التعليل) فاذا قلنا : فلان لانه وزير لا ينبغي ان يتعاطى التجارة ، كان المراد مضمونا والمعنى واضحا .اهـ

اقول : انني لا احسن استعمال هذه الكاف ، وللـه الحمد، لان طبعي يأباها كما يأباها طبع كل كاتب تعزف نفسه عن استعمال الالفاظ الدخيلة الاستعمارية التي غزت لغة الضاد ، وافقدتها جمالها وفصاحتها ، وانا لا اعتقد ان المعترض يجهل هذا ، ولكنه ركب رأسه وحاد عن سواء السبيل بقصد ان يهدم ما بنيته من صروح الاصلاح فهدم نفسه كما قال المتنبي :

وكم من مريد ضره ضر نفسه
وهاد اليه الجيش اهدى وما هدى

وزعمه ان الكاف الاستعمارية تؤول على انها للتعليل زعم عليل ، فقولنا : فلان كوزير لا يجوز له ان يتعاطى التجارة ، لا يفهم منه احد ان الكاف للتعليل الا اذا كان فهمه عليلا ، فاسمع ايها المعترض ما يقوله ابن هشام فى المغني :

(الكاف المفردة) جارة وغيرها ، والجارة حرف واسم ، والحرف له خمسة معان : احدها التشبيه نحو: زيد كالاسد . والثاني : التعليل ، اثبت ذلك قوم ونفاه الاكثرون ، وقيد بعضهم جوازه ، بأن تكون الكاف مكفوفة بما ، ككثابة سيبويه ، كما انه لا يعلم ، فتجاوز الله عنه . والحق جوازه فى المجردة من ما نحو : وي كأنه لا يفلح الكافرون) اي اعجب لعدم فلاحهم ، وفى المقرونة بما الزائدة كما فى المثال ، وبما المصدرية نحو : (كما أرسلنا فيكم) الآية . قال الاخفش : اي لاجل ارسالي فيكم رسولا منكم فاذكروني ، وهو ظاهر فى قوله تعالى (واذكروه كما هداكم) واجاب بعضهم بانه من وضع الخاص موضع العام ، اذ الذكر والهداية يشتركان فى امر واحد ، وهو الاحسان . فهذا فى الاصل بمنزلة (واحسن كما احسن الله اليك) والكاف للتشبيه ثم عدل عن ذلك للاعلام بخصوصية المطلوب .

وما ذكرناه فى الآية من ان ما مصدرية ، قاله جماعة وهو الظاهر . وزعم الزمخشري وابن عطية وغيرهما انها كافة ، وفيه اخراج الكاف عما ثبت لها من عمل الجر لغير مقتض ، واختلف فى نحو قوله :

وطرفك انما جئتنا فاحبسنه
كما يحسبوا ان الهوى حيث تنظر

فقال الفارسي : الاصل ، كيما ، فحذف الياء . وقال ابن مالك : هذا تكلف ، بل هي كاف التعليل ، وما الكافة ، ونصب الفعل بها لشبهها بكي فى المعنى . وزعم ابو محمد الاسود فى كتابه المسمى (بنزهة الاديب، ان ابا علي حرف هذا البيت ، وان الصواب فيه :

اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا ــ البيت

شرح الغامض على بعض القراء من كلام المغني .

قوله (جارة وغيرها) اي الكاف المفردة ، منها كاف جارة ، ومنها كاف غير جارة .

قوله (كما انه لا يعلم فتجاوز الله عنه) المعنى : تجاوز الله عنه ، لانه لا يعلم ، اي غفر له لعدم علمه ، ان ما فعله ذنب .

قوله (كما فى المثال) يعني المتقدم من حكاية سيبويه، وهو (كما انه لا يعلم فتجاوز الله عنه)، فالكاف للتعليل، وما زائدة ، والمصدر المؤول من ان وما بعدها فاعل لفعل محذوف تقديره : ثبت ، هكذا اعربه الامير فى حاشيته على المغني والتقدير : لثبوت عدم علمه سامحه الله فتجاوز عنه ، والذي حمله على هذا التكلف ان ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها . ولو اعتبرنا الفاء زائدة لم نحتج الى هذا التقدير كله ، فيكون الجار والمجرور متعلقا بما بعده ، وهو تجاوز .

قوله (قال الاخفش : اي لاجل ارسالي) الخ ، فيه اعمال ما بعد الفاء فيما قبلها، وقد سكت عنه الامير، وهذا يدل على ما رجحته انا فى اعراب المثال المتقدم .

قوله (وقال بعضهم) الخ. يعني أن بعضهم جعل الكاف فى (كما ارسلنا) للتشبيه كما فى (واحسن كما احسن اله اليك) لا للتعليل . ومراده بالخاص ارسال الله الرسول ، وذكر الناس لله وشكرهم له يشملهم

الاحسان، فالارسال احسان من الله الى عباده، والذكر والشكر احسان منهم فى طاعته وعبادته ، وبذلك يشبه قوله تعالى فى سورة القصص (77 واحسن كما احسن الله اليك) .

قوله (وطرفك) الخ . هذا البيت لعمر بن ابي ربيعة، قاله السيوطي فى حاشيته على المغني . والمعنى : ان المحبوبة قالت للشاعر — بزعمه : ان جئتنا فاحبس طرفك عني ، وانظر الى غيري ليظن الناس انني لست محبوبتك ، وأن محبوبتك حيث تنظر ، وبذلك يبقى حبنا مستورا .

فهكذا تستعمل كاف التعليل أيها المعترض .

قوله (ثم انه لما عاب على القائل قوله لم يذكر له القول الصحيح ، فلنحسب ان القول المذكور دخيل ، فما وجه الصواب ؟ فالبراعة ليست فى التخطئة وحدها ، بل فيها وفى ذكر الوجه الصحيح انتهى.

اقول : انا لا اعامل الكتاب كما يعامل معلم الانشاء فى المدرسة الابتدائية تلاميذه كما تفعله انت ، ثم ان الكاف الاستعمارية تستعمل ضروبا من الاستعمال الفاسد، وقد نقلت عن الائمة معاني الكاف، واستعمالها بأمثلة موضحة من كلام العرب ، لا تبقي لبسا ولا ابهاما، فاذا راعوا تلك القواعد ، وتجنبوا الكاف الاستعمارية التي لا معنى لها ، ولا ينطبق عليها كلام الائمة ، فليختاروا ما شاءوا من العبارات ، لان باب التعبير واسع ، وضروب القول كثيرة ، ومن تجنب الخطأ ادرك الصواب . فقولهم مثلا : حضر فلان المؤتمر كمراقب ، فاسد ، لانه من باب تشبيه الشيء بنفسه ، ولا يصح ان تكون الكاف للتعليل ، كما زعم المعترض ، اذ ينبغي ان يقال : ليراقب ، بلام التعليل ، لان استعمال القرآن والمثال الذي حكاه سيبويه كل ذلك يأبى ان نقول : حضرت المؤتمر كمراقب ، ويراد بذلك : لاني مراقب.

14 — قال المعترض : ونعود ايضا الى جدبة قول القائل (يجب علينا ان نسعى لخلق نهضة ثقافية) الخ.. اقول فى رده : الذي منع استعمال الخلق بمعنى الايجاد والانشاء ، وخصه بنفسه سبحانه هو الله . والقرآن اكبر حجة فى اللغة العربية على المؤمن به والكافر به . قال تعالى فى سورة النحل (17 أفمن يخلق كمن لا يخلق، افلا تذكرون) فالذي يخلق هو الله، والذي لا يخلق هو غير الله ، فمن زعم ان غير الله يخلق ، وكان ينتسب الى الاسلام فقد كذب القرآن ، وان كان لا ينتسب الى الاسلام ، فهو جاهل باللغة العربية ، فهما خطتا خسف .

وقال تعالى فى سورة النحل (20 والذين يدعون من دون الله ، لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . اموات غير احياء ، وما يشعرون ايان يبعثون) .

ومن المعلوم ان الالهة التي اتخذوها من دون الله ، منها من يعقل كالملائكة وعيسى وامه ، والصالحين ، ومنها تماثيلهم التي يزعمون ان ارواحهم لا تفارقها ، وهي الاصنام والاوثان . وقوله تعالى اموات غير احياء يصدق على جميع ذلك ، فمن كان مآله الموت فهو ميت ، كما قال تعالى فى سورة الزمر (30 انك ميت وانهم ميتون) .

وقال تعالى فى سورة الفرقان (3 واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) .

وقال تعالى فى سورة فاطر (3 هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض ، لا اله الا هو فانى تؤفكون) .

فهذه الآيات ناطقة بان الخلق لا يسند الى غير الله البتة ، لا فعلا ولا اسما ، معرفا او نكرة . وقال تعالى فى سورة لقمان (11 هذا خلق الله ، فاروني ماذا خلق الذين من دونه، بل الظالمون فضلال مبين) فالخلق لا يسند الى غير الله تعالى الا اذا كان بمعنى التقدير كما فى البيت الذي انشدته من قبل ، وهو قول الشاعر :

ولانت تفري ما خلقت وبعـ
ـض القوم يخلق ثم لا يفري

او بمعنى الكذب كقوله تعالى فى سورة العنكبوت (17 انما تعبدون من دون الله اوثانا ، وتخلقون افكا)

واما قوله تعالى فى سورة آل عمران حكاية عن عيسى عليه السلام (49 اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه فيكون طائرا باذن الله) . كتبت ما تقدم قبل أن اراجع غريب القرآن للراغب ، فوجدت كلامه مطابقا لما قلته ، ولما كنت اريد ان قوله ولله الحمد.

قال الراغب : الخلق : اصله التقدير المستقيم ، ويستعمل فى ابداع الشيء من غير اصل ولا احتذاء ، قال (لخلق السموات والارض) اي ابدعهما ، بدلالة قوله (بديع السموات والارض) ويستعمل فى ايجاد الشيء نحو قوله (خلقكم من نفس واحدة) (وخلق الانسان

من نطفة) (خلق الانسان من سلالة) (ولقد خلقناكم) (خلق الجان من مارج) .

وليس الخلق هو الابداع الا لله ، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره (أفمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون) واما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الاحوال كعيسى حيث قال : (واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني) والخلق لا يستعمل في كافة الناس الا على وجهين : احدهما في معنى التقدير ، كقول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ
ـض القوم يخلق ثم لا يفري

والثاني في الكذب نحو قوله (وتخلقون افكا) اهـ.

اقول : وبنقل هذا الكلام يقال : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ودارت الدائرة على المعترض .

قال المعترض : واحتجاجه بأن الايجاد والانشاء خاص بالله تعالى ، وكذلك الخالق ، وهذا احتجاج غريب ، فالله تعالى المحي ، وعلى قوله لا يجوز أن نقول (احياء مآثر العرب وتراثهم) الخ.

اقول : انا ما احتججت قط بان استعمال الايجاد والانشاء خاص بالله تعالى ، وكذلك الاحياء ، فهذا افتراء علي ، وانما قلت : ان استعمال الخلق ، هو الخاص بالله تعالى ، فليراجع كلامي ، ليعلم أنه يقولني ما لم اقله ، ثم يرد ما نقوله علي ، بل الذي أرتضيه وادعو اليه هو استعمال الايجاد والانشاء ، وترك استعمال الخلق فيما يفعله غير الله تعالى، فيقال، فلان احدث ، او اوجد نهضة ادبية في قومه ، وكذلك فلان أحيى سنة النبي (ص) ، ومآثر السلف الصالح ، وفي الحديث من احيى سنة من سنتي قد اميتت بعدي فله أجر مائة شهيد ، وفي كتب الحديث : احياء الموات ومن احي ارضا مواتا فهي له .

اما قوله (ينبغي ان نلعن البديع الهمداني) فهو في غاية السخافة ، فنحن لسنا بصدد لعن احد ، وانما نحن بصدد اختيار العبارات الصحيحة ونبذ العبارات الفاسدة ، فأين يذهب بك ايها المعترض !

قوله (ولنا مع الدكتور موعد آخر ان شاء الله) تقدم الجواب عنه في آية الانفال (انتستفتحوا فقد جاءكم الفتح) الآية ، ولولا الحياء والابقاء لانشدته :

ان عادت العقرب عدنا لها
وكانت النعل لها حاضره

كتب في مكناس بالمغرب .

الدكتور تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين مستقيم
وقد عدلت في تعديلك عن العدالة

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 4 -

16 ـ الحياة السياسية ، والحياة الثقافية ، والحياة الاقتصادية ، وما أشبه ذلك من العبارات المأخوذة من اللغات الاوربية بعد ترجمتها ترجمة فاسدة قولهم : الحياة السياسية ، والحياة الفكرية ، والحياة الاقتصادية ، والحياة الزوجية ، فيكون للشخص الواحد انواع من الحياة ، والحياة في كلام العرب : واحدة ، وهي نقيض الموت ، كما في لسان العرب والقاموس وغيرهما ، وتستعمل في المجاز على النحو الذي ذكره الراغب في غريب القرآن حيث قال:

الحياة تستعمل على اوجه ، الاول للقوة النامية الموجودة في النبات والحيوان ، ومنه قيل نبات حي قال عز وجل (اعلموا ان الله يحي الارض بعد موتها) وقال تعالى (فأحيينا به بلدة ميتا) (وجعلنا من الماء كل شيء حي) .

الثانية للقوة الحساسة ، وبه سمي الحيوان حيوانا ، قال عز وجل (وما يستوي الاحياء ولا الاموات) وقوله تعالى (الم نجعل الارض كفاتا احياء وامواتا) وقوله تعالى (ان الذي احياها لمحي الموتى انه على كل شيء قدير) فقوله : ان الذي احياها ، اشارة الى القوة النامية . وقوله : لمحي الموتى ، اشارة الى القوة الحساسة .

الثالثة للقوة العاملة العاقلة كقوله تعالى : (اومن كان ميتا فاحييناه) وقول الشاعر :

وقد ناديت لو اسمعت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادي

والرابعة عبارة عن ارتفاع الغم ، وبهذا النظر قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت
انما الميت ميت الاحياء

وعلى هذا قوله عز وجل : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم) أي هم متلذذون لما روي في الاخبار الكثيرة في ارواح الشهداء

والخامسة : الحياة الاخروية الابدية ، وذلك يتوصل اليه بالحياة التي هي العقل والعلم قال الله تعالى (استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) وقوله (ياليتني قدمت لحياتي) يعني بها الحياة الاخروية الدائمة .

والسادسة : الحياة التي يوصف بها الباري ، فانه اذا قيل فيه تعالى : هو حي ، فمعناه : لا يصح عليه الموت ، وليس ذلك الا لله عز وجل .

والحياة باعتبار الدنيا والآخرة ضربان : الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، قال عز وجل (فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا) وقال عز وجل (اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) وقال تعالى (وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) اي الاعراض الدنيوية ، وقال (ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها) وقوله تعالى (ولتجدنهم احرص الناس على حياة) اي حياة الدنيا .

وقوله عز وجل : (واذ قال ابراهيم : رب ارني كيف تحي الموتى) كان يطلب ان يريه الحياة الاخروية

المعراة عن شوائب الآفاق الدنيوية . وقوله عز وجل (ولكم فى القصاص حياة) اي يرتدع بالقصاص من يريد الاقدام على القتل ، فيكون فى ذلك حياة الناس . وقال عز وجل (ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا) اي من نجاها من الهلاك . وعلى هذا يكون قوله مخبرا عن ابراهيم (ربي الذي يحي ويميت ، قال : انا احي واميت) اي اعفو فيكون احياء . ا هـ

فالحياة فى اللغة نقيض الموت قال تعالى فى سورة الملك (2 الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا) قال البيضاوي : قدرهما أو اوجد الحياة وازالها حسبما قدره ، وقدم الموت لقوله (وكنتم امواتا فاحياكم . اهـ

وقال تعالى فى سورة النجم (44 وانه هو امات واحيا) ومقابلة الموت بالحياة فى الكتاب العزيز جاءت فى مواضع كثيرة .

ومن الاستعمال الفاسد قولهم : فلان اعتزل الحياة السياسية . يريدون بذلك ، اعتزل السياسة ، فيقحمون لفظ الحياة تقليدا للغات الاجنبية ، وليس فى اقحامه فائدة ، ولكنه يخدش وجه البلاغة العربية ويمسخها . والحاصل ان الانسان ليس له الا حياة واحدة ، متى زالت مات ، فيجب على الاديب ان ينزه كلامه من ذلك الاستعمال ، ولا يستعمل لفظ الحياة الا فى الموضع المناسب له كما جاء فى كتاب الله ، وفى لسان العرب ، سواء اراد الحقيقة او المجاز .

ايضاح لكلام الراغب

قوله (اومن كان ميتا) قال البيضاوي : مثل به من هداه الله سبحانه وتعالى ، وانقذه من الضلال ، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها فى الاشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل . ا هـ

اقول : شبه الله الضالين الذين لايهتدون الى الحق ، ولا يتمسكون به بالاموات . واهل الهدى والاستقامة بالاحياء . فالمراد بالقوة العاملة العاقلة فى كلام الراغب التي تعمل عملا صالحا ، وتعقل الحق وتميزه من الباطل .

قوله (وقد ناديت) البيت : يروى بعده :

ولو نارا نفخت بها اضاءت
ولكن انت تنفخ فى رماد

شبه الشاعر من يدعى الى النجدة وعمل الخير والاحسان ولا يستجيب لذلك بالميت ، فنفى عنه الحياة . وشبهه فى البيت الثاني بالرماد الذي لم يبق فيه شيء من النار . وشبه من يدعوه الى فعل الخير والاحسان بمن ينفخ فى رماد ، راجيا ان يوقد منه نارا . ومثل ذلك قولهم : فلان يضرب فى حديد بارد ، قال الشاعر يهجو رجلا اسمه سعيد ، ويصفه بالبخل :

هيهات تضرب فى حديد بارد
ان كنت تطمع في نوال سعيد

والصواب ان يقال : الشؤون الاقتصادية ، والشؤون السياسية ، والشؤون المنزلية ، والشؤون الزوجية ، الخ . ويقال : اعتزل التمثيل ، بدلا من قولهم : اعتزل الحياة التمثيلية ، وهجر الرياضة البدنية ، بدلا من قولهم : اعتزل الحياة الرياضية .

17 ـ استعمالهم الامكانيات بمعنى الطاقة والقدرة او الامكان ، وهذا اللفظ الدخيل ترجمة فاسدة للكلمة الاجنبية (Possibilités)

ولا حاجة بهم الى هذا التعبير المستعار الركيك ، فان فنون القول فى لغة الضاد كثيرة طيبة لا ضيق فيها ، فبدل ان يقول الشخص : ليس عندي امكانيات للاقدام على هذا العمل ، يسعه أن يقول : لا استطيعه ، لا طاقة لي به ، لا يمكنني ، لا سبيل اليه ، الى غير ذلك من الكلمات الطيبة العربية الخالصة الاصيلة ، فان هذا المعنى موجود منذ وجد العرب والعجم ، وفي لغتهم عبارات تفي به على احسن وجه ، فما بالنا نترك جواهرنا مهملة ، ونستعير احجار الاجانب ، فمتى نعيد للغتنا شبابها واصالتها وخلوصها ، ان بقينا نتكفف الاعجميين ، ونعرض عن كنوزنا وتراثنا ؟

قال ابن منظور فى اللسان : قال ابو منصور : ويقال : امكنني الامر يمكنني فهو ممكن ، ولا يقال : انا امكنه ، بمعنى استطيعه ، ويقال : لا يمكنك الصعود الى هذا الجبل ، ولا يقال : انت تمكن الصعود اليه . اهـ

اقول : ومن كتاب هذا الزمان من يقول : امكن لي ولا يمكن لي ، متوهما ان الفعل لازم فيعديه باللام ، وهو خطأ .

18 ـ اجاب على

ومن الشائع فى هذا الزمان قولهم : اجاب على سؤاله ، ولا يمكنني الجواب عليه ، والصواب : تعدية الفعل (بعن) فيقال : اجاب عن سؤاله .

قال فى اللسان : والاجابة رجع الكلام ، تقول : اجابه عن سؤاله . ا هـ

وتجيء على بمعنى (عن) قال القحيف :

اذا رضيت علي بنو قشير
لعمر الله اعجبني رضاها

قال ابن هشام في المغني بعد ايراده هذا البيت شاهدا على مجيء (على) بمعنى (عن) : ويحتمل ان رضي ضمن معنى عطف . وقال الكسائي : حمل على نقيضه وهو سخط . ا هـ

وقال العيني والصبان مثل ما قال ابن هشام في تضمين رضي معنى عطف ، اي فلذلك عدي (بعلى) . والشاعر يضطر الى مثل ذلك ، واما الناثر فله مندوحة عن استعمال النادر . وهؤلاء الكتاب الذين يستعملون (على) بعد (اجاب) جاهلون بالنحو ، لا يعرفون انه يتعدى بعن ، وكيفما كان الامر ، فان هذا الاستعمال ليس من الاخطاء الفاحشة في النثر ، اما في الشعر فهو جائز لا يعاب .

19 ـ القيم الدينية والاخلاقية

ومن المعلوم ان القيم هنا جمع قيمة ، ولا معنى لاستعمالها هنا . قال ابن منظور في اللسان : والقيمة واحدة القيم ، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم . ا هـ

واذا قلنا : القيم الدينية او القيم الاخلاقية ، يكون المعنى : الاثمان الدينية ، والاثمان الاخلاقية ، والدين والاخلاق لا تقويم فيهما ولا بيع ولا شراء ، وهذا الاستعمال ايضا مأخوذ من اللغات الاجنبية ، ولا ينبغي استعماله في العربية ، ولا حاجة اليه ، لان استعمال الاخلاق ومكارم الاخلاق ، والتمسك بالدين ، وما اشبه ذلك يغني عنه ، وليس هذا من المخترعات حتى نبحث له عن اسم ونترجم اللفظ الاجنبي ونستعمله .

20 ـ الاسرة

ومن ذلك تعبيرهم عن اهل البيت الواحد (بالاسرة) ، وهو من استعمال جهلة المترجمين ترجموا به لفظ Family الانكليزي واخيه الفرنسي ، وكانوا يترجمون هذا اللفظ من قبل (بعائلة) فعاب ذلك عليهم النقاد ، لان العائلة في اللغة العربية هي المراة الفقيرة ، قال تعالى في سورة الضحى : (ووجدك عائلا فاغنى) اي وجدك فقيرا فاغناك . وقال تعالى في سورة التوبة (28 وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله) اي خفتم فقرا ، فانتقلوا الى ترجمته (باسرة) وهو انتقال من خطأ الى خطأ آخر ، والعبارة الصحيحة هي : بيت او اهل بيت ، قال تعالى في سورة هود (73 رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت) وقال تعالى في سورة الاحزاب (33 انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ، ويطهركم تطهيرا) فاهل البيت في آية هود : ابراهيم وسارة زوجه ومن يكون معهما على سبيل التبعية ونحوها . والمراد باهل البيت في آية الاحزاب النبي (ص) وازواجه واولاده والتابعون كالموالي .

وقال تعالى في سورة الذاريات (36 فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) والمراد بالبيت هنا لوط واهل بيته الا امراته ، فان الله استثناها من الناجين وجعلها من الهالكين . اما معنى الاسرة فدونك ما قاله صاحب اللسان : واسرة الرجل : عشيرته ورهطه الادنون ، لانه يتقوى بهم . ا هـ

وقال تعالى في سورة الدهر (28 نحن خلقناهم وشددنا اسرهم) قال البيضاوي : احكمنا ربط مفاصلهم بالاعصاب . ا هـ فالاسر هو احكام الربط وقوته ، ومن ذلك سميت عشيرة الرجل (اسرة) لانه يتقوى بهم .

وقال الصبان في حاشيته على الاشموني عند قول ابن مالك في التنازع في العمل من الفيته :

واختار عكسا غيرهم ذا اسرة

ما نصه : ضبطه الشيخ خالد بفتح الهمزة ، وفسره الفزي : بالجماعة القوية ، لكن في القاموس: الاسرة بالضم : الدرع الحصينة ، ومن الرجل الرهط الادنون . ا هـ

وقال ابن منظور في اللسان : وفي الحديث : زنى رجل في اسرة من الناس . الاسرة : عشيرة الرجل واهل بيته . ا هـ

وقال في مجمع البحار : وفيه (اي في الحديث) زنى رجل في اسرة من الناس . الاسرة : عشيرة الرجل واهل بيته ، لانه يتقوى بهم . ا هـ والمراد باهل بيته هنا هو المراد بعشيرته الاقربين ، لا زوجته واولاده فقط .

اما قولهم اسرة المدرسة ، يعنون المدير والمدرسين فيها ، واسرة تحرير الصحيفة ، يعنون مؤسسها والمحررين فيها ، ورئيس التحرير فله وجه ، وهو مقصود ابن مالك بقوله المتقدم :

واختار عكسا غيرهم ذا اسره

اي ذا جماعة قوية ، شبه المتعاونون على امر بالاقارب ، فاستعير لهم لفظ الاسرة بجامع التعاون في كل .

21 ـ النشاطات

ومن ذلك استعمالهم النشاطات ، يريدون بها الاعمال ، وهو ايضا ماخوذ من جهلة المترجمين لكلمة Energy الانكليزية ، وقد اولع باستعماله عامة الكتاب حتى الذين لا يعرفون شيئا من اللغات الاجنبية . ومن سوء الحظ ان اكثر الخطباء والكتاب صاروا ياخذون لغتهم من الصحف والمجلات والاذاعة ، لا من الدراسة ، والقرآن وكلام العرب البلغاء ، كما يجب ان يفعلوا ، وكما كان الناس يفعلون في زمان شباب اللغة العربية ، فالى الله المشتكى .

فلفظ الاسرة بمعنى اهل البيت الواحد شاع وذاع حتى صار خطباء المساجد يستعملونه في خطبهم، وهذا ما حملني على كتابة هذه المقالات ، راجيا ان ينتفع بها طالبوا الحق من المتكلمين والكاتبين بلغة القرآن .

قال ابن منظور في اللسان : النشاط ضد الكسل، يكون ذلك في الانسان والدابة ، نشط نشاطا ، فهو نشيط ، ونشطه هو وانشطه ، الاخيرة عن يعقوب الليث : نشط الانسان ينشط نشاطا ، فهو نشيط طيب النفس للعمل ، والنعت ناشط ، وتنشط لامر كذا . وفي حديث عبادة : بايعت رسول الله (ص) على المنشط والمكره . المنشط مفعل من النشاط ، وهو الامر الذي تنشط له وتخف اليه وتؤثر فعله ، وهو مصدر بمعنى النشاط . ا هـ

فقد رايت ان معنى النشاط ليس هو المعنى الذي يقصدونه ، والنشاط مصدر لا يجمع ، اذ لا حاجة الى جمعه ، فانه يدل على القليل والكثير ، كما قال تعالى في سورة الفرقان (14 لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) فلم يقل الله تعالى : لاتدعوا ثبورا واحدا وادعوا ثبورات كثيرة ، لان الثبور مصدر يدل على القليل والكثير ، فاذا اردنا الكثرة وصفناه ولم نجمعه .

قال ابن منظور في اللسان : وفي حديث الدعاء : اعوذ بك من دعوة الثبور ، هو الهلاك ، وقد ثبر يثبر ثبورا . وثبره الله اهلكه اهلاكا لا ينتعش . فمن ذلك يدعو اهل النار : « واثبوراه ، فيقال لهم : « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا،وادعوا ثبورا كثيرا » . قال الفراء : الثبور مصدر ، ولذلك قال ثبورا كثيرا ، لان المصادر لا تجمع . الا ترى انك تقول : قعدت قعودا طويلا ، وضربته ضربا كثيرا . ا هـ

وكذلك يقال في النشاط مثلا : هؤلاء العملة يعملون بنشاط كثير . فلا حاجة الى جمع النشاط ، ولو جمع لم يجمع على نشاطات ، بل على نشط بضمتين ، كقذال وقذل .

22 ـ وصف الجمع بالمفرد

ومن ذلك وصفهم الجمع بالمفرد ، فيقولون رايات بيضاء ، وابل حمراء ، والكتب الصفراء ، والصواب : رايات بيض ، وابل حمر ، وصحائف صفر . قال الله تعالى في سورة فاطر (27 ومن الجبال جدد ، بيض وحمر مختلف الوانها ، وغرابيب سود) . الجدد جمع جدد ، بضم الجيمم وفتح الدال ، وهي الطريق في الجبل . والغرابيب : شديد السواد ، يقال : اسود غربيب ، بكسر الغين والباء ، واحمر قان ، وابيض ناصع ، واخضر حانيء ، واصفر فاقع .

وقال تعالى في سورة المرسلات (33 كانه جمالات صفر) ولم يقل صفراء . وقال ابن عقيل عند قول ابن مالك في الخلاصة :

(فعل لنحو احمر وحمرا)

ما نصه : من امثلة جمع الكثرة : فعل ، وهو مطرد في وصف يكون المذكر منه على افعل ، والمؤنث منه على فعلاء نحو : احمر ، وحمر ، وحمراء ، وحمر .

وقال الخضري في حاشيته : قوله (فعل لنحو) الخ . اي بضم فسكون ، لكن يجب كسر فائه في جمع ما عينه ياء ، كبيض في ابيض وبيضاء

23 ـ الرضوخ

ومن ذلك تعبيرهم عن الاذعان (بالرضوخ) يقولون : هدده فرضخ له ، اي اذعن ، وهو من الاخطاء الفاحشة ، لان معنى رضخ له اعطاه عطاء قليلا .

قال ابن منظور في اللسان : ورضخ له من ماله يرضخ رضخا : اعطاه . ويقال : رضخت له من مالي رضيخة وهو القليل . والرضيخة والرضاخة . العطية . وقيل : الرضخ والرضيخة : العطية المقاربة . وفي الحديث : امرت له برضخ . وفي حديث عمر: امرنا لهم برضخ . الرضخ : العطية القليلة . ا هـ

24 ـ السابع والاخير

هذه ايضا عبارة ماخوذة من اللغات الاجنبية

تقليدا بلا علم ولا هدى ، والصواب : السابع وهو الاخير ، لاننا اذا قلنا : السابع والاخير دل ذلك على اثنين ، لان العطف يقتضي المغايرة .

25 ـ لوحده وبمفرده

ومن ذلك قولهم : ذهب لوحده ، وقاتلهم بمفرده، وذلك من افحش الخطأ واقبحه ، وابعده عن لغة العرب الفصحى ، فالصواب ان يقال : ذهب وحده ، وقاتلهم وحده بفتح الدال منصوبا على الحال . قال ابن مالك في الالفية :

والحال ان عرف لفظا فاعتقد
تنكيره معنى كوحدك اجتهد

قال الاشموني : وكلمته فاه الى في ، وارسلها العراك ، وجاءوا الجماء الغفير ، فوحدك وفاه ، والعراك ، والجماء احوال ، وهي معرفة لفظا ، لكنها مؤولة بنكرة ، والتقدير : اجتهد منفردا ، وكلمته مشافهة ، وارسلها معتركة ، وجاءوا جميعا . وانما التزم تنكيره لئلا يتوهم كونه نعتا ، لان الغالب كونه مشتقا ، وصاحبه معرفة . ا هـ

قول الاشموني في تفسير (فاه الى في) اي مشافهة ، فيه نظر ، لان مشافهة مصدر ، والاولى ان يقدر اسم فاعل ، اي مشافها له .

وقوله (ارسلها معتركة) يعني ارسل الابل معتركة ، يزاحم بعضها بعضا . قال الصبان في حاشيته لو قال : معاركة كما قال ابن الخباز لكان احسن ، لان اسم فاعل العراك معارك لا معترك . ا هـ

اقول : واحسن منهما جميعا ان يقال : معاركا بعضها بعضا ، لاننا اذا قلنا : معاركة ، بكسر الراء ، نسبنا العراك اليها كلها . والعراك لا يقع الا بين فريقين ، ولا يقع من فريق واحد .

وقال الصبان في بيان قوله (الجماء الغفير) اي الجماعة الجماء من الجموم وهو الكثرة . والغفير من الغفر ، وهو الستر ، اي ساترين لكثرتهم وجه الارض . ا هـ

وهذا آخر هذه الحلقة وموعدنا الجزء التالي ان شاء الله .

مكناس : تقي الدين الهلالي

اكباد جائعة

كتبوا الى عمر بن عبد العزيز كي يأمر للبيت بالكسوة المعتادة للكعبة ، كما كان يفعل من كان قبله ، فقال :

« اني رايت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة فانها اولى بذلك من البيت » .

تقويم اللسانين مستقيم

وقد عدلت في تعديلك عن العدالة

للدكتور تقي الدين الهلالي

(5)

كلمة اقدمها بين يدي المقال

لم اقدم على الكتابة فى هذا الموضوع حتى ايقنت ان قراء اللغة العربية وكتابها والمتكلمين بها فى اشد الحاجة اليه ، وانهم يتلقونه بغاية الترحيب كما يتلقى الظمآن العذب الفرات البارد ، وقد صدق ظني فى ذلك ، فجاءتني رسائل عديدة من الاقطار البعيدة والقريبة تصدق ما ظننت .

ولما وصلت الى مدينة النبي (ص) ، ثم الى مكة اجتمعت بوفود بيت الله من جميع اقطار العالم ، وجدت قراء مقالاتي من العلماء والاساتذة والتلاميذ فوق ما كنت اقدر ، ووجدت كثيرا منهم متلهفين الى هذا الموضوع الجديد (تقويم اللسانين) فزادني ذلك نشاطا واغتباطا ، وجعلت قول الحسود والقالي والمتعسف فى الموضع اللائق به من الاهمال والاعراض، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

26 ـ استعمال (حيث) للتعليل

يقال مثلا : لم ينجح فلان فى الامتحان حيث لم يكن مواظبا على حضور الدروس ، والصحيح ان يقال: لانه لم يكن مواظبا الخ .

ومن ذلك (حيثيات الحكم المستعملة فى المحاكم . اذا اراد الحاكم ان يصدر حكمه يعلله بقوله : وحيث ان المدعى عليه ثبتت براءته بشهادة الشهود ، وحيث ان المدعي بالكسر لم يأت ببينة تشهد له ، ثم يستمر على هذا الشكل يعطف (حيث) على مثلها حتى يمل القارىء والسامع .

وصواب ذلك ان يقال : ولما ثبتت براءة المدعى عليه بشهادة العدول ، ولم يأت المدعي بالكسر ببينة تثبت دعواه ، ثم يعطف ما شاء بعد ذلك على هذا النمط ، ثم يقول : حكمنا ببراءته بعد انتهاء تعليل الحكم .

وبيان ذلك ان (حيث) ظرف مكان يقال : اجلس حيث يليق بك ان تجلس ، اي فى الموضع الذي يليق بك ان تجلس فيه .

قال الراغب : (حيث) عبارة عن مكان مبهم يشرح بالجملة التي بعده نحو قوله تعالى : (وحيث ما كنتم) (ومن حيث خرجت) اهـ .

قال البيضاوي فى تفسير قوله تعالى فى سورة البقرة 149 : (ومن حيث خرجت) ومن اي مكان خرجت للسفر (فول وجهك شطر المسجد الحرام) اذا صليت . اهـ

وقوله تعالى : (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) اي موضع كنتم من ارض الله الواسعة توجهوا بوجوهكم نحو البيت فى صلاتكم .

وقال البيضاوي فى قوله تعالى فى سورة الاعراف 192 : (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) اي سنستدنيهم الى الهلاك قليلا قليلا ،

واصل الاستدراج الاستصعاد او الاستنزال درجة بعد درجة (من حيث لا يعلمون) ما نريد بهم ، وذلك ان تتواتر عليهم النعم ، فيظنوا انها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطرا وانهماكا في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب . ا هـ

اقول : يقول الله تعالى : سنقربهم من العذاب ، ونأخذهم به من الجهة التي لا يتوقعونه منها بتكثير النعم عليهم ، وتأخير العذاب عنهم حتى يزدادوا بطرا وطغيانا ويفتروا ، ويظنوا ان الله ما اكثر عليهم تلك النعم الا وهو راض عنهم ، كما قال تعالى في سورة المؤمنين 55 ـ 56 : (ايحسبون ان ما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) .

وقال تعالى في سورة سبا 37 : (وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا ، فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم في الغرفات آمنون) .

يعني ان كثرة الاموال والاولاد عند المرء لا تدل على انه من المقربين عند الله ، لان ذلك قد يكون استدراجا ومكرا ، والذي يدل على رضوان الله هو الايمان والعمل الصالح ، فصاحبه هو الذي يضاعف الله اجر عمله ، ويكون يوم القيامة منعما في الغرفات ، آمنا من عذاب الله .

وتجيء (حيث) مجرورة بالباء فلا تخرج عن سننها ، وهي الدلالة على ظرف المكان ، قال شاعر يحث بني العباس على الفتك ببني امية بعد ان اظفرهم الله عليهم :

انزلوها بحيث انزلها اللـ
ـه بدار الهوان والافلاس

والضمير في انزلوها يعود على امية بمعنى القبيلة، اي انزلوا بني امية بالمكان الذي انزلهم الله به من الذل.

وتجيء ايضا مجرورة بالى كذلك كقول الادباء : اذ سمعوا بهلاك انسان يكرهونه : الى حيث القت رحلها ام قشعم ، وذلك اشارة الى قول زهير بن ابي سلمى في المعلقة :

فشد ولم يفزع بيوتا كثيرة
لدى حيث القت رحلها ام قشعم

فحمل حصين بن ضمضم على خصمه ، ولم يخف بيوتا كثيرة ، اي لم يتعرض لها في الموضع الذي القت فيه رحلها اي نزلت فيه ام قشعم . وهي المنية اي الموت ، اي هجم على خصمه في الموضع الذي حان فيه هلاكه ، فارداه قتيلا . وهنا جرت (حيث) باضافة لدى اليها ، وهي مبنية على الضم في اللغة الفصحى ، وبعض العرب يفتحونها ، وبعضهم يكسرون ثاءها .

ولا تضاف الا الى جملة فعلية نحو قوله تعالى في سورة الانعام 124 : (الله اعلم حيث يجعل رسالاته)، وقوله تعالى في سورة الطلاق 2 ـ 3 : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) اي من الجهة التي لا يظن ان الرزق يأتيه منها .

او الى الجملة الاسمية نحو : اقم حيث المقام طيب ، واظعن حيث الظعن سهل ، وحيث في ذلك مضافة الى الجملة الفعلية او الاسمية ، وقد يحذف خبر المبتدا في الجملة الاسمية نحو : هذا المنزل طيب من حيث الكلأ ، والبعد عن طريق القوافل . اما من حيث الماء فليس بجيد ، وتقدير الخبر فيهما موجود.

وقد تضاف (حيث) الى مفرد شذوذا كقول الشاعر :

اما ترى حيث سهيل طالعا
نجم يضيء كالشهاب لامعا

بجر سهيل .

قال العيني وتبعه الصبان : ترى بصرية ، وطالعا مفعولها ، وحيث ظرف ، ثم قال الصبان : وقيل : مفعولها حيث ، وطالعا حال من سهيل . ا هـ

وهذا الذي حكاه بصيغة التمريض هو الصواب الذي يستحق التصدير ، اي اما ترى مكان سهيل حال كونه طالعا ، وقد قلد الصبان العيني ، وقلده كذلك الخضري في حاشيته على ابن عقيل ، والعيني امام محقق في علوم العربية ، لا في علوم الدين ، ولكنه غير معصوم ، وخطؤه في هذه المسالة ظاهر ، وقيل سهيل مرفوع على الابتداء ، وخبره محذوف تقديره موجود ، فلا شاهد فيه ، على اضافة حيث الى المفرد . وهناك شاهد آخر على اضافتها الى المفرد لا اريد ان اطيل بذكره .

وجزم ابن هشام في المغني ان حيث قد تدل على الزمان ، واحتج على ذلك بقول الشاعر :

حيثما تستقم يقدر لك اللـ
ـه نجاحا في غابر الازمان

اما ائمة اللغة فقد جعلوا استعمالها للزمان خطأ، وخصصوها بالمكان . قال في القاموس : (حيث) كلمة دالة على المكان كحين الزمان ، ويثلث آخره .اهـ وقد تقدم ذلك مبسوطا .

27 ـ قولهم علماني وعقلاني خطأ والصواب : علمي وعقلي

وجهال هذا العصر يطلقون العلماني على بني على العلم من العقائد والافكار المضادة للدين ، فيقولون : دولة علمانية ، اي لا تنتسب الى اي دين ، بل تعتمد في شؤونها على العلم ، وهي جديرة بان تسمى جهلية ، لان الدين هو المبني على العلم اليقيني ، ولسنا بصدد انتقاد هذا اللفظ من حيث المعنى ، فانه ساقط ، وقد تبين في مقالات دواء الشاكين وقامع المشككين أن السواد الاعظم من العقلاء الاحرار الذين يستطيعون أن يعبروا عما يعتقدون بلا خوف يؤمنون بالله وبالدين .

اما الشعوب المغلوبة على امرها فلا يحكم عليها بشيء حتى تعود لها حريتها في اعتقادها ، وانما ننتقد هذه العبارة ونبين براءة اللغة العربية منها ، فالنسبة الى العلم علمي .

قال ابن هشام في كتابه (اوضح المسالك الى الفية ابن مالك) ما نصه : باب النسب . اذا اردت النسب الى شيء فلا بد لك من عملين في آخره : احدهما أن تزيد عليه ياء مشددة تصير حرف اعرابه ، والثاني ان تكسره فتقول في النسب الى دمشق : دمشقي . ا هـ وهكذا فعلنا في النسب الى العلم ، فقد كسرنا آخر الكلمة ليناسب الياء وزدناه ياء مشدودة. فزيادة الالف والنون في قولهم : علماني لاوجه لها ، وانما جاءت من الجهل بقاعدة النسب ولا يمكنهم ان يقولوا : ان هذه نسبة على غير قياس ، لان ما جاء من ذلك يقتصر فيه على السماع ولا يقاس عليه . قال ابن مالك في آخر النسب من الفيته :

وغير ما اسلفته مقررا
على الذي ينقل منه اقتصرا

قال الاشموني في شرحه لالفية ابن مالك : يعني أن ما جاء من النسب مخالفا لما تقدم من الضوابط شاذ ، يحفظ ولا يقاس عليه ، وبعضه اشذ من بعض . فمن ذلك قولهم في النسب الى البصرة : بصري ـ بكسر الباء ـ والى الدهر : دهري ـ بضم الدال ـ والى مرو : مروزي ، والى الري : رازي ، والى خراسان : خرسي وخرسي ، والى جلولاء وحروراء ـ موضعين ـ جلولي وحروري ، والى البحرين : بحراني ، والى امية : اموي ـ بفتح الهمزة ـ ، والى السهل : سهلي ـ بضم السين ـ والى بني الحبلى ـ وهم حي من الانصار ، منهم عبد الله بن ابي سلول المنافق ، وسمي ابو هم الحبلى لعظم بطنه ـ حبلى ـ بضم الحاء وفتح الباء ـ ومنه قولهم : رقباني ، وشعراني ، وجماني ، ولحياني ، للعظيم الرقبة والشعر والجمة واللحية . وقولهم في النسب الى الشام واليمن وتهامة : رجل شام ويمان وتهام ، وكلها مفتوحة الاول . ا هـ

قال في لسان العرب : والربي والرباني : الحبر ، ورب العلم ، وقيل الرباني الذي يعبد الرب ، زيدت الالف والنون للمبالغة في النسب . وقال سيبويه : زادوا الفا ونونا في الرباني اذا ارادوا تخصيصا بعلم الرب دون غيره ، كان معناه : صاحب علم بالرب دون غيره من العلوم .

وهو كما يقال : رجل شعراني ولحياني ورقباني، اذا خص بكثرة الشعر ، وطول اللحية ، وغلظ الرقبة، فاذا نسبوا الى الشعر قالوا : شعري ، والى الرقبة قالوا : رقبي ، والى اللحية : لحي .

والربي منسوب الى الرب ، والرباني : الموصوف بعلم الرب . ابن الاعرابي : الرباني العالم المعلم الذي يغذو الناس بصغار العلم قبل كباره . وقال محمد بن علي بن الحنفية لما مات عبد الله بن عباس : اليوم مات رباني هذه الامة . وروي عن علي انه قال : الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق .

قال ابن الاثير : هو منسوب الى الرب بزيادة الالف والنون للمبالغة ، قال : وقيل : هو من الرب ، بمعنى التربية ، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها . والرباني : العالم الراسخ في العلم والدين، او الذي يطلب بعلمه وجه الله . وقيل : العالم : العامل المعلم . وقيل : الرباني : العالي الدرجة في العلم .

قال ابو عبيد : سمعت رجلا عالما بالكتب يقول : الربانيون : العلماء بالحلال والحرام ، والامر والنهي . قال : والاحبار : اهل المعرفة بأنباء الامم وبما كان ويكون . قال ابو عبيد : واحسب الكلمة ليست بعربية، انما هي عبرانية او سريانية ، وذلك ان ابا عبيدة زعم ان العرب لا تعرف الربانيين ، قال ابو عبيد ، وانما عرفها الفقهاء ، واهل العلم . ا هـ

اقول لله در ابي عبيد وابي عبيدة فقد اصابا شاكلة الصواب . قال كروسمن Grossmann في مجمعه العبراني الانكليزي في تفسير الرباني ما معناه: هو العالم المتقي ، لكن كل ما جاء في القرءان فهو عربي

سواء اكان عربيا غير مشترك ، اي خاصا باللغة العربية ، ام كان لفظا مشتركا بين العربية واخواتها الساميات ، ام كان لفظا غير عربي في الاصل ، ولكن العرب تكلمت به فصار عربيا بالاستعمال ككلمتي جبريل وميكائيل ، فكل ما بين دفتي المصحف فهو عربي ، الا ان عامة العرب لا تعرف الالفاظ العلمية ، وانما يعرفها علماؤها كورقة بن نوفل ، وامية بن ابي الصلت .

ومن ذلك تعلم ان قولهم : علماني هو امر عدواني على اللغة العربية ، وما اشبهه من السخافات كالعقلاني والشخصاني فهو مثله ، فاين المجامع العلمية في بغداد ودمشق والقاهرة ؟ لماذا لا تدب عن اللغة العربية ، وتسعى في تطهيرها ، واخراج القذى من طرفها ، وترويق شرابها ، ليكون عذبا سائغا للشاربين .

28 ـ كم هو جميل وكم انا مسرور وما اشبه ذلك

وهذا من التراكيب الاعجمية الخالصة ، فان الذي تستعمله العرب في هذا المعنى هو : ما اجمله ، واجمل به ، وهما صيغتا التعجب ، ولا مكان لاستعمال (كم) هنا ، سواء اكانت خبرية ام استفهامية . ويحسن هنا ان اتكلم باختصار في الاستعمال الصحيح (لكم) ، وانما اترك الاطناب ، لانه يستلزم ذكر اختلاف النحويين ، وذلك يشوش على كثير من القراء ، ويعسر عليهم الاستفادة . واسهل العبارات في ذلك واجملها عبارة ابي محمد القاسم بن علي الحريري رحمه الله في الملحة :

باب كم الخبرية :

واجرر بكم ما كنت عنه مخبرا
معظما لقدره مكثرا
تقول كم مال افادته يدي
وكم اماء ملكت واعبد

قال الحريري في الشرح : اعلم ان (كم) اسم موضوع للعدد المبهم جنسا ومقدارا ، ولها موضعان : الاستفهام والخبر المقترن بالتكثير . ولما كان العدد نوعين : احدهما مجرور ، والاخر منصوب ، شبه كل واحد من موضعيها باحد من نوعي العدد ، فنصبوا ما بعدها على التمييز في الاستفهام ، على ما نبينه في شرح نوع التمييز ، وجروا ما بعدها بالاضافة في الاخبار .

ويجوز ان يقع الاسم الذي بعد (كم) الخبرية واحدا وجمعا ، كقولك : كم عبد ملكت ، وكم عبيد ملكت ؟ كما ان العدد المجرور قد يكون واحدا في مثل قولك : مائة ثوب ، ويكون جمعا في مثل قولك : ثلاثة اثواب ، الا ان من شرط جرها الاسم ان يكون الاسم يليها ، فان فصل بينهما فاصل انتصب على التمييز كما ينتصب في الاستفهام ، فتقول في الخبر : كم لي عبدا ، كما تقول في الاستخبار : كم عبدا لك ؟

وقال في المنصوبات : باب كم الاستفهامية :

وكم اذا جئت بها مستفهما
فانصب وقل كم كوكبا تحوي السما

قد ذكرنا في شرح باب الاضافة ان كم الخبرية يجر ما بعدها ، وكم الاستفهامية ينصب ما بعدها على التمييز ، تشبيها لها بالعدد المنصوب على التمييز ، ولهذا جاء مفسرها واحدا ، ولم يجيء جمعا ، كما ان المنصوب بعد العدد الذي هو احد عشر الى تسعة وتسعين لا يكون الا واحدا ، وكم الاستفهامية قد تقع موقع المبتدا في مثل قولك : كم عبدا لك ؟ فكم مبتدا ، ولك الخبر ، ونصبت عبدا على التمييز . وقد تقع موقع المفعول به في مثل قولك : كم رجلا رايت ؟ ، وتقع موقع الجار والمجرور تارة بحرف الجر في مثل قولك : بكم درهما بعت ؟ ، وتارة بالاضافة في مثل قولك : ابن كم سنة انت ؟ . اه

وقد راجعت الترجمة الانكليزية لقوله تعالى في سورة البقرة 175 : (فما اصبرهم على النار) وترجمة قوله تعالى في سورة مريم 38 : (اسمع بهم وابصر يوم ياتوننا) ، وترجمة قوله تعالى في سورة الكهف 26 : (ابصر به واسمع ما لهم من دونه من ولي) وهذه صيغ تعجب ، وهي من الله تعالى للتعجيب ، فوجدت المترجم ترجمها كلها بادوات الاستفهام ، اذ لا يوجد في الانكليزية صيغة تعجب ، ومن هنا جاء معظم البلاء ، فان لغة المستعمر الغالب استعمرت اللغة العربية ، كما استعمرت اهلها ، ففيرت تراكيبها ، وشوهت محاسنها ، وتركتها جسدا بلا روح ، فالمفردات عربية ، والتراكيب اعجمية .

29 ـ تعبيرهم بالتمني عن الدعاء وارادة الخير

لم يزل المسلمون ، والعرب الجاهليون قبلهم يدعون الله بالخير لمن يحبون ، ويدعون بالشر على من يبغضون الى زمان الدولة العثمانية ، فان الكلمة التي كانت تكتب قبل التوقيع في آخر الرسالة (داعيكم) يعنون الداعي لكم ، ولما جاء الاستعمار ، وتغلبت لغاته ترجموا اللفظ الانكليزي (I wish you)

بقولهم : اتمنى لكم ، وهي ترجمة فاسدة ، لان الفعل الانكليزي المذكور يعبر عن الارادة والرغبة الشديدة .

اما التمني فهو طلب المستحيل او ما فيه عسر ، والاكثر استعماله في طلب المستحيل ، قاله الاشموني. قالوا : ولا يستعمل التمني فيما هو واجب الوقوع . فمثال المستحيل قول الشيخ :

الا ليت الشباب يعود يوما
فاخبره بما فعل المشيب

وقوله تعالى في سورة النساء 73 : (ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : يا ليتني كنت معهم فافوز فوزا عظيما) ، وقول الشاعر :

ليت وهل ينفع شيئا ليت
ليت شبابا بوع فاشتريت

قال الاشموني : واما قوله تعالى : (فتمنوا الموت) مع انه واجب ، فالمراد : تمنيه قبل وقته . اه يعني قبل الاجل المحدود ، وهو مستحيل .

وقال تعالى في سورة البقرة 26 : (ولتجدنهم احرص الناس على حياة ، ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة) يعني ولتجدنهم ، اي اليهود ـ مع زعمهم انهم ابناء الله واحباؤه ـ احرص الناس على طول حياة ، واحرص من الذين اشركوا ، وهم المجوس ، فان احدهم يهنيء صاحبه بقوله : (هزارنو روز ومهرجان) يعني تعيش الف سنة ، وتشهد الف عيد واحتفال . ولو هنا للتمني قاله البيضاوي ، وهذا ايضا من المستحيل .

قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى في سورة النساء 32 : (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) من الامور الدنيوية ، كالجاه والمال ، فلعل عدمه خير . والمقتضي للمنع كونه ذريعة الى التحاسد والتعادي ، معربة عن عدم الرضا بما قسم الله له ، وانه تشبه لحصول الشيء له من غير طلب،وهو مذموم، لان تمني ما لم يقدر له معارضة لحكمة القدر ، وتمني ما قدر له بكسب بطالة وتضييع حظ ، وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال . اه

وروى احمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن اوس ان النبي (ص) قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الاماني .

وقال الشاعر :

تمنوا لي الموت الذي يشعب الفتى
وكل امريء والموت بالنقيان

وقال آخر :

تمنى ابنتاي ان يعيش ابوهما
وهل انا الا من ربيعة او مضر
فان حان يوما ان يموت ابوكما
فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا خليله
اضاع ولا خان الصديق ولا غدر
الى الحول ثم اسم السلام عليكما
ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وكانت المرأة في الجاهلية تلتزم الحداد والبكاء على الميت سنة كاملة . وهذا كله في استعمال التمني بمعنى طلب المستحيل . واما استعماله بمعنى طلب الامر العسير فكقول الشاعر :

ليت هندا انجزتنا ما تعد
وشفت انفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد

قال في لسان العرب : التمني : حديث النفس بما يكون وما لا يكون ، والتمني : السؤال للرب في الحوائج. وفي الحديث : اذا تمنى احدكم فليستكثر ، فانما يسأل ربه ، وفي رواية ، فليكثر .

قال ابن الاثير : التمني تشهي حصول الامر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . والمعنى اذا سأل الله حوائجه وفضله فليكثر ، فان فضل الله كثير ، وخزائنه واسعة . اه

ويجمع بين الحديث المشار اليه ـ على فرض ثبوته ـ وبين الحديث المتقدم ، على ان التمني الذي في هذا الحديث هو سؤال الله ، مع محاسبة النفس والعمل الصالح ، فيرجع الى الدعاء وهو المطلوب . فالصواب ان يقال مثلا : ارجو ان تكونوا بخير وعافية ، وارجو لكم سفرا سعيدا .

ويقال للمريض : ارجو لك شفاء عاجلا ، او اسأل الله لك .

مكناس : محمد تقي الدين الهلالي

تقويم اللسانين مستقيم

للدكتور تقي الدين الهلالي

(6)

30 ــ قولهم : تنبأ بكذا وكذا

يريدون انه علم بصدق الفراسة وقوة الحدس ما سيكون فى المستقبل كما قال الشاعر :

الالمعي الذي يظن بك الظـــن
كأن قد رأى وقـد سمعـــا

وفى الخبر : اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله ، رواه البخاري فى التاريخ والترمذي عن ابي سعيد . وبعضهم يقول : تكهن بكذا وكذا ، وهذا شيء لا يمكن التكهن به ، وسنرى معنى تنبأ الحقيقي .

قال فى اللسان : قال سيبويه : ليس احد من العرب الا ويقول : تنبأ مسيلمة ، بالهمز ، غير انهم تركوا الهمز فى النبي كما تركوه فى الذرية والبريـة والخابية . ثم قال : ويقال :تنبى الكذاب اذا ادعى النبوة ، وتنبى كما تنبى مسيلمة الكذاب وغيره من الدجالين المتنبين . ثم قال : وتنبأ الرجل : ادعى النبوة . اهـ .

وقال شاعر اندلسي فى ابي الطيب احمد بن الحسين المتنبي يخاطب احد امراء الاندلس حين رآه ينشد شعر المتنبي :

تنبأ عجبا بالقريض ولو درى
بانك تروي شعره لتالها

وقد عرفت أن معنى (تنبأ) ادعى النبوة ، وهي الانباء عن الله تعالى . وقصص المتنبئين مذكورة فى العقد الفريد وغيره من كتب الادب ، والمتنبؤون هم الذين ادعوا النبوة . واستعمال تنبأ بمعنى أخبر بشيء يقع فى المستقبل استعمال استعماري ، من استعباد اللغات الاوربية للغة العربية ، فان جهال المترجمين يترجمون الفعل الانكليزي (Propfesy) بقولهم : تنبأ وانبأ ، ويترجمون (Prophecy) بالنبوة يريدون بذلك الاخبار بالشيء قبل وقوعه ، والصواب ان يقال: توقع وتفرس ، وحدس انه يقع كذا وكذا .

وقال فى معجم اوكسفورد فى معنى (بروفيساي) Prophesy يتكلم كنبي . وقال فى معنى (بروفيت Prophet) هو الموحى اليه المخبر عن الله ، فظهر لك ان الاوربيين يستعملون (تنبأ) بمعنى يتكلم كما يتكلم النبي ، والنبي كثيرا ما يخبر بالمغيبات ، فهذا الاستعمال فى لغتهم سائغ . وقد توهم المترجمون أن كل ما ساغ فى لغتهم يسوغ فى لغتنا ، خصوصا ولغتهم لغة القوى القاهر ، ولغتنا لغة الضعيف المغلوب على أمره.

ومعنى (بروفيت) فى اللغة الانكليزية لايختلف عن معناه فى اللغة العربية ، فهو الموحى اليه المخبر عن الله تعالى ، وحق لغتنا علينا ان ننظفها من كل استعمال دخيل ، محافظين على جمالها ونضارتها وبهجتها . ويقال فى الكلام الفصيح : صدق حدسه ، وتحقق ظنه ، والمخطئون يقولون : صدقت نبوته .

31 ــ ينبغي عليه

ومن الاخطاء الشائعة فى هذا الزمان فى الاذاعات والصحف قولهم : ينبغي عليه ان يفعل كذا وكذا ،

فبعدون ينبغي بعلى ، وهذا دليل اهمال اللغة ، وطرح العناية بها جانبا ، وذلك شأن الامم المخذولة المنحطة، السائرة الى الاضمحلال . وقد راينا اسلافنا كيف اعتنوا بلغة القرآن ، وخدموها احسن خدمة ، فضبطوا مخارج حروفها وصفاتها ، وتجويد النطق بها ، وحققوا معاني كلماتها ، وتركيب جملها ، وجودة اسلوبها وبلاغتها ، وتركوها لنا في غاية الكمال والجمال ، فلم تكن خير خلف لخير سلف .

ومن المعلوم ان القرآن هو اول كتاب ينطق بلغة العرب الخالصة ، ولا يستطيع احد معرفة اللغة العربية وفصاحتها وبلاغتها ، واسرارها الا بدراسة القرآن ، واتخاذه اماما ومنارا يهتدى به في علومها ، هذا بالنسبة الى غير المسلمين الذين لا يهمهم من القرآن الا ما فيه من فصاحة وبلاغة ، وانه حجة في اللغة العربية، فكيف بالمسلمين الذين يجب عليهم — ان كانوا مسلمين حقا — ان يتخذوا القرآن اماما وسراجا منيرا، يتبعونه ويهتدون به في دينهم ، يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويتخذونه حكما ، فيه شريعتهم ، ومنهاج اخلاقهم ، وهدايتهم ، وشفاء صدورهم وروح ارواحهم كما قال تعالى في سورة الكهف (1 — 3 الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر باسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا. ماكثين فيه ابدا .)

قال ابن كثير : قد تقدم في اول التفسير انه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الامور وخواتمها ، فانه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الاولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على انزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فانه اعظم نعمة انعمها على اهل الارض ، اذ اخرجهم به من الظلمات الى النور ، حيث جعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ، ولا زيغ ، بل يهدي الى صراط مستقيم ، واضحا بينا جليا ، نذيرا للكافرين ، بشيرا للمؤمنين .

ولهذا قال (ولم يجعل له عوجا) اي لم يجعل فيه اعوجاجا ، ولا زيغا ولا ميلا ، بل جعله معتدلا مستقيما ، ولهذا قال (قيما) اي مستقيما (لينذر باسا شديدا من لدنه) اي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ، ينذر باسا شديدا ، عقوبة عاجلة في الدنيا ، وآجلة في الاخرى (من لدنه) اي من عند الله الذي لا يعذب عذابه احد ، ولا يوثق وثاقه احد (ويبشر المؤمنين) اي بهذا القرآن الذين صدقوا ايمانهم بالعمل الصالح (ان لهم اجرا حسنا) اي مثوبة عند الله جميلة (ماكثين فيه) في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيه ابدا دائما ، لا زوال له ولا انقضاء . اهـ .

قوله : (وهو الجنة) الذي اراه ان الاجر الحسن الذي يمكث فيه المؤمن ابدا لا يختص بنعيم الجنة ، بل ينتظم سعادة الدنيا والآخرة ، لان الله وعد بذلك في غير ما آية من كتابه العزيز لقوله تعالى في سورة النحل (97 من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وحكمة الله تعالى وعدله يقتضيان ثواب الدارين لكل امة صالحة ، وعقاب الدارين لكل امة فاسقة ، وادلة هذا في القرآن كثيرة .

فسبب ما يقاسيه المسلمون في هذا الزمان من الشقاء هو اهمال القرآن ، وجعله وراء ظهورهم . والخطأ الذي نحن الآن بصدد اصلاحه لا يقع ويشيع الا في امة اهملت القرآن ، لان هذا الفعل تكرر استعماله في القرآن ، فجاء في ستة مواضع احدها قوله تعالى في سورة الفرقان (17 — 18 ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أانتم اضللتم عبادي هؤلاء ام هم ضلوا السبيل . قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) .

معنى هاتين الآيتين ان الله تعالى يسأل المشركين يوم القيامة الذين كانوا يعبدون الملائكة والانبياء والصالحين ، كعيسى وامه ، وسائر من عبد من الصالحين ، فيقول لهم : أانتم امرتم هؤلاء ان يعبدوكم ، فيتبرؤن منهم منزهين الله تعالى عن الشريك قائلين : سبحانك ، ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء ، اي لا يليق بنا ان نتخذ المشركين اولياء ، او نرضى بعملهم ، ولكن متعتهم وآباءهم بالنعم ، ولم تعجل لهم العذاب ، فتركوا كتابك ، واتبعوا اهواءهم ، وكانوا في علمك هالكين ، فحق عليهم العذاب .

ففعل (ينبغي) لا ينبغي ان يتعدى بعلى ، وانما ينبغي ان يتعدى باللام .

32 — منع انباء وآراء وما اشبههما من الصرف

كل من يستمع الى الاذاعات يعلم ان بعض المذيعين يمنعون صرف كل جمع من جموع التكسير جاء على افعال ، كانباء وآراء ، واحزاب ، والذي ورطهم

فى ذلك انهم راوا (اشياء) جمع شيء ممنوعة من الصرف فقاسوا عليها ما يشابهها فى اللفظ لجهلهم . وقد اتفق النحاة على منع صرف (أشياء) ، واختلفوا فى تعليله اختلافا كثيرا ، لو ذكرته هنا لشوش على كثير من القراء ، وايأسهم من فهم المقصود ، فأقتصر على ذكر القول الراجح ، وهو قول الخليل وسيبويه .

قال صاحب اللسان : واشياء : لفعاء عند الخليل وسيبويه . اهـ . وبيان ذلك أن لام الكلمة تقدمت على فائها وعينها فصارت (لفع) اتصلت بها الف التانيث الممدودة ، فصارت (لفعاء) وهو وزن أشياء ، باعتبار الهمزة الاولى آخر الكلمة فى الاصل تقدم على أولها وثانيها ، فلم يبق الا المد والهمزة ، وذلك ما يسمى بالف التانيث الممدودة كما فى اصدقاء واغنياء وغيرهما من الجموع، وكما فى خضراء وحمراء وصحراء وغيرهن من الاسماء المفردة .

والذي حملهم على هذا التاويل انها جاءت ممنوعة من الصرف فى القرآن ، قال تعالى فى سورة المائدة (101 يا ايها الذين آمنوا لا تسالوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم)

وقال ابن حمدون على الازهري : اشياء ، جمع شيء ، واصله : شياء ، فكرهوا اجتماع همزتين بينهما حاجز غير حصين ، وهو الالف فقدموا الهمزة الاولى لام الكلمة على الفاء والعين ، فصار اشياء ، فهو ممنوع من الصرف لالف التانيث الممدودة . اهـ .

اقول : علة منعه من الصرف غير معلومة يقينا ، وتعليلات النحويين حدس وتخيل قل ما يثبت امام النقد، والمقصود بها ترسيخ القواعد فى ذهن الطالب . أما انباء وآراء وما اشبههما فلا معنى لمنعها من الصرف ، وقد اصبح الانشاء عند المتكلمين باللغة العربية لا يستفاد من المدرسة وقراءة كلام البلغاء ، وحفظ اشعارهم ، وانما يؤخذ من الاذاعات والصحف . وذلك دليل على ان علم العرب اليوم بلغتهم ضحل ، وذلك دليل على التخلف ، وهم يرون الشعوب المتقدمة كبريطانيا وجرمانية وفرنسا تبذل الجهود والاموال فى رفع مستوى لغاتها ونشرها فى الدنيا كلها ، فاين التقدم الذي يتبجح به بعضهم ؟ .

33 ــ التعبير عن افتتاح المدرسة ونحوها بالتدشين

يقولون : دشن المدرسة ، او المصرف ، يعنون افتتحها باحتفال ، وهذا الفعل لم اجده فى شيء من معاجم اللغة التي عندي الا فى المنجد ، ولا عبرة به ، لانه يخلط الدخيل بالاصيل ، وفى القاموس دشن : اعطى ، وتدشن اخذ ، وداشان : بلد ، والداشن معرب الدشن ، يعنون به الثوب الجديد لم يلبس ، والدار الجديدة لم تسكن . اهـ .

وفى اللسان : داشن معرب من الدشن ، وهوكلام عراقي ، وليس من كلام اهل البادية ، كأنهم يعنون به الثوب الجديد الذي لم يلبس ، او الدار الجديدة التي لم تسكن ولا استعملت . اهـ .

وقول صاحب اللسان : كلام عراقي ، وليس من كلام أهل البادية ، يؤيده ما قراته فى معجم لعالم عراقي موصلي نسيت اسمه الآن ، ضمنه الكلمات السريانية التي دخلت فى اللغة العراقية ، فذكر منها (دشن) الدار الجديدة ، اي سكنها لاول مرة . ومن سوء الحظ انه ليس عندي فى هذا الوقت معجم سرياني ، ولو كان عندي ما قدرت ان استفيد منه لضعف بصري ، وعدم وجود من يعرف اللغة السريانية هنا .

وكيفما كان الامر فاستعمال الفعل (دشن) وما يشاركه فى الاشتقاق بمعنى افتتاح المعرض او المدرسة ليس من كلام العرب، ولا حاجة اليه، والذوق السليم يكرهه .

34 ــ جمع النية على نوايا

ومما يحزن ويسوء كل من له غيرة على لغة القرآن ان اكثر الخطباء والكتاب يجمعون (النية) على (نوايا) وذلك دليل على افلاسهم وجهلهم بقواعد اللغة العربية ، لان النية فعلة بكسر فسكون ــ وعينها واو بدليل نوى ينوي ، فأصلها (نوية) حكمت عليها القاعدة الصرفية الشهيرة بقلب الواو ياء وادغامها فى مثلها .

والقاعدة هي قولهم : اجتمعت الياء والواو ، وسبقت احداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء وادغمت فى الياء ، وقد شبه علماء الصرف هذين الحرفين عند اجتماعهما وسبق احدهما بالسكون بالحجر والصحفة من الخزف ، او الصيني والحجر ، فالصحفة هي الواو، والحجر هو الياء ، فمتى وقعت الصحفة على الحجر ، وهي الواو الساكنة انكسرت الصحفة ، كما فى نية ، ومتى وقع الحجر على الصحفة ، اي سبقت الياء الواو ، وهى ساكنة انكسرت الصحفة، وهى الواو ، فالانكسار خاص بالواو ، سواء اتقدمت أم تأخرت .

ومثال تقدم الياء على الواو (سيد) فان أصله (سيود) بدليل الفعل : يسود ، حكمت عليه القاعدة المذكورة بابدال الواو ياء وادغام الياء فيها . وفعلة بكسر فسكون ، كحكمة ، وقربة ، وهي السقاء ، انما تجمع جمع تصحيح على فعلات كما فى الحديث المتفق عليه (انما الاعمال بالنيات) وتجمع جمع تكسير على فعل — بكسر ففتح — كحكمة وحكم ، وقربة وقرب ، وشيمة وشيم ، وذلك كثير ، ولا تجمع البتة على فعائل ، لانها لفظ ثلاثي ، والذي يجمع على فعائل هي الكلمات الرباعية ، كبرية وبرايا ، وضحية وضحايا ، وفضيلة وفضائل .

وقد جمعت النية على (ني) بكسر النون وتشديد الياء ، كسدرة وسدر ، وهو نادر ، قال النابغة الجعدي :

انك انت المحزون فى اثر الـــــ
ـــحي فـــان تنـــو نيهـم تقـــم

قال صاحب اللسان : قيل فى تفسيره : ني جمع نية ، وهذا نادر . قال ابن الاعرابي : قلت للمفضل : ما تقول فى هذا البيت ؟ قال : فيه معنيان : احدهما يقول : قد نووا فراقك ، فان تنو كما نووا تقم فلا تطلبهم . والثاني قد نووا السفر ، فان تنو كما نووا تقم صدور الابل فى طلبهم انتهى .

اقول : والمعنى الاول هو الظاهر ، وهـــذا البيت من بحر المنسرح .

35 — هذا العمل له ما يبرره

ومن اخطائهم قولهم : لهذا العمل ما يبـــرره ، وكأنهم يريدون بالتبرير ان يجعل من البر وهوالاحسان. وقد بحثت فلم اجد فى لسان العرب، وهو اكبر معجم عند العرب اليوم ، برر على وزن نعل ، كعلم ، وانما وجدت بر وابر ، وهذا من اخطاء المترجمين للفظ الانكليزي Jastify والصواب ان يقال : لهذا العمل ما يسوغه، اي يجعله سائغا ، فلا يعاقب فاعله ولا يلام .

36 — قولهم : يعشق الصحافة ويعشق العلم

قال فى القاموس : العشق والمعشق كمقعد ، عجب المحب بمحبوبه ، او افراط الحب ، ويكون فى عفاف وفى دعارة ، او عمى الحس عن ادراك عيوبه ، او مرض وسواسي يجلبه الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور . اهـ .

قال الحافظ ابن الجوزي فى كتابه تلبيس ابليس فى اثناء انتقاده على بعض الصوفية استعمالهم لفظ العشق فى حب الله تعالى قال : لا يعشق الا ما ينكح . وكلام صاحب القاموس يؤيده ، فان قوله : يكون فى عفاف وفى دعارة ، يدل على ان العشق لا يستعمـــل استعمالا صحيحا الا فى حب يتعلق بمن تمكن مباشرته، والشخص الذي تمكن مباشرته ، وهو المعشـــوق ، يكون ممتنع الوصول ، فيزيد ذلك الامتناع فى اذكاء نار العشق فى قلب العاشق ، فان كان تقيا عفيفا صبـــر وامتنع عن طلب الوصال ، ايثارا لما يبقى على مـــا يفنى ، او تجنبا للعار ، وان كان غير عفيف اندفع فى طلب الوصال بدون مبالاة ، وهذا هو الذي عبر عنه اللغويون بالدعارة . وكلتا الحالين لا تتفق الا مـــع المعشوق الذي تمكن مباشرته .

اما الصحافة والعلم والمعرفة والرياضة ومـــا اشبه ذلك ، فالصواب ان يعبر فيها بالحب ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى ، وحب رسوله والمؤمنين ، لا ينبغي ان يعبر عنه بالعشق . ويدل على ذلك ايضا قول صاحب القاموس (او مرض وسواسي يجلبه الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور) فان من احب الله ورسوله والعلم واهله لا يجلب لنفسه مرضا وسواسيا ابدا ، بل يزداد عقله قوة وصحة .

وكذلك القول بأن العشق عمى الحس عن ادراك عيوب المعشوق ، لا يتناسب الا مع من تمكن مباشرته. ويروى حديث فى العشق ذكره داود الانطاكي فى كتابه (تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق) ص 6 هذا نصـــه :

عن ابن عباس عن النبي (ص) قال : من عشق فعف ، فمات دخل الجنة . زاد الخطيب عنه : فظفر ، ثم ابدل قوله : (دخل الجنة) بقوله (مات شهيدا) ، وفى اخرى (فكتم) . والحديث بسائر ما ذكر صححـــه مغلطاي ، واعله البيهقي والجرجاني والحاكم فى التاريخ بضعف سويد وتفرده به . ورواه ابن الجوزي مرفوعا وابو محمد بن الحسين موقوفا ، واخرج الخطيب عن عائشة رفعه ايضا .

وحاصل الامر اما صحته او حسنه . والجواب عن تفرد سويد المنع بوروده عن غيره وحكايته تحديثا وكونه قبل عماه ، فلا تدليس . اهـ .

والعجب من هذا الرجل الذي قضى عمره في علم الطب والفلسفة كيف تكلم على هذا الحديث كأنه من علماء الحديث ، ولا غرابة في ذلك ، فان المسلمين في زمان عزهم وارتقائهم كانت لهم ثقافة جامعة عالية لا تشبهها اي ثقافة من ثقافات العصر الحاضر . واذا اردت ان تزداد علما بذلك فعليك بمطالعة كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء ، لابن ابي اصيبعة ، فانك ترى اولئك الاطباء الذين ترجم لهم متبحرين متفننين في علوم كثيرة ، اذا رايت اطلاعهم في كل علم منها تقول: انهم لا يحسنون غيره ، وهذه مزية خاصة بعلماء الاسلام .

اما المثقفون في هذا العصر ، فاغلبهم لا يحسن من العلوم الا ما اختص به ، ومن عجائب ما رايت في ذلك اني كنت اتحدث في مستشفى العيون التابع لجامعة بون بالمانيا مع رئيس المستشفى ، وهو احد العلماء العشرة الذين يتألف منهم مجلس الجامعة الاعلى ، وهو الدكتور البروفيسور (شميت Schmit) وكان ذلك سنة 1954 فوجدته يعتقد وجود الدولة العثمانية واستمرار سلاطينها ، مع انه بلغ الغاية في علم الطب، حتى انه يدعى من الولايات المتحدة ليسافر الى هناك لاجراء الاعمال الجراحية والقاء المحاضرات ، وقد بلغ جهله بالتاريخ الى ما رايت .

وهذا الحديث ايضا يدل على ان العشق لا يكون الا لمن تمكن مباشرته . ثم راجعت الجامع الصغير فوجدته ذكر حديثين في هذا الباب ، احدهما عن عائشة ، ونصه : من عشق فعف ، ثم مات ، مات شهيدا . رواه الخطيب ، واشار اليه السيوطي بعلامة الضعف .

والثاني : عن ابن عباس : من عشق فكتم وعف فمات ، فهو شهيد . رواه الخطيب ، واشار اليه السيوطي بعلامة الضعف ايضا .

وان صدق الانطاكي في نقله صحة الحديث عن الامام الحافظ علاء الدين مغلطاي ، فانه حجة في علم الحديث . ويؤيد ما ذكرناه ان حب الله ذكر في القرآن في مواضع عديدة ، ولم يعبر عنه بالعشق . وحب الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في الحديث .

اخرج البخاري من حديث انس بن مالك ان النبي (ص) قال : لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من والده وولده والناس اجمعين .

والاحاديث التي جاء فيها حب الله ورسوله ، وحب المؤمنين بعضهم بعضا كثيرة ، ولم يرد في شيء منها التعبير بالعشق . هذا وموعدنا المقال التالي بحول الله .

مكناس : تقي الدين الهلالي

حرص ملوك المغرب على اتباع الكتاب والسنة

جديرٌ بأن يبني كما بنوا ويفعل فوق ما فعلوا

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

قال تعالى في سورة آل عمران 102 (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) 103 ، قال بعض المفسرين في قوله تعالى (حق تقاته) ان يطاع فلا يعصى ، وان يشكر فلا يكفر ، وان يذكر فلا ينسى، لما نزلت هذه الآية ، قال الصحابة يا رسول الله ، ومن يقدر على هذا ، فانزل الله تعالى آية اخرى مبينة للمقصود بها وهي قوله تعالى في سورة التغابن (فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) ، وقال تعالى في اول سورة الاعراف (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلا ما تذكرون) ، وقال في سورة الزخرف 243 (فاستمسك بالذي اوحي اليك انك على صراط مستقيم ، وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون) .

امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يتمسك بالقرآن اعتقادا وعملا وتحكيما في كل ما ينزل به من النوازل، ثم قال تعالى وانه اى القرآن لذكر لك يا محمد ولقومك لكل من آمن بك وسوف تسالون عنه ايها الناس هل اتبعتموه واستضأتم بنوره وتاديتم باديه ، أم جعلتموه وراءكم ظهريا واهملتموه ، قال تعالى في سورة آل عمران 105 وما بعدها (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية تبيض وجوه اهل السنة والائتلاف وتسود وجوه اهل البدعة والاختلاف ، والآيات في هذا المعنى كثيرة في كتاب الله العزيز ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ، رواه البغوي بسند جيد.

وبعد هذا التمهيد اقول ان ملوك المغرب كانوا من اشد امراء المسلمين حرصا على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونبذ كل راى يخالفهما كائنا ما كان ، وسانقل هنا شيئا مما يدل على ذلك من آثار الملوك العظام الذين بنوا للمغرب صروح مجد خالدة لا يمحوها مرور الزمن ، قال الناصري رحمه الله في الاستقصا في الجزء الثاني صفحة 112 ما نصه :

(امر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى الاصول من الكتاب والسنة) .

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة امر امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي باصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات ما كانت ، وامر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة كتب الحديث ، واستنباط الاحكام منها وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة فجزاه الله خيرا .

وقال المصنف المذكور في الكلام على دولة يعقوب المنصور في الجزء نفسه صفحة 178 ما نصه :

وكان المنصور يشدد في الزام الرعية باقامة الصلوات الخمس ، وقتل في بعض الاحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا ، وامر بفرض فروع الفقه واحراق كتب المذاهب ، وان الفقهاء لا يفتون الا من الكتاب والسنة النبوية ولا يقلدون احدا من الائمة المجتهدين بل تكون احكامهم بما يؤدي اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس .

قال ابن خلكان : ولقد ادركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا وهم على ذلك الطريق مثل ابني الخطاب بن دحية واخيه ابي عمرو ، ومحي الدين بن عربي نزيل دمشق وغيرهم ، وكان يعاقب على ترك الصلوات ويامر بالنداء في الاسواق وبالمبادرة اليها ، فمن غفل عنها او اشتغل بمعيشته عزره تعزيرا بليغا .

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى انه لم يبق بجميع اقطار بلاد المغرب من البحر المحيط الى برقة الا من هو في طاعته وداخل في ولايته الى غير ذلك من جزيرة الاندلس ، وكان محسنا محبا للعلماء ، مقربا للادباء . اهـ .

وفي حاشية الطبعة الاخيرة على ما ذكر المؤلف من عبد المؤمن بن علي من تحريقه كتب الفروع واصداره امره الى العلماء بتحكيم الكتاب والسنة ما نصه ... الذي في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي ان يعقوب المنصور هو الامر بذلك ، فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده ام من ذاته لاول الامر ، لكن الظاهر من كلام المراكشي ان احراق كتب الفروع ورد الناس الى الكتاب والسنة كان مقصدا وعزما لعبد المؤمن وابنه يوسف الا انهما لم يظهراه واظهره يعقوب بعدهما . هـ

وما ذكره المؤلف هنا منقول عن صاحب القرطاس ، وكلام صاحب المعجب اولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع . اهـ

قال محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي : وما المانع من ان يكون البادىء بهذا الامر الاصلاحي عبد المومن والمجدد له حفيده يعقوب وقد اعترف صاحب الحاشية بان احراق كتب الفروع ورد الناس الى الكتاب والسنة كان مما عزم عليه عبد المومن وابنه يوسف ، ومن اين له انهما لم يظهراه ؟ وقد ثبت من نقل مؤلف الاستقصا وهو من المحققين والثقات ان عبد المومن اظهر ذلك ، ومن علم حجة على من لم يعلم ، وعبد الواحد المراكشي وان كان زمانه قريبا من زمانهم فلا يلزم ان يحيط علما بجميع اخبارهم ، ومن درس تاريخ دولة الموحدين علم يقينا ان هذا النوع من الاصلاح كان شغل ملوكهم الشاغل لم يتوانوا فيه في اي وقت من الاوقات ، وقد قرات خبرا آخر في احد كتب التاريخ عن اخبار يعقوب المنصور رحمه الله انه قال لوزيره : المسالة الواحدة من مسائل الفقه اجد فيها اقوالا عديدة في المدونة فما المخرج ، قال يا امير المؤمنين اختلف علماء الاصول فقال بعضهم المشهور ما قوى دليله وقال بعضهم المشهور ما كثر القائلون به ، وقال بعضهم المشهور ما وافق مذهب مالك في المدونة ، فقال المنصور ما زدتني الا حيرة ، ثم اخذ المصحف وسنن ابي داود وقال انظر ايها الوزير انا ما عندي الا هذا واشار الى القرآن، وهذا واشار الى سنن ابي داود ، ثم سل سيفه وقال او هذا انا لا احكم الا بالقرآن والحديث ومن ابى حكمهما فما له عندي الا السيف . وتامل كلام الناصري رحمه الله لما حكى عن عبد المؤمن انه امر باحراق كتب الفروع وامر القضاة والمفتيين الا يقضوا ولا يفتوا الا بادلة الكتاب والسنة ، قال بعد ذلك فجزاه الله خيرا . وهذا يدلنا على انه لم يزل في المغرب من يدعو الى الكتاب والسنة ونبذ كل ما خالفهما حتى في هذا الزمان ، لان الناصري رحمه الله استحسن عمل عبد المؤمن بن علي في احراق كتب الفروع وحصر القضاء والافتاء في ادلة الكتاب والسنة ، ومن المعلوم ان الناصري رحمه الله عاش الى زمن مولاي عبد العزيز بن الحسن ، اما في هذا العهد الحسني فان الدعوة الى اتباع الكتاب والسنة قد انتشرت وانتصرت وهي في اقبال مستمر واعداؤها في ادبار ، والفضل لله سبحانه ثم لجلالة الملك الحسن الثاني الذي فسح لها المجال ادام الله توفيقه وتسديده .

فان قلت فما الدليل على صحة ما فعله عبد المومن بن علي وحفيده يعقوب المنصور من احراق كتب الرأي وحمل الناس على الاستغناء عنها بنصوص الكتاب والسنة ؟ اقول دونك الجواب ، ننقله من تاليف امام عظيم كان في ذلك العصر نفسه حاملا للواء الكتاب والسنة وهو حافظ المغرب ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري الاندلسي مؤلف كتاب التمهيد الذي لم يؤلف في الفقه الاسلامي مثله بشهادة ائمة عصره ، وكتاب الاستذكار لما في الموطا من الآثار ، وكتاب

النقصي وهذه ثلاثة شروح للموطا ، وهو ايضا مؤلف جامع بيان العلم وفضله وغير ذلك من الكتب .

قال الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري في الكتاب المذكور الجزء الثاني صفحة 26 في بيان انه لا يحل لاحد ان يقول في شيء انه حلال او حرام الا بنص كتاب او سنة او اجماع معتد به او قياس على اختلاف فيه ، قال يسنده الى ابن عباس انه قال : انما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فمن قال بعد ذلك شيئا برايه فما ادري أفي حسناته يجده أم في سيئاته ، ثم قال يسنده الى الشافعي انه قال ، ليس لاحد ان يقول في شيء حلال ولا حرام الا من جهة العلم ، وجهة العلم ما نص في الكتاب او في السنة او في الاجماع او القياس على هذه الاصول ما في معناها ، قال ، قال ابو عمر اما الاجماع فماخوذ من قول الله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ، النساء 115) لان الاختلاف لا يصح معه ، هذا ، ظاهر ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تجتمع امتي على ضلالة) وعندي ان اجماع الصحابة لا يجوز خلافهم والله اعلم لانه لا يجوز على جميعهم جهل التاويل ، وفي قول الله تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) دليل على ان جماعتهم اذا اجتمعوا حجة على من خالفهم . كما ان الرسول حجة على جميعهم ودلائل الاجماع من الكتاب والسنة كثيرة ، ليس كتابنا هذا موضعا لتقصيها وبالله التوفيق .

ثم روى يسنده الى بقية ابن الوليد انه قال سمعت الاوزاعي يقول العلم ما جاء عن اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما لم يجيء عن واحد منهم فليس بعلم ، ثم روى يسنده الى معن بن عيسى انه قال سمعت مالك بن انس يقول انما انا بشر اخطيء واصيب فانظروا في رايي فكلما واقق الكتاب والسنة فخذوا به ، وكلما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه . ثم روى يسنده الى مطرف قال سمعت مالكا يقول ، قال لي ابن هرمز لا تمسك على شيئا مما سمعت مني من هذا الراي فانما اقتجرته انا وربيعة فلا تتمسك به ، ثم روى يسنده الى ابن ابجر قال ، قال لي الشعبي ما حدثوك عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ به وما قالوا فيه برايهم فبل عليه ، ثم روى بسنده الى عاصم الاحول ، قال كان ابن سيرين اذا سئل عن شيء قال ليس عندي فيه الا راي اتهمه فيقال له قل فيه على ذلك برايك فيقول لو اعلم ان رايي يثبت لقلت فيه ولكني اخاف ان ارى اليوم رايا وارى غدا غيره فاحتاج ان اتبع الناس في دورهم ، وذكر وهب عن ابن لهيعة عن خالد بن ابي عمران عن سالم بن عمر ان رجلا سأله عن شيء فقال له سالم لم اسمع في هذا بشيء ، فقال له الرجل اني ارضى برايك ، فقال له سالم لعلي اخبرك برأي ثم تذهب فارى بعدك رايا آخر غيره فلا اجدك ، وروى عن ابي السمح انه سياتي على الناس زمان يسمى الرجل راحلته ثم يسير عليها حتى تهزل يلتمس من يفتيه بسنة فلا يجد الا من يفتيه بالظن ، ثم قال ابو عمر رحمه الله في الجزء الثاني صفحة 109 (باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع) .

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) . وروى عن حذيفة وغيره، قالوا لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم احلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم، وقال عدي بن حاتم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب ، فقال لي (يا عدي الق هذا الوثن من عنقك وانتهيت اليه وهو يقرا سورة براءة حتى اتى على هذه الآية (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) . قال ، قلت يا رسول الله انا لم نتخذهم اربابا ، قال بلى اليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما احل الله لكم فتحرموه ، فقلت بلى ، فقال تلك عبادتهم . ثم روى يسنده عن ابن البحتري في قوله عز وجل (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) ، اكانوا يعبدونهم ، فقال لا ، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه . ثم روى يسنده ايضا الى ابي البحتري في قوله تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم) الآية ، قال ، اما انهم لو امروهم ان يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ولكنهم امروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فاطاعوهم فكانت تلك الربوبية .

قال ابو عمر ، في صفحة 109 ، ج 2 .. وقال جل وعز (وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ، قل اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم) فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا (انا بما ارسلتم به كافرون) ، وفي هؤلاء ومثلهم قال الله جل وعز (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) ، وقال (اذ تبرا الذين اتبعوا من

الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرا منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم) ، وقال جل وعز عائبا لاهل الكفر وذما لهم (ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) ، وقال (انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيل) ، ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في ابطال التقليد ولم يمنعهم كفر اولئك من الاحتجاج بها لان التشبيه لم يقع من جهة كفر احدهما وايمان الآخر وانما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد كما قلد رجل فكفر وقلد آخر فاذنب ، فقلد آخر في مسالة دنياه فاخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لان كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وان اختلفت الآثام فيه . وقال الله جل وعز (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) ، وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب قبل هذا وفي ثبوته ابطال التقليد ايضا فاذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للاصول التي يجب التسليم لها وهي الكتاب والسنة او ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك .

ثم قال بسنده الى عمرو بن عوف المزني عن ابيه عن جده ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اني لاخاف على امتي من بعدي من اعمال ثلاثة ، قال وما هي يا رسول الله ، قال اخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر ومن هوى متبع) ، وبهذا الاسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله) ، ثم روى بسنده الى زياد بن جدير قال ، قال عمر ثلاث يهدمن الدين ، زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وائمة مضلون) ، قال ابو عمر في صفحة 112 ج 2 بسنده الى ابي العالية الرياحي ، قال سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول ويل للاتباع من عثرات العالم ، قيل كيف ذلك ؟ قال : يقول العالم شيئا برايه ثم يجد من هو اعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيترك قوله ذلك ثم تمضي الاتباع ، اهـ .

توضيحات

1 — في هذه الاخبار الاربعة خبر حذيفة ، وخبر عدي وخبر ابي البحتري فوائدة .

الاولى ان كل من جعل الحكم لغير الله تعالى ولغير المعصوم صلى الله عليه وسلم بان صار يحلل ما يحله له برايه ويحرم ما يحرمه عليه برايه ، ويعتقد وجوب ما يوجبه عليه واستحباب ما يستحبه له واباحة ما يبيحه له لانه بالغ في تعظيمه حتى جعل رايه حجة بل يخالف الكتاب والسنة ويتبع راي مقلده بفتح اللام فقد اتخذه الها من دون الله .

الثانية : قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدي لما راى في عنقه صليبا الق عنك هذا الوثن دليل قاطع على ان كل جماد يتبرك به ابتداعا كالقباب المبنية على قبور الصالحين يسمى وثنا شرعا يزيده وضوحا ما رواه مالك في الموطأ عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) وكذلك حديث ابي واقد الليثي ، قال كنا حديثي عهد بكفر ورأينا للمشركين شجرة يعكفون عندها وينيطون بها اسلحتهم يسمونها ذات انواط ، فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (الله اكبر انها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى (اجعل لنا الها كما لهم آلهة ،) لتتبعن سنن من كان قبلكم ، فهؤلاء الصحابة الذين لم يمض على اسلامهم الا وقت قصير لم يتمكنوا فيه من التفقه في الدين كما ينبغي ، لم يتخذوا تلك الشجرة شيئا يتبرك به ، ولكن سالوا النبي صلى الله عليه وسلم ان يأذن لهم في ذلك فاخبرهم ان ذلك شرك وان من اتخذها شيئا متبركا به يكون قد اتخذ الها من دون الله، اما قول النبي عليه الصلاة والسلام اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، الحديث ، فيفهم منه ان كل قبر كائنا ما كان اذا وصل اليه الجهال وتمسحوا به وطافوا به يسمى وثنا ويكون هؤلاء مشركين . فان قلت فهل استجاب الله دعاء نبيه وحفظ قبره من وصول ايدي الجهال اليه ام لم يستجب دعاءه ؟

فالجواب ان الله استجاب دعاءه ، وحفظ قبره الشريف فلم تقع عليه عين فضلا عن ان تلمسه يد من زمان الصحابة الى يومنا هذا ، لانه عليه الصلاة والسلام اوصى ان يدفن في بيته الذي توفي فيه وهو بيت ام المؤمنين عائشة ، ليكون بعيدا عن متناول الجهال ، وكانت عائشة تسكن في البيت نفسه ولم يكن احد من الناس لا ابو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم ياتون الى بيت عائشة ويستاذنونها في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما توفيت سد بينها من جميع الجهات . ولما اراد الوليد بن عبد

الملك ان يدخل الحجرة فى المسجد منعه علماء التابعين فابى لغرض خسيس تركت ذكره اختصارا . فاقترحوا عليه بناء مثلث تكون زاويتاه من جهة القبلة، والزاوية الثالثة من جهة الشمال حتى لا يصلي الجهال الى القبور الثلاثة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر ابي بكر وقبر عمر ، ثم جاء احد الملوك بعد ذلك بمئات السنين فبنى حوله سورا مربعا وهو الذي يراه الناس اليوم ويصلون اليه . وقد اشار الامام بن القيم رحمه الله فى النونية الى ذلك فقال :

ودعا بان لا يجعل القبر الذى
قد ضمه وثنا من الاوثان

فاجاب رب العالمين دعاءه
واحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت ارجاؤه بدعائه
فى عزة وحماية وصيان

الثالثة : فى بعض الفاظ تلك الاحاديث فتلك الربوبية وفى بعضها فتلك عبادتهم ، وقد صرح القرآن الكريم بان اليهود اتخذوا احبارهم اى علماءهم اربابا من دون الله حين قلدوهم تقليد الاعمى وصاروا يفتون باقوالهم وارائهم ويقضون بها بدون دليل من التوراة ولا من كلام موسى وهارون . واتخذ النصارى رهبانهم اى المنقطعين الى العبادة اربابا من دون الله ، حين جعلوا لهم الحكم كما فعل اليهود . فجاءت هذه الاحاديث تحذرنا ان نفعل مع علمائنا وائمتنا ما فعلوه اليهود والنصارى مع علمائهم وعبادهم .

2 ـ بين الحافظ ابو عمر رحمه الله انواع التقليد الثلاثة .

الاول : ان يقلد الرجل رجلا فى امر يخرجه من الملة كمن راى رجلا يسجد لمخلوق او يدعوه ويستغيث به او يذبح له وينذر له ، فقلده فى ذلك ، فان ذلك يوقعه فى الشرك الاكبر .

الثاني : ان يرى رجل رجلا يشرب الخمر او يتعاطى الربا فيقلده فى ذلك ، فان ذلك يوقعه فى معصية من الكبائر اذا لم يستحل ذلك ، بل فعله وهو يعتقد حرمته .

الثالث : ان يقلد رجل رجلا فى حرث او زرع او بناء بيت او تجارة فيخطىء الصواب ، فقد اوقعه تقليده فى الخطا والخسران ، وهذه الانواع الثلاثة من التقليد كلها مذمومة ، الا انها مختلفة فى النتيجة ، فاولها اوقع صاحبه فى الكفر ، وثانيها اوقع صاحبه فى الاثم ، وثالثها اوقع صاحبه فى خسارة دنيوية . ولذلك احتج العلماء من ائمة اهل السنة بالآيات التي وردت فى تقليد المشركين لآبائهم على القضاة ، والمفتين الذين يقضون بالتقليد ويفتون به .

3 ـ قول النبي صلى الله عليه وسلم من اعمال ثلاثة ، زلة عالم الحديث ، زلة العالم ، ان يكون اماما مجتهدا فيخطىء فى مسالة ويتبين ان قوله مخالف لنص الكتاب او السنة فيصر اتباعه على تقليده مع وقوفهم على خطئه ولذلك قيل (زله العالم زلة العلم ، وقد تكون الزلة متعمدة لان العالم غير معصوم فيعرف اتباعه ان فعله غير جائز ويصرون على اتباعه فيه .

وهذا شر من الذي قبله .

والحكم الجائر يدل على انحراف الامراء والحكام وهو من اعظم ابواب الفساد الذي يشتت شمل الامم ويوهن قوتها ويفضي بها الى الفناء ، ويقال فى الحكم صنفان من الناس اذا صلحوا صلح العالم واذا فسدوا فسد العالم ، وهم العلماء والامراء ، واما اتباع الهوى فهو سبب زوال العدل وفشو الظلم وذلك سبب شقاء الامم قال تعالى فى سورة النمل (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون .) 51 ، 52 ، 53 .

وبسبب اتباع الهوى حكم اهل الجور بما تشتهيه انفسهم ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم قال تعالى فى سورة القصص (فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ، ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين) 50 ثم قال ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم مما قد ذكرناه فى كتابنا هذا انه قال تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالا يسالون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون) وهذا كله نفي للتقليد وابطال له لمن فهمه وهدى لرشده . وقال سفيان بن عيينة اضطجع ربيعة مقنعا راسه وبكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال رياء ظاهر وشهوة خفية والناس عند علمائهم كالصبيان فى حجور امهاتهم ما نهوهم عنه انتهو وما امرهم به ائتمروا ، اهـ .

قال محمد تقي الدين معنى ذلك ان الناس غلب عليهم التقليد والجهل وصاروا يقبلون كل ما يقوله

علماؤهم دون ان يضعوا اقوالهم في الميزان ويميزوا اصوابهم من خطئهم فما قام الدليل على صحته اخذوا به وقبلوه ، وما قام الدليل على انه خطأ طرحوه . وهذا هو الاتباع الذي اثنى الله على من صار عليه في قوله تعالى : (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم) . ولم يقل والذين قلدوهم . فالاتباع محمود والتقليد مذموم . وقال ايوب رحمه الله ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره . وقال عبيد الله بن المعتز لا فرق بين بهيمة تقاد ، وانسان يقلد ، وهذا كله لغير العامة فان العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها لانها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل بعدم الفهم الى علم ذلك . قال ابو عمر وقد نظمت في التقليد وموضعه ابياتا رجوت في ذلك جزيل الاجر لما علمت ان من الناس من يسرع اليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور وهي من قصيدة لي :

يا سائلا عن موضع التقليد خذ
عني الجواب بفهم لب حاضر

واصغ الى قولي ودن بنصيحتي
واحفظ علي بوادري ونوادري

لا فرق بين مقلد وبهيمة
تنقاد بين جنادل ودعاتر

تبا لقاض او لمفت لا يرى
عللا ومعنى للمقال السائر

فاذا اقتديت فبالكتاب وسنة المبعوث
بالدين الحنيف الطاهر

ثم الصحابة عند عدمك سنة
فاولاك اهل نهى واهل بصائر

وكذاك اجماع الذين يلونهم
من تابعيهم كابرا عن كابر

اجماع امتنا وقول نبينا
مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر

وكذا المدينة حجة ان اجمعوا
متتابعين اوائلا باواخر

واذا الخلاف اتى قدونك فاجتهد
ومع الدليل فمل بفهم وافر

وعلى الاصول فقس فروعك، لا تقس
فرعا بفرع كالجهول الحائر

والشر ما فيه فديتك اسوة
فانظر ولا تحفل بزلة ماهر

حجج المقلدين وردها

وقد احتج جماعة من الفقهاء واهل النظر على من اجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم فاحسن ما رايت من ذلك قول المزني رحمه الله وانا اورده قال، يقال لمن حكم بالتقليد دخل من حجة فيما حكمت به ؟ فان قال نعم ابطل التقليد لان الحجة اوجبت ذلك عنده لا التقليد ، وان قال حكمت فيه بغير حجة . قيل له فلم اراقت الدماء وابحت الفروج واتلفت الاموال ، وقد حرم الله ذلك الا بحجة قال الله جل وعز (هل عندكم من سلطان بهذا) ؟ اي من حجة بهذا قال ، فان قال انا اعلم اني قد اصبت وان لم اعرف الحجة لاني قلدت كبيرا من العلماء وهو لا يقول الا بحجة خفيت علي ، قيل له اذا جاز لك تقليد معلمك لانه لا يقول الا بحجة خفيت على معلمك كما لم يقل معلمك الا بحجة خفيت عليك فان قال نعم ، ترك تقليد معلمه الى تقليد معلم معلمه ، وكذلك من هو اعلى حتى ينتهي الامر الى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان ابى ذلك نقض قوله ، وقيل له كيف تجوز تقليد من هو اصغر منك واقل علما ولا تجوز تقليد من هو اكبر واكثر علما ، وهذا متناقض .

فان قال لان معلمي وان كان اصغر فقد جمع علم من هو فوقه الى علمه فهو ابصر بما اخذ واعلم بما ترك، قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه الى علمه فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك ، وكذلك انت اولى ان تقلد نفسك من معلمك لانك جمعت علم معلمك وعلم من فوقه الى علمك فان التزم ذلك جعل الاصغر ومن يحدث من صغار العلماء اولى بالتقليد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع من دونه في قياس قوله والاعلى الادنى ابدا ، وكفى بقول يؤول الى هذا قبحا وفسادا ، اهـ .

هذه ادلة قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على صحة ما فعلوه اولئك الملوك العظام ، ونرجو ان يوفق الله جلالة ملكنا عالم الملوك ، وملك العلماء ، ان يحي هذه السنة ، فيصدر امره المطاع الى قضاة مملكته ، والى

المعتنين فيها الا يقضوا ولا يعتوا بالتقليد الاعمى ، بل بما قام عليه الدليل من الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح عند فقد الادلة الثلاثة ، وليس ذلك على همة جلالته العالية بعزيز لا سيما وقد وفقه الله لانشاء دار الحديث التي يتخرج فيها علماء محققون في علوم الكتاب والسنة واصول الفقه قادرون على استنباط الاحكام ، وزاده الله نعمة اخرى تعين على ذلك وهي طبع كتاب التمهيد الذي هو بحر زاخر بالاحاديث الصحيحة والاحكام المحررة المتينة .

وفي الختام نسأل الله تعالى متوسلين اليه باسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا لحبيبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم ، واتباعنا له ان يبارك في حياة هذا الملك العظيم وان يخلد ملكه ويبارك في ولي عهده سيدي محمد ، ويؤيده بنصره وبالمؤمنين الصادقين حتى يحقق الآمال وهو لعمر الله خير من ينشد قول الشاعر :

لسنا وان احسابنا كرمت
يوما على الاحساب تتكل

نبني كما كانت اوائلنا
تبني ونفعل مثل ما فعلوا

بل نرجو من فضل الله الذي لا يتقيد بزمان ولا مكان ، ان يفعل فوق ما فعلوا ، وان يبني احسن مما بنوا .

ونسأله سبحانه لسائر افراد البيت الملكي الكريم ان يبارك فيهم كما بارك في اسلافهم ويحفظهم من كل سوء ، ونسأله تعالى لجميع اخواننا المسلمين شعوبا وملوكا ورؤساء ان يقيل عثرتهم ، ويجمع شملهم وينصرهم على اعدائهم ويعزهم بطاعته ، ولا يذلهم بمعصيته ، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة ـ محمد تقي الدين الهلالي

حكم المرتد في الإسلام

للدكتور: تقي الدين الهلالي

(*) قبل بضع سنين جاء رجلان من بلاد فارس التي تعرف حكومتها في هذا الزمان بايران ، فاستقر احدهما في تطوان ، واتخذ له مركزا يدعو فيه الى البهائية ويحاول نشرها في شمال المغرب . واستقر الآخر في مدينة مكناس ، واستأجر قصرا جميلا تحيط به مزرعة ، واخذ يقري الصبيان والسفهاء من الشبان بالطعن في الاسلام والدخول في البهائية ، واخذ يعمل لهم المآدب وينفق الاموال الكثيرة ، مما جعل الناس يعتقدون ان الحكومة الايرانية كانت تمده بالمال . واخبرني ثقة عندي كان متصلا بسفير ايران في الرباط ، اعني السفير السابق ، انه كان متضجرا من وجود ذلك الداعية البهائي ، لانه يسيء الى العلاقة بين الشعب المغربي والحكومة الايرانية وشعبها . الا ان ذلك السفير لم يلبث ان استبدل بغيره ، واشتد استياء الناس في جميع انحاء المغرب حين راوا اولئك السفهاء المأجورين يشتمون نبيهم ويطعنون في دينهم لاجل اكلة ياكلونها او نزهة يتمتعون بها من ذلك الداعية . هذا ما حدث في هذه الناحية . واما في ناحية الشمال فان تحمل الناس للاهانات التي صدرت من داعية الشمال والطغام الملتفين به كان اقل من احتمال اهل الجنوب فرفعوا الشكاوي المتكررة الى عامل تطوان فدعا ذلك الايراني وزجره وهدده ، فذهب الى ناحية الناضور في قلب الريف المغربي ، واهل الريف معروفون بتمسكهم بالدين ومحافظتهم على العقائد ، ومنهم كان جيش الامير محمد بن عبد الكريم البطل المشهور ، فاخذ ذلك الداعية يبث سمومه في سفهائهم ، فثار الناس وضجوا ورفعوا أمرهم الى الحكام فطردوا ذلك الداعية وحاكموا من اصر على اتباعه من السفهاء وحكموا عليهم بالاعدام . ولم اطلع على نص الحكم ومستنده ، ولكني سأجيب بما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويتحتم على كل حاكم مسلم ان يحكم به . ثم اذيل ذلك بحكم القانون العالمي الذي لايختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان ولا يزال العمل جاريا به في كل مكان .

قال الله تعالى في سورة الانعام (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون 151) وقال تعالى في سورة الاسراء (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق 142) قال الامام ابن كثير في تفسير آية الانعام التي تقدم ذكرها ، وقوله تعالى ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق . وهذا مما نص تبارك وتعالى عن النهي عنه تأكيدا ، والا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله (ص) (لا يحل دم امريء مسلم يشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث ، الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) وفي لفظ لمسلم ، و (والذي لا اله

(*) جاءني السؤال التالي من احد تلامذتي الذين يدرسون في بريطانيا ، وهو السيد عصام الآلوسي . وهذا نصه : لقد اوردت الصحف البريطانية في الاسابيع الاخيرة اخبارا عن بعض افراد الطائفة البهائية في المغرب ، والحكم على بعض منهم بالاعدام من قبل المحاكم الاسلامية . ولم تذكر الصحف كل الاسباب الداعية الى هذه المحاكمات ، مما جعل كثيرا من الاسئلة تدور في اذهان الطلبة المسلمين وغير المسلمين هنا . وارجو ان امكن ان تكتبوا لنا عن هذه المحاكمات من الوجهتين ، القانونية والشرعية ، وموقف الاسلام من امثال هذه الطوائف ، لكي نقراه على الطلاب المسلمين ، والذين يجتمعون في المركز الاسلامي اسبوعيا . واذا احببتم فنترجمه الى الانكليزية ونحاول نشره هنا ، وخاصة في مجلة

Muslim News International

غيره ، لايحل دم رجل مسلم) وذكره . قال الاعمش ، فحدثت به ابراهيم فحدثني عن الاسود عن عائشة بمثله . وروى ابو داود والنسائي عن عائشة ، ان رسول الله (ص) قال ، لايحل دم امريء مسلم الا باحدى ثلاث خصال ، زان محصن يرجم ، ورجل قتل متعمدا فيقتل ، ورجل يخرج من الاسلام حارب الله ورسوله فيقتل او يصلب او ينفى من الارض) وهذا لفظ النسائي . وعن امير المومنين عثمان بن عفان انه قال وهو محصور ، سمعت رسول الله (ص) يقول :

لا يحل دم امريء مسلم الا باحدى ثلاث ، رجل كفر بعد اسلامه او زنى بعد احصانه او قتل نفسا بغير نفس ، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا اسلام ولا تمنيت ان لي بديني بدلا منه بعد اذ هداني الله ولا قتلت نفسا فبم تقتلونني) رواه الامام احمد والترمذي والنسائي وابن ماجة ، وقال الترمذي هذا حديث حسن . وقد جاء النهي والزجر والوعيد فى قتل المعاهد ، وهو المستامن من اهل الحرب . فروى البخاري عن عبد الله بن عمر عن النبي (ص) مرفوعا (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة اربعين عاما) وعن ابي هريرة عن النبي (ص) قال (من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد اخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفا) رواه ابن ماجة والترمذي ، وقال حسن صحيح .

نفهم مما تقدم امورا ، اولها ، انه يحرم قتل المسلم ، الا اذا ارتكب واحدة من الثلاث ، اذا زنى بعد احصان ، اي بعد ان تزوج ، و قتل نفسا عمدا ، او خرج من دين الاسلام وفارق جماعة المسلمين . ثانيها ، ان هذا الحكم ثابت بالكتاب والسنة واجماع الامة ، الا الرجم فانه ثبت بالسنة والاجماع ، ولا يوجد فى القرآن . وقد رجم النبي (ص) الزانين والزانيات المحصنين من المسلمين ومن اليهود لما رفعوا الامر اليه وحكموه ، كما جاء فى صحيح البخاري ان يهوديا زنى بيهودية ، يعني وكانا محصنين ، فرفع اليهود امرهما الى النبي (ص) فسالهم النبي عن عقوبة الزاني المحصن فقالوا نفضحهم ، اي الزناة ويجلدون . قال عبد الله بن سلام ، كذبتم ان فى التوراة الرجم ، فاتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع احدهم يده على آية الرجم فقرا ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام ، ارفع يدك فرفع يده فاذا آية الرجم ، فقالوا صدق يا محمد ، فيها آية الرجم فامر بهما رسول الله (ص) فرجما ، فرايت الرجل يحني على المراة يقيها الحجارة . وقولهم ، نفضحهم ، تفصيل فضيحتهم ، انهم كانوا يحممون وجه الزاني والزانية ، اي يسودونهما بالفحم ويركبونهما على حمارين مقلوبين ظهورهما الى جهة راس الحمارين ويطوفون بهما فى الاسواق ويجلدونهما . وكذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من ملوك المسلمين وحكامهم ، كلهم ساروا على هذه الشريعة التي شرعها الله فى دينه الحق وانزلها على انبيائه . وقد حكم بالرجم فى مكة شرفها الله على رجل وامراة سنة 1957 بالتاريخ المسيحي وكنت حاجا فى تلك السنة فعلمت ان ذلك الرجل كان اصله من اليمن والمراة اصلها من الهند ، وكلاهما من سكان مكة اعترفا امام القاضي بالزنى وكانا قد احصنا ، وكانا يعلمان انهما سيرجمان فلم يمنعهما ذلك من الاقرار . وبعد حكم القاضي النهائي استؤذن الملك سعود فى تنفيذ الحكم فاذن به ، وقال القاضي للرجال الذين ذهبوا بهما الى محل الرجم اتركوا لهما دائما فسحة للهرب ان شاءا ان يهربا ، واخبرا بذلك فلم يهربا ونفذ فيهم الحكم . فانكر ذلك بعض الحجاج الذين لايعرفون من الاسلام الا اسمه . وانما ذكرت هذه القصة ليعلم ان الرجم فى الاسلام امر مجمع عليه من زمان النبي الى يومنا هذا .

واما حكم من قتل نفسا بغير حق متعمدا فهو ثابت بالكتاب والسنة والاجماع ولا حاجة الى ذكر ادلته ، ولم يزل معمولا به فى جميع الشرائع والقوانين الى هذا الزمان ، فبدا بعض المتهوكين يدعون الى ترك القصاص واستبداله بعقاب آخر ولم ينجحوا الا قليلا فى بعض الدول . ونقول فى حقهم كذبوا وصدق الله العظيم اذ يقول (ولكم فى القصاص حياة يا اولي الالباب لعلكم تتقون) ، فكل من يدعو للابقاء على القاتل المتعمد زاعما ان ذلك من الرحمة فهو اجهل من حمار اهله .

وقوله ، ورجل يخرج من الاسلام حارب الله ورسوله فيقتل او يصلب او ينفى من الارض) ينبغي ان نفكر فى هذه العبارة فان فيها سر المسألة . رجل يخرج من الاسلام حارب الله ورسوله ، فيقتل او يصلب او ينفى من الارض . اذن فكل خارج من الاسلام فهو ناقض للعهد محارب لجماعة المسلمين ، وهذه جريمة يعاقب عليها بواحد من ثلاثة ، القتل ، او الصلب ، وهو شر منه ، او النفي . ومصداق ذلك فى كتاب الله فى سورة المائدة رقم 33 (انما جزاء الذين

يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) .

ولما كان الاسلام لايفرق بين الدولة والدين ، فقد اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم من خرج من الاسلام خائنا الخيانة العظمى ، ناقضا للعهد ، محاربا لدولته وشعبه ، فهو يستحق القتل ، قال الامام ابن كثير في تفسير هذه الآية ، المحاربة هي المضادة والمخالفة . وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق واخافة السبيل . وروى البخاري ومسلم عن انس بن مالك ان نفرا من عكل ثمانية قدموا على رسول الله (ص) فقال ، الا تخرجوا مع راعينا في ابله فتصيبوا من ابوالها والبانها ، فقالوا بلى ، فخرجوا فشربوا من ابوالها والبانها فصحوا فقتلوا الراعي وطردوا الابل فبلغ ذلك رسول الله (ص) فبعث في اثرهم فادركوا ، فجيء بهم فامر بهم فقطعت ايديهم وارجلهم وسمرت اعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا . وهذا لفظ مسلم

شرح الحديث :

قوله ، الا تخرجوا مع راعينا في ابله ، بينت الروايات الاخرى ان اولئك الرجال الثمانية الذين جاءوا الى النبي من قبيلة عكل اظهروا له الرغبة في الاسلام فاسلموا وبايعوا النبي ، وكانوا مرضى ، منتفخة بطونهم من داء البطن فاجتووا المدينة ، اي استوخموا هواءها وراوه رديئا لايوافق صحتهم ، وشكوا الى النبي (ص) ذلك فاذن لهم في الخروج من المدينة الى ارض ذات هواء طيب وبعث معهم لقاحا وراعيها ، وفي رواية ورعاتها ، واللقاح هي النوق الحلائب ذات الالبان . وامرهم ان يشربوا من ابوالها والبانها . انما شربوا من ابوالها ، لان العرب تعتقد ان بول الابل يشفي من داء البطن . فلما صحت اجسامهم وخمصت بطونهم ، اي ذهب ما بها من الانتفاخ سمروا اعين الرعاة ، اي ادخلوا فيها المسامير حتى عميت . وفي رواية ، ادخلوا فيها الشوك ، ثم قتلوا الرعاة وساقوا الابل ، فلما بلغ الخبر النبي (ص) امر مناديا ان ينادي ياخيل الله اركبي ، فركب عشرون فارسا وساروا في طلبهم فادركوهم وجاءوا بهم الى النبي (ص) فامر بقطع ايديهم وارجلهم وسمل اعينهم ، اي ادخال المسامير فيها ، والقو في الشمس وبقوا كذلك حتى ماتوا . وهؤلاء تعددت جرائمهم ، خرجوا من الاسلام ونقضوا العهد وقتلوا النفوس البريئة التي كانت تحمل اليهم اللبن وتخدمهم ونهبوا الابل ، فكان جزاؤهم شديدا ليكونوا عبرة لغيرهم من الاعداء الغادرين . والجزاء من جنس العمل . واختلف العلماء في انواع العقاب المذكورة في الآية . فقال كثير منهم ، الخيار في ذلك الى امام المسلمين ، اي الخليفة او نائبه ، ان شاء قتلهم وان شاء صلبهم بعد قتلهم ، وان شاء اكتفى بنفيهم . وقال آخرون ، ان كانوا مرتدين عن الاسلام او قاتلين انفسا بريئة فلا بد من قتلهم . وان كانوا لصوصا اقتصروا على نهب المال فقط تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف ، اي تقطع يد من جانب ورجل من الجانب الآخر . وان لم يفعلوا شيئا من ذلك ، بل اخافوا الناس وبثوا الفزع ينفون من الارض ، اي من ارضهم مدة من الزمان كافية لتاديبهم .

ذكر احاديث اخرى في هذا المعنى

قال الحافظ ابن رجب في كتابه جامع العلوم والحكم ، في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ص. 86 اخرج مسلم عن عائشة مثل حديث ابن مسعود . اي قول النبي (ص) لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث الى آخره وقد تقدم . وخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث عثمان عن النبي (ص) ، لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث ، رجل كفر بعد اسلامه ، او زنى بعد احصانه ، او قتل نفسا بغير نفس ، وفي رواية للنسائي ، رجل زنى بعد احصانه فعليه الرجم ، او قتل عمدا فعليه القود ، او ارتد بعد اسلامه فعليه القتل . وقد روي هذا المعنى عن النبي (ص) من رواية ابن عباس وابي هريرة وانس بن مالك وغيرهم . وقد اطال ابن رجب في تفاصيل الاقسام الثلاثة المذكورة في حديث ابن مسعود ، ونقل نصوصا كثيرة من الاحاديث المرفوعة الى النبي والموقوفة على الصحابة ، وذكر كذلك اختلاف الائمة في بعض المسائل التي ورد فيها الحكم بالقتل على انواع اخرى من المجرمين ، كالجاسوس المسلم يتجسس على اخوانه المسلمين لاعداء الدين ، ومن عمل عمل قوم لوط ، ومن زنى بامراة من محارمه ، وتارك الصلاة ، والساحر ، واللص وغيرهم ، ولم انقل شيئا من ذلك ، لانه خارج عن موضوع السؤال . ثم قال ابن رجب في ص. 91. واما ترك الدين ومفارقة الجماعة ، فمعناه الارتداد عن دين

الاسلام ، ولو اتى بالشهادتين ، فلو سب الله ورسوله وهو مقر بالشهادتين ابيح دمه ، لانه قد ترك بذلك دينه . وكذلك لو استهان بالمصحف والقاه في القاذورات او جحد ما يعلم من الدين بالضرورة ، كالصلاة وما اشبه ذلك مما يخرج من الدين . ومضى الى ان قال : ومن هذا الباب ما قاله كثير من العلماء في قتل الداعية الى البدع ، فانهم نظروا الى ان ذلك شبيه بالخروج عن الدين ، وهو ذريعة ووسيلة اليه ، فان استخفى بذلك كان حكمه حكم المنافقين ، واذا دعا الى ذلك تغلظ جرمه بافساد دين الامة . وقد حكى ابن عبد البر وغيره عن مذهب مالك جواز قتل الداعي الى البدعة .

قال محمد تقي الدين الهلالي معلي هذه المقالة : المراد بالداعية الى البدع فيما تقدم من يدعو الى القول بخلق القرآن ، وانكار عذاب القبر ، وانكار شفاعة النبي يوم القيامة ، والقول بأن افعال العباد ليست مخلوقة لله ، ونحو ذلك مما اختلف فيه المتكلمون من الطوائف الاسلامية . والصحيح عند المحققين ان تلك العقائد لا تخرج المسلم عن الدين ولا تلحقه بالمرتدين . ولكن اذا كان الداعية الى مثل تلك البدع محكوما عليه بالقتل عندهم ، فكيف تكون الحال فيمن يعتقد ان رسالة محمد قد نسخت وابطلت بظهور الباب والبهاء . وينكر جميع فرائض الاسلام وينكر قيام الساعة الذي تكرر ذكره في القرآن ، ويزعم ان المراد بذلك ساعة قيام البهاء مؤسس البهائية الى غير ذلك من الكفر الصريح الذي لا يختلف فيه احد من المسلمين .

وقال الامام ابن قدامة في كتاب المغني المجلد 8 ، ص 123 . كتاب المرتد . المرتد هو الراجع عن دين الاسلام الى الكفر ، قال الله تعالى : (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) وقال النبي (ص) من بدل دينه فاقتلوه ، واجمع اهل العلم على وجوب قتل المرتد . وروي ذلك عن ابي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ وابي موسى وابن عباس وخالد ، وغيرهم ولم ينكر ذلك فكان اجماعا .

وقد اطال ابن قدامة في هذا الموضع وذكر تفاصيل اقوال العلماء في استتابة المرتد او قتله بدون استتابة . ولم ار حاجة الى نقل ذلك ، فليراجعه من شاءه . وكذلك الامام ابو محمد ابن حزم في المجلد 11 في المسالة رقم 2195 ص 188 من كتاب المحلى له . وهذا الحكم مذكور بتفصيل في كتب التفسير والحديث وشروحها. وفيما ذكرته كفاية لكل مسلم مخلص في اسلامه .

واما غير المسلمين فلنا معهم كلام آخر ، نقول لهم : ما ترون فيمن خرج من صفوفكم وانضم الى اعدائكم ما حكمه ، فسيقولون ، اننا نفرق بين الدين والدولة مقتدين بما جاء في الانجيل (اعط ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر) . ومن الكلمات الجارية مجرى المثل السائر (الدين لله والوطن للجميع) ، فمن خرج من صفوف شعبه ودولته والتحق بصفوف اعدائها يكون مرتكبا للخيانة العظمى ويستحق القتل . واما من خرج من ديننا الى دين آخر او الى غير دين فليس عليه جناح ولا يستحق عقابا . قلنا ، لكم دينكم ولنا ديننا . اما نحن فلا نفرق بين الدين والدولة ابدا ، فكل شيء عندنا لله ، وليس لقيصر شيء ، بل قيصر نفسه هو لله . وقولهم : الدين لله والوطن للجميع ، ان كان معناه حفظ حقوق المواطنين المشروعة كيما كان دينهم فالاسلام يقول به ويعطي كل ذي حق حقه ، ولا اكراه في الدين ، وان كان معناه ان حق الله محصور في الدعاء بين جدران الكنيسة ، ولا حق له فيما يحاوله المسلم ويزاوله من امور دنياه ، فلا حلال ولا حرام الا ما حلله او حرمه القانون الوضعي ، ولا واجب الا ما اوجبه القانون الذي وضعه اناس يجوز عليهم الخطأ والزلل واتباع الهوى ، فالاسلام يرد هذا القول ويراه في غاية الفساد ، فالدين لله والوطن لله وسكانه لله ، ويجب الحكم بينهم بما انزل الله ، وهو القرآن وبيانه من كلام رسول الله . ولو آمنا بذلك القول لم يبق لنا اسلام ولا ايمان ، فان مقتضى ذلك ان من سب الله او احد انبيائه لا شيء عليه ، ومن سب الملك او رئيس الجمهورية ، بل من سب اي مواطن ، وان كان في اسفل سافلين يكون قد ارتكب جرما يعاقب عليه . وعلى هذا يكون حق اي مواطن أعظم من حق الله ، ومنزلة اي مواطن اعظم من منزلة جميع انبياء الله ، فاي دين يبقى مع هذه العقيدة الفاسدة المتناقضة ، وما ذا يبقى من المقدسات والعقائد التي لأجلها يحيا المسلم او يموت . قال الله تعالى في سورة الممتحنة رقم 4 (قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده) ، وقد كان معنا في اذاعة برلين رجل انكليزي اسمه جورج ، وكان يلقب على سبيل المداعبة (لورد) (هو هو) كان يذيع الاخبار من تلك الاذاعة باللغة الانجليزية . وبعد انتهاء الحرب سمعنا انه حكم عليه بالقتل من قبل محكمة بريطانية واعتبر اشتغاله في اذاعة برلين في زمان الحرب خيانة لوطنه يستحق

عليها القتل . وكم قتلت حكومة الجنرال ديكول السابقة التي انشئت بعد انتهاء الحرب من مواطنيها المتعاونين مع حكومة الاحتلال الالمانية . ومنهم الزعيم الفرنسي لافال) .

واذا كان الانسان حرا في عقيدته الدينية ، له ان يخرج من دين الى دين ، ولو فعل ذلك في كل يوم مرارا فلا حرج عليه ، وله ان يطعن في كل دين خرج منه ، فلماذا لا يجوز له ان يخرج من عقيدة سياسية الى اخرى مثلها ؟ . وما هو ذنب (لافال) ومن قتل معه اذا اعتقدوا ان (النازية) ، اي الاشتراكية الوطنية التي كان عليها حزب هتلر اصلح للشعب الفرنسي واجمع لشمله وقواه ، وخصوصا في ذلك الزمان ، من فوضى الاحزاب التي كانت ضاربة اطنابها في فرنسا وسببت لها شقاء كثيرا ؟ . اظن ان الجواب عن هذه الاسئلة المحرجة ليس من السهولة بمكان على من يريد الانصاف ويلتزم المنطق .

مستند الحكم على بعض المغاربة الداعين الى البهائية

اخبرني احد العلماء الثقات ان المحكمة التي حكمت على اولئك المغاربة لم تكن شرعية اسلامية ، وانما كانت من المحاكم التي تحكم بالقوانين الوضعية . ومستندها هو ان دعوتهم اخلت بالامن العام ، فليطمئن اعداء الاسلام ولن يراعوا ، فان المحاكم الاسلامية في بلاد الاسلام ويا للاسف ، لا تستطيع ان تحكم بالقتل على اي مجرم ، لان ذلك ليس من اختصاصها . ولو بقيت للمحاكم الاسلامية حقوقها لما صارت لدول الاستعمار والاستعباد هذه الغزة وهذه الصولة .

هل يحكم الاسلام على كل كافر بالقتل ؟

ربما يتوهم متوهم ان الاسلام اذا حكم على من كفر بعد اسلامه بالقتل فهو يحكم على كل من كفر به بمثل ذلك ، فدفعا لهذا التوهم اقول ، ان الناس ينقسمون في نظر الاسلام الى قسمين ، مسلمين وغير مسلمين . فاما المسلمون فلا يقتل احد منهم الا بحق من حقوق الاسلام ، وقد تقدم ذكرها . واما غير المسلمين فينقسمون الى قسمين ، قسم لهم عهد او ذمة ، وهم المعاهدون والمصالحون والمستأمنون ، وقسم المحاربون في وقت محاربتهم للاسلام . فالقسم الاول يحرم الاسلام دماءهم واموالهم كما يحرم دماء المسلمين واموالهم . وقد تقدمت الاحاديث صريحة في ذلك في اول هذه المقالة فتاملها . واما المحارب للاسلام فيجب على كل مسلم ان يبذل كل ما في وسعه في قتاله على قواعد واسس معلومة ، منها عدم قتل النساء والصبيان والشيوخ والرهبان المنقطعين للعبادة ، اذا لم يشاركوا في القتال . ومنها عدم الاجهاز على الجريح ، بل يجب ان يعالج ويكرم مثواه كما فعل الملك صلاح الدين في الحروب الصليبية بالملك (رشاود) الانجليزي الملقب بقلب الاسد ، وقصته مذكورة في الحروب الصليبية ذكرها المؤرخون من الانجليز وغيرهم . ولكني اعترف ان اكثر المسلمين قد جهلوا شريعة الاسلام وصاروا ابعد الناس عنها ، فدعواهم واقوالهم في واد واعمالهم في واد آخر ، فيجب على المنصف ان يفرق بين الاسلام وما يفعله المدعون له ، ويحتج بالاسلام على المسلمين ولا يعكس القضية . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

دراسات إسلامية

دار الحديث وفضل علم الحديث

للدكتور تقي الدين الهلالي

طالما خطر ببالي ان اكتب سلسلة مقالات اعرف بها القراء فضائل هذا العلم ومكانته بين العلوم وما خصه الله به من الخواص والمزايا ومناقب اهله ومآثرهم وحاجة الناس اليه واليهم . فلما الهم الله جلالة الملك الحسن الثاني فكرة انشاء دار الحديث واخراجها الى حيز الوجود في اواخر رمضان الماضي. وهي فكرة وعمل يغبطه عليه جميع ملوك المسلمين ورؤساء دولهم في هذا العصر . فقد روى مسلم في صحيحه من حديث جرير بن عبد الله البجلي في حديث طويل سيأتي بطوله ان شاء الله ، قال رسول الله (ص) من سن في الاسلام سنة حسنة ، فله اجرها واجر من عمل بها بعده من غير ان ينقص من اجورهم شيء ، ومن سن في الاسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير ان ينقص من اوزارهم شيء . اقول لما الهم الله جلالة الملك ابي محمد الحسن الثاني هذه الفكرة ووفقه لهذا العمل المبرور كان ذلك منشطا لهمتي وحافزا لي على المبادرة الى كتابة هذه المقالات واخراجها من حيز الفكر الى حيز العمل . ولم يات جلالة الملك الحسن الثاني ببدع في هذا العمل ، فان مجالس اسلافه الاكرمين كانت مدارس حديث طول اعمارهم ، بل ظهر منهم ائمة في الحديث ، كسيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل الذي صنف في هذا العلم وانتسب الى اهله ونصره نصرا مؤزرا ، ولم تشغله الفتن التي كانت منتشرة في زمانه ، والدسائس في الداخل والخارج عن رفع لواء علم الحديث والمجاهرة بترك العقيدة الاشعرية والانتساب الى عقيدة اهل الحديث . وليس المراد بالعقيدة الاشعرية ، عقيدة ابي الحسن الاشعري نفسه ، فان عقيدته هي عقيدة جميع السلف ولم يفارقها سيدي محمد بن عبد الله ، وانما فارق العقيدة المنسوبة اليه الشائعة عند المغاربة . ومن ارتاب في اختلاف هذه العقيدة المنسوبة اليه مع عقيدته الحقيقية ، فليقرا كتابه (مقالات الاسلاميين ، واختلاف المصلين) طبع في اسطنبول ، وكتابه الابانة ، في اصول الديانة ، طبع في دمشق . وكتاب تبيين كذب المفتري ، فيما نسب الى ابي الحسن الاشعري ، للحافظ بن عساكر ، طبع في دمشق . فقراءة واحد من هذه الكتب تجلو غمام الشك والارتياب ، وتكشف عن وجه الحقيقة النقاب . ولم تكن العناية بعلم الحديث عند العلويين رحمهم الله خاصة بالملوك ، بل كانت عامة في اعيانهم وديدنا لازما لهم . فقد كان مولاي رشيد بن محمد نزيل سجلماسة رحمة الله عليه كالحال المرتحل ، لا يختم كتابا من كتب الحديث الا بدا في كتاب آخر يجتمع عليه علماء القطر لا يفتر من ذلك ولا يسأم ابدا . وقد اخذني ابي عبد القادر بن محمد الهلالي ، وكان من جلسائه في جملة العلماء ، الى قصر مولاي رشيد في قرية اولاد عبد الحليم لحضور ختم كتاب الموطا للامام مالك رحمه الله ، وحضرته وانا صغير مميز ، ولم يكن هنالك صبي غيري ، وقد اجتمع عنده علماء تفيلالت ، اعني خاصتهم واعيانهم ، اذ لم يكونوا كثيرا . فلما انتهى الدرس نصبت المائدة فتغدينا معه رحمه الله . واشتغاله طول عمره بكتب الحديث معروف مشهور في بلادنا . ونحن نؤمل ونرجو لهذه الدار ان تكون عامرة بالعلم والعمل يشع نورها الى السماء وينتشر في الآفاق ، وان يختار لها من العلماء والتلامذة الاكفاء المخلصون الذين يطبقون بالجنان والاركان ما يقولونه باللسان المتصفون بقوله تعالى : (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو

معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم ، فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون ، والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون .) فبمطابقة اسمها لمعناه تكون فاتحة عهد جديد يسري اثره في نواحي عديدة في سائر الشعب المغربي خاصته وعامته فيبعث بها العلم من مرقده ويعتز بها الاسلام ويخذل بها دعاة الكفر والفسوق ، فيعودون الى اجحارهم مرجومين باحجارهم . وبذلك يتكامل حسن هذا العهد الحسني ، وتؤتي اشجاره اكلها ، ويعود الدين الى سابق عهده ، وغابر مجده ، وسلطانه وهيمنته على الراعي والرعية ، والرئيس والمرؤوس .

ولا يخفى ان دار الحديث هي دار القرآن ، لان خدمة الحديث ، انما هي وسيلة لفهم القرآن ، وفهم القرآن وسيلة لتحكيمه والعمل به . وتحكيمه والعمل به وسيلة للسعادة العظمى ، سعادة الدارين .

تلك السعادة ان تلمم بساحتها
فحط رحلك قد عوفيت من تعس

والسنة المحمدية هي بيان للقرآن وتوضيح لمعناه بالقول والفعل والتقرير . برهان ذلك قوله تعالى في سورة النحل 45 (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) يقول الله تعالى ، وانزلنا اليك القرآن الذي هو تذكرة لك ولقومك ، لتوضح للناس ما نزل اليهم باقوالك وافعالك وتقريرك وتروكك ، جمع ترك ، وهو ما تركه النبي (ص) في شئون العبادات ، لا يجوز ان يفعله من يقتدي به اقتداء حسنا .

ثم لابد لهذه الدار من اللغة العربية التي هي مفتاح القرآن والحديث والهادية الى اسرارهما وكنوزهما . فان المحدث اذا كان جاهلا بالعربية ينطبق عليه ما قال الشاعر :

ان من يقرا الحديث وليس
له نحو ولا له آلاته
كحمار قد علقت ليس فيها
من شعير براسه مخلاته

سمعت هذين البيتين من الاستاذ الاديب الشيخ احمد سكيرج . وكان شاعرا اديبا لطيف المحاضرة ، لا يخلو مجلس له من ادب . وكان ينظم البيت من الشعر في الجد او في الهزل فيامرني بالاجازة ، فاشفعه ببيت آخر . واحيانا ينظم الشطر الاول فيامرني باكمال البيت . وفي بعض الاحيان ياتي بسجعة فاشفعها انا باخرى ، ثم ينشيء هو ثالثة وانشيء انا رابعة ، وهكذا دواليك . ومرة انشد البيت الاول من البيتين المذكورين ، فظننت انه يسجع ويريد مني سجعة تالية ، فقلت ، على البديهة (كحمار علقت عليه مخلاته) فمال لي ، هل تحفظ هذين البيتين ، فقلت ، لا ، انما ظننت ، انك تريد المساجلة في السجع ، فتعجب من ذلك وانشدني البيت الثاني بتمامه . ولهذا الاستاذ فضل علي يجب ان اذكره فاشكره . واعظم معروف اسداه الي شفاعته لي عند القنصل الفرنسي في وجدة ونائبه في اخراج جواز السفر . وخاطر بنفسه فضمنني، ومع اني لم اوف بضمانه ، بل حاربت الاستعمار الفرنسي ، لم يتغير علي رحمه الله .

وبعد هذا الاستطراد اعود الى الموضوع فاقول ان آلات فهم القرآن زيادة على علوم اللغة العربية ، علوم القرآن الخاصة به وعلوم الحديث الخاصة به ، ومعرفة الاصول التي تستنبط بها الاحكام من الكتاب والسنة . وفي رايي لا بد لطلاب علم الحديث والقرآن في هذا الزمان ان يتقنوا لغة اجنبية كالانجليزية والفرنسية ، لاجل ان يعملوا بالحديث الذي اخرجه الامام احمد والبخاري والترمذي عن بريدة قال ، قال رسول الله (ص) : بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار) فمقتضى هذا الحديث وما في معناه يوجب على كل من تعلم شيئا من حديث النبي (ص) ان يبلغه . وحذف المعمول في الحديث يدل على تعميم التبليغ ، كقوله تعالى : (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك) المائدة ، 68 ، اي بلغه جميع الناس . فكذلك قول النبي (ص) ، بلغوا عني ، ليس معناه بلغوا العرب وحدهم ، او كل من يعرف العربية ، بل المراد تبليغ جميع الامم بالسنتها حتى تعرف محاسن الاسلام وترغب فيه ، وحينئذ ستتعلم وتعلم ابناءها لغة القرآن ليتدبروه بانفسهم ويذوقوا طعمه بعقولهم ،

ولا يكتفون بالترجمة كما يفعله خطأ في هذا الزمان كثير من الشعوب الاسلامية ، فتراها تركب الصعب والذلول في تعليم ابنائها لغة المستعمر الاجنبية وتاخذها نشوة وطرب اذا رات ابناءها وبناتها يتراطنون باللغة الاجنبية وتهجر لغة القرآن فلا تنفق عليها وقتا ولا مالا ولا تبذل لاهلها جهدا . والذي يعد نفسه منهم متمسكا بالدين يكتفي بترجمة القرآن . ولا اقول ، ان هجر القرآن والحديث خاص بالشعوب العجمية المسلمة ، فان الشعوب العربية لا تقل عنها زهدا في القرآن والحديث ، مع انهما بلغتها ، ولا تحتاج من بذل الجهد في تعلم اللغة العربية ، لغة القرآن والحديث مثل ما تحتاج اليه الشعوب العجمية . فصدق عليهم قوله تعالى في سورة الفرقان 28 – 31 (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلانا خليلا . لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا . وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) .

اما الامة التي لم تبلغها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم على الوجه الاكمل الذي تقوم به الحجة فلا بد من تبليغ القرآن والحديث لها بلغتها . وقد جاء في الخبر ان اصحاب رسول الله حاصروا حصنا في بلاد فارس واستعصى عليهم فتحه ، وكان فيهم سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فقرأ على اهل ذلك الحصن سورة الفاتحة وترجم معناها لهم بالفارسية ، فاخبرهم ان المسلمين لا يقصدون استعبادهم ولا قهرهم ولا اهانتهم ، وانما يريدون ان يبلغهم رسالة الله التي جاء بها عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، واخبرهم ان دين الاسلام هو دين العدل والمساواة بين الناس ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لاسود على احمر الا بتقوى الله العظيم . ففتحوا الحصن واسلموا عن بكرة ابيهم . وسلمان هذا هو الذي قال فيه النبي (ص) : سلمان منا اهل البيت . رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين . واخرج الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري في الاستيعاب بسنده الى علي ابن ابي طالب انه سئل عن سلمان فقال ، علم العلم الاول والآخر ، بحر لا ينزف ، وهو منا اهل البيت . قال تقي الدين ، قوله علم العلم الاول والآخر . جاء في بعض الروايات مفسرا ، ان العلم الاول هو الانجيل ، والعلم الاخر هو القرآن والحديث . فكيف لا يقرر سلمان المساواة ، وقد جعله النبي (ص) من اهل بيته ، وهذا هو القضاء المبرم على نظام الطبقات الذي كان سائدا قبل الاسلام ولا يزال بعضه موجودا الى الآن .

قلت فيما مضى ، ان هذه المنقبة التي وفق الله لها جلالة الملك الحسن الثاني يغبطه عليها كل ملك وكل رئيس مسلم ، وهذا القول له دليل من حديث النبي (ص) ، فقد اخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله (ص) ، (لا حسد الا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) ، قال تقي الدين : والحكمة هي حديث النبي (ص) بدليل قوله تعالى في سورة الاحزاب (35 ، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) والذي كان يتلى في بيوتهن ، هو كتاب الله وحديث النبي (ص) . وقوله تعالى في سورة الجمعة (3 ، هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) ، ومن اسس دارا لتعليم الحكمة فقد علمها على اكمل وجه . فيجب على كل مسلم ان يغبطه . فان معنى الحسد في هذا الحديث ، هو الغبطة . واما الحسد بمعنى تمني زوال النعمة فهو مذموم ، وهو من الكبائر . وعسى رؤساء الدول الاسلامية ، اذ فاتهم السبق الى هذه المنقبة ، الا يفوتهم الاقتداء بجلالة الملك الحسن الثاني فينشئوا كليات على غرارها احياء لسنة النبي (ص) ورفعا لمنار الاسلام ، فان الله لا يرفعهم الا بذلك . فقد روى الترمذي باسناده الى بلال بن الحارث المزني قال ، قال رسول الله (ص) : من احيا سنة من سنتي قد اميتت بعدي ، فان له من الاجر مثل اجور من عمل بها من غير ان ينقص من اجورهم شيء ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله ، كان عليه من الاثم مثل آثام من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيء) . وروى الترمذي عن عمرو بن عوف قال ، قال رسول الله (ص) : ان الدين بدا غريبا وسيعود كما بدا ، فطوبى للغرباء ، وهم الذين يصلحون ما افسد الناس من بعدي من سنتي) قال الترمذي ، حديث صحيح . وقد سمعت منذ ثلاثة ايام من اذاعة لندن العربية خبر تاسيس كلية لدراسة علوم القرآن والحديث . ولا بد ان يكون هذا التاسيس صادرا عن ارادة الملك ادريس السنوسي . ولا غرابة في ذلك ، فان جده الامام المجتهد المحدث محمد بن علي السنوسي المغربي كان من ائمة الحديث المتاخرين ،

والف كتبا قيمة في الدعوة الى علوم الكتاب والسنة دراسة وعملا واقام الحجج القاطعة على بطلان التقيد ووجوب العمل بالكتاب والسنة واستجاب له خلق كثير فاخذوا يعملون بالكتاب والسنة ولا يلتفتون الى ما خالفهما كائنا ما كان . ولا استحضر الآن تاريخ وفاة هذا الامام ، ولكني لا اظن ان عصره كان بعيدا من عصر الامام محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي . وقد سافر الامام محمد بن علي السنوسي من وطنه المغرب الاقصى واستقر في ليبيا واسس فيها المدارس ونشر علم الكتاب والسنة . فهذان امامان مغربيان من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، نهضا في عصر واحد لاحياء علوم الكتاب والسنة والفا فيها ودعوا الناس اليها ، فلا غرو ان يقوم من آلهما في هذا الزمان امامان عظيمان يقتديان بهما ويمدان حبل دعوتهما التي هي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم جدهما ، ولهما ولغيرهما فيه اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . واذا كان احياء سنة النبي (ص) والقيام بدعوته وتجديد دينه فرضا واجبا حتما لازما على كل مسلم ، فهو على آل بيته ، وخصوصا الملوك والرؤساء منهم اوجب والزم .

ومع ان تأسيس دار الحديث عمل جليل احيا به الحسن الثاني سنة النبي ، فلا يكفينا من جلالته ، بل نرجو ان يكون اول الغيث وان يتبعه تحكيم الكتاب والسنة في سائر ارجاء مملكته تحكيما تاما شاملا عاما ، بحيث لا يحكم حاكم الا بهما ، ولا يفتي مفت الا بالاعتماد عليهما ، ولا يقتدي الا بهما ، فهما الشمس والقمر اللذان بهما وحدهما تستضيء الامة وتخرج منتصرة من كل كرب وغمة . وقد سبق الى الاشارة الى هذا المعنى اخي الاستاذ العبقري السيد عبد الله كنون في مقال نشره في مجلة دعوة الحق في الجزء الخامس من السنة السابعة تحت عنوان (دار الحديث ، أفق جديد في ثقافتنا الاسلامية) وذكر بالنهضة الموحدية لاحياء علوم الكتاب والسنة وتحكيمهما والعمل بهما . ونرجو ان تكون هذه المؤسسة فاتحة نهضة حسنية علوية محمدية تقر بها عيون المؤمنين وتسخن بها عيون اعداء الدين ، لا في المغرب وحده ، بل في مشارق الارض ومغاربها . وهذا ما تقتضيه النصيحة المفروضة علينا معشر طلبة العلم ، خصوصا والمسلمين عموما ، ان نبذلها خالصة لمن ولاه الله امر عباده وبسط يده في بلاده . فقد اخرج مسلم في صحيحه عن ابي رقية تميم بن اوس الداري عن النبي (ص) قال : (الدين النصيحة؛ ثلاثا ، قلنا لمن يا رسول الله ، قال ، لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم) . قال الحافظ ابن رجب في كتابه (جامع العلوم والحكم) في شرح هذا الحديث . واما الثاني ، وهو النصح لولاة الامور ونصحهم لرعاياهم . ففي صحيح مسلم عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : ان الله يرضى لكم ثلاثا ، ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وان تناصحوا من ولاه الله امركم . وفي المسند وغيره عن جبير بن مطعم ان النبي (ص) قال : في خطبته بالخيف من منى ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امريء مسلم ، اخلاص العمل لله ،، ومناصحة ولاة الامر ، وازوم جماعة المسلمين .

قال تقي الدين ، معنى هذا الحديث ، ان من كانت فيه هذه الخصال الثلاث ، وهي اخلاص العمل الذي يراد به وجه الاه لله وحده لا شريك له ، بحيث يكون خاليا من الشرك الاكبر ، كدعاء غير الله والذبح والنذر له والاستعانة به والاستعانة به فيما لا يقدر عليه الا الله ، كانزال المطر واعطاء الاولاد وما اشبه ذلك ، وخاليا ايضا من الشرك الاصغر . وهو ان يعمل العمل مما يراد به وجه الله ، كالصلاة والزكاة والحج وتعليم العلم والجهاد ليراه الناس ويمدحوه . ومناصحة ولاة الامر ، بذل النصيحة وعدم الخروج عليهم ما اقاموا الدين ، والدفاع عنهم ومحاربة من اراد ان يشق عصا الطاعة وطاعتهم اذا لم يامروا بمعصية الله وارادة الخير لهم . واما لزوم جماعة المسلمين ، المراد بالجماعة هنا اهل الحق المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله ، وان كانوا قليلا . من كانت فيه هذه الخصال يكون قلبه طاهرا من الحقد والضغن على المسلمين ، ويكون ممن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه . ثم قال ابن رجب في شرح الحديث مبينا ما يجب على ولاة الامور من النصح لرعيتهم ما نصه : وفي الصحيحين عن معقل بن يسار عن النبي (ص) قال : ما من عبد يسترعيه الله رعية ثم لم يحطها بنصيحته الا لم يدخل الجنة . وقد ذكر الله في كتابه عن الانبياء عليهم السلام، انهم نصحوا لاممهم كما اخبر الله بذلك عن نوح وعن صالح ، وقال ، ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله . يعني ان من تخلف عن الجهاد لعذر فلا حرج عليه بشرط ان يكون ناصحا لله ورسوله في تخلفه ، فان المنافقين كانوا يظهرون الاعذار كاذبين ويتخلفون عن الجهاد من غير نصح لله ورسوله . ثم نقل ابن

رجب عن الامام محمد بن نصر المروزي انه شرح النصح لائمة المسلمين بقوله : والنصيحة لائمة المسلمين ، معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف ، ومجانبة الوثوب عليهم ، والدعاء لهم بالتوفيق وحث الاغيار على ذلك .

وقال الامام النووي في شرح هذا الحديث : واما النصيحة لائمة المسلمين : فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه ، وامرهم به ونهيهم وتذكيرهم برفق ، واعلامهم بما غفلوا عنه ، ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج بالسيف عليهم ، وتاليف قلوب المسلمين لطاعتهم . قال الخطابي ، ومن النصيحة لهم ، الصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، واداء الصدقات اليهم ، وترك الخروج بالسيف عليهم اذا ظهر منهم حيف او سوء عشرة ، وان لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم ، وان يدعى لهم بالصلاح .

قال تقي الدين ، وقد رحلت في طلب علم الحديث من المغرب ، غربا الى كلكتا شرقا والى كابل في افغانستان ، فلم اجد من مدارس الحديث التي يدرس فيها الحديث والقرآن بقصد الاعتقاد والعمل ، الا مدارس اهل الحديث بالهند ، والا مدرستين احداهما بالمدينة النبوية ، والاخرى بمكة ، وقد اسسهما اهل الحديث الهنديون ، ولكن طائفة اهل الحديث بالهند ضعفت عما كانت عليه بسبب موت العلماء وعدم وجود من يخلفهم . وقد اسس الامام السيد رشيد رضا صاحب المنار رحمه الله مدرسة الدعوة والارشاد في القاهرة ، ولكني لم ادركها . اما السيد رشيد رضا نفسه فقد ادركته وكنت ازوره واتردد اليه مدة اقامتي بمصر . ولم تنقطع المكاتبة بيني وبينه حتى توفي رحمه الله . ونشر لي في المنار كتاب القاضي العدل في حكم البناء على القبور ومقالات اخرى . ولقيت اصحابه المتخرجين في مدرسة الدعوة والارشاد ، ولم يبق منهم الا اثنان ، احدهما الاستاذ الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة مدير دار الحديث بمكة ، والآخر هو الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار بدمشق ، ولا اعرف احدا يساويهما في علم الحديث في البلاد العربية.

وقد عم الجهل بعلوم السنة المحمدية منذ قرون في جميع البلاد الاسلامية ما عدا طائفة اهل الحديث في الهند كما تقدم . ولما زرت مصر سنة 1341 للهجرة لقيت في جملة من لقيته من العلماء فضيلة الاستاذ الشيخ علي الزنكلوني ، وهو من الطبقة العليا من علماء الازهر ، فتذاكرت معه في علم الحديث ، فقال لي في اثناء حديثي معه ، كم حديثا تحفظ ، فقلت له لا ادري . احفظ بعض متون الحديث ، بعضها اعرف صحابيه ومخرجه ودرجته من الصحة والحسن والضعف ، وبعضها لا اعرف الا متنه ومخرجه ، وبعضها لا اعرف الا المتن وحده ، فقال لي انا لا اشك في انك تحفظ ثلاثمائة حديث على اقل تقدير . وانا اخبرك انه لا يوجد في علماء الازهر كلهم من يحفظ عشرة احاديث . انما نقرأ سوادا في بياض . وما قرأناه من الحديث لانعرف منه صحيحا ولا ضعيفا .

قال تقي الدين : ولا شك ان في هذا الكلام كثيرا من التواضع ، ولكن اكثر علماء الازهر في ذلك الزمان ينطبق عليهم ما قاله ذلك الشيخ . ولاجل ان يعرف القارىء ان هذا الداء قديم وانه عام تقريبا في البلاد الاسلامية انقل هنا ما قاله الامام المجتهد بقية السلف، وعمدة الخلف ، المحدث الرحال صالح بن محمد الفلاني ، نسبة الى فلان قبيلة بالسودان المغربي في كتابه (ايقاظ همم اولي الابصار ، للاقتداء بسيد المهاجرين والانصار) طبع في مصر سنة 1354 بالمطبعة المنيرية ص 80 .

واعلم رحمك الله تعالى ، ان طلب العلم في زماننا هذا وفي بلدنا ، قد حاد اهله عن طريق سلفهم ، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه المتهم . وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم . فطائفة تروي الحديث وتسمعه ، قد رضيت بالدؤوب في جمع ما لا يفهم ، وقنعت بالجهل في حمل ما يعلم ، فجمعوا الغث والسمين ، والصحيح والسقيم ، والحق والكذب في كتاب واحد ، وربما في ورقة واحدة ، ويدينون بالشيء وضده ، ولا يعرفون ما في ذلك عليهم، قد شغلوا انفسهم بالاستكثاب عن التدبر والاعتبار . فالسنتهم تروي العلم ، وقلوبهم قد خلت من الفهم . غاية معرفة احدهم معرفة الكتب الغريبة ، والاسم الغريب ، والحديث المنكر . وتجده قد جهل ما لا يكاد يسمع احدا جهله من علم صلاته وحجه وزكاته . وطائفة هي في الجهل كتلك او اشد ، لم يعنوا بحفظ سنة ، ولا بأصل من القرآن ، ولا اعتنوا بكتاب الله عز وجل ، فحفظوا تنزيله ، ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله ، ولا وقفوا على احكامه ، ولا تفقهوا في حلاله وحرامه . وقد طرحوا علم السنن والآثار ، وزهدوا فيها واضربوا عنها . فلم يعرفوا الاجماع من الاختلاف، ولا فرقوا بين التنازع والائتلاف ، بل عولوا على حفظ

ما دون لهم من الراي والاستحسان الذين كان عند العلماء آخر العلم والبيان . وكان الائمة يبكون على ما سلف وسبق لهم فيه ، ويودون ان حظهم السلامة منه .

ومن حجة هذه الطائفة فيما عولوا عليه ، من ذلك انهم يقصرون وينزلون عن مراتب من له القول فى الدين لجهلهم باصوله ، وانهم مع الحاجة اليهم لا يستغنون عن اجوبة الناس فى مسائلهم واحكامهم . فلذلك اعتمدوا على ما قد كفاهم الجواب فيه غيرهم ، وهم مع ذلك لا ينفكون من ورود النوازل عليهم ، فيما لم يقدمهم فيه الى الجواب ، فهم يقيسون على ما حفظوا من تلك المسائل ، ويعرضون الاحكام فيها ، ويستدلون منها ويتركون طريق الاستدلال من حيث استدل الائمة ، وعلماء الامة . فجعلوا ما يحتاج ان يستدل عليه دليلا على غيره ، ولو علموا اصول الدين وطريق الاحكام وحفظوا السنن ، كان ذلك قوة لهم على ما ينزل بهم ، ولكنهم جهلوا ذلك فعادوه وعادوا صاحبه فهم يفرطون فى انتقاص الطائفة الاولى وتجهيلهم وعيبهم ، وتلك تعيب هذه بضروب من العيب ، وكلهم يجاوزون الحد فى الذم . انتهى كلام الفلاني .

اقول هكذا كانت حال علوم الكتاب والسنة فى زمانه فى بلاد السودان والمغرب الاقصى . فانه ولد بالسودان فى بلد آبائه العمريين ـ نس ـ من اقليم فوت جلوا سنة 1166 هـ . وتوفى بالمدينة النبوية سنة 1218 .

أما فى زماننا هذا ، فالطائفة الاولى تقتصر على سرد اول حديث من صحيح البخاري وآخر حديث منه مع ذكر اسانيدهما فى المناسبات للتبرك المجرد بلا فهم ولا عمل ، واذا تعدوا ذلك سردوا فى رمضان بعض فصول كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري سردا مجردا بلا شرح ولا استنباط . اما الطائفة الثانية فانها تتعاطى بعض المختصرات الفقهية فى الفروع المذهبية دون معرفة خلاف ولا وفاق ، فضلا عن الترجيح بالدليل والبرهان . وبالجملة ، نقول ان تأسيس كلية لعلم الحديث والقرآن وما يخدمهما من العلوم فى هذا الزمان على أساس متين على نهج السلف الصالح من التحقيق والاستنباط والتبصر يعد بحق فتحا جديدا . ولذلك تلقينا هذه البشرى بهذا القدر من الفرح ، وقد حركت القريحة الخادمة مؤملا ان تجود بشيء من الشعر فى هذه المناسبة فتقاعست ولم نجد الا بشيء تافه لايسمن ولا يغني من جوع ، فترددت فى اثباته هنا لتفاهته وقلة غنائه ، ثم عزمت على اثباته عملا بقوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا) .

بدار حديث المصطفى حقت البشرى
فاشرقت الآفاق وامتلأت بشرا

هي الفكرة الحسنى بها الحسن ارتقى
الى ذروة الاحسان وهو بها احرى

فلا شك ان الله الهم عبده
لذا العمل المبرور والنعمة الكبرى

وصية خير الخلق طرا وعهده
الى امة القرآن يا سعد من برا

على حين عم الجهل في الناس كلهم
ولا سيما بالذكر والسنة الغرا

وشاع ابتداع فاتك في ربوعهم
فاظلمت الارجاء وامتلأت نكرا

وساد رؤوس الجهل واشتد كيدهم
وقد اضمروا للامة المكر والغدرا

مضوا يسلبون المال والعقل والهدى
ويستعبدون الناس بالحيل الحقرا

فاطلعها نورا يضيء حنادسا
من الجهل ذاق الناس من طعمها المرا

واحيا من الآمال ما كان ميتا
فاصبح نفر العلم والدين مفتخرا

ومن يحيي سنات الرسول وهديه
يهيىء له الرحمن من امره يسرا

ويعظم لـه اجـرا ويرفـع ذكـره
ويبلغه آمـالا ويشـرح له الصـدرا

ومـن رام من اعدائـه ان يكيـده
يبقـي فـان الله يمنحـه النصـرا

ومن ينصر الرحمن ينصـره عاجـلا
وينصره يوم الحشر في النشأة الاخـرا

ومن يقـرا القـرآن من غيـر سنـة
يضل ويلقـي في عواقبـه خسـرا

فتفسير قـول الله هـدي رسولـه
وذلـك في القـرآن متضـح يقـرا

فيا ايها الملك الهمام الذي سـرت
بأخباره الركبـان تنشرهـا نشـرا

وما زال بالافعـال يشفـع قولـه
فتبني له بين الورى المجد والفخـرا

جزاك الـه النـاس خيـر جزائـه
على دار علم شدتهـا للهـدى فجـرا

اليك اسـوق اليـوم نظمـا ملفقـا
وكـان بـودي ان انظمـه درا

ولكن هجرت الشعر دهرا فاوصـدت
بوجهي قوافيـه وكافانـي هجـرا

فقابله بالصفح الـذي انـت اهلـه
واسدل عليه من جميل الرضا سترا

مكناس : تقي الدين الهلالي

اقـرأ في العـدد القـادم

تعقيبا للاستـاذ محمد الحلـوي على مقالـة العناصر القرآنية في قصيدة (قفانبك) المنشورة في العدد السادس للاستاذ محمد بن تاويت .

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- I -

دعاني رئيس تحرير مجلة دعوة الحق الى كتابة مقالات تنشر فيها مما يناسب الغرض الذي انشئت لاجله وهو الثقافة العامة . وقد رايت وسمعت ان بعض الشبان وبعض المتصابين من الكهول يشتكون من داء الشك فى العقائد الاسلامية والتشريع المحمدي الاغر .

وبالطبع ينتهج هذه الفرصة ابالسة التشكيك والتضليل من المستعمرين الروحيين فى خارج البلاد ووكلائهم فى داخلها . فرايت ان الكلام فى هذا الموضوع من المهم المتعين ، وان كان ائمتنا اهل الحديث ـ نضر الله وجوههم فى الدنيا والآخرة ـ قد نهوا عن الخوض فى علم الكلام والجدل دون ان تدعو الى ذلك ضرورة مقاومة المفسدين او تثبيت عقيدة المؤمنين فعند ذلك تتعين المقاومة ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة . قال تعالى فى سورة البقرة فى الحزب الثالث باصطلاح المغاربة : « **ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فاولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم** » وروى احمد بن حنبل رحمه الله عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من سئل عن علم فكتمه الجمه الله بلجام من نار** » .

وسأسوق باذن الله من البراهين القاطعة التي تضطر كل عاقل يطلب الحق الى الاعتقاد الراسخ لوجود الله سبحانه وانه الخالق البارىء لكل شيء فى العوالم العلوية والسفلية والمهيمن عليه والمدبر لجميع شؤونه وحده بلا شريك ولا ظهير ولا معين .

التعريف بكتاب علمي قيم

الف العالم الفلكي الامريكي الطائر الصيت كويسي مورسن كتابا نفيسا باللغةالانكليزية . وقدترجم هذا الكتاب باللغة العربية مصدرا بمقدمة لشيخ الازهر السابق وسماه المترجم (**العلم يدعو للايمان**) الا ان الترجمة فى بعض المواضع غامضة لايتبين معناها وليست موجودة عندي الآن ، وانما اعتمد فى ماانتزعه من البراهين العلمية على النص الانكليزي وبالله التوفيق .

بدا هذا المؤلف الحكيم كتابه بمثل ضربه فقال : « افترض انك اخذت عشرة افلس وكتبت على كل واحد رقما مبتدئا من واحد الى عشرة ، ثم وضعت الافلس العشرة فى كيس ثم هززت الكيس هزا عنيفا حتى اختلط الافلس بعضها ببعض ، ثم اردت ان تخرج تلك الافلس على ان تصادف يدك عند ادخالها الكيس فى المرة الاولى الفلس المرقوم بواحد وفى المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين وفى الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة وهكذا الى آخرها على الترتيب . فكم يكون حظك من النجاح فى المرة الاولى ان تصادف الفلس المرقم برقم واحد وفى المرة الثانية الفلس المرقم برقم اثنين على التوالي يكون واحد فى المائة ، فان اردت ان تدخل يدك فى الكيس ثلاث مرات متوالية وتصادف فى المرة الاولى الفلس المرقوم برقم واحد وفى المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين ، وفى المرة الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة فان حظك من النجاح يكون واحدا فى الالف ، وان اردت ان تصادف الاول والثاني والثالث والرابع على التوالى فان حظك من النجاح يكون من عشرة آلف . وقس على ذلك الى

العاشر فان حظك من النجاح ان تصادف يدك الفلس المرقوم برقم واحد الى الفلس المرقوم برقم عشرة على التوالي يبلغ رقما لايتصوره العقل وهو واحد من عشرة ملايين ».

والغرض من ضرب هذا المثل السهل ادراكه ان نبين مقدار استحالة قول من يزعم ان هذا العالم تم خلقه وتدبيره بالمصادفة ، فان هناك شروطا لازمة لوجود الحياة على ارضنا هذه ، وهذه الشروط لايمكن ابدا من الوجهة الحسابية ان توجد كلها بالنسب المطلوبة بالمصادفة المجردة على اي ارض فى أي زمن ، لذلك يتحتم ان يكون وراء الطبيعة كائن عالم مدبر ، اذا علمت ذلك وهو حق تعلم يقينا ان خلق هذا العالم مقصود ومقدر قبل وجوده تقديرا دقيقا ، اذن فالغرض من تاليف هذا الكتاب الاشارة الى شيء من نظام هذا الكون العجيب .

دعنا الآن نختبر الحقائق المدهشة ، زعم علماء الفلك ان نجما عظيما مر بقرب شمسنا ودنا منها دنوا كبيرا بحيث وقع فيها ارتجاج واضطراب عظيم فانشقت وانفصلت عنها قطع كبيرة وكل قطعة اتخذت لها فلكا تدور فيه وكان ذلك منذ مايقرب من بليونين من السنين ، ثم ان احدى تلك الكتل التي انفصلت عن الشمس هي هذه الارض التي نعيش فيها .

قال كاتب هذا المقال قد يستأنس بعض الناس لاثبات هذه النظرية بقوله تعالى « **اولم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما** » الآية .

ونحن لانريد ان نتعرض لهذا الاستئناس بنفي ولا اثبات لان ذلك يتطلب بحثا دقيقا واناة وصبرا ومقالا منفردا ، ولكن نريد ان نبين للمغرورين من الشاكين والمغررين من المشككين ان مثل هذه النظريات التي يحاول علماء الفلك ان يحلوا بها المشكلات الكونية هي اضعف من ان يعتمد عليها فى نفي وجود الباري جل وعلا وابداعه للكائنات وتدبيره لشؤونها بغاية الاحكام والاتقان ، كما قال تعالى فى سورة السجدة « **ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي احسن كل شيء خلقه** » وقال تعالى فى سورة النمل « **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء انه خبير بما تفعلون** ». وقد انتقدت طائفة من علماء الفلك هذه النظرية ولم يقبلوها .

وهناك نظريات اخرى فى تكوين الارض ليست اقوى ولا ابعث على الطمأنينة من النظرية السالفة وذلك يدل على قلة ما وصل اليه علم الانسان من اسرار خلق السماوات والارض ، قال تعالى « **وما اوتيتم من العلم الا قليلا** » وقال تعالى فى سورة آل عمران « **ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب** »

ثم نعود الى الكلام على هذه الارض التي خلقنا الله فيها وامرنا بالنظر والتفكر فيها ، فقال سبحانه « **افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الارض كيف سطحت** » قال العلماء ان هذه الارض صغيرة الحجم بالنسبة الى غيرها فهي من هذه الوجهة ليست من الاجرام الفلكية المهمة . ومع ذلك قام الدليل على انها اهم كوكب نعرفه .

ولنفرض ان الارض مؤلفة من العناصر الموجودة فى الشمس لا غير ، فهذه العناصر موزعة فى الارض كل واحد منها له نسبة مئوية وهذه الاجزاء التي خبرناها على وجه الارض توزيعها فى غاية الدقة والاتقان ، يدل العالم به ان وراءه مدبرا عالما قديرا منزها عن الوهم والنقص ، ثم ان حجمها نفسه قد روعي فيه مقدار معلوم لايمكن ان يزيد ذرة ولا ان ينقصها . فسرعة دورانها فى فلكها حول الشمس مقدرة تقديرا فى غاية الدقة ، ودورانها على محورها مقدر كذلك ومحدد بحيث لو وقع فيه اختلاف بثانية واحدة فقط فى مدة مائة سنة لانقلب الحساب الفلكي كله وتغيرت حدوده .

ويرافقها كوكب يعرف بالقمر ، وحركاته مقدرة بدقة وله دورة محدودة تبتديء وتنتهي فى ثماني عشرة سنة وثلاثة ارباع السنة . ولو كان حجم الارض اكبر مما هو عليه او اصغر او كانت سرعتها على غير ماهي عليه لكانت المسافة التي بينها وبين الشمس ابعد او اقرب ، وهذه الحالة تؤثر تأثيرا بليغا فى جميع انواع الحياة التي على وجه الارض ومنها حياة الانسان .

قلنا ان اختلاف سرعتها فى دورانها يؤثر فى بعد المسافة او قربها وفى كلتا الحالتين من القرب والبعد لايمكن ابدا وجود الحياة على وجه الارض على الوجه الذي نعرفه ، والارض من بين جميع الكواكب السيارة ، وحسب مانعلمه حتى الآن هي الكوكب الوحيد الذي بسبب علاقته بالشمس صار فى الامكان وجود هذه الحياة التي نحياها فيه .

قال كاتب المقال : « قال العلماء : ان العناصر التي تتألف منها الارض موزعة بمقادير دقيقة لاتزيد ذرة ولا تنقصها » ، فمن الذي قدرها قبل خلقها وعلم انها لاتصلح الا كذلك ، ثم خلقها وانشأها على وفق علمه وحفظ تلك المقادير محدودة بالحد الذي حده والنظام الذي أبدعه اليس هو الله رب العالمين القائل في سورة الذاريات « **والارض فرشناها فنعم الماهدون** » وقال تعالى في سورة النازعات « **والارض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها والجبال ارساها متاعا لكم ولانعامكم** » .

ومن الذي جعل حجم الأرض على ماهو عليه وعلم انه لو زاد على هذا القدر لما امكن وجود الحياة على ظهر الارض ولبطل خلقها وانشاؤها) اليس هو الله رب العالمين ؟ .

ومن الذي جعل الارض تدور حول الشمس في مدة سنة وتدور على محورها في اربع وعشرين ساعة ، ولو زادت ثانية واحدة وهي جزء من ستين جزءا من الدقيقة في مدة مائة سنة لاختل نظامها : ايمكن ان يوجد هذا كله على سبيل المصادفة بلا علم ولا تدبير ولا هيمنة ؟ كل من له ادنى مسكة من العقل والانصاف يعلم يقينا ان وراء ذلك الصنع العجيب مدبرا عليما حكيما فتبارك الله احسن الخالقين .

ومن الذي جعل هذا القمر يرافق الارض دائرا حولها بحساب دقيق معلوم في منازله وفي المقادير التي تظهر منه هلالا فقمرا منيرا فبدرا تاما ثم يتناقص حتى يختفي ثم يعود هلالا مرة اخرى ، اليس هو القائل في سورة يس « **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** » اليس هو القائل « **هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ظلال مبين** » .

(للبحث صلة)

حب الحقيقة

قد عرفت اشخاصا يحبون الصلاح مقابل واحد يحب الحقيقة ، بيد ان حب الحقيقة لذاتها فضيلة اعظم من حب الصلاح لذاته

« امرسون »

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 2 -

للدكتور تقي الدين الهلالي

قال الله تعالى : « **يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله انـدادا وانتم تعلمون** .

العبادة غاية الحب فى غاية التذلل ، ولا يستحقها الا الله عز وجل لانه الخالق الرازق الذي تفضل علينا بنعمة الايجاد والامداد ، ولها اعمال واقوال تدل عليها، فاعظمها الدعاء وهو طلب جلب النفع او دفع الضر ، ومنها الاستغاثة والاستعانة والتوكل فى ما لا يقدر عليه الا الله كانزال المطر وشفاء المريض وكشف سائر الاضرار اذ هو الذي مهد لنا الارض وجعلها فراشا صالحة لان نسكن فيها ونسير فى مناكبها فى برها وبحرها وجوها وجعل السماء سقفا محيطا بنا حافظا لنا وانزل المطر من السماء فاخرج به لنا من انواع الثمرات ما لا يأتى عليه الحصر ولا يحده وصف .

والان ننظر ماذا فى السموات والارض من الاسرار والعجائب والحكم لنزداد علما ومعرفة وتعظيما للواحد الاحد .

قال علماء الفلك انه الى حد الان لم يتحقق عندهم ان الحياة باي نوع من انواعها موجودة فى اي جرم من الاجرام السابحة فى الفضاء ما عدا هذه الارض التي نعيش فيها ، قالوا ان عطارد لا يمكن وجود الحياة فيه لانه لا يواجه الشمس منه الا جانب واحد من جانبيه ، وهذا الجانب لابد ان يكون صحراء حامية كالاتون ، وهو الفرن الذي يصنع فيه الخزف ، والجهة الاخرى جامدة شديدة الزمهرير ولا يوجد فيه هواء ، وان وجد شيء منه فانه غير مستقر بل هو فى عصف مستمر يندفع من جانب الى جانب .

واما الزهرة فانه يحيط بها ضباب وبخار وجوها تخين لا يصلح للحياة باي شكل من اشكالها .

اما المريخ فهو الكوكب الوحيد الذي يمكن ان تكون فيه حياة كارضنا ، اما فى بدايتها او فى اول ظهورها وتميزها ، لكن الحياة فى المريخ ان كانت موجودة فلا بد ان نعتمد على غاز آخر غير الاكسجين والهيدروجين ، لان هذين يظهر انهما لا يوجدان فيه ، وجوه غير صالح للنبات على الوجه الذي نعرفه .

اما القمر فلا يمكن ان يمسك الهواء وهو الان غير صالح لان يكون مسكونا ، لان ليله شديد البرد الى حد يستحيل ان يعيش فيه حيوان او نبات ، واما نهاره الطويل فهو فى غاية الحر .

واما الاجرام السماوية الاخرى فهي بعيدة من الشمس فلا يمكن ان توجد فيها الحياة بأي شكل من اشكالها فتبين حسبما نعلم ان الحياة لا توجد الا فى ارضنا ، ولم تكن فى اول خلقها صالحة لوجود الحياة فيها فقد مضت عليها اطوار استغرقت بليونين او ثلاثة من السنين قبل ان تكون صالحة وملائمة لوجود الحياة حياة النبات والحيوان ثم توجت بايجاد الانسان الذي هو السيد المتصرف فيها باذن الله ، والارض تدور على محورها مرة فى كل اربع وعشرين ساعة او بمقدار الف ميل فى كل ساعة ، فلنفرض انها تدور على محورها بسرعة مائة ميل فى الساعة ، فحينئذ تكون

ايامنا وليالينا اطول مما هي عليه عشرات المرات ، فشمس الصيف الحامية تحرق جميع النبات وفى ليال الشتاء الطويلة يجمد كل شيء وتكون الحياة مستحيلة.

اقول للشاكين واساتذتهم المشككين ماذا تقولون فى هذه الدقة فى دوران الارض على محورها بالقدر الذي يصلح لحياة الحيوان والنبات لا اكثر ولا اقل . الا ترون وراء هذا النظام الدقيق علما وقدرة وتدبيرا مقصودا محكما ؟ اتظنون ان هذا كله وقع على سبيل المصادفة فاين تذهبون ؟ .

والشمس التي هي مصدر جميع الحياة ، تبلغ الحرارة على وجهها اثنى عشر الفا (فارنهايت) ، وارضنا بعيدة من الشمس التي هي نار حامية بعدا كافيا بالقدر الذي تعطينا فيه الحرارة الكافية لحياتنا لا اكثر ولا اقل . انه لنظام عجيب . ومع مضي الملايين من السنين لم تختلف حرارتها الا قليلا ولذلك بقيت الحياة مستمرة ، لو تغير مقياس الحرارة على وجه الارض حتى بلغ معدله خمسين درجة لمدة سنة لمات كل نبات على وجه الارض ولاحترق الانسان او جمد ، وتدور الارض حول الشمس بسرعة ثمانية عشر ميلا فى كل ثانية ، ولو ان سرعة دورانها كانت ستة اميال او اربعين ميلا فى كل ثانية لبعدنا كثيرا جدا من الشمس او لقربنا منها كثيرا وحينئذ لا يمكن ان تكون حياتنا على الشكل الذي هي عليه الان .

فمن الذي جعل دوران الارض حول الشمس ثمانية عشر ميلا فى الثانية ، وقدر ذلك عالما به وجعله على القدر الذي تصلح عليه حياة الحيوان والنبات لا يزيد ثانية ولا ينقصها ، اليس هو العليم القدير .

« والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » .

والنجوم تختلف فى الحجم كما نعلم ، فمنها الكبير الى حد انه لو كان فى موضع شمسنا لكانت ارضنا داخلة فى جوفه بعيدة من سطحه ملايين الملايين من الاميال ، والنجوم وهي شموس تختلف فى اشعاعها فبعضها ترسل اشعة قاتلة لا تصيب شيئا حيا من حيوان او نبات الا اهلكته ، بل لا يمكن وجود الحياة معها، وبعضها تعطي اشعة ضعيفة اقل من اشعة شمسنا بكثير جدا فلا تمكن الحياة معها .

ولو ان شمسنا ترسل نصف الاشعة التي ترسلها الان فقط لجمدنا من شدة البرد ، ولو انها ترسل اشعتها خمسين فى المائة زيادة على ما ترسله الآن لصرنا رمادا منذ زمان بعيد هذا اذا امكن وجودنا بالمرة على شكل ذرة الحياة الاولى التي تسمى عند علماء الحياة بروتوبلاسما ، فالاشعة التي ترسلها شمسنا موافقة بالضبط لما تحتاج اليه حياتنا لا تزيد ذرة ولا تنقصها ، وهي واحدة من بين ملايين الشموس التي لا تصلح لحياتنا

اقول فمن الذي جعل اشعة هذه الشمس مطابقة لما تستلزمه حياتنا لا زيادة ولا نقص ، اليس هو العليم الخبير ؟ **(وسخر الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سالتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) .**

وقد بعجت الارض فى احدى زواياها عند الدرجة الثالثة والعشرين ، وهذا هو الذي نشات منه فصول السنة الاربعة ، ولولا ذلك لكان القطبان فى غلس دائم ، والغلس هو اختلاط النور بالظلام كما يكون الامر بعد طلوع الفجر ، وحينئذ لا تصل اشعة الشمس الى القطبين اصلا ، وفى هذه الحال تنشأ جبال هائلة من الثلوج والمياه الجامدة وتؤثر فى البحور المحيطات فتضطرب وينشأ عن ذلك ضرر عظيم لسكان الارض .

اقول وفى ذلك برهان ساطع على ان الله قدر الارض قبل خلقها ، ثم خلقها طبقا لتقديره وجعلها على نظام دقيق صالح لحياة العباد على احسن حال فتبارك الله احسن الخالقين .

وفى كل شيء له آية
تدل على انه الواحد

فماذا يقول الشاك وماذا يقول المشكك فى هذه الادلة القاطعة ؟ أيتجرأ أن يدعي ان ذلك كله وقع على سبيل المصادفة رمية من غير رام ؟ ان تجرأ على هذه الدعوى يكون قد خرج عن دائرة العقل والانصاف واتصف بالوقاحة والمكابرة لئلا يقيم العقلاء له وزنا .

والقمر يبعد عن الارض بمائتين واربعين ميلا ، ومع ذلك فان المد الذي يقع فى البحار مرتين فى كل يوم يذكرنا بتاثيره فى الارض ، ويبلغ ارتفاع الماء فى المحيطات بسبب المد ستين قدما فى بعض الاماكن .

وللمريخ قمر صغير لا يبعد عنه الا ستة الاف ميل ، ولو ان قمرنا كان قريبا من ارضنا بان كانت

المسافة بينهما خمسين ميلا فقط بدلا من المسافة الحاضرة لكان المد شديدا هائلا بحيث يغرق جميع الاراضي المنخفضة فى القارات كلها ، بل تبلغ قوته الى ان يزيل الجبال ويكسحها من اماكنها ، وحينئذ يتوقع ان يغمر الماء الارض كلها فلا يظهر شيء من القارات ، ويحدث المد فى الهواء عواصف هائلة كل يوم ، وفى هذه الحال لا يمكن وجود الحياة الا فى قعر البحار المحيطة .

اقول فمن الذي جعل القمر بعيدا من الارض بالقدر الذي ينفع ولا يضر ، فان المد الذي يحدثه القمر فى البحار ينفع الناس ، فلولاه ما امكن دخول البواخر الكبيرة من خليج البصرة الى شط العرب وهو النهر المتالف من دجلة والفرات فلا تصل البواخر الى عبادان ولا المحمرة ولا البصرة ، وبيان ذلك ان ماء النهر لا يكفي لدخول البواخر الكبيرة وسيرها فاذا جاء المد دفع ماء النهر الى الوراء فامتلا النهر وامكن سير البواخر فيه ، فاذا جاءت البواخر فى وقت الجزر تنتظر وقت المد لتدخل الى المراسي المذكورة ، وكذلك تفعل اذا ارادت الخروج منها ، وليست فائدة المد منحصرة فى ما ذكر فان سقي المزارع فى ناحية البصرة يتوقف على المد ، فكل مزرعة او جنة يريد صاحبها سقيها فما عليه الا ان يفتح مدخل الماء من النهر او من احد فروعه قبل وقت المد فاذا جاء المد دخل الماء فسقيت المزرعة او الجنة بالقدر الذي يريده صاحبها فاذا اراد صرف الماء وقطعه عنها فما عليه الا ان يسد الشعب الذي يدخل منه الماء ، وهناك فوائد اخرى فى المد حرفنا النظر عن ذكرها فسبحان الخلاق العليم .

ولو ان القارات زالت لغمر ماء البحار الارض كلها وصار عمقه نحو ميل ونصف وانعدمت الحياة الا فى قعر البحار المحيطة كما تقدم ، وبناء على القوانين الفلكية المعترف بها يرى علماء الفلك ان المد الذي يحدثه القمر فى البحار يدفع القمر نفسه ليبعده عن الارض ، وفى الوقت نفسه يؤثر بطئا فى دوران الارض من اقل من ست ساعات الى اربع وعشرين ساعة فى اليوم ، فالقمر الذي هو الان سمير للعشاق سيبقى مستمرا على نظامه البديع باذن الله لمدة بليون من السنين ، واولئك الفلكيون انفسهم يعتقدون ايضا طبقا للقوانين الفلكية نفسها انه سيرجع فى يوم من الايام الى الارض وينفطر حين يدنو من الارض جدا وتبيد الارض واهلها (**كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون**) .

اقول فمن الذي احدث ذلك التفاعل المفيد بين الارض وابنها الوحيد القمر لمصلحة العباد وسيحفظه كذلك الى يوم الميعاد ، ويومئذ تنفطر السماء وينشق القمر وتكور الشمس وتنكدر النجوم وتسير الجبال ، (**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**)

يقول علماء الفلك ان مادة الارض قد اقتطعت من الشمس على شكل خليط من العناصر الغازية تبلغ حرارته اثني عشر الف درجة والقيت فى الفضاء الذي لا نهاية له ، من ذلك تطورت الارض حتى صار لها نظام شمسي دقيق ، وكل طور من تلك الاطوار جاء مترتبا على ما قبله بتقدير وتطبيق فى غاية الاحكام ومنتهى الكمال لا يقع فيه اختلاف ولو فى بليون سنة .

اقول هذا كلام علماء الفلك وهو واضح فى الدلالة على الخالق العليم القدير الذي احسن كل شيء خلقه فتبارك الله رب العالمين .

(يتبع ....)

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 3 -

انواع الغاز الذي نتنفس به

من المعلوم ان الانسان لايستطيع ان يعيش لحظة بلا تنفس الهواء اللازم لحياته ، ولذلك ترى العملة الذين يشتغلون فى باطن الارض كعمال المناجم يتزودون بالمقدار الكافي من الهواء النقي لتنفسهم وحياتهم ، ونرى المتسلقين لقمم الجبال الشواهق كجبال هملايا فى الهند ايضا ياخذون معهم المقدار الكافي من الهواء للتنفس ، لان الهواء الصالح للتنفس يقل بالتدريج كلما ارتفع الانسان فى الجو حتى ينعدم بالمرة ، وهذا هو الذي يعسر على الانسان والحيوان الانفصال عن الارض زيادة على مايسمى بالجاذبية وهو انجذاب كل ثقيل فى جو الارض او فوقها ، الانجذاب هو طلبه للقرار وهو مركز الارض اي وسطها ، فلو القيت حجرا من اعلى الجو لانطلق بسرعة طالبا لمركز الارض ، فان لم يجد مانعا استمر هابطا حتى يبلغ مركز الارض ويقف فلا يزيد ذرة ولو لم يجد مانعا ، فلو القينا حجرا من جهة الشرق وحجرا آخر من جهة الغرب ولم يجدا مانعا لنزلا حتى يجتمعا فى مركز الارض ، ولو جعلنا بدل الحجرين انسانين لاجتمعت اقدامهما فى المركز اذا لم يمنعهما مانع ، هذا ماقاله الامام ابن تيمية فى كتاب الرسالة العرشية ، وجميع العلماء من المسلمين وغيرهم متفقون على هذا .

وكم سمعنا بعملة يحفرون بئرا فى الاراضي التي يقل الماء فيها حتى اذا وصلوا الى مسافة بعيدة فى اسفل الارض اصابهم اغماء ثم موت على الفور ، وحفار الآبار يعرفون ذلك بالتجربة فاذا اضطروا الى انزال العملة الى مسافة بعيدة من الارض يربطون فى اوساطهم حبالا حتى اذا احس احدهم بالاغماء يصيح فيجذبه رفقاؤه ويرفعونه الى وجه الارض فيستنشق الهواء النقي ويرجع اليه وعيه ، والعمال لايعرفون سبب ذلك فيظنون انه من البئر ويقولون فلان نفخت عليه البئر فمات ، والحقيقة ان البئر لم تنفخ عليه ، وانما وصل الى موضع لايوجد فيه الهواء اللازم لتنفسه وحياته ، وكم سمعنا بفرد او جماعة ناموا فى بيت فيه فحم فى مجمر لم يتم احتراقه وسدوا عليهم باب البيت فأصبحوا امواتا ، فما هو سبب موتهم ؟ الجواب سهل فان الكاربون الذي ينبعث من الفحم يأكل الهواء الذي فى البيت حتى ينقضي بالتدريج فلا يجد النائمون هواء يتنفسونه فيموتون ، وهذا كله يدلنا على ان الهواء ضروري لحياة الانسان والحيوان البري كضرورة الماء للحيوان البحري ، والآن دعنا نتخذ الهواء الذي تتوقف عليه حياتنا برهانا جديدا على النظام والتدبير البديع الذي يقوم عليه هذا العالم العجيب ، اعلم ان الهواء المحيط بالارض يتألف من عناصر ، وهي : الاكسجين والنتروجن والاركون والنيون والستون والاكربتون ، ويحتوي على بخار الماء ونحو ثلاثة اجزاء من عشرة آلاف من اكسيد الكاربون ، ثم ان الانواع القليلة المقدار من الغاز توصل الى العين اللون الاحمر والازرق والاخضر ، والاركون الذي يوجد منه فى الهواء تسعة من عشرة اجزاء من واحد فى المائة يعطينا الضوء الكهربائي اللامع الذي لم يزل فى تقدم مطرد يزيد فى ازدهار المدنية ويستعمل فى كل مكان .

والنتروجين الذي يوجد منه تقريبا ثمانية وسبعون فى المائة فى الهواء ، والاكسجين الذي هو على العموم احد وعشرون فى المائة ، فالهواء بمجموعه يضغط على الارض تقريبا بقدر خمسة عشر رطلا

على كل انش (1) مربع على مستوى سطح البحر ، والاكسجين الذي يوجد في الجو هو احد اجزاء هذه المواد يحدث ضغطا بقدر ثلاثة ارطال لكل انش مربع ، وكل مابقي من الاكسجين هو محصور في قشرة الارض ويشكل ثمانية من عشرة من جميع المياه التي في الارض .

ثم ان الاكسجين تتوقف عليه حياة كل حي على وجه الارض من انسان وحيوان ، ولا يمكن الحصول عليه الا في الجو ، والآن تعرض لنا مسألة مهمة جدا وهي كيف وجد من هذا العنصر المهم المقدار الكافي بالضبط لحياة الانسان والحيوان لا اكثر ولا اقل . ؟ فلو كان مقدار الاكسجين مثلا خمسين في المائة او اكثر بدل احد وعشرين لصارت كل مادة في الارض قابلة للاشتعال على غاية الاستعداد للالتهاب لادنى ومضة من البرق فاذا اصابت شرارة شجرة التهمت النار جميع اشجار الغابة وما حولها ، ولو نقص مقدار الاكسجين الى حد عشرة في المائة او اقل لضعفت الحياة على وجه الارض وسارت نحو الفناء : فمن الذي ركب الهواء من تلك العناصر وجعل من كل عنصر اجزاء محدودة في غاية الدقة لو زاد شيء منها او نقص مثقال ذرة لفسد الكون واختل نظامه ؟ وهل في وسع عاقل يطلع على ذلك ان يدعي أن هذا الكون وليد المصادفة والاتفاق رمية من غير رام ؟ .

وقد قيل ان الانسان اذا تنفس يشبه الاتون المتقد ، وهذا القول له نصيب من الحقيقة ، فان الانسان في كل نفس يقذف مقدار من الكاربون ويأخذ مقدارا من الاكسجين ، وكل شيء حي من انسان وحيوان كذلك .

والاكسجين زيادة على ذلك شرط جوهري للحياة لتأثيره على العناصر الاخرى في الدم وفي غيره من اجزاء الجسم التي بدونها لاتوجد الحياة .

ومن جهة اخرى قد علم يقينا ان حياة جميع النبات تتوقف على مقدار من ذرات اكسيد الكاربون الموجودة في الهواء التي نتنفسها ، فالاوراق للاشجار بمنزلة الرئتين للانسان فالنبات بعكس الحيوان يأخذ الكاربون ويعطي الاكسجين الذي نتنفسه ، فالنبات يغذي نفسه باذن الله وينتج زيادة على ذلك مايكفي لغذاء كل حي على وجه الارض ، وفي الوقت نفسه يخرج الاكسجين الذي نتنفسه والذي بدونه تنقضي الحياة في خمس دقائق ، فيجب ان نعرف مقدار هذه النعمة التي تتوقف حياتنا عليها . فجميع النبات من شجر ونجم واعشاب وغير ذلك من انواع الزرع تتوقف حياته على الكاربون والماء ، فالحيوان يعطي حامض اكسيد الكاربون ، والنبات يعطي الاكسجين ، ولولا هذا التبادل الواقع بينهما لاستهلك الحيوان الناطق والاعجم جميع ما في الارض من الاكسجين ، وحينئذ تكون القاضية ، او يستهلك النبات جميع ما في الارض من الكاربون فيهلك ، وايهما هلك اولا تبعه الآخر .

وقد اكتشف اخيرا ان حامض اكسيد الكاربون بمقدار قليل ايضا لابد منه لحياة اكثر الحيوان ، وكذلك النبات يحتاج الى قليل من الاكسجين .

وينبغي لنا ان نذكر الهيدروجين ونضيفه الى ضروريات حياتنا ، فمع اننا لانتنفس هذا العنصر ، لانستطيع العيش بدونه لان الماء الذي تتوقف عليه حياتنا لايوجد بدون هيدروجين ، فالاكسجين والهيدروجين وحامض اكسيد الكاربون كل على انفراد ومجتمعات بنسب مختلفة تشكل عنصرا حيويا لوجود انواع الحياة الثلاثة : حياة الانسان ، وحياة الحيوان ، وحياة النبات . وهذه العناصر هي الاساس الذي ترتكز عليه الحياة ولا يمكن ابدا ولو بقدر واحد من ملايين ان توجد هذه العناصر كلها بمقاديرها المحدودة جدا في غاية الدقة في وقت واحد على كوكب واحد وهو ارضنا التي نعيش فيها بالقدر الذي تحتاجه الحياة . ان العلم لا يضع تعليقات على الحقائق وانما يقتصر على كشفها ، واذا زعمنا ان وجود تلك العناصر بالتفصيل السابق ، وتوقف الحياة عليها ، كل ذلك وقع على سبيل المصادفة ، تكون قد انكرنا الضروريات الحسابية ، كما لو قلنا ان الواحد ليس نصف الاثنين . فماذا يقول الشاكون واساتذتهم المشككون في هذه البراهين القاطعة ، والانوار الساطعة ، التي اتت بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم ، كما قال الله تعالى في سورة

---

1) - الانش هو مقياس انجليزي : في القدم 12 انشا والقدم ثلث الياردة التي تساوي 90 سنتيمترا

النحل : « **قد مكر الذين من قبلهم فاتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم واتاهم العذاب من حيث لايشعرون** » ماذا يقول المعلمون المجهلون الذين يفسدون فطرة الصبيان الصافية ، وينجسون عقولهم الطاهرة ، بزعمهم ان السبب فى اعتقاد الانسان وجود الله تعالى هو الخوف والجهل بنواميس الطبيعة ، فقد زعموا ان الانسان الاول كان يخاف من كل شيء يحدث فى العالم كالبرق والصواعق والحرائق التي تحدث فى الغابات والخسوف والكسوف وجلجلة الرعد والفيضان الذي يحدث بكثرة الامطار وغير ذلك ، فاخذ يتخيل ان هناك كائنا منفردا او متعددا يحدث تلك الامور اذا غضب ، فاخذ الانسان يتملق له بتقريب القرابين ، من ذبائح وغيرها خوفا من ان يصيبه بتلك الحوادث المهلكة ، وقد زعم هؤلاء ان هذا العصر عصر العلم قد كشف اسباب تلك الحوادث ، ورفع سلطان الخوف عن الانسان ، وحرر عقله من الاوهام ، فلم تبق به حاجة الى اعتقاد وجود الله والخضوع لعظمته والتلذذ بمعرفته ، وتكميل النفس بطاعته . ماذا يقولون اذا راوا ان العلم هو الذي كشف الغطاء عن تلبيسهم وحيرتهم ، واقام البرهان القاطع واوجد العلم الضروري بأن لهذا العالم خالقا مبدعا ، مدبرا عالما حكيما ، متصفا بجميع صفات الكمال التي لايدرك كنهها . : قال تعالى فى سورة آل عمران : « **ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار** » صدق الله العظيم . ان الله لم يخلق هذا الكون البديع الذي هو فى غاية الاحكام عبثا وباطلا بلا حكمة ولا غاية ، تعالى الله عن ذلك علوا **كبيرا يسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا** » .

نتروجين

يقال ان نتروجن عنصر غير قوي وهو غاز بطيء التاثير ، وهذا الغاز مهم جدا ، لانه يعمل على تلطيف الاكسجين حتى يكون ملائما احسن الملاءمة للانسان والحيوان ، كما قلنا من قبل فى الاكسجين نقول الآن ان المقدار الموجود من نتروجن والتاثير الذي يحدثه هو القدر المطلوب لا اقل ولا اكثر . يمكن ان نقول : ان الانسان قد واءم وهيا نفسه لقبول احد وعشرين فى المائة من الاكسجين فى الهواء وذلك صحيح .

ولكن هنالك حقيقة وهي ان ذلك القدر هو الذي يحتاجه الانسان بالضبط وهو افضل شيء لحياته يزيدنا يقينا وايمانا بدقة النظام الكوني واتقان تقديره وتدبيره ، ومن العجيب ان نجد ان التوزيع الذي وقع فى الاكسجين يعود الى عاملين اثنين : الاول ان الارض لم تستوعبه تشربا ، ولو استوعبته لصار جزءا من قشرة الارض او من المحيطات ، والثاني ان المقدار الباقي منه طليقا هو بالضبط القدر الذي يستطيع مجموع النتروجن تلطيفه ، ولو كان النتروجن اكثر او أقل مما هو عليه ما استطاع الانسان ان يتطور فى خلقته ، ويصل الى الحال التي هو عليها ، وهذا امر يسترعي النظر ، وبالجملة فهو جزء من الهواء ضروري لحياة الحيوان والنبات .

اضف الى ذلك ان النتروجن هو احد الاجزاء التي يتالف منها الغذاء الذي نتقوت به وبدونه يموت الانسان جوعا ، فان كل شيء من النبات الذي يخرج الغذاء الذي يعيش به الانسان والحيوان ، وتخصب به الارض وبدونه لايوجد ثمر ولا بقل ولا حبوب ، والطريق الذي يدخل فيه النتروجن فى النبات يكون على شكل بكتريا وهي مخلوقات حية فى غاية الصغر لاترى الا بالمجهر تكون قواما للنبات حتى اذا مات ذلك النبات تبقى تلك المخلوقات فى الارض لتكون قواما لنباتات اخرى تخلفها ، وهناك طريق آخر يصل به النتروجن الى الارض وهو ان الرعد حين يحدث فى الجو ويلمع البرق يكون فيه مقدار صغير من الاكسجين مع النتروجن فيحمل المطر الى الارض ذلك المركب الذي تتم به حياتها ويكمل النفع بخيراتها ، وما احسن قوله تعالى فى سورة ق « **والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ، واحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج** » وتسهيلا لفهم هذه الآيات نشير الى معناها فنقول : والارض مددناها اي بسطناها وهيأناها حتى صارت صالحة لسكنى الانسان والحيوان ، وانبتنا فيها من كل صنف جميل يسر الناظر ، ويستمتع به الانسان والحيوان ويكون مددا لهما وقوة ، فعلمنا ذلك تعليما وتذكيرا لكل انسان مؤمن مستمسك بحبل الله مسلم امره اليه ، لانه هو الذي

ينتفع بما يراه من عجائب صنع الله ، ونزلنا من السماء أي من اعالي الجو ماء مباركا طهورا فيه حياة ونفع للانسان والحيوان ، فانبتنا به جنات أي بساتين وهي التي يسمى المغاربة احداها جنانا والحقيقة ان هذا جمع جنة وتسمى الجنة ايضا حديقة قال تعالى في سورة النمل « **أمن خلق السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ؟** » . وحب الحصيد هو الحب الذي يوخذ مما يحصد كالبر والشعير وغيرهما من انواع الحب ، والنخل باسقات لها طلع نضيد اي طويلات مرتفعات والطلع ثمرها اول مايبدو والنضيد المنضدد المرتب احسن ترتيب ، فعل الله ذلك رزقا للعباد رزقهم اياه وانعم به عليهم ليشكروه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئا قال تعالى : **واحيينا به بلدة ميتا** اي ارضا ميتة كما قال تعالى في سورة يس : « **وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟** » وقوله تعالى : **كذلك الخروج** : شبه الله الارض في حال يبسها وعدم نزول المطر عليها بالجسد الميت الذي لاروح فيه ولا حركة له ، وشبهها بعد نزول المطر عليها بالجسد الحي المتصرف في شؤونه المزاول للاعمال النافعة . ثم شبه احياء الارض باحياء الاموات وبعثهم وحشرهم يوم القيامة لينالوا جزاءهم على اعمالهم في الحياة الدنيا ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن العظيم ، وكل ما شرحه علماء الفلك من احوال العناصر التي يتألف منها الكون ومنها النتروجن الذي كان آخر ما أشرنا اليه في هذا المقال وبينا أن وجوده بالقدر الذي هو عليه ضروري لغذاء الانسان والحيوان كل ذلك موجود في القرآن الكريم يجده من تدبره . « **وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العاملون .** »

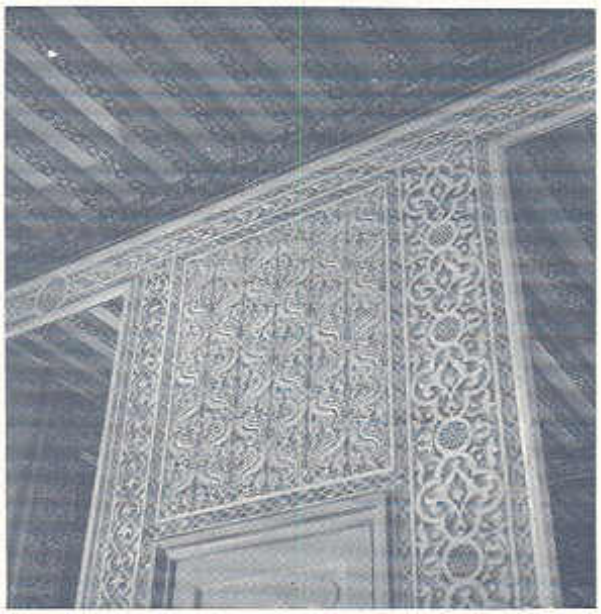

نقوش حديثة في احدى قاعات فندق منارة حسان بالرباط

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 4 -

ما هي الحياة ؟

تحت هذه الترجمة كتب العالم الفلكي كريسي مورسن فصلا رائعا اجاب به عن هذا السؤال الخطير الذي شغل اذهان الحكماء واطال فكرة العلماء .

وسالخص كلامه بعد ان اذكر شيئا من الآيات البينات التي جاءت منوهة بشان الحياة ، قال الله تعالى وهو اصدق القائلين « **كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون** » اي كنتم في العدم فاخرجكم الى الوجود ، ثم يميتكم بعد انقضاء آجالكم ثم اليه ترجعون ليجزيكم باعمالكم ؛ فواهب هذه الحياة يجب ان يشكر ولا يجوز ان يكفر به . ومن كفر به فقد سفه نفسه ولم ينتفع بعقله قال تعالى في سورة الحج « **هو الذي احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور** » صدق الله العظيم ان الانسان لكفور يجحد نعمة الله ويتبع هواه الا من رحم ربك ، وقال تعالى في سورة الملك « **هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا** » وهب الله عباده الحياة ليختبرهم وهو اعلم بهم ليتبين فضل المحسن فيجازي على احسانه باحسن منه ، وتظهر اساءة المسيء فيعاقب على اساءته بمثلها .

والآن ندرس مع المؤلف حقائق هذه الحياة الباهرة ونطلع على اسرارها المحيرة ، قال المؤلف ان الحياة امر عجيب لقد غزت اعماق البحار المحيطة وقمم الجبال الشاهقة ورمال الصحاري القاحلة وكتل الجليد الضخمة التي هي كالجبال وقاومت الزلازل الهائلة التي غيرت وجه الارض مرارا ، واستمرت في ذلك كله قوية نامية لايقف في طريقها شيء تقاوم الاخطار والعوائق لا تعرف الاحجام فضلا عن الانهزام ، لم تزل في تقدم منذ نشات تذلل جميع العقبات من جليد وطوفان واعاصير في ملايين السنين ، لقد اتى الطوفان على القارات فاكتسحها والقاها في البحر فكان تراب الاراضي القديمة كانه كفن يغطي قعر البحر المحيط ومع ذلك بقيت الحياة مستمرة

ان الحياة تستعمل ذرات الارض وتتبع القوانين الكونية وتظهر في شكل عجائب جديدة لكنها تترك خلفها كلما تقدمت في اطوارها آثارا تدل عليها ، فالفحم والزيت الارضي والغاز كلها ادلة تشهد بنشاط العالم القديم وبالقوة التي اخذتها الحياة من الشمس واستخرجها الانسان في شكل النار ، فهذه القوة تفوق وتفضل غيرها من الفوائد لانها هي التي رفعت شان الانسان وفضلته على الحيوان ، فبسبب النار استطاع الانسان ان يتخذ لنفسه مستقرا وان يحصل على جميع مقومات الحضارة كل ذلك وقع لان الحياة استطاعت ان تحافظ على القوة الماخوذة من الشمس .

لقد استولت الحياة وسيطرت على احوال البحار والارض والجو ، ثم تقدمت الى الامام فظهرت في شكل نبات وحيوان من الاميبا (وهو حيوان صغير لايرى الا بالمجهر متكون من خلية واحدة) من الاميبا الى الحوت والحشرات وذوات اللبن والطير السابحات في الهواء ، لقد سيطرت الحياة على العناصر فحللت مركباتها ثم اعادت تركيبها بنسب جديدة ، ثم انحدرت الى المكاريب والخلايا (وهي الاجزاء التي لا تتجزأ من الاحياء) سواء في ذلك الحيوان والنبات ، ان الحياة تنتج مخلوقات على اطوار مختلفة لكل طور شكل معلوم ولا تزال تلك المخلوقات يتعاقب عليها الموت والحياة لمدة اجيال لاياتي عليها الحصر ، ان الحياة تسير على خطة مرسومة في تطورها ونتاجها محافظة على قوامها بايجاد ما تحتاج اليه مما يضمن بقاءها تغذي نفسها بنفسها ، ومع ذلك تحافظ على جميع

انواعها ببقاء كل نوع مرغوب فى بقائه بميزان مقدر مضبوط ، ولنضرب لذلك مثلا الجراد لو لم يدخل تحت ذلك الميزان المضبوط لاكل فى سنين قليلة كل شيء اخضر على وجه الارض من النبات وحينئذ يموت كل حيوان فى البر ولا يبقى الا حيوان البحر ، ان الحياة قالب عام يحتوي على اشكال كل شيء حي فيه شكل ، كل ورقة فى كل شجرة ولون كل زهرة فى كل نبات وكذلك الوان الثمار ، والوان ريش الاطيار ، ان الحياة استاذ موسيقي علم كل طائر كيف يغني الحان حبه وعلم كل حشرة كيف تخاطب غيرها من الحشرات بنغمات واصوات لا ياتي عليها الحصر ، تسمع هذه الاصوات فى وقت الربيع ، ومن هذه الاصوات الموسيقية نقيق الضفادع وصوت الدجاجة الامي الذي تخاطب به فراريجها وزئير الاسد واصوات سائر الوحوش بل سائر انواع الحيوان ثم اصوات الناس واختلافها ، اقول وهنا يجدر بنا ان نذكر قوله تعالى **« ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين »** ففي اختلاف الوان الناس واختلاف لغاتهم آيات تدل على عظمة الخالق سبحانه وما يعقلها الا العالمون ، وكذلك اختلاف اصواتهم فقد زود الباريء سبحانه كل شخص من ذكر وانثى وصغير وكبير بصوت خاص كما ميز وجهه بشكل خاص يعرف به ويميزه عن غيره .

ثم نعود الى كلام المؤلف قال : ان الحياة قد اعطت الانسان وحده القدرة على تركيب الاصوات بالنفخ فى القصب أو القرن أو تحريك اوتار العود فتحدث بذلك انغام واصوات لاياتي عليها الحصر تتالف منها الادوار الموسيقية التي تخلب الالباب ، وكل ذلك من ثمرات الحياة ونظمها العجيبة ـ ان الحياة مهندس ماهر لانها وضعت تصميم ساقي الجدجد (وهو حيوان يكون فى الزرع يشبه الجرادة فى خلقته) له اربع قوائم صغار وله قائمتان طويلتان نصفهما مخروطي صاعد والنصف الآخر كالمنشار نازل يلتقيان بمفصل يستعين بهما على الوثب ، ووضعت تصميم العضلات والمفاصيل والقلب الذي لايزال يوالي ضرباته المنتظمة ونظام الاعصاب الكهربائي لكل حيوان ، والنظام الكامل للدورة الدموية لكل شيء حي ، ووضعت تصميم شجرة دندليون ذات الاوراق التي هي كالاسنان والازهار الصفر الرائقة وجعلت لها بزرا مختلف الالوان وساقا وعروقا حمراء تحتوي على عصير لبني اللون مر الطعم ، ان الحياة تصنع اوراق الازهار وتجبر الحشرات ان تحمل اللقاح من العضو المذكر الى العضو المؤنث من الازهار ، ان الحياة استاذ كيميائي تعطي الفواكه والثمار طعومها المختلفة وتعطي التوابل ما فيها من الحرافات المختلفة وتعطي الورد وسائر الازهار روائحها العطرية ، ان الحياة تهب الحباحب (وهو دويبة تطير بالليل كانها شرارة) ضوءا باردا يظهر به فى الليل لتزدوج ذكوره باناثه ، ان كيماء الحياة عالية رفيعة لانها لاتقتصر على جعل اشعة الشمس تعمل على تبديل الماء وحامض الكاربون عودا فسكرا ، بل فى عملها ذلك تستخلص الاكسجين ليكون حياة للحيوان بتنفسه اياه .

ان الحياة لمؤرخ عظيم لانها كتبت تاريخها صفحة فصفحة فى اثناء العصور تاركة سجلها فى الصخور ، ذلك السجل المنقوش الذي ينتظر فقط ترجمانا ماهرا ليترجمه ترجمة صحيحة ، ان الحياة تعطي المخلوقات الفرح والغبطة لحياتها ، فترى الخروف ينقز ويثب دون ان يعرف لماذا يفعل ذلك ، ان الحياة تصبغ خد الصبي بحمرة لامعة وتجعل فى عينيه بريقا وتجعل على شفتيه ابتساما وضحكا ، نعم ان الحياة هي التي تبتسم ، اما الطبيعة فلا تعرف الابتسام ابدا .

ان الحياة تحافظ على المخلوقات فتزودهم بالغذاء الوافر فتغذي الطائر وهو فى البيضة غذاء كافيا وتعد كثيرا من الصغار ان يكتسبوا معيشتهم فور ولادتهم وتغذي صغارا آخرين بواسطة عطف الامهات وحنانهن الطبيعي بقصد او بدون قصد . ان الحياة تنتج الحياة فتعطي اللبن غذاء للمولود على قدر حاجته وكانها ترى هذه الحاجة قبل حدوثها فتهييء لها ما تتطلبه ، ان الحياة اوجدت حب الام لاولادها وحب الرجل لبيته الذي يثويه ، ولوطنه الذي يحيا لاجله ويقاتل الى ان يموت لاجله ، ان الحياة تحافظ على نفسها بيقظة وحذر ، فتعطي بعض المخلوقات الوانا لتعينها على الاختفاء عن عيون اعدائها ، وتعطي بعض المخلوقات سوقا صالحة للجري السريع محافظة على حياتها وتسلح بعض المخلوقات بالقرون الحادة وبعضها بالمخالب لتدافع عن نفسها وتعطي بعض المخلوقات سمعا يفوق سمع اعدائها أو بصرا يفوق بصر اعدائها او شما قويا تعرف به الخطر قبل وقوعه فتنجو بنفسها ، وتعطي بعض المخلوقات اجنحة تحلق بها فى اعالي الجو كلما رات خطرا يهددها .

فانت ترى هذه الوسائل بعضها صالح للهجوم والدفاع وبعضها صالح للدفاع فقط ، وفى كل ذلك حكم بالغة واسرار عظيمة . ان الحياة تزود بعض الحشرات الضعيفة بوسائل اختفاء تؤمنها من كل خوف ، اما المادة فانها لم تعمل قط اكثر من الاذعان لاحكام قوانينها فالذرات على اختلاف انواعها مطيعة لما تمليه النسب الكيميائية ، وقوة الجاذبية وتاثير درجات الحرارة والنبضات الكهربائية بدون الحياة يكون وجه الارض صحراء قاحلة ليس فيها بقعة خضراء لايختلف بعض اجزائها عن بعض وان وجد فيها ماء فوجوده وعدمه سواء لانه لا فائدة من وجوده ، بدون الحياة تكون المادة عديمة الحركة ميتة .

اما من اين جاءت الحياة والى اين تذهب فان العلم لايجيب عن هذا السؤال

وهناك سؤال آخر وهو ماهي الحياة ؟ الى الآن لم يستطع احد ان يجيب عن هذا السؤال لان الحياة لايمكن ان توزن ولا ان تقاس فلا حجم لها ولا مساحة .

ان الحياة لها قوة تستطيع بها ان تجعل عروق النبات تشق الصخرة الصماء ، ان الحياة تصنع شجرة عظيمة وتمسكها غير متاثرة بالجاذبية الارضية لمدة الف سنة او اكثر ، انها ترفع اطنانا من الماء من الارض كل يوم وتصنع اوراق الاشجار والثمار ، ان اقدم شيء من الاشياء المتصفة بالحياة هو شجرة ، هذه الشجرة عاشت خمسة آلاف سنة ، وهذه المدة انما هي لحظة من الابد ، ان الحياة تحسب حسابا لكل حركة تصدر من كل شيء حي ، وكل هذه القوة غالبا تاتي بواسطة اشعة الشمس .

ان الحياة لاتستطيع ان تبقى فى المادة المحصورة فى حدود ضيقة ، فالحر الشديد والبرد الشديد كل منهما يبيد احوال المادة التي تتوقف عليها الحياة ، ان الحياة تعلن وجودها فوق هذه الارض حين تكون الاحوال ملائمة لها فقط .

وسينقضي نشاطها حين يقع اي تغير ملحوظ فى احوال المادة ، غير ان الاحوال الحاضرة اليوم قد وجدت منذ ثلاثمائة مليون سنة على الاقل ، ان الحياة هي وحدها مصدر الشعور وهي وحدها تمكن الانسان من معرفة افعال الله التي لانزال انصاف عميان عنها ولكننا نعرف انها كلها خير ، ان الحياة آلة تخدم اغراض العناية الربانية .

تعليقات على كلام المؤلف

الاولى اذا كانت الزلازل والاعاصير والطوفان قدغيرت وجه الارض وجعلت عاليها سافلها وبرها بحرها وبالعكس ، وبقيت الحياة مع ذلك سائرة فى طريقها الذي رسمه لها الخالق البارىء سبحانه نعلم من ذلك ان افعال الله لاتتقيد بالعادات بل تخرقها لان الله هو الذي اجرى تلك العادات بعد ان لم تكن جارية فاجهل الجاهلين هو الذي يقيد قدرة الله بما جرت به العادة.

الثانية ذكر المصنف ان النار بقيت فى اجزاء الارض بعد انفصالها عن الشمس ، وخص الانسان باقتباسها واظهار اسرارها وبذلك صار سيدا وانقادت له المخلوقات وصارت طوع امره يتصرف فيها كيف يشاء باذن الله ، وقد امتن الله على عباده بان هداهم لايراد النار واستخراجها قال تعالى فى سورة الواقعة **« افرايتم النار التي تورون ءانتم انشاتم شجرتها ام نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين »** وقال تعالى فى سورة يس استدلالا على قدرته على احياء العظام وهي رميم **« الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون »** .

وقالت العرب فى امثالها فى كل شجرة نار واستمجد المرخ والعفار وهما نوعان من الشجر تستخرج النار من حطبهما بسهولة وقوله تعالى : **« نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين »** فيه آية عظيمة للمستبصرين فان المقوين هم المسافرون وهم فى حاجة الى النار يستضيئون بها ويعرفون ما حولهم من عدو وسبع ضار ودواب سامة وحشرات مؤذية فيتقون شرها ، ومن استمتاع المسافرين بالنار انهم يهيئون بها طعامهم ويتدفاون بها فى وقت البرد ، اما فى هذا الزمان فقد اتسع مجال الاستمتاع فصارت النار للمسافرين وسيلة هي أهم وسائل السفر ، فالمركب الذي يحمله ويحمل امتعته زيادة على البضائع والرسائل لايسير الا بالنار سواء اكان سفره فى البر ام فى البحر ام فى الجو لايسير الا بالنار ، والاتصال بين المسافرين والمقيمين بالهاتف والرسائل البرقية والراديو لا يكون

الا بالنار ، ودفاع المسافر عن نفسه كيفما كانت الوسيلة التي يسافر بها لا يكون الا بالنار ، وعلى ذلك يقول : ان النار قد صارت كل شيء بالنسبة الى المسافر في هذا الزمان ، وذلك يدلنا دلالة واضحة على ان القرآن لم ينزل لعصر محدود ولا لجيل أو اجيال محدودة ، وانما نزل ليكون منهاجا دينيا ودنيويا مدنيا وعسكريا ضامنا لسعادة الشعوب كلها وامنها وسلامها ورخائها وازدهارها في كل زمان ومكان حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

التعليقة الثالثة : قال المصنف ان الحياة تسير على خطة مرسومة ، اقول : من رسم هذه الخطة وقدرها ودبرها وسيرها على حسب تقديره بدون اختلال ولا اختلاف ؟ اليس هو الله رب العالمين ؟ فاين تذهبون ياخفافيش المادة الميتة ؟ الم يان لكم ان تؤمنوا بالخالق البارىء المصور وانتم تشاهدون آياته في كل ذرة من ذرات هذا العالم العجيب

وفي كل شيء له آية تدل على انه الواحد

من ذا الذي وضع ذلك القانون العظيم لذلك المخلوق ، الضعيف منفردا ، القوي مجتمعا ، قوة تحتاج الى تعاون دول عديدة بطائراتها وادويتها السامة وجهود اطبائها وعلمائها ورجالها العسكريين .

ومع ذلك كله تعجز هذه الدول مجتمعة ان تقضي على جميع ارجال الجراد وتتقي ضرره ، وانما تستطيع ان تكف بعض شره ، ولولا ذلك القانون الرباني لما استطاعت جميع دول العالم مجتمعة ان تقاوم هذا الجند العظيم وتتغلب عليه « **وما يعلم جنود ربك الا هو ، وما هي الا ذكرى للبشر** » .

منظر جميل من مناظر الاثار الرومانية بالمغرب .. بوليلي قرب مدينة زرهون .

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 5 - للدكتور تقي الدين الهلالي

نسورد في هذا الموضوع آراء علماء هذا الشان ثم نعلق عليها بما يفتح الله به من الاستنتاج : ان سر ابتداء الحياة مشكلة وقف عندها العلماء متحيرين لفقدهم البرهان القاطع ، لكن هناك حجج كثيرة لكنها ناقصة وغامضة ، وعلى ذلك يجدر بنا ان نعرض لها بالبحث من الوجهة العلمية ، ان اصل ابتداء الحياة عجيب لذلك جاءت نتائج بحوث العلماء فيه مختلفة متباينة بعيدة عن الادراك حتى ان اكابرهم وقفوا امام هذه المعضلة مدهوشين ، وذلك ان العالم من حيث هو عالم لا يستطيع ان يصدق خوارق العادة ، ولكن من حيث هو انسان عاقل يرى بنتيجة بحثه وبحوث غيره من العلماء الباحثين من غلس الحياة اي الوقت الذي كانت فيه الحياة بين الوجود والعدم ، لم ينكشف وجودها بعد انكشافا تاما ، (شبهت الحياة بالغلس وهو ابتداء ظهور نور الفجر حين تكون المرئيات محتجبة بالظلام ، لايظهر منها الا اشباحها ظهورا ممزوجا بالشك) كانت الحياة حينئذ ادق من ان تدرك بالمجهر ، يعلم اولئك الباحثون كلهم ان جميع الاشياء المتصفة بالحياة الآن قد تطورت من خلية مكرسكوبية واحدة ، ومعنى مكرسكوبية انها لا ترى بالعين المجردة وانما ترى بالمجهر وهو المكرسكوب ويظهر ان هذه الخلية قد اعطيت قوة لا يكاد العقل يتصورها ، فانها تنمو نموا مطابقا لشكل الحي الذي يراد تكوينه منها ، ان الحياة في كل مكان على وجه الارض ، والعلم يعترف بان الواقع لا يمكن ان يكون غير ذلك ، وقد اختلفوا في تعليل ذلك ، فبعضهم يعتقد ان الحياة حادث كيميائي نشا عن الماء والزمان ، وآخرون يرون النظام في كل مجموعة واسعة من مجموعات الاشياء المتصفة بالحياة وهي تشق طريقها الى الامام آتية من ذلك المصدر نفسه الى النهاية المقدرة لها ، سواء اكانت حلزونا (وهو ببوش باللغة المغربية) او صائرة انسانا ، لا تعود الى عبور الهوة التي عبرتها من قبل ابدا ، اقول اريد ان اقف هنا لاستنباط الحجج مما تقدم فاقول اذا تقرر باجماع علماء الحياة ان حياة كل حي اصلها خلية واحدة سواء اكان ذلك صحيحا في الواقع ام لا ، ثم وقع تطور كل مجموعة من انواع الحيوان التي لا تعد ولا تحصى ، من تلك الخلية الواحدة التي لا ترى الا بالمجهر الى نهايتها سواء اقدر لها ان تصير بعد نهاية نموها حلزونا او انسانا او غير ذلك ، فمن الذي وضع لكل مجموعة منهاجا خاصا يسير عليه لا يتعداه مثقال ذرة ؟ اليس هو الله رب العالمين ؟ اليست هذه حجة قاهرة لكل عاقل مفكر يسمع نداء عقله ويترك التقليد جانبا ولا يخدع نفسه ؟ هذه الحجة القاهرة هي البرهان القاطع على فساد الفرض ان خلق انواع الحيوان من الاميبا الى الفيل والقريش ، وهو حوت عظيم جدا ، على اختلاف اشكالها وصفاتها واتحاد مصدرها كلها وليدة مصادفة بلا علم سابق ، ولا تدبير مرافق ، ولا عناية مهيمنة؟ ان رضيت عقولكم بمثل هذا فنشهدكم ان عقولنا لن ترضى به ، بل لا تفهمه ابدا فاعتقدوه وحدكم ، ولكن حذار ان تكذبوا على العلم وتقولوا انه قادكم الى ذلك فقد رايتم ان العلم من ذلك بريء براءة العقل المفكر منه .

ثم نعود الى كلام المؤلف ، قال : دعونا نتقدم الآن الى البحث في الموضوع بشعور ملؤه الاحترام دون ان نتقيد بالحدود الدينية الضيقة ولا بحدود الباحثين العلمية الجامدة ، لنعرف ما هو سبب الحياة ومصدرها ونتصور الحقيقة التي يجب الاعتراف بها ، وعند ذلك نحكم على القضية الموضوعة امامنا حكما تاما ، وحينئذ يمكننا ان نعلم هل انا وانت كل منا ليس الا مجموعة من ذوات المادة اجتمعت على سبيل المصادفة والاتفاق وتولدت من المركبات الكيميائية الماء والزمان ام الحقيقة غير ذلك .

انظر في النتيجة الى هذا الشيء الوحيد الذي هو اهم من الارض نفسها ، بل من العالم باسره ، بل من كل شيء غيره الا اذا كان هناك باريء عالم خلقه واخرجه الى الوجود ، هذا الشيء هو قطرة من (البروتوبلازما) ذرة هي اصل الحيوان والنبات ،

تشتمل على الاكسجين والهيدروجين والكاربون والنتروجين شفافة لزجة ، قادرة على الحركة ، تجذب القوة من الشمس ، انها منذ الآن قادرة على استعمال ضوء الشمس تكسر حامض الكاربون في الهواء وتفرق بين الذرات فتاخذ الهيدروجين من الماء وتنتج الكاربون ذرات ، وبذلك تصنع غذاءها بنفسها ، وهذا العمل من اشد التراكيب الكيميائية استعصاء وعنادا .

اقول اين المتبجحون بحرية الفكر والعصرية الرامين غيرهم اذا كان مثقفا بالجمود والرجعية وان كان غير مثقف بالجهل مطلقا او بالجهل بالعلوم العصرية ؟ هل عندهم حل لهذه المعضلة غير ما رآه المؤلف ويراه معه جميع المؤمنين بما وراء المادة على أي دين كانوا ؟ اما اللباس الاوربي والجلوس في الحانات ودور اللهو والميسر وهجر المساجد والرطانة باللغات الاعجمية لغة الاستعمار والاستعباد التي تذكر بالذل والتبعية والخنوع وهجر لغة القرآن والعز والسيادة وما اشبه ذلك من انواع السفاهة فانه سهل لا يحتاج الى عناء وهو من صفات القردة التي يتنزه عنها الانسان الحقيقي .

نعود الى كلام المؤلف قال في صفة الذرة التي تنشأ منها الانسان والحيوان والنبات : هذه القطيرة الشفافة التي هي في الدقة كالهباء او كاحدى ذرات البخار المتصاعد من الماء الذي يغلي تشتمل على جرثومة الحياة كلها وعندها القوة والقدرة على توزيع الحياة على كل شيء حي ، كبيرا كان ام صغيرا ، وتجعل ذلك المخلوق متناسبا مع بيئته في كل مكان يمكن ان توجد فيه الحياة من قعر المحيط الى اعالي الجو ، فالزمان والبيئة هيئا كل شيء حي لملاءمة الاحوال المختلفة التي لا نهاية لها ولما تطورت هذه الاشياء الحية الى افرادها تنازلت عن بعض قابليتها للامتداد لتصير الى ما خصص لها من شكل وتثبت فيه ، فاقدة القوة التي ترجع بها الى الوراء ، ولكنها ربحت عوضا عن تلك القوة احسن منها، وهو النظام المطابق لاحوال تكوين المخلوق الذي يراد تكوينه منها .

نعم ان قوة هذه القطيرة من البروتوبلازما وما احتوت عليه كانت ولا تزال اعظم من جميع النبات الذي يكسو وجه الارض واعظم من جميع الحيوان الذي يتنفس نفس الحياة ، لان الحياة كلها جاءت منها ، وبدونها لم يوجد شيء حي وكل ما ذكرناه اعلاه يسير مع العلم خطوة بخطوة ، ولكن العلم متردد في ان يخطو الخطوة الاخيرة ويضيف ما يلي : ان الانسان جاء من هذا الطريق الى الارض مولودا انجبه العالم الذي هو ينبوع الحياة ، سيدا على جميع الحيوان الاعجم ، مصنوعا من المادة ، مركبا من اجزاء عديدة ، له دماغ مهيا بالقصد ومقدر له ان يتلقى قبسة من العقل الاعلى، وتلك القبسة هي التي نسميها النفس .

وبعد ذكر ما تقدم قال المصنف : يجب ان نبدا من الارض لما كانت كلها صحراء ليس فيها الا ما بقي بعد برودتها من الجلامد ، لما حسر الماء عن الارض وانكشفت ووقعت الفيوض الجافة من انواع الطوفان التي لا ياتي عليها الوصف ، سبب ذلك انفلاق الصخور الضخام التي كانت تغطي وجه الارض ، فنشات عنها صخور ثانوية ورمال وانواع من الاحجار . وهنا اطال المؤلف القول في وصف اجزاء الارض في اول ظهورها مما لا يهمنا تفصيله ، ثم قال يمكن ان تكون البحوث التي اجريت في الارض قد افضت الى انكشاف سر وجود الحياة على الارض ويمكن ان يكون سرها لا يزال لغزا غير محلول ، زعم بعضهم ان اصل الحياة جرثومة جاءت على شكل ذرة من كوكب آخر ووصلت سالمة الى الارض لم تصب بتلف بعدما بقيت سابحة في الفضاء امدا طويلا لا يدرك له حد ، وذلك غير صحيح لان مثل هذه الجرثومة لا يمكن ان تعيش مع شدة البرد في الفضاء الذي هو في درجة الصفر ، ولو عاشت لقتلتها الاشعة الكونية الشديدة الاحراق فان عاشت مع ذلك كله فلعلها وجدت قعر البحر المحيط هو المكان اللائق بها حيث الاحوال كانت ملائمة لنشاتها ، وبصرف النظر عن ذلك كله نرجع الى الوراء الى حيث بدانا ، فنقول : كيف كان بدء الحياة في ذلك الكوكب الذي جاءت منه الحياة ؟ ثم نقف موقف المنع فنقول : لا البيئة بالغة ما بلغت في الملاءمة للحياة ولا التراكيب الكيميائية او الطبيعية الواقعة على سبيل المصادفة ، تستطيع ان تخرج الحياة الى الوجود .

قال كاتب هذا المقال وقد وصلنا الى الحد المناسب لينشر في هذا الجزء من دعوة الحق فموعدنا الجزء التالي ان شاء الله .

(يتبع)

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 6 - للدكتور تقي الدين الهلالي

ثم قال المصنف : وبقطع النظر عن هذه المسألة ، وهي ما هو اصل الحيوان ؟ وهي فى الحقيقة مشكلة علمية قد اقترح بعضهم ان هباءة ، ذرة عظيمة القدر ، لكنها صغيرة الحجم حتى انه لايستطيع احد ان يلمحها ولو لمحا غير واضح بأي مجهر ، وهو المكرسكوب ، هذه الذرة الصغيرة هي التي فرقت ما كان مجتمعا متحدا ، وجمعت ما كان متفرقا متباينا ، فظهرت الحياة بمظهرها المدهش .

وتقريبا للفهم نقول : انظر الى الاميبا ، وهي حيوان صغير لايرى الا بالمجهر ، وقد تطورت تطورا تاما وهي متركبة مما لايحصى من ملايين الذرات ، كاملة الصنع على احسن نظام ، والاميبات مخلوقات ذات خلية واحدة ولعل مساحة حجم الواحدة منها لاتزيد على جزء من مائة من البوصية ، والاميبا توجد فى جميع مياه الدنيا ، وهي تطلب غذاءها بعزم واجتهاد ، كم يجب ان يكون الحيوان كبيرا فى الحجم قبل ان نعترف بان له رغبة وعزما ؟ الحجم لا اعتبار له ، فان الذرة فى الاتقان والكمال تساوي المجموعة الشمسية باسرها ، واذا ضربنا مثلا الاميبا فلسنا نقصد ان هذا المخلوق الحي هو الخلية المنفردة الاولى التي هي ينبوع الحياة ، تقدم شرح معنى كلمة (بروتوبلازم) ونريد هنا زيادة فى بيان احوالها فنقول : انها قطيرة بين السوائل والجوامد ، وعبرت عنها المعاجم الاعجمية بنصف سائلة ، وهي فى غاية الدقة ، حتى انها لاترى بالعين المجردة لزجة شفافة ، منها تكون المخلوق الحي الاول ، ومنها نشأ جميع الحيوان والنبات ، وكان نمو كل فرد منهما ونشأته بانقسامه فى داخله الى قسمين ، وكل من القسمين انقسم الى قسمين ، فكانت اربعة اقسام واستمر الانقسام والنمو الى ان بلغ كل فرد المقدر له ، وهذا عين ما تفعله الخلايا اليوم فى كل مخلوق حي ، وكل خلية بعد الانقسام الاول تشتمل داخلها على قوة ينتج منها مخلوق كامل من الافراد ، والخلايا باقية لاتتغير ولا تنتهي الا فى حال وقوع حادثة تصادفها ، او عند بلوغها نهاية الاحوال المقدرة لها ، وهذه الخلايا هي التي تشكل جميع اجسام الحيوان والنبات اليوم ، وعلى هذا يكون عمل هذه الخلايا نسخة طبق الاصل من عمل اسلافهن الاوليات ، فنحن من حيث كوننا اناسي (جمع انسان) جمهوريات منظمة احسن تنظيم مؤلفة من بلايين على بلايين من امثال تلك الخلايا ، وكل خلية بمنزلة مواطن من تلك الجمهورية يؤدي واجبه من الخدمة العامة باخلاص تام واتقان ، وبعكس ذلك تكون الذرة من الجماد .

اقول : فما رأي المشككين فى اتحاد هذه المجموعات من الذرات التي تعد بملايين على ملايين فى اتحادها الذي لايتطرق اليه التفكك ، وتضامنها الذي لايعتريه تخاذل ، وتعاونها الذي لايشوبه ملل ، ايمكن ان يكون ذلك كله على سبيل المصادفة ، بغير علم سابق ولا تدبير مرافق ؟

ثم قال المصنف : ولكننا نستطيع ان نشير الى مثال وقع من قبل ذلك بزمان بعيد فى ابتداء الحياة على وجه الارض، وهو مهم وعجيب جدا. خلية تعطي قوة مدهشة تستعمل بها ضوء الشمس فتكسر به مركبا كيميائيا وتصنع غذاءها بنفسها وغذاء لاخواتها من الخلايا . والذرة الاصلية تحضر غذاء تعيش به بناتها من الذرات ، ثم تكون الذرات البنات حيوانا ، على حين تصير الذرة الام نباتا ، واولاد ذلك النبات المتولدات منه تكون بعد غذاء لكل شيء حي فى وقتنا هذا ، فهل يستطيع احد ان يفسر هذه الحقيقة ، وهي ان بعض الخلايا تصير حيوانا وبعضها نباتا ان كل ذلك وقع بالمصادفة ؟ وهنا فى هذا التقسيم تعرف سر التوازن العجيب الواقع بين النبات والحيوان بل بين حياة النبات والحيوان قد اسس من قبل على اساس مقدر معلوم . واذا رجعنا الى الوراء الى قصة حامض اكسيد الكاربون ، نجد ان هذا التقسيم كان بلا ريب احد الأصول الجوهرية التي اسست عليها الحياة

نفسها ، فلو كانت الحياة كلها حيوانا لكان الآن قد استهلك جميع الاكسجين ، ولوكانت الحياة كلها نباتا ، لكان الآن قد استهلك جميع اكسيد الكاربون وفى كلتا الحالتين كلاهما يموت . ما اعجب امر الحيوان والنبات كليهما فى تطورهما من الكائنات البروتوبلازمية ذكورا واناثا ان كل نوع لم يزل يتكرر تركيبه وبذلك بقي مستمرا مع المحافظة على خصائصه العامة ، ونحن نرقب بمجهرنا الحاضر تفاصيل القوة المجبرة فى الطبيعة والكيمياء والنتائج المترتبة عليها التي تزيد الامر وضوحا ، وغرضنا هو تسهيل فهم ما وصل اليه العلم على اولئك الذين لم يتمرنوا على المسائل العلمية تمرنا خاصا ، ويمكن ان نبين ذلك على الوجه التالي : من الواضح ان المجموعات من الخلايا تنمو باتصال بعضها ببعض بالانقسام مثنى ثم رباع ثم مآت ثم آلافا ثم ملايين ، وكل خلية منها تدعى لتنجز نصيبها من العمل ، ومتى تم توزيع الاعمال المختلفة يبدا الشروع فى العمل عند الجميع فطائفة من الخلايا تكون مشتغلة باحضار الغذاء وطائفة اخرى تشتغل بهضمه ، وكل جزء من الجسم المراد تكوينه يتالف من كثير من الخلايا ، فبعضها يؤلف غلافا غليظا واقيا يكون قشرة لشجرة ، وطائفة اخرى تشتغل بنقل الغذاء من مكان الى مكان فى المخلوق الحي المراد انشاؤه ، واخيرا نجد تلك الخلايا جادة فى تشكيل خشب الجذع ان كان المخلوق شجرة او العظام ان كان المخلوق دابة او المحار ان كان المخلوق بحريا من ذوات المحار او الغلاف الصلب ان كان الحيوان رخوا لينا كالحلزون مثلا (وهو المسمى باللغة المغربية ببوش) الى ان يتم تكوين ذلك الجسم المراد خلقه . ففي بعض الحيوان تكون الاجزاء الصلبة فى المخلوق الحي خارجه محيطة به ، وتارة تكون داخله عظاما يقوم عليها جسمه ، وكل الاشياء المتصفة بالحياة تتخلق من خلية بسيطة واحدة ، وهذه الخلية تجبر نسلها على اداء الواجبات طبقا للخطة المرسومة لخلق ذلك الحيوان بلا خلاف ، كما فعلت الخلية الاولى الاصلية سواء اكان ذلك الحيوان سيصير سلحفاة او ارنبا .

وهنا يعرض لنا سؤال ، وهو هل الخلايا ذات ادراك ام لا ؟ وسواء منحت الخلايا قوة تمييز ، كيفما كانت ، او قوة تفكير ، فلا مناص لنا من الاعتراف بان الخلايا قد فطرت على ان تغير طبيعتها وتتفق مع ما يتطلبه خلق الكائن الذي يراد بها ان تكون جزءا منه ، وكل خلية نتجت فى اي مخلوق حي يجب ان تهيىء نفسها لتكون جزءا من لحمه ، او ان تضحي بنفسها لتكون جزءا من الاهاب الذي سيزول سريعا ، او تهيىء نفسها لتكون جزءا من قشرة السن الزجاجية او تكون جزءا من المادة الشفافة السائلة فى العين او جزءا من الانف او الاذن ، وكل خلية يجب ان تهيىء نفسها من حيث الشكل او اي صورة خاصة اخرى تلزم لاداء عملها المخصوص لها ، مثلا احدى الخلايا يجب ان تكون جزءا من الاذن اليمنى ، واخرى يجب ان تكون جزءا من الاذن اليسرى ، وبعض الخلايا الزجاجية التي لاتختلف عن غيرها من الوجهة الكيميائية تعكس اشعة الضوء الى اليسار . ويظهر انه يوجد مثل هذا الميل فى الخلايا فهي تتجه الى المكان المعين لها بالضبط ان تكون جزءا منا فى الاذن اليمنى او اليسرى ، واعلم ان اذنيك متقابلتان على التضاد احداهما مع الاخرى وتجويفهما متقابل ، فمتى تم خلقهما تكونان من التشابه بحيث لاتستطيع ان تميز بينهما ، وان مآت الالوف من الخلايا مسوقة لتعمل العمل المضبوط فى الوقت المضبوط فى المكان المضبوط ، ولعمري انها مطيعة لما تؤمر به .

ان الحياة مندفعة الى الامام ، بانية مرممة ، منشئة الجديد والاحسن بقوة لاتقاوم ولا توجد فى الجماد فهل نشا ذلك عن قوة عاقلة او الهام او حدث بدون شيء ؟

يمكنك ان تجيب عن هذا السؤال بنفسك . ولكن يمكنك الآن ان تقول انك لم تبين لنا فى هذا الفصل كيف بدات الحياة ، يعني كيف جاءت الى هذه الارض ؟ فاقول اني لا ادري ، والذي اعتقده انها جاءت بامر من الله تعالى وانها ليست مادية .

انتهى كلام العالم الفلكي كريسي مورسن فى هذا الفصل المهم ، وهو غني عن التعليق ، فعسى ان يكون نافعا للشاكين المتحيرين الذين يستهدون الله تعالى ، وقد جاء فى الحديث القدسي الذي رواه مسلم فى صحيحه من حديث ابي ذر عن النبي (ص) (ياعبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم) واما المشككون الذين لايريدون ان يستعملوا عقولهم ولا ان يهتدوا فتكون هذه الحجج صواعق مرسلة عليهم تاتي بنيانهم من القواعد فيخر عليهم سقف البيت الذي بنوه من الاباطيل والاوهام . قال تعالى : **« وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا »** وقبل ان اختم هذا المقال الخاص بهذا الجزء من المجلة اذكر ما خطر ببالي من كتاب الله مما يدل على ما ذكره ذلك العالم الفلكي فاقول : قال تعالى فى سورة آل عمران **« ان الله لايخفى عليه شيء فى الارض ولا فى السماء هو الذي يصوركم فى الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم »** وقال تعالى فى سورة المومن **« ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فانى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين »** .

توجيه الرسول عليه السلام للمومنين

الايمان والقوة يحبهما الله للمومنين ومن مقتضاهما الاقدام والانطلاق فى سبيل تحصيل المنافع والمصالح المشروعة والاستعانة بالله على جميع المساعي وبعد بذل المجهود وعدم حصول المقصود يلجأ المومن الى قضاء الله الغالب .

قال النبي عليه السلام : المومن القوي خير واحب الى الله من المومن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، فان اصابك شيء ، فلا تقل لو اني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل قدر الله ، وما شاء فعل ، فان « لو » تفتح عمل الشيطان .

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 7 - للدكتور تقي الدين الهلالي

مـــا هو اصل الانسان ؟

تحت هذه الترجمة عقد المؤلف فصلا اورد فيه آراء علماء هذا الشان ، وهي متناقضة متضاربـــة ، ساترجمها كما هي وانا بريء من عهدتها ، والاطلاع عليها مفيد ، يدلنا على ان ما يتبجح به المقلدون للاجانب من انهم علموا حقيقة اصل الانسان وانه متطور عن القرد وقد وجدوا جميع الحلقات والاطوار الا حلقة واحدة هي الاخيرة التي تفصل بين القرد والانسان ، وبعضهم يزعم ان هذه الحلقة المفقودة وجدت في امريكا ، فتم لهم ما يريدون من الاتصال بنسب القردة ، كل ذلك مبني على شفا جرف هار ، قال المؤلف هناك طرق عديدة للنظر في اصل الانسان ، وان امتحان هذه الطرق سيسبب اضطرابا عند كثير من الذين اعتقدوا آراء ثابتة في هذه القضية ، فالراي الاول ان الانسان ارتقى الى ما هـــو عليه بعد ان مر بسلسلة من التطور والنشوء عن الذرة الاصلية التي هي اصل الحياة ، وعلى هذا الاصل تبني نظرية النشوء باسرها ، والراي الثاني هو ان اللـــه سبحانه خلق الحياة على وجه الارض بحكمته ثم خلق الانسان على ما هو ـ اي الانسان ـ عليه في الكمال .

الراي الثالث هو ان العناية الربانية اوجـــدت الحياة بجميع اطوارها بسلسلة من الخلق . الـــراي الرابع ان الحياة التي وصلت في نهاية تطورها الـــى الانسان كانت نتيجة على سبيل المصادفة لمزيج مـــن المواد الكيميائية مع الماء ، ويمكن ان يقال ان الله خلق الانسان من عناصر الارض الاصلية ، ثم وهبه الحيـــاة وتدرج حتى بلغ في نهاية تطوره الى ان اعطى دماغـــا يفكر به ، فصار بذلك سيدا حاكما على جميع الاشياء المتصفة بالحياة وعلى كثير من انواع الجماد ، واي ذلك كان ، نرى من الواضح ان الانسان لايمكن ان يكون قد حصل على كمال انسانيته منذ ابتداء الحياة ، ولكنه تطور حتى بلغ الى درجة الكمال في نهاية تطوره ، ولم يظهر الانسان حتى كانت جميع الاشياء المتصفة بالحياة غير صالحة ان يوجد فيها نظام ميكانكي في غاية التعقيد كالدماغ البشري ، واذا قدرنا ان الانسان قد وجد في اول ظهور الحياة يمكن ان يكون قد مضى على وجوده 400 مليون سنة او اكثر من ذلك بكثير ، واذا قبلنـــا النظرية الثانية وهي ان الانسان وجد نتيجة للمشيئة الالهية ، فاننا لا نستطيع ان نقدر الزمان الذي مضى على وجوده ، وعلى النظرية الثالثة لابد ان يكون قد مر على وجوده كثير من ملايين السنين ، وحسب استقراء العلماء وتتبعهم لتاريخ الانسان لا يمكن ان يقل زمـــن وجوده عن مليون من السنين ، اما قبل ذلك فان تطور الانسان الى ان وصل الى حاله الحاضر بقطع النظر عن نوع الحيوان الذي تطور منه بلغ في القدم الى حد يعجز العقل البشري عن تقديره .

نقف هنا وقفة قصيرة للتامل في هـــذه الآراء والتخمينات التي تبدو عليها الحيرة والعجز والجهل ، وقد ذابت امام النقد العلمي كل التبجحات التي يتشبع بها اذناب المستعمرين ومقلدوهم بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ورجع العلم بحقيقة خلق الانسان وزمان خلقه الى خالقه الحكيم العليم .

ثم نعود الى كلام المؤلف قال عقب ما تقدم ان في المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك فرســـا يرجع الى زمن قديم له ثلاث اصابع صغير الجســـم ، يرى العلماء انه كان سريع الجري بلا شك وهو فرس

يقينا لكن تطوره الى ان بلغ الى شكل الفرس الجميل الذي نراه في الوقت الحاضر يركض على ما نسميه حوافر نشأ عن ذلك الفرس القديم ذي الاصابع الثلاث واستغرق تطوره ملايين من السنين .

ولنتخذ تطور الحصان دليلا نقيس به الوقت الذي استغرقه تطور الانسان حتى صارت له يدان وعينان ودماغ مفكر فصار خلقا سويا ثم ارتقى الى حاله التي هو عليها ، ثم نعود فنقيس التقلبات التي مر بها هذا المخلوق الصغير الاعزل من كل سلاح يدافع به عن نفسه ، فهو وان كان قادرا على التنقل والحركة عرضة للخطر اذ في كل حيوان مفترس ومن كل حيوان زاحف سام كالثعابين والحيات والعقارب ، كما هو عرضة لمصادمة الاجسام الصلبة والحادة التي تحدث له الجروح والامراض ، ومع ذلك عليه ان يحافظ على صغاره العاجزين زمانا طويلا ، هو زمان طفولتهم وعجزهم ، وذلك ان صغار الانسان يولدون عاجزين وياتون متتابعين ، وبذلك يكون على الوالدين واجب العناية بعدة اطفال في وقت واحد ، يحتاجون الى الاهتمام الدائم بغذائهم وحمايتهم ، وبذلك يتضاعف العجب من بقاء الانسان على تعاقب الازمنة ، فانه عاش في عصور مختلفة متقلبة احوالها كالعصر الجليدي وغيره من الاطوار والاحوال التي كانت حياة الانسان فيها معرضة للاخطار لا واقي لها ولا ملجا الا لطف الله ، وهذا صحيح بلا ريب بالنسبة الى سائر الحيوان وهو من عجائب العناية الربانية ان الحيوان امكن بقاؤه بعد ان مر بتلك الاحوال والاهوال ، ومن جهة اخرى يرى علماء الحيوان ان انواعا منه لا تعد ولا تحصى قد انقرضت وخلفها غيرها ولكن بقيت آثارها شاهدة على وجودها فيما مضى :

تلك آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا الى الآثار

ومن شواهد تلك الانواع عظام الحيوان المعروف بالدينصور التي استدل بها علماء طبقات الارض على ان انواعا من الحيوان مضت وانقضت ولم يقدر لها البقاء فاختفى عليها الدهر ولم يبق لها ذكر الا في كتب علم طبقات الارض ، وكذلك كان مصير ملايين من انواع الحشرات والحيتان والطير وكثير من الانواع الاخرى . وقد كان في الزمان الماضي نوع من الحمام يسمى بالحمام المسافر ، ويرجح انه كان اكثر عددا من البشر ، لكنه انقرض واصبح كامس الدابر ، وكذلك الطائر المسمى بالبطريق الذي كان يعيش في بحر الشمال ونوع الحمام المعروف بالدودو .

ان علماء الآثار عند بحثهم في تطور الانسان استدلوا بقوة الدماغ الذي اودع في جمجمته على تفوقه وقالوا ان هذا الدماغ هو مفتاح سر تقدمه ، ولم تزل اجناس البشر يفضل بعضها بعضا فيبقى الفاضل وينقرض المفضول ، ويظهر ان الجنس الابيض في الوقت الحاضر هو الذي يتربع على القمة ، فهل يجيء الزمان بالنوع الفاضل المتفوق على انسان هذا الزمان (سوبرمان) ثم يتناسل ويتغلب على انسان هذا الزمان حتى ينقرض من على وجه الارض ويخلفه فيها ذلك الانسان الفاضل ؟ قد لوحظ ان في جماجم الاطفال غضروفا يفرق بينها ، وبذلك يتاح للدماغ ان يزداد نموا ، ويمكن ان يستمر ذلك في زمان شبابهم ، ان الانسان في حاجة الى مثل هذه القوة ، ولكن ان حدث ذلك فستصير ادمغة البشر صلبة قبل الاوان بقليل ، ويحسن بنا ان لا نسد عقولنا عن ادراك الحقيقة متى ظهرت .

تعليقات :

1 — غاية ما وجده المصنف ومن قبله من علماء هذا الشان حصان قديم له ثلاث اصابع في يديه بدل الحافر فاستدل بذلك على تطور انواع الحيوان ونشوءها وارتقائها وبقاء الافضل وانقراض غيره وقاس الانسان على ذلك الفرس ، وان لم يوجد هيكل عظمي للانسان له حافر بدل الاصابع ، والذي يخيل الي انه كان ينبغي ان يكون الامر بالعكس ، لان اليد ذات الاصابع الثلاث افضل من اليد ذات الحافر ، الا ان يقال ان احوال المعيشة بالنسبة الى الخيل في الزمان السحيق كانت تحوجها الى وجود الاصابع لتتناول بها ما تحتاج اليه من غذاء وغيره بخلاف الخيل في هذا الزمان فانها ترعى الكلأ بافواهها او تعلق برؤسها المخالي مملوءة بالشعير النظيف ان كانت من الجياد المطهمة التي كان يركبها الملوك والامراء وذوو الجد والثروة قبل ان توجد السيارات ، او كانت معدة للسباق من خيل الرهان التي يتفرج على سباقها الجماهير ويقامر عليها المقامرون ، واذا كان الحصان قد تطور من اليد ذات الاصابع الى الحافر الاصم فمم تطور الانسان ؟ ايكون قد تطور بالعكس من الحافر الى اليد ؟ ما احوجنا الى معرفة الجواب ؟ ولكن الجواب عن هذا السؤال ليس من الهنات الهينات تنقطع دونه لا اعناق الابل فقط بل اعناق الصواريخ والاقمار الطائرات فسبحان الذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وهو الخلاق العليم .

2 ـ ذكر المصنف فى تقدير الزمان الذي مر على تطور الانسان ثلاثة آراء احدها اربعمائة مليون سنة ، وثانيها مليون سنة على الاقل ، وثالثها لا ادري والله اعلم بالصواب .

3 ـ ما هو الجنس الابيض انا لا اعرف معنى هذا اللفظ ، ولعله من الاسرار التي لا يحيط بها علما الا الاوربيون فى امريكا والاوربيون فى اوربا والذين حازوا قصب السبق فى معرفة هذا المعنى هم المستعمرون من هولانديين وبريطانيين مستوطنين فى جنوب افريقية ، يضربون ويحبسون ويقتلون اهل البلاد المالكين لها ملكا شرعيا من قبل ان يعرف التاريخ . وقد تذكرت الآن حكاية اتحف بها القراء تتعلق بهذا المعنى ، كنت جالسا اشتغل مع الاستاذ الدكتور (باول كالي) فى مكتبه بترجمة كتاب البلدان فى الجغرافية العالمية تاليف محمد ابن الفقيه البغدادي المتوفى فى اواخر القرن الثالث الهجري كان ذلك فى المعهد الشرقي فى جامعة بون سنة 1937 فجاءته امراة المانية وقالت له انها عثرت فى جامعة بو آمنة من مدينة فاس على تاريخ للقوط الذين غزوا اسبانية والمغرب مكتوبا على رق غزال وما منعها من اقتنائه الا قلة المال، ثم قالت له انهذا التاريخ لم تقع عليه عين شخص ابيض قبلها ، فان كانت الجامعة مستعدة ان تزودها بنفقات السفر فانها متاهبة لتسافر مرة اخرى الى فاس وتشتري ذلك الكتاب على نفقة الجامعة ، فقال لها ان هذا الرجل ، ـ واشار الي ـ مغربي ، وهو يعرف فاس ، فاخبرتني باللغة الانكليزية بما اخبرته به باللغة الالمانية ، ولم اكن اعرفها اذ ذاك ، فقلت لها لا توجد فى فاس جامعة بهذا الاسم ، فهل تعنين المدرسة العنانية ؟ فقالت نعم فقلت للاستاذ كالي لا حاجة الى سفر هذه المراة ، يمكننا ان نعلم الخبر اليقين بالمكاتبة ، فكتبت الى الامير شكيب رحمه الله وكتب هو الى احد اصدقائه بفاس فاخبره ان لا وجود لمثل هذا الكتاب ، وقلت للاستاذ كالي ان هذه المراة محتالة كاذبة بدليل قولها لم تقع عليه عين شخص ابيض قبلها ، مع ان اهل فاس الاصليين كلهم بيض ، فقال لي انما هو اصطلاح يجري على السنة الاوربيين ، وانما قال ذلك تلطفا لقطع النزاع ، والا فانه كان يعتقد هو ايضا ان اهل المغرب لا يوجد فيهم شخص ابيض ، ثم جاء محمد بن عبد الجليل الفاسي المتنصر من باريس الى بون فاخذته الى الاستاذ كالي واخبره انه مغربي من مدينة فاس ، فلما راى عليه ثياب الرهبان وقد سمى نفسه يوحنا ظن انه فرنسي استوطن فاسا ، فلم اقدر على اقناعه ، ثم عزم الاستاذ الدكتور كرن على زيارة المغرب ليدرس فن البناء المغربي وطلب مني توصية الى صديق يرشده فى المغرب ، فكتبت له توصية الى الاستاذ السيد احمد سكيرج فقام بارشاده خير قيام وكان رحمه الله من اهل المروءة والشهامة ، فلما رجع الاستاذ كرن الى بون ، قلت للاستاذ كالي اساله عن لون اهل المغرب وخصوصا اهل فاس ، فساله وقص عليه قصة المراة فضحك وقال ذلك حديث خرافة ، ليس فى فاس ولا فى المغرب اعني سكانه الاصليين سواد ، ثم قال الاستاذ كرن : وازيدك على ذلك اني كنت الفت كتابا فى خصائص الجنس الشمالي فى اوربا ، وما كنت اظن اني اجد فى المغرب شخصا واحدا تنطبق عليه تلك الخصائص ، فلما وصلت الى المغرب وجدت خلقا كثيرا من الناس لا يختلفون فى جماجمهم وسائر ملامحهم عن سكان شمالي اوربا ، وقد عزمت ان آخذ اجازة اخرى من الجامعة فاسافر الى المغرب لادرس الاجسام البشرية المطابقة لاجسام اهل الشمال تكملة لذلك الكتاب .

ولا ينبغي ان يظن ظان ان ذلك الجهد الذي بذلته فى اقناع الاستاذ كالي ان اهل المغرب بيض الالوان او سمر اعتقادا مني ان اللون الابيض او الاسمر افضل من الاسود . معاذ الله ! قد ضللت اذا وما انا من المهتدين . وانما اردت ان اثبت له ان اهل اوربة يجهلون كل شيء من احوال اهل افريقية مع انها اقرب القارات الى بلادهم فان الذي وقف على سطح من بيوت طنجة يرى مدينة طريفة وقلعة جبل طارق بوضوح ، وهما من القارة الاوربية ، ولو كان هذا الجهل خاصا بعامتهم لهان الامر ، ولكنه عام حتى فى اساتذة الجامعة .

ثم نقول ما معنى الجنس الابيض ؟ وما هي الطوائف من البشر التي ينطبق عليها انها من الجنس الابيض ؟ وما هي علامتها التي تميزها عن غيرها ؟ اهي لون ؟ اهي ذكاء ؟ اهي علم ؟ اهي اخلاق ؟ نرجيء جواب هذه الاسئلة الى الجزء التالي لان هذا المقال قد بلغ حده، فموعدنا الجزء التالي ان شاء الله .

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 8 -

التعليق

الجنس الابيض :

جاء في كتاب (ليس الانسان مهملا ، لكريس مورسن) ان الانسان يمكن ان يترقى باتباع دماغه وسمو فكره وحينئذ تتحقق فكرة المدنية الفاضلة التي ذكرها الفيلسوف المغربي ابن باجة في بعض تآليفه . ثم قال ان الجنس الابيض متفوق في الوقت الحاضر ، ولعله يلمح بذلك الى ان الانسان الكامل (سوبرمان) قد يكون من الجنس الابيض ويكون هو الصالح للبقاء وتنقرض الاجناس الاخرى كالصينيين واليابانيين والاندونيسيين والهنود السمر والحمر والافريقيين السود ، ويبقى الاشكال في الامم المتصفة بالبياض وليست اوربية ولا امريكية كالاتراك والفرس واكثر العرب والجراكسة والبلوجستانية بل وبعض الاوربيين المتصفين بالسمرة في جنوب اوربا ، لا يعرف مصيرهم ايقصر عليهم تطبيقا لقانون بقاء الاصلح ام يشفع لهم اخواتهم ويكون الحكم للغالب .

فاذا كان الامر كذلك فما المانع من دخول الامم المتصفة بالبياض وهي غير اوربية ولا امريكية فان كان سر الترقي كامنا في اللون وحده فلا فرق بين ابيض وابيض ، وان كان السر كامنا في كونهم اوربيين كيفما كان لونهم فلماذا لم يتفوقوا في الزمان الغابر حين ازدهرت المدنية الصينية والهندية والاشورية والبابلية والقبطية والفينقية واخيرا العربية ، وفي كل ذلك كان الاوربيون يغطون في نومهم ويتخبطون في اوحال جهلهم وتوحشهم واين كانت ادمغتهم الراقية المخلوقة من نور ؟ وكيف طرا عليها التبدل بعد مضي تلك الاحقاب والازمان المتطاولة ؟ فهل نزل عليها وحي خصها الله به دون سائر الخلق ؟ وهل احتقار الاجناس الاخرى كالاسيويين والافريقيين وهنود امريكا واختطاف الزنوج من ديارهم وجلبهم الى امريكا ومعاملتهم معاملة الحيوان الاعجم والاستعماروما ادراكما الاستعمار قتل الشعوب الآمنة في عقر ديارها واستعبادها واغتصاب اموالها وتسخيرها في خدمة اللص المستعمر ، وتطبيق التمييز العنصري كذلك من وحي هذه الادمغة العبقرية؟ وما احسن ما قال الشاعر :

اذا لم تخش عاقبة الليالي
ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في الدين خير
ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

وهذه الفكرة الكاذبة الخاطئة مستولية على عقول الاوربيين ، عالمهم وجاهلهم وذكيهم وغبيهم وسادتهم وسوقتهم، حتى ان العالم الشهير المؤلف كارل بروكلمان تورط فيها ، فنقل من ترجمة تاريخ الهند للعالم الفيلسوف الكبير ابي الريحان محمد بن احمد البيروني لمترجمه مارتين هارتمان أكاذيب اخترعها هذا الاخير منهاان البيروني كان مسلماني الظاهر فقطولم يكن مسلماني الباطن لان علمه وعقله اجل من ان يقبل الاسلام ، ومنها انه كان شيعيا في اول الامر فلما اجتمع بالسلطان محمد بن الغزنوي صار سنيا ، ومنها انه كان فارسيا متعصبا لدولة الساسانيين التي قضى عليها العرب وكان يبغض العرب ، ويحتقر علومهم ، وهنا زاد الناقل كارل بروكلمان (بحق) انتهى كلامهما بنصه وفصه مترجما بحروفه ، وقد نقلت كلام هارتمان بنصه الانكليزي ، وكلام بروكلمان بنصه الالماني ؛ ورددت عليه في رسالتي التي قدمتها في جامعة برلين ، واحرزت بها لقب دكتور في الفلسفة على حد تعبير الاوربيين وفي الادب على حد اصطلاح العرب . وقد ناقش هذه الرسالة عشرة من علماء جامعة برلين احدهم استاذي المرشد رشارد هارتمان فوافقوا بالاجماع على ردي لتلك الترهات التي اخترعها مارتين هارتمان واستحسنها بروكلمان وسود بها صحائف كتابه (تاريخ الادب العربي) وزاد عليها تلك الكلمة الاجرامية وهي قوله (بحق) ، اقترف ذلك تزلفا

لحزب هتلر النازي ، وزعم بروكلمان ان البيروني كان يفتخر بآريته ، يعني لانه فارسي فهو يتصل بالنسب الآري الذي يعتز به هتلر وحزبه ، وكان بزعمه يبغض العرب ويحتقر علومهم (بحق) لانهم ساميون ، ولم يكن في امكاني حينئذ ان ارد عليه في هذا الزعم الاخير لاني كنت في عاصمة البلاد الالمانية في حكم هتلر الذي يدعي له مضلله دورتبرك ، ان البشر ينقسمون الى قسمين : قسم آري وهو الاعلى الكامل الذي انشأ المدنية ، واكتشف المكتشفات واخترع المخترعات ، وانشأ العلوم وحملها بجدارة واستحقاق ، وهو الذي يستحق ان يسود ويقود ، وقسم غير آري وهو بضد ذلك غير صالح لانشاء المدنية والعلم ولا لحملهما ، وحقه ان يستعمر ، ويجب على الجنس الآري ان يسخره ويقوم بتغذيته والمحافظة على صحته والعدل بين افراده ووضع مناهج العمل له .

وكان العلماء الالمانيون يكفرون بهذا الراي ويستهجنونه ، ولما اشتدت وطأة الحكم الهتلري ما كان احد يستطيع ان يجهر بمعارضته ، كما انه لم يتنزل احد من العلماء لاظهار الموافقة عليه الا النادر ، ومن هذا النادر بروكلمان .

وكان الاستاذ باولكالي قد اقترح علي ترجمة مقدمة كتاب الجماهير في الجواهر للبيروني مع التعليق عليها ليكون ذلك موضوعا لرسالة امتحان شهادة الدكتورة التحريري فترجمت المقدمة وعلقت عليها ، ولما فر الاستاذ باول كالي من حكومة هتلر الى بريطانية في اول سنة 1939 انتقلت من جامعة بون الى جامعة برلين واتممت دراستي على يد الاستاذ رشارد هارتمان ، لم اجد في تلك المقدمة شيئا اولى بالتعليق من تلك المفتريات التي اختلقها عدو الاسلام والعرب مارتين هارتمان واقرها وزاد فيها بروكلمان فتجردت لردها وقضيت عليها بالبراهين القاطعة من كلام البيروني نفسه في تآليفه ، فغضب علي بروكلمان لانه ظن ان الجو خلا له فاخذ يبيض ويصفر ، وينقر ما شاء ان ينقر وحسب ان المسلمين والعرب نائمون في غفلة عن مكايده ، ومكايد استاذه الذي نقل عنه ذلك الهراء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) ولهما الويل مما يصفان ويحق للعلماء الالمانيين العشرة الذين ناقشوا رسالتي وحكموا لي على اشهر مؤلف في هذا العصر من المستشرقين لا في المانية وحدها بل في سائر البلاد الاوربية يحق لهم ان يفخروا بحرية الفكر ونشر الحق بقطع النظر عن قائله وهو طالب عربي غريب ، ولا مجال هنا لتفصيل ذلك الرد لطوله ، ولكني اذكر عبارة شاذة فذة قالها البيروني في كتاب الصيدنة الذي الفه في شرح مفردات الادوية ، وقد قال فيه ، ان الصواب في هذه الكلمة هو الصيدنة بالنون لا باللام كما هو مشهور ، ولكنه انتهى قالها البيروني في تفضيل اللغة العربية على اللغة الفارسية هي قوله : (انا لا احسن اللغة العربية ولا الفارسية ولكن الهجو بالعربية خير لي من المدح بالفارسية) يعني انه يفضل ان يهجى بالعربية على ان يمدح بالفارسية ، وهذه غاية المبالغة في حب العرب ولغتهم حبا يزيد على حب العرب انفسهم للغتهم ، وخصوصا في هذا الزمان الذي طغى فيه الاستعمار الروحي بله المادي ولا سيما في هذا الوطن المغربي المنكوب الذي نرى ابناءه يتراطنون بلغة الاستعمار فيما بينهم بدون ضرورة ، شيء يدمي القلوب ويشمت الاعداء ويسوء الاصدقاء ، قبل شهرين كنت راجعا من فاس الى مكناس بعد القاء درس الوعظ في جامع الاندلس ، فبينما انا في اثناء الطريق اذا بجماعة من رجال الدرك قد استوقفت السيارات واخذت تجري عليها امتحانا دقيقا ، فمنها شقي وسعيد ، فبعض السيارات نجحت في الامتحان فسمحوا لها باستئناف السير وبعضها عثر جدها فرسبت وبقيت محبوسة تنتظر العقاب ، وكانت سيارتي من الناجحات فاستأنفنا السير في ذلك الليل البهيم ، فلم يمض الا قليل حتى اعترضت طريقنا جماعة اخرى من رجال الدرك وارادوا اجراء الامتحان مرة اخرى فاخبرناهم ان السيارة قد امتحنت بفحص اوراقها وادواتها قبل عشر دقائق فنجحت ، فلم يقبلوا واصروا على اعادة الامتحان فاعادوه فظهر لهم ان الضوء الاحمر الخلفي الذي يعطي الاشارات للسيارات الاتية من الوراء متوقف فقالوا اصلحوه او ادفعوا الف فرنك غرامة نقدا او نسجل عليكم قضية مخالفة ، فقلت لهم سجلوا وكان احدهم يتكلم مع صاحبه فاراد ان يودعه فقال له بالعجمية : (بون نوي) .

وكنت مغتاظا عليه فوجدت فرصة للكلام فقلت له : لغة الاستعمار حلوة لذيذة لا تستطيعون ان تفطموا انفسكم عنها ؟ فقال لي : كيف كيف ؟ يعني ان الكلام بالعربية والفرنسية سواء . فقلت له : هذا مسخ ودناءة وخزي وعار ، وهل يوجد على وجه الارض شخص عنده شرف وذرة من الوطنية يسوي بين لغة قومه ولغة الاستعمار . فقال لي : ان هذه اللغة هي الرسمية عندنا في عملنا .

فقلت له : ان كلمة الوداع ليست من الاعمال الرسمية ؛ الا يستطيع صاحبك ان يقول لك : اصبح بخير او ليلة سعيدة، اونحوذلك؟ فلما عجزعن الدفاع، قال لي : من انت ؟ فقلت له : قد رايت اسمي في اوراق السيارة وما حاجتك الى معرفتي ، اعمل بالقانون الذي عندك ، فاصر على ان اخبره باسمي فاخبرته فاعتذر وقال : سامحني . واخذ يصلح مع السائق ضوء السيارة . وانما اغتظت عليه في اول الامر لانه بدا الكلام بفظاظة وانتهت القضية بسلام. ورايت اختين مغربيتين صغيرتين تحدث احداهما الاخرى بالفرنسية .

واما في الدوائر الحكومية فالعربية اجنبية ، ولكن لابد لهذا الليل من آخر .

كنت اتكلم مع رئيس شركة التامين على السيارات وهو فرنسي قح في الرباط فقال : اني نصحت اولادي فقلت لهم : انكم ولدتم في المغرب ونشاتم في المغرب ، ولن تستطيعوا ان تعيشوا الا في المغرب ، فتعلموا العربية فانكم ان لم تفعلوا فسيذهب احدكم الى دار البريد بعد عشر سنين او على الاكثر بعد خمس عشرة سنة ، فلا يستطيع ان يقضي حاجته الا بترجمان . فياليت المغاربة يفهمون هذه الحقيقة التي فهمها هذا الرجل الفرنسي البعيد النظر .

ورب قائل يقول لقد خرجت عن الموضوع اكثر من مرة وصيرت مقالك هذا كسفينة نوح في جمعها بين البشر وانواع الحيوان فاقول في الجواب : ان الاستطراد عادة لازمة لي ، لان الحديث كما قيل ذو شجون وكثير من الناس يجدون في المقال المشتمل على فنون يرتبط بعضها ببعض من المتعة ما لا يجدونه في المقال المنسق المنحصر في لون واحد ، والذي نعتقده وندين الله به ان البشر كلهم نوع واحد وان اختلفت اجناسه ، فان العقل والتفكير الذي كرم الله به بني آدم لا يختلف باختلاف الالوان والاشكال وان العلم والمدنية ليسا وقفا على جنس بعينه، الا ان حب السيطرة والاستعباد يحمل الظالمين على التنكر لهذا المبدا القويم وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

دعاء المولى ادريس عند عزمه على بناء مدينة فاس

قال في الانيس متحدثا عن المولى ادريس لما اراد الشروع في بنائها رفع يديه وقال اللهم اجعلها دار علم وفقه ، يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك ، واجعل اهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما ابقيتها ، ثم اخذ المعول فابتدا بحفر الاساس فلم تزل منذ بنيت دار علم وفقه وسنة والجماعة بها قائمة قال وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء والادباء والشعراء والاطباء وغيرهم فهي في القديم دار فقه وعلم وحديث وعربية وفقهاؤها هم الذين يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب لم يزل ذلك كذلك على ممر الزمان .

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 9 - للدكتور تقي الدين الهلالي

غرائز الحيوان ودلائلها على فاطر السموات والارض

قال المؤلف كريسي مورسن : ان تطور الانسان قد بلغ فى التقدم مرتبة عالية من الوجهة الطبيعية ، ويظهر انه لم يبق هنالك امل فى تطور جديد بالنسبة الى تكون جسم الانسان . اما تقدمه من الوجهة الصحية فمؤمل بسبب تحسن الغذاء وعجائب الطب والجراحة التي لا تزال فى اطراد مستمر ، وذلك يقتضي زيادة كمال وتطور فى جسم الانسان ، ويستلزم ذلك زيادة تحسن فى عقله وتفكيره ، وهناك ـ امل على الاقل فى ان يزداد الانسان قوة فى الذهن ليعرف نفسه ويعبر عما اودعه الله فيه من حكم واسرار ، وبذلك يرتقي الانسان ويتقدم فى الكمال من الوجهتين المادية والعقلية من حيث الفرد ومن حيث الجنس ـ ان المدنية والاخلاق تسيران تارة الى الامام ، وتارة الى الوراء ، الا ان هناك دائما ربحا فى الجملة وتطورا ملحوظا فى تقدم الانسان ، ولكن عليه ان يسير الى الامام مسافات ابعد ، ومن حسن الحظ انه لا يظهر ان هناك حدا لامكان تطور جديد وتحسن فى دماغ الانسان بمرور الزمن الذي هو المؤثر الاساسي .

لقد وهب الله الطير غريزة الاهتداء الى الرجوع الى اوكارها ، فالعصفور المعروف بالربين الذي يعشش فى ابواب بيوتنا ، يذهب عند انقضاء فصل الخريف الى البلدان الجنوبية فرارا من البرد وطلبا للدفء ، ولكنه يرجع فى زمان الربيع الى عشه القديم ، وفى شهر ايلول ـ شتنبر ـ نرى اسراب الطير معظمها تطير الى الجنوب ، واحيانا كثيرة تطير فوق البحر مسافة الف ميل ولا تضل طريقها ابدا ، والحمام الزاجل اذا حمل فى قفص الى مكان بعيد قد يتحير احيانا بكثرة الاصوات الطارئة عليه فى سفره البعيد ، ولكنه يحوم هنيهة ثم يأخذ طريقه مستقيما تقريبا حتى يعود الى وطنه ، والنحلة لا تضل فى عودتها الى خليتها ، ولا يصدها عن ذلك هبوب الرياح العواصف التي تحرك الاشجار وسائر النبات وتطمس اعلام طريقها ، اما الانسان فحاسة الاهتداء الى العودة الى وطنه ضعيفة فيه ، ولكن الله وهبه عقلا استطاع به ان يصنع آلات الملاحة التي يهتدي بها فى ظلمات البحر والجو فكان ذا لمكعوضا له عما فقده من تلك الغريزة التي منحها غيره ، والحشرات الصغيرة لابد ان تكون لها عيون ، مكروسكوبية اي مجهرية ، ولكن الى اي حد تبلغ هذه العيون فى كمال الابصار ؟ لا ندري ، والنسور والبزاة لابد ان تكون لها عيون مجهرية ايضا لم يهبها الله الانسان .

وفى هذا ايضا فاق الانسان الحيوان بادواته الميكانيكية ، فبتلسكوبه يستطيع ان يبصر سديما بلغ فى الدقة الى حد ان البصر يحتاج الى ان يضاعف مليونين من المرات ليقدر على رؤيته ، والانسان بمكروسكوبه يستطيع ان يرى مكروبا لا يرى بالبصر المجرد ، ويرى زيادة على ذلك مخلوقات صغيرة جدا سلطت على تلك المكروبات تعضها .

ولو تركت الفرس وحدها فانها تسير فى الطريق فى اشد الليالي ظلمة ، وتستطيع ان ترى ولو فى شيء من الابهام اختلاف درجات الحرارة فى الطريق وجانبيه بعينين متأثرتين تأثرا خفيفا بالاشعة تحت الحمراء التي فى الطريق ، والبومة تستطيع ان ترى الفأرة الجميلة فى نظرها حارة الجسم تجري على العشب البارد فى اشد الليالي ظلمة ، ونحن نقلب الليل نهارا باحداث اشعاع فى تلك المجموعة التي نسميها بالضوء.

وهل تعلم ان انسان عينك يلقي صورة على الشبكية ، وحينئذ تعمل العضلات عملها فترتب الانسان بطريقة آلية وتوجهه الى بؤرة متقنة الوضع ، وتتألف الشبكية من تسع طبقات ينفصل بعضها عن بعض ، ومجموعها لا يزيد فى الغلظ على قرطاس رقيق جدا ، والطبقة الاخيرة من الداخل تتألف من مادة تشبه الشعر او الخيوط الرقيقة بعضها مخروطي الشكل ، وعددها يبلغ ثلاثين مليونا من الخيوط غير المخروطية وثلاثة ملايين من المخروطية ، وكلها قد

الفت ونظمت على غاية التناسب والتناسق والكمال بعضها مع بعض وكلها مع انسان العين ، ولكن كلها قد ولت ظهورها الى انسان العين وتوجهت الى الداخل لا الى الخارج ، ولو استطعت ان تنظر من خلال الانسان لرايت عدوك مقلوبا اسفله اعلاه ويمينه شماله وذلك امر يوقعك فى ارتباك اذا حاولت ان تدافع عن نفسك .

وقد علم الله ما كان سيحدث لو لم يجعل تلك الاجزاء التي تتألف منها العين على ذلك الترتيب الخاص قبل ان تبصر العين بالفعل ، ولذلك رتب الله سبحانه الابصار بواسطة ملايين الاعصاب الدقيقة التي تشبه الخيوط وهي متصلة بالدماغ وهو نظام تتحير العقول فى اتقانه واحكامه ، وقد رفع ادراكنا بواسطة ذلك من الحرارة الى الضوء ، ولذلك صارت العين شديدة الاحساس باللون ، ونحن لذلك نرى صورة ملونة ، للدنيا من الجانب الايمن الى الاعلى ، وهو ترتيب بصري فى غاية الاحكام والاحتياط ، وطبقات انسان العين التي تسمى بالعدسات تختلف فى الكثافة .

وبذلك تجلب الاشعة الى البؤرة ، ولا يستطيع الانسان ان يجد مثل ذلك فى جنس واحد كالزجاج مثلا ، وكل هذا النظام العجيب فى العدسات من الخيوط غير المخروطية والمخروطية والاعصاب وغير ذلك ، لابد انها وجدت فى وقت واحد ، اذ قبل وجود كل واحد منها على الترتيب المذكور يكون الابصار مستحيلا ، فكيف استطاع كل عامل متحتم الوجود من تلك العوامل العديدة ان يعرف ما يحتاج اليه فى خاصة نفسه ، وما يحتاج اليه ليتفق مع العوامل الاخرى فى العمل المشترك وينظم كل واحد نفسه مع شركائه ليتم العمل المطلوب وهو الابصار .

وهنا استاذن القارىء فى التعليق على ما تقدمت ترجمته فاقول : لعل هؤلاء السفهاء الذين يجحدون تصرف الله فى ملكه وينسبون كل ما راوا من عجائب صنعه الى الطبيعة العمياء الصماء البكماء التي لا وجود لها الا فى مخيلاتهم يظنون ان خلق الحيوان ناطقه وصامته انما هو مثل صنع لعبة او دمية تصنع فتجيئها الحياة بعجائبها ودقائقها من سمع وبصر وتفكير ودورة دموية وتنفس وهضم الى غير ذلك بلا علم ولا تقدير ولا تدبير ؟

وقد اهاب الله بهم لو كانوا يسمعون او يعقلون فقال جل من قائل فى سورة الحج : **(يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز)** وقال تعالى فى سورة الحج ايضا : **(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير)** هذه الآية تنطبق انطباقا تاما على مطايا الاستعمار الروحي المادي ، فانهم يجادلون بغير علم واذا سئلوا عن الدليل احالوا السائل على مسيو فلان ومستر فلان من اسماء سادتهم المستعمرين وزعموا كذبا وبهتانا ان ائمة الاستعمارين الروحي والمادي تركوا الايمان بالله فبلغوا ما بلغوا من الرقي فيجب علينا ان نترك الايمان بالله لنصل الى ما وصلوا اليه وفى كلامهم هذا من الخداع والبهتان ما لا يخفى على عاقل — اولا ان ائمة الاستعمار لهم دينهم وعقيدتهم ولنا ديننا وعقيدتنا ، فلو فرضنا انهم تركوا دينهم ونجحوا بتركه فلا يلزم من ذلك اننا نحن ايضا ننجح بترك ديننا ، ثانيا انهم كذبوا فى زعمهم ان ائمة الاستعمار تركوا دينهم ، فهذه كنائسهم وارسالياتهم ودعاتهم قد ملأوا بلادنا الافريقية وملأوا البلاد الاسيوية وسائر القارات ، وهم ينفقون على ذلك اموالا طائلة عزيزة عليهم يحبونها اكثر من انفسهم فلماذا يفعلون ذلك اذا تركوا دينهم ، ويفعلونه فى بلادنا بعد ما فعلوه على اكمل وجه فى بلادهم ، وهذه الضاحية التي اسكن فيها من ضواحي مكناس تسمى المنزه فيها كنيسة يدير شؤنها قسيس وهي مجهزة احسن تجهيز قائمة بواجباتها ، ولا يوجد فى هذه الضاحية مسجد اصلا مع ان عدد المسلمين من سكانها اكثر من عدد النصارى ، وهم يشتكون لبقائهم بلا مسجد ، ونحن نهيىء عريضة نوجهها الى وزارة الاوقاف المحترمة لعلها تتلافى هذا التفريط الشائن وتبني لنا مسجدا يرفع ويذكر فيه اسم الله. ولولا كراهية الخروج عن الموضوع والاسهاب فى الاستطراد لذكرت من شواهد عناية الشعوب الاوربية المفضلة بدينها مايمسخ الله به كل مطية من مطايا الاستعمار قردا او خنزيرا . ولقد صدق الله العظيم فانهم يجادلون فى الله بغير علم ويتبعون كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير ، هذا بعد عذاب الدنيا كما قال تعالى فى سورة الرعد : **لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اشق وما لهم من الله من واق** ، ومن عذاب الحياة الدنيا الاستعمار الذي اذاقنا ولا يزال يذيقنا الامرين بسبب تركنا الاسلام لا بسبب التمسك به كما تزعم مطايا الاستعمار ، ولله الحجة البالغة ولكن اكثر الناس لا يعقلون .

فوثبوا وثبة اقضت مضجع الاستعمار التائه ، وزعزعت اركانه واوضاعه ، وثاروا ثورة لايدرى اولها من آخرها، ولا فرعها من اصلها ، واشتبكت الامور وارتبكت ، واختلط الحابل بالنابل ، والخاثر بالزباد .

وكان المتنا مرون يظنون ان هذه الثورة لا تلبث ان يصيبها الاعياء والكلال ، وياتيها الضعف والانحلال ، ولكنهم كانوا مخطئين ، وفى امرهم مرجين ، فدامت وامتدت فروعها ، وتعددت شعبها ، واسست مراكزها ، وضبطت معاركها ، وامدها الله بقوته ، ونفحها بنفحته ، فكانت الثورة مباركة وكان الجهاد عزة ونعمة .

وكلما ضاق الامر على الاستعمار وضاقت عليه الارض بما رحبت تلون فى منطقه، وجدد دواليب حركاته، وكان اشد باسا واشد تنكيلا .

وبالرغم من تشدده وبطشه فقد الم به الذعر والقلق ، واستولى عليه اليأس والفرق ، واندهش امام حرارة الشعب ورباطة جاشه ، وموالاة جهاده مع تفوقه عددا وعدة واسلوبا وفنا ودربة .

وما وسعه بعد ان قلب واحتال ، ونفى واغتال ، وشرد ونهب ، وساوم وارهب ، الا ان يستفيق من غمرته ، ويستيقن انه اخفق فى مقامرته ، ويعترف انه اتى شيئا نكرا ، وارتكب خطأ فادحا لاتغفره السياسة ولا تنتجه الكياسة .

وعند ما اشتعلت الثورة وامر امرها راجعت السياسة النكراء حسابها ، وعادت تعمل لتستر جرمها — فعقدت المؤتمرات ، ودعت الى هدوء الاعتداءات واستدعت من ظنت انهم بيدهم دولاب الحركة وسير العجلة ، ولهم الحل والعقد فتعلقوا بملكهم ووقفوا فى طريق استقلالهم .

ولما لم تفلح فى مؤتمراتها ، ولم تنجح فى برامجها ، واعيتها الحيل ، ولامتها الدول ، تبين للدهاة انه لا علاج لخطورة الحالة ، الا تحول السياسة والساسة واقتفاء مذهب التفهم والتقرب ، بدلا من القمع والتعصب ، فقررت حكومتهم آنذاك اعادة الملك المجاهد من منفاه الى فرنسا لا الى المغرب املا فى تخفيف حدة الازمة وتشبثا بوجود المعارضة الخيالية التي خلقتها واسمتها ثم دعمتها بابواقها الكاذبة ، ودعاتها المرتزقة ، ولكن طائفة الاستعمار المستخدمة فى هذه المؤامرة الشنعاء سخطت وائمت فما كان من امرها الا ان حملها الحنق على من استعملوهم فى هذه المحنة ، واطمعوهم بتسلم النعمة ، فجهروا لذلك ولفيره من الدواعي بطاعتهم لجلالة محمد الخامس — فانتصر فجاة على ايدي المبطلين والجرمين ويمراى ومسمع من غلاة المستعمرين ، — وتلك معجزة من معجزات الزمان ، فلما تثبت لذى ملك وسلطان ، فكانت ضربة قاسية على طغاة الاستعمار وخاب سعيهم وسعي سفهائهم ومثل هؤلاء الضالين ومثل ادعيائهم المسخرين كما قال الله تعالى : « وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعدالحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولو موا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم » .

كذلك نشا ظل الاستقلال ، وبدات هزيمة الاستعمار من اجل الاعتداء على العرش المغربي العزيز وقد وجدت اعتداءات من قبله ولكن لم يبلغ اثرها فى النفوس ما بلغه اثر الاعتداء الشنيع الواقع فى 20 غشت 1953 .

وكل اعتداء على المقدسات لاتكون عاقبته الاسيئة، ولا تتبعه الا الهزيمة والخيبة والاستسلام سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وكذلك كان الوفاء للعرش كما كان العرش وفيا لصالح شعبه ، واثقا بانجاز رغباته فما قر قراره حتى بشر بالبشارة الكبرى ولم يمض قليل من الزمن حتى حقق البغية الاولى — واردف ذلك باعلان جمع التراب ووحدة الاجزاء — فازداد الحب والولاء ، وتضاعف الاخلاص والوفاء ، ثم رفع مستوى الادارة بما اسداه من ارشادات نافعة وتوجيهات صالحة واتخذ جيشا ملكيا لحماية الاستقلال وضمانة الاستقرار .

وهكذا كان العرش عمدة الكفاح وسر النجاح من قبل ومن بعد وكان عمله عظيما ورائعا اولا وآخرا .

بيد انه يجب للارتباط بالوجود الصحيح وللاغتباط بنظام الاستقلال ان نشكر لله نعمته الوافية ، ونجاهد فى سبيله باخلاص ونركز الحياة على ما تأصل من تاريخنا ونعلم اننا عشنا مومنين مسلمين ، ورفعنا راية الاسلام وكنا له ناصرين ، وتبوانا مقاما ساميا بين العالمين ، وتدرجنا فى الحضارة قرونا طويلة لكن تخللتها فترات اضعنا فيها الحق العام ، واخللنا بتعاليم الاسلام ، من جراء الغرور والجهل والانحراف عن الحق والعدل .

كما يجب ان نتضافر مع اخواننا فى العقيدة سرا وجهرا قولا وفعلا لاسيما الجزائريون الذين احيطوا من سائر جوانبهم بحرب كافرة ساخطة .

وبتضافر المسلمين وتضامنهم فى الحق يؤيدهم الله بروح من عنده ويزلزل اعداءهم فى كل مكان « والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لاولي الابصار» .

دواء الشاكين وقامع المشاكين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 10 -

قال المؤلف متابعا كلامه في فصل غرائز الحيوان :

والمحارة العادية التي تاكل عضلاتها تحتوي على « دوزينات »عدة من العيون الجميلة ـ الدوزينة اثنى عشر كما هو معلوم ـ وهذه العيون الجميلة شديدة الشبه بعيوننا ، وهي تلمع لان كل عين منها تشتمل على عدد لا يحصى من العاكسات الصغيرة التي يظن انها تمكنها من رؤية الاشياء من اليمين الى الاعلى . وهذه العاكسات لا وجود لها في عيون البشر ، فهل خلق الله تلك العيون الكثيرة في المحارة لانها ليس لها قوة دماغ كالانسان ؟ ولما كان عدد العيون في الحيوان ما بين عينين اثنتين الى آلاف العيون في المخلوق الواحد ، كان على الطبيعة ان تلاقي مشقة عظيمة لا قبل لها بها في تطوير علم المرئيات ، الا اذا صحبها صنع الله الذي اتقن كل شيء . ان النحل التي يخرج من بطونها العسل لا ترى الازهار الجميلة بالعين التي نراها بها نحن ، لكنها تراها بالضوء الذي فوق البنفسجي وهو يجعلها في نظرها اجمل مما نراها نحن . ان بين اشعة النموجات البطيئة وبين اللوحة (الفوتوكرافية) التصويرية عوالم من الجمال والبهجة والالهام التي قد بدانا نقدرها حق قدرها ونسيطر عليها ، فدعونا نؤمل ان نقدر في يوم من الايام على الاستمتاع بعالم الضوء الواسع ، بواسطة النبوغ في الاختراع ، وها نحن منذ الآن نقدر ان ندرك تموجات الحرارة في كوكب بعيد عنا بمسافة عظيمة . ونقيس قوتها .

ان العاملات من النحل تصنع بيوتا مختلفة الحجم في القسم الذي يستعمل لتربية الصغار . وتصنع بيوتا صغيرة للعاملات ، وتبني بيوتا اكبر للبعاسيب ، وتعد بيوتا خاصة للملكات الجوامل ، وتضع ملكة النحل بيضا ناقص التغذية في الخلايا المعدة للذكور ، غير انها تضع بيضا كامل التغذية في البيوت المخصصة للاناث العاملات والملكات المنتظرات ، ثم ان العاملات اللاتي هن اناث قد انتظرن من زمان طويل الجيل الآتي واستعددن ايضا لايجاد الغذاء للنحل الصغار بمضغ العسل ، وتيسير هضمه ، واعداد النوع الآخر من الغذاء المسمى باللقح ، ثم ينقطعن عن المضغ وتيسير الهضم في مرحلة معينة من تطور الذكور والاناث ، ويقدمن لهن عندئذ العسل واللقح بلا مضغ ولا تيسير للهضم . والاناث اللاتي يعاملن بهذه المعاملة يصرن عاملات .

واما الاناث اللاتي في بيوت الملكة فان غذاءهن يستمر مضغه وتيسير هضمه قبل تقديمه لهن ، وهذه الاناث التي تعامل بهذه المعاملة يصرن ملكات وهن وحدهن التي يضمن بيضا كامل التغذية ، وتكرار النتاج هذا يستلزم بيوتا خاصة وبيضا خاصا ، واثراء عجيبا في تغيير الغذاء ، وذلك يدل على التوقع وسبق العلم باثر الغذاء ، هذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة ويظهر انها ضرورية لوجودها ، ولابد ان هذه المعرفة والمهارة قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية ، وبذلك يظهر ان النحل قد فاقت الانسان في معرفة تاثير الغذاء في احوال خاصة .

تعليق على ما تقدم :

1) نسأل الماديين واذنابهم وعباد المستعمرين من اوجد للمحارة هذه العيون الكثيرة ؟ ومن الذي زودها بتلك العاكسات التي لا وجود لها في عيون الناس ؟ فهل الطبيعة العمياء البكماء الصماء هي التي علمت حاجة المحارة الى تلك العاكسات فزودتها بها وعلمت ان الانسان لا يحتاج اليها فلم تزوده بها ؟ اذن فالطبيعة عليمة حكيمة قادرة مدبرة لها ارادة ومشيئة ، فان

آمنتم بذلكم فكيف تجحدون خالقكم وهو الخلاق العليم العظيم الذي احسن كل شيء خلقه ، وبدا خلق الانسان من طين ، وان لم تؤمنوا به ، فاجيبوا عن السؤال الاول ، ولن تستطيعوا له جوابا حتى يلتقي سهيل والثريا، وحتى تجيبوا على جميع الاسئلة التي تحديناكم بها في المقالات التسع الماضية ، وهيهات ليس امامكم الا احد امرين اما الرجوع الى الحق والايمان بالحق والندم على ما ضاع من اعمالكم في ظلمات الجهل وخبطكم خبط عشواء في ليلة ظلماء او المكابرة والمغالطة والوقاحة .

اذا رزق الفتى وجها وقاحا
تقلب في الامور كما يشاء

2) لقد اجاب المؤلف وهو من هو ! رئيس المجمع العلمي في الولايات المتحدة . اجاب بقوله : فهل خلق الله تلك العيون الكثيرة في المحارة لانها ليس لها قوة دماغ كالانسان ؟ الجواب نعم ، فتبارك الله احسن الخالقين .

3) ثم اشار المؤلف الى ان الطبيعة لا تستطيع ان توجد لانواع الحيوان تلك العيون المتعددة من عينين اثنتين لكل مخلوق الى عدة آلاف من العيون للمخلوق الواحد ، وهذه العيون تختلف في كل مخلوق على حسب ما يناسبه ، اذا فالخالق البارىء المصور هو الذي فعل ذلك وانف المادي واذنابه راغم .

4) ومن الذي علم حاجة النحل الى عيون تنظر بما فوق البنفسجية لتبدو لها الازهار ، اجمل مما تبدو لنا ، فتجذبها الى اخذ مادة العسل منها لتخرج لنا عسلا لذيذا نستمتع باكله ، ونستشفي بخواصه ، هل تقدر الطبيعة ان تعلم هذه الحاجة وتسدها فاين تذهبون ؟ .

5) يقول المؤلف : « ان بين اشعة التموجات البطيئة وبين اللوحة الفوتوكرافية التصويرية عوالم من الجمال والبهجة والالهام التي بدأنا نقدرها حق قدرها ونسيطر عليها ، فدعونا نؤمل ان نقدر في يوم من الايام على الاستمتاع بعالم الضوء الواسع بواسطة النبوغ في الاختراع . هكذا يعترف العلماء المحققون انهم لا يزالون في بداية الاطلاع على عالم الضوء ومجائبه، ويؤملون ان يزدادوا علما ويتوصلوا الى النتائج العظيمة بخلاف الطائشين الذين يصدرون احكامهم جزافا ، ويقنعون باول بصيص ويزعمون انهم احاطوا بكل شيء علما وذلك هو الجهل المركب .

6) ان تصرفات مملكة النحل ، واعداد العلامات منها من البيوت والتغذية لكل صنف مما يناسبه لا للموجود منها فقط ، بل لما سيوجد لبرهان قاطع على تدبير رب العالمين وتصرفه في خلقه بحكمته البالغة . قد اعترف المؤلف ان تدبير هذه المخلوقات الملهمة لملكتها يفوق تدبير البشر ، وما اجمل قوله تعالى : **« واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »** .
لا جرم ان تفوق النحل الضعيفة على الانسان في بعض النواحي سببه ذلك الوحي الرباني ، ولذلك نوه الله به ممتنا على عباده ، ومنبها لهم على كمال حكمته وعظيم قدرته ليعتبروا ، وقد سميت السورة بسورة النحل لوجود هذه الآية فيها ، وما يعقلها الا العالمون .

ثم قال المتصف : والكلب باتفه الذي لا يفتر عن السعي في استنباط المعلومات بما اوتي من قوة الشم يستطيع ان يعرف الحيوان بعد مروره بالمكان الذي هو فيه ، ولم يستطع الانسان حتى الآن ان يخترع آلة تقوي حاسة الشم عنده الى ان يساوي هذه الحاسة عند الكلب ، ونحن لا نكاد نعلم كيف نبتدىء في فحص امتدادها ، وعلى ذلك نرى ان حاسة الشم على ضعفها عند الانسان قد تطورت الى حد انها تدرك اصغر الذرات المجهرية (المكروسكوبية) وكيف نعرف اننا جميعا نتاثر تاثرا واحدا بشمنا رائحة بعينها ؟ والحقيقة اننا لا نتاثر تاثرا واحدا ، وكذلك الذوق فانه يعطي كل واحد منا شعورا خاصا ، والعجب ان اختلاف احساساتنا هنا هو ورائي . وكل انواع الحيوان تسمع الاصوات التي كثير منها خارج عن دائرة ادراكنا ، وسبب ذلك دقة السمع عندنا بكثير ، وقد توصل الانسان بالوسائل التي اخترعها في هذا الزمان الى انه يستطيع ان يسمع حركة ذبابة وهي تمشي على مسافة اميال بعيدة منه ، كما لو كانت تمشي على صماخ اذنه ،وبمثل تلك الالات يستطيع الانسان ان يسجل وقع شعاع عالمي .

ان جزءا من اذن الانسان هو سلسلة من نحو اربعة آلاف حنية دقيقة ، ولكنها معقدة ، متدرجة بنظام دقيق في الحجم والشكل ويمكن ان يقال ان تلك الحنايا تشبه آلة موسيقية ، ويبدو انها قد نظمت تنظيما محكما ، بحيث تدرك الاصوات ، وتنقلها الى الدماغ .

بوجه محكم تنقل كل ضجيج او صوت صغيرا كان ام كبيرا من صوت الرعد المجلجل الى حفيف الشجر ، وتنقل تلك الخبايا نغمات آلات الموسيقى الممتزجة ، واصواتها المختلفة مما يتضمنه الجوق الموسيقي . لو كان المراد خلق الاذن ان تحس خلاياها الاصوات بالقدر الذي يعيش معه الانسان فقط ، فلماذا امتد مداها الى ان وصل الى ارهاف السمع ؟

لعل القوة الكامنة وراء هذه الخلايا ، قد توقعت حاجة الانسان الآتية في المستقبل الى الاستماع بالاستماع العقلي ، ام كان خلق تلك الخلايا على وجه افضل مما يحتاج اليه على سبيل المصادفة ؟

تعليق :

بعد ما شرح المصنف تكوين الاذن العجيب وبين كيف تنتقل المسموعات منها الى الدماغ القى سؤالا على الماديين بطريقته اللطيفة اخرجهم فيه وشدد عليهم الخناق وهو قوله : فلو كان المراد عند (خلق) الاذن ان تحس خلاياها الاصوات ، بالقدر الذي يعيش معه الانسان فقط فلماذا امتد مداها الى ان وصل الى ارهاف السمع ، ثم حصل الجواب في امرين اثنين لا ثالث لهما احدهما قوله : لعل القوة الكامنة وراء هذه الخلايا قد توقعت حاجة الانسان الاتية في المستقبل الى الاستمتاع بالاستماع العقلي . اشار في هذا الجواب الى ان الله العليم الخبير حين خلق سمع الانسان لم يخلقه على القدر الذي يحتاج اليه ليعيش فقط ، بل خلقه بقدر ما يحتاج اليه الانسان في كل وقت لعلمه بتطور حياة الانسان وتجدد حاجاته ، وذلك يستلزم الاعتراف بعلم الله ، بجميع احوال البشر من اول خلقهم الى فنائهم ويبطل مزاعم الماديين . والامر الثاني ان يكون ذلك كله وقع على سبيل المصادفة بلا علم ولا تقدير ولا تدبير ومية من غير رام وقد علمت بطلان هذا القول فيما مضى من هذه المقالات .

ثم قال المؤلف : والصغير من الحوت المعروف بسلمون يقضي سنين في البحر ثم يرجع الى نهره الخاص به ، واعجب من ذلك انه يصعد جانب النهر الذي يعب فيه الجدول الذي ولد فيه ، وقد تكون قوانين الولايات المتحدة الامريكية التي على احد جانبي النهر شديدة وقوانين الولاية التي على الجانب الآخر متساهلة ولكن هذه القوانين لا تسري الا على الحوت الذي يمكن ان يقال فيه انه يخص الجانبين كليهما ، فما الذي يجعل السمك يرجع الى مكانه بالتدقيق التام ؟ فلو نقل حوت من نوع سلمون الى نهر آخر ، والقي فيها لادرك في الحال ان ذلك النهر ليس نهره ، ورجع بكل قواه شاقا طريقه الى نهره الخاص به ولا يصده عن ذلك التيار المعاكس ، وهناك مشكلة اشد استعصاء وصعوبة على الحل وهي قصة ثعابين البحر ، فان هذه المخلوقات العجيبة متى تم نموها ترحل من مختلف الحياض والانهار ، في كل مكان .

فاذا كانت في مياه اوربا مثلا تقطع الاف الاميال في المحيط متجهة الى الاعماق البعيدة المدى جنوب نهر برمودا وهنالك تضع بيضها وتموت ، ان صغارها التي لا تملك اي وسيلة من معرفة اي شيء غير انها وجدت نفسها في تيه من المياه ، فانها تتوجه راجعة لا تضل طريقها الى الشاطىء الذي جاءت منه امهاتها . ثم يتوجه كل منها الى النهر او الحوض او البركة الذي جاء منه اصله ، وبذلك يبقى كل بحر محتويا على ثعابينه ، فيا عجبا كيف صاولت التيار وغالبت العواصف ومدود البحار ، وهزمت الامواج المتلاطمة في كل شاطىء ! ثم بعد ذلك تنمو ، فاذا بلغت منتهى نموها ، يهيجها قانون خفي من اسرار الكون ، فترجع لتتم رحلتها ، فمن اين جاء هذا الدفاع الموجه الذي ساقها ؟ ولم يتفق قط ان ثعبانا اوربيا من هذه الثعابين قد صيد في المياه الامريكية ، ولا صيد قط ثعبان امريكي في المياه الاوروبية ! ومن عجائب صنع الله ان الثعبان الاوربي يتاخر نموه سنة او اكثر ليكون ذلك عوضا عن زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها ، فهل تملك الذرات التي يتالف منها الثعبان ، قوة الاهتداء ومعرفة اماكن امهاتها ؟ وهل تركت تلك الامهات لابنائها وصية مكتوبة ومنهاجا مرسوما وامرتها ان تنفذه ؟ فلو ان جماعة من البشر هاجروا من اوربا الى امريكا وولدوا اولادهم وتركوا لهم وصايا مكتوبة وزودوهم بالخرائط اللازمة والارشاد الكافي لشق عليهم بل تعذر عليهم ان يقراوا تلك الوصايا ، ويفهموا ما تضمنته فكيف بتنفيذها ، فيجب على الماديين ان يحلوا هذه الالغاز قبل ان يخوضوا فيما لا علم لهم به . فسبحان الله الخلاق العليم .

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 11 -

للدكتور تقي الدين الهلالي

اعترض علي احد الاخوان فقال انك لا تحافظ على الاصطلاحات العلمية ، فقلت له اذكر لي مثالا من ذلك فقال انه لا يحضره ولا مثال واحد . فقلت له ينبغي ان تعلم اني لم اقصد بهذه المقالات بيان المسائل العلمية ، لذاتها فحسب وانما اردت استخلاص العبرة والاستدلال على تدبير الخالق الحكيم ثم انني مترجم فمن اراد ان يعترض علي يجب عليه قبل ذلك ان يستحضر الاصل ويقابله بالترجمة ثم يعترض على ما يراه خطأ ، على اني لا احرص كثيرا على التدقيق في الترجمة بقدر ما احرص على سهولة العبارة وتيسير فهمها للقراء ، ثم ان الاصطلاحات العلمية الحديثة كلها الفاظ اجنبية لا يمكننا ان نخطىء فيها ولكن يمكن ان نفسرها ونشرحها .

ثم قال المؤلف : يظهر ان الحيوان له قدرة على تبادل الشعور تقوم مقام اللغات عند الانسان ، فمن ذا الذي لم يلاحظ ان جمعا من السمك المعروف بمنو يتحرك كله دفعة واحدة في وقت واحد ؟ ومن ذا الذي لم يراقب باعجاب الطائر المعروف بالطيطوى يطير ويحوم في الجو حتى تجتمع عليه سائر الطير ذوات الصدور البيض في اشعة الشمس فتجتمع كلها في وقت واحد ، فمتى اعطيت الاوامر وتلقيت لا يسمع صوت نقدر ان ندركه ، ومع ذلك يطيع السرب كله الاوامر كأنه فرقة من جنود امرها ضابطها بامر فامتثلته ، بعضنا لا يصدق بوجود تبادل الشعور بين افراد الحيوان ، وبعضنا يصدق به ، ولكن لا احد منا يستطيع ان يفسر الاسلوب الذي يتفاهم به السرب .

متى حملت الريح فراشة انثى وادخلتها الى غرفتك من خلال النافذة ، ترسل في الحين باشارة خفية الى الفراشة الذكر وبينهما مسافة بعيدة جدا فتتلقى الفراشة الذكر تلك الرسالة وترد جوابها ، وان احدثت رائحة شديدة في معملك لتمنع تخاطبهما لم يجدك ذلك نفعا ، فهل يوجد لدينك المخلوقين الضعيفين جهاز ارسال اي محطة اذاعة يتحادثان بها ، او تراها تهز الاثير فيتلقى هو الاهتزاز ويتفاهمان بذلك ؟ وماذا نقول في انثى الجادب حين تحك ساقيها او جناحيها في ليلة هادئة فيسمع ذلك رفيقها على مسافة نصف ميل ، انها تهز ستمائة طن من الهواء لتنادي رفيقها ، والفراشة التي تعمل في عالم من عوالم الطبيعة تنادي رفيقها في سكوت تام ، وقبل ان يكتشف الراديو كان العلماء يظنون ان رائحة تنبعث من الفراشة الانثى فيشمها الذكر ويفهم منها مراد الانثى ولو كان هذا صحيحا ايضا لكان من خوارق العادة لان الرائحة اذا انبعثت في الهواء تنبعث في جميع الجهات بهبوب الريح او بدونه فيكون على الفراشة الذكر حين تصلها هباءة من الرائحة ان تميز من اي جهة جاءت فبقيت المشكلة بلا حل .

ونحن الآن نبذل جهدنا في توسيع علم الميكانيك لتتطور المواصلات وتتسع دائرتها ، وسياتي اليوم الذي يستطيع الشاب فيه ان ينادي محبوبته من مسافة بعيدة بدون استعمال وسائل ميكانيكية فترد له الجواب دون ان يحول بين تخاطبهما جدار ولا باب مغلق ، ان التليفون والراديو من الآلات العجيبة نستطيع بهما ان نتحادث من مسافات بعيدة ، ولكننا مقيدون بالسلك والمكان ، وعلى هذا نرى ان الفراشة لا تزال متفوقة علينا ، ولا يسعنا الا ان نغبطها على ذلك حتى نستطيع ادمغتنا ان تخترع الراديو الفردي وحينئذ نتمكن من تبادل الافكار على الوجه الاكمل ، والنبات يحتال في استخدام اشياء لاستمرار وجوده دون

رغبة من تلك الاشياء ، فمن ذلك الحشرات التي تحمل اللقاح من زهرة الى اخرى ، والرياح ، وكل شيء يطير او يمشي ليوزع اللقاح ، بل استطاع النبات ان يستخدم الانسان وهو سيد هذه المخلوقات فصار الانسان يحرث ويزرع ، ويشذب كل ذلك بفعله خدمة للنبات لينمو وتتحسن حاله وعلى الانسان ان يخزن الحب والثمار ويحفظها واذا لم يفعل عوقب بالمجاعة ، وانحطت المدنية ، وعادت الارض خرابا .

والطيور التي تؤخذ صغيرة من اعشاشها حين تكبر تصنع اعشاشا كاعشاش آبائها ، وامهاتها ، وللعادات المتوارثة اصول بعيدة في ظلمات القدم ، فهل هذه الاعمال نتيجة المصادفة ام نتيجة اعداد حكيم ، ان في هذا لكفاية لاظهار العادات الوراثية التي نسميها بالغرائز ، ولا نجد من بين انواع الحيوان التي جابت الارض طولا وعرضا مثل الانسان في قوة التعليل ، فهو وحده الذي نمى معرفته بالارقام ، فلو ان احدى الحشرات عرفت عدد ارجلها لما امكنها ان تعرف عدد ارجل اثنتين من نوعها لان ذلك يتطلب التفكير وقوة التعليل .

وكثير من الحيوانات هي مثل سرطان البحر ، الذي اذا فقد مخلبا ، عرف ان جزءا من جسمه قد ضاع ، بادر الى تعويضه باعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة ، ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل لانها تعرف بطريقة ما ان وقت الراحة قد جاء .

والحيوان المائي المعروف بكثير الارجل اذا قطع نصفين يقدر ان يصلح نفسه بواسطة احد النصفين ، واذا قطعت راس دودة الطعم فانها تسارع الى صنع راس بدله ، ونحن نقدر ان نهيء التئام الجروح ولكن متى يتمكن الجراحون اذا كانوا سيتمكنون ان يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتصنع ذراعا جديدة او لحما او عظاما او اظفارا او اعصابا ، وهناك حقيقة مدهشة تلقي بعض الضوء على سر هذا الخلق من جديد : فان الخلايا في المراحل الاولى من من تطورها ان تفرقت تستطيع كل واحدة منها ان توجد حيوانا كاملا ، لذلك اذا انقسمت الخلية الاصلية الى قسمين وتفرقا ، استطاع كل نصف ان يتطور الى حيوان كامل وربما يفسر ذلك التشابه الذي يكون بين التؤامين ، ولكن يدل على اكثر من ذلك فان كل خلية في البداية يمكن ان تكون حيوانا كاملا ، وهذا ما يدلنا بلا شك على ان احدنا موجود باكمله في كل خلية ونسيج من جسمه ، وهذه الطريقة العجيبة التي يمكن الاشارة اليها في سهولة وصدق في المزمور رقم 139 — 16/14 من مزامير داود .

يقول المزمور : (امجدك لاني خلقت بشكل رائع عجيب ، ان اعمالك عجيبة ، وان نفسي لتعلم ذلك حق العلم ، ان اصلي لا يخفى عليك حين خلقتني في الخفاء من ادنى اجزاء الارض خلقتني في احسن صورة ، وكانت عيناك تريان اصلي قبل ان يتم خلقي ، وفي كتابك كل اعضائي كانت مكتوبة واستمر تصويرها ان تتطور بها كل خلية الى كائن حي مستقل قد وقعت بعد ان لم يكن هناك واحد منها) .

ويمكننا ان نكتب صفحات في عجائب الشعور الذي لا يزال في الوقت الحاضر وراء ادراكنا ، ولكن هذه الامثلة كافية تماما لتدلنا على انه لا يزال امامنا كثير مما يجب ان نتعلمه .

وما دام الانسان لم تتكون له حواس جديدة او اختراع آلات ميكانيكية تساوي ما عند الحيوانات من القابلية فان امامه طريقا طويلا للتطور ، ان كل قابلية توجد عند الحيوان ولا توجد عندنا هي تحد لذكائنا ونحن لا نزال ناقصي العلم الى ان نجد جوابا لهذا التحدي اننا الى الآن لا نستطيع ان نفهم الغريزة فهما تاما ، ولذلك لا نستطيع ان نضع اسسا على معرفة ناقصة والى ان نملك كل حاسة ربحتها الكائنات الحية الاخرى ، فاننا سنبقى عاجزين عن ادراك الارتباط الحقيقي الذي بين قوانين الطبيعة ، وسنبقى باحثين فيما لا نهاية له بفهم جزئي ، ان التطور الروحي للانسان هو الآن في البداية ، والقيس الالهي قد بدأ يسيطر في بطء على عقله المادي ، واخطاء الانسان التي توصله الى هلاك نفسه بيده ، انما هي مآسي طفولته ، وزماننا اذا قيس بالازل الماضي والابد المستقبل ، لا يزيد على دقة الساعة ، لكن الروح التي فينا تتعلق بالازل والابد جميعا .

ونحن اذا فكرنا في الفضاء الذي لا يفتأ يمتد امامنا ، وفي الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية ، وفي القوة المقيدة والمحبوسة في الذرة ، وفي الكون الذي لا حد له بعوالمه التي لا تحصى ونجومه التي لا تعد وفي الاهتزازات التي نسميها بالضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيسية ، وفي النشاط المستمر للنجوم ، وفي الجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم ، اذا فكرنا في ذلك كله ادركنا في الحقيقة اننا لا نعلم الا قليلا ، فكم يجب ان يتقدم الانسان قبل ان

يعلم حق العلم ويتيقن وجود الخالق الاعلى ، ويحاول ان يرتفع الى اعلى ما يستطيع بلوغه من الفهم ، دون ان يحاول تفسير حكمة الله ومقاصده او يحيط بكنه صفاته تعالى .

تعليقات

1) ان تحرك سرب من السمك دفعة واحدة فى لحظة واحدة لامر عجيب فلو قدرنا ان جماعة من البشر ارادوا ان يفعلوا مثل ذلك لاحتاجوا الى مفاوضات طويلة واشارة واضحة يسمعها كل واحد منهم او يبصرها كاطلاق عيار ناري مثلا او ارسال ضوء قوي فى الفضاء هذا اذا كانوا مستيقظين او كانت عندهم ساعات دقيقية لا تخطىء كساعة بكبن التي تذيع ضرباتها اذاعة لندن فربما يتوفقون مع هذه الوسائل الى التحرك دفعة واحدة فى وقت واحد ومن المعلوم ان الحيتان ليست لها لغة كلغات البشر ولا آلات لضبط الوقت ولا اشارات ، فماذا يقول المتفلسف الذي ينكر ما لا علم له به وما لم يفكر فيه ولا درسه اخلادا منه الى الراحة وارضاء لسادته ذئاب الاستعمار . يجب عليه ان يفسر لنا هذه الاسرار ويعللها وليستعن بمن شاء من سادته ان كان صادقا ، وهيهات هيهات لن يستطيع ذلك حتى يلتقي سهيل والثريا ، وحتى يصير الباطل حقا والكذب صدقا .

2) الآية العظيمة فى اعطاء قائد الطيطوى الامر لسائر افراد السرب دون ان يتكلم بلغة نفهمها ولا بلغة لا نفهمها ، فماذا يقول الجاحدون فى خطاب نملة سليمان لسائر النمل ، هل يستطيعون بعد الاطلاع على هذه الحقائق ان يجحدوا تبادل الشعور بين افراد الحيوان ؟ لقد قال بعض الاوربيين المنصفين الاحرار ان اول كتاب ذكر فيه ما يدل على ان افراد الحيوان لها وسيلة تتفاهم بها هو القرآن اذ جاء فيه فى سورة النمل (قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فالى القرآن يرجع الفضل فى اقبال العلماء على البحث فى تفاهم افراد الحيوان ومعيشتهم الاجتماعية وانظمهم الدقيقة .

3) اما قصة الفراشتين والجنادب : فقد علق عليهما المؤلف بما لا مزيد عليه ، ان فى ذلك لآيات للمؤمنين وقوارع مخجلة للجاحدين .

اتاكم رمضان

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ان رسول الله (ص) قال وقد حضر رمضان : اتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحط الخطايا ويستجيب فيه الدعاء ينظر الله الى تنافسكم فيه ، ويباهي بكم ملائكته فاروا الله من انفسكم خيرا فان الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل .

دراسات إسلامية

دواء الشاكين وقامع المشاكين

- 12 -

للدكتور تقي الدين الهلالي

قال المؤلف : الفصل التاسع : تطور العقل

من اعجب العجب انه لا يوجد في حياة الحيوان على كثرة انواعه واختلافها ما يسجل له شيئا من العقل فليس له الا الغرائز ، فاذا جئنا الى الانسان نجد العقل خاصا به ، فلم يوجد حيوان قط استطاع ان يرفع حجر او يعد عشرة او يفهم معنى عشرة .

لقد اتيح لكثير من المخلوقات ان تظهر بغرائز وخواص بلغت فيها الى درجة عالية من الذكاء ، فمن ذلك ان الزنبور يصيد الجندب ويحفر له حفرة في الارض ، ويخزه في مكان معلوم من جسمه حتى يفقد وعيه ويعيش على شكل اللحم المحفوظ في علبة مثلا ، ثم تضع انثاه بيضا في المكان المناسب بالضبط ، ولعلها لا تعرف ان بيضها حين يتفقس يخرج اولادا يقتاتون من تلك الحشرة دون ان يقتلوها ولو قتلوها لكان ذلك خطرا عليهم ، ولابد ان الزنابير فعلت ذلك وكررته من اول خلقها الى يومنا هذا ، ولولا ذلك لما بقي زنبور واحد على وجه الارض ، والعلم يقف حيران امام هذا السر ولا يجد له تفسيرا ، ومع ذلك لا يمكن ابدا ان يكون ذلك قد وقع على سبيل المصادفة ، ثم تفطن انثى الزنابير الحفرة التي تركت فيها اولادها وتنطلق مسرورة باداء واجبها ، ثم تموت ، فلا هي ولا احد من اسلافها الماضيات فكر في ذلك العمل ولا عرفت واحدة منهن ماذا يقع لاولادها ، بل ولا عرفت ان سيكون لها اولاد ، بل ولم تعرف انها عاشت ولا انها عملت عملا كفيلا بحفظ نوعها .

اما النحل والنمل فيظهر انها تعرف كيف تنظم وتحكم جماعتها بنفسها ، فان لها جنودها وعمالها وعبيدها وبعاسيبها ، ولو انك التقطت قطعة من الكهرمان على شاطيء بحر البلطيق ، لوجدتها تشتمل على نملة محبوسة منذ ازمنة طويلة تفوق العدد ، ولوجدتها نسخة طبق الاصل من النمل الموجود في هذا الزمان ، فهل توقف التطور عن سيره في حق النمل حين وصل الى النظام المناسب لبيئته في الطبيعة ، ام كان ذهن النملة الصغير آلة اقل من ان يصل الى غرض اعلى مما هو عليه ؟ لا شك ان النملة من حيث هي حشرة اجتماعية قد تعلمت كثيرا ، ويظهر انها ارتقت الى ادراك النظرية العجيبة وتطبيقها وهي (الخير الاكبر للعدد الاكبر) وتصل بذلك الى النتيجة المنطقية كما فعل بعض اهل الهند الشرقية في الجيل الاخير ، في بعض انواع النمل تاتي العاملات منهن بالحب الصغير لتغذية غيرها من النمل ابان فصل الشتاء ، ويعمل النمل ما يعرف ببيت الطحن ، وفي ذلك البيت يطحن النمل الذي اوتي افكاكا قوية خلقت بالقصد للطحن بتحضير الطعام لسكان تلك المستعمرة ، هذا هو شغلهن الخاص ، واذا جاء فصل الخريف وتم طحن الحبوب كلها تحقق المثل (الخير الاكبر للعدد الاكبر) وهذه القاعدة تستوجب حفظ الزاد من الطعام ، ولما كان عدد النمل الطاحن سيكثر في الجيل الجديد فان الجنود من النمل تقتل ذلك النمل الذي طحن الحب ، ولعلها تجد في انفسها مسوغا لذلك القتل باعتقادها ان اولئك الطواحن المقتولات قد اخذن حظهن كاملا من الغذاء في وقت الطحن ، يعني فبقاؤها يضيق الغذاء ويوقع البطالة في الجيل الاتي .

ثم ان بعض انواع النمل بسبب الغريزة او بدافع التفكير (اختر منهما ما تشاء) يزرع الفطر وهو ما يسميه المغاربة (الفكاع) ويعمل منه مزارع تسمى

حدائق الفطر ويصيد انواعا معينة من الارق ويسمى اليرق ، وبالانكليزية (كتربيلر) والدود الذي يسمى بالانكليزية (قمل الاشجار) هذه المخلوقات هي ما يدعى بقر النمل او معز النمل لان النمل يستخرج منها شيئا مائعا يشبه العسل يتغذى به . ومن شان النمل ان يأسر اعداءه ويتخذهم عبيدا ، وبعض النمل حين يعمل اعشاشه يقطع اوراق الشجر على حجم معين ، وفي حين يضع بعض العملة من النمل الاطراف في مكانها تستخدم صغارها التي لا تزال في طور اليرق وهي قادرة على ان تفزل الحرير ، وتجعله خيوطا لتخيط به تلك الاوراق بعضها مع بعض ، وقد تحرم صغار النمل انفسها من عمل بيت تستقر فيه بسبب ذلك الشغل الذي يعود بالخير على الجماعة ايثارا منها لمصلحة الجماعة على مصلحتها الخاصة .

فكيف تقدر ذرات المادة وهباءاتها التي يتالف منها جسم النملة ان تقوم بهذه الاعمال المعقدة ؟ فلابد ان يكون هنالك خالق عالم قدير يدير ذلك وغيره . والانسان وحده هو الذي اوتي عقلا تطور الى حد انه يقدر به ان يفكر تفكيرا عاليا عظيما . فالغريزة تشبه نغمة واحدة من نغمات الشبابة المعروفة بالناي ، وهي نغمة جميلة ، ولكنها محدودة ، على حين نرى العقل البشري يشتمل على جميع النغمات التي تحتوي عليها كل الالآت الموسيقية التي يتالف منها الجوق الذي يسمى (اوركسترا) والانسان هو الذي يقدر ان يؤلف تلك النغمات ويخرج من مجموعها للعالم معزوفات « سمفونيات » موزونة كاملة من الفكر تقارب المعجزة . ولم تخرج العناية الربانية مخلوقا حيا من الصخور الطبيعية الاولى : مخلوقا له عقل مرن مثل عقل الانسان . اذا صار ذلك معلوما فنحن نقدر ان ندرك قابلية الانسان ان يتلقى قبسا من رب العالمين يجعله سيدا في الارض ، عجيبا في مزاياه خالدا فيما قدره الله له .

ان التطور لابد له حسب القوانين الكيميائية والطبيعية ان يقصر اقصى حدوده على اعظم ما يمكن من مناسبة ما حوله ، ولا يتجاوز ذلك ، فجمال ريش طائر هو اظهار لجاذبية التزاوج بين الذكور والاناث ، وبذلك يمكن تعليله ، غير ان الطلاء الجميل ليس ضروريا لوجود الانسان ، وان كانت المراة الجميلة موجودة ، ان المادة من الذرات والصخور او الماء يمكن ان تتحد ، واذا اعطيت الحياة يمكن ان تتطور الى انسان ، ولكن هذه العناصر بعد ان تتم مناسبتها للبيئة الطبيعية ، ايمكنها ان تسير الى الامام وتنتج استاذا موسيقيا يستطيع ان يكتب نغمات « نوتات » على القرطاس ، ويسجل تناسبها الجميل ويصنع « بيانو » يستولي به على الباب المستمعين ويسحرهم بنغماته ، ثم يسجل معزوفاته على اقراص من البلاستيك تذاع في العالم بمحطة اذاعة بواسطة الاثير ، ولا تعرف الذرات من امره شيئا غير انها موجودة فيه ؟

ان بعض انواع الحيوان تتعاون في شؤونها وتوحد جهودها فلا تصيد الا في حال جماعات ، فتجمع غذاءها وتخزنه للمستقبل ، وتضاعف جهودها الفردية بالعمل المشترك ، ولكنها مع ذلك تظهر انها لا تتقدم ولا خطوة واحدة الى الامام . اما الانسان فانه ضاعف قوته الفردية ووحد جهوده حتى بنى الاهرام ولم يقف عند ذلك الحد ، بل اكتشف الالة الرافعة ، والبكرة المساعدة على رفع الاثقال بالحبال ، والعجلة التي تسهل الجر ، والنار . وراض الحيوان حتى عوده حمل الاثقال وغير ذلك من الاعمال ، واضاف الى قوة الحيوان العجلات ، فسهل عليه بذلك العمل وزاد في قدرته وسرعة سيره وقوى ظهره ، وتغلب على قوة سقوط الماء فصرفه فيما ينفعه ، واستخدم البخار والغاز والكهرباء ، وانتقل من العمل باليد الى اختراع الالات الميكانيكية ، وصار يسيطر عليها ويستخدمها في اغراضه فضاعف بذلك عمله وسهله على نفسه ، وكل اولئك من بنات فكره ونور عقله .

ثم هو في تنقلاته من مكان الى مكان قد اخترع آلة جعلته يسبق الظبي في سرعة عدوه ، ثم صنع عربة وركب لها اجنحة فحلق بها في الجو وسبق طير السماء في سرعة الطيران ، فهل وقع ذلك كله بتفاعل مادي على سبيل المصادفة ؟ ويظهر ان الجمال ملازم لطبيعة الكون في كل شيء ، فمن ذلك جمال السحاب ، وقوس قزح ، والسماء الزرقاء ، والبهجة الرائعة التي تعترى الانسان حين يراقب النجوم ، والقمر الطالع والشمس في وقت الغروب ، وجمال الظهر وجلاله ، كل ذلك يهز مشاعر الانسان ويسحره .

تعليقات :

1) الزنبور حشرة صغيرة تشبه النحلة له لسع شديد ومن ذلك المسالة الزنبورية وهي مسالة يقال ان سيبويه اختلف مع الكسائي فقال الكسائي : بحضرة هارون الرشيد كنت احسب ان العقرب اشد لسعا من

الزنبور فاذا هو اياها ، فقال سيبويه : اخطات . الصواب ان تقول : فاذا هو هي . فقال الكسائي : لم اخطىء . فقال سيبويه : هؤلاء العرب بالباب يعني فصحاء البادية الذين لم يختلطوا بالعجم ولم تفسد لغتهم . فرضي بذلك الكسائي وبعث الى العرب وامرهم ان يصوبوا رايه اذا سئلوا فاستجابوا له لعلو منزلته عند الرشيد واولاده . فدعي العرب فجاءوا وخاف الكسائي ان يطلب منهم النطق بهذه الجملة فينطقوا بها على ما قال سيبويه وهو الصواب ، فقال لهم اسمعوا كلامي وكلام سيبويه واحكموا فقال الكسائي : (كنت احسب ان العقرب اشد لسعا من الزنبور فاذا هو اياها) وقال سيبويه : (فاذا هو هي) فقال العرب : الحق مع الكسائي ، فحزن سيبويه ومات غما ، والدليل على ان الحق مع سيبويه ان ضمير اياها من ضمائر النصب ، والموضع يتطلب ضمير رفع لانه موضع خبر المبتدا . ثم تعود الى المقصود بالذات فنقول : ان الزنبور حين يصيد الجندب الوثاب الذي يكون في الزرع ويجري له ذلك العمل الجراحي في مكان معين من جسمه بابرته التي هي جزء من جسمه لم يدرس علم التشريح ولم يتمرن على الجراحة والعلاج في اي مستشفى فكيف عرف الموضع المناسب من جسم الجندب وكيف قدر على اجراء تلك الجراحة بلا تعلم ولا تمرين ؟ وكيف عرف ان الجندب بسبب تلك الجراحة يبقى على قيد الحياة ولكنه لا يستطيع الفرار ؟ وكيف عرف ان بيضه سيتفقس بعد ان يصبح هو في خبر كان ، وان ذلك الجندب افضل غذاء لاولاده بعد خروجهم من البيضة ؟ وكيف عرف الاولاد ان لحم الجندب انما يكون هنيئا مريئا اذا تغذوا به وهو حي ؟ فاذا اكلوا لحمه وهو ميت يكون سما قاتلا ؟ ان الانسان الذي هو اشرف المخلوقات يعجز كل العجز عن ادراك هذا السر فكيف بالعلم به اوالقدرة عليه ، الا يدل ذلك دلالة قطعية على ان وراء هذا السر مدبرا حكيما عليما يسر كل شيء لما خلق له عرف ذلك ام لم يعرفه فتبارك الله احسن الخالقين .

2) قول المؤلف : كما فعل بعض اهل الهند الشرقية لا ادري ما يريد به مع انني اقمت في الهند سنين وجلت في ربعها من بمباي وكراتشي غربا الى كلته شرقا ولي في تلك البلاد تلاميذ واصدقاء كثير ، فالرجاء من كل قارىء يفهم ما يريد المؤلف بتلك العبارة وخصوصا صديقنا الاستاذ المودودي وصاحبه تلميذي البر محمد عاصم الحداد ان يكتب الى مجلة دعوة الحق بما يوضح مراد المؤلف ، واما القاعدة الاجتماعية التي قال المصنف لعل النمل قد توصل الى ادراكها وهي (الخير الاكبر للعدد الاكبر) فيدل قوله تعالى في سورة المائدة : (وتعاونوا على البر والتقوى) وقول النبي (ص) يد الله مع الجماعة . وقوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم) وقوله تعالى (وامرهم شورى بينهم) الى غير ذلك من النصوص .

3) قال المؤلف بسبب الغريزة او بدافع التفكير (اختر منهما ما تشاء) يعني ان تلك الاعمال التي يقوم بها النمل تحيرت الالباب في مصدرها ومنشئها ، فان قلنا انها ناشئة عن غريزة حيوانية فان عقولنا تستكثر ذلك وتستعظمه على الغرائز الحيوانية وان قلنا ان ذلك ناشيء عن تفكير فالتفكير يقتضي وجود العقل ، لذلك خير المصنف قارىء كتابه ان يختار اي الرايين يريد ، وهنا يجيء المثل العامي (خيره تحيره) .

4) كثيرا ما اجد المؤلفين من العرب في علم الحيوان والنبات قد اصطلحوا على الفاظ يزعمون انها عربية ، ولا اجد لها اصلا في المعاجم العربية ولم يبقوها على لفظها الاعجمي ، فاعدل عن الكلمة التي اصطلحوا عليها عمدا واكتفي بتفسير اللفظ الاعجمي الى الحد الذي اظن معه ان القارىء يفهمه فيتوهم بعضهم اني لم اعرف تلك الكلمات المصطلح عليها . ومن ثم نشا الاعتراض الذي اشرت اليه في الجزء الذي قبل هذا ، وسبب هذا الارتباك والفوضى تقصير الامة العربية دولا وجماعات في ضبط الادب العربي واللغة العربية بوضع معاجم وافية شافية لجميع الالفاظ اللغوية والعلمية والاعلام بانواعها فضلا عن موسوعة تجمع الاداب والعلوم العربية .

دراسات إسلامية

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 13 -

قـــال المؤلف : واذا نظرت فى المجهر تـــرى تحته اصغر حيـوان واصغر زهرة مزدانـة بخطـوط الجمال المحكم الصنع (صنع الله الذي اتقن كل شيء انه خبير بما تفعلون) ، والخطوط البلورية من العناصر والمركبات من ندفة الثلج الكبرى الى اصغر شكل منها تراها متقنة الصنع بشكل مدهش ، حتى ان الفنـــان مهما بلغ فى فنه فليس فى امكانه ان يزيد عليها شيئـا . وغاية ما يقدر عليه ان يحاكيها او ينتزع منها خطوطـا واشكالا فيؤلفها ويجمعها فى شكل واحد ، فكل ورقـة من كل شجرة سليمة تراها قد برزت فى احسن صورة من الكمال ، وترى ظاهر كل نبات قد وضع على صورة بتصميم خاص لخطوطه فى فن رائع ، وترى الازهار قد صورت فى غايـة اختيرت لها من الجمـال والكمـال ، والوانها قد وزعت بشكل عجيب .

ان الحيوان الكامل هو شيء جميل ، وحركاتـه ممثلة بالسهولة والفخامة ، والوادي الاخضر والنهر ، والاشجار الباسقة ، وقمم الجبال المغطاة بالثلج ، كـل ذلك يحدث فى النفس روعة واثرا عظيما ، وان فى منظر كثبان الرمال الممتدة فى الصحراء المنتشرة فيها لبهجة عظيمـــة .

وان جلال تتابع امواج المحيط وانكسارهـا على ارض الشاطيء ، وتحليق الطير فى الجو على البحر او على شاطئه او فى الغابة بالوانها الجميلة المختارة ، كـل ذلك يتحدى من له بصر يبصر به وعقل يعقل به ويقدر الامور حق قدرها ، وحركات الحيتان فى سهولة ويسر وتموجات نبات البحر تحت المـاء اسفـل تملأ نفس الانسان بمعنى من الانسجام يستجيب لما يتطلع اليـه ويشتاقه ، والطبيعة اذا لم يغيرها التحريف والتشويه تظهر مستعدة لتثير فينـا اسمى واجل ما فى نفوسنـا من الشعور الباطن ، وتوحي الينـا الاعجاب بصنـع الخالق الاعلى الذي وهبنا هذه الهبة من الجمال ، وهي نعمة لايدركها ادراكا كاملا الا الانسـان وحده ، والجمال هو الذي يرفع الانسان وحده الى مرتبة يكون فيهـا قريبـا من خالقـه .

ويظهر ان الغاية واحدة فى جميع الاشياء مـن السنن الكونية الكبرى التي تسير العالم باذن الله الى الدرات التي تبنى عليها حياتنا ، ولو لم يكن للتطـور هدف غير اعداد مادة لتلقي الروح ، لكان ذلك غرضـا مدهشـا فى حد ذاته ، واذا كانت حقيقة الغاية مقبولـة بالنسبة لجميع الاشياء ، وصدقنا ان الانسان هو اهم مظهر لتلك الغاية ، فان الاعتقـاد العلمي بان جسـم الانسان وجهاز دماغه مادي يمكن ان يكـون صحيحـا تماما ، فان الذرات والهباءات فى المخلوقـات المتصفـة بالحياة تعمل اشياء عجيبة وتصنع اجهـزة مدهشة . لكن مثل هذه الاجهزة ستبقى عديمـة الفائـدة الا اذا حركها العقل حركات مقصودة ذات غرض ، اذن فهناك مدبر لهذا الكون لايستطيع العلم ان يحيط بكنهه ، ولا ان ينسبه الى المادة ، ولن يتجرا العلم ان يقول انـه مادي بل هو الخالق الاعلى الذي لاسبيل الى الاحاطـة بعلمـــه .

تعليقـــات

انتهى هذا الفصل من كلام المؤلـف ، وقبـل ان ندخـل فى الفصل الثانـي ينبغـي لنا ان نعلـق على ماترجمناه تعليقا يزيده وضوحا وبيانا :

1) قوله : واذا نظرت في المجهر ترى تحته اصغر حيوان واصغر زهرة مزدانة بخطوط الجمال المحكم الصنع ؛ الخ .. مقصود المؤلف بهذا الكلام ان العالم كله من اصغر حيوان لايرى الا بالمجهر الى اكبر مخلوق كالشعرى مثلا ، كل ذلك متحد في احكام الصنع واتقانه لاترى فيه اختلافا ولا تفاوتا (ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) فوحدة الصنع تدل على وحدة الصانع ؛ وفي الشاهد امثلة كثيرة ، ولله المثل الاعلى ، فاذا رايت كتابا قد خط بخط جميل متشابه في كمال الحسن متجانس في اشكال حروفه سواء اكانت في اول الكلمة ام في وسطها ام في آخرها لاترى فيها اختلافا ، ولا ينقص جمال بعضها من بعض ، تعلم يقينا ان الذي كتب الكتاب شخص واحد ، وانه بذل عنايته وقصد الى تحسين الخط وتجويده حتى جاء آية باهرة في الجمال ، واذا رايت صورة في غاية الجمال والتناسق تعرف ان مصورا واحدا هو الذي رسم خطوطها ثم اتمها ، وهكذا يقال في حدائق الازهار وفي الزرابي الجميلة الثمينة الى غير ذلك من المصنوعات ؛ قال تعالى في سورة الانبياء منددا بالمشركين الذين ياكلون خبزه ويعبدون غيره (20\22) (ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان رب العرش عما يصفون) قول سبحانه ينشرون اي يحيون ، ولا يستحق ان يعبد الا من يحيي ويميت ، واما من يحيا ويموت فعبادته من اسفه السفاهات ، وقوله تعالى : لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، اي لو كان في السموات والارض آلهة غير الله لاختل نظامهما وتباين واعقبه الفساد . وقال تعالى في سورة المومنين ـ 90 ـ (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) قال في تفسير الجلالين : اي لو كان معه اله (لذهب كل اله بما خلق) اي انفرد به ومنع الآخر من الاستيلاء عليه (ولعلا بعضهم على بعض) مغالبة كفعل ملوك الدنيا (سبحان الله) تنزيها له (عما يصفونه به مما ذكر ـ وقال تعالى في سورة فاطر 41 (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده انه كان حليما غفورا) يعني ان الله يحفظ السموات والارض كل منهما يدور في فلكه بغاية الاحكام والاتقان ؛ ولولا حفظه لزالت السموات والارض من افلاكها ؛ ولو زالت لما امسكها احد غيره .

2) قوله : والخطوط البلورية من العناصر والمركبات من ندفة الثلج الكبرى الى اصغر شكل منها تراها متقنة الصنع بشكل مدهش ؛ حتى ان الفنان مهما بلغ في فنه فليس في امكانه ان يزيد عليها شيئا وغاية ما يقدر عليه ان يحاكيها او ينتزع منها خطوطا واشكالا فيؤلفها ويجمعها في شكل واحد ؛ ومن هذا تعلم ان الفنانين مهما بلغوا في جمال فنهم واحكامه واتقانه انما هم محاكون ومقلدون لصنع الله العزيز العليم ؛ الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ؛ قال تعالى (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) البقرة 152 .

3) قوله : والجمال هو الذي يرفع الانسان وحده الى مرتبة يكون فيها قريبا من خالقه ، يعني ان النظر في عجائب مخلوقات الله يرفع الانسان وحده دون غيره من الخلائق الى درجة المراقبة ، فيكون قريبا من الله تعالى قرب منزلة ومكانة ، ويقرب من هذا المعنى ما ثبت في الصحيح عن حنظلة : انه لقي ابا بكر الصديق فسلم عليه ابو بكر فرد عليه السلام ثم قال : كيف حالك يا حنظلة ، فقال : نافق حنظلة ، قال : وما ذاك ؟ قال : نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كانا راي عين فاذا خرجنا من عنده عافسنا الازواج والاموال فنسينا كثيرا ، قال ابو بكر وانا ايضا اجد مثل ذلك ، فانطلقا الى النبي (ص) فسلم عليه حنظلة فرد النبي السلام عليه ثم قال : كيف حالك يا حنظلة ؟ فقال حنظلة : نافق حنظلة يارسول الله ، فقال رسول الله : وكيف ذاك ؟ فقال : نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار حتى كانا راي عين ، فاذا خرجنا من عندك عافسنا الازواج والاموال فنسينا كثيرا ، فقال رسول الله (ص) : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم ، ولكن ساعة وساعة ، قوله : عافسنا الازواج المعافسة المصارعة ، والمراد الاستمتاع بهن ، وعطف الاموال على الازواج من باب

علفتها تبنا وماء باردا
حتى شتت همالة عيناها

اي علفتها تبنا وسقيتها ماء ، وكذلك يقدر فعل في الحديث اي عافسنا الازواج وخالطنا الاموال ، وقوله : لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم ، معناه ان المؤمن اذا ذكر الله خشع قلبه ولان وصعدت نفسه بالمراقبة الى الملأ الاعلى حتى كانه يشاهده ، كما جاء في الحديث الاخر الذي رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (ان تعبد الله كانك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك) وهذه الحالة من المراقبة لاتدوم ، لانها لو دامت لعطلت مصالح الجسم وحاجاته ، ولذلك قال النبي (ص) ساعة وساعة : اي ساعة لاداء حقوق الجسد وساعة لاداء حقوق الروح ، وليس الاشتغال بحقوق الجسد من النفاق كما توهم حنظلة .

4) وقوله : لو لم يكن للتطور هدف غير اعداد مادة لتلقي الروح ، لكان ذلك غرضا مدهشا في حد ذاته ، يشير الى اطوار خلق الانسان حتى بلغ الى ما هو عليه فاستحق التكريم بالعقل الذي جعله سيدا وحاكما على غيره من الحيوان والنبات والجمال على حسب رايه وراي من رافقه في التطور .

5) قوله : واذا كانت حقيقة الغاية مقبولة بالنسبة لجميع الاشياء الخ .. معناه يتلخص في ابتداء الخلق وتطوره حسبما يعترف به علماء المادة في حد ذاته امر عجيب يدل على عظمته خالقه ، ولكنه بدون عقل يدبر شؤونه تدبيرا مقصودا يكون عديم الجدوى .

وهذا العقل الذي وهبه الله الانسان يدلنا دلالة قاطعة على ان لهذا الكون مدبرا حكيما عالما قديرا ، ولن يتجسرا العلم ان يقول ان ذلك المدبر الحكيم مادة عمياء صماء لا علم لها ولا قصد ولا ارادة .

وقد وصلنا الى الفصل العاشر من الكتاب وهو فصل وحدات الوراثة ، فنقتصر على هذا القدر وموعدنا الجزء التالي بحول الله .

تحديد الكفر والايمان

« الكفر هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام في شيء مما جاء به ، والايمان تصديقه في جميع ما جاء به ، فاليهودي والنصراني كافران لتكذيبهما الرسول ، والبرهمي بالطريق الاول لانه انكر مع رسولنا سائر المرسلين والتحق بهم الثنوية والزنادقة والدهرية وكلهم مشركون فانهم مكذبون للرسول : فكل كافر مكذب للرسول ، وكل مكذب للرسول كافر ، فهذه هي العلامة المطردة المنعكسة .

(فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة لابي حامد الغزالي)

دراسات إسلامية

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 14 -

«الفصل العاشر في وحدات الوراثة »

قال المصنف .. في كل خلية ، ذكرا كانت أم انثى توجد كروموزومات وجنات . فالكروموزمات تشكل النويات القاتمة اللون التي تحتوي على الجنات . والجنات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو انسان . والسيتوبلازم هي المركبات الكيماوية العجيبة التي تحيط بهما معا . وهذه الجنات (وحدات الوراثة) هي المسؤولة عن جميع المخلوقات البشرية على وجه الارض اليوم ، من حيث خصائصها الفردية والنفسية والوانها واجناسها . وقد بلغت هذه الجنات في الدقة بحيث لو جمعت ووضعت في مكان واحد لكانت اقل حجما من الكستبان . وهو ما يضعه الخياط في اصبعه الوسطى ليدفع به الابرة حتى لا تخرق اصبعه. وهذه الجنات المكرسكوبية البالغة الغاية في الدقة هي المفاتيح المطلقة لخصائص جميع البشر والحيوان والنبات . والكستبان الذي يسع الخصائص الفردية لبليونين من المخلوقات البشرية ، هو دون ريب موضع صغير جدا كما لا يخفى ، ومع ذلك فهذه هي الحقيقة التي لا يتطرق اليها الشك . فهل هذه الجنات والسيتوبلازمات ، تحبس كل الخصائص العادية الموروثة لهذا الجمع الكبير من الاسلاف ، وتحفظ الخصائص النفسية لكل فرد منهم في مثل هذه المساحة الصغيرة ؟ فما هو المحبوس هناك يا ترى ؟ اهو كتاب تعليمات ؟ ام مجموعة من الذرات ؟ ام كل شيء ترك للحظ والمصادفة ؟ ان الجنين وهو يخلص في تطوره التدريجي من النطفة (البروتوبلازم) الى الشبه الجنسي ، انما يقص تاريخا مسجلا ، قد حفظ وعبر عنه بالتنظيم الذري في الجنات والسيتوبلازم . حتى الام التي غدت الجنين منذ ان حملت به ليس لها الا تاثير قليل ، لان الجنات هي التي تقرر مشابهة الطفل لامه ولابيه . وليس هناك دليل على ان هذا الشبه تقرره البيئة السابقة للولادة . والتطور يتطلب مددا طويلة من الزمان لاجل ان يستقر أي تغيير يحدث . انه عمل يقصد به بقاء الجنس وتشابهه . ولا يصل الى درجة الكمال الا بحلول الروح . وقد قدر ذلك ونظمه الخالق الاعلى وهو لا يغير سنته الكونية في هذا العمل ولا يتعجل فيه من اجل ان الانسان لا يفهمه او من اجل ان الانسان خلق عجولا . والتطورات الجديدة تتوقف على الخصائص الموجودة والبيئة المناسبة . فالمصادفة ليس لها نصيب في التطور الا من حيث الاختلافات التي بين الوالدين ، المحدودة بالفوارق التي تورث في تلك الحال . وانت اذا بدات بفراشة ، تحصل على يسروع ، واليسروع يأكل بنهمة ، وينو الى ان يتكامل نموه. ثم يلف نفسه براحة في رداء بعضه من الحرير، ثم يصير شرنقة ، ومعظم انسجة الجسم تنحل الى خلايا وتصير مزيجا . ولم يكتشف اي باحث محلل ان جزءا منها يختلف عن الآخر ، ولا قدر احد ان يفرق بين هذا المزيج . وفي الوقت المناسب تبحث كل خلية عن الجزء المناسب في الشرنقة لتتصل به ، ثم تتحول الشرنقة الى مخلوق جديد متصف بالحياة ، له كل الاعضاء الطبعية اللازمة للوجود ، وله القدرة على ان ينتج من جديد نصف الطبيعة المعقدة ليعسوب جديد . واذا حان الوقت تنفتح الشرنقة ويخرج الى الدنيا مخلوق بديع يسمى (الفراشة) واجنحتها اللطيفة مصنوعة من انابيب تصب فيها دمها . وينتفخ الجناح ويصير اداة للطيران ، واذا طارت الفراشة في الهواء بالوانها اللامعة الجميلة . ترى تحت المكرسكوب ان اجنحتها مغطاة بمادة تشبه الريش ، وان كل بقعة حمراء او سمراء او خضراء او صفراء هي في المكان

نفسه الذي كانت فيه الفراشة الاصلية . واشكالها وعلاماتها مشابهة تمام المشابهة لابويها من جميع الوجوه ، تقريبا الى حد مكرسكوبي . فما هي قوة التوجيه هذه التي فى الجنات ، انها تضبط الخلايا ، والخلايا تطيعهامثل طاعة الجنود لرؤسائهم. والنتيجة تجيء صحيحة من حيث التفصيل العام كحل مشكلة حسابية . واللون يقال انه ناشيء عن حقيقة ، هي ان مواد معينة تتشرب جميع الاشعة من اطوال موجة معينة ، تاركة الباقي لينعكس ، وان هذه الاشعة تنعكس بلون احمر وازرق واصفر ، او بمزيج من هذه الالوان الرئيسية . فالكاس الحمراء لا تترك لونا ينفذ فيها الا الاحمر وهكذا الالوان الاخرى . والموجات الحمراء يمكن ان تجلب التغيرات الكيماوية العادية الى الافلام الفوتوغراقية ، ومن ثم يجيء الضوء البافوتي للكامرة المظلمة . وموجات الضوء نسبيا كبيرة جدا ، فانها تجري من ثلاثة وثلاثين الفا الى ستة وستين الفا عن البوصة الواحدة ، على حين تجري الموجات الاخرى او الاشعة من اميال للراديو الى عشرة ملايين فى البوصة الواحدة او اكثر للاشعة فوق البنفسجية . ونحن لا نعلم ما ستكتشفه بعد . وماذا يصنع كل هذا مع الفراش والجنات ؟ سننظر . هناك نوع من الفراش فى البلدان الحارة له اجنحة مغطاة بقشرة مصنوع بعضها من غشاء شفاف فى غاية الرقة . فى طبقات فى منتهى الدقة . وينفذ الضوء وينعكس بلون جميل ازرق كما تراه احيانا بين الوان عين الهرة . ولو حدث تغير بمقدار جزء من عشرة الاف جزء من البوصة ، فى غلظ غشاء الفراشة ، لتغير ذلك اللون او تلاشى تماما . ان الجنات تنظم الامور الى حد انه لا يحدث اي تغير لمدة عشرة الاف جيل. واذا نظرت الى الزيت على الماء ترى ايضا الوانا كثيرة مختلفة فى الفلظ المكروسكوبي . تلك هي العلامات والبقع التي نتجت فى الفراشة . والان حاول ان تضع شيئا من الزيت على الماء وراقبه ترى ذلك بعينك . ويمكن ان يغير الانسان (الجنات) باستعمال الراديو والاشعة الاخرى ، فياتي ذلك بذباب ليست له اجنحة ونبات مشوه ، وشواذ مدهشة عديدة ، ويمكن ان ياتي يوم يستطيع العلماء فيه ان يعملوا على تحسين الطبيعة . والى ان ياتي ذلك اليوم يكتسب العلماء معرفة قيمة ، تؤدي الى تقدم علم الاحياء والطب والطبيعيات . وقد علم الآن ان الحياة كلها تاتي من خلية واحدة ، وانه لا يوجد دليل يثبت اي نتيجة اخرى وقد لوحظ ان جميع اصناف الكائنات الحية منفصل بعضها عن بعض بهوات بعيدة الغور لا يمكن اجتيازها . وكثير من الاجناس بعد انفصالها تفقد القدرة بسرعة على الاختلاط بالجنس الذي انفصلت منه. خذ مثلا ما تناسل من بين الحمار والحجر وهي الفرس الانثى ، يكون بغلا ، ولا يمكن ان يكون للبغال جنس مستقل .

ثم اطال المؤلف الكلام فى هذا المعنى ، وحاصله ان الحياة فى بدايتها كانت نقطة صغيرة ثم اخذت تتسع وتنفصل الى اجناس والوان يختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا ، ولا يمكن لاحد من تلك الاجناس ان يرجع مرة اخرى الى الوراء ليتصل من حيث انفصل . ثم قال :

والانسان حيوان جاء فى الطليعة ، وهو فى تكوينه الجسمي يشبه القردة . وليست مشابهته للقردة فى الجسم بدليل على ان الانسان متطور عن القرد ، لا ولا ان تلك القردة ذرية منحطة من نسل الانسان . ولا يستطيع احد ان يدعي ان نوع السمك المعروف بالكد قد تطور من نوع السمك المعروف بالهدك ، وان كان كلا النوعين فى ماء واحد ، ويتغذيان بغذاء واحد ، وعظامهما تقريبا مماثلة . وانما يدل ذلك على انهما فى بداية الخلق والتكييف كانت هناك ضرورة متوازية لتكييف كل منهما . ان العلم يشير الى ان ابهام الانسان وقدرته على قبض الآلات والاسلحة وامساكها بيده ، هو مصدر تقدمه ، ولكن ابهام القرد العاطلة التي لا نفع لها دليل قاطع ، على ان ابهام الانسان لا يمكن ان تكون قد جاءت من ابهام القرد الذي يعيش متسلقا للاشجار ، لان الطبيعة لا تعيد ابدا تيسيرا قد فقد . والفرس التي تجري الآن على حافر قد خصص غاية التخصيص للركض (وان كان فيما مضى اصابع) لايستطيع ابدا ان تستعيد تلك الاصابع المفقودة . على انه لا حاجة بنا الى ان نشغل انفسنا اكثر مما ينبغي ، بما وقع لاسلافنا منذ مليونين من الاجيال السالفة على الاقل . ومع ذلك يبدو لنا ان البحث عن الحلقة المفقودة سوف يتضح انه من العبث .

تعليقات :

1) ان كلام المؤلف فى الجنات وما اليها وبسطه الكلام فى تكوين الفراشة وما يشتمل عليه من اسرار ونظام دقيق عجيب ، يضطر كل عاقل يدين بالانصاف ويدع اللجاج جانبا ان يؤمن بالخالق العلي القدير ، ويتحير لبه فى عظمته واتقان خلقه واحكام صنعه

فينطلق لسانه بتسبيحه وتمجيده ، ويخشع قلبه ويلين جلده ويطمئن بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب . ولا يخلو كلام المصنف من تعقيد يجعل ادراك معناه عسيرا . ولذلك سببان احدهما انه يخوض فى علوم وبحوث دقيقة تحتاج الى دراسة واختصاص ولا يبلغ مداها ويعرف كنهها بالمطالعة وحدها (والثاني) وحقه ان يكون الاول ضيق اللغة العربية فى هذا الزمان بسبب عجز اهلها وتقاعسهم عن النهوض بها الى ان تبلغ مستوى اللغات المتقدمة فى العصر الحاضر ، فقد توقف نموها بتوقف تقدم اهلها منذ نحو ست مائة عام . وانت اذا قرات مثل هذه المباحث بلغة اوربية يسهل عليك فهمها الى حد بعيد وان لم تكن من اهل الاختصاص ، بخلاف ما اذا قراتها بالعربية العصرية . فاذا انضم الى ذلك قصور المترجم فى احدى اللغتين او كلتيهما فهنالك الطامة الكبرى . ومع ذلك فما لا يدرك كله لا يترك كله (فان لم يصبها وابل فطل) .

اذا ما لم تكن ابل فمعزي
كفى قرون جلتها العصي

فتملأ بيتنا اقطا وسمنا
وحسبك من غنى شبع وري

2) قوله : والانسان فى تكوينه الجسمي جاء فى الطليعة الخ . يقضي على ما بناه فراريج الاوربيين اعني مقلديهم من الاسيويين والافريقيين الذين يتلقفون كل راي يظهر من آرائهم بالتقديس والاجلال، ويسمونه علما وان كان من النظريات التي لا يقصد بها قائلوها الا التمهيد لحل المشكلات واستخراج المجهولات ولا يجزمون بها ، فياتي مقلدوهم على العمياء ويتخذونها قضايا مسلمة ويقولون فى تبجح وتعاظم او (عظموت) كما يسمي ذلك الامير شكيب ارسلان رحمه الله . اثبت العلم كذا وكذا واكتشف العلماء كيت وكيت. فقد ظالما تفتوا بان الانسان متطور عن القرد بلا شك ولا ريب ، وان العلماء فى امريكا وجدوا الحلقة المفقودة .. وهذا رئيس المجمع العلمي الامريكي يصرح فى ثقة واطمئنان ، ان البحث عن الحلقة المفقودة اصبح من العبث ، وان مشابهة القرد للانسان فى تكوينه الجسمي لا تقتضي ابدا ان الانسان متطور عن القرد او بالعكس. ولو كانوا يعقلون لعلموا ان امتياز الانسان وفضله وشرفه على القردة وسائر الحيوان لم يجيء من تشابه الاجسام او تباينها . وانما جاء من العقل الذي خص الله به البشر والنطق الذي ميزهم به . وقد شاهدت انواع القردة فى الهند ، فمنها ما يزيد جسمه على جسم كثير من الرجال فى الضخامة والقوة ، ومنها صغار الاجسام ، ومنها سود الوجوه كانها الغربان ، وكلها تخاف من الكلاب . وفى مدينة لكناو جسر عنده صنم تجتمع عنده القردة ليلا ونهارا لتنال من الصدقات والنذور التي تقدم لذلك الصنم ، فاذا رات خادما يحمل اناء مما يسمى « بالمطبقيات » وبالفارسية (سفرطاس) (اي طاسة السفر) وهي اوان متصل بعضها ببعض لها علاقة يحمل فيها الطعام ، تهجم القردة على ذلك الخادم وتنتزع منه ما فى يده ، فاذا كان متسلحا بعصا لا تتجرأ عليه وان كانت تعد بالعشرات ، مع ان واحدا منها اقوى جسما من ذلك الخادم لو كان عنده عقل يعرف به كيف يستغل قوته. ولقد صدق الله العظيم فى قوله « ولقد كرمنا بني ءادم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

دراسات إسلامية

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 15 -

ان الحيوان المتولد من جنسين مختلفين يبدو في الظاهر كانه مخلوق جديد تطور عن قصد ، كالكلاب السلوقية ، والكلاب البكينية والكلاب البوكية . وكلها كلاب . واذا اعتنى بتربيتها تبقى على صفاتها المكتسبة واذا لم يعتن بتربيتها تعود الى حالتها الطبيعية وتفقد تلك الصفات التي اكتسبتها بالتربية وربما كانت في الاصل ذئابا . واذا حوفظ على تكييفها تكييفا مطابقا للبيئة التي وجدت انفسها فيها ولم تختلط بغيرها بالتوالد فانها بمرور الزمن تشكل نوعا جديدا من الكلاب .

وقد ربى الحمام بقصد احداث انواع جديدة منه منذ ابتداء التاريخ تقريبا . ومن تلك الانواع ذوات الاذناب التي تشبه المراوح ، والحمام المعروف بالهزاز وقد تكون هناك فلتات او شواذ ، ولكن الجنات تنتظر في هدوء لتعيدها الى نوعها الاول . ويمكنك ان تراها في طريقها الى الرجوع الى اصلها في اي شارع من شوارع المدن فتلحظ فيها العلامات المتشابهة والميل العام الى الانسجام التام في اللون . ونحن نكره الحيوان الشاذ بطبعنا ، فلو راينا بقرة ذات خمس قوائم او بقرة ذات رأسين لاشمأززنا من رؤيتها ، ولكننا نعجب بالرجل الجميل الا اذا كانت اخلاقه ذميمة ، وكذلك نعجب بالمراة الجميلة واحب شيء الى نفوسنا الام المتفانية في حب الخير لابنائها .

ان الجنات هي جزء من خلايا الوراثة ، ولكن خلايا الوراثة لا تشارك في التكوين العام للجسم ، ولكنها منعزلة ولا تشارك باي وجه من الوجوه في الاعمال غير المهمة التي تقوم بها الكائنات الحية . وهذه الخلايا تحفظ المشابهة الكاملة الكائنة في الجنس . ويظهر انها لا تتأثر بسلوك الوالدين ، غير ان الاخلاق السيئة والامراض والحوادث يمكن ان تعطيها مادة رديئة لتشتغل بها . ان الوالدين القويين قد يلدان اطفالا اقوياء ، ولكن ذلك بسبب انه كان لهم جدود أقوياء ، ان الوالدين قد يعطيان ولدهما مكانا طبعيا جيدا ليعيش فيه ، وقد يهبانه مباءة لا تصلح ان تعيش فيها نفس خالدة . فالابوة والامومة اعظم مسؤولية يتحملها الانسان .

ان لحي الرجال لا تنبت اقصر مما كانت بسبب انهم يحلقونها . وقطط الجزيرة المعروفة بجزيرة الانسان ليس لها اذناب ولم يكن ذلك بسبب ان شخصا قد قطع ذنبي الهر والهرة اللذين وجدا لاول مرة في تلك الجزيرة . لعل الجنة الخاصة بنمو الذنب كانت مفقودة في الاصل الاول لقطط تلك الجزيرة ومع هذه المصيبة نشأت القطط المتنسلة منه صحيحة بدون تلك الجنة .

ان البيئة قد تحدث تغيرات بطيئة في انواع اعمال الجنة . فان كانت تلك التغيرات صالحة استمرت تلك التعديلات ، والا فان المخلوق الذي اصابه التغير يزول لانه غير صالح لملاقاة الاحوال . ان الكلب المكسيكي الذي لا شعر له قد ينشأ صحيحا في الاراضي البادية المتجمدة ، ولكن نسله قد يموت من شدة البرد . ان القائلين بنظرية التطور والنشوء والارتقاء لم يكونوا يعلمون شيئا من اخبار الجنات ـ وحدات الوراثة ـ ولذلك بقوا واقفين في المرحلة التي يبتدىء فيها التطور حقيقة ، اعني عند الخلية ، وهي الكيان الذي يحتوي على الجنات ويحملها .

كيف استطاعت هنة صغيرة تشتمل على بضعة ملايين من الذرات المجتمعة التي لاترى الا بالمجهر وهي

الجنة ، كيف استطاعت ان تدبر تدبيرا مطلقا جميع الحياة التي على وجه الارض . هذه القضية لا تزال اعظم اعجوبة من اعاجيب العالم .

«ايهما وجدت قبل الاخرى الدجاجة ام البيضة»

هذا لغز تعبت فيه الافكار زمانا طويلا وقد حل الان حلا نهائيا . والجواب هو لا هذه ولا هذه ؛ بل سبقتهما للوجود خلية اولية . والبيضة انما هي غذاء للجنين ، وهي تشتمل على الخلية المفردة التي التقت مع الفها اي عشيرها . فمتى اتحدت الجنات التي في الخلية وانقسمت ، فان هذه الجنات والستيوبلازم تجبر الآن على ان تنتج دجاجة تضع بيضة اخرى .

والمادة على هذا الشكل لا غرض لها ، فليست لها غاية حتى في طاعتها للقانون ، ولكن الحياة في كل مادة لها غرض محدود ، كان تنشيء شجرة او كرمة عنب او فيلا او انسانا باتفاق تام على خطة محدودة رسمتها الجنات .

ان الحياة ترغم على التناسل من اجل بقاء الجنس بدافع قوي حتى ان كل مخلوق يبذل اعظم تضحية لهذا الغرض .. ففي بعض انواع الحيوان كذباب مايو مثلا يموت دفعة واحدة عدد من افراد هذا النوع حين يتم عمله . وهذه القوة القاهرة لا توجد حيث تفقد الحياة . فمن اين نشأت هذه الدوافع المسيطرة ولماذا تستمر بعد نشأتها ملايين السنين ؟ انه قانون طبيعة الحياة ، وهو في قوته مثل التركيبات الكيمائية المسيطرة . انه يأتي من فوق اي ارادة الله عز وجل .

ان الاختلافات الجوهرية الموجودة بين جميع المواد العنصرية لام الجميع وهي الارض ، وبين كل ما فيه حياة هي انه على حين جميع العناصر يمكن ان تتحد وتتبلور وتتغير في المظهر ، لا يوجد اي تغير في الذرات ولا علاقة محسة اي مشعور بها بينها . بل بالعكس ، نرى الكائنات المتصفة بالحياة تنظم جميع العناصر في مجموعة من التراكيب الجديدة ، كل في مجاله من العمل ، تتنافس كلها في بذل الجهود لحفظ هذه الصلات الحية . وهذا التعاون الموروث النشيط مفقود تماما الا حيث توجد الحياة . وانه لم يقدر حق قدره مع انه قانون عظيم لا يقل عن قانون الجاذبية ، ولابد ان يكون قد جاء من المصدر نفسه الذي صدر منه قانون الجاذبية . ان مثل هذه القوانين لهي جزء ناشيء عن ارادة الله التي تسيطر على جميع العوالم وليس ناشئا عن المصادفة .

لقد علمنا ان الجنات متفق على الاعتراف بأنها تنظيمات دقيقة اصغر من الذرات المكروسكوبية في خلايا الوراثة في جميع الاشياء المتصفة بالحياة . وهي تحفظ التقدير ، والسجل السلفي ، والخواص اللازمة لكل شيء حي . وتتحكم بالتفصيل في الجذر والجذع والورقة والزهرة والثمرة من كل نبات تحكما تاما في غاية الضبط كما تقرر الشكل ، والقشور والشعر والاجنحة لكل حيوان ويشمل ذلك الانسان. اذا سقطت حبة من ثمر البلوط على الارض فالقشرة السمراء الخارجية تحفظها سالمة . فتتدحرج الى حفرة من الارض . وفي الربيع تستيقظ الجرثومة فتنشق القشرة ويظهر الغذاء من اللب الشبيه بالبيضة الذي كانت فيه الجنات مختفية . فترسل العروق في الارض واذا بشطء يخرج من الارض في شكل نبتة ضئيلة وبعد سنين تصير شجرة . ان الجرثومة بما فيها من الجنات قد تضاعفت ملايين الملايين وكونت الجذع . والقشرة وكل ورقة وكل ثمرة كل ذلك مماثل تمام المماثلة لشجرة البلوط التي تولدت منها. وفي خلال مئات السنين بقي محفوظا في ثمار البلوط التي لا تحصى تنظيم الذرات نفسه بغاية الضبط مطابق للنظام الذي نشأت منه اول شجرة بلوط منذ ملايين السنين الماضية .

لم تحمل قط شجرة بلوط تمرا ، ولم يلد حوت قط سمكة . ومزارع القمح المتموجة متماثلة في كل حبة من حبوبها ، والحنطة هي الحنطة ، والقانون يتحكم في التنظيم الذري بالجنات التي تقرر كل نوع من الحياة من بدايتها الى نهايتها .

لقد قال هيغل اعطني هواء ومواد كيمائية ووقتا ، وانا اصنع انسانا ، ولكنه اغفل وحدات الوراثة الجنات واغفل الحياة نفسها . لقد كان عليه — لو استطاع ! — ان يجد الذرات غير المرئية وينظمها ووحدات الوراثة (الجنات) ويمنحها الحياة ! وحتى في هذه الحالة تكون النتيجة ، بنسبة ملايين الى واحد ، ولو انه نجح في ذلك لقال ان الامر لم يكن مصادفة مجردة ، ولكنه ثمرة عقله وارادته !

حقا ان الله هو الذي يخلق المعجزات والخوارق وينشئها بطرق واساليب تخفى على اذهان البشر .

تعليقـــات :

1) قوله .. ان الحيوان المتولد من جنسين الخ .. يعبر المترجمون عن الحيوان المتولد من جنسين مختلفين كالخيل والحمير والذئاب والكلاب مثلا بالهجين . وقد تركت هذا التعبير عمدا لانه لا يفي بالمعنى المطلوب ولا يطابق استعمال العرب لهذا اللفظ .

وحاصل كلام المؤلف كما تقدم ان الحيوان المتولد من جنسين لا يكون نوعا جديدا . ثم قال هنا .. ان الحيوان المتولد من جنسين اذا اعتنى بتربيته يبقى محافظا على الصفات المكتسبة بالتربية . واذا اهمل يرجع الى طبيعته الاصلية . ثم يبين ان ذلك الحيوان الذي اكتسب تلك الصفات والمزايا اذا طال به الزمان مع المحافظة على صفاته المكتسبة قد يكون نوعا جديدا . ويظهر لي ان هذا الكلام راجع الى الصفات المكتسبة ، وانها بمرور الزمان تصير ثابتة ، لا الى طبيعة التوالد والتطور فان ذلك لا يمكن ان يتغير بالمصادفة او بفعل خارجي كالسفاد الواقع بين جنسين . الا ترى ان البغل لا نسل له ولن يكون له نسل ولو طال الزمان . اما انواع الكلاب فهي جنس واحد والاختلاف بينها انما هو في الطباع وهي تتغير بالتربية خصوصا اذا طال الزمان عليها . وبهذا يظهر اتفاق كلام المؤلف السابق واللاحق .

2) قوله ان قطط الجزيرة المعروفة بجزيرة الانسان الخ .. اقول لعل السر في كون هذه الهرر قد خلقت بلا اذناب هو اظهار قدرة الله تعالى ومشيئته الشاملة لكل ما يقع في العالم ردا على الدهريين والطبيعيين الذين يزعمون ان الطبيعة المفترضة هي عمياء بكماء صماء مجبورة مقهورة جاهلة عاجزة هي التي تدبر امور العالم . واذا صح ما افترضه كريسي مورسن من ان الجنة التي تكون الذنب فقدت في تلك فليس فقدها واقعا على سبيل المصادفة . وانما وقع بقصد وارادة من الخالق الذي لا يضل ولا ينسى لحكمة عظيمة تظهر لقوم وتخفى على آخرين .

3) وقوله .. ولم يكن ذلك بسبب ان شخصا قد قطع ذنبي الهر والهرة الخ .. يدل على ان الانسان عاجز عن تغيير خلق الله ، ومثل ذلك الاعمى لا يكون اولاده عميا والاعرج لا يلد اولادا عرجا .

4) قوله .. ان القائلين بالنشوء والارتقاء لم يكونوا يعلمون من اخبار الجنات الخ .. اقول : ايها المؤمن اثبت على ايمانك بالله الواحد القهار ولا تكن من المذبذبين .

كريشة في مهب الريح طائرة
لا تستقر على حال من القلق

لقد انتشرت نظرية داروين في العصر الماضي القريب اعظم انتشار وكفر بسببها كثير من الناس وكذبوا بآيات الله ، وظنوا انه جاءهم اليقين ، وبدلوا عقيدتهم وخرجوا من النور الى الظلمات . ثم تبين خطأ تلك النظرية وانها انما كانت مرحلة من مراحل البحث وان السفر بعدها لا يزال طويلا . وجاءت المرحلة التي بعدها فاكتشفت الخلايا والجنات وزيفت كثيرا من آراء داروين غير الناضجة ، واقرت ما كان منها صحيحا ، فاغتبط المؤمنون الذين ثبتوا على ايمانهم ولم يتركوا يقينهم لظن غيرهم . وما احسن ما قال الامام علي بن ابي طالب عليه السلام .

اذ المعضلات تصدين لي
كشفت حقائقها بالنظر

ولست بامعة في الرجال
اسائل هذا وذا ما الخبر

وعن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال .. كنا في الجاهلية نسمي الرجل الذي يرى اناسا مدعوين الى وليمة فيتبعهم اليها دون ان يكون مدعوا ، كنا نسميه امعة . وهو فيكم المحقب لا دينه الرجال. قال كاتب هذا المقال .. يعني المقلد في العقائد الذي لا يستعمل عقله ولا علمه ولا بصره بل يغمض عينيه ويضع يده في يد شخص آخر يقوده فيهوي في مهاوي الضلال .

5) قوله . وانه لم يقدر حق قدره مع انه قانون عظيم لا يقل عن قانون الجاذبية الخ . اقول .. اظن ان السبب في ذلك هو التنافس على الحطام وحب السيطرة ، فان علماء الطبيعة لما رأوا رجال الكنيسة يحاربونهم ويكفرونهم ويضيقون عليهم الخنق ويحبون استغلال النفوذ الديني في الاستيلاء على الحكم اخذوا ينتقمون منهم بكل وسيلة . وبلغ بهم الامر الى ان اهملوا النظر في اسرار الحياة ، لان ذلك النظر

سيوصلهم لا محالة الى الاقرار بوجود الله وانه الخالق الرازق العليم القدير الذي يدبر الامر من السماء الى الارض . وهذا يفضي بهم الى الاعتراف برسالة الرسل فيستظهر عليهم رجال الدين . فلذلك قابلوا ظلما بظلم واجحافا باجحاف واهمالا باهمال وخير الامور الوسط وما عداه شطط .

6) قوله . وهي تحفظ التقدير والسجل السلفي الخ . المراد بالسلفي هنا العائد الى اسلافها من الجنات لا تختلف مع اسلافها في شيء وذلك من الاسرار الربانية التي تدل دلالة قاطعة لا ريب فيها على ان لهذا الكون مدبرا عليما حكيما قديرا .

7) قوله . لم تحمل قط شجرة بلوط تمرا الخ. هذا التمر يترجم بالشاة بلوط وبالقسطل ابي فروة بعامية عرب الشرق . ومراد المصنف ان الهيئة التي حملت بها شجرة البلوط التي ولد بها الحوت اولاده والهيئة التي نمى بها الزرع الى ان صار حبا هي مطابقة تمام المطابقة لاول شجرة بلوط خلقها الله ولاول حبة نبتت منذ بدء الخلق الى يومنا . والحوت المذكور هنا هو نوع كبير جدا يكثر في بحر الشمال وهو الذي تسميه العرب (القريش) .

8) هيفل فيلسوف الماني مشهور افضى به البحث الناقص الى ان زعم ان الحياة الانسانية وغيرها هي نتيجة تركيب كيمائي اجتمع مع الماء وطال عليه الزمان . ومتى وجد الزمان الطويل الذي يعد بملايين السنين مع التراكيب الكيميائية والماء وجد الحيوان والنبات . ولم تكن الخلايا الذرية والسيتوبلازم والجنات قد عرفت . فرد عليه المصنف بقوله .. هب انك وجدت ما ذكرت فلن تستطيع ان يخلق ذبابة فضلا عما هو فوقها من الحيوان والانسان. اذ يجب عليك قبل ان تتصدى لخلق الحيوان ان تجد الجنات وهي لا ترى بالبصر فكيف تجدها . وتجد الخلايا التي تتضمنها والسيتوبلازم لها ولن تجد ذلك ابدا ؛ ولو وجدته لبقي عليك ان تهبها الحياة ولن تستطيع ذلك ابدا . ولو استطعته لكان نصيبك من النجاح بنسبة واحد من ملايين . فقد بنيت فرضك على محال في محال في محال ، ظلمات بعضها فوق بعض .

وقل لمن يدعي بالعلم معرفة
علمت شيئا وغابت عنك اشياء

ثم قال مورسن لهيفل .. وهب انك قدرت على ذلك كله ونجحت النجاح التام في خلق الانسان وما تتوقف عليه حياته من نبات وحيوان ، افترضي ان يقال لك ان هذا الخلق كان مصادفة ، رمية من غير رام ؟ لا شك انك لا ترضى بذلك بل تقول بملء فمك انه نتيجة عقلك وارادتك . فكيف تجحد صنع الله الذي اوجد الاسباب والمسببات وخلق الارض والسموات . وتقول : ان ذلك من المصادفات ، بل قولك هذا من السخافات او المغالطات .

فيا عجبا كيف يعصي الالا
ه ام كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية
تدل على انه الواحد

وقد انتهى الفصل العاشر من كتاب مورسن بانتهاء سنة المجلة . وموعدنا الجزء الاول من السنة الآتية ان شاء الله .

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 19 -

الزمان

قال المصنف في الفصل نفسه ، ان الانسان الاول كان يحب الزمان كالايقاع ،كالضرب المنظم على طبل . وقد رفعه التوقيت في رقصه فوق مستوى الغريزة . والانسجام التام في النغمات الموسيقية يوصلنا الى التلذذ العجيب الذي يهز مشاعرنا بالقطع الموسيقية المتناسقة في النغمات والاصوات التي يقوم بها الجوق (الاوركسترا). ان الاهتزازات الموجودة في وحدة النغم في لحظات من الوقت ، لا تعتبر موسيقى الا عند الانسان وحده .

وقد جاءت المدنية للانسان بضرورة الضبط والتدقيق في قياس الزمان وتسجيله . وكذلك الفصول المتتالية التي يدل عليها ظهور الشمس في اقصى الشمال وجنوب خط الاستواء ادت الى تكوين دوائر بروج وبناء الاهرام ، وغير ذلك من علامات الوقت في العالم . وكان ظهور الشمس او ظلها فوق هذه الاشياء عند علامة معينة سرا مكتوما عند القسيس فهو الذي يخبر بعدد الايام التي تحسب حتى يجيء وقت الفرس، او فيضان النيل . اما الآن فان التقاويم ، وان لم تبلغ الكمال تعلق في كل بيت ، وبها نميز الايام ونعرف الاوقات .

وفوق ذلك صرنا نسجل الساعات والدقائق والثواني ، بل نسجل جزءا من الالف من الثانية . وكلما تقدمنا في ضبط الوقت زادت حاجتنا الى معرفة الكيمياء ، والطبيعيات ، والمعادن ، ودرجات الحرارة ، وعلم الفلك، ومن اهم مايجب علينا تعلمه، الرياضيات. ونحن نحسب جدول زمان الكواكب والاقمار والمذنبات ونعتمد على معرفتنا بالوقت فيما يحدث في حركاتها في المستقبل ، ونحدد الساعة والدقيقة لكسوف الشمس وخسوف القمر ، في الماضي والحاضر . ونحن نعرف سرعة الضوء ونحددها بالثانية ونعرف طبائع الاجرام السماوية التي يظهر لنا انتظامها من سيرها المتواصل الدقيق البديع في الاماد الطويلة .

ان التطور قد بلغ بالموجودات الحية الى الاتفاق التقريبي مع بيئتها ، الا انه من الجهة النظرية على الاقل لا يمكن ان يزيد على ذلك . وتقدم الانسان فيما وراء ضروريات الحياة قد خرج به عن الحدود التي يظهر لنا ان التطور الطبعي وضعها على حدة . وان الانسان باقترابه من المعرفة التامة بالزمان ليقترب ايضا من المعرفة بقوانين العالم الابدية ، وبذلك كله يقترب من معرفة الخالق سبحانه .

واذا لم توجد في بعض نواحي العالم مخلوقات عاقلة ، فان الانسان وحده يختص بمعرفة الزمان ، وسيطرته على معرفة الزمان تدنيه من شيء هو اعظم من المادة .

فمن اين تجيء هذه الوثبة العظيمة التي يشبهها الانسان بعيدا عن الفوضى ، وعن جميع التركيبات المادية ، وعن جميع المخلوقات الحية الاخرى ؟ لابد ان تجيء من شيء اعلى واجل ، ولن تجيء من المصادفة .

(الفصل الرابع عشر)

التصور الكامل

دعنا نترك العلم مليا من الزمان ونرجع الى تصورنا .

يمكن ان نقدر ان جميع الحيوانات ترى الحقائق والحوادث ، والاشياء المادية ، كما هي ، وان رد الفعل العقلي عندها مباشر . فرد الفعل عندها يظهر في سعيها في تحصيل قوتها ، وفي هربها من اعدائها ، وفي اختفائها عند خوفها من الخطر ، وفي طلبها للراحة في مكان تأمن فيه . ومن الممكن ان يعض انواع الحيوان المتقدمة ، كالكلاب مثلا تحلم في نومها ، والحلم بالطبع نوع من التصور ، لا يستطيع العالم ان يسيطر عليه .

ان التصور من اعظم المقدرات والكفاءة العقلية التي وهبها الانسان . فبالتصور يستطيع الانسان فورا ان يسافر حيث يشاء . والخطيب يستطيع ان يرحل بالمستمعين له الى اي افق يريد . فاذا وصف في تصويره لمستمعيه احدى جزائر المرجان من بلاد الهند الشرقية ، يرى بتخيله تلك الجزيرة . ومستمعوه ايضا يرون بعقولهم سلسلة بحور مرجانية تحيط بها ويرون الشاطىء المرجاني ، ويرون تغيرات لون المحيط ، والسماء التي تظلها ، والريح تعبث بسعف النخيل ، وجزيرة في الوسط مكسوة حلة جميلة من نبات الاراضي الحارة . ويمكنه ان يصف لهم ماء البحيرة الصافي الازرق كزرقة السماء ، وجلاء المرءاة ، واذا صار به الفكر الى ابعد من ذلك ، يرى المستمعون له اعماق تلك البحيرة. ويمكن ذلك الخطيب ان ينقل المستمعين له من ذلك المنظر الاستوائي فورا الى نهر جليدي بجربانه البطيء والوانه من ازرق واخضر وابيض ، ويسترعي افكارهم الى جبل قد توج الثلج قمته يظهر مرتفعا وراء ذلك النهر ساطعا باشعة الشمس في لون وردي بهي .

واذا كنت تستمع الى ذلك الخطيب يمكن ان يحملك الى كوكب بعيد ، ويكاد يحمل الى اذنيك تصادم العناصر المتطايرة ، ويكاد يشعرك ويريك فيض الضوء والحرارة ، وهما يسرعان لاعطاء الدفء والحياة ويصالهما الى الارض ، وليرى سكان الارض صورة رائعة البهاء للهلال يشرق نوره في ظلمة غابة خضراء.

ويقدر ذلك الخطيب ان يصور لذهنك ليس فقط ما يحيط بك ، بل الصورة نفسها التي تتخيلها لزوجتك واولادك في حركاتهم واعمالهم في تلك اللحظة . وهنا يعوزك التصور . فيعتريه النقص وتكون الصورة الحقيقية ، بلا شك ليست هي التي تخيلتها، بل غيرها.

وقوة التصور هذه في الطفل ينبوع سعادة عظيمة فهو يستعملها كما يشاء في اللعب ، واذا اردت ان تعرف ذلك فلاحظ الاطفال في لعبهم لترى ما يعتقدون في انفسهم فالصبي الذي يحمل على كتفه بندقية من الخشب ، قد يعتقد اعتقادا تاما انه جندي حقيقة .

ان التعليم والتجربة والبيئة والمهارة ، كل هذه قد تصير الخيال قطعة فنية رائعة من الطراز الاعلى ، سواء اكانت قطعة من الموسيقى السمفونية ، ام لوحة رسم ، ام آلة ميكانيكية دقيقة الصنع . والآراء انما هي بنات التصور فهي حينئذ اساس العبقرية . واعظم نتائج العقل الانساني ، كالاختراعات ، والآلات الميكانيكية ، واستنباط افكارنا الرائع في الرياضيات العليا ، هو التحقيق النهائي لآراء ناشئة عن التصور .

توضيحات وتعليقات

1) قوله . وكان ظهور الشمس الخ . لا شك ان العلم كله ، سواء اكان علم معاش او علم دين او ادب وفلسفة كان محتكرا عند رجال المعابد والكنائس في الزمان القديم . وبذلك تنحصر السيطرة في الحكام والسحرة والكهان ، ويبقى سائر الناس عبيدا لهم مسخرين لخدمتهم بسبب جهلهم ، فاذا كان الفلاح لا يكتب ولا يحسب ولا يقرا يكون مضطرا في شؤون زراعته وصحته ودينه الى الساحر او الكاهن،فهو الذي يعين له اوقات المزروعات واوقات حصادها ، واوقات غرس الاشجار وايراقها فازهارها فاثمارها . وهو الذي يعالجه اذا مرض مرضا حقيقيا او وهميا بالرقى والتمائم ويحصنه من عين المعيان واذى الانس والجان . وهذا الساحر او الكاهن يفرض على الفلاح والعامل ان لا يعمل شيئا حتى يستشيره فيخبره بعواقب الامور . ويوهمه ان كل حركة يتحركها بدون ارشاده هي حركة طائشة توقعه في الهلكة . وهؤلاء الكهان يحرمون التعلم والمعرفة على رعاياهم ، لانهم يعلمون ان كل من تعلم من هؤلاء المساكين يتحرر عقله وفكره ويخرج من السجن والاسر ، وفي ذلك القضاء المبرم على سلطان الطبقة الحاكمة بامرها ، وهي الحكام والسحرة ومن في معناهم من المنجمين والمتظاهرين بالدين لنيل مئاربهم الخسيسة . واعظم محرر للعقول وداع الى التسوية بين جميع البشر وجعل العلم مشاعا بين جميع الناس وجعل الدين لله والحكم لله والسيادة له وحده لا شريك له ، هو محمد رسول

الله الذي جاء بالعلم والنور والهدى لجميع البشر على اختلاف اجناسهم والوانهم . قال الله تعالى في سورة سبأ (28) (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون) وفي الحديث الصحيح ان النبي (ص) قال . وهو يعدد الخصائص التي خصه الله بها . وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة . وعن ابي موسى الاشعري قال ، قال النبي (ص) . مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فانبتت الكلا والعشب الكثير ، وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان ، لا تمسك ماء ولا تنبت كلا ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدي الله الذي ارسلت به . رواه البخاري ومسلم . نفهم من هذا الحديث امورا ، احدهما ان الشيء الذي بعث الله به محمدا (ص) هو الهدى والعلم ، فالهدى الارشاد ، والعلم قسمان ، علم دين وهو عقائد وعبادات ومعاملات تدخل تحت احكام الشريعة واخلاق وءاداب تسمو بالانسان الى الكمال . وعلم معاش وهو كل ما يرفع شأن الانسان ويحسن معيشته ، وانواعه كثيرة . وقد يعارض بعض الناس في داخل الاسلام وخارجه ، في دخول هذا القسم الثاني في مسمى العلم الذي جاء به الرسول . ولو تاملوا لوجدوا انفسهم مخطئين ، فقد اخذ النبي (ص) بعض علوم الحرب عن سلمان الفارسي لما اشار عليه بحفر الخندق فحفره هو واصحابه وعمل فيه بيده ، وامر الناس بالتداوي فقال تداووا يا عباد الله ، فان الله ما انزل داء الا انزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله. وهو يتضمن الحث على تعلم الطب . وكان عليه السلام هو نفسه طبيبا ، يصف الادوية والحمية للمرضى . وامر بتعلم الرمي وركوب الخيل وقال من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا . وقال تعالى في حق داوود (وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم) وهم النبي (ص) بالنهي عن المقابلة ، وهي مباشرة المراة المرضع مخافة ان تحمل فيتضرر رضيعها ، فلما علم ان اهل فارس والروم لا ينهون عن ذلك ترك النهي . وفي ذلك حث لامته على تعلم علوم الصحة . الى غير ذلك من الادلة التي لا تحصى . وثانيها تشبيهه عليه الصلاة والسلام العلم الذي جاء به بالمطر والناس بانواع الارض فمن كان منهم عالما ومعلما فهو كالارض التي تنبت ما ينفع الناس من ثمرات وحبوب ومراع مخصبة والحياض التي تمسك الماء على الناس لشربهم وسقيهم . وشبه الجاهلين المعرضين عن التعلم بالاراضي الصلبة التي لا تمسك ماء ولا تنبت نباتا . واخبر ان الجاهلين المحرومين الذين لا خير فيهم هم الذين لا يتعلمون ولا يعلمون ولا يهتمون بالعلم . وثالثها حصره الخير في من تفقه وعلم وعلم . وقد جاء ذلك صريحا في حديث ، والعالم والمتعلم شريكان في الخير ولا خير في سائر الناس . وامر امته بطلب العلم ولو في الصين، فحطم بذلك القيود التي كانت تحول بين العامة وبين العلم . ومن درس التاريخ العالمي بامعان وتبصر وكان سالما من العصبية علم يقينا ان اعظم رجل حارب احتكار العلم ونظام الطبقات هو محمد رسول الله (ص) ومن دواعي الاسف ان المنتسبين الى الاسلام بعد ما تركوا القرءان والسنة رجعوا الى الجاهلية وصاروا يحتكرون العلم والمعرفة وراجت سوق الكهانة والسحر والاكل بالدين بينهم ، فقد اخبرني رجل في فاس ان زوجته اصيبت بمرض لازمها بضع سنين فذهب الى امام جامع كبير فشكى له ذلك فامره بذبح دجاجة حمراء وطبخ لحمها بلا ملح ودفنه تحت شجرة عينها له خارج باب الفتوح ، ففعل ، الرجل ما امره به ، وطبعا بقيت امراته مريضة كما كانت ، فانظر الى هذه الجناية العظيمة التي ارتكبها هذا الامام ، وما اكثر امثاله ،ففيها تضييع الطعام ، وافساد العقيدة بايقاع الناس في عبادة الجن ، وصرف هذا الرجل المسكين عن الصراط السوي الذي امر به رسول الله (ص) وهو التداوي . وشكى الى رجل مغربي ان زوجته لا تلد مع انها موافقة له ، وهو يحبها حبا جما ولا يستطيع ان يكدرها ، الا انه مضى عليها عنده عشرون عاما ولم تحمل . قال وقد طفت على اضرحة الاولياء في جميع انحاء المغرب فما جاء الله بشيء ، هذا لفظه ، فقلت له انك لم تقصد الله تعالى ، ولو قصدته ما خيبك، وعلى ذلك فقد بقي لك ولي لم تقصده بعد ، فقال لي لا يستطيع احد ان يذكر لي وليا لم اقصده في المغرب كله ، فقلت له انا اذكر لك واحدا ، فقال وما هو فقلت طبيب النساء خموس الاسباني،وليس بعيدا منك انه في طنجة. فقال لي الله يا فقيه . تسمي هذا ولي الله ؟ فقلت انا ما سميته ولي الله ، وانما سميته وليا فقط ، وهو الذي ينفعك الله على يده ، لانه طبيب ، وقد امرنا نبينا (ص) باتيان الاطباء لعلاج الامراض ، ولم يامرنا باتيان الاضرحة والالتجاء الى اصحاب القبور . وقد اخبر علماء الصحة انهم بعد الاستقراء التام ، لم يجدوا امراة ولدت عاقرا من بطن امها . قالوا فالعقم انما يطرا على المراة بسبب الامراض والعاهات ، بخلاف

الرجال،فان منهم من يولد عقيما . فالتمس مني عنوان الطبيب المذكور فكتبته له ، فذهب اليه فعالج زوجته فحملت . وسافرت انا الى العراق فلما رجعت في صيف سنة (1959) وزرت تلك المدينة جاءني الرجل المذكور ومعه صبي ابن بضع عشرة سنة فقال لي هذا ولدي الذي رزقني الله بسبب ارشادك وسلم علي الغلام ، فقلت له يا بني ، ان والدك جنى عليك بطلبه الاولاد من الاموات وتركه الطريق الصحيح وهو العلاج . ولو ان والدك قصد الطبيب من اول الامر لكان عمرك الآن بضعا وثلاثين سنة ولكان لك اخوة واخوات ، فضحك ابوه والحاضرون . وهذا الداء الفتاك وهو طلب الحاجيات من السحرة والكهان واصحاب القبور لا يزال يفتك بهذا الشعب لكثرة سببه وهو الجهل . فتذهب اديانهم وعقولهم واعراضهم واموالهم، وذلك هو الخسران المبين . ولا يزال الدجاجلة يسرحون ويمرحون ويبتزون الاموال ويعيشون عيشة الترف بالشعوذة والدجل،وانواع الحيل.ولا منقذ لهم من هذا الشقاء الا الله ثم العلم النافع.ولا يمكن ان يوجد هذ العلم النافع الا بالرجوع الى رفع راية القرءان وما جاء به محمد رسول الله من البيان ويسير ذلك جنبا الى جنب مع علم اللغات والعلوم العصرية التي لا يقوم دين ،ولا دنيا الا بها . ومن طلب علم الدين وسار في طلبه على صراط مستقيم فان علوم الدنيا تاتيه مطيعة منقادة وتخطب وده ؛ بخلاف من عكس فان امره ينعكس وينتكس ، واذا شيك فلن ينتقش ، كما في الحديث ؛ ومعناه اذا اصابته شوكة فلن يقدر على اخراجها بمنقاش .

2) قوله، واذا لم توجد في بعض نواحي العالم الخ. يشير بذلك الى احتمال وجود خلق عاقلين في بعض الكواكب كالمريخ مثلا ، وما يعلم جنود ربك الا هو . وقد استطاع الانسان اليوم ان يخترق هذا الغلاف الجوي الذي خلقه الله ليحفظ به الارض وما عليها من التلاشي والاضمحلال. والانسان الآن يطمع في اكثر من ذلك ، وهو الاتصال بالكواكب الاخرى ، ولا يعلم ما ياتي به الغد الا الله .

مكناس ـ تقي الدين الهلالي

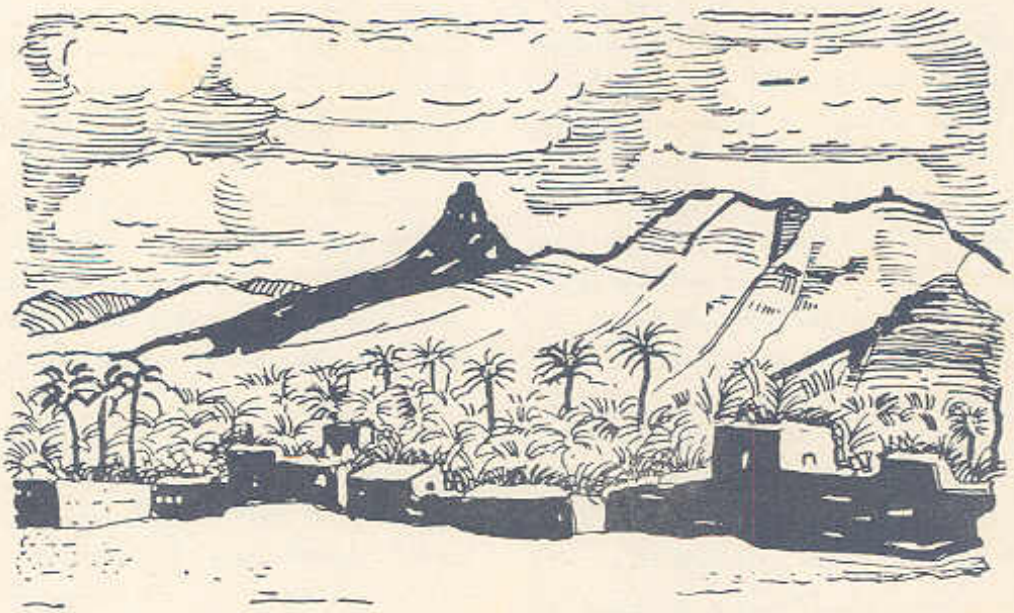

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 20 - للدكتور تقي الدين الهلالي

ثم قال المصنف مباشرة ، ولكن التصور على كل حال يصادف دائما عوائق من بيئته المادية ، فهو لذلك لا يبلغ الا درجة قليلة من الحقيقة حتى تحققه الملاحظة او التجارب او الاكتشاف ، وحتى فى اذهاننا المادية ، لا يقيم التصور اعتبار الفكرة الزمن او المسافة ، فهو يبلغ فورا هدفه ، سواء اكان ذلك الهدف كوكبا فى السماء ام ولدك الذي فى حجرك ، ولابد لنا ان نصل الى نتيجة ، هي ان قوة التصور ، متصلة بالقدرة الروحانية ، فان كان هناك خلود للروح فهناك ايضا خلود للتصور .

وكلما ادرك الفلاسفة ذلك العنصر الا على من طبيعة الانسان ، وهو نشاط روحه ، واجهتهم صعاب لا تعرض لمن هو اقل منهم تفكيرا .

فهم ان قالوا بخلود الروح ، وجدوا من الصعوبة بمكان ان يحددوا مكان هذه الروح الخالدة ، فالشخص العادي يتصور ان الجنة مكان ، ويفكر فيها على انها مادية فيها شوارع مرصوفة بالذهب وابواب مصنوعة من اللؤلؤ ، واذا كانت غاية الروح بعد انطلاقها هي الجنة ، فمن الطبيعي ان يسأل المرء (أين الجنة ؟ وكم تبعد عنا) اما الفيلسوف الذي له نفس يقظة فلابد ان يخطر بباله ان الجنة ليست مكانا كما يتصوره البشر ، ولكنها اجل بكثير من ان ندركها بعقولنا القاصرة ، ومثل ذلك يقال فى الخلود الذي لا نهاية له . والحقيقة اننا قد نضطر لفقدنا التجارب البشرية التي ترشدنا، ان نحسب ان الجنة يمكن ان تكون الفضاء نفسه .

ومن الطبيعي ان كل انسان يكره ويخاف ان يكون ساكنا فى الفضاء وحده ، وقد يخطر ببال العالم حقيقة : هي اذا ارادت روحه ان تصل الى مكان فى الفضاء سواء اكان فى جزيرة من جزائر المرجان ، ام فى سديم بعيد المدى ، فان المسافة التي يجب ان تقطعها ، سواء اكانت قصيرة ام طويلة ، تحتاج الى زمان ، فان امكن ان يكون سفره على شعاع من اشعة الضوء ، فلابد ان يستغرق الف سنة ضوئية ليصل الى شمس قريبة نسبيا من شمسنا ، ومن اجل ذلك نقول : ان الانسان المقيد تقييدا شديدا بصلاته المادية البشرية بالبوصات والاميال وسنوات الضوء والزمان ، يخيل له انه لايعقل ان توجد سعادة فى الفضاء الابيض الذي لا حد له ، ولا فى الابد الذي لا نهاية له .

وهنا يجيء ايحاء التصور الكامل ، اننا على الارض مرتبطون بكل شيء مادي وموثقون بكل تلك المقاييس التي تقدمت الاشارة اليها ، وكيفما كان الامر يجب ان نذكر ان تصورنا ، كما تقدم ، يتغلب فورا على المسافة وينقلنا الى اي مكان ، وياتينا بالالهام الذي يدنينا من الحقيقة ، ويفتح اذهاننا لانواع من الجمال تفوق الواقع ، والاراء التي تتولد عن الافكار يمكن ان تصبح حقائق مادية يدركها غيرنا ، كما قد يحلم المهندس المعماري ، ونضرب لذلك مثلا ، الاهرام وتاج محل ، او ناطحة سحاب حديثة ، واذا صح ان الروح التي اصبحت خالدة ، لاترى الا الحقيقة ، فان الروح تبصر الاشياء فورا بواسطة التصور الذي بلغ الكمال ، والافكار هي حقائق روحية خالدة ، سواء تجسمت فى شكل تمثال ، أم تحدث بها اصحابها على انها حقائق تحدث ثورة فى الفكر البشري .

والعالم باحوال الارض (الجيولوجي) قد يتتبع بتصوره الروحي طبقات الارض حتى يصل الى جوفها الذي بلغ حد الذوبان من الحرارة ، وما يراه هو العلاقة المحققة بين كل طبقة من الارض وبين قشرتها ، وقد

تجلس روح الانسان مطمئنة على شاطىء جزيرة من جزائر المرجان وامواج البحر المتلاطمة تغني لهـا ، وبتصورها الكامل يمكن ان تلاحظ الغازات المنحدرة من الشمس البعيدة ، وقد يطوي الزمان فيراها من بداياتها السديمية ويتتبع تطورها حتى تبرد وتصير غير مرئية .

ولو ان روحا خالدة تستطيع ان ترى الاشياء كما هي ، فانها تستطيع ان تكتسب جميع الحواس الدقيقة المختلفة المتفرقة في جميع انواع المخلوقات الحية ، وبذلك تستطيع ان تدخل في ميادين جديدة عجيبة من المعرفة والخبرة والشعور ، وحينئذ ترى ـ ان شاءت ـ الذرات وهي تكون نفسها جزيئات ، والجزيئات وهي تبيد الجراثيم المغيرة ، وربما تستمتع بموسيقى جديدة تتولد من اهتزاز الاثير غير المحدود من آلاف نغماتها المتجاوبة ، وهناك الوان هي اجمل وازهى من ان تقدر على رؤيتها العيون البشرية ، وهي تنتظر تطور مقدرتنا على الادراك الذي يستوعبهـا ، وهنالك افراح لا نهاية لها تنتظر روح الانسان بعد ان تتحرر من الجسد .

ولا ندري الى اي حد تنتهي قوة التصور الكامل للانسان ان ادرك ذلك في الحياة الاخرى ، ولايمكن ان نبحث هاهنا في القيود التي سوف تحمي حقنا المقدس في العزلة الفردية ، وانما نعطي هنا فكرة مجردة ، كما لا يمكن ان نصف الجنة التي يتمناها كل فرد ، ولكن يمكننا على الاقل ان ندعي ان هناك اجوبة عن مثل هذه المسائل التي يسأل عنها الناس .

ان الروح الخالدة التي لا يستطيع الزمن ان يمنعها، تستطيع ان ترى احبابها وتضمهم الى صدرها، ولما كان تصورها قد تكامل الان تستطيع النفس ان ترى على الحقيقة الحق الاعظم ، وهو الخالق سبحانه والجنة حيث اراد هو سبحانه ان تكون .

دعنا نعتقد ان تصورنا سوف يتكامل وان نعلم علم اليقين ان الصم سوف يسمعون اصوات الجمال وراء احلام البشر ، وان البكم سوف يتكلمون بكل لغة ، وان العمي سوف يبصرون كل عجيبة من عجائب خلق الله .

وهكذا يستطيع الانسان بمقدرته الروحانية ان يدرك العظمة الربانية ، وبتطوره الروحاني يزداد دنوا من معرفة جلال الله وقدرته ومجده .

تعليقـــات :

1) قوله : لا يقيم التصور اعتبارا لفكرة الزمن الخ .. جاء في الخبر ان علي بن ابي طالب كان يضع رجله في الركاب ويقرا القرآن كله قبل ان تستقل الرجل الاخرى في الركاب الاخر ، وقد استشكل هذا بعضهم واراد آخرون ان يجعلوه من باب خوارق العادات فلم يصب احد منهما شاكلة الصواب ، وانما ذلك من اسرار التصور ، فكل حافظ للقرآن حفظا جيدا يستطيع ان يمر بفكره على القرآن من اوله الى آخره في لحظة بواسطة التصور الذهني ، ولو سالته عن كلمة كزيد مثلا اهي موجودة في القرآن ام لا لاستعرض القرآن امام تصوره في لمحة واحدة واجابك بنعم ، ان هذا الاسم موجود في القرآن في سورة الاحزاب ، في قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) اما الذي لا يحفظ القرآن فلا يمكن ان يجيب عن هذا السؤال حتى يقرا القرآن من اوله الى آخره ولا يتم له ذلك الا في ايام كثيرة ، وكذلك اذا كان ضعيف الحفظ، ولما كنت في جامعة بون مدرسا وطالبا سنة 1936 اقترح رئيس القسم الشرقي في الجامعة الاستاذ ياول كالي ان اترجم معه كتاب البلدان في الجغرافية العالمية لمحمد ابن الفقيه البغدادي المتوفى في اواخر القرن الثالث الهجري فاخذنا في الترجمة وقال لي اتحفظ القرآن قلت : نعم ، قال : اذا جاء شيء من القرآن في اثناء الكتاب فاخبرني به .

فصرت كلما ذكر المصنف شيئا من آيات القرآن اخبر به فيقول : هل تستطيع ان تجد ذلك في المصحف اذا جئتك به ، فاقول : نعم ، فآخذ المصحف واوقفه على الآية في الحين فيقهقه ضاحكا اعجابا واستغرابا ، ومن كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية قوله : لقد جعل

الله الاحاديث كلها لابن تيمية نصب عينيه ياخذ منها ما يشاء ويدع منها ما يشاء . وقال فيه ايضا : كل حديث لايعرفه ابن تيمية فليس بحديث. فقوة التصور وسعة الخيال من اسرار الروح العجيبة كما قال المؤلف ، وتقدم قوله ، انما يراه النائم في منامه راجع الى التصور والخيال واستمرار التفكر في وقت النوم ، الا ان سلطان الروح عند النوم يكون اقوى منه في اليقظة ، فلذلك تتجسد الخيالات والافكار وترى ببصر البصيرة ، وليس كل ما يراه النائم من بنات فكره ، فهناك امور يلقيها الله تعالى اليه ويريه اياها لا حيلة له في ادراكها بالفكر ، ومنها الامور المغيبة التي يراها النائم فتقع كما يراها ، وهذا شيء محقق ثابت متواتر عند الناس لا يمتري فيه الا المادي الجاهل الذي انحصر علمه فيما يدرك بالحواس الخمس كالعجموات ، وقد قسم النبي (ص) الرؤيا الى ثلاثة اقسام : تبشير ، وهو من الله سبحانه ، وتحزين، وهو من الشيطان ، والقسم الثالث ، ما يحدث الانسان به نفسه في اليقظة ، هذا معنى حديث رواه ابو داود في سننه ، وقوله ، ما يحدث الانسان به نفسه في اليقظة، هو الذي عبر عنه المؤلف باستمرار الفكر في حالة النوم، ولكن لا ينحصر ما يراه الانسان في منامه في افكاره ، بل هناك امور اخرى يريه الله اياها تبشيرا او انذارا ، وامور يلقيها الشيطان تخويفا وتحزينا ، وفتنة واضلالا ، وقد علمنا النبي (ص) وهو طبيب القلوب والارواح علاجا ناجعا يقينا شر الاحلام ويعرفنا بما ينفعنا من رؤيا المنام ، فمن ذلك الحديث المتقدم الذكر، ومنه انه عليه السلام قال : اذا راى احدكم ما يكره فلينفث عن يساره ثلاثا ثم يقول : اللهم اني اعوذ بك من شر ما رايت ان يضرني في ديني ودنياي ، ولا يقص ما راى على احد فانه لا يضره ، وامرنا اذا راينا رؤيا صالحة ان لا نقصها على جاهل او مبغض لنا ، والحكمة في ذلك والله اعلم ، ان الجاهل يفسرها ويخطيء في تفسيرها فيضر من حيث اراد ان ينفع ، واما المبغض فانه يؤولها تأويلا سيئا على عمد ليسوءنا ويحزننا ، فاذا سمعنا منه ذا لكتوقعنا شرا وصرنا نرتقبه حتى اذا اصابنا شيء من مصائب الدنيا ، وهي كثيرة ، قلنا هذا هو الذي اخبرنا به فلان ، على ان توقع الشر في حد ذاته شر كبير ، ومن اجل ذلك نهانا رسول الله (ص) عن اتيان الكهان والعرافين ، ففي الحديث من اتى عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد (ص) ، وفي حديث آخر ، لم تقبل له صلاة اربعين يوما ، وقال النبي (ص) : ليس منا من تطير اوتطيرله اوتكهن، اوتكهن له، وقال رسول الله(ص) الطيرة شرك ، والطيرة هي التشاؤم برؤية الاشخاص او بعض انواع الحيوان كالغراب والكلب الاسود او بما يسمعه الانسان من الكلام ، او بالايام والشهور وغير ذلك مما هو كثير ومشهور، يفتك بعقول الشعوب التي فشا فيها الجهل ، ومن ذلك ما سمعته من اهل تطوان ان كثيرا من جهالهم لا يشترون مكنسة في شهر صفر ويعتقدون ان من ادخلها بيته في ذلك الشهر تكنس اهله وماله ، واخبرني البشير بن محمد وهو اغنى رجل في مدينة المشرية بالجزائر ان له عبدا اسود تركه له ابوه وهو مشئوم جدا في اعتقاده كلما رآه في الصباح وكان اول من رآه من اهل بيته تصيبه مصيبة في ذلك اليوم ، قال فانا لذلك اذا قمت من النوم صباحا اخرج مغمض العينين ولا افتحهما الا اذا سمعت صوتا غير صوته ، فان سمعته هو لم افتح عيني حتى القى غيره فافتحهما عليه ، ثم بعد ذلك لا تضرني رؤيته اذا رايته، ولا يتسع المقام لذكر ما يقع للناس من هذا القبيل ، ولا نجاة للناس من شرور الاوهام والخيالات والوساوس الا بمعرفة سنة النبي والتمسك بها ، ثم ذكرت الان حكاية ترجح عندي ذكرها ولو افضت الى التطويل والملل لما فيها من الفائدة لبعض القراء على الاقل ، توجد ناحية في بغداد اسمها الوزيرية فيها السفارة المغربية وغيرها من السفارات ، ويقال انها ارض مغضوبة ومشؤمة ، بنى فيها احد اخواننا قصرا انفق على بنائه مالا كثيرا ثم انتقل اليه هو ووالداه واخوته واهل بيته فاصيب بالامراض وغيرها من المصائب وتشاءموا بسكناهم في الوزيرية فجاءني وشكى الي ذلك ، فقلت له : هذا من الوساوس والطيرة وهي شرك وعلمته دعاء علمنا اياه رسول الله (ص) وامرنا ان ندعو به اذا وقع في انفسنا شيء من التطير وهو: اللهم لا خير الا خيرك، ولا طير الا طيرك ، ولا اله غيرك . فتعلمه وعلمه اهل بيته وصاروا يدعون به ، فبعد شهرين جاءني واخبرني انهم استقروا واطمانوا وشفاهم الله وذهب ما كانوا يجدونه في انفسهم .

2) قوله في الروح والجنة الخ.. قال الله تعالى: ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا ، وما اضل المفكرين الا انهم يقيسون كل ما لا يعلمونه على ما يعلمونه كأن العلم منحصر في ما وصلوا اليه : ولو وصف شخص الكهرباء واعمالها والاذاعة فضلا عن القنابل الذرية والصواريخ والاقمار الصناعية التي تسبح في الفضاء الخارجي ، بل مركبات الفضاء التي يدور بها الراكب على الكرة الارضية فيرى الشمس في شروقها وغروبها في كل تسعين دقيقة ، لو اخبر بذلك شخص قبل هذا الزمن لرجمه الناس بالحجارةاو ادخلوهالى مستشفىالامراض العقلية، مع ان هذه امور وقعت في عالمنا هذا .

وقل لمن يدعي بالعلم معرفة

علمت شيئا وغابت عنك اشياء

والتكذيب سهل لانه جهل ، ومن كان مرتبطا بالارض والشمس لا يستطيع ان يفكر الا تفكيرا موثقا مقيدا بالمكان والزمان ، كيف يستطيع ان يحكم بجهله على عالم آخر ليس مقيدا بما يقيد به هو ، لاجرم ان من فعل ذلك سد على نفسه باب العلم والمعرفة وبقي مسجونا في ظلمات جهله .

3) قوله الاهرام وتاج محل وناطحة سحاب حديثة : الاهرام من آثار الفراعنة، وقد عجز من بعدهم من الدول عن هدمها فكيف ببنائها . وتاج محل قصر من آثار ملوك المغول في الهند بلغ الغاية في الجمال الفني والاتقان يزوره الناس من البلدان البعيدة ، وناطحة سحاب القصور العصرية الشامخة في امريكا .

مكناس : تقي الدين الهلالي

وراء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 21 -

ان نظرة فيما تقدم مصحوبة بالامعان توضح للقاريء وتؤكد له ملاءمة الطبيعة للانسان ، على ان انعدام تلك الملاءمة يجعل الحياة مستحيلة ، وكذلك المسائل الاخرى التي انجر البحث اليها تؤكد تلك الحقائق البارزة في الطبيعة وتدل على ان منهاجا محكما قد وضع لتقدم الانسان ، ويرى ادلة قوية تدل على هذا التدبير المقصود وراء كل شيء ، ان الحقيقة المدهشة الماثلة للعيان ، وهي ان الانسان قد عاش على رغم التقلبات التي مر بها في ملايين سني تطوره تتحدث عن نفسها ، لقد علمنا يقينا ان العالم موضوع في مكانه المناسب له ، وان قشرة الارض قد رتبت الى غاية عشرة اقدام ، وان المحيط لو كان اعمق مما هو عليه بضعة اقدام لما وجدنا اوكسجينا ولا نباتا ، ووجدنا ان الارض تدور مرة في كل اربع وعشرين ساعة ، وان هذا الدوران لو تأخر لما امكن وجود الحياة . ولو زادت سرعة دوران الارض حول الشمس او نقصت لتغير تاريخ الحياة ، هذا اذا وجدت حياة بالمرة ، ووجدنا ان الشمس هي الوحيدة من بين آلاف الشموس ، التي جعلت حياتنا على الارض ممكنة ، ووجدنا ان حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة اشعتها يجب ان تكون كلها مناسبة ، وقد كانت ، ووجدنا ان الغازات التي في الهواء قد رتب بعضها على بعض ، وان اي تغير في ترتيبها ، ولو كان طفيفا ، يكون فيه الهلاك المحتم ، هذا قليل من كثير من العوامل الطبيعية قد نبهنا القاريء اليه .

واذا نظرنا الى حجم الارض ، ومكانها في الفضاء واحكام نظامها ، يظهر لنا ان اعتبار ذلك النظام واقعا على سبيل المصادفة يكون نصيبه من الامكان واحدا من مليون ، ونصيب جميع الانظمة العالمية في امكان الوقوع على سبيل المصادفة اقل من نسبة واحد الى بلايين ، فوجود هذه النتيجة الحتمية ، وهي ان موافقة الطبيعة للانسان هي اعجب بكثير من موافقة الانسان للطبيعة ، ان نظرة دقيقة في عجائب الطبيعة تقيم البرهان على ان هذه العجائب وهذا النظام البديع ، كل ذلك ناشيء عن قصد وتقدير حكيم وتدبير عظيم ، وبذلك نعلم ان منهاجا دقيقا ينفذ بتفاصيله بامر الخالق الاعلى ، وقد يستطيع الانسان ان يرى في هذا المنهاج سلسلة من الحوادث في تطور الكائنات الحية حتى انتهت في نتيجتها الى منح الحياة للحيوان ، وتطوره الى الانسان ، ولم يزل الانسان في جميع الازمنة يسير وزمام سيره في يد العناية الربانية ، فدعنا نعتقد اذن ان العناية الربانية بارشادها وهدايتها تحيط بالانسان في جميع اطواره ، وقد تطور المنهاج الى مباءة قادرة ان تحافظ على مخلوق جسمي يشتمل على عقل واع .

ولما كانت عقولنا محدودة ، لم يكن في امكاننا ان ندرك ما هو غير محدود ، ولذلك لانقدر الا ان نؤمن بوجود الخالق المحيط بكل شيء ، الذي خلق كل شيء وشمل ابداعه الذرات والكواكب والشموس والسدم (جمع سديم) والزمان والمكان هما عنصران في هذا الادراك . ان محاولة ادراك حقيقة كنه الباري جل جلاله لتحير اذكى الاذكياء ، وكذلك لايمكننا ان نعتقد ان الانسان هو الفرض الوحيد او النهائي ، ولكن يمكننا ان نرى ان الانسان اعجب مظهر لهذا الفرض ، على اننا لسنا مضطربين ان نفهم ذلك كله حتى نتقدم كثيرا ، وزيادة المعرفة تشير الى تلك النهاية ، اننا نقرب من ادراك عالم المجهول الشاسع ، حين نتحقق ان المادة كلها صارت من الوجهة العلمية مظهرا لوحدة عالمية ، هي في حقيقتها كهربائية ، لكننا نعلم يقينا ان المصادفة لا علاقة لها البتة بايجاد العالم ، لان هذا العالم العظيم واقع تحت حكم قانون دقيق .

ان ارتقاء الانسان الى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة اجل من ان تتم عن طريق التطور المادي ، من دون قصد انشائي وتدبير حكيم ، واذا قبل تحقيق القصد ، فان الانسان قد يكون جهازا ، ولكن من يدير هذا الجهاز ؟ لانه بدون ان يدار لافائدة فيه ، والعلم لايعلل من يتولى ادارته ، كما ان العلم لايقول انه مادي .

اننا قد بلغنا من التقدم الى درجة تجعلنا نرى ان الله وهب الانسان قبسا من علمه ، ومن ذلك القبس وفي معناه يمكننا ان نفهم ان الله خلق الانسان على صورته ، ولا يزال الانسان من الوجهة الخلقية في طفولته ، وقد بدا يشعر بهذا الشيء الذي يسميه روحا ، وهو يرقى في تدريج وبطء ليتحقق هذه الهبة ، ويشعر بغريزته انها خالدة ، واذا كان هذا الفهم صحيحا ، ويظهر لنا ان البرهان المنطقي الذي يثبته لايمكن دحضه ، فان هذه الكرة الارضية الصغيرة التي هي لنا ، وربما كان لنا غيرها ايضا ، تكتسب عظمة لم يحلم بها احد من قبل. وعلى قدر ما نعلمه ، نرى ان عالمنا الصغير قد تولد منه اول جهاز مادي اضيف اليه قبس من نور الله ، وهذا يرفع الانسان من دركة الغريزة الحيوانية الى درجة القدرة على التفكير ، الذي يمكنه من ادراك عظمة هذا الكون في اشتباكاته ، ويشعر شعورا لايخلو من غموض بعظمة الخالق الاعلى ظاهرة في افعاله .

تعليقات وايضاح

1) قوله : وان المحيط لو كان اعمق .. الخ : هذا برهان من جنس ما تقدم ، على ان هذا العالم صادر عن قصد ومنهاج وتدبير في غاية الدقة والاحكام ، وهذا هو الذي عبر عنه الكتاب والسنة بكتابة الله تعالى للاشياء في الازل واشير اليه بقول النبي (ص): جفت الاقلام وطويت الصحف ، وبقوله تعالى : « ان كل شيء خلقناه بقدر » وبقوله تعالى : « وكان امر الله قدرا مقدورا » . والجاهلون يظنون ان العالم وجد بطريق المصادفة بلا علم سابق ولا تدبير ولا منهاج ، وهذه الحقائق تكذبهم وتبطل زعمهم ، وهي مبنية على طرق حسابية دقيقة لامحل فيها للمصادفة، فمن يزعم ان هذه المخلوقات المحكمة الصنع من الشعري الى ادنى ذرة قد وجدت بالمصادفة يكون اجهل ممن يعتقد ان شخصا اعمى يقود طائرة فيها ركاب ويسير في الطريق المرسوم له وينزل في المطارات المعينة له ويودع ركابا ويستقبل آخرين ثم يستانف سفره الى ان يبلغ غايته ، وقوله : لما وجدنا اوكسجينا ولا نيانا : يستلزم انعدام الحياة كلها ، ومثل هذا يقال فيما بعده من الحقائق ، فهل يستطيع المرتدون تقليدا ونوهما ان يبطلوها ؟ لن يستطيعوا ذلك ابدا ، فليرجعوا الى الاسلام فقد ظهرت معجزاته في الآفاق ، واشرقت انواره ايما اشراق ، فان لم يرجعوا فابعدهم الله :

اذا ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار

2) قوله : يكون نصيبه من الامكان واحدا من مليون : يعني ان احتمال وقوعه يساوي واحدا من مليون ، فتسعمائة الف وتسعة وتسعون الفا وتسعمائة وتسعة وتسعون كلها في جانب عدم الامكان ، وواحد فقط في جانب توهم الامكان ، ولا عاقل يرجح واحدا على ذلك العدد العظيم ، وقد تكرر هذا المعنى في هذه المقالات وضربت فيه الامثال فاقراها بامعان وتفكير من اولها تجد الثلج واليقين الذي لايتطرق اليه الشك بان الله خالق كل شيء ومدبره .

3) قوله : حتى انتهت في نتيجتها الى منح الحياة للحيوان وتطوره الى انسان : يشير بذلك الى مذهب النشوء والارتقاء ، ونحن لانقول به ، وانما نقول بما جاء في كتاب الله ، وهو ان الله خلق الانسان ابتداء في احسن صورة وكرمه بالعقل الذي جعله سيدا حاكما مطاعا يتصرف في غيره من المخلوقات كالحيوان والنبات والمعادن وسائر المواد الكونية ، ولم يتطور عن الحيوان الاعجم ، فان الحيوان لايصير انسانا ، ولكن الانسان قد يصير حيوانا عندما يتبع هواه ويترك عقله (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون) ، هذا مع احترامنا لراي المصنف ، على ان هذه القضية لاتزال غامضة من الوجهة العلمية ولا تتجاوز الفرض والحدس والتخمين .

4) قوله : ولما كانت عقولنا محدودة .. الخ : هذا كلام في غاية الحكمة والتحقيق ، تقدمت الاشارة اليه في المقالات السابقة ، ومما يوضحه ان الانسان مرتبط بالارض وهي مكانه وامه ، وبالشمس ومنها باذن الله حياته ومنها زمانه ، فهو مقيد بالزمان والمكان ، فكيف يستطيع ان يدرك ما لايتقيد بزمن ولا مكان من المخلوقات ، فضلا عن ادراك حقيقة خالق الزمان والمكان . فالمحدود المقيد ، معرفته محدودة مقيدة .

5) قوله : وكذلك لايمكننا ان نعتقد ان الانسان هو الغرض الوحيد او النهائي .. الخ : صدق . لقد صرح القرآن الكريم بما يدل على ذلك قال تعالى : (ويخلق مالا تعلمون) وقال تعالى : (فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون) ، وقال تعالى : (وما يعلم جنود ربك الا هو) ، وقال تعالى : (وهو بكل خلق عليم) .

6) قوله : ان الله خلق الانسان على صورته : جاء في الحديث الصحيح ، ان الله خلق آدم على صورته ، واحسن ما قيل فيه ما اشار اليه المصنف وهو ان الله اهله لحمل الامانة بان وهبه العقل والسمع والبصر واعطاه العلم الذي به فضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، الا ان علم الله ليس له اول ولا آخر ولا يعزب عنه مثقال ذرة ولا يعتريه النسيان ، وهو كسائر صفاته غير مخلوق وعلم الانسان مخلوق .

7) قوله : ولا يزال الانسان من الوجهة الخلقية في طفولته .. الخ : لاشك عند المسلمين ان الانبياء والرسل هم اكمل البشر علما وعملا واخلاقا ، ولكنهم لايحيطون بعلم الله ، وانما يعلمون ما علمهم ، فينبغي ان يحمل كلام المصنف على المعلومات الكونية التي لاتتوقف عليها سعادة البشر ، ولما ضعف ايمان الانسان وطغت عليه المادة العمياء العمياء تفضل الله عليه بان كشف له من السنن الكونية والآيات ما يهديه به الى توحيده وتسبيحه وتمجيده والتمسك بدينه ، كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) الآية .

8) قوله : وربما كان لها غيرها ايضا : يشير الى ما يطمع فيه علماء الكون في هذا الزمان من الوصول الى الكواكب والاستمتاع بها والله واسع عليم .

9) قوله : اول جهاز .. الخ : يريد به الانسان لانه مركب من جسد وروح .

مكناس : تقي الدين الهلالي

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 22 -

المصادفة :

قال المصنف في الفصل السادس عشر : ان القول بالمصادفة ظاهرة الشذوذ لا يقبله العقل ولا يخضع لاي طريق من طرق الحساب . لكن مع كوننا مدهوشين لمفاجآتها ، لانشك انها خاضعة لقانون صارم لا يتخلف ابدا ، وقد تقدم في اول الكتاب مثل وضع عشرة افلس في كيس مرقومة بارقام من واحد الى عشرة ، وانك اذا وضعتها فيه وهززته حتى اختلط بعضها ببعض ثم ادخلت يدك آملا ان تقع على رقم واحد تكون فرصة نجاحك واحدا من عشرة ، اي عشرة في المائة ، واذا نجحت ثم ادخلت يدك مرة اخرى مؤملا ان تقع على رقم اثنين يكون حظك من النجاح واحدا من مائة ، وهكذا فلا تصل الى العاشر حتى يكون حظك من النجاح واحدا من بلايين تفوق الحصر ، والان اضرب لك مثلا آخر ، افرض ان عندك كيسا يحتوي مائة قطعة من الرخام ، تسع وتسعون منها سود ، وواحدة بيضاء ، هز الكيس هزا عنيفا ثم اخرج واحدة ، فحظك من النجاح في ان تقع يدك لاول مرة على القطعة البيضاء يكون واحدا من مائة ، ولو فرضنا انك نجحت ثم رددت القطعة البيضاء الى الكيس وهززته مرة اخرى حتى اختلطت القطع ثم ادخلت يدك مؤملا ان تقع على القطعة البيضاء للمرة الثانية على التوالي ، فان حظك من النجاح يكون واحدا من عشرة آلاف ، واذا ادخلت يدك للمرة الثالثة يكون حظك من النجاح ثلاث مرات على التوالي واحدا من مليون ، ثم جرب مرة اخرى او مرتين فان حظك من النجاح يرتقي الى الحساب الفلكي ، يعني الى بلايين لا نهاية لها .

وبذلك ترى ان نتائج المصادفة مضبوطة بقانون دقيق ، كما ان الواحد نصف الاثنين ، والاثنين نصف الاربعة .

ثم ضرب المصنف مثلا آخر ببطاقات اللعب يشبه ما تقدم ، وحاصله انك اذا خلطت بطاقات اللعب وادخل كل لاعب يده في وعائها واخرج البطاقات التي تنوبه على سبيل المصادفة فان ذلك يكون مستحيلا لم يحدث قط منذ اخترعت هذه اللعبة .

ثم ضرب المصنف مثلا آخر برجل ماهر في اللعب احضر طفلا صغيرا لا يعرف هذه اللعبة ولعب معه وبعد اربع وثلاثين حركة صدرت من الطفل كما لو كان لاعبا ماهرا وغلب الطفل ذلك اللاعب لكان ذلك في غاية الاستحالة والبطلان .

واكرر القول : ان قصدي بهذا البحث في المصادفة ان اقيم البرهان الذي لا ريب فيه وان استرعي انتباه القارىء بطريقة علمية واضحة الى ان جميع مقومات الحياة لا يمكن البتة ان توجد على كوكب واحد في وقت واحد بالمصادفة المجردة .

وتوضيح ذلك ان نقول : ان حجم الارض ومسافة بعدها من الشمس ، ودرجة حرارة الشمس ، واشعتها الباعثة للحياة ، وغلظ قشرة الارض ومقدار الماء ، ومقدار ثاني اوكسيد الكربون وحجم النتروجن ووجود الانسان وبقاءه على قيد الحياة ، كل ذلك يدل على وجود القصد والتدبير والنظام الدقيق المضاد للفوضى وان ذلك مضبوط بقوانين حسابية لا محل فيها للمصادفة ولا يمكن احتمالها ، ولو مرة في بليون مرة ، واذا اعترفنا ولابد لنا من الاعتراف ، فهل يعقل ان نؤمن ولو في مرة من بليون مرة مع ما اوتينا من عقل ونصدق ان وجودنا ووجود سوانا في هذا العالم الفسيح المحكم الصنع حدث على سبيل المصادفة .

لقد وجدنا ان تسعمائة وتسعة وتسعين وتسعمآت وتسعة وتسعين وتسعمائة وتسعة وتسعين 999. 999.999 ثلاث مرات فى مقابلة واحد ضد الاعتقاد بان جميع الاشياء وجدت على سبيل المصادفة . والعلم لا ينكر هذه الحقائق كما بيناها : وعلماء الحساب يعترفون بان هذه الارقام صحيحة ؛ والان تقابلنا مقاومة عنيفة عنيدة من قوم اصروا على افكار استقرت عندهم .

لقد كان اليونانيون القدماء يعرفون ان الارض كروية الشكل ، ولكن مدة الفي سنة قد مضت قبل ان يومن الناس بهذه الحقيقة ويصدقوها .

ان كل فكر جديد لابد ان يلقى انكارا وسخرية وذما ، ولكن الحق يعيش ويرسخ وان جحد الجاحدون.

لقد انتهت المخاصمة ورفعت القضية اليكم ايها الحكام ونحن فى انتظار ما تحكمون به واثقين مطمئنين باحقاق الحق وازهاق الباطل .

تعليقـــات :

1 ــ قوله : واكرر القول ان قصدي بهـذا المبحث فى المصادفة الخ .. اقول : هذا الفصل هـو خلاصة فصول الكتاب كلها ، ومن قرأ هذه المقالات بامعان وفهمها يصير الايمان بالله انه الخالق البارىء المدبر لشؤون هذا الكون عنده معلوما بالضرورة ولا يشك فيه ابدا ، الا اذا عمي وصم وترك عقله جانبا وجحد ما يعلم انه حق فهذا يخادع نفسه ويكذب حسه فلا يستحق الخطاب لانه من شرار الدواب (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقد حثنا الله سبحانه على النظر فى كتابه العزيز فى غير ما آية ، وتقدمت الاشارة الى بعض ذلك ونعيد شيئا منه فنقول على سبيل التنبيه ، قال الله تعالى : قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الايات والنذر عن قوم لا يومنون .. وقال تعالى : (افلم ينظروا الى السمـاء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ، وامثال هـذه الايات الداعية الى النظر واعمال الفكر الموصل يقينا الى الحقيقة ، وهي الايمان بالله على طريقة الراسخين فى العلم الموقنين كثيرة ، أما من امتنع من النظر واستعمال العقل الذي هو من اعظم النعم ، بل هو اعظمها لانـه الموصل الى المعرفة التي هي طريق السعادة فلا حيلة فيه فنذره يعمه ويتخبط فى ضلاله ، واكثر الكافرين فى هذا الزمان عموما وخصوصا فى البلاد الاسلامية ، انما كفروا تقليدا لمن ظنوا انه بلغ درجة العصمـة فى اوج المعرفة. فمثلهم كمثل القرد مع النجار حين اراد محاكاته فى نشر الخشبة فدخل ذنبه فى شقها وانطبقت عليه وبقي محبوسا حتى جاء النجار فضربه ضربا شديدا فكان ما لقي من النجار اشد عليه مما لقيه من انطباق الخشبة على ذنبه ، ومن الغريب انك تراهم ينددون بالمستعمرين ويصفونهم بالخداع والقسوة والامعان فى التوحش ثم يقلدونهم تقليدا اعمى فى رذائلهـم ولا يقلدونهم فى فضائلهم ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور ، فلا المقلد بالكسر ولا المقلد بالفتح يستطيع ان يجيب عن شيء من البراهين العقلية بله النقلية التي اودعناها هذه المقالات ، فهما بين امرين: الجهل او الجحود ، فليختارا احدهما وما فيهما خير لمختار. فقد ثبت بالبراهين التي لا تقبل الريب ان الحياة انما وجدت على وجه الارض بالعناية الربانية والقدرة الكاملة والعلم والحكمة التامة التي تحيرت فيها عقول المخلوقين وعنت لها وجوه الباحثين والمفكرين ، وظهر ان دعوى المصادفة حديث خرافة ، وجهل وسخافة ، كطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

2 ــ قوله : ولا يمكن احتمالها ولو مـرة فى بليون مرة : حجة قاطعة يسلمها كل ذي عقل باعجاب واطمئنان ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى تضاعيف هـذا الكتاب الذي هو غذاء للالباب .

3 ــ قوله : لقد كان اليونانيون القدماء يعرفون ان الارض كروية الشكل ، ولكن مدة الفي سنة قـد مضت قبل ان يؤمن الناس بهذه الحقيقة ويصدقوها ، اقول : هذا فى امريكا بلاد المستف وفى اوربا ، امـا فى بلادنا فلا يزال خلق كبير لا يصدقون بذلك ، وبعض من يدعي علم الدين يزعم ان القرآن مصرح بـان الارض ليست كرة جهلا منهم ، لا بما ادركه العلماء اليونانيون منذ الفي سنة فقط ، بل بما حققه علماء الاسلام منـذ الف سنة ، نذكر منهم الشيرازي والغزالي وابن رشد وابن تيمية وابن القيم ، وقد حدثت لي فى هذه المسالة قصة طريفة اتحف بها القراء كنت فى سنـة 1346 مراقبا للمدرسين فى المسجد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام ، فزار المدينة الشيخ عبد الله بن بليهد ونزل فى ضيافة الحكومة فى دار مجاورة للمسجد النبوي ،

وهو اذ ذاك رئيس القضاة في البلاد السعودية ، فذهبت لزيارته وكان معي رفيقي وصديقي القديم الاستاذ الشيخ محمد بن عبد الرزاق المصري اصلا ، الحجازي مهاجرا وسكنى ، وهو من خيرة العلماء السلفيين ، وكان في ذلك الوقت خطيبا في المسجد النبوي ومشاركا لي في المراقبة ، فلما جلسنا في مجلسه دعا لنا بالقهوة التي تشرب بلا سكر ، وهي تحية كل زائر في بلاد العرب ، ثم سأل عن حالنا فاجبناه بخير وشكرنا ملاطفته ، ثم قال لنا : اريد ان اسالكما عما يعتقده اهل الامصار، يعني اهل المدن الكبرى في البلاد الاسلامية من زعمهم ان الارض كرة ، وانتما قد خالطتماهم فما هي شبهتهم في هذه الدعوى ، فقلنا له : انهم يستدلون بادلة عديدة اقواها عندهم اختلاف الليل والنهار ، فان الشمس في كل وقت تطلع على قوم وتغيب عن آخرين ، واذا كانت غائبة في بلد فهي طالعة في بلد آخر ، وهذا امر مشاهد ومعلوم ، ومن ادلتهم ان المسافر في البحر يرى نفسه دائما في دائرة ، واذا راى سفينة من بعيد فاول ما يشاهد منها رؤوس الصواري ، ثم يشاهد مداخنها ، ثم تتكشف كلها ، وحتى في البر ، اول ما يشاهده المسافر من المدينة رؤوس المنارات والابراج. قالوا : ولو كانت الارض كلها على شكل بساط لظهرت الشمس لاهل الارض كلهم في وقت واحد وغابت عنهم في وقت واحد ، ومن ادلتهم على ذلك اننا لا نرى من الشمس والقمر والكواكب الا نصف دائرة ، فلابد ان النصف الاخر وراء نصف الكرة الاخرى ، وتشاهد كل طالع كانه خارج من الارض ، وكل غارب كانه داخل فيها ، ولم نرد ان نقول له:ان كثيرا من الناس قد داروا حول الارض فتوجهوا الى الشرق واستمروا على ذلك حتى رجعوا الى بلدهم من جهة الغرب لعلمنا ان عقله لا يتحمل ذلك ابدا ، ومع ذلك غضب علينا غضبا شديدا ، وقال لنا : اتركا هذه العقيدة فانها فاسدة وباطلة وان اصحابها زنادقة لا يريدون بها الا ان ينكروا استواء الله على عرشه ثم يجحدون وجوده ، فقلنا له : نحن لم نقل ذلك اننا نعتقد هذه العقيدة ، وانما سألتنا عن ادلة القائلين بها فاخبرناك ، فقال : بلى انكما ، تعتقدانها ، فعلمنا حينئذ ان المدرسين قد اشتكوا اليه واخبروه بما دار بيننا وبينهم من بحث في ذلك ، وحينئذ رمقتنا ابصار الحاضرين باحتقار وازدراء واخذوا يسخرون منا ويقول بعضهم لبعض : ما اسفه القائلين بهذه العقيدة واضعف عقولهم ، لو كانت الارض كرة كما يزعمون لكانت رؤوسنا الى اسفل وارجلنا الى فوق ، ولماذا لا تسقط هذه الجبال والاحجار والصخور ، ولماذا لا تنصب البحار في الهواء وما اشبه ذلك ، فسكتنا ولم يبق لنا قول واذعنا لصولة الجهال ، وكان ذلك في رمضان ، فطلب منا الشيخ ان نفطر معه كل يوم ، اما انا فلم اعد اليه ، واما صاحبي فكان يتردد عليه ، غير اني قرات الرسالة العرشية لشيخ الاسلام ابن تيمية التي اقام فيها الدليل والبرهان القاطع على كروية الارض وجميع الاجرام السماوية ، ومما قاله فيها : ان جهات الارض كلها فوق وليس فيها تحت ، وانما التحت هو بطن الارض اي مركزها ووسطها ، قال : فلو القيت حجرا بالمشرق وحجرا بالمغرب فنزلا في الارض ولم يجدا مانعا لاجتمع الحجران في وسط الارض ، ولو جعلت بدل الحجرين انسانين لالتقت اقدامهما في المركز ، فخططت على ذلك بخطوط حمر ، وبعثت الكتاب اليه فازداد غضبا وقال لمن حضر عنده : الا تعجبون من الهلالي يريد ان يعرفني بما في كتب شيخ الاسلام ، وانا لم ازل ادرسها منذ طفولتي واكاد احفظها عن ظهر قلب ، ان كلام شيخ الاسلام عال لا يستطيع الهلالي ان يفهمه ، ثم اخذت اطالع كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم ، فوجدته قد صرح بان الارض كرة وعلل بذلك باختلاف الليل والنهار فبعثت اليه الكتاب مع رفيقي الشيخ محمد بن عبد الرزاق ، فلما قرا كلام ابن القيم فكر طويلا ثم قال له : اما الجهة التي نحن فيها فهي سطح نشاهده بالعيان ، فاذا كانت الجهة الاخرى كرة فلا ادري ، وبعد ذلك لقيت الشيخ محمد بن عبد اللطيف وهو كبير علماء آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ذلك الزمان ، فقال لي قد بلغني ما جرى بينك وبين ابن بليهد وهو مخطيء فيما زعم فتحت يدي ثلاث رسائل لشيخ الاسلام ابن تيمية كلها تشهد بكروية الارض ، وانما قلت لك هذا لكيلا تظن ان جميع علماء المملكة السعودية يرون راي ابن بليهد في هذه القضية ، وهذا الشيخ اعني ابن بليهد كان آية في الادب العربي وعلوم الدين وكان طاعنا في السن ، ولكنه يستحضر كلما قراه بالفاظه غالبا ، فيقول مثلا قال المؤلف الفلاني في الكتاب الفلاني في الصفحة الفلانية ما نصه ويمليه من حفظه ، اما ما عدا ذلك فلم يكن له به علم ، ورايت رجلا آخر يشبهه في علم الادب وحفظ نصوصه ، وهو السيد عبد الله بن سعيد السلاوي فكان لا يسمع بحادثة الا تمثل بابيات وامثال للعرب متعددة ، واخبرني ان والده الزمه ان يحفظ كتاب نفح الطيب وهو اربعة من المجلدات ، فقال فحفظته ، والسيد عبد الله بن سعيد السلاوي هو اول وطني في المغرب واول مقاوم للاستعمار حين كان المغاربة في غمرة ساهين وكان جمهورهم يعتقد ان مقاومة الفرنسيين كمقاومة

البشر للعقاريت او الاقزام للعمالقة ، وقد جاهـــر بمقاومته فنفاه ليوطي من بلده سلا الى وجدة ، وفيها كنت اتردد عليه وكان يسر بلقائي ، واذا ابطأت عليـــه يرسل في طلبي فرحمة الله عليه ، وفي يوم من الايام قال لي قاضي القضاة بشر السيد عبد الله بن سعيد باني تحدثت في قضيته مع المراقب المدني فوعدني بانـــه سيسعى في اصدار العفو عنه فما عليه الا ان يكتب كتابا الى المرشال اليوطي يطلب فيه العفو . فذهبت اليـه واخبرته بذلك فتبسم وقال لي قل له : اني اتاسف عليك ان ترضى بمثل هذا لنفسك او لاحد من المواطنين . ماذا اقول في هذا الكتاب ؟ اقول اني مذنب التمس العفو من اجنبي مغتصب لا حق له في الاستيلاء علـى وطننا ولا في الحكم فيه ، فضلا عن ان يكون له حق في نفي لاني ابيت الخضوع والتملق للمستعمر الظالم . فاليوطي هو الذي يجب عليه ان يطلب العفو مني لانه اعتدى علي واغتصب ارضي ثم نفاني من بلدي . قال ولقد كتبت احتجاجا الى رئيس جمهوريتهم في كراس وبعثته في البريد فلم يتركوه يصل اليه ولن اخضع لعدو مغتصب ابدا . وعلمت بعد ذلك ان اليوطي زار وجدة ومر بباب داره فاشير عليه ان يخرج اليه فابى :

ذي المعالي فليعلون من تعالى
هكذا هكـــذا والا فـــــلا لا

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

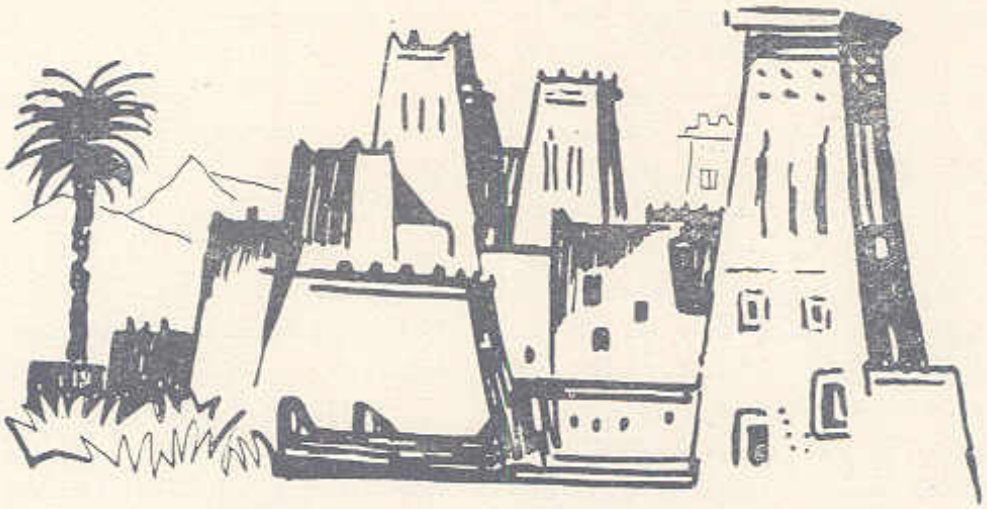

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 23 - للدكتور تقي الدين الهلالي

الفصل السابع عشر :

خاتمة فى مقابلة ما جاء فى التوراة من صفة خلق السموات والارض بما وصل اليه علم الباحثين .

تحت مجمل هذه الترجمة عقد العالم الامريكي كريسي مورسن الفصل الاخير من كتابه ((ليس الانسان مهملا)) وذكر فى هذا الفصل مقابلة بين ما جاء فى الفصل الاول من نص التكوين فى صفة خلق السموات والارض ، وبين ما وصل اليه علم الباحثين، فظهر له ان ما فى التوراة من ذلك مطابق لنتائج البحث العلمي غاية المطابقة ، ولما كان المسلم مؤمنا بجميع ما انزل الله من الكتب وطالب حق وحكمة حيث ما وقع عليها التقطها ، رايت ان اعرض ترجمة هذا الفصل الاخير من كتاب مورسن كما عرضت الفصول السابقة واعلق عليه بما يفتح الله به كما فعلت فيما سبقه .

قال المصنف المذكور : يحتوي الفصل الاول من سفر التكوين على حكاية بدء الخلق على حقيقتها وكل ما اكتسبه الانسان من العلم والمعرفة لم يستطع ان يغير شيئا من حاصل تلك الحكاية منذ كتبت الى الان، وهذا القول سيحمل العالم على ابتسامة تدل على عدم اهتمام ، وتحمل المومن الصادق على الرضا والاطمئنان والاختلافات التي وقعت بين ما فى التوراة وما وصل اليه العلم انما هي فى تفاصيل لا يعبئون بها، والان دعنا نفحص الحقائق كما جاءت فى ذلك الفصل المهم من التوراة .

(فى البدء خلق الله السموات والارض ، وكانت الارض غير مدحوة وخالية) ، هذا يدل على ما كانت عليه الارض قبل دحوها (المراد بالدحو ، البسط والاعداد لسكنى الانسان والحيوان) .

(وكانت الظلمة على وجه الغمر) معنى ذلك كما يراه العالم الفلكي : ان معظم البحور المحيطة كان فى الجو على شكل سحاب كثيف لا يمكن ان يخترقه الضوء ليصل الى الارض .

(وقال الله ليكن نور فكان نور) ، شرحه : انقشعت السحب وتلاشت ، وبردت الارض ، ونتج عن دوران الارض وجود الليل والنهار .

وقال الله ليكن رقيع فى وسط المياه) شرحه : ومن بين المياه التي كانت تغطي وجه الارض كله ، ارتفعت القارات وظهرت الارض اليابسة ، ونشأ الهواء فوق الارض .

(وقال الله لتخرجن الارض نباتا ، عشبا يحصل منه بزر) شرحه : لاحظ ان النبات ذكر قبل حياة الحيوان .

وخلق الله نورين عظيمين ، وخلق الكواكب ايضا) شرحه : وصارت الشمس والقمر من خلال السحب ، ولما انقشعت السحب انقشاعا تاما ، ظهرت الكواكب (ايضا) .

(وقال الله لتخرج المياه دواب متحركة حية كثيرة وطيرا تطير فوق الارض فى جو السماء) شرحه: كل الحياة المتحركة اصلها من الماء .

اوقال الله لتخرج الارض المخلوقات الحية انواعا بهائم وزواحف ودواب الارض) شرحه: وجد الحيوان على وجه الارض بعد ان صارت البحار مأهولة .

(وقال الله نخلق الانسان على صورتنا ونعطيه الحكم على جميع الحيوان . وبارك عليهم وقال لهم تناسلوا واكثروا) شرحه : كل هذا وقع وصار الحكم للانسان .

(قد اعطيتكم كل بقل اخضر قوتا لكم) شرحه : هذا كلام مدهش في علم الاحياء ، اذا اعتبرنا الوقت الذي كتب فيه ، وهو صحيح ومطابق لما اكتشفه العلم تمام المطابقة ، وما جاء منه في العشب الاخضر لم تثبت صحته من الوجهة العلمية الا بعد اكتشاف (الكلوروفيل) وثبتت الحقيقة القائلة ان الحياة كلها متوقفة على النبات الاخضر .

واذا كان الامر كذلك فلا ينبغي ان نتخاصم على التفاصيل التي نشأت عن الترجمة وعما ادخله الانسان ، وعلى السؤال في كيفية خلق الله للعالم ، او على الزمان الذي استغرقه ذلك الخلق ، ان الحقائق التي تقدم ذكرها قد عبرت الازمنة الطوال حتى وصلتنا وهي حقائق لاشك فيها .

يمكن ان نضع نظرية تبين ان جميع الاشياء المتصفة بالحياة تطورت من خلية اصلية ، غير ان العلم يقف هناك ، ويمكننا ان نتفق مع المفكرين العظام الذين ادت مباحثهم وجهودهم الى ان اعطونا صورة حقيقية للوقائع الطبيعية في الحياة المادية ، ولكن لسنا مضطرين الى ان نقف حيث وقفوا ، لانهم لم يستطيعوا بعد ان يروا يد الله عاملة لذلك ، ان العالم (الواقف عند المادة) لا يستطيع ان يثبت كما لا يستطيع ان ينفي وجود الروح او وجود الخالق الاعلى ، ولكنه يشعر في قرارة نفسه بقوة الفكر والذاكرة والاراء التي تصدر عن ذلك الشيء الذي تسميه بالنفس ، وهو يعلم يقينا ان الهامه لم يات من المادة ، وليس للمباحث العلمية حق ولا مطالبة باصدار الحكم النهائي حتى تستطيع تلك المباحث ان تقول الكلمة الاخيرة في ختام البحث الذي لا معقب له .

تعليقات :

1) لقد اعترف هذا العالم الكبير المتضلع في علوم الطبيعة والهيئة وغيرها من العلوم الكونية ، ان ما انزله الله على نبيه موسى من صفة خلق السموات والارض مطابق لما وصل اليه علم الباحثين في العصور المتطاولة الى يومنا هذا ، ثم شرح نصوص التوراة واوضح تلك المطابقة ايما ايضاح ، فالله الذي خلق هذا العالم ، هو الذي انزل الكتب على رسله واخبرهم باسرار خلقه ، فلا غرابة عند المؤمن الصادق ولا مفاجاة في ان يرى العلوم الكونية تنزل عن كبريائها وتمد يد المصافحة بغاية الاحترام لعلوم الوحي ، وقد سبق الفيلسوف العربي الامام ابن رشد الى سلوك هذا الطريق الذي سلكه بعده مورسن بنحو تسعمائة سنة ، فالف كتابا اقام فيه البرهان على مطابقة الحكمة للشريعة ، ومن شاء ان يطلع على ذلك فليقرا المقالات التي ينشرها الان الاستاذ عبد اللطيف ملين على صفحات هذه المجلة تحت الترجمة التالية (نظرية ابن رشد ، في التوفيق بين الشريعة والفلسفة) والكتاب الذي الفه ابن رشد في هذا الموضوع منشور ومطبوع يمكن الوقوف عليه ، وهذا موضع خلاف بينه وبين ابي حامد الغزالي جرت بينهما فيه معركة جدلية خلفت وراءها بحوثا قيمة في كتابيهما : تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت .

وقد جاء في كتاب الله القرآن الكريم الذي انزله على عبده ورسوله محمد (ص) من الايات في بدء الخلق ما انزله على عبده موسى ، قال تعالى في سورة فصلت : قل ائنكم لتفكرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين (9) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين (10) ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين (11) فقضاهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (12)

وقال تعالى في سورة النازعات : أانتم اشد خلقا ام السماء بناها (27) رفع سمكها فسواها (28) واغطش ليلها واخرج ضحاها (29) والارض بعد ذلك دحاها(30) اخرج منها ماءها ومرعاها (31) والجبال ارساها (32) متاعا لكم ولانعامكم (33) .

2) قوله : غير مدحوة ، جاء في سورة النازعات (والارض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها والجبال ارساها متاعا لكم ولانعامكم) وفي سورة والشمس وضحاها : (والارض وما طحاها) ، ويقال في صفة الجاهل : ليس يعرف ما طحاها) ودحاها وطحاها معناهما بسطها ومهدها بجعلها صالحة لسكنى الناس والحيوان الاعجم ، وقد كان خلق الارض

متقدما على زمان دحوها كما صرحت به الاية ، وكذلك يقول علماء الهيئة فيما يفترضونه للكشف عن خلق الارض ، فقد قالوا : ان الارض انفصلت عن الشمس ، وكانت حرارتها عند ذلك اثنى عشر الف درجة مأوية، وبقيت ملايين من السنين لا يعلم قدرها الا الله قبل أن تبرد ، ثم بقيت بعد ما بردت زمانا طويلا قبل ان تدحى وتمهدايتبسط ، ثم بعدالدحواخرجالله منهاماءهاوانبت مرعاها ، وبعد ذلك خلق الحيوان والانسان ليستمتع بما انبتته الارض كل من عليها من انسان وحيوان ، وهذا ما نطقت به الاية ، وليس من قصدنا ان نخضع آيات القرءان لنظريات العلماء ، لان القرءان متبوع غير تابع ، ولانه لا يتبدل ولا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بخلاف نظريات العلماء ، ولكن لما كان الاتفاق بين الايات وبين ما وصل اليه بحثهم ظاهرا نبهنا عليه.

3) قوله : ولكن لسنا مضطرين الى ان نقف حيث وقفوا .. الخ . هذا كلام يجب ان تتلقاه بما يستحقه من العناية والاهتمام ، لان ضعاف العقول المقلدين للعلماء الاوربيين سنوا لانفسهم سنة بليدة جامدة ، وهي انهم كلما سمعوا قضية علمية عرضوها على ما تلقوه من اولئك الباحثين ، فان ظهر لهم انها موافقة له قبلوها ، وان لم يجدوها فيما تلقوه نبذوها وحاربوها ، فيقال لهم ، لو كانوا يعقلون ، انتم لم تحيطوا علما بجميع نتائج الباحثين ، والباحثون لم يدعوا قط انهم احاطوا بكل شيء علما وانهم وصلوا الى نهايته ، وفي المثل اذا اتسع علم المرء قل انكاره ، وقيل لاحد المعاندين المعارضين ، هل احطت بالعلم كله ؟ او احاط استاذك به ؟ ، فقال : لا . ثم قيل له : هل احطتما بنصفه، فقال : لا . فقيل له : هذا اعتراف منك بانك واستاذك لم تؤتيا من العلم الا قليلا فكيف جزمت بنفي هذه القضية ، وانت لا تعرف من العلم الا قليلا ، فهل جعلتها من القسم الذي لا تعلمه ، وهو الاكثر باعترافك فسقط في يده . وهنا ظهر لي ان استطرد ـ كما هي عادتي ـ واذكر حكاية لا تخلو من طرافة وعبرة مع شيء من الشبه بما تقدم ، وذلك اني كنت في مدينة بمباي بالهند سنة 1343 للهجرة ، وكنت قاصدا الرجوع الى المغرب على طريق بغداد فدمشق فمصر ، فذهبت بجواز سفري الى السفير البريطاني ليمنحني سمة الدخول الى العراق ، فاخبرت ان ذلك ممنوع ، والسبب في ذلك ان الدولة التركية كانت تطالب بلواء الموصل لتضمه الى اراضيها ، وكانت دولة الانتداب وهي بريطانية تمانع في ذلك ، فلذلك منعت دخول الاجانب الى بلاد العراق ، فلما يئست من ذلك عزمت على التوجه الى مصر راسا ، وكان غرضي من زيارة العراق لقاء رجلين اثنين من العلماء السلفيين ، احدهما الشيخ محمد بن امين الشنقيطي في الزبير بناحية البصرة ، والثاني السيد محمود شكري الالوسي في بغداد ، وكنت جالسا في مبيع كتب الشيخ شرف الدين الكتبي فدخل شاب في نحو الثانية والعشرين يرتدي ثيابا هندية ، ولكنهافاخرة جدا بعدما ترك سيارته عند الباب ، وكانت السيارات في ذلك الزمن عزيزة لا يقتنيها الا اهل الثروة الكبرى فقام الحاضرون جميعا لاستقباله ، وكنت اطالع كتابا فلم اتحرك من مكاني ولم اعبأ بمجيئه ، وتلك عادتي مع الاغنياء الذين لا استفيد شيئا من غناهم، وقد شذذت في ذلك عن القاعدة التي اشار اليها ابن دريد في مقصورته بقوله في وصف الناس :

عبيد ذي المال وان لم يطعموا
من ماله في جرعة تشفي الصدى

وقال غيره :

رايت الناس قد مالوا ... الى من عنده مال
رايت الناس قد ذهبوا ... الى من عنده ذهب
رايت الناس منفضة ... الى من عنده فضة
ومن ما عنده فضة ... فعنه الناس منفضة

واقوال الادباء في هذا كثيرة لا اطيل على القارىء بها ، لاني اخشى ان ينفد صبره ، ثم جلس الفتى والحاضرون يتنافسون في التقرب اليه والدنو منه ويعرضون عليه ما طبع حديثا من الكتب ، ثم توجه الى الشيخ شرف الدين وكان يعلمه النحو وسأله عن قوله تعالى : (وامرأته حمالة الحطب) لماذا نصب الوصف مع ان الموصوف مرفوع ، فقال الشيخ شرف الدين : ان هذا الاستاذ المغربي هو اعلم مني بالنحو واشار الى ، فالتفت ذلك السري الي وقال لي : انت من المغرب ؟ قلت : نعم . فقال لي ما تقول في هذه المسألة ؟ فقلت : يجوز في حمالة الرفع على النعت والنصب على الذم بفعل مضمر وبهما قرىء في السبع فدعا بالبيضاوي وقرا اعرابه لتلك الكلمة فوجده مطابقا لما قلت له فاعجبه ذلك ، واستمر يسألني عن مسائل مختلفة في علم الادب واجيبه وبقي على ذلك نحو ساعتين ثم انصرف ، واخذ معه الشيخ شرف الدين ليصله الى بيته في السيارة ، وفي اثناء الطريق ساله عني فاخبره بما عزمت عليه من زيارة العراق وتعذر ذلك علي ،

فقال له انا آخذه بلا جواز فان شاء ان يبقى عندي استفيد من علمه اجعل له راتبا طيبا واكرم مثواه ، وان اراد ان يسافر الى اي بلد سهلت له ذلك ، فجاء الشيخ شرف الدين واخبرني بذلك وسالني هل اقبل ذلك ام لا ؟ فقلت له لا ينبغي لك ان تشك في ذلك ، فلو لم يكن فيه الا دخول العراق الذي منعتني منه السفارة البريطانية لقبلته شاكرا ، ثم بعد ذلك كنت اسير في شوارع بمباي ومعي شاب من نجد ، فمر ذلك الفتى وهو الشيخ مصطفى آل ابراهيم اطال الله بقاءه وادام ارتقاءه فوقف سيارته ونزل منها وجاء فسلم علي وسأل عن الحال ، وقال لي هل بلغك الشيخ شرف الدين ؟ فقلت : بلغني وقبلت شاكرا ، فقال لي بعد شهر من هذا اليوم تسافر ان شاء الله ، فلما انصرف قال لي رفيقي : هذا امر عجيب كيف نزل الشيخ مصطفى آل ابراهيم من سيارته وجاء ماشيا حتى سلم عليك ، ونحن هنا عندنا الشيخ عبد الرحمن القصيبي لو مر بسيارته ووقفها ودعا احد علمائنا لجاءه فرحا مسرورا الى السيارة ولم يحوجه الى النزول ، فقلت له : اني لم اخضع له حين لقيته واحترمت نفسي وعلمي فاحترمني :

وما المرء الا حيث يجعل نفسه
ففي صالح الاعمال نفسك فاجعل

وذلك من توفيق الله سبحانه ، ولما وصل الاجل المحدد اجتمعت به فقال لي : ان معي في جواز السفر سبعة من الخدم وساسميك باسم احدهم وابعثه عنو في سفينة شراعية من سفن التجارة ، فاذا سالك مفتش الجواز عند الصعود الى الباخرة عن اسمك فقل له اسمي حسن الحنيان ، فقلت له ارجو ان تعفيني من هذا فاني لا اكذب فضحك ضحكا كثيرا علي طبعا وقال لي انت عربي تريد ان تسافر الى بلد عربي ، والانكليز اجانب لاحق لهم في التصرف في شؤون البلاد العربية ، فماذا يضيرك اذا كذبت على المفتش الانكليزي لتتوصل الى حقك والحرب خدعة ، فقلت لا استطيع فضحك مرة اخرى وقال لي هل تستطيع السكوت ، فقلت نعم بلا شك ، فقال لي اذا سألك المفتش فاسكت فصعد هو سلم الباخرة وصعدت خلفه والخدم الستة خلفي ، فلما استوينا على ظهرها رايت رجلا انكليزيا يستلم اجوزة السفر فقدمت له الشيخ مصطفى جوازه فنظر الى اسماء الخدام وقال لي ما اسمك فسكتت فاجاب هو : هذا حسن الحنيان وذهبنا وتركنا الخدام الاخرين يجيبون عن انفسهم ، وكان السفر على نفقته طبعا ، وبعد العصر دعاني الى مكانه في الباخرة وسالني هل تستطيع ان تقول شعرا ؟ فقلت نعم ، وانشدته بعض ما حضرني من نظمي ، فاقترح علي تشطير قصيدة شوقي التي يقول في مطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء
والجواري يغرهن الثناء

ولم اكن احفظها فكتبها لي فذهبت الى مكاني من الباخرة وشطرتها تشطيرا اعجبه واذكر هنا تشطير البيت الاول :

خدعوها بقولهم حسناء
وامتداح الكواعب استهواء

فرنت للوصال بعد نفور
والغواني يغرهن الثناء

فلما وصلت الى البيت التالي عجزت عن تشطيره لاني وجدته حلقة مفرغة لا يمكن فصل بعض اجزائه عن بعض ، وهو قوله :

نظرة فابتسامة فسلام
فكلام فموعد فلقاء

ومع ذلك شطرته تشطيرا لم يعجبني . ولم افهم معنى هذا البيت حتى اقمت في اوربا زمانا فرايت معناه يطبق بالفعل في كل مكان ... وعلمت حينئذ فقط علم اليقين ان شوقي اخذ معناه من الواقع الاجتماعي في اوربا حين كان يدرس فيها على ان شوقي من اشد المحافظين في شعره ونثره وابعد الناس عن التقليد لاساليب الشعر الاوربي ، الا انه اقتبس مما شاهده وقراه من المعاني الشيء الكثير ، واما الالفاظ فانه تجنب كلما يخدش وجه بلاغتها ، وهذا شان الفحول ، واري ان امسك عنان القلم وارجيء الباقي الى التلاقي على صفحات دعوة الحق .

مكناس — تقي الدين الهلالي

دواء الشاكين وقامع المشككين

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 24 -

شعور الانسان من اول نشأته بوجود الله سبحانه وشمول ربوبيته

قال المؤلف : ان هناك حقيقة لا ريب فيها ، وهي ان الانسان في كل مكان وفي كل زمان منذ ابتدا خلقه الى يومنا هذا ، قد شعر بحافز يدعوه الى ان يستعين بشيء يعتقد هو أنه اسمى منه واجل واعظم ، يدلنا ذلك على ان الدين فطري فيه ، ويجب ان يعترف العلم بذلك . وسواء احس الانسان في باطنه ان في الخارج صورة قادرة على الضر والنفع ام لا ، فليس ذلك هو المهم . وانما المهم انه في قرارة نفسه يشعر بما يدفعه الى الاعتراف بوجود الله العلي العظيم . ونحن الذين اوتينا معرفة العالم لا ينبغي لنا ان ننظر نظرة ازدراء الى قلة علم الذين سبقونا في طلب معرفة الحق ، او الذين لا يعرفون الآن الحقيقة كما نعرفها نحن . بل ينبغي لنا ان نرتاح ونغتبط ونعجب عندما نرى ان البشر في جميع انحاء العالم يطلبون معرفة الخالق الاعلى ويؤمنون به . اليست روح الانسان هي التي تشعر باتصالها برب العالمين) . أم نخاف ان نؤكد ان الحافز الديني الذي لايوجد الا في الانسان هو جزء من الكائن الاعلى كسائر صفاته ؟ ان وجود هذا الحافز لبرهان على قصد العناية الربانية ، وكذلك عقل الانسان المادي العجيب الذي يكمن في احساسه .

ان الذرات والجزئيات التي يشتمل عليها جسم الانسان ليس لها فكر البتة ، وكذلك اتحاد العناصر لم يصدر عنه راي قط . ولم يكن في امكان اي قانون من قوانين الطبيعة ان يبني كنيسة . ولكن كائنات حية قد خلقت تبعا لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تشتمل على شيء تطيعه جزئيات المادة بدورها ، وكل ما نراه من عجائب المدنية هو نتيجة لذلك . فما هو هذا الكائن الحي ؟ أهو ذرات وجزئيات ؟ نعم . وماذا غير ذلك ؟ شيء لايدرك باللمس ، لانه اعلى من المادة بكثير الى حد أنه يسيطر على كل شيء ، وهو مختلف جدا عن الشيء المادي الذي خلق منه العالم ، حتى انه لايمكن ان يرى او يوزن او يقاس . وليس له فيما نعلم قوانين تحكمه . ان روح الانسان (هي سيدة مصيره) ، ولكنها تشعر باتصالها بالمصدر الاعلى لوجودها . وقد اصدرت للانسان قانونا للاخلاق لايوجد عند اي حيوان آخر ولا حاجة له به . فاذا سمى احد ذلك الوجود فضلة لتركيبات المادة ، لاننا لانعلم حقيقته بأسلوب الاختبار ، كان ذلك دعوى خالية من البرهان . انه موجود ، ويبرهن على وجوده باعماله ، وبما يبذله ، وبسيطرته على المادة ، وفوق ذلك كله ، بقدرته على رفع الانسان المادي من ضعف البشرية وضلالها الى موافقة ارادة العلي الاعلى . هذه حقيقة مراد الله سبحانه . وفيها ايضاح للاشتياق الكامن في الانسان، للاتصال باشياء هي اعلى منه ، وفيها كشف لاساس الداعي الديني في الانسان . وذلك هو الدين .

والعلم يعترف ويشهد أتم شهادة بان الانسان تواق الى اشياء اعلى منه ، الا انه لايهتم كثيرا باختلاف العقائد ، وان كان يرى انها كلها طرق يقصد بها الوصول الى معرفة الله . والذي يراه العلم ويعرفه جميع المفكرين ، انااعتقاد عموم البشر بوجود الله العلي الاعلى له قيمة عظيمة لا حد لها .

ان تقدم الانسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب ، انما هما نتيجة الايمان بالله والاعتقاد بالخلود . ان قوة التدين تصفي روح الانسان وترفعه

و ا : الاوقاف والشؤون الدينية
رقم

درجة بعد درجة حتى يصير من العارفين بالوجدان الواصلين الى حضرة القدس . ان الانسان مفطور على الاستعانة بالله والابتهال اليه ، وكلما دعا الله ازداد منه قربا . ان الوقار ، والكرم ، والنبل ، والخلق الحسن ، والالهام ، وسائر الصفات المرضية عند الله ، لايصدر عنها شيء عند الالحاد والتعطيل ، لانهما اي الالحاد والتعطيل من الرعونات الناشئة عن غرور الفرد الذي يحمله على دعوى المشاركة في الربوبية . متى زال الايمان بالله وصلت المدنية الى الافلاس ، وحلت الفوضى محل النظام ، وتلاشى كل قيد يكبح النفوس عن الاجرام ، وعم الشر والفساد جميع العالم . فدعونا اذن نتمسك ونعتصم بالايمان بالله العلي العظيم ، وبمحبته ، ونتمسك بالاخوة الانسانية التي ترفع انفسنا وتقربها من الله ، وبذلك نطيع الله تعالى ونتبع مرضاته على بصيرة ، ونتقبل تبعة ايماننا واعتقادنا من حيث كوننا خلقه ، جديرين بعنايته . .

ان التقدم الخلقي ينمو ويسير ببطء ، لكن بخطى ثابتة واطمئنان ، يسير بالانسان الى تمام الادراك لعلاقته باخوانه في البشرية ، ويضع المثل العليا التي ترتبط بها الانسانية في النهاية .

ان وجود الانسان على وجه الارض بالنسبة الى الابد الذي لانهاية له لايستغرق الا وقتا قصيرا جدا . وتقصيره عن بلوغ الكمال في الوقت الحاضر ليس الا دورا من ادوار تطوره من تكوين مادي مجرد الى مايمكن ان يصير اليه في النهاية ، وهو ان يكون روحا طاهرة كاملة طيبة . وسيهبنا الله العلي العظيم الوقت الكافي، وفي اثناء تقدمنا الى الامام ينبغي لنا ان نتوجه الى الله بكل ما نستطيعه من التضرع والابتهال باخلاص فنقول : اللهم اهدنا صراطك المستقيم وارفعنا الى مستوى الاخوة الروحية الشاملة لجميع البشر ، وهب لنا القدرة على التقدم في طريق الكمال الروحي ووفقنا لطاعتك ، حتى نكون صالحين لتنفيذ مشيئتك، فانك لم تخلق الانسان لتهمله .

تعليقات

1) قوله ، هو جزء من الكائن الاعلى الخ . قال الله تعالى (والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) روى البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من شهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، وان عيسى عبده ورسوله ، وكلمته القاها الى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، ادخله الله الجنة على ما كان من العمل » في هذا الحديث تفسير وبيان لقوله تعالى (فنفخنا فيها من روحنا) لانه سماه عبد الله ورسوله ، فدل ذلك على ان روح عيسى مخلوقة كسائر الارواح ، وانما اضافها الله تعالى الى نفسه تشريفا وتكريما ، فتعالى الله ان يحل في خلقه او يحل فيه شيء من خلقه . (ان كل من في السموات والارض الا آت الرحمن عبدا) ومن قرا الاناجيل الاربعة ، وكانت عين بصيرته مبصرة يجد فيها التصريح الذي لا لبس فيه بان عيسى عبد الله ورسوله . ومن استراب في ذلك فالعرب بالباب ، فاني مستعد ان انقل له من ذلك ما يروي الغليل ويشفي العليل .

2) قوله ، شيء اعلى من المادة . يريد المصنف بهذا الكلام ان يزيد ما اوضحه من قبل بيانا ويقيم الحجة بعد الحجة ، والبرهان تلو البرهان على فساد مذهب الطبيعيين والماديين . وحاصل ذلك ان جسم الانسان مكون تكوينا عجيبا من الذرات والجزئيات . وقد تقدم تفصيل القول فيها ، ومع كل ما فيها افرادا وتركيبا من الابداع والاتقان ، فان الشيء الوحيد الذي تشرف به الانسان وامتاز به عن الحيوان ، لم يات من تلك الذرات ولا الجزئيات ، لا افرادا ولا تركيبا ، وهو اسمى واجل من ذلك . ولا يستطيع عالم طبعي او مادي أن يدعي انه نتيجة لتفاعل تلك الذرات والجزئيات . وهذا الشيء هو الروح . وهي هبة من الخالق جل وعلا اودعها اسرارا مدهشة ووهب لها الخلود وجعلها حجة على عباده (ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) .

3» قوله ، وان كان يرى انها كلها طرق يقصد بها الوصول الى معرفة الله . بيانه ان الغاية واحدة ، وهي معرفة الله وتوحيده واستمداد العون منه ومراقبته والانس به والاستغناء عن غيره . فتعاليم رسل الله ومن اتبعهم باحسان لاتختلف الا في العبارة ، واما الغاية فهي واحدة .

عباراتنا شتى وحسنك واحد
وكل الى ذاك الجمال يشير

4) قوله . حتى يصير من العارفين بالوجدان . اقول ، او لما يبدا به طالب معرفة الله ، الاستدلال

بالمخلوقات على الخالق ، وقد نبه القرآن الكريم الى ذلك في مواضع كثيرة ، وقد تقدم بعضها ، كقوله تعالى (اولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ، افلا يؤمنون . وجعلنا في الارض رواسي ان تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتها معرضون) ولا يزال الطالب يرتقي في معرفة الله بالاستدلال حتى تحصل له المعرفة الوجدانية الذوقية وتنزل في قلبه السكينة . وذلك هو الذي يعبر عنه العارفون بالوصول الى الله .

5) قوله ، الذي يحمله على دعوى المشاركة في الربوبية . من التعاليم الفاسدة الموجودة عند فريق من الناس في هذا الزمان ، ان الانسان من حيث المجموع هو القوة العظمى التي لانهاية لعظمتها ، وليس وراء هذه القوة قوة اخرى ، وانه بذلك على كل شيء قدير وبكل شيء عليم ، ولا حاجة له ان يستمد العون والقوة الا من نفسه . وهذا هو الذي اشار اليه المصنف بدعوى المشاركة في الربوبية . اقول ، ومن هذا القبيل كان غرور فرعون ملك مصر ، اذ قال انا ربكم الاعلى . ومثله نمرود ملك العراق قال لابراهيم في محاجته له ، انا احيي واميت . والعجب من هذا الفريق اذ يعطي كل هذه القوة الانسان من حيث المجموع ، فانه يحتقره من حيث هو فرد كل الاحتقار ولا يجعل له قيمة اصلا ، وهذا في غاية التناقض . والحق ان خضوع الانسان امام عظمة الله واستمداد العون والقوة منه ليس حطا من شأنه ولا ضعفا ولا عجزا ، بل هو اعظم قوة ترفع الانسان وتسير به الى الامام في طريق الرقي الكامل الحافظ لكرامة الانسان فردا او جماعة .

6) قوله ، ونتمسك بالاخوة الانسانية . الاخوة الانسانية الكاملة هي اجل الغايات التي دعا اليها الانبياء والصالحون من اتباعهم وكذلك فلاسفة الاخلاق، وهي اسمى الغايات الاجتماعية . قال تعالى في سورة الانبياء (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ،) فمحمد رسول الله ارسله الله رحمة لجميع الناس وهو القائل: ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . فيجب على من اراد اتباعه والاقتداء به ان يكون رحمة للعالمين وبذلك تعم المحبة وتتحقق الاخوة والتعاون بين البشر ويتلاشى الشقاق والنزاع ويخسأ شيطان التعصب ويصير الناس الى المدنية الفاضلة .

7) بهذا المقال تتم ترجمة كتاب (ليس الانسان مهملا) للعالم الكبير (كريسي مورسون) مع التعليقات التي فتح الله بها . واني لاشكر ادارة مجلة دعوة الحق التي تفضلت بدعوتي الى كتابة هذه المقالات ، كما ارجو ان تخطو خطوة اخرى فتجمع هذه المقالات وتطبعها وتخرجها كتابا يمكن ان يكون هدية لقراء المجلة تعويضا عن الشهرين اللذين تتوقف فيهما المجلة ، فاني على يقين ان كثيرا من قراء مجلة دعوة الحق وغيرهم سيتلقون هذا الكتاب بغاية الارتياح وجزيل الشكر . وما ذلك على الهمم العالية بعزيز .

وكان ذلك في سادس رجب الحرام سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة والف بمدينة مكناس المحروسة . وصلى الله وسلم على خير خلقه محمد وآله وصحبه .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

دراسات إسلامية

رأي في تحديد النسل والعدوى

للدكتور: تقي الدسيه الهلالي

(*) طالما هممت ان اكتب مقالا وافيا في هذه المسالة ، وقد سئلت عنها كثيرا في العراق وفي المغرب وفي المانيا قبل ذلك ، فلم تزل كثرة الاشغال المتراكمة تدافعني حتى جاءني السؤال المتقدم ذكره من تلميذي العزيز المذكور . فها انا ذا اكتب هذه الفتوى بعد الاطلاع على احوال العصر واهله في اوربا وآسيا وافريقيا وارجو ان يوفقني الله الى اصابة شاكلة الصواب . وسابدا اولا بنقل كلام المتقدمين ، ثم اعود عليه بالنخل والتحليل والتصفية حتى يظهر الحق من بين اختلافهم عسلا صافيا خالصا من الشمع ولبنا سائغا للشاربين . وما ذلك بعزيز على من لايخيب السائلين .

قال الامام الشوكاني في نيل الاوطار ، ممزوجا مع متنه من كتاب المنتقى (باب ما جاء في العزل ص 208 ج 6)

1) عن جابر قال : كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) والقرآن ينزل) متفق عليه . ولمسلم (كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) فبلغه ذلك فلم ينهنا)

2) وعن جابر : (ان رجلا اتى النبي (ص) فقال ان لي جارية هي خادمتنا وساقيتنا في النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل ، فقال : (اعزل عنها ان شئت فانه سياتيها ما قدر لها) رواه احمد وابو داود ومسلم .

3) وعن ابي سعيد قال ، خرجنا مع رسول الله (ص) في غزوة بني المصطلق فاصبنا سبيا من العرب ، فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل ، فسالنا عن ذلك رسول الله (ص) فقال : (ما عليكم ان لا تفعلوا فان الله عزوجل لو اراد ان يخلق شيئا لم يستطع احد ان يصرفه) رواه احمد وابو داود .

4) وعن ابي سعيد قال : قال رسول الله (ص) : (في العزل انت تخلقه ، انت ترزقه ، ؟ اقره قراره فانما ذلك القدر) رواه احمد .

5) وعن اسامة ابن زيد ، ان رجلا جاء الى النبي (ص) فقال : اني اعزل عن امراتي ، فقال له النبي (ص): (لم تفعل ذلك ؟ فقال الرجل : اشفق على ولدها ، او على اولادها ، فقال رسول الله (ص) لو كان ضارا ضر فارس والروم) رواه احمد ومسلم

6) وعن جذامة بنت وهب الاسدية قالت : حضرت رسول الله (ص) في اناس وهو يقول : (لقد هممت ان انهى عن الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس فاذا هم يغيلون اولادهم ، فلا يضر اولادهم شيئا ، ثم سالوه عن العزل ، فقال رسول الله (ص) : ذلك الوأد الخفي ـ واذا الموؤدة سئلت) رواه احمد ومسلم

(*) جاءني السؤال التالي من تلميذي حازم طه الموصلي الطالب في كلية اللغة العربية في الازهر ، وهذا نصه : استاذي العزيز ، اني اعلم كل العلم ان وقتك ضيق واشغالك كثيرة ، ولكني اجد نفسي مضطرا لاسالك واطلب ابداء رايك في موضوع حصل له ضجة كبيرة هذه الايام ، وكتب الصحفيون عنه كثيرا من غير فقه وهدى من الكتاب والسنة ، وهو تحديد النسل ، فهل يجوز ام لا . وان كان جائزا فما هي الاسباب التي تجوزه . فارجو ان تطنب باجابتك على نمط مقالك العظيم الذي نشرته في مجلة الهدي النبوي بعنوان : الجهاد روح الدين .

7) وعن عمر بن الخطاب قال : (نهى رسول الله (ص) ان يعزل عن الحرة الا باذنها) رواه احمد وابن ماجه وليس اسناده بذلك .

حديث ابي سعيد الثاني ، اخرجه ايضا الترمذي والنسائي . قال الحافظ ، ورجاله ثقات . وقال في مجمع الزوائد ، رواه البزار وفيه موسى بن وردان وهو ثقة وقد ضعف ، وبقية رجاله ثقات . واخرج نحوه النسائي من حديث جابر وابي هريرة . وجزم الطحاوي بكونه منسوخا وعكسه ابن حزم . وحديث عمر بن الخطاب في اسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف ، ويشهد له ما اخرجه عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عباس قال : (نهى عن عزل الحرة الا باذنها) وروى عنه ابن ابي شيبة انه كان يعزل عن امته . وروى البيهقي عن ابن عمر مثله . ومن احاديث هذا الباب عن انس عن البزار وابن حبان وصححه ، ان رجلا سال عن العزل ، فقال النبي (ص) لو ان الماء الذي يكون منه الولد اهرقته على صخرة لاخرج الله منها ولدا ، وله شاهدان في الكبير للطبراني عن ابن عباس ، وفي الاوسط له عن ابن مسعود (قوله كنا نعزل) ، العزل : النزع بعد الايلاج لينزل خارج الفرج . قوله (والقرآن ينزل) :فيه جواز الاستدلال بالتقرير من الله ورسوله على حكم من الاحكام ، لانه لو كان ذلك الشيء حراما لم يقررا عليه ولكن بشرط أن يعلمه النبي (ص) . وقد ذهب الاكثر من اهل الاصول على ما حكاه في الفتح الى ان الصحابي اذا اضاف الحكم الى زمن النبي (ص) كان له حكم الرفع ، قال ، لان الظاهر ان النبي (ص) اطلع على ذلك واقره لتوفر دواعيهم على سؤالهم اياه عن الاحكام ، قال ، وقد وردت عدة طرق تصرح باطلاعه على ذلك . واخرج مسلم من حديث جابر قال (كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) ، فبلغ ذلك نبي الله فلم ينهنا) ووقع في حديث الباب المذكور الاذن له بالعزل ، فقال ، (اعزل عنها ان شئت) قوله ما عليكم ان لا تفعلوا ، وقع في رواية في البخاري وغيره (لا عليكم ان لا تفعلوا) قال ابن سيرين ، هذا اقرب الى النهي . وحكى ابن عون عن الحسن انه قال : والله لكان هذا زجرا . قال القرطبي ، كان هؤلاء فهموا من لا ، النهي عما سالوا عنه . فكانه قال ، لاتعزلوا وعليكم ان لا تفعلوا ويكون قوله (وعليكم) الى آخره تاكيدا للنهي . وتعقب بان الاصل عدم هذا التقرير وانما معناه ليس عليكم ان تتركوا وهو الذي يساوي ان لا تفعلوا ، وقال غيره ، معنى لا عليكم ان لا تفعلوا ، اي لا حرج عليكم ان لاتفعلوا ، ففيه نفي الحرج عن عدم الفعل . فافهم ثبوت الحرج في فعل العزل . ولو كان المراد نفي الحرج عن الفعل لقال ، لا عليكم ان تفعلوا ، الا ان يدعى ان لا زائده ، فيقال ، الاصل عدم ذلك .

وقد اختلف السلف في حكم العزل . فحكى في الفتح عن ابن عبد البر انه قال ، لاخلاف بين العلماء انه لا يعزل عن الزوجة الحرة الا باذنها ، لان الجماع من حقها ولها المطالبة به ، وليس الجماع المعروف الا ما لا يلحقه عزل . قال الحافظ ، ووافقه في نقل هذا الاجماع ابن هبيرة . قال ، وتعقب بان المعروف عند الشافعية انه لا حق للمراة في الجماع ، وهو ايضا مذهب الهادوية فيجوز عندهم العزل عن الحرة بغير اذنها على مقتضى قولهم ، انه لا حق لها في الوطء ، ولكنه وقع التصريح في كتب الهادوية بانه لايجوز العزل عن الحرة الا برضاها ، ويدل على اعتبار الاذن من الحرة حديث عمر المذكور ، لكن فيه ما سلف . واما الامة فان كانت زوجة فحكمها حكم الحرة . واختلفوا هل يعتبر الاذن منها او من سيدها ، وان كانت سرية فقال في الفتح ، يجوز بلا خلاف عندهم ، الا في وجه حكاه الروياني في المنع مطلقا كمذهب ابن حزم ، وان كانت السرية مستولدة فالراجح الجواز فيها مطلقا ، لانها ليست راسخة في الفراش . وقيل حكمها حكم الامة المزوجة . (قوله كذبت يهود) فيه دليل على جواز العزل ، ومثله ما اخرجه الترمذي وصححه عن جابر قال (كانت لنا جوار وكنا نعزل ، فقالت اليهود ، ان تلك المؤودة الصغرى ، فسئل النبي (ص) عن ذلك فقال: (كذبت اليهود لو اراد الله خلقه لم يستطع احد رده) واخرج نحوه النسائي من حديث ابي هريرة ، ولكنه يعارض ذلك ما في حديث جذامة المذكور من تصريحه صلى الله عليه وسلم بان ذلك الواد الخفي . فمن العلماء من جمع بين هذا الحديث وما قبله فحمل هذا على التنزيه ، وهذه طريقة البيهقي ومنهم من ضعف حديث جذامة هذا لمعارضته لما هو اكثر منه طرقا . قال الحافظ ، وهذا دفع للاحاديث الصحيحة بالتوهم . والحديث صحيح لاريب والجمع ممكن . ومنهم من ادعى انه منسوخ ، ورد بعدم معرفة التاريخ . وقال الطحاوي ، يحتمل ان يكون حديث جذامة على وفق ما كان عليه الامر اولا من موافقة اهل الكتاب فيما لم ينزل عليه ، ثم اعلمه الله بالحكم . فكذب اليهود فيما كانوا يقولونه . وتعقبه ابن رشد وابن العربي بان النبي (ص) لا يحرم شيئا تبعا لليهود ثم يصرح بتكذيبهم فيه . ومنهم من رجح حديث جذامة بثبوته في الصحيح وضعف مقابله بالاختلاف في اسناده والاضطراب . قال الحافظ ، ورد بانه يقدح في حديث ، لا فيما يقوي

بعضه بعضا فانه يعمل به وهو هنا كذلك والجمع ممكن . ورجح ابن حزم العمل بحديث جذامة بأن احاديث غيرها موافقة لاصل الاباحة ، وحديثها يدل على المنع . قال ، فمن ادعى انه ابيح بعد ان منع فعليه البيان . وتعقب بأن حديثها ليس بصريح في المنع ، اذ لا يلزم من تسميته وادا خفيا على طريق التشبيه ان يكون حراما . وجمع ابن القيم فقال ، الذي كذب فيه صلى الله عليه وسلم اليهود هو زعمهم ان العزل لا يتصور معه الحمل اصلا وجعلوه بمنزلة قطع النسل بالواد فاكذبهم ، واخبر انه لا يمنع الحمل اذا شاء الله خلقه ، واذا لم يرد خلقه لم يكن وادا حقيقة . وانما سماه وادا خفيا في حديث جذامة ، لان الرجل انما يعزل هربا من الحمل فاجرى قصده لذلك مجرى الواد . لكن الفرق بينهما ان الواد ظاهر بالمباشرة اجتمع فيه القصد والفعل . والعزل يتعلق بالقصد فقط . فلذلك وصفه بكونه خفيا ، وهذا الجمع قوي . وقد ضعف ايضا حديث جذامة ، اعني الزيادة التي في آخره بانه تفرد بها سعيد بن ابي ايوب عن ابي الاسود . ورواه مالك ويحيى بن ايوب عن ابي الاسود فلم يذكراها ، وبمعارضتها لجميع احاديث الباب . وقد حذف هذه الزيادة اهل السنن الاربع . وقد احتج بحديث جذامة هذا من قال بالمنع من العزل كابن حبان. (قوله اشفق على ولدها) هذا احد الامور التي تحمل على العزل . ومنها الفرار من كثرة العيال والفرار من حصولهم من الاصل . ومنها خشية علوق الزوجة الامة لئلا يصير الولد رقيقا . وكل ذلك لايفي شيئا لاحتمال ان يقع الحمل بغير الاختيار . (قوله ان انهى عن الغيلة بكسر الغين المعجمة بعدها تحتية ساكنة ، ويقال لها الغيل بفتح الغين والياء . والغيال بكسر الغين المعجمة؛ والمراد بها ان يجامع امراته وهي مرضع . وقال ابن السكيت ، هي ان ترضع المراة وهي حامل ، وذلك لما يحصل على الرضيع من الضرر بالحمل حال ارضاعه ، فكان ذلك سبب نهيه صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لما راى النبي (ص) ان الغيلة لا تضر فارس والروم ترك النهي عنها .

بحث فيما تقدم وفيه مسائل

الاولى ، تعارضت الاحاديث في النهي عن العزل ، وهو منع المني عند الجماع ان يصل الى رحم المراة خوفا من ان تحمل ، فترتب على ذلك اختلاف الصحابة فمن بعدهم . الثانية ، انقسم الناس في هذه القضية ثلاثة اقسام ، قسم منعوه مطلقا ، ومن هذا القسم من قيد المنع بالحرائر واباحه في الاماء السريات ، اي الموطوءات بملك اليمين . وقسم اباحوه . وقسم قالوا بكراهة التنزيه ، يعنون ان من تركه اتيب على تركه ، ومن فعله لم يأثم . واهل هذا القسم ارادوا الجمع بين الاحاديث ، فحملوا النهي على كراهة التنزيه ، وما ورد في الاباحة اثبتوا به حكمها . ومن المانعين من ادعى نسخ احاديث الاباحة . ومن المبيحين من عكس فادعى نسخ ما ورد في النهي . الحديث الاول عن جابر ، (كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل) متفق عليه . ولمسلم ، (كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغه ذلك فلم ينهنا) . لا حجة في هذا الحديث للقائلين بالاباحة لثبوت النهي عن النبي (ص) من وجه صحيح كما سياتي . ومن سمع حجة على من لم يسمع متى بلغه ذلك .

الثاني من جابر ايضا ، ان رجلا اتى النبي (ص) فقال ، ان لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل ، فقال ، (اعزل عنها ان شئت فانه سياتيها ما قدر لها) هذا الحديث ايضا لا حجة فيه للقائلين بالاباحة المطلقة ، لان السائل اخبر النبي (ص) بان تلك الجارية كانت خادمة لهم في البيت وفي النخل ، لانها كانت تسقيه لهم بدل البعير ، لان السانية هي الناقة التي يسقى عليها النخل والارض . فهذا الحديث انما يبيح العزل لسبب وحاجة يلحق الرجل ضرر كبير اذا فقدها ، فهذه المراة كانت تخدمهم في بيتهم وتسقي لهم جنتهم من النخيل فمعيشتهم متوقفة عليها ، ولو حملت لتعطلت عن العمل وتتعطل بذلك معيشتهم . اضف الى ذلك انهم فقراء ، قربما احتاجوا الى بيعها ، ولو حملت لامتنع بيعها فتكون الخسارة اعظم .

الحديث الثالث ، عن ابي سعيد قال ، خرجنا مع رسول الله (ص) في غزوة بني المصطلق ، فاصبنا سبيا من العرب ، فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل ، فسالنا عن ذلك رسول الله (ص) فقال؛ (ما عليكم ان لاتفعلوا فان الله عز وجل قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة) هذا من احاديث النهي ، الا انه ورد بصيغة مخففة ، زاده بيانا قول النبي (ص) فان الله قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة ، اي لاتفعلوا فان فعلكم لايرد مشيئة الله . وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم لابي هريرة حين استاذنه في الاختصاء ، جف القلم بما انت لاق ، فاختص على ذلك او فذر . . وقريب منه قوله تعالى : (وما عليك ان لا يزكى) اي

ليس عليك زكاته ، اي طهارته من الشرك اذا عدمت فلا حرج عليك فيها فقد ابلغته وبرئت ذمتك ، فدعه واقبل على الاعمى الذي جاءك راغبا مسترشدا . ولا يمكن ان يفهم من هذه العبارة الجواز ابدا .

الحديث الرابع ، عن ابي سعيد قال ، قالت اليهود ، العزل المؤودة الصغرى ، فقال النبي (ص) (كذبت يهود ، ان الله عز وجل لو اراد ان يخلق شيئا لم يستطع احد ان يصرفه .

يجب تأويل هذا الحديث جمعا بينه وبين ما ياتي ، فأقول وبالله التوفيق : يحمل تكذيب النبي (ص) لليهود على انه لم يكن يعلم في ذلك الوقت ان العزل واد خفي ، ثم اعلمه الله بذلك ، او على ان تكذيبه لهم لزعمهم ان العزل يمنع ما اراده الله وقدره من الولد . ويدل على ذلك قوله : ان الله عز وجل لو اراد ان يخلقه لم يستطع احد ان يصرفه . فلا حجة فيه على اباحة السعي في منع الحمل بلا سبب مبيح لذلك .

الحديث الخامس ، وعن ابي سعيد قال ، قال رسول الله (ص) في العزل انت تخلقه ؟ انت ترزقه ؟ اقره قراره ، فانما ذلك القدر (من الاحاديث الدالة على المنع من العزل ، ولا سيما اذا كان العازل يقصد منع الحمل خوفا من الفقر وعدم القدرة على النفقة ، لان المتكفل بالرزق هو الله تعالى ، لا الاب ولا الام ولا ولاة الامور . وقوله عليه السلام ، اقره قراره ، اي دع المني يستقر في قراره الذي جعله الله له ، لان الله هو الخالق الرازق فلا تتدخل فيما لايعنيك ايها الانسان واعرف قدرك وعجزك عن رزق نفسك فكيف برزق غيرك ؟

الحديث السادس ، عن اسامة بن زيد ان رجلا جاء الى النبي (ص) فقال ، اني اعزل عن امراتي ، فقال له صلى الله عليه وسلم ، لم تفعل ذلك ، فقال له الرجل ، اشفق على ولدها او على اولادها ، فقال رسول الله (ص) ، لو كان ضارا ضر فارس والروم) . هذا الحديث ايضا من احاديث المنع من العزل مع ان الرجل السائل فعل ذلك لسبب وجيه في نظره ، وهو الفيل ، خاف ان تحمل امراته وهي ترضع فيضر ذلك ولدها الرضيع . وفيه فائدة زائدة ، وهي ان النبي (ص) كان يرد الامور التي لم ينزل عليه فيها وحي الى اهل العلم بالاختصاص . وفارس والروم في ذلك الزمان كان لهم علم بالطب واصول حفظ الصحة ، ولم يكن مثل ذلك للعرب فتعين رد كل شيء الى اهل العلم به . ولا ينافي ذلك كمال النبي (ص) . يفسر ذلك ما ورد في صحيح مسلم ان النبي (ص) قدم المدينة ، فراى اهلها يلقحون النخل ، فقال ما هذا ؟ قالوا ، شيء تأخذه من ذكور النخل ونجعله في اناثها يصلح عليه الثمر ، فقال ما اراه ينفع ، فتركوا التلقيح ، ففسد الثمر وصار شيخا ، فاخبروا النبي (ص) بذلك فقال ، اذا حدثتكم عن الله فخذوا به ، فاني لا اكذب على الله ، وانتم اعلم بامور دنياكم .

الحديث السابع ، عن جذامة بنت وهب الاسدية قالت ، حضرت رسول الله (ص) في اناس وهو يقول ، لقد هممت ان انهى عن الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس ، فاذا هم يغيلون اولادهم ، فلا يضر اولادهم شيئا ، ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله (ص) ، ذلك الواد الخفي ـ واذا المؤودة سئلت .

هذا الحديث هو اقوى ادلة المنع واصرحها . والواد ان تدفن الطفلة وهي حية . وكانت العرب في جاهليتها تفعل ذلك كما حكاه الله عنهم في سورة النحل رقم 58 \ 59 . (واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون) اخبر سبحانه ان العرب في جاهليتهم اذا اخبر احدهم بان امراته وضعت انثى يحزن لذلك ويغتم اغتماما تظهر على وجهه بسببه غمامة سوداء من الكآبة ويبقى متحيرا لا يدري ما يصنع ، ايمسك تلك الطفلة ويبقى بسببها كئيبا حزينا مهينا ، ام يدفنها في التراب ويستريح من همه وغمه . فما اقبح حكمهم على تلك المولودة البريئة التي هي احق بالرحمة والعطف والاكرام . وقد شبه النبي (ص) العازل بلا سبب وجيه بدافن الطفلة وهي حية . وما احسن ما قاله ابن القيم في شرحه لهذا الحديث ، وانما سماه وادا خفيا في حديث جذامة ، لان الرجل انما يعزل هربا من الحمل فاجرى قصده لذلك مجرى الواد ، لكن الفرق بينهما ان الواد ظاهر بالمباشرة اجتمع فيه القصد والفعل ، والعزل يتعلق بالقصد فقط ، فلذلك وصفه بكونه خفيا

الحديث الثامن ، عن عمر بن الخطاب قال : نهى رسول الله (ص) ، ان يعزل عن الحرة الا باذنها .

هذا الحديث ، دليل قوي على المنع من العزل عن الزوجة الحرة الا باذنها ، فهو منع مقيد . ونحن في هذا الزمان لا يهمنا امر الجارية الموطوءة بملك اليمين . او بالتزوج ، لان الرق لا وجود له في هذا الزمان ، وانما نتكلم في حكم العزل عن الزوجة .

وقال ابن قدامة في المغني ، ج 7 ص 23 ، فصل (والعزل مكروه) ومعناه ان ينزع اذا قرب الانزال فينزل خارجا من الفرج ، رويت كراهته عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود ، وروي ذلك عن ابي بكر الصديق ايضا ، لان فيه تقليل النسل وقطع اللذة عن الموطوءة . وقد حث النبي (ص) على تعاطي اسباب الولد ، فقال : تناكحوا تناسلوا تكثروا ـ وقال: سوداء ولود خير من حسناء عقيم . الا ان يكون لحاجة مثل ان يكون في دار الحرب فتدعو حاجته الى الوطء فيطا ويعزل . ذكر الخرقي هذه الصورة ، او تكون زوجته امة فيخشى الرق على ولده . او تكون له امة فيحتاج الى وطئها والى بيعها . وقد روي عن علي انه كان يعزل عن اماته ، فان عزل من غير حاجة كره ولم يحرم ، ورويت الرخصة فيه عن علي وسعد بن ابي وقاص وابي ايوب وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن علي وخباب بن الارت وسعيد بن المسيب وطاووس وعطاء والنخعي ومالك والشافعي واصحاب الراي .

قوله ، ولا يحرم فيه نظر ، فان الكراهة في اصطلاح السلف ، هي في الغالب للتحريم وخصوصا اذا كانت مبنية على نهي جاء في كتاب الله او سنة رسول الله ، واخص من ذلك اذا كان ذلك النهي مصحوبا بالوعيد ، فلا يجوز ابدا ان تحمل كراهة من ذكر من الصحابة على التنزيه . وقال الامام ابن القيم في زاد المعاد ج 4 / ص 16 / ثبت في الصحيحين عن ابي سعيد قال ، اصبنا سبيا فكنا نعزل ، فسالنا رسول الله (ص) فقال ، وانكم لتفعلون ، قالها ثلاثا ، ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة الا وهي كائنة .

هذا الحديث ، يعزز احاديث النهي ويزيدها قوة ووضوحا ، لان قوله صلى الله عليه وسلم ، وانكم لتفعلون ثلاث مرات استفهام انكاري ، والتكرار فيه مبالغة في الانكار ، وما بعده يزيده وضوحا . ثم قال ، وفي مسند احمد وسنن ابن ماجه من حديث عمر ابن الخطاب قال ، نهى رسول الله (ص) ان يعزل عن الحرة الا باذنها . ثم ذكر مثله من رواية ابن داود عن ابي هريرة عن النبي (ص) . قال تقي الدين الهلالي حديث عمر قد تقدم ولم اتم التعليق عليه ، والآن اتمه ، فاقول: في هذا الحديث تقييد النهي عن العزل عن الحرة ، فهو منع مقيد بشرط ، فمتى اذنت الحرة جاز العزل ، ومتى لم تاذن حرم . ومن نظر في قواعد الاسلام واصوله وفيما جاء عن النبي (ص) وعن اصحابه في هذه المسالة لايجد بدا من القول بتحريم العزل الا لسبب . وهذا السبب قد يكون مبيحا للعزل ، وقد يكون موجبا له ، فان علم الرجل والمراة ان الحمل تترتب عليه مفسدة وضرر لاحد الزوجين او لهما جميعا ، او لاولادهما ، وجب عليهما العزل . وان علما انه لا ضرر في الحمل الا ان فيه مشقة كبيرة لايستطيعان تحملها جاز لهما العزل . ويجدر بي هنا ان اذكر بعض الاسباب التي تبيح العزل او توجبه .

فمما يوجبه ، ان يكون الوطء محرما او شبهة ، ففي هذه الحال يجب العزل ، لان الحمل يغلظ الجريمة ويكون سببا في ولادة ابن زنى . ولا يخفى ما في ذلك من الجناية على ذلك المولود والفضيحة لوالديه ولاقاربهما، وقد يقتلانه بعد الولادة او يقتله احدهما ، فتضاف الى جريمة الزنى جريمة هي اعظم منها ، وهي قتل النفس التي حرم الله . ومن ذلك مرض خطير معد يكون الرجل مصابا به او المراة ، كداء السل ، فمما لاشك فيه ان الغالب متى كان احدهما مسلولا انتقل المرض الى الآخر فسبب له الموت الزوءام بعد مقاساة اعظم الآلام ، فمتى جامع وهو مسلول عالم بالعدوى فقد ارتكب كبيرة من الكبائر ، وان كان جماعه في الشرع حلالا لما يترتب على ذلك من الكارثة التي تحل بالشخص الآخر . وان كانا مصابين بمرض واحد معد كالسل والجذام وما اشبههما وجب عليهما العزل عند الجماع لئلا يجرا شرا على المولود الذي يرث ذلك المرض من والديه . ومن الامراض ما يوجب العزل ، كداء الربو الشديد اذا اصيبت به المراة فان الحمل يزيدها ضيقا في التنفس ، واما ولادتها فيكون فيها خطر الاختناق لشدة ضعفها وضعف قلبها ورئتها عن تحمل آلام الطلق . فان قلت لا نسلم ان كل انسان يخالط شخصا آخر مسلولا يصاب بالسل ، فقد شاهدنا من تزوج بمسلولة وبقي معها مدة طويلة حتى ماتت ولم يصب هو باذى . فالجواب ان ذلك نادر والنادر لاحكم له . قال ابن الخطيب السلماني في رسالته مقنعة السائل عن المرض الهائل بعد ما وصف المعركة التي تقع بين جراثيم المرض المعدي وبين قوات الدفاع التي اودعها الله جسم الانسان وغيره من الحيوان ، قال ابن الخطيب ، ان قيل ما معنى الاستعداد الذي تكرر لفظه في هذا الغرض ووقف عليه كثير من مفهوم العدوى . قلنا ، الاستعداد تهيء شيء لقبول شيء بمناسبته ومشاكلته له حتى يلبس صورته على مسامحة في هذا التعريف . فاذا اتفق ان يكون المزاج الشخصي قريبا في عرضه من مزاج الوارد سمي مستعدا لقبوله قبله ومال اليه من غير مدافعة ولا ممانعة كما يثب الزئبق على الذهب لشبهه بنسخه ومناسبته اياه فيغوص فيه ويتحد به ويسري في

الامشاج والرطوبات يسربان الروح فيفسدها افساد السموم ، وان اتفق ان يكون بعيدا منه فى عرض مزاجه قاومه مقاومة الضدية ومانعه وتعاصى عليه قبوله . فعلى بعد ما بينهما فى عرض المضادة تكون الممانعة والموافقة . وقد يكون هذا البعد خلقة للمزاج او يحصل بالعلاج ، ولذلك ما حرص الاطباء عند تعرفهم بالحدس طبيعة هذا المرض على الميل بالتدبير الى طرف من مضادته يخرج عن سبيل الاستعداد ، وهو جواب دعوى من رد العدوى والانتقال بكون كثير من المباشرين للمرضى سلموا من مضرته مع الملازمة والقرب من العدد الكثير منهم وهلاك آخرين ممن لم يباشروا او باشروا مباشرة يسيرة ، اذ لم يعلم الجمهور ان علة السلامة او العطب بقدرة الله ، انما هي الاستعداد او عدمه . وان الناس فى الاقتراب من نار تلك السمية بمنزلة الفتل التي تقرب من النار المشتعلة فى السراج ، وان ما كان قريب عهد بالايقاد والحرارة والدخانية اسرع به تعلق النار لحينه .

هذا مثال المستعد الوافر الاستعداد ، وما كان جاف غير قريب العهد بالنار قبل الايقاد بعد انفعال فى زمن اطول من الاول ، وهو مثال الشارع فى الاستعداد . وما كان من الفتل بليلا مشربا مائية اشتعل بعد طول مصابرة ونشيش ومعاصاة ، وبعد زمان تجف فيه مائيته ، فاما ان يتم اشتعاله بطول الزمان ، او ربما غلب الفاعل لضعفه عنه او خمد الفاعل قبل مصابرته . وهذا مثال البعيد عن الاستعداد ، ومحله من المخاطرة ما علمت . والجهل بهذا المعنى غلط الناس وعدد مصارعهم . ولله در القائل :

ما يبلغ الاعداء من جاهل
ما يبلغ الجاهل من نفسه

فان قيل كيف نسلم دعوى العدوى ، وقد ورد الشرع بنفي ذلك ؟ . قلنا ، وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة . وهذه مواد البرهان . وغير خفي عمن نظر فى هذا الامر او ادركه هلاك من يباشر هذا المرض غالبا وسلامة من لايباشره . كذلك وقوع المرض فى الدار والمحلة لثوب او آنية حتى ان القرط (وهي الحلقة التي تتحلى بها المراة فى اذنها) اتلف من علق باذنه واياد اليبت باسره . ووقوعه فى المدينة فى الدار الواحدة لم اشتعاله منها فى افذاذ المباشرين ثم جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة ، حتى يتسع الخرق ، وفى مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى ان يحل بها فى البحر من عدوى اخرى قد شاع عنها خبر الوباء رجل موف ، فيكون تاريخ ظهور المرض مقارنا لحلوله ، وسلامة الكثير ممن اقيا فى التوحش ، كالزاهد بن ابي مدين بمدينة سلا ، وكان من القائلين بالعدوى . وقد تزود لمدة ، وبنى باب منزله على اهله وهم كثيرون . وفنيت المدينة . ولم يرزا نسمة واحدة لطول تلك المدة ، وتواترت الاخبار بسلامة اماكن لاتطاها الطرق ، وهي منقطعة عن الناس . ولا اعجب لهذا من سجن الاسرى من المسلمين ، انقذهم الله بدار صنعة اشبيلية . وهم الوف ولم يصبهم الطاعون . وقد كاد يستاصل المدينة . وصح النقل بسلامة اهل العمود والرحالين فى القرب باقريقية وغيرها ، لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه . والفساد فى هذا الباب وارتكاب اللجاج فيه الحم فى الناس سيف الطاعون ، وسلط الله عليهم من بعض المفتين من اعترضوا بالفتيا اعتراض الازارقة من الخوارج للناس بالسيوف ، فسالت عن شبا اقلامهم من النفوس والمهج ما لا يعلمه الا من كتب عليهم الفناء بسببه . وان كان برىء القصد من المضرة وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث . ومن الاصول التي لا تجهل ان الدليل السمعي اذا عارضه الحس والمشاهدة لزم تاويله . والحق فى هذا تاويله بما ذهب اليه طائفة ممن اثبت القول بالعدوى . وفى الشرع مؤنسات عديدة ، كقوله (يعني النبي (ص) لا يورد ممرض على مصح . وقول الصاحب (وهو عمر بن الخطاب (رض) افر من قدر الله الى قدره . وليس هذا موضع الاطناب فى هذا الغرض . والكلام فى القول بالعدوى او بعدمها شرعا ليس من وظائف هذا الفن ، انما جرى مجرى الجمل المعترضة والمثل ، وله تحقيق فى محله . وبالجملة فالتصام عن مثل هذا الاستدلال زعارة وتصاقر على الله (اي جراة عليه واستخفاف بارواح خلقه) واسترخاص لنفوس المسلمين ، وقد وقف قوم من اهل الورع بالعدوى الى الناس مستقيلين مشهدين على انفسهم بالرجوع عن الفتوى بذلك تحرجا من تسويغ الالقاء باليد الى التهلكة . عصمنا الله من الخطل ، ووفقنا فى القول والعمل . انتهى كلام ابن الخطيب . واظن ان كثيرا من القراء يجد غموضا فى بعض كلام ابن الخطيب . ولذلك رايت من المناسب ان اشرح العبارات التي يعسر فهمها على بعض القراء ، فاقول وبالله التوفيق :

قوله ، الاستعداد ، تهيء شيء لقبول شيء الخ . معناه ، ان الجسم الضعيف المقاومة المستعد لقبول العدوى ينتقل اليه المرض بمخالطة المريض ، ولله در الشاعر اذ يقول :

لا تربط الجروح حول صحيحة

حذارا على تلك الصحيحة تجرب

قوله ، على مسامحة في هذا التعريف . من المعلوم ان ابن الخطيب نابغة في الطب والادب والفلسفة، فهو يحافظ على ما يضعه من التعريفات والحدود محافظة دقيقة ، فلذلك نبه على ان هذا التعريف ، انما هو تقريبي لتسهيل الفهم على القارىء . قوله ، فاذا اتفق ان يكون المزاج الشخصي الخ . يعني ان طبيعة الشخص السليم اذا كانت قريبة من طبيعة الوارد السمي ، وهو مكروب المرض بعبارة العصر الحاضر ، فان الجسم يقبل مكروب المرض الهاجم عليه من غير مقاومة ولا مدافعة ، لعدم وجود التضاد بين قوات المرض المغيرة وقوات الجسم الضعيف المغار عليه . ثم شبه ابن الخطيب قبول الجسم الضعيف لمكاريب المرض المهاجم بالزئبق مع الذهب اذا قرب الزئبق الى الذهب انجذب اليه ، لان اصليهما متشابهان . قوله ، فيغوص فيه ويتحد به الخ . يعني ان المرض ينتقل من المريض الى جسم الصحيح ويتحد معه . قوله ، ويسري في الامشاج الخ . يعني ان القوى السمية على حد تعبير ابن الخطيب ، او الجراثيم المرضية على حد تعبير هذا العصر ، تسري في الاخلاط والرطوبات بسريان الروح ، اي الهواء كما تسري السموم في الاجسام فتفسدها .

قوله ، وان اتفق ان يكون بعيدا منه في عرض مزاجه الخ . هذا مثال للجسم السليم الذي لاتزال قواه الدفاعية قادرة على المقاومة مضادة للقوى الهاجمة غير خاضعة لها ، فحينئذ تثير لقوة العدو وتهجم عليها هجوما مضادا دفاعيا كما يدافع الرجال المخلصون عن اوطانهم اذا اغار عليه عدوهم . ولا يفكرون في التسليم ابدا ما بقي فيهم رمق . فعلى قدر ما بين الجيشين المغير والمدافع من التضاد والتباعد ، هذا يريد افناء الجسم وهذا يريد سلامته ، يشتد القتال او يضعف ، والنصر بيد الله . قوله ، وقد يكون هذا البعد خلقة للمزاج الخ . يعني ان بعض الناس قد رزقهم الله اجساما صحيحة قوية قادرة على مقاومة الامراض المعدية من تلقاء نفسها ، وبعض الاجسام ليست من القوة والمنعة بذلك المكان ، فهذه تحتاج الى الاستعانة بالعلاج بالادوية والهواء الطيب والماء والشمس ، فيعوض عليها ذلك ما فقدته من القوة في خلقتها . قوله ، يخرج عن سبيل الاستعداد الخ . لنا في هذا الزمان امثلة توضح ذلك ، وهي معروفة عند الخاص والعام ، فمنها ، المصول الواقية من السل ووباء الكولرا والجدري وغيرها ، فلذلك التدبير الاتي من علاج الاطباء يخرج الاجسام الملقحة بالمصل المضاد من الاستعداد لقبول المرض . ومن هذا القبيل ، الدواء الذي يشربه من تعتريه نوبات الصرع فلا يصرع ما دام يشرب ذلك الدواء ، الا ان هذا ليس فيه قوات مهاجمة وقوات مدافعة ، وانما هو مرض عصبي غير معد . قوله ، وهو جواب من رد العدوى الخ . يعني ان ما تقدم جواب لمن رد العدوى وزعم انه لا يوجد مرض معد اعتمادا على ان بعض المباشرين للمرضى المصابين بمرض معد ، لايصابون بذلك المرض . ولم يعلم هؤلاء ان الاصابة تكون على حسب الاستعداد ، فمن كان كثير الاستعداد اصيب لادنى مباشرة للمريض . ومن كان متوسط الاستعداد اصيب بعد طول المباشرة ، ومن كانت عنده مناعة ، وليس عنده شيء من الاستعداد طالت سلامته مع المباشرة ، فقد تستمر حتى يفترق مع المريض بموت المريض او غيره ، وقد يصاب بطول الزمان ، الا ان هذا الشخص الذي ليس عنده استعداد لقبول المرض يجب عليه ايضا ان لايخالط ذوي الامراض المعدية ، لان الامر كما يقال ، ليس في كل مرة تسلم الجرة . ومن اكل السم مرة فلم يضره لا ينبغي له ان يخاطر بنفسه ويأكله مرة اخرى . ومن صاول الاسد فتمكن من قتله لا ينبغي له ان يصاول الاسد مرة اخرى . ثم ضرب ابن الخطيب مثلا لذلك اجاد فيه كل الاجادة . وذلك انه شبه المخالطين للمرضى بالطاعون بالفتائل وجعلها على ثلاثة اقسام ، قسم قريب العهد بالاشتعال انطفأ منذ لحظة ولا تزال حرارة النار ودخانها في رؤسه ، فهذا القسم يشتعل بأدنى ملامسة للنار . وهو مثال لكثير الاستعداد . والقسم الثاني من الفتائل يابس ليس فيه بلل ، ولكنه ليس قريب عهد بالاشتعال ولا فيه حرارة ولا دخان ، فهذا القسم يبطيء اشتعاله شيئا ما ، ولكنه لا يلبث ان يشتعل . وهذا مثال للمخالطين للمرضى الذين عندهم شيء من المقاومة واستعدادهم لقبول المرض قليل . والقسم الثالث ، الفتائل المبتلة ، فهذا القسم يبطيء في الاشتعال ويستعصي عليه ، ولكن بطول المعالجة وادناء النار منه يسمع له نشيش ، وهو صوت الفتيلة المبلولة اذا قربتها من النار ، ومع ذلك اذا طال اقترابها من النار يذهب بللها ثم تشتعل بعد حين ، وهذا مثال للمخالطين للمرضى العديمي الاستعداد الذين عندهم صحة قوية ومنعة وكثرة مقاومة ، الا انه لا يؤمن عليهم اذا طالت مخالطتهم للمرضى ان تضعف مقاومة اجسامهم فيصابون . وكم من مريض اعتمد على الادوية المقاومة المطهرة المبيدة للمكروب فتغلب المكروب على ادويته وسقط صريعا بمرض السل او غيره .

قوله ، حتى ان القرط الخ . يعني ان القرط ، وهو ما يعلق في شحمة الاذن للزينة من حلقة وغيرها نزع من امراة ماتت بالطاعون وعلق في اذن امراة سليمة فماتت هذه ايضا واعدت اهل بيتها فماتوا جميعا . قوله ، الى ان يحل بها في البحر من عدوى اخرى الخ . يعني انه كثيرا ما يكون اهل مدينة على شاطيء البحر سالمين من الوباء حتى يحل بتلك المدينة مسافر جاء في سفينة من بلد قد انتشر فيه الوباء ، فيعدي ذلك المسافر اهل تلك المدينة وينتشر فيهم الوباء انتشار النار في الهشيم . قوله ، ممن اغيا في التوحش كالزاهد بن ابي مدين الخ . معنى اغيا بلغ الغاية في التوحش اي الاستيحاش ، وهو البعد من الناس . وقد افادنا ابن الخطيب بذكر هذه الحكاية فوائد متعددة ، احداها صحية ، والثانية شرعية ، والثالثة تاريخية . فاما الصحية ، فهي ان هذا الرجل المغربي الذي كان يسمى الزاهد بن ابي مدين كان من العلماء ، وقد اختلف علماء المغاربة في العدوى في ذلك الزمان ، وهو اواسط القرن الثامن الهجري حين وقع الطاعون الذي افنى سبعة اعشار سكان الارض كما قال ابن الخطيب ، وكان الزاهد من العلماء الذين يفتون بالعدوى . وهو من سكان مدينة سلا ، مرسى على شاطيء البحر المحيط الاطلنطيقي بقرب الرباط . فلما خالفه بعض المفتين وافتوا الناس بعدم العدوى احضر من الطعام والمؤونة ما يكفيه مع اهل بيته وكان عددهم كثيرا ، لزمان طويل ، ثم بنى باب بيته وسد منافذه حتى لا يخالطه احد من سكان المدينة ، وبقي كذلك في سجنه الاختياري حتى ايقن ان الوباء قد ذهب . فلما فتح باب بيته وجد اهل المدينة قد افناهم الطاعون . اما هو واهل بيته فقد سلموا جميعا . واما الفائدة الشرعية والتاريخية فادراكهما من الحكاية سهل . قوله ، ولا اعجب لهذا من سجن الاسرى الخ . اشار الى ما جاء في التاريخ ان اربعة الاف من الاسرى المغاربة كانوا في يد الاسبانيين في اشبيلية بعد ما استردوها من ايدي المسلمين ، وكان المغاربة في ذلك الزمان اهل علم بالصناعات ، والاسبانيون جهالا لا يعلمون منها شيئا (انظر كتاب مدنية العرب في الاندلس لجوزف ما كيب وترجمته بالعربية لكاتب هذا المقال) ، فاستغل الاسبانيون الاسرى المغاربة وجعلوا سجنهم معملا صناعيا . ولا يزال اسم مصنع الاسلحة باللغة الاسبانية والفرنسية والانكليزية (ارسنل) وهو تحريف لدار الصنعة . ومثال ذلك في هذا الزمان ، ان كوبا اسرت عددا كبيرا من الفراة الذين تهم الولايات المتحدة حمايتهم فشرطت على الولايات المتحدة ان تدفع فداء لهم ما يساوي ملايين من نقد الدولار من الادوية والمصنوعات الامريكية التي تعجز كوبا عن صنعها . اخبر ابن الخطيب ، ان الاسرى المسلمين الذين كانوا مسجونين في دار الصنعة باشبيلية لا يخالطون الناس فلم يصبهم الطاعون ، مع ان اكثر سكان اشبيلية ماتوا به . قوله ، اهل العمود والرحالين في الغرب بافريقية الخ . اهل العمود ، هم البدو ، سكان الخيام ، والرحالون اعم منهم ، لان منهم من يبني اخصاصا من القصب في كل مكان يرحل اليه . والمراد بالغرب ، المغرب ، وافريقية ، هي تونس وما جاورها بشرقي الجزائر . قوله ، اعتراض الازارقة من الخوارج الخ . الازارقة ، فرقة من الخوارج يعتقدون ، ان كل من خالف عقيدتهم يجب قتله . شبه ابن الخطيب العلماء الدينيين الذين يفتون بعدم العدوى بالازارقة الذين يعملون سيوفهم فيمن يخالفهم . وهؤلاء الفقهاء يفتون الناس بعدم العدوى فلا يتحرزون من الامراض المعدية فيموتون ، فصارت فتاوي الفقهاء كسيوف الازارقة . واقبح من هؤلاء واكثر جرما من يشير على الناس بنقل المرضى الى الاضرحة التي يسمى المقبورون فيها بالاولياء ، فيتخلدون مدافن الاموات مستشفيات ويطلبون الحياة من الموتى ، وكفى بذلك جهلا وكفرا وعمى بصائر . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . ولقد اخبرني احد تلامذتي في كلية الاداب ببغداد . ولا يزال حيا يرزق ، وهو من انجب تلامذتي ، اخبرني انه اصيب برمد فاخذه والداه الى الدكتور الهاشمي ، وهو من اشهر اطباء العيون في بغداد . فلما فحص عينيه ، قال لوالديه يجب ان تاتي به فورا الى المستشفى والا ذهب بصره . قال فرجع بي الى البيت ، فزارنا سيد ، والسيد في العراق هو المنتسب الى آل البيت ، فان كان شيعيا يلبس عمامة سوداء ، وان كان سنيا يلبس عمامة خضراء . وكثير من آل البيت في هذا الزمان لا يهتمون بذلك الزي ، لكن الذين يتعيشون بالانتساب الى آل النبي يلتزمونه ويتخذونه حالة لابتزاز اموال الناس ، فيسيئون الى انفسهم والى آل البيت الذين رفع الله قدرهم عن تلك المهنة الخسيسة . قال الطالب ، فذكر والداي للسيد ما حل بي من الرمد وانهما يريدان ان يدخلاني مستشفى الدكتور الهاشمي ، فقال لهم السيد ، لا حاجة الى ذلك تاخذه الى مشهد الرضا ، وهو ضريح احد آل البيت من الاضرحة المقصودة . قال فاخذني والداي وصحبهما السيد الى المشهد المذكور ، وشد السيد عيني بخرقة ربط طرفيها في قفاي ربطا محكما ، وبقيت كذلك في

المشهد اربعين يوما . وبعد تمام الاربعين جاء السيد وقال لوالدي الآن تربان البرهان . خاب وخسر من لا يصدق بكرامات آل محمد . وحل الرباط عن عيني وقال لي (تشوف) فاخذني الخوف ، وقلت : نعم ، فكبر وصاح صيحة عظيمة وقال ، انا ابن فاطمة ؟ قال، فحملوني ورجعنا الى بيتنا ، فلما ذهب السيد يحمل الهدية التي اعطاه والدي سالتني والدتي ، كيف تجد بصرك يا بني ؟ فقلت اعمى تماما لا اميز بين الليل والنهار ، فقالت ، ولم قلت في المشهد انك تبصر ،فقلت خوفا من السيد . فاخذني والداي الى الدكتور الهاشمي فلما فحص عيني قال ، آه ، جئتم متاخرين . اما قلت لكما بادرا بالاتيان به الى المستشفى ؟ . والآن احسن الله عزاءكما في بصره . ليس له علاج . فيا اسفي على هذا الشاب المسكين ، درس في الجامعة سنتين مبصرا وسنتين كفيفا . ولا يزال كفيفا معلما في ثانوية بمدينة كركوك في شمال العراق .

قوله ، فسالت عن شيا اقلامهم من النفوس الخ . هو جمع شباه ، وهي راس السنان ، اي الرمح الذي يطعن به . قال الفرزدق في قصته مع الذئب :

ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى
رماك بسهم او شباه سنان

معناه ايها الذئب جئتني زائرا في الليل عند ما رايت ناري فقاسمتك عشائي واطعمتك لحما ، حملني على ذلك الكرم العربي . ولو نبهت غيري تطلب منه الضيافة لرماك بسهم من قوسه او براس رمحه فقتلك.

(يتبع)

مكناس : تقي الدين الهلالي

رأي في تحديد النسل والعدوى

للدكتور: تقي الدسيه الهلالي

-2-

قول ابن الخطيب ، كقوله ، لا يورد ممرض على مصح . قال الامام المنذري في اختصاره لسنن ابي داوود ج 5 / ص 376 / عن ابي هريرة ، انه سمع رسول الله (ص) يقول : (لا يوردن ممرض على مصح) . ثم قال المنذري ، قيل لا يورد ممرض على مصح ، منسوخ بقوله صلى الله عليه وسلم ، لا عدوى ، وقيل ليس بينهما تناف ، ولكن نفى العدوى ، وهي اعتقاد كون بعض الامراض يفعل في غيرها (كذا) بطبيعتها . واما ان يكون سببا يخلق الباري سبحانه وتعالى عندها مرض من وردت عليه ، فلم ينفه . ونهى ان يورد الممرض على المصح ، لئلا تمرض الصحاح من قبل الله جلت قدرته عند ورود الممرض ، فيكون المرض لا لسبب فيها .

وقيل المراد بهذا ، الاحتياط على اعتقاد الناس لئلا يتشاءموا بالمريضة ، ويعتقدوا انها امرضت ابلهم ، فيأثموا في هذا الاعتقاد .

وقال ابن القيم في تعليقه على مختصر السنن ، ذهب بعضهم الى ان قوله (لا يورد ممرض على مصح ، منسوخ بقوله (لا عدوى)

وهذا غير صحيح ، وهو مما تقدم آنفا ، ان المنهي عنه نوع غير المأذون فيه . فان الذي نفاه النبي (ص) في قوله (لا عدوى ولا صفر) هو ما كان عليه أهل الاشراك من اعتقادهم ثبوت ذلك على قياس شركهم ، وقاعدة كفرهم .

والذي نهى عنه النبي (صلى) فيه تاويلان ـ من ايراد الممرض على المصح ـ فيه تاويلان .

احدهما ، خشية توريط النفوس في نسبة ما عسى ان يقدره الله تعالى من ذلك الى العدوى ، وفيه التشويش على من يورد عليه ، وتعريضه لاعتقاد العدوى ، فلا تنافي بينها بحال .

والتاويل الثاني ، ان هذا انما يدل على ان ايراد الممرض على المصح ، قد يكون سببا يخلق الله تعالى به فيه المرض ، فيكون ايراده سببا ، وقد يصرف الله سبحانه تاثيره باسباب تضاده ، او تمنعه قوة السببية ، وهذا محض التوحيد ، بخلاف ما كان عليه اهل الشرك .

وهذا نظير نفيه سبحانه الشفاعة في يوم القيامة بقوله (2 : 254 ، لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) فانه لاتضاد الاحاديث المتواترة المصرحة باثباتها ، فانه سبحانه انما نفى الشفاعة التي كان اهل الشرك يثبتونها ، وهي شفاعة يتقدم فيها الشافع بين يدي المشفوع عنده ، وان لم ياذن له ، واما التي اثبتها الله ورسوله ، فهي الشفاعة التي تكون من بعد اذنه ، كقوله (2 ، 255 ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) وقوله (21 ، 28 ، ولا يشفعون الا لمن ارتضى) وقوله (34 ، 22 ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) انتهى كلام ابن القيم . وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم وابو داود

وقال استاذي العالم الورع عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بوري الهندي في كتابه تحفة الاحوذي في شرح الترمذي تحت حديث (لاعدوى ولا طيرة) ج 2/ ص 400 / . قوله ، لاعدوى ، بفتح فسكون ففتح . هي مجاوزة العلة من صاحبها الى غيره ، ويقال ، اعدى فلان فلانا . وذلك على ما يذهب اليه المتطببة في علل سبع ، الجذام ، والجرب ، والجدري ، والحصبة ، والبخر ، والرمد ، والامراض الوبائية . وقد اختلف العلماء في التاويل ، فمنهم من يقول ، المراد منه نفي ذلك وابطاله على ما يدل عليه ظاهر الحديث والقرائن المسوقة على العدوى ، وهم الاكثرون . ومنهم من يرى انه لم يرد ابطالها فقد قال صلى الله عليه وسلم ، (فر من المجذوم فرارك من الاسد) وقال ، (لا يوردن ذو عاهة على مصح) وانما اراد بذلك نفي ما كان يعتقده اصحاب الطبيعة ، فانهم كانوا يرون العلل المعدية مؤثرة لا محالة ، فاعلمهم بقوله هذا ، ان ليس الامر على ما يتوهمون ، بل هو متعلق بالمشيئة ، ان شاء كان ، وان لم يشا لم يكن . ويشير الى هذا المعنى قوله ، فمن اعدى الاول . اي ان كنتم ترون ان السبب في ذلك العدوى لا غير ، فمن اعدى الاول . وبين بقوله (فر من المجذوم ، وبقوله (لايوردن ذو عاهة على مصح) ان مداناة ذلك لسبب العلة ، فليتقه اتقاء الجدار المائل والسفينة المعيوبة . ثم قال قال التوربشتي : وارى القول الثاني اولى التاويلين لما فيه من التوفيق بين الاحاديث الواردة فيه . ثم لان القول الاول يفضي الى تعطيل الاصول الطبية ، ولم يرد الشرع تعطيلها ، بل ورد باثباتها والعبرة بها على الوجه الذي ذكرناه . واما استدلالهم بالقرائن المسوقة عليها فانا قد وجدنا الشارع يجمع في النهي بين ما هو حرام وبين ما هو مكروه ، وبين ما ينهى عنه لمعنى ، وبين ما ينهى عنه لمعان كثيرة . ويدل على صحة ما ذكرنا قوله صلى الله عليه وسلم للمجذوم المبايع قد بايعناك فارجع في حديث الشريد بن سويد الثقفي . وقوله صلى الله عليه وسلم للمجذوم الذي اخذ بيده فوضعها معه في القصعة ، كل ثقة بالله وتوكلا عليه . ولا سبيل الى التوفيق بين هذين الحديثين الا من هذا الوجه . بين بالاول التوقي من اسباب التلف ، وبالثاني التوكل على الله جل جلاله ولا اله غيره في متاركة الاسباب . انتهى . قال القاريء وهو جميع حسن في غاية التحقيق . انتهى .

قال تقي الدين ، ويرد على من قال بنفي العدوى وتاول قول النبي (ص) (فر من المجذوم فرارك من الاسد) وقوله (لا يورد ذو ابل مريضة ابله على ذي ابل صحيحة ، متاولا ان النهي في الحديثين انما جاء لئلا يصاب من يخالط المجذوم بالجذام ومن اختلطت ابله الصحيحة بابل جرب باصابة ابله بالجرب فيعتقد ان الجذام قد انتقل اليه من المجذوم ، او ان الجرب قد انتقل الى ابله الصحيحة من الابل الجرب ، يرد عليه امتناع النبي (ص) من مبايعة المجذوم وقوله له ارجع فقد بايعناك ولم يصافحه ، بل اكتفى في مبايعته بالكلام ، كما فعل مع النساء تجنبا لملامسة ايديهن ، لانه يسن لغيره ممن يأتي بعده من الخلفاء . ولا يتصور ان يخاف النبي على نفسه من اعتقاد العدوى ، فبطل ذلك التاويل وثبت وقوع العدوى باذن الله .

قال البخاري في كتاب الطب من صحيحه بشرح القسطلاني ، ج 8 / ص 443 ، باب الجذام ، وروى بسنده الى ابي هريرة قال ، سمعت رسول الله (ص) يقول : (لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الاسد) وقال القسطلاني ، لاعدوى، بالعين المهملة والواو المفتوحتين بينهما دال مهملة ساكنة ، اي لاسراية للمرض عن صاحبه الى غيره نفيا لما كانت الجاهلية تعتقده في بعض الادواء انها تعدي بطبعها ، وهو خبر اريد به النهي (ولا طيرة) بكسر الطاء المهملة وفتح التحتية من التطير ، وهو التشاؤم ، كانوا يتشاءمون بالسوانح والبوارح ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه وابطله ونهى عنه واخبر انه ليس له تاثير في جلب نفع او دفع ضر (ولا هامة) بتخفيف الميم على الصحيح ، وحكى ابو زيد تشديدها . كانوا يعتقدون ان عظام الميت تنقلب هامة تطير . وقيل هي البومة كانت اذا سقطت على دار احدهم يرى انها ناعية له نفسه او بعض اهله . وقيل ، ان روح القتيل الذي لايؤخذ بثاره تصير هامة ، فتزقو وتقول ، اسقوني اسقوني ، فاذا ادرك بثاره طار . (ولا صفر) هو تاخير المحرم الى صفر وهو النسيء . وفي سنن ابي داود عن محمد بن راشد ، انهم كانوا يتشاءمون بدخول صفر ، اي لما يتوهمون ان فيه تكثر الدواهي والفتن . وقيل ان في البطن حية تهيج عند الجوع ، وربما قتلت صاحبها ، وكانت العرب تراها اعدى من الجرب فنفى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله ، ولا صفر . وزاد مسلم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة (ولا تولة) . وزاد النسائي وابن حبان من

حديث جابر (ولا غول) فالحاصل ستة . وقد كانت العرب تزعم ان الغيلان فى الفلوات ، وهي جنس من الشياطين تتراءى للناس وتتغول لهم تغولا ، اي تتلون تلونا فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، فنفى النبي (ص) استطاعة الغول ان تضل احدا .

قال تقي الدين ، ونحن نبحث فى كل واحد من هذه الستة على حدة . فاما العدوى ، فقد تقدم الكلام عليها ، وازيد هنا اني لما كنت فى بني عوف من قبيلة حرب فى ناحية الحناكية ، وهي قرية بين المدينة والقصيم ، رايت الاخوان هناك ينكرون على بعض الاعراب الذين لم يتدينوا بعد ، اي لم يتبعوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الى توحيد الله وترك امور الجاهلية ، ينكرون عليهم انهم يحبسون الغنم المصاب بمرض فى حظيرة ويدخنون عليها ولا يتركون احدا يدنو منها لا انسانا ولا حيوانا ، فكانهم يعتقدون ان مرضها من الجن ، وان من دنا منها يصيبه شر ، وكانوا يحبسونها الليل كله حتى الصباح ، لا ادري ليلة واحدة او اكثر . وهذا يفسر لنا ما نهى عنه النبي (ص) . والغالب انهم ورثوا ذلك من اهل الجاهلية فان لم يكونوا قد ورثوه منهم فما جرى على المثل يجري على مماثله . والمنهي عنه هو اعتقاد ان هناك قوة مستقلة تضر بدون مشيئة الله ولا تخضع لارادته. واما الطيرة ، فهي التشاءم بالطير اذا طارت عن اليمين، وهي السوانح او عن اليسار ، وهي البوارح ، او بغيرها من الحيوان ، كالغراب والبومة ، او بانسان يعتقد انه مشؤوم رؤيته تجلب شرا ، او بالايام والشهور ، او بالطوالع من الكواكب ، يعتقد ان بعضها طالع نحس وبعضها طالع ميمون ، كل ذلك شرك ، لا يرضى به المؤمن ولا يخافه ، فاذا وجد فى نفسه شيئا من ذلك فليقل : اللهم لا خير الا خيرك ، ولا طير الا طيرك ، ولا اله غيرك ، ويمضي لحاجته ولا يبالي بذلك . واما الصفر ، فعلى القول انه شهر صفر ، فهو داخل في التشاؤم بالشهور ، والجهال من اهل بلدان يتشاءمون به ، فلا يدخلون بيوتهم مكنسة لئلا تكنس بيتهم بموت اهل البيت وذهاب مالهم . وكل ما تقدم من انواع الطيرة موجود عند كثير ممن يدعون الاسلام وهم يجهلونه . ولولا خوف الاطالة لذكرت من ذلك حكايات كثيرة . وعلى القول بانه حية فى البطن ، فذلك باطل لا وجود له . واما الهامة فعلى القول بانها البومة هي داخلة فى التشاءم بالحيوان . وعلى القول انها طائر هو روح القتيل لا يزال يرقو اي يصيح ، اسقوني ماء أسقوني ماء حتى يؤخذ بثار القتيل . وذلك مشهور عند العرب فى جاهليتهم . قال ذو الاصبع العدواني :

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي
اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال غيره :

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت
علي ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة او زقا
اليها صدى من جانب القبر صائح

وذلك من خيالاتهم واوهامهم ولا وجود له . واما التولة ، فهي من الشرك ، وهي سحر يزعم فاعله انه يؤثر فى قلب البعل فيحب امراته حبا شديدا ويطيعها طاعة عمياء ، او فى قلب المراة فتحب بعلها كذلك . وهذا كفر ، لان مقلب القلوب واحد ، وهو الله ولا يستطيع غيره ذلك . واما الغول فالنفي فى الحديث موجه لعينها ، اذ لا وجود لها ، وانما هي من صنع الخيال الجاهلي . وكذلك العنقاء يزعمون انه طائر عظيم الجسم ، كالرخ المذكور فى كتاب الف ليلة وليلة الذي تعلق به سندباد البحري فطار به من جزيرة خالية الى بلد آخر . وزاد الادباء على الغول والعنقاء ، الخل الوفي . قال الشاعر :

فعلمت ان المستحيل ثلاثة
الغول والعنقاء والخل الوفي

وقال غيره :

الخل والغول والعنقاء ثالثة
اسماء اشياء لم تخلق ولم تكن

والحق ان الخل الوفي موجود ، الا اذا اريد به الخل الكامل المبرا من جميع العيوب الذي لا نقص فيه اصلا فهو صحيح . وقال بعض شراح الحديث ان تلك الاشياء الستة موجودة ، وتوجيه النفي لذواتها مجاز ، والمراد نفي ما كانت العرب تعتقده فيها . والصحيح التفصيل على نحو ما ذكرته . والله اعلم .

قوله ، وقول الصاحب الخ . روى البخاري في كتاب الطب من صحيحه بسنده الى عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج الى الشام حتى اذا كان بسرغ، لقيه امراء الاجناد ، ابو عبيدة بن الجراح واصحابه ، فاخبروه ان الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس ، قال عمر . ادع لي المهاجرين الاولين فدعاهم فاستشارهم واخبرهم ان الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم ، قد خرجنا لامر ولا نرى ان نرجع عنه . وقال بعضهم ، معك بقية الناس واصحاب رسول الله (ص) ولا نرى ان تقدمهم على الوباء . فقال ارتفعوا عني ، ثم قال ادع لي الانصار ، فدعوتهم فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم . فقال ، ارتفعوا عني . ثم قال ، ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا نرى ان ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء . فنادى عمر في الناس اني مصبح على ظهر فاصبحوا عليه . قال ابو عبيدة بن الجراح : افرارا من قدر الله . ؟ فقال عمر ، لو غيرك قالها يا ابا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . ارايت لو كان لك ابل هبطت واديا له عدوتان ، احداهما خصبة والاخرى جدبة ، اليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ . قال ، فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبا في بعض حاجته ، فقال ان عندي في هذا علما : سمعت رسول الله (ص) يقول : اذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه . قال ، فحمد الله عمر ، ثم انصرف

نستفيد من هذا الحديث فوائد مختلفة ، منها ، ان عمر ، وهو اعظم الخلفاء الراشدين دولة واعزهم سلطانا واكثرهم فتوحا وانتصارات ، لم يكن يستبد برايه في امر من الامور ، بل كان يشاور جميع طبقات اهل الراي من رعيته ، ويأخذ باحسن آرائهم ، اذا لم يجد عند احد منهم خبرا عن النبي (ص) . ومنها ، انه كان اذا وجد حديثا عن النبي (ص) يفرح به ويترك رأيه وراي غيره ويتبع الحديث . وفي ذلك رد على المقلدين واصحاب الطرائق الذين يقلدون الفقهاء والاشياخ ، وينشد قائلهم :

وكن عنده كالميت عند مغسل
يقلبه ما شاء وهو مطاوع

ومنها ، ان اهل الشورى كانوا يجادلونه ويردون عليه بغاية الحرية ، التي تسمى في هذا الزمان (ديمقراطية) ونحن نسميها عمرية محمدية . ومنها ، المعجزة العظيمة في سبق النبي (ص) الى نظام الحجر الصحي عند اشتعال نار الوباء بمنع الخارج من الارض الموبوءة حتى لا ينقل الوباء الى ارض اخرى ، بل يبقى محصورا في البقعة التي نشا فيها ، ومنع الداخل اليها من ارض سالمة منه حتى لا يصاب به . وهذا ما اتفقت عليه اليوم جميع دول العالم بعد مضي زهاء اربعة عشر قرنا . ومن لم ير هذه معجزة فقد اعمى التعصب عين بصيرته . ومنها ، ان التوقي والاخذ بالحزم لا ينافي التوكل على الله ، ولا يسمى فرارا من قدر الله ، لان الفرار من قدر الله غير ممكن .

قوله زعارة وتصاقر على الله . قال في القاموس. الزعارة (يعني بتشديد الراء) وتخفف ، الشراسة . ولم اجد في القاموس تصاقر . واظنه فعلا ماخوذا من لفظ الصقر ، اي تظاهر بالقوة وعدم التاثر والخوف كالصقر الذي تخافه الطير الضعاف ، وهو لا يخاف منها احدا . وليس عندي كتب مطولة فاراجعها . اقول وكذلك من قال بكراهة التداوي فقد تصاقر على الله وخالف امر رسول الله ، بل كذب على شريعته ان زعم انه فهم ذلك منها ، وان اصر على تقليد من قال بذلك من الحنابلة مع وقوفه على الاحاديث فقد خاب وخسر. وقد رايت رجلا من الحنابلة فيما يدعيه كان يقول بكراهة التداوي ولا يتداوى ابدا ، وكلما اصابه مرض الح عليه اهل بلده ان يأتوه بالطبيب فيابى . وكان اهل بلده يعظمونه جدا ، لانه كان يتعفف عن اموالهم بعض التعفف بخلاف اكثر الفقهاء . فاصابه مرة مرض شديد فجاءه اعيان البلد واجتهدوا معه ان يقبل الاتيان بالطبيب والتداوي فابى ومات من ذلك المرض . ونحن لا نعتقد ان الدواء يزيد في العمر . ولكننا نعتقد ان من يتداوى قد اكرمه الله بالعقل وعرفه سننه في خلقه ووفقه لاتباع النبي صلى الله عليه وسلم . روى البخاري والنسائي وابن ماجة باسانيدهم الى ابي هريرة عن النبي (ص) انه قال : (ماانزل الله داء الا انزل له شفاء) قال القسطلاني في شرحه ، قال في الكواكب ، ما اصاب الله احدا بداء الا قدر له دواء . وروى احمد والبخاري في الادب المفرد وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم من حديث اسامة بن شريك (تداووا ياعباد الله فان الله لم يضع داء الا وضع له شفاء ، الا داء واحدا ،الهرم وفي لفظ الا السام ، يعني الموت . وزاد النسائي من حديث ابن مسعود (فتداووا) ولمسلم من حديث

جابر يرفعه (لكل داء دواء ، فاذا اصيبت دواء الداء برأ باذن الله) انتهى من القسطلاني باختصار .

قوله ، من اهل العدوة ، اي من المغرب .

عود الى الكلام على تحديد النسل

اعود بعد ذلك الاستطراد الطويل الذي ربما يمل بعض القراء ، ولكنه يسر آخرين منهم ، اعود الى الكلام فيما جاء فى العزل فانقل كلام ابن حزم فى المحلى . قال ابو محمد ابن حزم فى المحلى ، ج 10 / ص 70 / مسالة 1907 / ولا يحل العزل عن حرة ولا عن امة . برهان ذلك ما روينا من طريق مسلم ، وذكر سنده الى عائشة عن جذامة بنت وهب اخت عكاشة قالت : (حضرت رسول الله (ص) فى اناس فسالوه عن العزل؟ فقال رسول الله (ص) : ذلك الواد الخفي ، وقرأ (واذا المؤودة سئلت) .

قال ابو محمد : هذا خبر فى غاية الصحة ، واحتج من اباح العزل بخبر ابي سعيد الذي فيه ، لا عليكم ان لا تفعلوا . قال علي ، هذا خبر الى النهي اقرب ، وكذلك قال ابن سيرين ، واحتجوا بتكذيب النبي (ص) قول يهود ، هو المؤودة الصغرى ، وباخبار اخرى لا تصح .

قال ابو محمد : يعارضها كلها خبر جذامة الذي اوردناه ، وقد علمنا بيقين ان كل شيء فاصله الاباحة لقول الله تعالى (الذي خلق لكم ما فى الارض جميعا وعلى) هذا كان كل شيء حلالا حتى نزل التحريم ، قال تعالى : (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) فصح ان خبر جذامة بالتحريم هو الناسخ لجميع الاباحات المتقدمة التي لا شك فى انها قبل البعث وبعد البعث ، وهذا امر متيقن ، لانه اذا اخبر عليه الصلاة والسلام ، انه الواد الخفي ، والواد محرم ، فقد نسخ الاباحة المتقدمة بيقين ، فمن ادعى ان تلك الاباحة المنسوخة قد عادت ، وان النسخ المتيقن قد بطل فقد ادعى الباطل وقفى ما لا علم له به واتى بما لا دليل له عليه . قال تعالى : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وقد جاءت الاباحة للعزل صحيحة عن جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وسعد بن ابي وقاص ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود . وصح المنع منه عن جماعة كما روينا عن حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع ، ان ابن عمر كان لا يعزل ، وقال ، لو علمت احدا من ولدي يعزل لنكلته.

قال ابو محمد : لا يجوز ان ينكل على شيء مباح عنده . ثم روى بسنده الى علي بن ابي طالب ، انه كان يكره العزل . ثم روى بسنده الى عبد الله بن مسعود انه قال فى العزل ، انه الموءودة الخفية . ثم روى بسنده الى ابي امامة الباهلي انه سئل عن العزل فقال ما كنت ارى مسلما يفعله . وروى بسنده الى ابن عمر قال : ضرب عمر على العزل بعض بنيه . وروى عن سعيد بن المسيب قال ، كان عمر وعثمان بن عفان ينكران العزل . قال ، وصح ايضا عن الاسود بن يزيد وطاووس .

ذكرت فيما تقدم بعض الاسباب التي توجب العزل او تبيحه . وازيد هنا سببا آخر سئلت عنه كثيرا ، وهو ان بعض النساء يحملن بعد الولادة بزمان يسير ، فيجتمع على الوالدة رضيعان او اكثر فى وقت واحد ولا تجد مرضعة اخرى ولا من يعينها على القيام بما تحتاج اليه الصغار من تغذية ونظافة وغير ذلك من شؤونهم يضاف الى ذلك انها قد تكون محتاجة الى ان تشتغل عند الناس لتكسب قوتها ، فيلحق بها فى توالي الحمل والولادات حرج . فمثل هذه المراة يجوز لها بالاتفاق مع زوجها منع الحمل منعا موقتا ، بحيث يكون بين الولد والولد مدة يتم فيها الرضاع للسابق وتستعيد هي بعض قوتها لتتمكن من حمل آخر وارضاع آخر . فهذا من الاسباب المبيحة للعزل وما لشبهه من اسباب منع الحمل لمدة محدودة . والدليل على ذلك قاعدة رفع الحرج المنصوص عليها فى كتاب الله المجمع عليها بين الائمة .

والآن بعد كل ما تقدم نبحث فى سبب آخر يعتذر به كثير من الناس فى هذا الزمان ، وهو الفقر الخاص كان يكون الوالدان فقيرين ، او العام ، كان تكون الاغذية فى بلد من البلدان قليلة يخشى اذا تكاثر السكان ان لاتسد حاجتهم فيفضي ذلك الى سوء التغذية العام ، ثم الى الموت جوعا . فيرى بعض الساسة ان يرغب السكان فى تحديد النسل ، وربما بدا لهم ان يجبروا الناس على ذلك ، كما فعل هتلر وحكومته لغرض آخر غير التغذية ، فان حكومة هتلر كانت تجبر الاجانب المنقطعين الذين لا جنسية لهم ، اي لا دولة تعترف بهم ، كالمغاربة الذين كانوا فى الجيش الفرنسي ، ثم فروا الى المانيا فى الحربين العالميتين . فكانت حكومة هتلر تفرض على كل متزوج من هؤلاء البؤساء اجراء عمل جراحي يمنع النسل . فان ابى قبضت عليه وحبسته ومنعته من وصال زوجته . وقد

اخبرني المغاربة الذين كانوا في برلين في زمان هتلر ان بعضهم قبل اجراء ذلك العمل الجراحي فاصابه بسبب ذلك مرض لازمه حتى مات منه . واعرف شابا مغربيا من حوز مراكش اسمه عمر كان متزوجا بامراة المانية فدعته الدائرة المختصة لاجراء تلك الجراحة فابى ، فسجن ، وكانت زوجته الالمانية تشتغل وتزوره في السجن وتحمل اليه ما يتيسر لها من الطعام وتقوم بغسل ثيابه ، فدعاها رئيس الدائرة وقال لها ما تريدين بهذا المغربي المتشرد ؟ فارقيه فنرد عليك جنسيتك الالمانية ونعطيك شغلا في الحال فامتنعت وقالت لا افارق زوجي ولا اغدر به في وقت الشدة . فلما طال عليه الحبس وكانوا قد عرضوا عليه مرارا ان يتجند في جيش فرانكو فيطلق سراحه ويرسل الى اسبانيا، فكان يقول لهم انا لا اقبل العمل الجراحي ولا اتجند في جيش فرانكو ، لانني لست اسبانيا ، انا مغربي فان شئتم ان توصلوني الى بلادي فاني اقبل ذلك شاكرا . اما اسبانيا فلا اذهب اليها . وكان الجنرال فرنكو قد التمس من الالمانيين ان يبعثوا اليه كل من عندهم من المغاربة الذين يقبلون التجنيد . فلما طال الحبس على عمر المسكين قبل ان يتجند ويذهب الى اسبانيا فارسلوه ومعه زوجته الالمانية الى فرنكو . ولا ادري ما فعل الله به .

نعود بعد هذه الجولة الى منع الحمل خوفا من قلة الغذاء فنقول ، قال الله تعالى في سورة هود (6 وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) وقال تعالى في سورة الذاريات (56 – 57 – 58 وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . وقال تعالى مخاطبا رسوله (ص) وامته تبع له في سور طه (132 وامر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسالك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) فكل من يعبد الله ويحافظ على الصلاة وغيرها من امور الدين يخرج الله له رزقا ولو من صخرة صماء . وعد الله لا يخلف الله وعده . وقد رايت في معرض (دوسلدورف) بالمانيا آلة عظيمة يلقى فيها الخشب في جانب فيخرج من الجانب الآخر قطنا ابيض محلوجا في غاية البياض والنظافة . وسمعت من اذاعة لندن في هذه الايام ان بعض العلماء يجري تجارب لاستخراج الطعام من مواد معدنية . وبقطع النظر عما سيكون ، فان كل مؤمن بالله ، واكثر اهل الارض مؤمنون به ، يعتقد ان الله لا يخلق انسانا ولا حيوانا ، الا وقد اعد له رزقه . ولا يمكن ان يخلق الله خلقا اكثر مما خلق لهم من الاغذية . كما انه خلق من مادة الاكسجين التي يتنفسها الحيوان ، والانسان على قدر المتنفسين . فكل حيوان خلقه الله فقد ضمن له ما تقوم به حياته . لا يتخلف ذلك ابدا ، لانه من السنن الكونية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . يقال ، ان في الهند خمسة ملايين من البشر ، لا ماوى لهم ، وانما يهيمون على وجوههم طول حياتهم . وسمعت ان بعض اهل البيوت الفقيرة في الهند اذا انقضى زادهم اغلقوا بابهم وماتوا جوعا ، فلا يهتم بهم احد . ولا ادري اهذا صحيح ام لا ؟ وعلى فرض صحته فليس ذلك ناشئا عن قلة ما خلق الله من الاغذية في الهند ، ولكنه ناشيء عن طغيان الطبقة الغنية الشريفة المقدسة واحتقارها لمن دونها . ومن دونها من الطبقات يحتقر من دونه منها حتى يصير الامر الى الطبقة المنبوذة المستنجسة ، اذا وقع ظل الواحد منهم على طعام ينجسه . فلو ان الارزاق قسمت بالعدل وفسح المجال للطبقات المحتقرة ان تكتسب رزقها لكانت الارزاق تزيد عن حاجة الناس . ولنضرب لذلك مثلا فنقول : ان من اغنياء الهند من يملك بضعة وعشرين من الفيلة فقط ، غذاء الواحد منها يكفي خلقا كثيرا من البشر ، وانما يكتسبها للتفاخر والتكاثر . وقال تعالى في سورة الاسراء (31 – ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا)

قال ابن كثير في تفسير سورة الانعام ، في الآية المماثلة لهذه ، وقد تقدمت : (ج 4\148\ وقوله تعالى: ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) لما وصى تعالى بالوالدين والاجداد عطف على ذلك الاحسان الى الابناء والاحفاد ، فقال تعالى ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق . وذلك انهم كانوا يقتلون اولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يقتلون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود انه سال رسول الله (ص) اي الذنب اعظم ، قال ، ان تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت ، ثم اي ، قال ، ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك ، قلت ثم اي ، قال ، ان تزاني حليلة جارك . ثم تلا رسول الله (ص) الذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون . الآية . وقوله تعالى . من املاق ، قال ابن عباس وقتادة والسدي وغيره (كذا) ، هو الفقر ، اي ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل . وقال في سورة الاسراء : ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ، اي لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل ، ولهذا قال هناك ،

نحن نرزقهم واياكم . فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، اي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله . واما هنا لما كان الفقر حاصلا ، قال نحن نرزقكم واياهم ، لانه الأهم هاهنا . والله اعلم .

فان قيل ، ان هذه الآية وردت في قتل من تم خلقه وولد وصار حيا يرزق . فكيف يستدل بها على منع الحمل الذي لا يزيد على منع الدرتين المنويتين من الاتحاد او على ابادتهما بالادوية التي تقتل الجراثيم ؟ فالجواب . ان هناك قدرا يجمع بينهما ، وهو قطع الحياة في كل لغير سبب يبيح ذلك او يوجبه . وهو جريمة . ولا يخفى ان اصل الحياة كلها خلية لا ترى بالبصر ، كما وضح ذلك في كتب علم الحيوان وعلم النبات . فالدرتان المنويتان تتمتعان بالحياة التي يستمتع بها كل حي . والذي يغلظ الجريمة هنا هو الجهل بسنن الله وعدم الثقة بوعده والقصد السيء الدال على ذلك . والعدول عن اتباع سنة النبي (ص) والاهتداء بهديه واتباع السلف الصالح والافتتان بالآراء الاجنبية الصادرة عن القلوب الحجرية المظلمة الكافرة اليائسة من روح الله .

فمن الاوربيين من يعزم على انه لا يلد ولدا حتى يهيىء له من المال ما يكفي لتربيته تربية تشبه تربية ابناء الملوك . فمن ذلك انه يعد له سريرة وغرفة مملوءة بانواع اللعب وينفق عليه ما يكفي لاعاشة عشرة اولاد معيشة معتدلة صحية ليس فيها تدليل مفسد . ويؤمل ان يصير ولده هذا المدلل رجلا عظيما من الزعماء فيخيب ظنه وينشأ ولده في نعمة ورفاهية ودلال ضعيف العقل والجسم فاسد الطبع خائر العزم اينما وجهه لا يأتي بخير . وفي مقابل ذلك يوجد في اوربا نفسها فلاحون وعمال لا يحددون نسلهم ، فيلدون اولادا ينشئونهم على خشونة العيش والكدح والعمل ، فلا يبلغ الواحد منهم السابعة من عمره حتى يشرع في مساعدة والديه . وبدل ان يكون لهما ولد واحد مدلل ضعيف يكون لهما ما بين ثلاثة وسبعة اولاد اقوياء البنية مدربين على العمل اينما سقطوا لقطوا وحيثما وجهوا جاءوا بخير . وقد اخبرني ضابط الماني كبير ان الجنود من ابناء الفلاحين اقوى اجساما واحسن اخلاقا واصبر على المشاق واقنع باليسير من الغذاء. قال ، وانا لا اعتمد في المهمات على ابناء المدن ، وانما اعتمد على ابناء الفلاحين . واعرف رجلا في البلاد العربية عاش طول عمره يشتغل بالبناء فقيرا ، فلما بلغ الولد الاول والثاني من اولاده بضع عشرة سنة اتخذا دكيكينا في القرية يبيعان فيه الطحين ، وانما ياخذان من احد التجار الكيس بعد الكيس فيبيعانه بالارطال ، فما زالت تجارتهما في نمو ، وكل من كبر من اخوتهما يلحق بهما ويتعاون معهما . فلما اتسعت تجارتهم بنوا قصورا في قريتهم وصاروا من كبار اغنيائها ، ثم دخلوا المدينة ، فاستولوا على قسط وافر من تجارتها ، وهم الآن من اعظم البيوتات في وطنهم . وعاش ابوهم بقية عمره مبجلا قرير العين في نعمة ورفاهية . واعرف رجلا آخر لم يعش له من الاولاد الذكور احد الا بعد ما بلغ سن الكهولة ، فولد له ولد فكاد يجن من الفرح وصار الوالدان يدللان ولدهما تدليلا افسد طبعه وخلقه وجسمه ، ثم ولد لهما بعده ولد آخر فلم يهتما به فتربى تربية خشنة . وقد شاهدت الاول ، وعمره خمس سنين من فرط دلاله يأمر الخادمة او امه او اخته ان تحمله على ظهرها وتصعد به الى السطح ثم يأمرها ان تحمله وتنزله . ثم يأمرها ان تصعد به مرة اخرى حتى تتعب وينقطع نفسها . واحيانا ينام في المهد ويأمر احداهن ان تهزه به ــ واحيانا يبكي بلا سبب فيعرض عليه كل ما في الامكان من المشتهيات فلا يرضى بشيء ، ويستمر في البكاء فاذا تعب ينادي اسكتوني اسكتوني . فتجيئه احداهن فتقول انا اسكتك ، فيقول بصوت الباكي ، لا لا لا احبك انت فاغربي ، ثم تاتي الاخرى فيختار من بينهن واحدة يسكت بطلبها . هذا الولد المدلل لم ينجح في المدرسة . ولما كبر لم يجد شغلا . واما اخوه فهو الآن مدير احد المصارف . ومن هذا تعلم ان الاعتذار لتحديد النسل بعدم وجود المال الكافي لتربية الاولاد اعتذار باطل . وان تحديد النسل لا يجوز او يجب الا لضرر يلحق بالوالدين او الاولاد ، لا يمكن احتماله . وليس الفقر والخوف من قلة الغذاء سببا مبيحا لمنع النسل . واما منع النسل خوفا من تكاثر الجنس المنحط في بلاد الجنس الآري المقدس كما كان هتلر وامامه في ضلالته (روزنبرك) وشيعتهما يعتقدون . ومثال ذلك مذهب حكومة اتحاد جنوب افريقية وما يقع من العدوان من البيض على الزنوج في امريكا ، فكل ذلك من اعظم ما عرفه البشر من الجرائم . ولو زال التعصب الممقوت للاوطان وتعاون الناس كلهم على استخراج خيرات الارض كلها ، وتركوا الاستعداد للحروب والطغيان والاستعباد ، ووزعوا الاغذية فيما بينهم توزيعا يهيمن عليه العدل والاحسان لعاشوا جميعا في خفض ونعمة ورفاهية عيشة راضية ، وان بلغ عددهم عشرات الالوف من الملايين . ولله در ابن زريق اذ يقول في قصيدته العينية المشهورة :

والله قسم بين الناس رزقهم
لم يخلق الله من خلق يضيعه

مكناس : تقي الدين الهلالي

عود إلى موضوع تحديد النسل

للدكتور : تقي الدين الهلالي

جاءني استفتاء من احد تلامذتي ، وهو السيد حازم طه الطالب في كلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية يلتمس مني ان اكتب مقالا مفصلا في هذه المسألة . فكتبت مقالا مطولا في تسع عشرة صفحة من الصفحات العادية لآلة الكتابة، وبعثت بذلك المقال الى مجلة دعوة الحق الغراء ، ووسمته ، بتحديد الذرية ، واتقاء الامراض المعدية ، فرأت رئاسة تحرير المجلة ان تغير هذا الاسم وتبدله بقولها (رأي في تحديد النسل) . ونشرته في جزءيها السادس والسابع من سنتها السادسة . وقد افتيت في هذه المسألة بما اراني الله واعتقد انه الحق ولم ادل فيه برأيي ، بل اقمت البراهين النقلية والعقلية والصحية والاجتماعية والاقتصادية وبذلت في تحريره جهدي ، ولا ادعي العصمة من الخطأ والخطل ، فان العصمة للانبياء ، والكمال المطلق لله عز وجل . فما راعني الا ان اجرني احد الاصدقاء ، وهو السيد احمد الخريصي الاستاذ في المعهد الديني الثانوي في مكناس ، ان صحيفة النضال نشرت مقالا في جزئها رقم 92 تاريخ 3 غشت 1963 من سنتها الرابعة انتقادا لمقالي المتقدم الذكر . فلما قرأت النقد وجدته ناقصا ، لانه لم يتعرض الادلة النقلية والعقلية التي ذكرتها واطلت في تحقيقها ، ثم يردها بأدلة مكافئة لها، بل اجمل الكلام وحصره في نقطة واحدة او نقطتين . ومن عادتي اذا كتبت مقالا اعتقد انه الحق وبذلت فيه جهدي ، ثم جاء معترض ينتقده ان انظر في اعتراضه ، فان رأيته ناثرا على اصول النقد ، وافيا بالمرام اعترفت بما يظهر لي انه حق وشكرت المعترض على تعاونه معي على الوصول الى الغاية المنشودة ، وهي معرفة الحق بدليله ، وان رأيته اعتراضا ساقطا غير جار على الاصول اعتصمت بالسكوت واهملت جوابه، لان المفكرين من القراء عند ما يقرأون ذلك الاعتراض يرجعون الى مقالي فيجدون جوابه فيه ويقتنعون بفساد الاعتراض . واما غير المفكرين فلا ابالي بهم . ومقال النضال لم يجر على اصول النقد ولم يسم صاحبه نقدا ، فكان حقه ان يسكت عنه ، لولا ما جاء فيه من نسبتي الى التشيع بالافكار الالمانية والى انني لم اطلع على احوال الشرق الاقصى . وما اشار اليه من الاحصائيات التي لم تزد على سكان اليابان ، كأن اليابان هم معيار سكان الكرة الارضية . اما ومعي بالعبقرية فظاهره انه من التهكم المقصود به الاذى ، فلا احب عنه . واما تعييري باني اؤمن بآيات القرآن فانشد فيه :

وعيرني الواشون اني احبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

فان كان الايمان بآيات القرآن عيبا فليشهد الثقلان اني مؤمن به ، ارجو ان احيا على ذلك واموت عليه .

1) قال المنتقد : ويرى كذلك خلال تلك السطور ان الدكتور متفائل الى ابعد حد . فهو لا يبدي ادنى تخوف من تزايد عدد السكان في العالم ، مؤمنا بقول الله تعالى (قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم) (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين) (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا) .

2) ويظهر ان الكاتب متشبع بافكار المانية . ونحن نعلم ان هذا الشعب قد فقد اكثر من نصف ابنائه اثناء الحرب العالمية الاخيرة . فمن الطبيعي اذن ان يستعمل الآن جميع الوسائل لاسترجاع نشاطه وحيويته التي عهدها قبل الحرب ، وذلك بانماء عدد سكان البلاد .

3) وقد يغير الكاتب رأيه لو قام بزيارة بلدان الشرق الاقصى ، ورأى كيف يعيش نصف سكان الكرة الارضية . فلا شك انه سيتخذ موقفا آخر ازاء هذا المشكل ، اذا شاهد بعينه الموتى تمر كل صباح لتلتقط ضحايا الجوع والبؤس ، خصوصا في الهند والصين .

1) ــ قوله : ونرى كذلك خلال تلك السطور ان الدكتور متقائل الى ابعد حد الخ . اقول : وبالله استعين ، ليست القضية ، قضية تفاؤل او تشاؤم ، ولكنها بيان حكم الله ورسوله في هذه المسالة مع الاعلام بان المفتي غير معصوم من الخطأ ، الا انه يبذل لاقصى جهده في تحري الصواب . ومن بذل جهده واحتج بكتاب الله وسنة رسوله وبالواقع المشاهد فلا لوم عليه . ولماذا التخوف من تزايد السكان ، وانا لا الخلقهم ولا ارزقهم ، وايماني راسخ بان لهم خالقا رزاقا ضامنا لمعيشتهم .

2) ــ قوله : ويظهر ان الكاتب متشبع بافكار المانية الخ . اعلم يا اخي المنتقد ويا اخي القارىء اني لم اسافر الى المانيا الا بعد ما تجاوزت الثلاثين من عمري وقرأت كتاب الله وسنة رسوله وعقيدة السلف الصالح ، فانا لا آخذ افكار الالمانيين على علاتها تقليدا بلا تمحيص ولا تمييز ، والالمانيون انفسهم ، اعني احرار الفكر لا يأخذون الاراء تقليدا ، بل يزنونها بميزان العلم والعقل . وكيف يسوغ لي ان يسألني طالب يدرس في الجامعة الازهرية عن حكم الله ثم افتيه برأيي او برأي الالمانيين ، وقد قال الله تعالى في سورة الاعراف (23 ــ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى في سورة النحل (116 ، 117 ــ ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب ، هذا حلال وهذا حرام ، لتفتروا على الله الكذب ، ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب اليم) وفي صحيح البخاري ان رجلا اصابته شجة في رأسه ، فسأل اصحابه حين اجنب ، هل ترون لي من رخصة التيمم ؟ فقالوا ، لا ، فاغتسل فمات ، فبلغ خبره النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قتلوه قتلهم الله ، ان لا سألوا اذ لم يعلموا ، انما شفاء العي السؤال .

فليطمئن الاخ المنتقد والاخ القارىء اني لم اكتب في ذلك المقال الا ما اعتقد غير متأثر الا بكتاب الله وسنة رسوله والمصلحة العامة التي لا تخرج عنهما ابدا . اما قوله ان الشعب الالماني قد فقد اكثر من نصف ابنائه ، فلا اظنه صحيحا ، لان الاحصاء المشهور في المانيا ان عدد القتلى خمسة ملايين ، وهذا العدد موزع على الجيش الالماني وحلفائه . اما عدد المفقودين والذين ماتوا تحت الانقاض فلا يكاد يبلغ نصف هذا العدد ، اقول هذا على سبيل التخمين . واذا علمنا ان الشعب الالماني كان يبلغ ثمانين مليونا باستثناء الالمانيين المضمومين لبلونيا وتشكوسلوفاكيا ، وعلمنا ان عدد سكان المانيا الغربية اليوم اربعة وخمسون مليونا ، وعدد سكان المانيا الشرقية سبعة عشر مليونا ، المجموع واحد وسبعون مليونا ، علمنا ان الخبر غير صحيح . والظن القائل بان المانيا تعارض تحديد النسل بسبب ما فقدته من القتلى في الحرب لا نصيب له من الصحة ، ولو كان ذلك صحيحا لسنت الحكومة الالمانية قانونا يبيح تعدد الزوجات ولاعادت القانون الذي كان في زمان هتلر يقضي بان تقرض الحكومة كل متزوجين صالحين للتناسل من حيث السن والخلو من العوائق خمسة آلاف من الماركات . وكلما ولد لهما ولد سقط خمس القرض ، فان بلغ عدد اولادهما خمسة سقط القرض كله واعفيا من الضرائب الا شيئا قليلا جدا . واشتركت ام الاولاد الخمسة في عيد الامهات بافتخار عظيم وقدمت لها هدايا خاصة بها وبامثالها . وانا بنفسي استفدت من هذا القانون ، فاني كنت مدرسا في جامعة بون ، ثم طلبتني وزارة الدعاية من وزارة التعليم الالمانية لاكون مصححا للغة الاذاعة العربية فأثبت بشهادات ثبت بان لي خمسة اولاد فسقطت عني الضرائب الا شيئا قليلا جدا . ومن خالط الشعب الالماني يعلم يقينا ان تحديد النسل عادة متأصلة فيه قبل الحرب وبعدها . ولا يستطيع اي تشريع ان يزيلها منه . واذا علمت ان ذلك القانون الذي كان يعمل به في زمان هتلر للتشجيع على الزواج لم يؤثر كثيرا في عزوف رجال المدن عن التزوج واختيارهم العزبة . فلم يتزوج مع ذلك كله الا اربعون في المائة . اما نسبة المتزوجين في القرى والفلاحين فكانت اعلى من ذلك ، لا لاجل ذلك القرض ولكن من اجل التعاون على العمل الشاق الذي يقوم به الفلاح ، ثم ان التزوج في المانيا وفي سائر انحاء اوربة كثر بعد الحرب وتغيرت الافكار بدوافع اجتماعية . فبعدما كان المتزوجون في المدن لا يزيدون على اربعين في المائة صار عددهم بعد الحرب سبعين في المائة . اما في الفلاحين فهو اعلى من ذلك . وعلة ذلك حسبما قرأته وسمعته تتلخص فيما يلي : كان الشاب قبل الحرب اذا كان من ابناء الطبقة الموسرة او كان له ذكاء ممتاز يؤهله لنيل الدراسة العليا لا يفكر في الزواج الا بعد ان يتم تعلمه ويجد عملا ويجمع مالا يستطيع ان يعيش به مع اهل بيته معيشة الترف والبذخ ، ومع ذلك كان اكثر الشبان يمتنعون من الزواج اصلا ، لانهم يرون فيه قيدا ثقيلا يقيد حريتهم ويحملهم هموما كثيرة . واما اذا كان من الطبقة العاملة فان دخله يكون قليلا فيحتاج الى زمان اطول . والمرأة العاملة تحتاج الى زمان طويل تجمع فيه (الغوطة) اي الصداق الذي تقدمه للزوج فتقضي معظم شبابها في العمل لاجل ذلك . اما بعد الحرب فقد رأى الشبان والشابات حاجتهم الى التعاون في وقت التعلم اشد منها فيما بعده ، الا انهم يمتنعون من التناسل الا بعد ان يعدوا لولد او ولدين بالاكثر عدتهما . ونادر جدا ان تجد في مدن المانيا رجلا وزوجته لا يحددان نسلهما اذا لم يمنعاه بالمرة .

3) ـ قوله ، وقد يغير الكاتب رأيه الخ. اقول : وكيف علمت انني لم ازر الشرق الاقصى ؟ لقد قضيت جل عمري في الشرق الادنى والاقصى ، فزرت الهند التي هي اكثر البلاد فقراء معدمين هائمين على وجوههم لا يملكون شيئا اصلا . واقمت فيها خمسة عشر شهرا وطفت جميع انحائها . ولم يكن عندي الا قليل من المال ، فكنت اسافر مع الفقراء في الدرجة الثالثة في القطار واركب اقبح العربات وارخصها اجرة وهي التي تسمى (بگا) يجرها حصان واحد صغير الجسم متولد بين الاتان وهي انثى الحمير ، والحصان ، فهو فحل البغل ، وشكله اقرب الى الخيل منه الى الحمير ، وهذه العربة لوح من خشب على عجلتين قد ركزفوقه اربعة اعمدة وغطي اعلاها بثوب فيركب السائق في مقدم اللوح والى جانبه راكب . والراكبان الاخران يجلسان كل منهما في جانب يولي كل منهما الآخر ظهره ، ووجوههما الى الجانبين . فهذه اقبح العربات . وهناك نوعان آخران ، يصح ان يكون احدهما الدرجة الاولى والثاني الدرجة الثانية . وتجولت في القرى في جميع انحاء الهند ، وسكنت في الهند ، فما رأيت ولا سمعت ان احدا مات من الجوع . ثم دعاني المرحوم علامة الهند السيد سليمان الندوي بعد ذلك بزمان الى ان اتولى منصب رئاسة قسم الادب بكلية ندوة العلماء . فأقمت فيها اكثر من ثلاث سنين ، وتخرج على يدي تلاميذ ، هم نخبة رجال الادب العربي في بلاد الهند وباكستان في هذا الزمان . ولم ازل متصلا ببلاد الهند وباكستان بالمراسلة . وفي بلاد الهند تعلمت اللغة الانكليزية . وهي اول لغة اوربية تعلمتها .

ورأيت في الهند قوما لا يملكون شيئا عراة الاجسام، الا العورة المغلظة . وسمعت انهم اذا كانوا في الفلاة لا يسترون شيئا من اجسامهم ، وانما يسترون العورة المغلظة في المدن لان الحكومة لا تسمح لهم بدخول المدينة عراة . وكل واحد منهم يحمل ابريقا في يده ليستقي به الماء للغسل وللشرب وليس له مأوى ولا وطن، بل يهيمون على وجوههم. وسمعت ان عددهم في ذلك الزمن خمسة ملايين . ولكن عربة الاموات التي تخيلها المنتقد لا وجود لها في بلاد الهند ، وانما هي من اختراع الخيال .

هب ان الجوع القاتل موجود في الهند على سبيل الفرض ، فذلك لا يدل على ان الاغذية لا تفي بحاجة اهل الهند لو اتبعوا الصراط المستقيم . ودونك البيان . في بلاد الهند روساء اقطاع كل منهم يلقب (براجا) وكل راجا يملك ما بين عشرين الى ثلاثين فيلا . غذاء كل فيل منها في اليوم والليلة يشبع خلقا كبيرا من بني آدم . وهذه الفيلة لا يستعملها في فلاحة ولا في غيرها ، وانما يتخذها تعاظما وافتخارا . حتى اذا كان عنده احتفال بعرس او غيره ينصب عليها قبابا من خشب الساج مكسوة بالحرير المذهب على ظهور تلك الفيلة ويركب فيها العروسان واقرباؤهما فيسير قطارها في المدينة في شكل موكب عظيم . فلو وزع ما تنتجه الارض في الهند توزيعا عادلا لما بقي هنالك معوز .

وهب ان ما تنتجه بلاد الهند من الاغذية لا يقوت اهلها ، فلا ينهض ذلك حجة على ان ما تخرجه الارض الصالحة للزراعة في القسم المعمور من الارض وما تخرجه البحور من الاغذية في القسم المغمور لا يكفي سكان الارض . اذن فلم خلقت الجواري في البحر كالاعلام التي تبحر المحيطات شرقا وغربا وجنوبا وشمالا حتى القطبين المكسوة مياههما بجبال الجماد . ولم خلقت القطر التي تشبه مدنا متحركة تقطع المسافات البعيدة بمعدل مائة وخمسين ميلا واقل واكثر في الساعة ، اضف اليها سيارات النقل والطائرات ، زيادة على البهائم ، اذا كانت لا تنقل الاغذية من صقع الى صقع ومن قطر الى قطر ، حتى يتوزع غذاء الارض كلها على سكان الارض كلها ، خصوصا في هذا الزمان الذي اظهر الله فيه الآيات ، واستطاع الانسان ان يبلغ قمة السيادة ويذلل جميع الصعبات . وعند قديم الزمان اهتدى الناس الى تبادل البضائع من الاقوات وغيرها ، ولم يستغن قطر عن قطر ، ولا اقليم عن اقليم ، مع ما كان يلزمهم من المشاق والاهوال لصعوبة الاسفار والعوائق الجوية ، ولم يحدثنا التاريخ بان اقوات اهل الارض عجزت عن تغذيتهم ، فماتوا جوعا .

فان لم يقتنع بما تقدم اجمالا ولا بما يأتي تفصيلا فهلم نقصد السفارة الهندية والسفارة الصينية ونسألهما عن عدد الاموات جوعا وعدد العربات التي تلتقطهم في مخيلة المنتقد ، عفا الله عنه .

4) ـ ثم قال : وقد القيت محاضرة اسبوعية كبرى سنة 1955 تدعو سكان تلك البلاد الى تحديد النسل للتخفيف من ذلك المشكل ، فكانت النتيجة ان اصبح تزايد عدد سكان اليابان اثنين في المائة بدلا من عشرة في المائة في السنة .

اقول ، هنا اسئلة تحتاج الى جواب .

1) متى القيت هذه المحاضرة . 2) اين القيت . 3) من القاها . 4) اين نشرت . 5) ما هي البراهين التي تضمنتها لاثبات هذه الدعوى ؟ . وبدون الاجابة عن هذه الاسئلة يكون هذا الخبر صفرا على اليسار عند من يدري ما يقول ويزنه بقسطاس مستقيم .

5) ـ ثم قال ، هذا ويغلب على الظن ان سبب الخلاف الحالي بين الصين وروسيا راجع الى كثرة عدد سكان الصين . فقد اصبح هذا القطر يحب الحرب لنشر دعوته الاشتراكية . وحب الحرب هذا يؤدي بطبيعة الحال الى هلاك بعض الناس

ليقضي الآخرون عيشهم في رغد وطمأنينة . اقول ، في الحديث الصحيح ، اياكم والظن ، فان الظن اكذب الحديث . وقال تعالى ، ان الظن لا يغني من الحق شيئا) والذي نعرفه ويعرفه غيرنا ، ان الخلاف الواقع بين صفوف الشيوعيين له سبب آخر . وذلك انه بعد وفاة ستالين انكر عليه خلفه خروتشوف امورا ، منها الاستبداد وكثرة سفك الدماء والانحراف عن مذهب ماركس ، فانقسم الشيوعيون في شرقي اوربا نفسها على قسمين ، قسم قبل هذا الرأي وتتبع له ، وقسم انكره ، وكان الصينيون من هذا القسم . وكلا الفريقين يفسر مذهب ماركس ولينين ويرده الى مذهبه . ومن الواضح ان الحزب الشيوعي الالباني من القسم الثاني المحافظ على مذهب ستالين . وقد كنت في برلين الشرقية في شهر يوليو المنصرم فعلمت ان كثيرا من الشباب من الحزب الشيوعي الالماني الشرقي يتعصبون لستالين . وملخص الخلاف ان شيعة ستالين يقولون : يجب على الشيوعية العالمية ان تحارب الرأسمالية بدون هوادة ولا توان الى ان تقضي عليها ويصير العالم كله شيوعيا . ولا تجوز المهادنة ولا المسالمة الا في حالة العجز الى وقت محدود . اما اتباع الرأي الجديد ، ومنهم السابق الى هذه الفكرة واحد ائمة الشيوعية الكبار الماريشال تيتو رئيس الدولة اليوغوسلافية ، فيقولون ان مذهب ماركس ولينين ليس جامدا ، بل هو قابل للتطور . وعلى الرجال القائمين به ان يوجهوه في كل زمان ومكان بما يناسب ذلك المكان وذلك الزمان . ولو عاش لينين الى هذا الزمان مسا سلك غير هذا المسلك . ونحن على يقين ان الشيوعية العالمية تربح من السلم والتعايش السلمي ما لا تربحه من الحرب ، بل خسارتها في ايقاد نار الحرب في هذا الزمان محققة ، وربحها مشكوك فيه . ولا يبيح المحقق بالظنون الا ناقص العقل سيء التفكير . اضف الى ذلك ان الصين دولة عظيمة ، لها شعب يعد بما يزيد على ستمائة مليون ، ثم هي مقصاة من الامم المتحدة محكوم عليها بالنفي ، فترى انه يجب على الشيوعية العالمية ، وعلى رأسها خروتشوف ان تناصرها حتى تنال حقها من خصومها ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة . فميل خروشوف الى مسالمة الولايات المتحدة وعقده لمعاهدة الحظر الجزئي للتجارب النووية ، تعده الصين خذلانا مبينا وتواطؤا مع الاعداء . وهناك امر آخر يزيد في حنق الصين ، وهو ان اختها الروسية فتت عليها بكشف اسرار التجارب النووية ولم تشركها معها في ذلك ، وذلك ينافي صدق الاخوة والاتحاد في جهاد الرأسمالية العالمية . هذه بعض اسباب الخلاف والشقاق الواقع بين الشيوعيين مصحوبة بأدلتها والله اعلم .

6) — ثم قال ، لكن انماء عدد السكان يؤدي الى ضيق البلاد بأهلها وعدم وجود اماكن مناسبة وكافية للقاطنين بها ، فيضطرون الى غزو البلدان الضعيفة لجلب الموارد التي يحتاجون اليها .

اقول تكرارا لما تقدم ، اننا نؤمن بقول الله سبحانه (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) ويستحيل اعتقادا وعقلا وعادة ان يخلق الله خلقا ولم يعد لهم رزقهم . . وما احسن ما قال ابن زريق :

والله قسم بين الناس رزقهم
لم يخلق الله من خلق يضيعه

فمن آمن بذلك لم يكن عنده اشكال . والى من كفر به نسوق البراهين العلمية المادية الاحصائية التالية :

جاء في مجلة الازهر الغراء ، في جزئها الثاني — من السنة الخامسة والثلاثين ، صفر سنة 1383 هـ — يوليه 1963 م بقلم الاستاذ فتحي عثمان ما نصه .

بمناسبة الحملة ضد الجوع الذي تشنه هيئة الاغذية والزراعة بالامم المتحدة .

القول بان الجوع نتيجة نوع من القوانين الطبيعية ، قول لا يسنده رأي علمي ، ومجرد تحليل بعض الارقام يبين لنا ان هذا رأي غير حقيقي . فالمحيطات تغطي 71 في المائة من مساحة سطح الارض ، 29 في المائة هي الجزء اليابس من مساحة السطح ، وهي تبلغ 57 مليون ميل مربع .

منها 30 في المائة تغطيه الغابات .

20 في المائة تغطيه السهول العشبية .

18 في المائة جبلي .

32 في المائة صحراوات حارة او قطبية .

ويقدر روبرت سولتر وهومر شانتز من خبراء وزارة الزراعة في الولايات المتحدة : ان 25 مليونا من الاميال المربعة ، اي نصف مساحة اليابس فقط — يمكن استغلاله في الزراعة بالطرق المتبعة حاليا في استغلال التربة . اما الجبال والصحاري فلا تعتبر صالحة للزراعة ، ولو ان السنوات الاخيرة قد شهدت انتصارات ملحوظة حققتها طرق الزراعة الفنية في هذه البقاع .

ومع ذلك فان هذا الرقم يضع تحت تصرف البشر 16 بليونا من الافدنة يزرعونها ، اي بمعدل ثمانية افدنة لكل فرد من السكان على اساس تعداد العالم الحاضر .

وقد قدر علماء الزراعة والتغذية الذين يدرسون العلاقة بين المساحة المزروعة وانتاج الطعام في ضوء علم التغذية

الحديثة ، ان نحو فدانين لكل فرد يكفيان لتوفير العناصر الضرورية لغذاء معقول . وعلى اساس هذه النسبة تستطيع الزراعة ان تستغل ربع المساحة الصالحة للزراعة في العالم .

والى اليوم تبلغ المساحة المزروعة في العالم اكثر من بليونين من الافدنة ، اي نحو الثمن من المساحة الممكن زراعتها .. وقد اسقطنا من حسابنا نصف مساحة اليابس . فالجبال والصحاري لم تحسب ضمن الارض الصالحة للزراعة مع ان مآت الالاف من الافدنة في الصحراوات المدارية قد تحولت اخيرا الى الزراعة بفضل الاساليب الحديثة ، وان الروس يكسبون بطرقهم الزراعية المدهشة اراضي جديدة واسعة من الصحاري القطبية يحولونها الى الزراعة .

ومن النظريات الاخرى التي تثير الفزع ، القول بان انتاج الطعام لا يمكن زيادته ، لاننا بلغنا الحد الاقصى لطاقة التربة ، وكذلك حدود التشبع البشري .

ولكن الحقائق هي :

اولا ــ من الخمسين في المائة من اراضي العالم التي يمكن زراعتها ، لا يزرع الآن سوى عشرة في المائة .

ثانيا ــ ان غلة الفدان في اكثر جهات العالم يمكن زيادتها زيادة كبيرة باستعمال طرق زراعية معقولة .

وقد انتهت لجنة منظمة التغذية والزراعة التي طبعت التقرير الخاص بالتغذية في العالم الى ان انتاج القمح في الهند يمكن زيادته 30 في المائة في عشر سنوات منها :

20 في المائة بواسطة استخدام المخصبات .

5 في المائة بواسطة استعمال اصناف جديدة .

5 في المائة بواسطة حماية المحصول من الآفات والحشرات .

ويستطرد التقرير فيقول : انه بعد انقضاء هذه الفترة قد تستخدم وسائل جديدة تؤدي الى رفع هذه الزيادة الى 50 في المائة . ويمكن ان يحدث نفس الشيء في جهات كثيرة من العالم .

ويقدر ريموند كريتنس ان نصف الزيادة في الانتاج الزراعي بالولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية كان يرجع الى ادخال طرق فنية جديدة .

ان امكانيات علاج الحيوان المستأنس والنبات بوصفها وسائل انتاج غذائي ، تستطيع زيادة حصيلتها كما وكيفا (؟)

ولدينا امثلة كثيرة على ذلك ، بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، استطاعت تربية الحيوان على اسس علمية ان تزيد من معدل انتاج اللبن في الدانمرك من 2 000 الى 3200 رطل لكل رأس ، وفي انجلترا من 2700 الى 3200 رطل ، وفي نيوزيلندا من 2000 الى 3100 رطل . وهناك طريقة التوسع الزراعي بزراعة اراضي جديدة وانواع جديدة من التربات . وادخال نباتات وحيوانات جديدة للاغراض الغذائية ، كذلك يستطيع استغلال موارد غذائية لم تطرق بعد ، كالثروة الهائلة التي تزخر بها البحار ، كما انه من الممكن تربية الاحياء في مياه المحيطات لتزيد من موارد الانسان الغذائية . ان اول نصر كبير على الجوع سوف يأتي في شكل زيادة اساسية في الانتاج العالمي للغذاء . وتقف الطبيعة والعلم كلاهما على استعداد للمعاونة في هذا السبيل .

وهناك مساحة شاسعة من الاراضي غير المستعملة تنتظر الاستغلال ــ وتستطيع الفنون الزراعية ان توضح لنا احسن طرق استغلالها ، كما تستطيع ان تبين لنا كيف نزيد استفادتنا من الارض التي نزرع فعلا ، وكذلك من البحر او حتى من مركبات المواد غير العضوية ..

هكذا يبسط لنا خبير معهد التغذية بجامعة البرازيل (جوزويه دي كاسترو ــ آمال العلم)

اظن ان هذه الارقام الناطقة تقيم البرهان الحي لمن لا يؤمن بكلام الله ووعده الذي لا يخلف . وهي غنية عن التعليق .

7) ــ قوله ، والله سبحانه يقول (ان ارضي واسعة واياي فارهبون) اقول ، في اي كتاب قال ذلك ؟ اهي القرآن ام في التوراة ام في الانجيل ؟ اما في هذه الكتب الثلاثة فلا يوجد هذا التعبير . وان كان فيما نزل على آدم وشيث وادريس وابراهيم الخليل فلم نطلع على كتبهم . والعجب ممن يريد ان ينصب نفسه منتقدا ثم لا يحفظ القرآن ولا يكلف نفسه مراجعة المصحف او يسأل اي حافظ للقرآن ، وحفاظه كثير . والذي في القرآن ، هو قوله تعالى في سورة العنكبوت (56 ، يا عبادي الذين آمنوا ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون) وهذه الآية نزلت في المستضعفين من المؤمنين بمكة الذين كانوا يخافون من كفار مكة ان يظهروا ايمانهم ، فحثهم الله على الهجرة الى الارض التي يكونون فيها احرارا قادرين على اظهار دينهم . فان الرزق مضمون لهم اينما ذهبوا في ارض الله ، وليس مقصورا على وطنهم واما قوله ، واياي فارهبون ،

فانها في سورة البقرة ، قال تعالى (40 ، يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدي اوف بعهدكم واياي فارهبون) .

8) ـ ثم قال ، لكنه يقول في مناسبة اخرى (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) لقد مضى على نزول هذه الآية الف وثلاثمائة وبضع وثمانون سنة ، ولم يفهم منها احد الدلالة على منع الحمل خوفا من ضيق الرزق ، مع ان آلافا من العلماء لمسوها من عهد الصحابة الى يومنا هذا .

روى ابو داود في سننه عن اسلم ابي عمران قال : كنا بالقسطنطينية ، وعلى اهل مصر عقبة بن نافع وعلى اهل الشام يزيد بن فضالة بن عبيد ، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم ، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج الينا ، فصاح الناس اليه ، فقالوا سبحان الله ، القى بيده الى التهلكة ، فقال ابو ايوب ، يا ايها الناس انكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وانما نزلت فينا معشر الانصار ، انا لما اعز الله دينه وكثر ناصروه ، قلنا فيما بيننا ، لو اقبلنا على اموالنا فاصلحناها ، فانزل الله هذه الآية . اذن معنى الآية ، النهي عن ترك النفقة في الجهاد في سبيل الله ، فان ذلك يفضي بهم الى غلبة العدو ، وهو التهلكة .

واكتفي بهذا القدر ولا ارى حاجة للرد على بقية كلامه، لان من قرأ مقالي المنشور في مجلة دعوة الحق في جزءيها السادس والسابع من سنتها السادسة يجد الجواب عنه مفصلا ، فلا حاجة الى تكراره . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

عناية ملوك الدولة العلوية ورجالاتها بالكتاب والسنة تعلماً وتعليماً وعملا

للدكتور تقي الدين الهلالي

عناية دول المغرب واهله بالعلم والدين :

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية فى لفظ (مركو) اي المغرب ما معناه : منذ تأسست الدولة المغربية المسلمة فى المغرب ، ثم فى الاندلس ، غص بها (البابا) رئيس الكنيسة الكاثوليكية وسائر الدول النصرانية التي تحيط بهذه الدولة المسلمة ، ولم يزالوا يحثون السعي وينصبون الحبائل ، ويكيدون المكايد للقضاء عليها .

فلما تمكنوا من القضاء على الاسلام فى الاندلس ، كانوا جميعا متعاونين على ذلك ، ولم تكن (اسبانيا) وحدها هي التي قضت على دولة الاسلام فى جنوب اوربا . ومنذ ذلك العهد اخذوا يبذلون كل جهودهم للقضاء على البقية الباقية ، وهي دولة المغرب المسلمة، وتعصبوا فى ذلك كل التعصب ، حتى تمكنوا من بغيتهم فى سنة 1912 . هذا ما علق بذهني مما قرأته منذ زمان طويل فى الكتاب المذكور . وليس عندي الآن نسخة من دائرة المعارف الاسلامية فاراجعه .

ومن المعلوم ان جهاد الدول المغربية من مرابطين وموحدين ومرينيين . وقد نقل مؤرخو المغاربة ان العالم العامل الاصيل النبيل مولاي علي الشريف السجلماسي رحمه الله واثابه رضوانه ضرب بسهم وافر فى هذا الجهاد ابتغاء مرضاة الله وامتثالا لامره قبل أن تؤسس الدولة العلوية من قبل ابنائه البررة بزمان طويل .

ولا شك ان جهاد المغاربة ، ودفاعهم عن اخوانهم المسلمين فى الاندلس اخر غزو الدول النصرانية بزعامة الكنيسة الرومانية لدولة الاسلام فى الاندلس زهاء خمسمائة سنة على الاقل ، وذلك برهان قاطع على علمهم وشهامتهم ونجدتهم . والشجاعة التي لا يصحبها العلم حيوانية وحشية ، لا تدوم ولا تثمر ، كما وقع فى غزو التتر لبلاد الاسلام ، فانه كان كغزو ذئاب لزريبة غنم ، افساد محض ، وتدمير ، لم ينشأ عنه اصلاح ، لا فى الدين ولا فى الاخلاق ، ولا فى العلم ولا فى العمران ولا فى التمدن ، بخلاف الغزو المغربي لعدوة الاندلس ، فقد نشأت عنه مدنية بهرت العالم ، وانتشر نورها فى جميع انحائه ، ولا تزال آثارها شامخة ، قرة عين للاسلام ، وسخنة عين لاعدائه . ومن لم يطلع على علوم المغاربة ملوكهم وامرائهم وخاصتهم وعامتهم ، فليقرأ كتاب اخينا الاستاذ العبقري سيدي عبد الله كنون الذي اسماه (النبوغ المغربي) فانه يجد فيه فوق ما يؤمله ، مع أن ما ضاع من ذلك ، وما لا يزال فى بطون الخزائن اكثر بكثير مما نشر .

ولكني لا اريد ان اخرج كثيرا عن الموضوع فاقول: ان العناية بكتاب الله وسنة رسوله لم تزل الشغل الشاغل لدول المغاربة منذ تاسست اولاها بقيادة السلالة الطاهرة الامام ادريس بن عبد الله الكامل رحمه الله واثابه رضاه الى يومنا هذا . وهذا المقال لا يتسع لآثر ملوك المغرب فى هذا الباب ، فان من اراد ذلك يحتاج الى مجلدات ، ولكني اريد ان الم الماما بذلك ، واجمل فيه القول اجمالا فاقول :

ان التمسك بكتاب الله وسنة رسوله يندرج تحت اقسام التوحيد الثلاثة ، توحيد الاسماء والصفات ، وتوحيد الالهية والعبادة ، وتوحيد الاتباع . فدولة المرابطين وجهت اكثر عنايتها الى القسم الاول ، وهو توحيد الاسماء والصفات ، فكانوا على عقيدة السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين وابي الحسن الاشعري وتلامذته المتقدمين .

وقد الف الامام ابن ابي زيد القيرواني كتاب السنة في العقائد ، وذكر نبذة في ذلك في أول الرسالة . وقد نقلت نبذة منه من كتاب (الجيوش الاسلامية في غزو المعطلة والجهمية للحافظ ابن القيم في كتابي (مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل) . ونقلت مثله عن ابي القيم ايضا للامام الحافظ ابي عمر ابن عبد البر ، امام السنة في زمانه رحمه الله تعالى في كتاب (التمهيد) في شرح الحديث الثامن لابن شهاب .

فاذا اردت ان تعرف عقائد اهل المغرب والاندلس في اسماء الله وصفاته قبل ظهور محمد بن تومرت ودولته ، فعليك بالكتابين المذكورين . ولذلك اجمع علماء المغرب من اهل العدوتين على احراق كتاب (الاحياء) لابي حامد الغزالي لوجود مباحث علم الكلام فيه على طريقة المتاخرين من الاشاعرة .

ودولة الموحدين وجهت اكثر عنايتها الى القسم الثالث من اقسام التوحيد ، وهو توحيد الاتباع ، فاحيت علوم السنة ، وابطلت كتب الفروع والراي ، وحصرت الفتوى والقضاء والعبادة في العمل بحديث رسول الله (ص) .

قال الناصري في الاستقصا في ج 2 ص 126 بالطبعة المغربية ما نصه : امر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى الاصول من الكتاب والسنة .

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة امر امير المؤمنين عبد المومن بن علي باصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات ما كانت . وامر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ، ورد الناس الى قراءة كتب الحديث ، واستنباط الاحكام منها ، وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة ، فجزاه الله خيرا . اهـ .

وهذا اللفظ بعينه موجود في كتاب (القرطاس) لابن ابي زرع ، في ترجمة عبد المؤمن ابن علي الموحدي من حوادث سنة (550) هـ . ونقل عبد الواحد المراكشي مثل ذلك في كتاب المعجب ، ونسبه الى يعقوب المنصور الموحدي .

ولا اشكال عندي في ذلك ، لان ملوك هذه الدولة ومؤسسها محمد بن تومرت بنوا امرهم على تحقيق الكتاب والسنة ونبذ الراي . وعبد المؤمن هو المؤسس الحقيقي الذي تم له الامر ، وكان عنده من العلم بالكتاب والسنة ، وفنون الآداب ، والسياسة والنجدة والشجاعة ما يحمله على ذلك .

ولا شك ان كتب الفروع المتضمنة للاقيسة الفاسدة التي هي قياس الفروع على الفروع ، ولو بغير ضرورة ، كانت منتشرة في جميع انحاء المغرب ، لان الناس كانوا يعتمدون عليها ويعملون بها ، فلا يمكن ان تحرق في وقت واحد . فالظاهر ان عبد المؤمن رحمه الله لما احرق ما حصل عنده منها جعلها سنة في عقبه ، فاخذوا يحرقون كتب الفروع متى وجدوا شيئا منها . فسار يعقوب المنصور على هذه السنة ، وان شئت ان تعلم ان احرار العلماء ومحققيهم من اهل المغرب ، لم يزالوا على هذا الراي الى زماننا هذا ، فتامل قول صاحب الاستقصا رحمه الله بعد نقله هذا الخبر عن عبد المؤمن (فجزاه الله خيرا) فان ذلك يدل على ان الشيخ الناصري استصوب ذلك واستحسنه .

وحدثني من اثق به ان الامام المحدث عبد الله السنوسي نزيل طنجة ودفينها ، وكان استاذا لمولاي عبد العزيز السلطان ، وقدوة له ، كما اخبرني مولاي عبد العزيز نفسه بذلك ، اي بانه كان استاذا له ، راى في فاس جماعة من الفقهاء ، قد ارتكبوا بدعة فاعتزلهم ، فجاءه احدهم ، وهو الشيخ العباس التازي قاصدا مداعبته فقال له : نحن خليليون فاجابه الشيخ على البديهة (اف لكم ولما تعبدون من دون الله) فضحك الشيخ التازي من هذه النكتة اللطيفة .

ولا شك ان من ترك الكتاب والسنة ، وحكم براي غير المعصوم ، فقد عبده من دون الله . قال القاسمي في تفسير آية التوبة (31 اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) .

قال الرازي : الاكثرون من المفسرين قالوا : ليس المراد من الارباب انهم اعتقدوا فيهم انهم آلهة العالم ، بل المراد انهم اطاعوهم في اوامرهم ونواهيهم . اي لما روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال : اتيت النبي (ص) ، وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي ، اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرا في سورة براءة (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) قال : اما انهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا اذا احلوا لهم شيئا استحلوه ، واذا حرموا عليهم شيئا حرموه .

وروى احمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم انه لما بلغته دعوة النبي (ص) فر الى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فاسرت اخته وجماعة من قومه ، ثم من النبي (ص) على اخته واعطاها ، فرجعت الى اخيها فرغبته في الاسلام ، وفي القدوم على رسول الله (ص) ، فقدم عدي المدينة ،

وكان رئيسا في قومه طيء ، وابوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على النبي (ص) ، وفي عنق عدي صليب من فضة ، وهو يقرا هذه الآية (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) .

قال ، فقلت : انهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى ، انهم حرموا عليهم الحلال ، واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم اياهم . اهـ .

ومن اراد ان يطلع على فساد التقليد ، ووجوب اتباع الكتاب والسنة فليقرا كتاب (جامع بيان العلم وفضله) للامام ابي عمر يوسف بن عبد البر النمري الاندلسي المتوفى سنة 463 هـ ، وهو اندلسي ، وكانت بلاد الاندلس في زمانه متحدة مع المغرب تحت حكم المرابطين في اواخر دولتهم .

فكتب ابن عبد البر كجامع بيان العلم وفضله السالف الذكر ، وكتاب التمهيد شرح الموطا الذي لم يؤلف في فقه الاسلام مثله على رأي بعض العلماء ، هي التي هيأت الافكار لقبول دعوة الموحدين الى توحيد لاتباع ، ونبذ التقليد ، والحكم بما انزل الله .

الدولة العلوية

لم يكتب لدولة من دول المغرب من طول العمر ، واذعان اهل المغرب وتعلقهم واخلاصهم مثل ما كتب لهذه الدولة المباركة ، وقد تقدمتها الدولة السعدية ، ولكن عمرها لم يبلغ مائة سنة حتى اصابها الوهن ، وتضعضعت اركانها ، وملوكها كما لمن سبقهم من ملوك المغرب نصيب وافر من العلم ، واكرام اهله .

اما ملوك هذه الدولة العلوية ، فانهم قاموا بجمع الكلمة ، وضم الشمل ، والاجتماع على كلمةواحدة حين راى اوائلهم الاماجد ما حل بالمغرب من التفرق والتقاتل ونسيان امر الدين والجهاد ، فصار باسهم بينهم ، وطمع فيهم عدوهم الذي لم يزل لهم بالمرصاد . وعنايتهم بالعلم ، وخصوصا علوم الكتاب والسنة كنار على علم . ولم يكن ذلك فيهم خاصا بالملوك وحدهم ، بل كان رؤساؤهم وفضلاؤهم يتنافسون فيه ويعمرون به مجالسهم ، ولضيق المقام ، وعدم الخروج عن الموضوع كثيرا اخص بالذكر منهم اربعة ، سيدي محمد ابن عبد الله ، ومولاي سليمان بن محمد . والامام المنقذ محرر المغرب ومخلصه محمدا الخامس ، وخليفته امام الوقت جلالة الملك الحسن الثاني ، رحم الله سلفه ، وبارك في عمره ، وبلغه الآمال ، ووفقه لصالح الاعمال ، واقر عينه بولي عهده سيدي محمد .

الامام سيدي محمد بن عبد الله ابن اسماعيل

قال صاحب الاستقصا : كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله محبا للعلماء واهل الخير مقربا لهم ، لا يغيبون عن مجلسه في اكثر الاوقات ، وكان يحضر عنده جماعة من اعلام الوقت وائمته . منهم الفقيه العلامة المشارك ابو عبد الله محمد بن عبد الله الغربي الرباطي . والفقيه العلامة المحقق ابو عبد الله سيدي محمد المير السلوي . والفقيه الدراكة ابو عبد الله محمد الكامل الرشيدي . والفقيه السيد ابو زيد عبد الرحمن المدعو بابي خريص .

هؤلاء اهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ، ويخوضون في معانيها ، ويؤلفون له مسائل يستخرجه منها على مقتضى اشارته ، وكانت له عناية كبيرة بذلك . وجلب من بلاد المشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب ، مثل مسند الامام احمد وغيره .

والف رحمه الله في الحديث تآليف باعانة الفقهاء الذين ذكرناهم آنفا . منها كتاب مسانيد الائمة الاربعة ، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم ، التزم فيه ان يخرج من الاحاديث ما اتفق على روايته الائمة الاربعة او ثلاثة منهم ، او اثنان ، فاذا انفرد بالحديث امام واحد ، او رواه غيرهم لم يخرجه ، وهذا المنوال لم يسبق اليه رحمه الله .

وكان كثيرا ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها ، ومن يحضره من علماء فاس وغيرهما للمذاكرة في الحديث الشريف . وتفهمه ، ويحصل له بذلك النشاط التام ، وكان كثيرا ما يتاسف اثناء ذلك ويقول . والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة ، ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم ايام الشباب .

ولما فاته الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر . اعتكف اولا على سرد كتب التاريخ ، واخبار الناس . وايام العرب ووقائعها ، الى ان تملى من ذلك ، وبلغ فيه الغاية القصوى ، وكاد يحفظ ما في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، من كلام العرب ، وشعراء الجاهلية والاسلام .

ولما ولاه الله امر المسلمين بعد وفاة والده ، زهد في التاريخ والادب ، بعد التضلع منهما ، واقبل على سرد كتب الحديث ، والبحث عن غريبها ، وجلبها من اماكنها

ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها . ورتب لذلك رحمه الله اوقاتا مضبوطة لا تنخرم ، حذا بها حذو المنصور السعدي في اوقاته المرسومة عند الفشتالي في مناهل الصفا ، حتى انه كان اذا خرج لزيارة او صيد او نزهة ايام الربيع ، واقام الاسبوع ونحوه ، فاذا جاءت الجمعة ودخل تحرى النزول بمنازل المنصور التي كان ينزل بها وقت خروجه لزيارة اغمات ونحوها ورجوعه ويقول : هذه منازل المنصور رحمه الله ، وهو استاذنا في مثل هذه الامور .

ومن عجيب سيرته رحمه الله انه كان يرى ان اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره ، واعراضهم عن الامهات المبسوطة الواضحة تضييع للاعمار في غير طائل .. وكان ينهى عن ذلك غاية ، ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ، ومختصر ابن عرفة وامثالها . ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك ، حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل . وانما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وامثالهما ، حتى وضع في ذلك كتابا مبسوطا ، اعانه عليه ابو عبد الله الفربي ، وابو عبد الله المير وغيرهما من اهل مجلسه .

ولما افضى الامر الى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر ، ويبذل على حفظه وتعاطيه الاموال الطائلة ، والكل ماجور على نيته وقصده ، غير انا نقول : الراي ما راى السلطان سيدي محمد رحمه الله .

وقد نص جماعة من اكابر الاعلام النقاد ، مثل الامام الحافظ ابي بكر بن العربي والشيخ النظار ابي اسحاق الشاطبي ، والعلامة الواعية ابي زيد عبد الرحمن بن خلدون وغيرهم : ان سبب نضوب ماء العلم في الاسلام ، ونقصان ملكة اهله فيه ، اكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم ، واعراضهم عن كتب الاقدمين المبسوطة المعاني ، الواضحة الادلة ، التي تحصل لمطالعها الملكة في اقرب مدة .

ولعمري لا يعلم هذا يقينا الا من جربه وذاقه . وقد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب ان ملوك بني عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع في الاحكام الى الكتاب والسنة ، كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ، ومحافظة على اصوله . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية . وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تاويل .

وكان يقول عن نفسه ، حسبما صرح به في آخر كتابه الموضوع في الاحاديث المخرجة من الائمة الاربعة : انه مالكي مذهبا ، حنبلي اعتقادا . يعني انه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المتاخرين ، وله في ذلك اخبار وماجريات . قلت : وهو مصيب ايضا في هذا ، فقد ذكر ابو حامد الغزالي في كتاب الاحياء : ان علم الكلام ، انما هو بمنزلة الدواء ، لا تحتاج اليه الا عند حدوث المرض ، كذلك علم الكلام لا يحتاج اليه الا عند حدوث البدعة في قطر . اهـ .

تعليقات

1 ـ قوله رحمه الله (هذه منازل المنصور ، وهو استاذنا في مثل هذه الامور) هذا الكلام من ملك عظيم ، خصه الله بمزايا قل ما اجتمعت فيمن قبله من الملوك ، يدل على تواضع محمدي نبوي خالص ، وصفاء سريرة هاشمية طيبة .

ومن المعلوم ان اسلاف هذا الملك المؤسسين للدولة العلوية قضوا على بقايا السعديين حين اختل نظام ملكهم ، وعجزوا عن القيام بواجبهم ، وعمت الفوضى في انحاء المغرب ، ووقعت حروب بين الفريقين، فلم يلتفت قدس الله روحه الى شيء من ذلك ، ولم يكتف بالثناء على سيرة المنصور السعدي والاعجاب به حتى قال ، هو استاذنا ، وهذا غاية في مكارم اخلاق الملوك العظام ، والائمة الكرام .

2 ـ قوله رحمه الله (ومن عجيب سيرته انه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره) الخ .

انا لا ارى في ذلك عجبا ، وكل من اطلع على تاليف هذا الامام ، وانعم النظر فيها ، وعرف سمو همته ، وغزارة علمه ، لا يتعجب ابدا في نصيحته لابناء شعبه ، بطرح تلك المختصرات التي افسدت العلم ، وابعدت طلابه عن الموارد الصافية العذبة المعززة بالادلة من الكتاب والسنة الواضحة المعاني ، البليغة المباني . ومن ذا الذي يرغب عن كتاب المسائل الكبرى والصغرى لعبد الحق الاشبيلي ، وكتاب التمهيد لابي عمر بن عبد البر ، والمحلى لابي محمد بن حزم ، ثم يشتغل بمختصر خليل وشروحه وحواشيها الا من حرم التوفيق ، واختار الظلمات على النور ، وترك الظل وجلس في الحرور .

وانا اعتقد ان اولئك الاساتذة الذين كانوا مع هذا الامام لم يكونوا الا ساردين وكاتبين ومذاكرين ، لان النتيجة التي خرج بها هذا الملك من دراسته لم يسبقه اليها احد من اهل زمانه ، لا اولئك الاساتذة ولا غيرهم .

وقد قرات منذ زمان طويل في كتابه الذي حاذا به الرسالة تشنيعه على خليل لقوله في مختصره (ومن ترك صلاة اخر ابقاء ركعة بسجدتيها من الضروري ، وقتل بالسيف حدا ، ولو قال انا افعل) لان هذا الحكم جائر ومخالف لادلة الكتاب والسنة ، فان الكافر كيفما كان كفره ، اذا تاب قبلت توبته ، فكيف يقدم على قتل الرجل وهو يقول : تبت الى الله واريد ان اصلي . هذا ما علق بذهني من كلام هذا الامام رحمه الله .

وحدثني استاذي المصلح سيدي محمد بن العربي العلوي ان الامام محمد بن عبد الله شنع على خليل ايضا لعبارة له في باب الردة من مختصره ، لا اريد ذكرها هنا . وانشدني شيخنا محمد سيدي بن حبيب الله الندغي الشنقيطي عن بعض شيوخه قوله :

من شر ما قد شاع في ذا الجيل
تـرك الرسالـة الـى خليـل

3 ـ قوله : وكان السلطان سيدي محمد ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية) الخ .

هذه منقبة جليلة ، ومفخرة عظيمة منحها الله هذا الامام الجليل ، وخصه بها تبقى في سجل حسناته الى الابد ، ينتفع بها من اراد الله به خيرا من اهل المغرب وغيرهم .

وقد تقدم ان اهل المغرب منذ اكرمهم الله بالاسلام كانوا على عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، والائمة المجتهدين ، وائمة الحديث ، ولم يزالوا كذلك حتى جاء محمد ابن تومرت بظلمات علم الكلام والجدل المبدعة ، المنسوبة زورا وبهتانا الى ابي الحسن الاشعري ، وهو منها بريء . فهذه كتبه تصرح بعقيدته السلفية الحنبلية ، وتفير في وجه كل من ينسب اليه العقائد المبتدعة .

فمما وقفنا عليه منها كتاب (مقالات الاسلاميين، واختلاف المصلين) طبع في استنبول ومنها كتاب (الابانة عن اصول الديانة) طبع في حيدراباد في الهند .

اما ما في السنوسيات الثلاث ، والجوهرة ، واضاءة الدجنة ، وبدء الامالي ، وارجوزة ابن عاشر ، فنسبتها اليه باطلة . وقد الف الحافظ بن عساكر كتابا سماه (تبين كذب المفتري فيما نسب الى ابي الحسن الاشعري) طبع في دمشق .

وقد نقل الحافظ ابن القيم كلام ابي الحسن الاشعري ، واتباعه من ائمة الاشعرية المحققين ، كالقاضي ابي بكر الباقلاني ، والحسين بن احمد الاشعري ، والامام فخر الدين الرازي ، وابي العباس احمد بن محمد المظفري المختار الرازي . ذكر ذلك وبسط اقوالهم في كتابه (اجتماع الجيوش الاسلامية في غزو المعطلة والجهمية ص 119) .

فقد اطفات عقيدة ابن تومرت انوار العقيدة المحمدية القرآنية السلفية زهاء 650 سنة من اوائل القرن السادس الى بيعة سيدي محمد بن عبد الله في صفر سنة 1171 ، فغاص في بحور العلم والمعرفة ، واخرج منها درر العقيدة السلفية النيرة ، وجدد ما كان عليه اهل المغرب الى آخر زمان المرابطين ، من نبذ الجدل والتخرص ، ووصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وبما وصفه به رسوله (ص) ، وهو اعلم الناس بالله ، واشدهم له خشية كذلك جدد محمد بن عبد الله عقيدة محمد بن عبد الله ، وكان احق بها واهلها .

وكان النصف الجنوبي من المغرب يعيش في رخاء وامن وطمانينة ، لانه كان خليفة لوالده في مراكش . اما النصف الشمالي الذي كان تحت حكم والده ، فقد كان في هرج ومرج والفوضى والفتن فيه تشتعل نارها .

وما منعه من اخذ بيعة الناس في حياة والده الابر الوالدين ، فان قلت : قد فهمنا من كلامك ان عقيدة المتاخرين من الاشاعرة مبتدعة وظلمات ، ولذلك نهى عنها الملك البار سيدي محمد بن عبد الله ، فهل لك ان تدعم هذا القول بنقل عن الائمة السابقين والعلماء المحققين لتطمئن به نفوسنا ، فالجواب ، نعم ، ونعمة عين .

قال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله ج 2 ص 95 في سياق النهي عن الخوض في علم الكلام ما نصه : قال ابو عمر : اجمع اهل الفقه والآثار من جميع الامصار ان اهل الكلام ، اهل بدع وزيغ ، ولا يعدون عند الجميع في جميع الامصار في طبقات العلماء، وانما العلماء اهل الاثر والتفقه فيه ، ويتفاضلون فيه بالاتقان والميز والفهم .

ثم روى بسنده الى ابي عبد الله محمد بن احمد بن اسحاق بن خويزمنداد ، قال في كتاب الاجارات من كتابه في الخلاف قال مالك : لا تجوز الاجارات في شيء من كتب الاهواء والبدع والتنجيم ، وذكر كتبا ثم قال :

وكتب اهل الاهواء والبدع عند اصحابنا ، هي كتب اصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وتفسخ الاجارة في ذلك ، قال: وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما اشبه ذلك .

وقال في كتاب الشهادات في تاويل قول مالك : لا تجوز شهادة اهل البدع واهل الاهواء . قال اهل الاهواء عند مالك وسائر اصحابنا ، هم اهل الكلام . فكل متكلم فهو من اهل الاهواء والبدع ، اشعريا كان او غير اشعري ، ولا تقبل له شهادة في الاسلام ابدا ، ويهجر ويؤدب على بدعته ، فان تمادى عليها استتيب منها .

قال ابو عمر : ليس في الاعتقاد كله في صفات الله واسمائه الا ما جاء منصوصا في كتاب الله ، او صح عن رسول الله (ص) ، او اجمعت عليه الامة ، وما جاء من اخبار الآحاد في ذلك كله او نحوه يسلم له ولا يناظر فيه . اهـ .

فاذا فهمت هذا ، علمت مقدار النعمة الكبرى التي اجراها الله على يد الامام محمد بن عبد الله ، وانه يجب على اهل العلم من المغاربة ان يعرفوا قدر هذه النعمة ، ويشكروا الله عليها بتعليمها ونشرها بين ابناء جلدتهم وغيرهم من الناس ، ويشكروا من جرت على يده بالثناء عليه ، ونشر علمه ، والاقتداء به ، ودراسة سيرته ، والاستفادة منها .

فقد روى احمد والترمذي من حديث ابي هريرة قال ، قال رسول الله (ص) : من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وهذا هو القسم الاول من اقسام التوحيد ، شرع في تجديده واحيائه سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله . نسال الله ان يوفقنا لاتمام ما بداه حتى يرجع اهل المغرب الى ما كان عليه اسلافهم من عقيدة السلف الصالح ، وما ذلك على الله بعزيز .

السلطان مولاي سليمان بن محمد

ودعوته الى توحيد العبادة

كان السلطان مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل رحمه الله نسخة من ابيه المصلح العظيم ، المتقدم الذكر ، مقتديا به ، ناسجا على منواله في الشغف بالعلم وملازمة مجالسه ، وتحري اتباع الكتاب والسنة ، ومحاربة البدع المفرقة .

ولما بلغه كتاب امير الحرمين عبد الله سعود في شرح دعوة المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي تتلخص في الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، ومنابذة ما احدثه المحدثون من الغلو في قبور الصالحين والتعلق بهم ، بالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة ، وغير ذلك من انواع العبادة التي هي حق لله على عباده ، ولا يجوز صرف شيء منها لغيره ، تلقاها السلطان مولاي سليمان بما تستحقه من الاحتفال والاهتمام ، فجمع العلماء ، اقتداء بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي امره الله ان يشاور اصحابه ، فلما درس السلطان ومن معه من العلماء رسالة الامير السعودي ، وعلموا ان ما تضمنته هو الحق الذي لاشك فيه ، بالغ السلطان في العناية بهذه الرسالة حتى اوفد ابنه المولى ابا اسحاق ابراهيم ، وبعث معه جماعة من العلماء ، منهم القاضي ابو الفضل العباس بن كيران . والاستاذ الامين بن جعفر الحسني الرتبي السجلماسي . والاستاذ ابو عبد الله محمد العربي الساحلي ، وغيرهم من علماء المغرب واعيانه .

قال في الاستقصا نقلا عن صاحب الجيش : ان المولى ابراهيم ذهب الى الحج ، واستصحب معه جواب السلطان ، فكان سببا لتسهيل الامر عليهم ، وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقا وغربا ، حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الامن والامان ، والبر والاحسان .

وقال : حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى ابراهيم في تلك السنة ، انهم ما راوا من ذلك السلطان ـ يعني ابن سعود ـ ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة ، وانما شاهدوا منه ومن اتباعه غاية الاستقامة ، والقيام بشعائر الاسلام ، من صلاة وطهارة وصيام ، ونهي عن المنكر الحرام ، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات ، والآثام التي كانت تفعل بهما جهارا من غير نكير .

وذكروا : ان حاله كحال آحاد الناس ، لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس ، وانه لما اجتمع بالشريف المولى ابرهيم اظهر له التعظيم الواجب لاهل البيت الكريم ، وجلس معه كجلوس احد اصحابه وحاشيته . اهـ

ولما وقعت المباحثة بين الوفد المغربي برئاسة الامير مولاي ابراهيم ، وبين الامير عبد الله بن سعود في المسائل التي ينسبها المبتدعون وعباد القبور الى آل

سعود وآل عبد الوهاب، ايقن الوفد المغربي، بأن تلك التهم اكاذيب ، وان عقيدة السعوديين مطابقة لما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، والائمة المجتهدين ، وشاهدوا ذلك بأعينهم فرجعوا الى موفدهم السلطان الجليل مولاي سليمان بالخبر اليقين

ثم قال صاحب الاستقصا رحمه الله واقول: ان السلطان المولى سليمان رحمه الله كان يرى شيئا من ذلك (يعني انكار ما يفعله الجهال من التعلق بقبور الصالحين ، وقصدها بالذبح والنذر وطلب الحاجات من اصحابها ، والاستغاثة بهم في الشدائد ، واقامة المواسم عند قبورهم ، الى غير ذلك من البدع الشنيعة، المفضية الى الشرك بالله ، بل بعضها ، وهو الاستغاثة والدعاء من الشرك الاكبر) .

ثم قال صاحب الاستقصا : (ولاجل ذلك كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقهة الوقت ، (يعني اصحاب الطرق المدعين للتصوف، المنغمسين في البدع والشرك) وحذر فيها رضي الله عنه من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة ، وبين فيها بعض آداب زيارة القبور ، وحذر من تغالي العوام في ذلك ، واغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين ، جزاه الله خيرا ..

ومن كلامه فيها ما نصه : تنبيه : من الغلو البعيد، ابتهال اهل مراكش بهذه الكلمة (سبعة رجال) فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم ؟ الى ان قال : فعلينا ان نقتدي بسبعة رجال ، ولا نتخذهم آلهة ، لئلا يؤول الحال فيهم الى ما آل اليه في يغوث ويعوق ونسر . الخ

وصدق رحمه الله ، فكم من ضلالة وكفر ، اصلها الغلو في التعظيم . وما ضلت النصارى الا من غلوهم في عيسى وامه عليهما السلام قال الله تعالى : « يا اهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق » الآية . ومن ذلك قصة يغوث ويعوق ونسر المشار اليها ، وهي مذكورة في الصحيح ، وفي كتب التفسير.

وحكى ابن اسحاق في السيرة : ان اصل حدوث عبادة الحجر في بلاد العرب ، ان آل اسماعيل عليه السلام لما كثروا حول الحرم ، وضاقت بهم فجاج مكة تفرقوا في النواحي ، واخذوا معهم احجارا من الحرم تبركا بها ، فكان احدهم يضع الحجر في بيته ، فيطوف ويتمسح به ويعظمه ، ثم توالت السنون ، وخلفت الخلوف ، فعبدوا تلك الاحجار ، ثم عبدوا غيرها، وذهبت منهم ديانة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، الا يسيرا جدا بقي فيهم الى ان صبحهم الاسلام . هذا معنى ما ذكره ابن اسحاق .

وقد تكلم الشاطبي وغيره من العلماء فيما يقرب من هذا وذكروا : ان الغلو في التعظيم اصل من اصول الضلال . ولو لم يكن في ذلك الا قصة الشيعة لكان كافيا . فالحاصل : ان خير الامور الوسط .

ومن هنا ايضا كان السلطان المولى سليمان رحمه الله ، قد ابطل بدعة المواسم بالمغرب . وهي لعمري جديرة بالابطال ، فسقى الله ثراه ، وجعل في عليين مثواه . اهـ

اقول : هذا هو القسم الثاني من اقسام التوحيد التي سبق ذكرها قام بنشره واعلانه الامام سليمان بن محمد في وقت اشتدت الحاجة اليه ، بغلو العامة في قبور الصالحين وغير الصالحين ، فجعلوا لها اعيادا ومواسم ، وساقوا اليها الهدي والنذور ، واخذوا يقسمون بها ، ويطلبون منها كل شيء حتى المطر والاولاد ، وشفاء المريض ، ويفزعون اليها في الملمات. فجزى الله هذا الامام خير الجزاء ، ووفقنا للاقتداء به .

والعجب من صاحب الاستقصا : كيف لم يذكر نص رسالة عبد الله بن سعود ، ولعله لم يظفر بها ، مع سعة اطلاعه وكثرة تحريه . وقد هممت ان ادرج هنا بدلها الرسالة الثانية من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله التي ارسلها الى فقهاء اهل سدير والوشم والقصيم ، لاني لا اظن ان رسالة الامير عبد الله بن سعود الى ملك المغرب المولى سليمان تخرج عما جاء فيها ، ولكني رايت هذا المقال قد طال، ولم يبق فيه لنشرها مجال .

الامام المنقذ محرر المغرب

محمد الخامس طيب الله ثراه ، وجعل الجنة منزله ومثواه

نشأ هذا الامام الفذ على محبة العلم واهله ، وكان فصيح اللسان اذا خطب ذكر السامعين بسحبان، لا يتلعثم ولا يتلجلج ، محافظا على الصلوات ، كامل الايمان ، ناصرا للكتاب والسنة ، محاربا للبدع . حدثني ثقة انه اصدر ظهيرا بابطال المواسم اقتداء بسلفه الامام سليمان بن محمد المتقدم الذكر ، وكان عالما فقيها يتولى صلاة الجمعة اماما وخطيبا في بعض الاحيان ، كما فعل في الجامع الكبير بطنجة سنة 1947م

حدثني من اثق به ان هذا الملك العظيم قدس الله روحه كان الاختلاف والنزاع بينه وبين الاستعمار

الفرنسي قد بلغ ذروته ، وكان المستعمرون يبذلون كل جهد في الحيلولة بينه وبين الاتصال بشبه المثلهف الى رؤيته ، وسماع حديثه ، والاهتداء بارشاده ، فقصد الامام محمد الخامس ان يوجه الى الاستعمار الطعنة الاولى التي تنذره بدنو اجله ، فتوجه الى طنجة ، وامر رجاله ان يهيئوا ما يلزم في الجامع الكبير لقيامه بصلاة الجمعة اماما وخطيبا دون ان يشعر الفرنسيون بذلك فتلطف اولئك الرجال الامناء حتى هيأوا كل شيء من مكبر الصوت وجمع الناس سرا ، فلم يشعروا الا والملك يرقى المنبر ، فكاد الناس يطيرون فرحا وسرورا برؤية محياه الكريم ، وشاع الخبر في المدينة وضواحيها ، فجاء الناس يهرعون ، وضاق المسجد مع سعته ، فلم يتسع الا للقليل منهم ، فخطب خطبة بليغة ، استبشر بها الناس واغتبطوا كل الاغتباط .

ولم اكن بعيدا عن طنجة في ذلك الوقت ، فاني كنت في تطوان ، ولكني كنت ممنوعا من دخول طنجة ، فان السفير الفرنسي بمجرد ما دخل الحلفاء الغربيون مدينة طنجة توجه الى السفير الامريكي والسفير الانكليزي ، وطلب موافقتهما على القبض على محمد تقي الدين الهلالي اذا دخل طنجة ، لانه عميل الماني بزعمه . ونشر ذلك في الجريدة الرسمية بالعربية والفرنسية ، واخبرني بذلك اخواني هاتفيا . وكنت ادخل طنجة قبل ذلك حين كانت تحت اشراف الاسبانيين ، وكانت تلك الخطبة فاتحة الحرب التي اعلنها المجاهد العظيم محمد الخامس على طغاة الاستعمار .

وكان ادعياء التصوف والطرق محالفين للاستعمار في محاربة هذا المصلح العظيم مجاهرين بذلك غير مستخفين ، فخيب الله آمالهم ، ورد كيدهم في نحورهم ، وباء الاستعمار وانصاره بخزي عظيم .

ومما يدلنا على عناية الامام محمد الخامس بالكتاب والسنة واكرامه للعلماء السلفيين ، واستصحابه لهم ، والقاؤهم الدروس العلمية بحضرته . وطليعة هؤلاء العلماء هو المحدث النابغة فريد عصره الشيخ ابو شعيب الدكالي رحمه الله ، فان الملك محمدا الخامس رحمه الله ، كان يقربه ويدنيه ، ولا يصدر الا عن امره في المسائل العلمية والاحكام الشرعية .

وقد كان التفسير في المغرب مهجورا قبل رجوع الشيخ ابي شعيب من المشرق ، وكان العامة يزعمون انه اذا اعلن تفسير القرآن يموت السلطان . حدثني استاذي الاديب العلامة المصلح سيدي محمد بن العربي العلوي رحمه الله تعالى انه كان في مجلس جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله ، وكان بعض من ينسب الى العلم حاضرا ، فتحدثوا في تفسير القرآن ، فقال بعضهم : اذا فسر القرآن مات السلطان . يريد بذلك التأثير على الملك ، وكان في اوائل شبابه ، قال استاذي . فقلت له : اذا فسر القرآن يحيا السلطان ويموت الشيطان . فاستحسن الملك هذا الكلام ، وقال لي : صدقت .

ومن حسنات الشيخ ابي شعيب الدكالي دعوته استاذنا سيدي محمد بن العربي العلوي الى اتباع الكتاب والسنة ، فاستجاب الى ذلك استاذنا رحمه الله ، وبلغ الغاية في الدعوة الى اتباع الكتاب والسنة ، ومحاربة ادعياء التصوف والبدعة ، وانا من جملة من انتفع بدعوته ، بعد ما كنت غريقا في البدع .

ولما زرت محمدا الخامس رحمه الله في اول مرة دخلت فيها المغرب بعد تحريره من الاستعمار سنة 1957 وجدته رحمه الله جالسا في غرفة بقصره العامر جالسا على كرسي ، والى جانبه كرسي آخر فسلمت عليه فرد علي احسن رد واشار الي بالجلوس الى جانبه ، فشكرته . قال لي قص علي رحلتك ، فقلت: يا سيدي ، انها طويلة استغرقت 35 سنة ، فقال لي: قصها علي باختصار ، فقصصتها عليه ، وهو يستمع، فسألني : هل تعرف سيدي محمد بن العربي العلوي؟ فقلت : ايدك الله بنصره ، ان معرفتي له غيرت مجرى حياتي كلها ، وهي السبب في رحلتي ، في كل خير ادركته .

ولم يزل هذا الملك المؤيد بالله مقربا استاذنا، وجاعلا له من علو الرتبة والمقام مالا يدانيه فيه احد من العلماء ، وقد كان ـ بحق ـ استاذه الخاص، ومستشاره في مهمات الامور .

اما كون محمد الخامس منقذا للمغرب ، ومخلصا له من براثن الاستعمار ، وليس مقصودي المغرب الاقصى وحده ، بل المغرب الاكبر من شنقيط الى حدود ليبيا ، فعندي عليه براهين لا تقبل الجدل ، ولا يتسع لها المقام فرحمه الله ، واثابه رضوانه ، وجعل الخير في عقبه وذريته الى يوم القيامة .

جلالة الملك الحسن الثاني

ومحبته للعلم ، وخصوصا علم الكتاب والسنة

من المعلوم ان جلالة ملكنا الحسن الثاني ، ايده الله بنصره ، وبالمؤمنين ، وادام له العز والتمكين

كان وزيرا لوالده الكريم ، وشريكا له في جهاده ، ولا اريد بالوزير هنا ، الاصطلاح السياسي ، وانما اريد به المعنى الذي جاء في كتاب الله حكاية عن موسى عليه السلام في قوله في دعائه « واجعل لي وزيرا من اهلي هارون اخي ، اشدد به ازري ، واشركه في امري، كي نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا . قال قد اوتيت سؤلك يا موسى » .

فقد نشأ جلالة الحسن الثاني نشأة طيبة مباركة، وكان قرة عين لوالده ، وكان محل عنايته وحسن تربيته وتنشئته ، وكان يؤهله لحمل اعباء الخلافة بعده ، ويتوسم فيه ان يكون خير خلف . ودعاؤه له، وثناؤه عليه في الغيب والشهادة من الاخبار المتواترة المسجلة في الاذاعات والصحف التي يستوي في العلم بها الخاصة والعامة ، وقد استجاب الله دعاءه ، وبلغه مناه ، فادرك جلالة الحسن الثاني من العلوم والاعمال الجليلة ، وحسن السياسة ، واللطف في حل المشاكل، وصدق العزم ، وقوة الارادة ، وهو لا يزال في طور الشباب ، اطال الله بقاءه ، وادام عزه وارتقاءه ، ما بهر العقول ، وقرت به عيون الاصدقاء ، وشرق به الاعداء .

اما محبته للعلم والادب ، فحدث عن البحر ولا حرج ، وحسبك انه لا يوجد في العصر الحاضر بين ملوك العرب ورؤسائهم من يدانيه في الفصاحة والبلاغة، فله من الخطب الرنانة ما يشنف الاسماع ، ويبلغ الغاية في الابداع ، في زمان فشا فيه اللحن والحصر والركاكة عند اكثر اساتذة الجامعات ، فضلا عن غيرهم .

وعنايته بالدروس والمجالس العلمية معروفة في المشارق والمغارب ، لا يطمع احد من الملوك والرؤساء ان يجاريه في ذلك .

ومن ابرز البراهين واسطع الادلة على ذلك انشاؤه لمدرسة دار الحديث ، ولما سمعت باهتمام جلالته بهذه المدرسة ، وكانت لاتزال فكرة لم تخرج الى حيز العمل ، غمرني من السرور ما لا استطيع التعبير عنه . وقد كتبت في ذلك مقالا طويلا يتضمن قصيدة ، نشرته في مجلة دعوة الحق .

ولا ازال ارجو لهذه الدار ان يبارك الله فيها حتى تؤتي اكلها ، وتجتنى منها الثمار المقصودة بانشائها التي قصدها جلالته ، واسلافه الصالحون من قبله . ولم ازل مهتما بانشاء دار للحديث في المغرب ، وتذاكرت في هذا الامر مع الاستاذ السيد المهدي العقلي حين كان عاملا على مدينة فاس سنة 1957 م واتفقنا ان نلتمس من استاذنا سيدي محمد بن العربي العلوي رحمه الله ان يقترح على جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه أن يؤسس دارا للحديث ، فعرضنا ذلك عليه فلم يوافق استاذنا رحمه الله على ذلك . وكان لسان الحال يقول لنا : ان هذه المكرمة لما يأت وقتها بعد

وسحاب الخير لها مطر فاذا جاء الابان تجي

وقد ادخرها الله لجلالة ملكنا المؤيد بالله الحسن الثاني ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء .

وقد استبشر السلفيون وسائر المحبين لكتاب الله وسنة الرسول خيرا ، واغتبطوا ايما اغتباط بالدرس القيم الذي القاه في رمضان الملك المؤيد بالله جلالة الحسن الثاني اعزه الله في شرح حديث (من راى منكم منكرا فليغيره بيده) الذي اخرجه احمد ومسلم في صحيحه وابو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابي سعيد الخدري عن النبي(ص) فقرت بذلك الدرس العيون ، واغتبط السامعون. وكان تقرير جلالته فيه تقرير الناقد البصير الذي يعلم ما يقول رادا فيه الراي الذي لايقوم عليه دليل ، وداعيا الى العمل بالحديث في وضع اليمنى على اليسرى شارحا اسرار العمل بهذه السنة . وآمرا امرا مؤكدا باقامة الصلاة في المدارس التي يتربى فيها جيل الغد، وجيل اليوم ، وجاعلا تحصيل علوم الدين شرطا في نجاح التلاميذ في جميع المراحل الدراسية ، ومقررا احسن تقرير ان ما صح عن النبي (ص) من الحكم بالكفر والشرك ، هو حقيقة لاتقبل التاويل فقال اعزه الله : انا لا اعرف ان الشرك في هذه المسالة اصغر او اكبر ، ، الشرك هو الشرك . وهذا الذي قاله جلالته هو الحق بعينه ، ومن ارتاب في ذلك فليطالبني بالدليل، فيرى من البراهين ما لا قبل له برده .

فاي مسلم لا يغتبط بهذا الدرس الملكي العظيم .

وقد بعثت الى جلالته ببرقية شكر ودعاء مطولة.

وقبل ان اختم مقالي ارى من الواجب علي ان اذكر ملكا آخر سلفيا كريما هو عم والد جلالته مولاي عبد العزيز بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن رحمهما الله ، فقد كان هذا الملك متمسكا باقسام التوحيد الثلاثة ، ملازما للعمل بالكتاب والسنة طول عمره ، عالما بعلوم القرآن والحديث ، ملازما لدراستها مع اساتذه الحافظ الحجة الشيخ عبد الله السنوسي، مقبلا على اعمال البر والاحسان .

ولما سمع باني وصلت الى تطوان سنة 1942 بعث الي بالسلام ، فذهبت الى زيارته ففرح بي أشد

الفرح ، وتذاكرت معه اكثر من ساعة في قصره بالجبل، وقال لي : لاتنقطع عن زيارتي ، ومتى اردتها ، فاتصل بصاحبي فلان في ط نجة ليحضر لك السيارة ويوصلك الي ، ثم تكررت زيارتي له ، وحدثني بأحاديث :

ثم قال لي : ما رايك في انقاذ المغرب مما هو فيه؟ فقلت : اسمع راي سموكم فيه ، فقال لي : اريد ان اعرف رايك اولا ، فقلت : ارى انقاذه لايتم الا بثورة على يد رجل من البيت العلوي الكريم ، فقال لي هذا هو الراي عندي ايضا . واراد بذلك ان الخطب والمقالات لا ترد على المغرب استقلاله . وقد صح ما رايناه بثورة الامام المنقذ محمد الخامس رحمه الله . ولولاها لبقيت المغارب الثلاثة ترصف في قيودها زمنا طويلا .

وكان رحمه في عباداته عاملا بالكتاب والسنة ، لايحب التقليد ابدا ، وكانت عقيدته خالصة . قال لي مرة : جاءني الفقيه الخصاصي وقال لي : ان تابوت ابي العباس السبتي في مراكش يرتفع من فوق القبر حتى يمس السقف ، ويبقى كذلك من غروب الشمس الى الصبح . قال ودعاني هذا الفقيه الى السفر الى مدينة مراكش لمشاهدة هذه الكرامة ، قال فقلت له : هل رايته بعينك ؟ قال : لا ، ولكنه امر متواتر لاشك فيه . قال ، فقلت له : اذهب انت الى القبر المذكور ، واقعد عند الضريح ، من قبل الغروب الى الصبح ، فان رايت التابوت قد ارتفع ، فارجع الي واخبرني ، قال : فانطلق وسافر الى مدينة مراكش ، وفعل ما امرته به ، ثم رجع الي بعد مدة فقلت : هات ما عندك ، هل ارتفع التابوت؟ فقال : لا، قال فقلت له : كنت اعلم من يوم حدثتني بذلك انه كذب ، فاياك ان تحدث بشيء من هذا القبيل اعتمادا على قيل وقال .

وحدثني استاذي ابو مصطفى محمد بن العربي ، نضر الله وجهه في الجنة ان جلالة الملك محمد الخامس دعاه لمرافقة الوفد الذي سافر الى لبنان لخطبة حرم سمو الامير مولاي عبد الله ، وكان من جملة الوفد حرم الامير مولاي الحسن بن المهدي ، وهي ابنة مولاي عبد العزيز رحمه الله ، فكانت تصلي صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع اليمنى على اليسرى ، ورفع اليدين عند الركوع والرفع منه ، وبعد القيام من التشهد الاول ، فانكر عليها شخص من الوفد تلك الصلاة واستغربها فقالت لهم : هذه صلاة رسول الله (ص) وهكذا علمني والدي ، فتحاكما الى استاذنا فحكم لكريمة مولاي عبد العزيز وقال : صدقت .

وقد طال هذا المقال حتى ظننت ان المجلة لاتتحمله ، فينبغي ان امسك عنان القلم حتى لايجري اشواطا اخرى تضيق بها المجلة ذرعا .

وقد تقرر مما ذكرته قبل ان اقسام التوحيد ثلاثة ، فتوحيد الاسماء والصفات كان المجلي فيه دولة المرابطين . وتوحيد الاتباع كان المجلي فيه دولة الموحدين . وتوحيد العبادة كان امامه المولى سليمان بن محمد رحمه الله ورضي عنه .

اما الملوك الثلاثة ، عبد العزيز بن الحسن ، ومحمد الخامس ، والحسن الثاني فقد ورثوا من اسلافهم الاولين رسول الله (ص) واصحابه ، ومن اسلافهم الآخرين اقسام التوحيد الثلاثة . فأسأل الله باسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وبمحبة النبي (ص) ، واتباع سنته ان يعطي ملك الزمان جلالة الحسن الثاني وولي عهده سيدي محمد ، وسائر ذريته وآل بيته من ذلك الحظ الافر ، انه سميع مجيب .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

نص البرقية التي بعثها الدكتور تقي الدين الهلالي الى صاحب الجلالة

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني ، نصره الله .
لقد غمرتنا موجة من الفرح والسرور بسماع الدرس الكريم الذي تكرمتم بالقائه في رمضان ، وما نشأ عنه من الامر باقامة الصلاة في المدارس ، وتأديب المرأة المسلمة بآداب الاسلام .
نسأل الله سبحانه ان يزيدكم توفيقا ، ويؤيدكم بنصره وبالمؤمنين ويقر عينكم بولي العهد سيدي محمد وسائر اخوته ، ويبقيكم ذخرا لرعاياكم المخلصين خصوصا ، وللاسلام والمسلمين عموما .
وتهنئكم بعيد الفطر المبارك . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

محمد تقي الدين الهلالي الاستاذ بجامعة محمد الخامس

كلمة في فضائل الاسلام

ألقيت على وجوه ألمانية

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

اقترح علي قبل سنوات ان القي كلمة باللغة الالمانية على وفد المانى جاء لزيارة المغرب ، فلبيت الاقتراح وحضر الوفد ، عدد أفراده رجالا ونساء من جميع انحاء المانيا سبعة عشر ، وكان ذلك في بلدية المدينة الجديدة بمكناس وكان ذلك مساء الاحد 24 من المحرم سنة 1388 هـ موافق 68/4/21 م ، ونص الكلمة :

ايها السيدات والسادة احييكم تحية طيبة ، وارحب بكم ، وقد اقترح ان القي على مسامعكم كلمة في فضائل الاسلام ، بلغتكم الالمانية ، فلبيت الطلب للاجتماع بكم ، وساتكلم باختصار ، ثم اكون مستعدا لاجابة ما يرد على من اسئلة .

ما معنى الاسلام

قال عالم انكليزى : الاسلام هو التسليم والانقياد لارادة الله تعالى ، يمكنكم ان تقولوا : وكيف نعرف ارادة الله تعالى ؟ فأجيب باننا نعرفها بواسطة الرسل الذين ارسلهم الله الينا ، كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم اجمعين) ويمكنكم ان تقولوا : ان هؤلاء الرسل جاءوا بشرائع مختلفة ، فاقول : ان شرائعهم ، وان كانت مختلفة ، فانها لا تختلف في امرين عظيمين :

اولهما : توحيد الله بالاعتقاد انه هو الله الذي خلق السموات والارض ، وهو خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ، فلا يعبد الا الله ، ولا يتوجه الا اليه بطلب الحاجات وتفريج الكربات ، ولا يستعان الا به .

ثانيهما : اقامة العدل والمساواة بين جميع الناس . فاذا نحن اعتقدنا هذين الاصلين ، وتمسكنا بهما حق التمسك نستطيع ان نعيش بسلام ، متعاونين على الصالح العام ، وفي ذلك سعادتنا جميعا .

وقد علمنا الاسلام ان نعتقد ان عيسى المسيح من اعظم رسل الله ، وان امه صديقة طاهرة ، وان الله تعالى ارانا معجزة دلتنا على انه قادر ان يخلق ولدا بلا اب ، وان يهبه مريم العذراء . وهذه العقيدة عندنا تساوى عقيدتنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يعتقدها فليس بمسلم . والاسلام يامرنا ان نؤمن بجميع الانبياء والرسل ، من عرفنا منهم ومن لم نعرف ، لان الله بعث في كل امة رسولا ، ولم يهمل امة من امم .

فان قيل : اذا كان هذا هو اعتقاد المسلمين فلماذا نراهم في العصور الاخيرة متاخرين ؟ فالواجب : ان المسلمين حين كانوا متبعين للقرآن وهدى محمد (صلى الله عليه وسلم) متمسكين بسنته ، حاكمين بشريعته ، كانوا اسعد الناس واغناهم واعظمهم رفيا

وحضارة وأعزهم ، فلما تركوا اتباع القرآن والرسول ذهبت قوتهم وسعادتهم ، واجتماعهم وتعاونهم ، وانحطوا الى الحالة التى هم فيها .

الاسئلة والاجوبة

1 ـ ما رأى الاسلام فى هذه الحضارة الاوربية ؟ وهل يستطيع المسلم ان يجمع بين التمسك بالاسلام والاخذ بنصيب من الحضارة الاوربية ؟

الجواب : ان الاسلام يرحب بالحضارة الاوربية بمكتشفاتها ومخترعاتها وصناعاتها ، ولا يتنافى معها ابدا ، بل يرغب فيها ويحض عليها ضمن قواعده واصوله وهو فى ذلك رابح غير خاسر .

2 ـ كيف يستطيع العمال فى المعامل والمصانع ان يؤدوا الصلوات الخمس ؟

الجواب : ان الصلاة هى عماد الاسلام ، ولا يمكن ان يقوم الاسلام بلا صلاة ، وليس فيها مشقة ولا تعويق عن العمل ، لان كل صلاة من الصلوات الخمس تتم فى خمس دقائق ، ولايحتاج المصلى ان يتوجه الى معبد ، بل يصلى فى مكان شغله ، فان الارض كلها مسجد فى نظر الاسلام .

والعمال يمكنهم ان ينقسموا قسمين : جماعة تصلى وجماعة تقوم بالعمل ، ثم تجىء الجماعة التى صلت وتسير دولاب العمل ، وتذهب الجماعة التى لم تعمل فتصلى . على ان اكثر الصلوات شرعت فى اوقات الراحة كالمغرب والعشاء والصبح والظهر ، وقد رخص الاسلام للجماعة والفرد فى حالة الاضطرار ان يجمعوا بين الظهر والعصر ، وان يجمعوا بين المغرب والعشاء فى اول وقت العشاء .

3 ـ قالت سيدة: كيف يستطيع العمال فى معاملهم ان يصوموا رمضان من الفجر الى الغروب ، اذا صاموا يتعطل العمل ؟

الجواب : فقلت لها : قبل ان اجيب عن سؤالك ارجو ان تسمعى قصة اقصها عليك ، كنت فى «بن» بالمانيا سنة 1938 ، وكنت اكل فى (بانسيون) يدعى صاحبه (هر شميت) فلما قرب دخول رمضان قلت له ارجو من فضلك ان تؤخر غذائى من الزوال الى الساعة السادسة بعد الغروب لمدة ثلاثين يوما ، فقال : ولماذا ؟ قلت له : قد اقبل رمضان ، وهو شهر الصيام يصوم فيه المسلمون من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، فقال لى : لاتأكل شيئا اصلا ؟ فقلت : لا ، فقال لى : اذن تموت ، فقلت لا أموت ان شاء الله ، فقال لى : : اعلم ان بلادنا باردة يحتاج فيها الانسان الى اكثر مما يحتاج فى بلادكم، فقلت له : اجبنى عن تاخير الغذاء ، فقال لى وزوجته الى جانبه : نستطيع أن نحضر لك غذاءك فى الساعة السادسة كما طلبت الا فى يوم الاحد ، فان الخدام لا يشتغلون ، وزوجتى هي التي تحضر العشاء ، فلا بد ان تنتظر الى الساعة الثامنة ، فقلت : قبلت : وكنت فى ذلك الوقت مصابا بقرحة المعدة وقد اتفق الاطباء على ان المصاب بها يجب أن يأكل فى كل ساعتين او ثلاث ساعات قليلا من الطعام ، فعصيت أمرهم .

وقبل ان ابدأ فى الصيام وزنت فى الميزان الذي يسجل الوزن من تلقاء نفسه (اوتوماتيك) وحفظت البطاقة التى فيها مقدار وزنى ، فلما انتهى رمضان وزنت نفسى فالفيتنى قد زاد وزنى اربعة ارطال ، وأخذت البطاقتين الى (الهر شميت) وفيها تاريخ الوزن فلما قرأهما تعجب كثيرا وقال لى : ما دام الانسان فى الحياة لا تزال تنكشف له امور كان يجهلها ، والآن اجيبك عن سؤالك :

اعلمى ان الانسان مركب من روح وجسم، والسلطان للروح لا للجسم ، والعبادة غذاء الروح ، فاذا قوى الروح اعطى الجسم قوة خارقة للعبادة ، ونحن المسلمين منذ الف واربعمائة سنة نصوم رمضان ، واشغالنا ماضية لم تتعطل ، وعلى سبيل التنزل والافتراض نقول : ان العامل المسلم لا يشتغل فى رمضان الا أربع ساعات بدلا من ثماني ساعات ، فكم يخسر ؟

الجواب : يخسر مائة وعشرين ساعة فى السنة لان العمل عندنا جائز فى جميع الايام لا يجب علينا تركه فى أى يوم من ايام الاسبوع ، وأنتم تجبرون على ترك العمل نصف يوم السبت ويوم الاحد بتمامه فتخسرون اثنتى عشرة ساعة فى كل اسبوع ، زيادة على ايام الاعياد الكثيرة ، كعيد الميلاد وعيد الفصح وغيرهما ، فاذا ضربنا اثنتى عشرة ساعة فى اثنين وخمسين عدد الاسابيع السنة يكون الخارج ستمائة واربعا وعشرين ساعة (624) .

فكيف ترين النسبة بين ما يخسر المسلمون بسبب الصيام ، على فرض انهم يخسرون ، وبين ما يخسره المسيحيون ؟ فما اعظم الفرق بين مائة وعشرين ساعة وستمائة واربع وعشرين ساعة ، فتعجب السامعون وأبدوا اعجابهم بهذا الجواب المسكت .

وقلت لها : ان اليهود يحرم عليهم ان يشتغلوا يوم السبت هم وخدامهم ودوابهم وسياراتهم وسائر الآتهم بالقياس على الدولب من مساء يوم الجمعة الى آخر يوم السبت بالاضافة الى اعيادهم الكثيرة ، واذا كانوا مساكنيين للمسيحيين كيهود اوربا وامريكا يلزمهم تعطيل يومين فى كل اسبوع ، فهل تعطلت اشغالهم وتأخرت اعمالهم ؟

وعند ذلك قام رجل وهو الدكتور كيزكوكر GEZ .DR. Keeker وارتجل خطبة طويلة بليغة اطراني فيها واطرى فصاحتى بالالمانية ، وذلك ما لا أوافقه عليه، لان اللغة التى لاتشتغل فى كل يوم بالتكلم والكتابة والقراءة لابد ان تنقص بنسيان بعض الفاظها ، ويقل انطلاق اللسان بها ، ثم اثنى على ما شاهد الوفد فى المغرب من النشاط والنظافة ، وخصب الارض واعتدال الجو ، وجمال المناظر ، ووداعة السكان ، وذكر بالخصوص وجود الليمون المسمى بالبرتقال بكثرة واستمتاع الوفد به .

وقد اخبر الخطيب فى اول خطبته انه يتكلم باسم الوفد المؤلف من سبعة عشر من جميع انحاء المانيا الاتحادية . واقترحت على السيد الرئيس ان يطلب من ذلك الخطيب ان يكتب له مضمون خطبته ، لانه مهم جدا .

وبعد انتهاء خطبة الخطيب شكرته على ثنائه وعلى مدحه لوطننا واعجاب الوفد بما شاهده فيه ، واخبرته ان المغاربة يحبون الالمانيين من قديم الزمان ونحن نرجو الله تعالى ان يكون ذلك اليوم الذى توحد فيه المانيا ويجتمع شملها ، ويتم ازدهارها وسعادتها جد قريب . هذا ويشارك فى هذا الرجاء كل منصف ومحب للحرية والعدالة فى انحاء العالم ، فصفقوا تصفيقا عاليا ، كما صفقوا مثل ذلك عند نهاية كلمتى الاولى ، وعند نهاية الاجوبة ودعتهم وانصرفت .

وهذه ترجمة كلمة الدكتور (كينتس كوكو
GEZ .DR. Keeker

التي القاها بالنيابة عن الوفد الالمانى المرافق له جوابا عن كلمتي :

حضرة المحترم الاستاذ الدكتور الهلالي ، نشكركم كثيرا من صميم قلوبنا على حديثكم الذى شرحتم فيه مبادىء الاسلام ، وبينتم الاصول التى تجمع بين ديننا ودينكم ، وهى الاعتقاد بان الله اله واحد ، يجب علينا الانقياد والتسليم لارادته سبحانه ، والرغبة فى ان نعيش بسلام مع جميع الشعوب متحدين متعاونين على الخير العام ، وقد تاثرنا اشد التاثر حين راينا مئات من الناس يجتمعون فى المساجد لاداء الصلاة فى اوقاتها .

ان اعضاء وفدنا جاءوا من جميع انحاء المانيا الغربية فهم يمثلونها كلها من ميونخ (جنوبا) الى هامبورك (شمالا) ومن فرانكفورت (غربا) الى هانوفر (شرقا) لقد عرفنا بلادكم ، وشاهدنا فيها كثرة اشجار البرتقال واستمتعنا بما اشترينا منه فى الاسواق . ونحن نعرف آثار ثقافة اسلافكم فى برتكال واسبانيا .

ونحن نريد ان نستمتع زيادة على ما شاهدناه بالتجول مدة اسبوع لمشاهدة المغرب الجديد العصرى ولقد رأينا المدن القديمة ، والمدن الحديثة والعصرية وقد تاثرنا كثيرا بتطور الصناعة ، والاعمال الفلاحية فى الاراضى الخصيبة والاراضى القليلة الخصب ، وقد دهشنا بما رأيناه من نظافة المزارع والعناية التى يبذلها الفلاحون فى كل مكان .

وقد شاهدنا فى كل مكان ان هذا الشعب المغربى فى وضع يمكنه من السيطرة على مقدراته ، وسيتبوأ المقام الطيب اللائق به فى أسرة الشعوب الاوربية وقد تاثرنا بالخصوص بمشاهدة كثرة الصبيان والشباب فى بلادكم ، وحيثما توجهنا رأينا الرغبة فى التعلم والنظام ، ونحن مسرورون بهذا التطور الذى نشاهده فى المغرب الجديد . ونحن على يقين ان شعبكم الفتى سيتقدم كذلك فى المستقبل .

ونعيد شكركم على هذه الفرصة التى اتحتموها لنا للتعرف على شعبكم ، اما انتم ايها الاستاذ المحترم، فانى أثنى اطيب الثناء على اجادتكم للغة الالمانية .
GEZ .DR. Keeker الدكتور كير كوكر

كيف نعظم النبي صلى الله عليه وسلم ونضع البرهان على محبته التي بها سعادتنا؟

للدكتور نعمان السيد الهدلي

اعلموا ايها الاخوان المكرمون ، ان محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرعية هي روح الاسلام وبها سعادة المسلمين ، منفردين ومجتمعين ، وانما قيدناها بالشرعية لانها اذا لم تكن كذلك لا تضمن السعادة لصاحبها ولا النجاة من عذاب الله تعالى ، واليكم البرهان :

قال الله تعالى في سورة القصص : **(انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين 56)**

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه . يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (انك لا تهدي من احببت) اي ليس اليك ذلك ، انما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى (**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء**) . وقال تعالى (**وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**) ، وهذه الآية اخص من هذا كله فانه قال (**انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**) اى هو اعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين انها في ابي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حبا شديدا ، طبعيا لا شرعيا ، فلما حضرته الوفاة ، وحان اجله ، دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى الايمان والدخول في الاسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة ، قال الزهري : « حدثني سعيد ابن المسيب عن ابيه وهو المسيب بن حزن المخزومي رضي الله عنه قال : لما حضرت ابا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده ابا جهل ابن هشام وعبد الله بن ابي امية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**يا عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**) فقال ابو جهل وعبد الله بن أبي امية يا ابا طالب اترغب عن ملة عبد المطلب ؟فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب ، وابى ان يقول لا اله الا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**والله لاستغفرن لك ما لم انه عنك**) فانزل الله تعالى (**ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى**) وانزل في ابي طالب **(انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء**) ، أخرجاه من حديث الزهري ، وهكذا رواه مسلم في صحيحه والترمذي من حيث يزيد ابن كيسان بن أبي حازم عن أبي هريرة قال لما حضرت وفاة ابي طالب اتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (**يا عماه قل لا اله الا الله اشهد لك بها يوم القيامة**) فقال لولا ان تعيرني بها قريش يقولون ما حمله عليه الا جزع الموت لاقررت بها عينك لا اقولها الا لاقر بها عينك فانزل الله تعالى (**انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**) وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من حديث يزيد ابن كيسان ، رواه الامام احمد ، عن يحيى بن سعيد

القطان عن يزيد بن كيسان حدثني ابو حازم عن ابي هريرة فذكره بنحوه ، وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة انها نزلت في ابي طالب حين عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان يقول لا اله الا الله فابى عليه ذلك ، وقال اى ابن اخي مسة الاشياخ ، وكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب ، وقال ابن ابي حاتم حدثنا ابي حدثنا ابو سلمة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن ابي راشد ، قال كان رسول قيصر جاء الى قال كتب معي قيصر الى رسول الله صلى الله وسلم كتابا فاتيته فدفعت الكتاب فوضعه في حجره ، ثم قال : (**ممن الرجل**) ؟

قلت من تنوخ ، قال : (**هل لك في دين ابيك ابراهيم الحنيفية**) قلت اني رسول قوم وعلى دينهم حتى ارجع اليهم ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر الى اصحابه ، وقال : (**انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء**) .

توضيح كلام الحافظ ابن كثير

1 ـ قوله : **ويحبه حبا شديدا طبعيا لا شرعيا،** يعني ان ابا طالب كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم حبا شديدا طبيعيا بداع القرابة ، لا شرعيا بداع الايمان، ومن ذلك نعلم ان المحبة نوعان . محبة طبعية ، جبل عليها الانسان ، كما يحب الرجل والديه ، وبنيه ، وزوجته وذوي قرباه ، ومن يالفه من غيرهم وكما يحب المشتهيات والمستطابات والمستحسنات ، من كل ما تميل اليه نفسه ويتعلق اليه قلبه ، وهذا الحب اذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، او للمؤمنين لا يغني عن صاحبه شيئا فلا ينجيه من عذاب الله ولا يوجب له غفران الذنوب ودخول الجنة ، لان الاعمال بالنيات، ولان الحب لا يكون له ثواب عند الله الا اذا كان لله ولا يكون لله الا اذا اصدر من مؤمن بالله ورسوله ، يحب لله ويبغض لله ويوالي لله ويعادي لله ، يشهد لذلك ما اخرجه الشيخان وغيرهما ، عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره ان يعود في الكفر كما يكره ان يقذف في النار**) فصرح النبي صلى الله عليه وسلم بان المرا انما يجد حلاوة الايمان اذا احب لله لا لغرض آخر .

والنوع الثاني ، الحب لله وهذا هو الذي ينفع صاحبه ويرفعه وينجيه من عذاب الله ، ويوجب محبة الله له ، ودليل هذا الحب طاعة الله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وترك المعاصي والبدع لان من ادعى محبة محبوب ... واكثر من معصيته واصر عليها ، يكون كاذبا في دعواه .

كل من يدعي بما ليس فيه
فضحته شواهد الامتحان

وقال آخر :

تعصي الرسول وانت تظهر حبه
هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لاطعته
ان المحب لمن يحب مطيع

وبعضهم ينشده تعصي الاله الخ ... وكلاهما صحيح .

قال الحافظ في الفتح واخرجه النسائي من طريق طلق بن حبيب عن انس وزاد في الخصلة الثانية ذكر البغض في الله ولفظه ، (**وان يحب في الله ويبغض في الله**) .

قال الحافظ في الفتح وشاهد هذا الحديث في القرءان قوله تعالى : (**قل ان كان آباؤكم وابناؤكم**) الى ان قال (**احب اليكم من الله ورسوله**) ثم هدد على ذلك وتوعد بقوله : (**فتربصوا**) اه .

يعني الحافظ آية التوبة 24 ـ (**قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**).

وهذه هي المحبوبات الثمانية التي فتنت كثيرا من الناس والهتهم عن ذكر الله ، وصرفتهم عن طاعة الله ورسوله لانهم احبوها كلها او بعضها اكثر من محبة الله ورسوله فلما تعارضت لهم محبتها مع محبة الله ورسوله ، رجحوا محبتها ، على محبة الله ورسوله ، فعصوا الله ورسوله او كفروا به فخابوا وخسروا والازواج جمع زوج وهي امراة الرجل والافصح فيها زوج بدون تاء التانيث ، والعشيرة هي القبيلة التي ينتسب اليها المحب . والاموال المقترفة ، المكتسبة يحبها الانسان اكثر من محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجارة تخشون كسادها ، اى تخافون

من الاروقة الحديثة فى المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة حيث ادت أعمال التوسعة التي قامت بها الحكومة السعودية الى زيادة مساحته من 6024 مترا مربعا الى 16326 مترا مربعا .

ان صدقتم فى حب الله ورسوله وفضلتموه على كل محبوب الا تربحوا فى تجارتكم ، بل تصاب تجارتكم بالكساد ، اى عدم الرواج ، ومساكن ترضونها جمع مسكن وهو القصر او البيت ، يخاف ضعيف المحبة اذا فضل حب الله ورسوله على كل محبوب ان يخرج من بيته الذي يحب السكنى فيه ، او يخاف ان ينفى من وطنه الذي الفه واحبه ولا يبغي به بديلا ، كما قال الشاعر :

ولي وطن آليت الا ابيعه
والا ارى غيري له الدهر مالكا

وحبب اوطان الرجال اليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا

وقال آخر :

احب بلاد الله ما بين منعج
الي وسلمى ان يصوب سحابها

بلاد بها حل الشباب تمائمي
واول ارض مس جلدي ترابها

فالمؤمن الصادق ، اذا راى ان وطنه المحبوب سيحول بينه وبين كمال محبة الله ورسوله يهجره لله كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمهاجرون من اصحابه ، ومعنى قوله احب بلاد الله الخ ... هكذا ، احب بلاد الله الي الارض الواقعة بين منعج وسلمى ، وهما موضعان فى شمال جزيرة العرب فى بلاد طيء يعني احب بلاد الله الي ان ينزل فيها المطر ، هذه الارض والعرب تدعو بالمطر والسقي لكل ارض تحبها ولكل شخص تحبه لقلة المطر بارضهم ومحبتهم له . فان قلت ايها الكاتب قد خرجت عن الموضوع واكثرت من الاستطراد ، وصار قارئك ينشد :

تكاثرت الظباء على خراش
فما يدري خراش ما يصيد

قلت هذا مذهبي ، وللناس فيما يعشقون مذاهب

وانما افعل ذلك ليسهل على القراء الضعفاء فهم كلامي .

ووجه كون الآية تشهد للحديث ، ان الحديث دل على ان من فضل حب الله ورسوله على حب غيرهما يكون قد ذاق حلاوة الايمان ، ودلت الآية على ان من فضل شيئا من تلك المحبوبات على محبة الله ورسوله فلينتظر عذاب الله .

2 – قول ابي طالب (**ملة الاشياخ**) يعني لا استطيع ان اترك دين آبائي وهم رؤساء قريش واشياخها وادخل فى دين جديد ، وهذه احد المحبوبات الثمانية السالفة الذكر فان ابا طالب ، شق عليه ان يترك دين آبائه ، وكان حبهم فى قلبه اعظم من حب الله ورسوله ، فمن سلم من شر هذه المحبوبات ادرك ما امل ، ونجا مما خاف فان معظم الضالين المعرضين عن الحق ، المؤثرين للحياة الدنيا ، انما جاءهم البلاء من هذه الثمانية او من بعضها . فنسال الله سبحانه وتعالى ان يجعل حبه وحب رسوله صلى الله عليه وسلم فى قلوبنا اعظم من حب ما سواهما .

3 – تنوخ قبيلة من نصارى العرب ، وقد اسلموا بعد ذلك ، وكان منهم علماء بارعون فى فنون مختلفة من العلم . والذي صد رسول قيصر التنوخي عن قبول ما عرضه عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الاسلام هو ايضا احد الثمانية وهو العشيرة فانه قال اني رسول قوم وانا منهم ، وتامل ترغيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهذا العربي النصراني فى الاسلام بقوله عليه الصلاة والسلام (**هل لك فى دين ابيك ابراهيم الحنيفية**) وقال تعالى فى سورة آل عمران 21 **(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) .**

(قل اطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين) .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة ، هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فانه كاذب فى دعواه فى نفس الامر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي جميع اقواله وافعاله كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (**من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد**) ولهذا قال (**ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**) اى يحصل لكم ما طلبتم من محبتكم اياه وهو محبته اياكم وهو اعظم من الاول كما قال بعض العلماء والحكماء ليس الشان ان تحب انما الشان ان تحب .

وقال الحسن البصري وغيره من السلف زعم قوم انهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال : **(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)** ثم قال : **(ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)** اي باتباعكم الرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا من بركة سفارته ، ثم قال تعالى آمرا لكل احد من خاص

وعام : (**قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا**) اى تخالفوا عن امره فان الله لا يحب الكافرين ، فدل على ان مخالفته فى الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك، وان ادعى وزعم فى نفسه انه محب لله ويتقرب اليه حتى يتابع الرسول النبي الامي خاتم الرسل ورسول الله الى جميع الثقلين الجن والانس ، الذي لو كان الانبياء بل المرسلون بل اولوا العزم منهم فى زمانه ما وسعهم الا اتباعه والدخول فى طاعته ، واتباع شريعته.

قول الحافظ ابن كثير كما ثبت فى الصحيح ، يريد به صحيح مسلم ، ومعناه ان من عمل عملا من صلاة وصيام ، وزكاة وحج وعمرة وجهاد ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وذكر لله تعالى ودعاء وابتهال وتضرع وبيع وشراء واكتساب ونكاح وطلاق ، الى غير من ذلك من الامور ، وكان فى ذلك مخالفا لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفة اساسية ، كمن يتقرب الى الله تعالى ، بقرع الطبول ، والغناء مع آلات اللهو والرقص ، واكل الثيران وشرب الماء الساخن ، وما اشبه ذلك ، من البدع الحقيقية التي لم يشرعها الله البتة ، او عمل عملا شرعه الله ، ولكنه زاد فيه المبتدع او نقص منه او قيده بوقت او هيئة او عدد ، من البدع الاضافية ، كالاجتماع للذكر بلسان واحد ، فى وقت معين ، بعدد معين ، وهيئة معينة فان هذا من البدع الاضافية ، فهو بذلك عمل لم يكن عليه امر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حقق الامام ابو اسحاق الشاطبي فى الاعتصام ، هذا المقصد ، واخرج البخاري ومسلم ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (**من احدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو رد**) اى لا يقبله الله تعالى .

وقال تعالى فى سورة آل عمران ايضا رقم 81 : **(واذ اخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال اأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى ، قالوا اقررنا ، قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون) .**

قال الحافظ ابن كثير ، يخبر تعالى انه اخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام الى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله احدهم من كتاب وحكمة وبلغ اى مبلغ ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده .

ولهذا قال تعالى وتقدس : (**واذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة)** اي لمهما اعطيتكم من كتاب ، (**ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم واخذتم على ذلك اصرى)** وقال ابن عباس ومجاهد والربيع بن انس وقتادة والسدى يعني عهدي .

وقال محمد بن اسحاق (**اصرى**) اى ثقل ما حملتم من عهدي اى ميثاقي الشديد المؤكد ، (**قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك**) اى عن هذا الميثاق (**فاولئك هم الفاسقون**) قال علي بن ابي طالب ، وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما ما بعث الله نبيا من الانبياء الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وامره ان ياخذ الميثاق على امته لئن بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه . ثم قال ، وقال الامام احمد بسنده الى عبد الله بن ثابت قال جاء عمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني مررت بيهودي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة الا اعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عبد الله بن ثابت ، قلت له الا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر ، رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا، قال فسرى عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

(والذي نفسي بيده ، لو اصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، انكم حظي من الامم ، وانا حظكم من النبيئين) اه .

وقال البزار بسنده الى جابر ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(لا تسالوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وانكم اما ان تصدقوا بباطل واما ان تكذبوا بحق ، وانه والله لو كان موسى حيا بين اظهركم ، ما حل له الا ان يتبعني) اه.**

ومعنى الآية وما جاء من الاخبار فى تفسيرها ، ان محبة النبي صلى الله عليه وسلم فرض على جميع الناس وكذلك اتباعه وعدم مخالفته فرض على جميع الناس حتى على الانبياء المرسلين لو جاءوا بعد بعثته ، لم يسعهم الا اتباع سنته والاهتداء بهديه ولا يجوز لهم ان يعملوا بشرائعهم المخالفة لشريعته لان شريعته عليه الصلاة والسلام نسخت الشرائع كلها، قال العلماء المحققون اذا كان الانبياء والمرسلون مع انهم معصومون وقد نزل عليهم الوحي لو جاءوا بعد بعثة النبي محمد (ص)

ما جاز لهم ان يخالفوا شريعته ، فكيف بعلماء امته ؟ الذين هم غير معصومين ولم ينزل عليهم وحي ، كيف يجوز لهم ان يعتمدوا على رايهم المخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ام كيف يجوز لمقلديهم ان يتركوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتمدوا على آراء من قلدوه وهم لا يعرفون دليله ، ويعتقدون انه غير معصوم يصيب ويخطيء وهم لا يميزون بين خطئه وصوابه ، لانهم اسارى التقليد ، وعقولهم معقولة بعقاله فهم اجدر ، ان يكونوا على ضلال اذا خالفوا ما جاء به الله ورسوله ، واذا كان اهل هذه الامة المحمدية التي هي خير الامم لو جاءهم رسول من الرسل السابقين واتبعوه وتركوا هدي رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ، لضلوا ضلالا بعيدا ، فكيف اذا اتبعوا راي من ليس بنبي ولا رسول، وتركوا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

والخلاصة :

ان محبتنا لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الكنز الاعظم الذي اذا حافظنا عليه ادركنا السعادة في الدارين ، وحلت جميع مشاكلنا ، وفرجت جميع كربنا ، وفزنا فوزا عظيما ، ولا تتم لنا هذه المحبة الا باتباع سنته وترك ما نهى عنه من البدع والمعاصي ، والمؤمن الصادق في محبته يجعل ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم نصب عينيه في حياته كلها لا يغفل عنه،ابدا وبذلك يهتدي بهديه ويقتدي بسنته في مأياتي ويذرمن الاقوال والافعال فيخاصة نفسه وفي مابينه وبين اهله وعشيرته وفي ما بينه وبين الناس جميعا خاصتهم وعامتهم وبذلك فقط يقيم البرهان على انه محب صادق، وينال ثمرة المحبة المصاحبة للاتباع ، ومن اقتصر على ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وسيرته السامية التي هي حياة ارواح المؤمنين الصادقين في يوم واحد من بين ثلاثمائة واربعة وخمسين يوما ، وهي ايام السنة العربية القمرية ، فانه بعيد لعمر الله عن توفية حقوق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا اذا ذكر المولد ، ذكرا سنيا ، مطابقا لما كان عليه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون والائمة المجتهدون ، ومن اتبعهم باحسان ، فاما اذا كانت الذكرى بانشاد الاغاني وتوزيع الحلو واحراق الشموع المصنوعة بالمسك والعنبر ، وعود الطيب او الانوار الكهربائية الملونة في هذا الزمان وانشاد القصائدوالقاء الخطب، دون احياء سنة ولا اماتة بدعة ، ولا اقامة شريعة ، فان فاعل ذلك ابعد من ان يؤدي شيئا من حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

خاتمة :

رايت ان اختم هذا المقال الذي كتبته نصيحة خالصة للشعب المغربي عامة ولجلالة ملكه المحبوب ابي محمد الحسن الثاني اطال الله بقاءه وايده بنصره وبالمؤمنين ، ووفقه لاحياء سنة جده المصطفى صلى الله عليه وسلم واقامة شريعته ، وما اجدره بذلك ثم هو بعد ذلك نصيحة لجميع المسلمين ، اردت ان اختمه بنقل كلام امامين من ائمة اهل السنة ، في حكم الاحتفال بالمولد .

كلام الامام ابي عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي الشهير بابن الحاج المتوفى بالقاهرة سنة 732 عن بضع و 80 سنة

قال في المدخل ج 2 ص 2 ما نصه : ومن جملة ما احدثوه من البدع مع اعتقادهم ان ذلك من اكبر العبادات واظهار الشعائر ما يفعلونه في شهر ربيع الاول من المولد وقد احتوى على بدع ومحرمات جملة ، فمن ذلك استعمالهم المغاني ومعهم آلات الطرب من الطار المصرصر والشبابة (**العوادة باللغة المغربية**) وغير ذلك مما جعلوه آلة للسماع ، ومضوا في ذلك على العوائد الذميمة، في كونهم يشتغلون في اكثر الازمنة التي فضلها الله تعالى وعظمها ببدع ومحرمات، ولا شك ان السماع في غير هذه الليلة فيه ما فيه ، فكيف به اذا انضم الى فضيلة هذا الشهر العظيم ، الذي فضله الله تعالى ، وفضلنا فيه بهذا النبي الكريم على ربه عز وجل اه .

وقد اطال رحمه الله في ذلك فنكتفي بهذا القدر.

كلام شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني المتوفى سنة 728

قال في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ، مخالفة اصحاب الجحيم ما نصه :

وكذلك ما يحدثه بعض الناس اما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام ، واما محبة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيما له ، والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع ، من اتخاذ مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، عيدا ، مع

اختلاف الناس فى مولده ، فان هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضى له ، وعدم المانع منه ولو كان هذا خيرا محضا ، او راجحا لكان السلف رضي الله عنهم احق به منا فانهم كانوا اشد محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما له منا ، وهم على الخير احرص ، وانما كمال محبته وتعظيمه فى متابعته وطاعته واتباع امره ، واحياء سنته باطنا وظاهرا ، ونشر ما بعث به ، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان فان هذه هي طريقة السابقين الاولين ، من المهاجرين والانصار الذين اتبعوهم باحسان ، واكثر هؤلاء الذين تجدونهم حرصاء على امثال هذه البدع مع ما لهم فيها من حسن القصد والاجتهاد الذي يرجى لهم بالمثوبة ، تجدونهم فاترين فى امر الرسول عما امروا بالنشاط فيه ، وانما هم بمنزلة من يحلى المصحف ولا يقرا فيه ، او يقرا فيه ولا يتبعه ، وبمنزلة من يزخرف المسجد ولا يصلي فيه او يصلي فيه قليلا ، وبمنزلة من يتخذ المسابح والسجادات المزخرفة وامثال هذه الزخارف الظاهرة التي لم تشرع ويصحبها من الرياء والكبر والاشتغال عن المشروع ما يفسد حال صاحبها ، كما جاء فى الحديث (**ما ساء عمل امة قط الا زخرفوا مساجدهم**) اهـ .

توضيح لكلام هذا الامام

قوله والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع ، ظاهره فيه اشكال ، لان الثواب على المحبة واضح ، اما الاجتهاد المفضي الى احداث البدع ، ففي ثوب الثواب من اجله نظر ، لان وجوب الاتباع وترك الابتداع ، مع العلم بكمال الدين قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ونصيحته لامته وحرصه على ما يقربهم الى الله ، ثم كون اصحابه خير الناس من بعده ، وخير الناس من بعدهم التابعون ، وخيرهم من بعدهم تابعوا التابعين ولو كان فى اقامة المولد خير ، لسبقونا اليه ، يمنع حصول الاجر ، للمجتهد اجتهادا ، يفضي الى البدعة لانه مبني على المخالفة للنصوص لا على اساس مشروع . يوضح ذلك ان الشيخ رحمه الله صرح بان البدعة لا ثواب عليها سواء اكانت بدعة المولد او غيرها .. اذا ، يكون المراد ان محبة النبي صلى الله عليه وسلم والاجتهاد فى تعظيمه فيهما ثواب عظيم فاذا افضى الاجتهاد الى احداث بدعة كالمولد ، وما اشبهه فليكف المجتهد ، وليحذر من ارتكاب البدعة ، فليس فيها الا الاثم ، قال الشاطبي فى الاعتصام قال مالك رحمه الله من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم ان محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لان الله يقول : (**اليوم اكملت لكم دينكم**) ومالم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا .

قال محمد تقي الدين ، وهذه قاعدة عظيمة استنبطها مالك رحمه الله من كتاب الله تعالى ، لو سار عليها المسلمون لكانوا على صراط مستقيم ، خصوصا فى هذا الزمان ، الذى كثرت فيه الفتن وقبض فيه العلم بقبض العلماء فلم يبق منهم الا قليل ، ثلة من الاولين ، وثلة من الاخرين . ولذلك اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم ، ولا نجاة لخاصة ، ولا عامة ، الا بالاعتصام بكتاب الله ، وسنة رسوله الكريم ، عليه من الله افضل الصلاة وازكى التسليم .

المدينة المنورة : د. تقي الدين الهلالي

ما هي الدوافع التي تدعو أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني أيده الله إلى نصر السنة المحمدية ونشرها وحمايتها

للدكتور تقي الدين الهلالي

اولا : هذه الدعاوي كثيرة اعد منها ولا اعددها.

قوله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) دلت هذه الآية الكريمة على ان محبة الله للعبد وهي أشرف المطالب لا تحصل ولا تنال الا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يتم اتباع الرسول الا بنصر سنته ونشرها والعمل على احيائها والعمل بها وتكثير متبعيها ، اخرج الحاكم في المستدرك من حديث ابي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي وان يتفرقا حتى يردا على الحوض » ، وروى الامام مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ابدا ، كتاب الله وسنتي ، وروى مسلم في صحيحه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : تركت فيكم ثقلين كتاب الله وعترة اهل بيتي ، فحث على كتاب الله ثم قال : وعترتي اهل بيتي لا تتخذوهم غرضا من بعدي ، وفيه ولن يفترقا حتى يردا على الحوض ، هذا معنى الحديث . فالعترة التي وصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم واخبر انهم لا يفترقون مع الكتاب حتى يلقوه على الحوض جديرون باتباع سنته بعد كتاب الله وجديرون بأن يحبهم المؤمنون بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى في صفة المستحقين لرحمته : (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الى ان قال ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون) ثم قال بعد ذلك ، واتبعوه لعلكم تهتدون (سورة الاعراف) 157 الى 158 ، نفهم من الآيتين ان رحمة الله وان كانت وسعت كل شيء فانها لا تنال الا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وان الفلاح وهو النجاة من كل مرهوب والظفر بكل مرغوب لا ينال الا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن صادق بريء من النفاق يرغب في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لا يعرف كيف يتبعه الا اذا كان عالما بسنته وهديه ولا يكون عالما بذلك الا اذا كانت السنة منصورة منشورة قد رفعت اعلامها ووضحت احكامها ، فهذا من البواعث والاسباب التي حملت جلالة الحسن الثاني على العناية بسنة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال تعالى في سورة النساء (59) : (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تومنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تاويلا) . امر الله جميع المؤمنين في كل زمان ومكان بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بامتثال الاوامر واجتناب النواهي وكرر الفعل ليبين لعباده ان من اطاع رسوله فقد اطاعه ومن عصى رسوله فقد عصاه كما صرح بذلك فيما بعد بقوله عز من قائل : (من يطع الرسول فقد اطاع الله) ثم عطف اولي الامر وهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

الذين يجمعون كلمة المسلمين ويحافظون على شريعة الاسلام وينفذون احكامها ويدافعون عنها بدون اعادة الفعل وهو (اطيعوا) وفي ذلك لكتة لطيفة كشف الغطاء عنها علماء الكتاب والسنة ، وهو ان طاعة الله ورسوله مطلقة لان الله هو الشارع ورسوله هو المبلغ وهو معصوم من الخطا فيما بلغه ، اما اولوا الامر فليسوا كذلك لان طاعتهم مقيدة بان لا يامروا بمعصية وقد جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم اخبار فيما يتعلق بطاعة الامير وتقييدها رايت ان اتحف القراء بذكرها لان اكثر الناس في هذا الزمان عنها غافلون .

الحديث الاول في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من اطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد اطاعني ومن يعص الامير فقد عصاني .

الحديث الثاني عن ابي ذر رضي الله عنه قال ان خليلي صلى الله عليه وسلم اوصاني ان اسمع واطيع وان كان عبدا حبشيا مجدع الاطراف (هو المقطوع الاذن والانف او اليد ونحوها) وفي رواية البخاري ولو لعبد كان راسه زبيبه .

الحديث الثالث وفي الصحيحين على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره الا ان يؤمر بمعصية فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .

الحديث الرابع عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من راى من اميره شيئا يكرهه فليصبر فانه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية وفي رواية خلع ربقة الاسلام من عنقه .

الخامس عن ابي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الاخر منهما .

السادس عن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (خير ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشر ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم ، فقلنا يا رسول الله ، افلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ، قال لا ما اقاموا فيكم الصلاة الا من ولي عليه وال فرآه ياتي شيئا من معصية الله فليكره ما ياتي من المعصية ولا ينزع يدا من طاعته ، قال شارح العقيدة الطحاوية بعد ان ساق احاديث من هذا الباب فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة اولي الامر ما لم يامروا بمعصية ثم قال واما لزوم طاعتهم وان جاروا فانه يترتب على الخروج عليهم من المفسدة اضعاف ما يحصل من جورهم ، فان الله تعالى ما سلطهم علينا الا لفساد اعمالنا ، قال تعالى : (اولما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم) ، فاذا اراد الرعية ان يتخلصوا من ظلم الامير فليتركوا الظلم ، وعن مالك بن دينار انه جاء في بعض كتب الله يقول الله تعالى : انا مالك الملك قلوب الملوك بيدي ، فمن اطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا انفسكم بسبب الملوك لكن توبوا اعطفهم عليكم .

« توضيح لما تقدم »

الاول : قوله وان كان عبدا حبشيا مجدوع الاطراف اي وان كان الامير الادنى عبدا حبشيا ولاه امام المسلمين عملا من اعماله او جعله اميرا على بلد يجب على الناس طاعته وان كانوا من اشراف العرب ولا يجوز لهم ان يستنكفوا ويتدفعوا مع النخوة والحمية الجاهلية فيقولوا نحن من اشراف العرب واوساطهم فكيف يولي علينا هذا العبد ، لان طاعتهم لذلك الامير العبد هي طاعة للامام الذي ولاه وليس المقصود بذلك أن يكون الامام عبدا لان امام المسلمين يجب ان يكون حرا ولا يجوز ان يكون عبدا ، ولان النبي صلى الله عليه وسلم قال : الائمة من قريش ما اقاموا الدين لا يعاديهم احد الا كبه الله على وجهه في النار ، وفي رواية في الصحيح : الخلافة في قريش ما بقي في الناس اثنان ، فنهذا قلنا ان المراد بكون الامير عبدا الامير الادنى .

الثاني : قول النبي صلى الله عليه وسلم فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ، هذا من فضائل الاسلام الذي هو دين الله الحق وهو ملة ابراهيم ودين جميع الانبياء والرسل خالص صافي لم يصبه تبديل ولا تحريف ، وقد تكفل الله بحفظه الى قيام الساعة ، قال تعالى في سورة الحجر : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) سورة الحجر رقم 9 ، وهذه معجزة خالدة باقية الى يوم القيامة لا يريدها تطاول الزمان وتوالي العصور الا جدة وقوة ، بشرى للمؤمنين وحسرة على الكافرين فانك تجد القرآن الكريم في البلاد الشيوعية الجاحدة لا يستطيع احد ان يغير منه حرفا ولا نقطة وتجده في البلاد التي تدين بالنصرانية

محفوظا كذلك وتجده كذلك في البلاد التي تدين بالوثنية محفوظا من التغيير مع شدة عداوتهم له ولا تجد كتابا مقدسا لاي طائفة من البشر قد تكفل الله بحفظه كما تكفل بحفظ القرآن ، فتحريف الكتب المقدسة عند الامم المختلفة واضح لاهل العلم لا يخفى على باحث ، وكذلك تكفل سبحانه بحفظ السنة المحمدية ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من امتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى ياتي امر الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهليين فسنة النبي صلى الله عليه وسلم وان لم يكن لها ما للقرآن من الحفظ فان الله تكفل بتقييض رجال علماء امناء ينفون عنها كلما ادخله المبطلون فيها فهي في كل زمان سهلة التناول من طلبها وجدها عند الطائفة المنصورة عذبة الموارد صافية المشارب ، وهذا الملك الذي سدده الله وحبب اليه نصرها ونشرها احد انصارها في هذا الزمان وساذكر برهان ذلك فيما بعد . ونفهم من الحديث الذي نحن بصدد ايضاحه ان الاسلام ليس فيه طاعة عمياء فهما بلغ الرئيس من علو المنزلة وسمو المكانة لا يطاع اطاعه مطلقة بل متى امر بمخالفة الكتاب والسنة فلا طاعة لامره . فالكتاب والسنة هما الحاكمان على الامير والمأمور والرئيس والمرؤوس ، ولهم اليد الطولى على الجميع وهذا سر بقاء الاسلام صافيا محفوظا من التغيير الى يوم القيامة .

الثالث : قوله عليه الصلاة والسلام فاقتلوا الاخر منهما انما امر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخليفة الثاني لانه شق عصا الطاعة الواجبة عليه لامام المسلمين وفتح باب فتنة على المسلمين لا يمكن الاحتراز منها الا بقتله فانه كالعضو المتسمم من الجسد ، لا تمكن سلامة الجسد من التلف المحقق الا ببتره ، ومن المعلوم ان المسلمين كما جاء في الحديث الصحيح في توادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

الرابع : قوله عليه الصلاة والسلام خير ائمتكم يعني الخلفاء والامراء الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم الصلاة هنا على معناها الوضعي اللغوي لا على المعنى الشرعي فان الصلاة في اللغة الدعاء ، قال الاعشى :

وصهباء طاف يهوديها
وابرزها وعليها ختم

وقابلها الريح في دنها
وصلى على دنها وارتسم

فقوله وصلى على دنها اي دعا للخمر ان لا تحمض ولا تفسد والدن هو الذى يسمى بالعامية « البرميل » تحفظ فيه الخمر ..

وقال تعالى يخاطب نبيه الكريم في سورة التوبة رقم (103) « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، ان صلواتك سكن لهم » فمعنى صل عليهم ادع لهم ، وقوله تعالى ان صلواتك اي ان دعواتك رحمة لهم وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم امر ربه سبحانه فكان يصلي على من جاءه بالزكاة وفي حديث ابن أبي اوفى انه قال اعطاني أبي صدقة ماله فاتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم صل على آل أبي أوفى . قال في اللسان : قال الازهري هذه الصلاة عندي الرحمة — وقوله افلا ننابذهم بالسيف عند ذلك يعنون افلا نقاتلهم ونشق عصا طاعتهم اذا تعدوا حدود الله بارتكاب الظلم والمعصية حتى لعنتهم الرعية ولعنوها فاجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بالمنع ما داموا يقيمون الصلاة التي هي عنوان التمسك بالاسلام لان الخروج عليهم فيه من الشر والفساد اضعاف ما في جورهم وظلمهم ، وقد قرانا تاريخ الخوارج من اوله الى آخره فما وجدنا فيه الا الشر على الخوارج انفسهم وعلى المسلمين وكلام شارح الطحاوية في ذلك واضح لا يحتاج الى شرح .

الخامس : بيان معنى قوله تعالى (اولما اصابتكم مصيبة) قال الحافظ بن كثير في تفسير هذه الآية وهي ما اصيب منهم يوم احد من قتل السبعين منهم (قد اصبتم مثليها) يعني يوم بدر فانهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا واسروا سبعين اسيرا قلتم اني هذا اي من اين جرى علينا هذا (قل هو من عند انفسكم) قال ابن ابي حاتم بسنده الى عمر بن الخطاب قال لما كان يوم احد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من اخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على راسه وسال الدم على وجهه فانزل الله (اولما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا، قل هو من

عند انفسكم) يأخذكم الفداء وهكذا رواه الامام احمد اهـ. فاذا كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم خير هذه الامة علما وعملا وابرها واتقاها لله عوقبوا بسبب ميلهم الى اخذ الفدية من السبعين اسيرا الذين اسروا في غزوة بدر وفضلوا اخذ الفدية منهم واطلاق سراحهم على قتلهم والاستراحة من شرهم عوقبوا بقتل سبعين منهم في غزوة احد وهزيمتهم وفرارهم عن النبي صلى الله عليه وسلم واصاب النبي صلى الله عليه وسلم من شر عملهم ما تقدم ذكره من كسر سنه وتخضيب وجهه الكريم بالدم فما بال اهل هذا الزمان الذين ملئوا الارض جرائم وآثاما يستقربون ويتعجبون مما اصابهم من البلاء على يد الاستعمار المدبر والصهيونية الحاضرة فلسان الحال يقول كل ما اصابكم فهو بسبب ما كسبته ايديكم ويعفو عن كثير فتوبوا من آثامكم وانيبوا الى ربكم يعطيكم من العزة والنصر فوق ما تؤملون اما انكم تصرون على ما انتم عليه وتريدون ان ينصركم الله وقد خذلتم دينه فقد غرتكم الاماني والاحلام (ان الاماني والاحلام تضليل) فانتم تريدون حصادا بلا زرع ولآليء بلا غوص وفي الحديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني رواه احمد والترمذي وغيرهما من حديث شداد بن اوس عن النبي صلى الله عليه وسلم والآيات التي تحض على الاتباع ونصر السنة اكثر من ان تحصى وكذلك الاحاديث .

الثاني ـ تقدم حديث مسلم في الوصية بالعترة وهم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد اخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم انهم لا يفترقون مع الكتاب والمعنى بذلك هم الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم وقد جمعهم بعض العلماء في بيت واحد، فقال :

علي وعباس عقيل وجعفر
وخيرتهم آل النبي بلا نكر

وهؤلاء هم الذين تحرم عليهم الزكاة في مذهب مالك رحمه الله ويرى الشافعي رحمه الله زيادة بني المطلب ، اما المحبة فتشمل الجميع ولا شك ان ذريتهم اذا اتبعوهم باحسان لهم نصيب وافر من هذه المنقبة : واتباعهم باحسان يقتضي نصر سنة النبي ونشرها ، ولما كان جلالة الحسن الثاني من ذرية هذه العترة فلا غرو ان يسير على نهجهم في نصر السنة ونشرها لينال اوفر نصيب من هذه الخصوصية .

الثالث ـ ان آباءه الاكرمين منذ حلوا بالمغرب بنوا امرهم على طاعة الله واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك بسنته فان جده الاعلى الامام علينا الشريف كان من اهل العلم والورع والجهاد في سبيل الله فحلت ذريته حذوه حتى اختارهم الله لجمع شتات اهل المغرب وتوحيد كلمتهم في دولة واحدة حفظت ثغور المغرب وحدوده من عدوان المعتدين وغارات الافرنج المغتصبين وطهرت ما اصابه رجسهم من البلاد كطنجة والعرائش وغيرهما في الزمان السابق ثم طهرت المغرب برمته من رجس الاستعمار الا قليلا منه على يد الامام المفرد العلم محمد الخامس نضر الله وجهه في الجنة وشاركه في ذلك وآزره الامام الحاضر ابو محمد الحسن الثاني زاده الله نصرا وقوة وتوفيقا وأطال بقاءه وأدام في سماء المعالي ارتقاءه حتى يطهر ما بقي فانه مع اشتغاله بالسياسة الداخلية والخارجية للمغرب وتحمل ثقل اعبائها وحل مشاكلها لم يهمل جانب السنة المحمدية الكريمة وسار على سنن اسلافه وزاد عليهم بما خصه الله به كتأسيس دار الحديث التي هي غرة في جبين عهده الزاهر وكاحياء الكنز الثمين واخراجه من صدفه الى حيز الوجود وانتفاع الناس به الا وهو نشر كتاب التمهيد . وهنا اتوقف قليلا لابين ما شاهدته في جميع البلاد الاسلامية وغيرها من تلهف اهل العلم على سرعة انجاز هذا العمل العظيم لان اهل العلم في اشد الحاجة اليه لتطمئن نفوسهم ولا يطيب لهم عيش حتى يروه كاملا قد صفت مجلدته بعضها الى بعض كاللآليء البهية والدراري المضية تشهد لهذا الملك الهمام بادراك ما قصر عنه الاولون من الفضل والاحسان وفي مثل هذا يقال : كم ترك الاول للاخر .

والطل قد يبدو امام الوبل
والفضل للوابل لا للطل

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،،

ومن حسن المصادفات اني لما بدات في كتابة هذا المقال ورد علينا العالم الاديب والفطحل الاريب الذي يقل في هذا الزمان نظيره وقد ملأ ارجاء العالم نشره وعبيره (ابو احمد محمد ابن ابي مدين) الشنقيطي الموريتاني فانشدنا قصيدته الغراء التي مدح بها جلالة الملك الحسن الثاني ايده الله حين زار موريتانيا قبل مدة وجيزة فاستنسخت هذه القصيدة وبدا لي ان ارصع هذا المقال بنبذة منتخبة

من ابياتها ثم اضع عليها حاشية توضح معاني الفاظها لان اكثر القراء لا ترتفع مداركهم الى مستواها وابعثها ايضا الى مجلة دعوة الحق لتنشر مع حاشيتها :

النبذة المنتخبة

مدينة العلم والباب الذى دخلا
منه الى العلم من للعلم قد وصلا (1)

هي الرسول الذى انواره سطعت
فعم نور سناها السهل والجبلا

وباب تلك ابو السبطين حيدرة
مجيب كل عويص حكمه جهلا

هذان جدا امام الوقت سيدنا
خليفة العدل بالدين الذى نزلا

منير صبح الهدى من بعد ظلمته
جالى دجنة ليل الجهل وابن جلا (2)

ان يعطك اليوم لا يمنعك فى غده
او يبذل الفضل لم يمنن بما بذلا

ان سيل سالت على العافين راحته
كما يسيل وان لم يلف من سالا (3)

ما زال يراب ثايا طالما عبثت
به الوشاة فرم الشاى والخلا (4)

فاصبح الشمل شمل الكل ملتئما
جراء اصلاحه والحبل متصلا

بنى له السؤدد العادي كل اب
ابقاه يرفع من بيت العلا القللا

حث المطابع حتى ابرزت كتبا
مرت عصور عليها وهي رهن بلى

قد ادركت سبتة منه مداركها
بعد البلا وبه التمهيد قد حصلا (5)

كما المساجد تزهو من اعانته
بالا خمصين على اليافوخ من زحلا (6)

يا حائز المجد من عرب ومن عجم
يا من هو اليوم فى جيد الزمان حلا

يا بضعة البضعة الزهراء فاطمة
يابن الخلائف من ساداتنا الفضلا

لا زلت فى درجات المجد مرتقيا
يحوطك الحفظ والتوفيق كل ملا (7)

المدينة المنورة ـ د. محمد تقي الدين الهلالي

---

(1) يشير بذلك الى ما رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (انا مدينة العلم وعلي بابها) .

(2) ابن جلا يشير بذلك الى قول الشاعر :
(انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني)
يريد ان جلالة الملك الحسن الثاني طائر الصيت يضرب به المثل فى الشهرة .

(3) يقول ان سئل معروفا سالت على السائلين يده بالاحسان كماء يسيل وان لم يجد سائلا بحث عنه حتى يجده .

(4) يريد ما قام به جلالة الحسن الثاني من الاصلاح وازالة الوحشة التى كانت بين المغرب وموريتانيا وابدالها بالاخوة والمحبة والتعاون وذلك من اجل مناقبه العبقرية .

(5) يعني ان كتاب المدارك الذى الفه القاضي عياض السبتي ادرك ما يؤمله من الطبع والنشر على يد جلالة الحسن الثاني حفظه الله .

(6) يشير بهذا البيت الى المسجد الجامع العظيم الذى بناه جلالته فى نواكشوط عاصمة موريتانيا وهذا المسجد يفتخر ربطا بقدميه فوق راس زحل وهو احد الكواكب السيارة .

(7) كل ملا اي كل ليل ونهار فان الملوين الليل والنهار ..

ماهي الدواعي التي تدعو أميرالمومنين جلالة الحسن الثاني نصره الله وايده إلى نصرة السنة المحمدية ونشرها وحمايتها.

د. محمد تقي الدين الهلالي

هذه الدواعي كثيرة اعد منها ولا اعددها .

1 — قوله تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » . دلت هذه الآية الكريمة على ان محبة الله للعبد وهي اشرف المطالب تحصل ولا تنال الا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتم اتباع الرسول الا بنصر سنته ونشرها والعمل على احيائها والعمل بها وتكثير متبعيها ، اخرج الحاكم في المستدرك من حديث ابي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض .

وروى الامام مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ابدا كتاب الله وسنتي وروى مسلم في صحيحه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تركت فيكم ثقلين كتاب الله وعترة اهل بيتي فحث على كتاب الله ثم قال وعترة اهل بيتي لا تتخذوهم غرضا من بعدي وفيه ولن يفترقا حتى يردا على الحوض هذا معنى الحديث فالعترة الذين وصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم واخبر انهم لا يفترقون مع الكتاب حتى يلقوه على الحوض جديرون باتباع سنته بعد كتاب الله وجديرون بأن يحبهم المؤمنون بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تعالى في صفة المستحقين لرحمته الذين يتبعون الرسول النبي الامي الى ان قال فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه أولئك هم المفلحون ثم قال بعد ذلك واتبعوه لعلكم تهتدون (سورة الاعراف) 157 الى 158 — نفهم من الآيتين ان رحمة الله وان كانت وسعت كل شيء فانها لا تنال الا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وان الفلاح وهو النجاة من كل مرهوب والظفر بكل مرغوب لا ينال الا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن صادق بريء من النفاق يرغب في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لا يعرف كيف يتبعه الا اذا كان عالما بسنته وهديه ولا يكون عالما بذلك الا اذا كانت السنة منصورة منشورة قد رفعت اعلامها ووضحت احكامها فهذا من البواعث والاسباب التي تحمل جلالة الحسن الثاني على العناية بسنة النبي صلى الله عليه وسلم بالنصر والنشر والآيات التي تحض على الاتباع ونصر السنة اكثر من ان تحصى وكذلك الاحاديث .

2) تقدم حديث مسلم في الوصية بالعترة وهم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد اخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم انهم لا يفترقون مع الكتاب والسنة ، والمعنى بذلك هم الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم. وقد جمعهم بعض العلماء في بيت واحد فقال .

على وعباس عقيل وجعفر
وحمزتهم آل النبي بلا نكر

وهؤلاء هم الذين تحرم عليهم الزكاة في مذهب مالك رحمه الله ويرى الشافعي رحمه الله زيادة بني المطلب اما المحبة فتشمل الجميع ولا شك ان ذريتهم اذا اتبعوهم باحسان لهم نصيب وافر من هذه المنقبة واتباعهم باحسان يقتضي نصر سنة النبي صلى الله عليه وسلم ونشرها ولما كان جلالة الحسن الثاني من ذرية هذه العترة فلا غرو ان يسير على نهجهم في نصر السنة ونشرها لينال اوفر نصيب من هذه الخصوصية

وقال تعالى في سورة النساء (59) « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم

فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تأويلا) امر الله جميع المؤمنين فى كل زمان ومكان بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بامتثال الاوامر واجتناب النواهى وكرر الفعل ليبين لعباده ان من اطاع رسوله فقد اطاعه ومن عصى رسوله فقد عصاه كما صرح بذلك فيما بعد بقوله عز من قائل (من يطع الرسول فقد اطاع الله) ثم عطف اولى الامر وهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يجمعون كلمة المسلمين ويحافظون على شريعة الاسلام وينفذون احكامها ويدافعون عنها بدون اعادة الفعل وهو « اطيعوا » وفى ذلك نكتة لطيفة كشف الغطاء عنها علماء الكتاب والسنة وهى ان طاعة الله ورسوله مطلقة لان الله هو الشارع ورسوله هو المبلغ وهو معصوم عن الخطأ فيما بلغه اما اولوا الامر فليسوا كذلك لان طاعتهم مقيدة بان يأمروا بمعصية وقد جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم اخبار فيما يتعلق بطاعة الامير وتقييدها ، رايت ان اتحف القراء بذكرها لان اكثر الناس فى هذا الزمان عنها غافلون ، الحديث الاول فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اطاعنى فقد اطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الامير فقد اطاعنى ومن يعصى الامير فقد عصانى

الثانى عن ابى ذر رضى الله عنه قال ان خليلى صلى الله عليه وسلم اوصانى ان اسمع واطيع وان كان عبدا حبشيا مجدع الاطراف « هو المقطوع الاذن او الانف او اليد ونحوهما » وفى رواية البخارى ولو لعبد كان راسه زبيبة .

الثالث وفى الصحيحين على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره الا ان يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .

الرابع عن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من راى من امير شيئا يكرهه فليصبر ، فانه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية . وفى رواية فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه .

الخامس عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الاخير منهما .

السادس عن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشر ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم ، فقلنا يا رسول الله افلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ؟ قال لا ما اقاموا فيكم الصلاة الا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله فليكره ما يأتى من المعصية ولا ينزع يدا من طاعته . قال شارح العقيدة الطحاوية بعد ان ساق احاديث من هذا الباب فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة اولى الامر ما لم يأمروا بمعصية ، ثم قال واما لزوم طاعتهم وان جاروا فانه يترتب على الخروج عليهم من المفسدة اضعاف ما يحصل من جورهم ، فان الله تعالى ما سلطهم علينا الا لفساد اعمالنا ، قال تعالى (أو لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم) فاذا اراد الرعية ان يتخلصوا من ظلم الامير فليتركوا الظلم ، وعن مالك بن دينار انه جاء فى بعض كتب الله يقول الله تعالى انا مالك الملك قلوب الملوك بيدى فمن اطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكن توبوا اعطفهم عليكم .

« توضيح لما تقدم »

1 — قوله وان كان عبدا حبشيا مجدع الاطراف اى وان كان الامير الادنى عبدا حبشيا ولاه امام المسلمين عملا من اعماله او جعله اميرا على بلد يجب على الناس طاعته وان كانوا من اشراف العرب ولا يجوز لهم ان يستنكفوا ويندفعوا مع النخوة والحمية الجاهلية فيقولوا نحن من اشرف العرب واوسطهم فكيف يولى علينا هذا العبد ، لان طاعتهم لذلك الامير العبد هى طاعة للامام الذى ولاه ، وليس المقصود بذلك ان يكون الامام عبدا لان امام المسلمين يجب ان يكون حرا ولا يجوز ان يكون عبدا ولان النبى صلى الله عليه وسلم قال الائمة من قريش ما اقاموا الدين لا يعاديهم احد الا كبه الله على وجهه فى النار وفى رواية فى الصحيح الخلافة فى قريش ما بقى فى الناس اثنان ، فلهذا قلنا ان المراد بكون الامير عبدا الامير الادنى .

الثانى — قول النبى صلى الله عليه وسلم فان امر بمعصيةفلا سمع ولا طاعة ، هذا من فضائل الاسلام الذى هو دين الله الحق وهو ملة ابراهيم ودين جميع الانبياء والرسل خالص صاف لم يصبه تبديل ولا تحريف وقد تكفل الله بحفظه الى قيام الساعة ، قال تعالى فى سورة الحجر « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » سورة الحجر رقم 9 . وهذه معجزة خالدة باقية الى يوم القيامة لا يزيدها تطاول الزمان وتوالى العصور الا جدة وقوة بشرى للمؤمنين وحسرة على

الكافرين فانك تجد القرآن الكريم فى البلاد الشيوعية الجاحدة لا يستطيع أحد أن يغير منه حرفا ولا نقطة وتجده فى البلاد التى تدين بالنصرانية محفوظا كذلك وتجده كذلك فى البلاد التى تدين بالوثنية محفوظا من التغيير مع شدة عداوتهم له ولا تجد كتابا متدسا لاى طائفة من البشر قد تكفل الله بحفظه كما تكفل بحفظ القرآن ؛ فتحريف الكتب المقدسة عند الامم المختلفة واضح لاهل العلم لا يخفى على باحث وكذلك تكفل سبحانه بحفظ السنة المحمدية فى الجملة فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتى قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين فسنة النبى صلى الله عليه وسلم وان لم يكن لها ما للقرآن من الحفظ فان الله تكفل بتقييض رجال علماء امناء ينفون عنها كل ما ادخله فيها المبطلون فهى فى كل زمان سهلة التناول من طلبها وجدها عند الطائفة المنصورة عذبة الموارد صافية المشارب .

وهذا الملك الذى سدده الله وحبب اليه نصرها ونشرها احد انصارها فى هذا الزمان وساذكر برهان ذلك فيما بعد . ونفهم من الحديث الذى نحن بصدد ايضاحه ان الاسلام ليس فيه طاعة عمياء فمهما بلغ الرئيس من علو المنزلة وسمو المكانة لا يطاع طاعة مطلقة ؛ بل متى امر بمخالفة الكتاب والسنة فلا طاعة لامره . فالكتاب والسنة هما الحاكمان على الامير والمأمور والرئيس والمرؤوس ولهم اليد الطولى على الجميع وهذا سر بقاء الاسلام صافيا محفوظا من التغيير الى يوم القيامة .

الثالث — قوله عليه الصلاة والسلام فاقتلوا الآخر منهما انما امر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الخليفة الثانى لانه شق عصا الطاعة الواجبة عليه لامام المسلمين وفتح فتنة على المسلمين لا يمكن الاحتراز منها الا بقتله فانه كالعضو المتسم من الجسد . لا تمكن سلامة الجسد من التلف المحقق الا ببتره ؛ ومن المعلوم ان المسلمين كما جاء فى الحديث الصحيح فى توادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

الرابع — قوله عليه الصلاة والسلام خير ائمتكم يعنى الخلفاء والامراء الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم . الصلاة هنا على معناها الوضعى اللغوى لا على المعنى الشرعى فان الصلاة فى اللغة الدعاء قال الاعشى .

وصهباء طاف يهوديها
وابرزها وعليها ختم

وقابلها الريح فى دنها
وصلى على دنها وارتسم

فقوله وصلى على دنها اى دعا للخمر أن لاتحمض ولا تفسد والدن هو الذى يسمى بالعامية البرميل تحفظ فيه الخمر .

وقال تعالى يخاطب نبيه الكريم فى سورة التوبة رقم 103 (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم) فمعنى صل عليهم ادعو لهم ، وقوله تعالى ان صلاتك اى ان دعاءك رحمة لهم . وقد امتثل النبى صلى الله عليه وسلم امر ربه سبحانه فكان يصلى على من جاءه بالزكاة وفى حديث ابن ابى اوفى انه قال اعطانى ابى صدقة ماله فاتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم صل على آل ابى اوفى ، قال فى اللسان : قال الازهرى هذه الصلاة عندى الرحمة

وقولهم افلا ننابذهم بالسيف عند ذلك . يعنون افلا نقاتلهم ونشق عصا طاعتهم اذا تعدوا حدود الله بارتكاب الظلم والمعصية حتى لعنتهم الرعية ولعنوها فاجابهم النبى صلى الله عليه وسلم بالمنع ما داموا يقيمون الصلاة التى هى عنوان التمسك بالاسلام . لان الخروج عليهم فيه من الشر والفساد اضعاف ما فى جورهم وظلمهم ، وقد قرانا تاريخ الخوارج من اوله الى آخره فما وجدنا فيه الا الشر على الخوارج انفسهم وعلى المسلمين وكلام شارح الطحاوية فى ذلك واضح لا يحتاج الى شرح .

الخامس — بيان معنى قوله تعالى « أو لما أصابتكم مصيبة » قال الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية وهى ما اصيب منهم يوم احد من قتلى السبعين منهم (قد اصبتم مثليها) يعنى يوم بدر فانهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا . واسروا سبعين اسيرا ؛ قلتم انى هذا اى من اين جرى علينا هذا (قل هو من عند انفسكم) قال ابن ابى حاتم بسنده الى عمر بن الخطاب قال لما كان يوم احد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من اخذهم الفداء فقتل منهم سبعون

وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على راسه وسال الدم على وجهه ، فانزل الله (أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم) باخذكم الفداء وهكذا رواه الامام احمد اه . فاذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم خير هذه الامة علما وعملا وابرها واتقاها لله عوقبوا بسبب ميلهم الى اخذ الفدية من السبعين اسيرا الذين اسروا فى غزو بدر وفضلوا اخذ الفدية منهم واطلاق سراحهم على قتلهم والاستراحة من شرهم عوقبوا بقتل سبعين منهم فى غزوة احد وهزيمتهم وفرارهم عن النبى صلى الله عليه وسلم واصاب النبى صلى الله عليه وسلم من شر عملهم ما تقدم ذكره من كسر سنه وتخضيب وجهه الكريم بالدم فما بال اهل هذا الزمان الذين ملئوا الارض جرائم وآثاما يستغربون ويتعجبون مما اصابهم من البلاء على يد الاستعمار المدبر والصهيونية الحاضرة فلسان الحال يقول لهم كل ما اصابكم فهو بسبب ما كسبته أيديكم ويعفو عن كثير . فتوبوا من آثامكم وانيبوا الى ربكم يعطكم من العزة والنصر فوق ما تؤملون . اما انكم تصرون على ما انتم عليه وتريدون ان ينصركم الله وقد خذلتم دينه فقد غرتكم الامانى والاحلام « ان الامانى والاحلام تضليل » فانتم تريدون حصادا بلا زرع ولآلىء بلا غوص وفى الحديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى رواه احمد والترمذى وغيرهما من حديث شداد بن اوس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد اكرمه الله بكرامة جديدة بهرت العالم كله وخصصتها بقصيدة نشرت فى مجلة الارشاد التابعة لوزارة الاوقاف حيث وقوع الكرامة الا وهى استرداد الصحراء الغربية وانتزاعها من اليد الاجنبية وهى ارض خلقها الله يوم خلق السموات ، والارض مغربية باجماع علماء الارض لا يمكن ان تخرج عن المغرب حتى تخرج لندن من بريطانيا وباريس من فرنسا والقاهرة من مصر ومن زعم غير ذلك كذبه أهل السموات واهل الارض .

الثالث — ان أبناءه الاكرمين منذ حلوا بالمغرب بنوا أمرهم على طاعة الله واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك بسنته فان جده الاعلى الامام عليا الشريف كان من اهل العلم والورع والجهاد فى سبيل الله . فحذت ذريته حذوه حتى اختارهم الله تعالى لجمع شتات اهل المغرب . وتوحيد كلمتهم فى دولة واحدة حفظت ثغور المغرب وحدوده من عدوان المعتدين وغارات الافرنج المغتصبين وطهرت ما اصابه رجسهم من البلاد كطنجة والعرائش وغيرهما فى الزمان السابق ثم طهرت المغرب برمته من رجس الاستعمار الا قليلا منه على يد الامام المفرد العالم محمد الخامس نضر الله وجهه فى الجنة وشاركه فى ذلك وآزره الامام الحاضر ابو محمد الحسن الثانى زاده الله نصرا وقوة وتوفيقا واطال بقاءه وادام فى سماء المعالى ارتقاءه حتى يطهر ما بقى ، فانه مع اشتغاله بالسياسة الداخلية والخارجية للمغرب وتحمل ثقل اعبائها وحل مشاكلها لم يهمل جانب السنة المحمدية الكريمة وسار على سنة اسلافه وزاد عليهم بما خصه الله به كتاسيس دار الحديث التى هى غرة فى جبين عهده الزاهر وكاحياء الكنز الثمين واخراجه من صدفه الى حيز الوجود وانتفاع الناس به الا وهو نشر كتاب التمهيد وهنا اتوقف قليلا لابين ما شاهدته فى جميع انحاء البلاد الاسلامية وغيرها من تلهف اهل العلم على سرعة انجاز هذا العمل العظيم لان اهل العلم فى اشد الحاجة اليه لا تطمئن نفوسهم ولا يطيب لهم عيش حتى يروه كاملا قد صفت مجلداته بعضها الى بعض كاللآلىء البهية والدرارى المضيئة يشهد لهذا الملك الهمام بادراك ما قصر عنه الاولون من الفضل والاحسان .

ونسال الله ان يزيده توفيقا لادراك المفاخر واحياء السنن واماتة البدع وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

مكناس : الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

مباحث في القرآن

للدكتور تقي الدين الهلالي

اعلم — علمت خيرا ووقيت ضيرا — ان مباحث القرآن وعلومه وفوائده ، وجواهره ، واسراره لا تعد ولا تحصى ، وليست خاصة بزمان دون زمان ، ففي كل زمان يظهر منها شيء كان خافيا من قبل كما قال الشاعر :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا

بل كما قال الله تعالى في آخر سورة فصلت (53 سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : اي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسول الله (ص) بدلائل خارجية في الآفاق من الفتوحات وظهور الاسلام على الاقاليم ، وسائر الاديان. قال مجاهد والحسن والسدي : ودلائل في انفسهم قالوا : وقعة بدر ، وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه .

ويحتمل ان يكون المراد من ذلك ، ما الانسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والاخلاط ، والهيآت العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى ، وكذلك ما هو مجبول عليه من الاخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الاقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره ان يجوزها ولا يتعداها ، كما انشد ابن ابي الدنيا في (التفكر والاعتبار) عن شيخه ابي جعفر القرشي حيث قال ، واحسن المقال :

واذا نظرت تريد معتبرا
فانظر اليك ففيك معتبر

انت الذي تمسي وتصبح في الـ
ـدنيا وكل اموره عبر

انت المصرف كان في صغر
ثم استقل بشخصك الكبر

انت الذي تنعاه خلقته
ينعاه منه الشعر والبشر

انت الذي تعطي وتسلب لا
ينجيه من ان يسلب الحذر

انت الذي لا شيء منه له
واحق منه بماله القدر اه

قال محمد تقي الدين : اقتصر من ذلك على مثال واحد اذا تأملته حق التأمل ازددت يقينا بما ذكرته آنفا، وذكره غيري من الباحثين من ان عجائب القرآن لا تنقضي قال تعالى في سورة الواقعة (71 — 74 افرايتم النار التي تورون . ائتم انشاتم شجرتها ، ام نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم) .

قال القنوجي في تفسيره : (أفرايتم النار التي تورون) اي اخبروني عنها ، ومعنى تورون تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال : او ريت النار اذا قدحتها ، والعرب تقدح بعودين تحك احدهما على الاخر ، ويسمون الاعلى الزند والسفلى الزندة ، شبهوهما بالفحل والطروقة (أأنتم انشاتم شجرتها) التي تكون منها الزنود ، وهي المرخ والعفار تقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . وزاد الجلال المحلي : الكلخ ، نقل سليمان الجمل عن شيخه انه قال : ولم نجده في القاموس ولا في المختار ، غير انه اخبر بعض اهل المغرب والشام بانه موجود معروف عندهم شبيه بالقصب ، تؤخذ منه قطعتان ، وتضرب احداهما بالاخرى فتخرج النار .

وقوله (أم نحن المنشئون) لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الانشاء : الخلق ، وعبر عنه بالانشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة (نحن جعلناها) اي النار التي في الدنيا (تذكرة) لنار جهنم الكبرى حيث علقنا بها اسباب المعاش ، وعممنا بالحاجة اليها البلوى ، لتكون حاضرة للناس ينظرون اليها ، ويتذكرون ما اوعدوا به .

قال مجاهد وقتادة : تبصرة للناس في الظلام . وقال عطاء : موعظة ليتعظ بها المؤمن . وقال ابن عباس تذكرة للنار الكبرى . عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من جهنم ، قالوا : والله ان كانت لكافية يا رسول الله؟ قال : فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها . اخرجه البخاري ومسلم .

وقوله (ومتاعا للمقوين) اي للمسافرين ، قاله ابن عباس ، يعني منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهي الارض القفر ، كالمسافرين واهل البوادي النازلين في الاراضي المقفرة . يقال : ارض قواء بالمد والقصر ، اي مقفرة . ويقال : اقوى اذا سافر ، اي نزل القوى ، وخصوا بالذكر ، لان منفعتهم بها اكثر من المقيمين ، فانهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ، ويهتدي الضال الى غير ذلك من المنافع .

وقال مجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس اجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، وتذكر نار جهنم . وقال ابن زيد : للجائعين في اصلاح طعامهم ، يقال : اقويت منذ كذا وكذا ، اي ما اكلت شيئا ، وبات فلان القوى ، اي جائعا .

وقال قطرب : القوى من الاضداد ، يكون بمعنى الفقر ، ويكون بمعنى الغنى ، يقال : اقوى الرجل اذا لم يكن معه زاد ، واقوى اذا قويت دوابه ، وكثر ماله. والمعنى جعلناها متاعا ومنفعة للاغنياء والفقراء ، لا غنى لاحد عنها . وقال المهدوي : الاية تصلح للجميع ، لان النار يحتاج اليها المسافر والمقيم ، والغني والفقير وحكى الثعلبي عن اكثر المفسرين القول الاول ، وهو الظاهر . اهـ .

انتفاع المسافرين بالنار في هذا الزمان

قد رايت في كلام ائمة التفسير ان المقوين هم المسافرون ، وان الله جعل لهم النار متاعا يستمتعون بها في اسفارهم ، ورايت ما ذكره المفسرون في استمتاعهم بها ، وقد ظهرت في هذا الزمان انواع من الاستمتاع بالنار للمسافرين لم تكن تخطر بالبال ، فمنها القطر ، جمع قطار ، وهي سفن البر التي تسير ليل نهار في جميع انحاء المعمور ، منها السريع والمتوسط والبطيء، تحمل المسافرين وامتعتهم بالغة ما بلغت في الثقل ، وتحمل البضائع من قطر الى قطر ، ومن صقع الى صقع ، وتحمل الاطعمة لكثير من القرى والمحطات التي لا تعيش الا على ما تحمله القطر اليها . فهذا النوع من المتاع للمسافرين اولا ، وللمقيمين ثانيا قوامه النار ، فهي التي تسير القطر ، وتضيئها وتطبخ اطعمتها ، وتدفيء اهلها ، وهي على انواع غير ما تقدم فمنها التي تسير في سككها على وجه الارض ، ومنها التي تسير تحت الارض في انفاق طويلة مشتبكة ، ينزل اليها احيانا عشرين درجة واكثر ، وتكون في طبقات تحت الارض ، قطر في الطبقة المباشرة لوجه الارض ، وهناك طبقة تحتها تسير فيها قطر اخرى ، وهناك طبقة ثالثة ، كما يعلم ذلك من اقام في برلين وباريس ولندن . وهناك نوع من القطر يسير على قضبان ممدودة على اعمدة في سماء المدينة كلها في ارتفاع يحاذي الطبقة الخامسة والسادسة من البيوت ، حتى ان الانسان اذا كان راكبا فيها يرى السيارات على وجه الارض كانها حشرات ، كما في مدينة برلين .

ومنها القطر التي ترفع المسافرين وامتعتهم ، والبضائع والاغذية الى الفنادق المبنية على قمم الجبال المرتفعة العالية آلاف الامتار ، كما في سويسرا والنمسا وغيرهما . وهذه القطر تسير بالكهرباء ، ولها اعمدة حديدية يلتصق بها القطار ، فيرتفع في الهواء

فوق غابات جبلية يندر أن يصل اليها الناس بأقدامهم أو على الدواب ، ولا يشاهدون ما فيها من الوحوش والاشجار الا اذا كانوا راكبين فى تلك القطر وهي صاعدة بهم .

وسكان تلك الفنادق متوقفون فى معيشتهم على تلك القطر ، لا يصل اليهم من الارض الا ما حملته ، وهم يعيشون فى تلك الفنادق عيشة راضية ، لاينقصهم شيء مما يوجد فى المدينة اسفل منهم ومحطات هذه القطر تعلو عن وجه الارض بمقدار مائة درجة ، ومنها ينبعث القطار صاعدا فى الجو ، وله منظر عجيب .

ومنها البواخر الجواري فى البحر كالاعلام ، اي كالجبال ، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى سورة الشورى بقوله جل من قائل (32 — 35 ومن آياته الجواري فى البحر كالاعلام . ان يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره ، ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . او يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص) .

قال القاسمي فى تفسير هذه الآيات : (ومن آياته الجواري) اي السفن الجارية (فى البحر كالاعلام) اي الجبال (ان يشأ يسكن الرياح ، فيظللن رواكد على ظهره) اي فيبقين ثوابت على ظهر البحر (ان فى ذلك) اي فى جري هذه الجواري فى البحر بتسخير الله تعالى الريح لجريها (لآيات) اي لعبرة وعظة وحجة بينة على القدرة الازلية (لكل صبار شكور) اي لكل مؤمن ، وانما آثر المذكورين تذكيرا بما ينبغي ان يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر ، وكثرة الشكر ، اذ لا يكمل الايمان بدونهما ، والايمان نصفان ، نصف صبر ، ونصف شكر . اهـ .

وفى الزمان السابق كانت السفن صغارا لا تشبه بالجبال الا على ضرب من التجوز والتسامح ، اما فى زماننا هذا ، فقد صنعت سفن كالسفينة الانكليزية المسماة (كون ميري) اي المملكة مارية ، وحمولتها ثمانون الف طن . وسمعت ان اليابانيين صنعوا سفينة من ناقلات الزيت حمولتها مائتا الف طن ، فهذه السفن شبيهات بالجبال يستمتع المسافرون فيها بالنار انواعا من المتاع ، فالنار هي التي تحملهم وتسيرهم ، وتجعل سفينتهم فى الليل الحالك قطعة من النور ، وفيها مطاعمهم ، ودور اللهو ، كالمسارح ، ودور الصور المتحركة (سينما) والمصابح ، وآلات النقل للانتقال من الارض الى الباخرة ، ومن الباخرة الى الارض فى المراسي وفى عرض البحر ، كل ذلك استمتاع بالنار .

ومنها الطائرات بجميع انواعها ، فانها تسير بالنار ، والمسافرون فيها يستمتعون بسبب النار انواعا من الاستمتاع ، لولا وجود النار ما قدروا على شيء منها . ومنها الصواريخ والاقمار الصناعية والسفن الفضائية التي تخرق الغلاف الجوي للارض ، كانها السهام المنبعثة من القسي ، او الرصاص المنبعث من البنادق ، فتشق ذلك السقف المحفوظ ، وتخرج الى الفضاء الخالي ، فتجول فيه دائرة حول الارض اياما وليالي كثيرة ، لان يومها وليلتها لا يزيدان على ساعة ونصف ، ثم ترجع الى الارض التي منها خلقت ، وفيها صنعت باذن العليم الحكيم .

واما قوله تعالى فى سورة الرحمن (33 — 35 يا معشر الجن والانس ، ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض ، فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان . فباي آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) .

قال البيضاوي : ان قدرتم ان تخرجوا من جوانب السموات والارض ، هاربين من الله ، فارين من قضائه (فانفذوا) فاخرجوا (لا تنفذون) لا تقدرون على النفوذ (الا بسلطان) الا بقوة وقهر ، وانى لكم ذلك ، او ان قدرتم ان تنفذوا لتعلموا ما فى السموات والارض ، فانفذوا لتعلموا ، لكن لا تنفذون ولا تعلمون الا ببينة نصبها الله تعالى فتعرجون بافكاركم عليها (فباي آلاء ربكما تكذبان) اي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة ، او مما نصب من المصاعد العقلية والمعارج النقلية ، فتنفذون بها الى ما فوق السموات العلى ، (يرسل عليكما شواظ) لهب (من نار ونحاس) ودخان قال :

تضيء كضوء سراج السلي
ـط لم يجعل الله فيه نحاسا

او صفر مذاب يصب على رؤوسهم (فلا تنتصران) فلا تمتنعان (فباي آلاء ربكما تكذبان) فان التهديد لطف ، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار فى عداد الآلاء . انتهى .

قوله (تضيء كضوء سراج السليط) السليط : هو الزيت . والنحاس : الدخان . واذ لم يجيء فى هذه الآيات تفسير عن النبي (ص) ، وقد اختلف المفسرون فيها ، فلا حرج علينا أن نفسرها بما يوافق لغة العرب ، وواقع علم الهيئة ، ففيها تحد للجن والانس انهم مكبلون بقدرة الله فى هذه الارض ، لايستطيعون

ان يخرجوا عن قضاء الله ، وما لهم مهرب ولا محيص، فان الله ربط حياتهم وسلامتهم بهذا الغلاف الجوي ، لا يستطيعون اختراقه والخروج عنه الا بقوة من الله تعالى يمنحهم اياها متى شاء على القدر الذي يريده . أما الارض فقد سخرها لهم وجعلها واسعة مذللة ، وأذن لهم ان يمشوا في مناكبها ، ويأكلوا من رزقه في جميع أرجائها ، برها وبحرها ، لا حجر عليهم . أما الخروج عنها فلا يمكنهم الا بالقدر الذي يريده الله ويشاؤه ، وبالسلطان الذي يمنحهم ، مع بقائهم مرتبطين بالارض ، منها يتزودون ، غذاء وهواء واخبارا واليها يرجعون اضطرارا .

فكل سفينة تسعى لاختراق هذا الجو المحيط بالارض الذي هو جو الحياة المحفوظ من الآفات السماوية ، من الشهب والنيازك والاشعاع القاتل تعرض نفسها للاحتراق بالنار والنحاس ، فان شاء الله منحها سلطانا تتغلب به وتنتصر على الشواظ من النار والنحاس ، وان لم يشأ احترقت وتلاشت ، فسبحان العزيز العليم .

يزيد هذا وضوحا قوله تعالى في سورة الانعام (125 فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد في السماء) .

قال القاسمي في تفسيره هذه الآية (فمن يرد الله ان يهديه) اي للتوحيد (يشرح) اي يوسع (صدره للاسلام) بتصقيله بنور الهداية ، فيقبل نور الحق كما قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم) .

روى عبد الرزاق ان النبي (ص) سئل عن هذه الآية كيف يشرح صدره ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح ، قالوا : فهل لذلك من امارات يعرف بها ؟ قال : الانابة الى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت ورواه ابن جرير ، وابن ابي حاتم ، قال ابن كثير : وللحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا . (ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) اي شديد الضيق فلا يتسع للاعتقادات الصائبة في الله ، والامور الاخروية .

وقوله (كأنما يصعد في السماء) اي يتكلف الصعود في جهة السماء ، وطبعه يهبط الى الارض ، فشبه للمبالغة في ضيق صدره بمن يزاول امرا غير ممكن ، لان صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة . اهـ .

وليس مقصودي بهذه الاشارة ان استوعب ما ظهر من الآيات في الآفاق للعلماء والباحثين ، فقد الف في ذلك الامام السلفي خاتمة المحققين ، وسيف الله المصلت على المبتدعين السيد محمد شكري الآلوسي البغدادي جزءا لطيفا سماه (ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان) ولم يتعرض رحمه الله للآيات التي ذكرتها من سورة الواقعة والرحمن والانعام ، فاكتفى بهذا القدر الذي سقته على سبيل التنبيه .

فضائل القرآن وشرطها

اعلم ان القرآن حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وعز لا ذل معه ، وسعادة لا يخالطها ولا يعقبها شقاء، وقوة ابدية ، ونصر سرمدي ، وفضائله لا تعد ولا تحصى ، ولكن لادراكها شروط لا تنال بدونها البتة ، وهذه الشروط مبينة في الكتاب وفي بيانه ، وهو السنة ولو اردت ان استوعب ما وصل اليه علمي القاصر من هذه الفضائل المشروطة لطال الكلام حتى يبلغ مجلدات ، لذلك اقتصر على ذكر شيء من ذلك ، وفي بعضه كفاية . فمن آيات الكتاب العزيز :

1 — قوله تعالى في سورة النساء (174 — 175 يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وانزلنا اليكم نورا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : يقول تعالى مخاطبا لجميع الناس ، ومخبرا بانه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبهة ، ولهذا قال (وانزلنا اليكم نورا مبينا) اي ضياء واضحا على الحق . قال ابن جريج وغيره : وهو القرآن . (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا) اي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع امورهم . قال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن . رواه ابن جرير .

وقوله تعالى (فيدخلهم في رحمة منه وفضل) اي برحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ، ورفعا في درجاتهم من فضله عليهم ، واحسانه اليهم (ويهديهم اليه صراطا مستقيما) اي طريقا واضحا

قصدا قواما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي الى روضات الجنات . اهـ .

2 ـ قال تعالى في سورة المائدة (16 يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن نفسه الكريمة انه قد ارسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق الى جميع اهل الارض ، عربهم وعجمهم ، اميهم وكاتبهم ، وانه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال تعالى (يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير) اي يبين ما بدلوه وحرفوه واولوه ، وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيروه ، ولا فائدة في بيانه .

وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث ابن عباس قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب لقوله (يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) فكان الرجم مما اخفوه . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

ثم اخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي انزله على رسوله الكريم فقال : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) اي طرق النجاة والسلامة ، ومناهج الاستقامة (ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) اي ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم ابين المسالك ، فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم احب الامور وينفي عنهم الضلالة ، ويرشدهم الى اقوم حالة . اهـ .

نفهم من آيتي النساء وآية المائدة امورا الاول ان القرآن نور وبرهان من الله تعالى . اما كونه نورا ، فانه يخرج كل امة آمنت به ، وعملت بمقتضاه ، واتخذته اماما وحكما من ظلمات الشقاء المادي والروحي الى نور السعادة الكبرى ، حتى تكون اسعد الامم في حياتها من جميع الوجوه ، ولا تكاد تساويها في ذلك امة اخرى من الامم المخالفة ، وذلك بعينه هو ما حدث للعرب الذين استضاءوا بنور القرآن ، ولكل امة استضاءت به بعدهم .

واما كونه برهانا ، فانه حجة من الله تعالى على خلقه جميعا ، فاي جماعة استمسكت به ظهرت وانتصرت وفازت وعلت ، وبذلك تتم الحجة على غيرها من الامم التي سلكت غير مسلكها .

وقوله سبحانه (فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) دليل على ان الايمان بالله ، والاعتصام بالقرآن كما قال ابن جريج شرط في الاستضاءة بذلك النور ، والخروج من ظلمات الشقاء، فمن اعتل ايمانه بالله ، ولم يعتصم بالقرآن ، فلاعمل به ولا اتخذه اماما وحكما ، لا يستضيء بنوره ، ولا يخرج من ظلمات شقائه . والرحمة هنا هي السعادة الدنيوية والاخروية جميعا ، اي سعادة البدن والروح والعاجل والآجل ، والفضل هو زيادة الاكرام والانعام لمتبعي ذلك النور فوق ما يخطر ببالهم حتى يدهشوا ويتحيروا ويغتبطوا .

وقوله سبحانه (ويهديهم اليه صراطا مستقيما) اي يديم عليهم نعمته ، ويسلك بهم طريق السعادة . وهذا الصراط هو المعبر عنه في آية المائدة بـ (سبل السلام) .

الثاني في آية المائدة خطاب لاهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وحث لهم على الايمان بخاتم النبيين رسول رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم، وانه يبين لهم كثيرا مما اخفوه من كتبهم كآية الرجم، ويعفو عن كثير مما لا تدعو الضرورة الى بيانه فيتركه مستورا .

الثالث ان الله سبحانه اخبرهم بانه قد جاءهم منه نور وبرهان كما جاء الى غيرهم ، وهذا النور والبرهان هو كتاب الله القرآن ، فالعطف عطف تفسير كما في قول الشاعر :

الا حبذا هند وارض بها هند
وهند اتى من دونها النأي والبعد

فنأي هو البعد . وقال عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده
اقوى واقفر بعد ام الهيثم

فالاقواء هو الاقفار . وقال عدي بن زيد :

والفى قولها كذبـا ومينـــا

والمين هو الكذب . ومثله قوله تعالى فى سورة البقرة (53 واذا آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) فالفرقان هو الكتاب .

واخبر سبحانه انه يهدي بذلك الكتاب المبين من اتبع رضوانه ، و (من) من الفاظ العموم تصدق على الواحد والجماعة ، فكل من اتبع رضوان الله ، بان عمل بما فى كتابه ، واستضاء بنوره ، واتخذه اماما وحكما ، وتخلق بما فيه من الاخلاق يهديه الله سبل السلام ، اي طرق السلامة فى الدنيا والآخرة ، فلا يسلك سبيلا الا صحبته السلامة ، ويخرجهم اي المستضيئين بنور القرآن من الظلمان الى النور ، وظلمات الحياة كثيرة ، والنور هو زوالها ، فلذلك افرد (باذنه) اي بتوفيقه وارادته ، ويهديهم فى جميع اعمالهم الى صراط مستقيم ، وهو الاعتدال فى اعمالهم واحكامهم بلا افراط ولا تفريط لتمسكهم بالقرآن الذي هو الميزان ، كما سياتي فى حديث الحارث الاعور عن علي بن ابي طالب مرفوعا (ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم) .

3 ــ وقال تعالى فى سورة الاعراف (2 ــ 3 كتاب انزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر بـــه وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه اولياء) .

قال الخازن : (كتاب انزل اليك) يعني هذا كتاب انزله الله اليك يا محمد ، وهو القرآن (فلا يكن فى صدرك حرج منه) يعني فلا يضيق صدرك بالابلاغ وتادية ما ارسلت به الى الناس . اهـ . (لتنذر به) اي بالقرآن جميع الناس تخوفهم من عذاب الله فى العاجل والآجل اذا اعرضوا عنه ، ولم يتبعوه (وذكـــرى للمؤمنين) اي لتذكر وتعظ به المؤمنين ، فانهم المنتفعون بالموعظة والذكرى .

ثم قال تعالى مخاطبا جميع الناس (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم) وهو هذا القرآن ، (ولا تتبعوا من دونه اولياء) من شياطين الانس والجن ، توالونهم على خلاف القرآن . والمومنون المنتفعون بالقرآن هم الموصوفون فى اول السورة التي تلي هذه ، وهـــي سورة الانفال (2 ــ 4 انما المومنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهـــم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . اولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)

عبر سبحانه وتعالى بـــ (انما) التي هي للحصر واكد هذا الحصر فى آخر الآيات بقوله (اولئك هم المومنون حقا) وقد تضمنت هذه الآيات خمس صفات لا يتم الايمان بدونها . الاولى وجل القلب ، اي خوفه عند ذكر الله . الثانية زيادة الايمان عند سماع آيات الله تتلى . الثالثة : التوكل على الله والاعتماد عليه وحده لا شريك له فى جلب المنافع ودفع المضار ، والثقة بوعده .

الرابعة : اقامة الصلاة ، اي اداؤها قائمـــة كاملة تامة بالمحافظة على اوقاتها وطهارتها وجماعتها واركانها وآدابها ، والخشوع فيها ، وكونها مطابقـــة لصلاة رسول الله (ص) لقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث مالك بن الحويرث الطويل (وصلوا كمـــا رايتموني اصلي) رواه البخاري .

الخامسة : انفاق المؤمن مما رزقه الله ، زكاة وغيرها . والمتصفون بهذه الصفات يعلى الله درجاتهم فى الدنيا والآخرة ، وينصرهم فى الدنيا والآخرة ، ولهم رزق كريم فى الدنيا والاخرة ، وهم المتبعون للقـــرآن السعداء به . واقتصر على هذا القدر من آيات كتاب الله العزيز ، لان المقام لا يتسع لاكثر منها وفيها غنية وكفاية .

الاحاديث النبوية فى هذا المعنى

1 ــ عن النواس بن سمعان قال : سمعـــت النبي (ص) يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة واهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقـــرة وآل عمران ، كانهما غمامتان او ظلتان سوداوان بينهمـــا شرق ، او كانهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما . رواه مسلم .

الظلة والغمامة : ما اظل الانسان فوق راســـه كالسحاب ونحوه . والفرقان تثنية فرق بالكسر ، وهو السرب من الطير . والشرق : الضوء والنـــور . وتحاجان عن صاحبهما : اي تشفعان له . والشاهد فى قوله (واهله الذين كانوا يعملون به) فيه ان اهـــل القرآن حقا هم الذين يقرؤونه ويعملون به . اما الذين يقرؤونه ولا يعملون به فليسوا باهله ، ولا ينالون هذا الفضل .

2 ـ عن الحارث الاعور قال : مررت في المسجد، فاذا الناس يخوضون في الاحاديث ، فدخلت على علي فاخبرته فقال : اوقد فعلوها ؟ قلت نعم ، قال : اما اني سمعت رسول الله (ص) يقول : الا انها ستكون فتنة ، قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به) من قال به صدق ، ومن عمل به اجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم . رواه الدرامي والترمذي وقال : هذا حديث اسناده مجهول ، وفي الحارث مقال .

ليس لهذا الحديث اسناد صحيح ، ولكن معناه صحيح ، ولذلك رواه المنذري في الترغيب والترهيب والبغوي في المصابيح ، وابن كثير في التفسير . والاحاديث التي كانوا يخوضون فيها وشغلتهم عن القرآن هي القصص والاخبار ، والحكايات التي لا طائل تحتها ، والمساجد انما بنيت للصلاة وذكر الله ، وخير الكلام كلام الله ، وبه ينبغي ان تعمر المساجد ، لا بالراي والاباطيل . قال الشعبي رحمه الله : والله لقد بغض الي اهل الراي المسجد ، حتى لهو ابغض الي من كناسة بيتي .

وقوله (او قد فعلوها) انكار عليهم ، والضمير عائد على الفعلة الشنيعة . وقد صح عن النبي (ص) مجيء الفتن بعد زمانه عليه الصلاة والسلام ، ولاشك ان من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله التي هي بيانه عصمه الله من الفتن في كل زمان ومكان . وفي زماننا هذا فتن عظيمة ، ولا مخرج منها للدول والشعوب وآحاد الناس الا باتباع القرآن اتباعا حقيقيا ، والعمل به ، وتحكيمه ، ورفع رايته .

وقوله (نبأ ما قبلكم) اخبار الامم السابقة ، وما اصابها من العذاب ، باعراضها عن كتب الله ورسل الله (وخبر ما بعدكم) من سوء عواقب الظالمين والفاسقين عن امر الله ، والمتعدين لحدود الله ، واشراط الساعة . فمن تمسك به هداه الله دائما سبل السلام كما تقدم في آية المائدة (وحكم ما بينكم) الاحكام الشرعية التي تحتاج اليها الامة الى يوم القيامة .

وقوله (هو الفصل) اي الفاصل بين الحق والباطل ، وليس فيه شيء من الهزل ، بل هو جد كله (من تركه من جبار قصمه الله) اي من ترك القرآن من الجبارين القاهرين لخلق الله المتعالين عن حكم الله قصمه الله اي اهلكه (ومن ابتغى الهدى) اي طلب الحق والرشاد والعدل في غير القرآن مما يضاد القرآن ويناقضه (اضله الله) اي اخرجه عن سبل السلام واوقعه في سبل الهلاك .

وقوله (وهو حبل الله المتين) قال الحافظ ابن كثير عن ابي جعفر الطبري بسنده الى ابي سعيد قال: قال رسول الله (ص) : كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء الى الارض . وروى ابن مردويه بسنده الى عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : ان هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه . وروى عن حديث حذيفة وزيد بن ارقم نحو ذلك . اهـ .

فمن تمسك بالقرآن كما تمسك به اصحاب رسول الله (ص) والصالحون من بعدهم من جماعات وآحاد اوصله الى السعادة الابدية ، ومن اعرض عنه، فان له معيشة ضنكا ، اي ضيقة نكدة في هذه الدنيا ، ويحشره الله يوم القيامة اعمى ، لانه كان في الدنيا اعمى لا يستضيء بنور يستضيء بنور القرآن ، ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا . فكل ما اصاب المنتمين الى الاسلام في هذا الزمان هو بسبب اعراضهم عن القرآن ، ومن شك فليجرب، وكيف يشك عاقل في ذلك ، وهذا تاريخ المسلمين امامنا ، كاننا ننظر اليه باعيننا مطابق لهذا الوعيد كل المطابقة ، وقد اعترف بهذا الموافق والمخالف ، حتى الملحدون اعداء الدين اعترفوا بان القرآن هو الذي نفخ في اتباعه روح الحياة ، وبعثهم على اقتباس المدنيات وعلوم الحضارة كما قرره جوزيف مك كيب ، ونقله عن كبار الفلاسفة الملحدين في كتابه (مدنية العرب في الاندلس) في غير ما موضع . ويحتمل ان يكون الحبل بمعنى العهد في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) ومن اعرض عن القرآن فقد نقض عهد الله ، فالمعنيان متلازمان .

قوله (لا تزيغ به الاهواء) يعني ان من كان هواه تبعا للقرآن ، يحيي ما احيى القرآن ، ويميت ما اماته القرآن ، ويثبت ما اثبته القرآن ، وينفي ما نفاه القرآن ويرفع ما رفعه القرآن ، ويخفض ما خفضه القرآن ،

ويدور معه كيفما دار ، فهو سعيد موفق منصور مهتد ، لان القرآن هو الصراط المستقيم ، فمن خرج عنه وقع فى الزيغ والهلاك . ويشابه هذا المعنى حديث الاربعين قال النووي : عن أبي محمد عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : قال رسول الله (ص) : لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به . حديث حسن صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة باسناد صحيح .

ومصداقه فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى فى سورة النساء (65 فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما فلا تصح دعوى الايمان ، ولا تدرك ثمرته ، وهي السعادة الا برد كل نزاع الى كتاب الله وسنة رسوله ، والرضا بما يصدر عنهما من حكم ، مع التسليم والاذعان والمحبة .

وقوله (ولا تلتبس به الالسنة) لان الله يسر تلاوته وتدبره على العربي والعجم ، ولذلك تجد المجودين والمتضلعين فى علوم القرآن من الشعوب الاعجمية اكثر مما تجدهم من العرب . وفى هذه الايام جرت مباراة فى (مالزية) بالشرق الاقصى فى تجويد القرآن ، وحسن تلاوته ، اشترك فيها اربعة عشر قطرا ، رجالا ونساء ، ففاز بالجائزة الاولى قراء مالزية وقارئاتها ، وفاز بالجائزة الثانية قراء اندونيسيا وقارئاتها ، صدق الله العظيم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) .

(ولا يشبع منه العلماء) لان فوائده لا نهاية لها، فمن شبع منه فهو من الجاهلين . وللاستاذ محمد ماريماديوك بكتول الانكليزي النسب رحمه الله فى مقدمة تفسيره للقرآن بالانكليزية كلام حسن فى هذا المعنى ، وليس تحت يدي الآن نسخة منه لانقله . وكذلك الاستاذ الفرنسي خير الدين زينه فى تفسيره للقرآن بالفرنسية رحمه الله .

(ولا يخلق عن كثرة الرد) اي لا يبلى مع كثرة التلاوة واعادتها ، ولا يمل (ولا تنقضي عجائبه) اودع الله فى القرآن حكما واسرارا لا نهاية لها ، فلا تزال تظهر للمفكرين والمتدبرين فيتعجبون منها (هو الذي) لما سمعته الجن اجلته واكبرته ، وبهرها حتى قالت (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد) الى الخير والعدل والحق ، واهم ذلك توحيد الله ، ولذلك قالوا (فلن نشرك بربنا احدا) وسائر ما قالوه فى سورة الجن يدل على شدة تأثير القرآن فيهم .

وقوله (من قال به) افتى بمقتضى ما فيه (صدق) اي أصاب الحق ، ومن افتى بخلافه كذب ، (ومن عمل به) نجا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، ومن لم يعمل به هلك هلاكا ابديا (ومن حكم به عدل) ومن حكم بخلافه تعدى وظلم (ومن دعا اليه) اي الى تحكيمه والعمل به (فقد هدي) بصيغة المجهول والمعلوم ، وهما متلازمان ، لان الهادي الى الصراط المستقيم مهدي .

تجويد القرآن

اعلم ان تجويد القرآن فرض على كل قارىء ، وتعليمه فرض كفاية على اهل كل بلد ، فان تركوه واهملوه اثموا جميعا ، وقد نص العلماء على ذلك ، رحرروه اتم التحرير ، غير ان هذا المقال قد طال ، لذلك اردت ان الم به الماما .

قال ابن الجزري فى المجلد الاول من كتابه (النشر فى القراءات العشر ص 210 ما نصه : التجويد مصدر من جود تجويدا ، والاسم منه الجودة ضد الرداءة ، يقال : جود فلان فى كذا اذا فعل ذلك جيدا ، فهو عندهم عبارة عن الاتيان بالقراءة مجودة الالفاظ ، بريئة من الرداءة فى النطق . ومعناه انتهاء الغاية فى التصحيح ، وبلوغ النهاية فى التحسين .

ولا شك ان الامة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن واقامة حدوده ، متعبدون بتصحيح الفاظه ، واقامة حروفه على الصفة المتلقاة من ائمة القراءة ، المتصلة بالحضرة النبوية الافصحية العربية التي لا تجوز مخالفتها ، ولا العدول عنها الى غيرها .

والناس فى ذلك بين محسن مأجور ، ومسيء آثم او معذور ، فمن قدر على تصحيح كلام الله تعالى باللفظ الصحيح ، العربي الفصيح ، وعدل الى اللفظ الفاسد العجمي او النبطي القبيح ، استغناء بنفسه ، واستبدادا برايه وحدسه ، واتكالا على ما الف من حفظه ، واستكبارا عن الرجوع الى عالم يوقفه على صحيح لفظه ، فانه مقصر بلاشك ، وآثم بلا ريب ، وغاش بلا مرية ، فقد قال النبي (ص) : الدين النصيحة : لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم .

اما من كان لا يطاوعه لسانه ، او لا يجد من يهديه الى الصواب بيانه ، فان الله لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولهذا اجمع من تعلمه من العلماء على انه لا تصح صلاة قارىء خلف امي ، وهو من لا يحسن القراءة . واختلفوا في صلاة من يبدل حرفا بغيره ، سواء تجانسيا ام تقاربا ، واصح القولين عدم الصحة . اهـ

ثم نقل عن الشيخ ابي عبد الله نصر بن علي بن محمد الشيرازي في كتابه الموضح في وجوه القراءات في فصل التجويد منه ما نصه : فان حسن الاداء فرض في القراءة ، ويجب على القارىء ان يتلو القرآن حق تلاوته ، صيانة للقرآن عن ان يجد اللحن والتغيير اليه سبيلا .

ثم مضى الى ان قال : فالتجويد هو حلية التلاوة وزينة القراءة ، وهو اعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها ، ورد الحرف الى مخرجه واصله ، والحاقه بنظيره وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته ، وكمال هيئته ، من غير اسراف ولا تعسف ، ولا افراط ولا تكلف ، والى ذلك اشار النبي (ص) بقوله (من احب ان يقرا القرآن غضا كما انزل ، فليقرا قراءة ابن ام عبد) يعني عبد الله بن مسعود ، وكان قد اعطى حظا عظيما في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله كما انزله الله تعالى .

وناهيك برجل احب النبي (ص) ان يسمع القرآن منه ، ولما قرا ابكى رسول الله (ص) كما ثبت في الصحيحين . وروينا بسند صحيح عن ابي عثمان النهدي قال : صلى بنا ابن مسعود المغرب بقل هو الله احد ، ووالله لوددت انه قرا بسورة البقرة من حسن صوته وترتيله .

وقال ابن الجزري في المقدمة :

والاخذ بالتجويد حتم لازم
من لم يجود القرآن آثم
لانه به الاله انزلا
وهكذا منه الينا وصلا
وهو ايضا حلية التلاوة
وزينة الاداء والقراءة
فواجب عليهم محتم
قبل الشروع اولا ان يعلموا
مخارج الحروف والصفات
ليلفظوا بافصح اللغات

وهذا الواجب مضيع في المغرب لا يقوم بادائه الا النادر من اهل العلم ، ولا اعلم في المغرب مدرسة تعلم تجويد القرآن ، مع ان اهل المغرب احق الناس بالعناية باصلاح اللسان لاختلاطهم مع الاعاجم ، وابدال كثير منهم بعض الحروف ، كالجيم يبدلونها زايا ، والتاء يبدلونها بحرف المائي بين التاء والسين ، والثاء ينطقون بها مثل ذلك ، والذال يبدلونها دالا مهملة ، والظاء يبذلونها ضادا ، والشين يبدلونها سينا ، وقد يبدل هؤلاء السين شينا ، يرتكب ذلك من ينسب الى العلم منهم من غير نكير ، وقد اشار الى ذلك المحقق ابن عبد السلام الفاسي في كتابه الذي الفه في القرآن وعلومه وآدابه في المجلد الاول قال : اللحن لحنان ، جلي وخفي ، فالجلي لحن الاعراب ، والخفي لحن ترك اعطاء الحرف حقه من تجويد لفظه ، وذلك اما بالنسبة الى مخارجها بان لا تعطى حقها الواجب لها .

واما بالنسبة الى صفاتها التي تحقق ذاتها وتفصلها عما يشاركها او يقاربها ، واما بالنسبة الى تبديلها بغيرها كجعل الظاء المعجمة مكان الضاد ، وكجعل السين المهملة مكان الشين المعجمة ، وكجعل الزاي مكان الجيم ، وكجعل الغين المعجمة مكان الراء ، وكجعل الهمزة مكان الكاف ، وكجعل همزة مفخمة بعض التفخيم مكان القاف ، الى غير ذلك مما يطول تتبعه مما نسمعه في السنة الناس . اهـ .

وقد سمعت باذني قارئا يقرا قوله تعالى (الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) بابدال الشين سينا ، والجيم زايا ، والذالين مهملتين ، وهذا من اللحن الذي يغير المعنى . وقد نقل القاضي عياض في الشفا الاجماع على ان من بدل حرفا من القرآن عمدا كفر .

ومن اسوا ما يرتكبه المغاربة من تبديل الحروف تلفظهم بالتسهيل في قراءة ورش هاء خالصة ، فيقرؤون الهمزة الثانية في (ائنك ، وائذا) وما اشبه ذلك هاء . وليس معنى التسهيل ، فالتسهيل تليين الهمزة الثانية حتى تكون بين الالف والهمزة ، او بين الواو والهمزة ، او بين الياء والهمزة ، ويقابله التحقيق بهما همزتين خالصتين .

ولم ينعدم التجويد بالمرة في المغرب في اي زمان ، ولكنه كما قلت سابقا نادر ، واكثر القراء على خلافه ، ومما يدلنا على ذلك ما جاء في نصوص الشيخ التهامي ابن الطيب السجلماسي ، ثم الغرفي في انكار تبديل التاء بما تقدمت الاشارة اليه ، وهذه الابيات بعضها مختل الوزن ، فانا انقلها على علاتها قال :

تحفظ رعاك الله فى السر والجهر
على مخرج التا حين تتلو بلا عسر
الى الحنك اصعد عند اخراجك لها
ولا تنحون نحو الثنايا تقل شكري
ولا تحدثن فيها صفيرا ورخوة
فذلك فعل الجاهلين ذوي السكر
فبالسين والزاي الجهير وسدها
يخص صفير القوم كلهم فادر
كما خصصوا رخوا بجملة احرف
وليس لحرف التاء فيهن من ذكر

وقد كان علماء المغرب الى عهد قريب جدا معنيين بتجويد كتاب الله أحسن عناية قلما يجاريهم فى ذلك علماء قطر آخر من الاقطار الاسلامية ، حتى أن الملك فؤاد ملك مصر اراد ان يطبع المصحف على الرسم العثماني ، وكلف بذلك جماعة من علماء مصر المحققين ، لم يجدوا من الكتب ما يعتمدون عليه مثل كتاب مورد الظمآن بشرح العالم المقرىء عبد الواحد ابن عاشر ، ومن اشهر المنظومات التي عم نفعها ، وقل فى التحقيق والبلاغة نظيرها منظومة (الدرر اللوامع فى اصل مقرا الامام نافع) لابي الحسن على بن محمد الرباطي المشهور بابن بري قال فى المنظومة المذكور :

القول فى التحقيق والتسهيل
للهمز والاسقاط والتبديل
والهمز فى النطق به تكلف
فسهلوه تارة وحذفوا
وابدلوه حرف مد محضا
ونقلوه للسكون رفضا
فنافع سهل اخرى الهمزتين
بكلمة فهي بذاك بين بين

قال شارحه ابراهيم المارغني شيخ القراء بالجامع الاعظم بتونس المتوفى سنة 1349 هـ . فى ابن بري المسمى (النجوم الطوالع على الدرر اللوامع فى اصل مقرا الامام نافع) ما نصه : التسهيل فى اصطلاح القراء اذا اطلق اختص بالتسهيل بين بين ، اي فالهمزة الثانية بسبب ذلك التسهيل تكون بين بين ، اي بينها وبين الحرف المجانس لحركتها ، فتكون المفتوحة بين الهمزة والالف ، والمضمومة بين الهمزة والواو ، والمكسورة بين الهمزة والياء ، هذا هو المأخذ به عندنا فى كيفية التسهيل بين بين .

قال ابو شامة : وكان بعض اهل الاداء يقرب الهمزة المسهلة من مخرج الهاء ، قال : وسمعت انا منهم من ينطق بذلك ، وليس بشيء . اهـ لكن جوز الداني وجماعة ابدالها هاء خالصة فى الانواع الثلاثة .. قال العلامة سيدي عبد الرحمن بن القاضي فى بعض تآليفه : جرى الاخذ عندنا بفاس والمغرب فى المسهل بالهاء خالصة مطلقا ، وبه قال الداني . اهـ وجوزه بعضهم فى المفتوحة دون المضمومة والمكسورة ، والاكثرون على المنع مطلقا ، وعليه جرى عملنا بتونس . اهـ .

قال محمد تقي الدين : الصواب هو تسهيل الهمزة الثانية بين بين كما قاله ابو الحسن ابن بري ، وقرره شارحه ، ولا حق للداني ان يتصرف فى كتاب الله ، فيبدل حرفا بحرف ، لان القرآن سنة متبعة ، لا مجال فيه للاجتهاد ، ولا تصح الرواية بابدال اخرى الهمزتين هاء البتة . وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث عائشة ان النبي (ص) قال : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقد طال هذا المقال حتى انه لا يحتمل الزيادة . فنسأل الله أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم ، وبما فيه من الآيات والذكر الحكيم ، وان يجعله لنا شافعا مشفعا ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

معنى دعوة الحق

للدكتور تقي الدين الهلالي

له دعوة الحق

لما كان اسم هذه المجلة « دعوة الحق » وكانت هذه الجملة من ابلغ كتاب الله جل وعلا ، وكله بليغ ، احببنا ان نجعلها بداية لهذا المقال ، ونجتهد ان نبين حاجة الناس الى دعوة الحق ، بعد ان نبين ما هي دعوة الحق .

دعوة الحق هي توحيد الله تعالى فى ربوبيته وعبادته :

اما توحيد الربوبية ، فهو كما قال بعض العلماء الحكماء : ان توحد الله بافعاله ، بان تعتقد انه هو الخالق وغيره لا يخلق شيئا ، وهو الرازق وغيره لا يرزق شيئا ، وهو المدبر وغيره ليس له من الامر شيء ، وهذا واضح فى قوله تعالى : (**قل من يرزقكم من السماء والارض ام من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر ، فسيقولون الله فقل افلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى توفكون**) .

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، امره الله ان يحاج المشركين الذين كانوا ياكلون خيره ويعبدون غيره ، فاحتج عليهم ، بما يقرون به ، وذكر خمسة امور : رزق جميع المخلوقين ، وامتلاك السمع والبصر اي وسائر القوى التي منحها الله الانسان ، واخراج الحي من الميت ، وعكسه ، وتدبير جميع الامور .

واخبر سبحانه ان المشركين الذين قابلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معترفين بان الله هو الذي يفعل ذلك وحده ، فلم يدخلهم ذلك فى الاسلام ، لقوله : قل **افلا تتقون** ، اي اذا كنتم معترفين بان الله هو الذي يخلق ويرزق ويملك ويدبر جميع اموركم وامور غيركم ، فلماذا لا تتركون الشرك به ، ولماذا تلجاون الى غيره فى قضاء الحاجات وتفريج الكربات .

اذن ، فقول بعض المتكلمين فى شرح معنى لا اله الا الله « لا مستغنى عن كل ما سواه ومفتقرا اليه كل ما عداه الا الله » هو شرح غير صحيح ، لان المشركين يعترفون بذلك ولم يدخلهم ذلك فى الاسلام .

والصواب ان معنى لا اله الا الله ، ان العبد يقر ويعترف انه لا يعبد الا الله ، لان الاله معناه المعبود ، فقوله لا اله الا الله ، اقرار والتزام انه لا يصرف شيئا من عبادته لا قليلا ولا كثيرا الا الله .

وهنا نبين معنى توحيد العبادة ، ويسمى ايضا توحيد الالاهية ، وهو ان توحد الله بافعالك ايها الانسان بالا تدعو غيره ، ولا تستعين بسواه ، ولا تستغيث ولا تتوكل ولا تلجا الا اليه ، فهذا معنى لا اله الا الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله ... الحديث

وقال تعالى (**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** .

فمن لم يكفر بالطاغوت ، وهو عبادة غير الله ، لا تصح له عبادة ، قال تعالى : **قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد**) فنفى عنهم عبادة الله مع انهم كانوا يحجون ويتصدقون ويدعون الله ، بل ويوحدونه اذا مسهم الضر فى البحر ، ثم يشركون به فى الرخاء ، ونفى عنهم العبادة ، لان من اشرك مع الله شيئا بطلت عبادته ، وردت عليه .

وفى الحديث القدسي : انا اغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا اشرك فيه معى غيري تركته وشركه . وفى رواية : انا خير الشريكين .

وهذا الحديث تفسير لقوله تعالى في سورة الانعام: « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » . فالله لا يقبل الشركة في شيء من العبادات في صدقة او نذر او دعاء او استغاثة او غيرها، بل يترك ما جعل له للشريك الآخر .

فدعوة الحق تشمل التوحيدين : توحيد الربوبية وتوحيد العبادة ، والناس في اشد الحاجة الى من يتلطف بهم ، الى ان يخرج ما في قلوبهم من الشرك والكفر الناشيء عن الجهل ، ويدخل فيها دعوة الحق ، وهم احوج الى هذا منهم الى الطعام والشراب والنفس ، اذ لا يصلح لهم دين ولا دنيا الا بالتوحيد ، ولا يتمتعون بصحة عقل ولا جسم الا بالتوحيد ، ولا يحافظون على اعراضهم واموالهم الا بالتوحيد .

ومن توحيد العبادة جعل الحكم لله ، فلا واجب الا ما اوجبه ، ولا محرم الا ما حرمه ، ولا مستحب الا ما احبه ، ولا مكروه الا ما كرهه ، ولا مباح الا ما اباحه ، ولا واسطة في تبليغ ذلك الا محمد رسول الله .

فمن كان من اهل العلم وجب عليه الا يفتي ولا يقضي الا بحكم الله آخذا من كتابه او مما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويحرم عليه ان يفتي او يقضي بالتقليد ، والا كان احد القاضيين ، وفي الحديث : **قاضيان في النار وقاض في الجنة ، قاض عرف الحق وحكم به فهو في الجنة ، وقاض قضى بالجهل فهو في النار ، وقاض عرف الحق وحكم بخلافه فهو في النار .**

فالقاضي المقلد، والمفتي المقلد، ينطبق عليه الوعيد.

قال تعالى في سورة الشوري : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله) وهذه فكرة في سياق العموم، لا تترك حكما مما دق وجل الا اتت عليه ، فمن جعل الحكم لغير الله فقد اشرك ، وجعل مع الله الاها آخر .

وفي الحديث ان عدي بن حاتم جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد فر منه الى الشام ، ووقعت عليه اخته فاكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعنفته في هربه ، واشارت عليه بالتوجه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء كان في عنقه (اي في عنق عدي) صليب ، فقال له النبي (ص) : ياعدي ، القِ عنك هذا الوثن ، ووجده يقرأ سورة براءة ، حتى انتهى الى قوله تعالى : اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم، وما امروا الا ليعبدوا الاها واحدا ... الاية . فقال : يا رسول الله ، انا لم نكن نعبدهم، فقال : اليس كانوا يحلون لكم فتتبعونهم ، ويحرمون عليكم فتتبعونهم ، قال بلى ، قال فتلك عبادتهم .

واما من لم يكن من اهل العلم ، فواجب عليه ان يسال الاعلم الاورع الا تبع للسنة في اعتقاده عن حكم الله ، فاذا قال له هذا حكم الله، اخذه وقد برئت ذمته.

وفي الحديث المرفوع : من افتى بغير ثبت فانما اثمه على من افتاه . وهذا توحيد الاتباع ، وهو معنى (محمد رسول الله) لان الذي يقول : محمد رسول الله، قد اقر واعترف انه لا يتبع الا محمدا ، ولا يهتدي الا بهديه ، ولا يسنن الا بسنته ، ولا يتخذ واسطة بينه وبين الله يعرف به الهدى من الضلال غيره .

هذه اشارة الى مبادىء دعوة الحق . وقد جعل الله سر الدعوة في المشافهة والمخاطبة ، وان كان في المطالعة والقراءة هدى وخير كثير ، الا ان الناس وخصوصا العامة لا يكادون يستغنون عن الداعي المرشد الذي يتلو عليهم كتاب الله وسيرة رسوله وسنته ، ويشرح ذلك لهم ، فيفتح الله به عيونا عميا وآذانا صما

وقد اعترف احد من زار المغرب من اهل المشرق ـ مع انه ليس من المستمسكين بالدين ـ ان هذا الفتح المبين الذي فتح الله للمغاربة في مدة سنتين اثنتين ، فاراح عنهم عذاب الاستعمار ، وبسط عليهم ثوب الحرية ، ورد عليهم ملكهم وامامهم ، لم يقع مثله لشعب عربي ولا عجمي سواهم ، قال : ولا نجد لذلك علة الا التمسك بالدين .

هكذا قال في محاضرة سمعها خلق كثير في بغداد وانا اقول مع موافقتي لهذا المحاضر : ان الوثبة التي وثبها ملك المغرب سيدي محمد الخامس ، هي وثبة محمدية حنيفية ، احيا بها الله المغاربة ، فاقتفوا اثره ، واقتدوا به في الجهاد ، فكشف الله عنهم العذاب ، وهم في اشد الحاجة الى من ينور بصائرهم ويفتح لهم مددا لا ينضب معينه ، وذلك هو كتاب الله وحديث الرسول، فتحا يؤلف بين قلوبهم ويزيل اضغانهم ويجمعهم على طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة هذا الامام الذي ولاه الله امرهم ، وبذلك يشكرون نعمة الله فيزيدهم وتتكاثر عليهم النعم ، ويكونون قدوة لغيرهم من المسلمين .

وفي الختام نسال الله ان ينصر الامام محمدا الخامس ، وسائر المجاهدين في سبيل الله من الائمة والاتباع ، وان يكشف العذاب عن اهل الجزائر واهل فلسطين واهل عمان، وسائر المستضعفين من المسلمين وغيرهم ، ممن لا يحارب دين الاسلام ، وان يؤيد بروح منه ولي عهده وقائد جنده مولاي الحسن ، ويختم للجميع خير ختام .

ملك المغرب الصالح
محمد الخامس

للدكتور تقي الدين الهلالي

الا ان الاستعمار هاو وبائـــــر ... ومن مطلع الاقمار لاحت بشائـــر
ابى الضيم فى ارض المغارب ضيغم ... فاقبل من عريسه وهو زائـــر
وقال للاستعمار زل من بلادنـــا ... فانى عليك اليوم قاض وقابـــر
ساسقيك سما لا بقا لك بعـــده ... وشعبي من خلفي اسود هواصـــر
عوى ذئب الاستعمار اذ ذاك عـــوة ... واقبل يدعو ويله وهو حائـــر
تهدده بالخلع فالنفي فالفنـــا ... واوعد ليثا انجبتـــه غضافـــر
فابرق فى جبن وارعـد طائشـــا ... وصار بجمع الخائنين يكاثـر
فصدقه فى ذاك من ضـل عقلـــه ... ولم يـدر ان الله للحـق ناصـر
تلقى المليك القرم كـل وعيدهـم ... بحزم وقاسى امرهم وهو ساخـر
بثورتـه رد الحيـاة لشعبـــه ... وكان لهم فيها الهدى والبصائـــر
تجلى لهم كيـد العـدو وغـــدره ... وحقا على الباغي تدور الدوائـــر
لذا استرخصوا الارواح والمال دونـه ... سواء بهذا بدوهـم والحواضـــر
وقد كانت الاهواء شتى فوحـــدت ... وزالت حزازات حوتهـا الضمائـر
وعم الحماس العرب فى كل موطـــن ... فكلهم اضحـى بذلـك يفاخـــر
وعمهم حب الهمام ابن يوســـف ... فهامت به صبيانهـم والاكابـــر
وصار حديث الناس فى كل مجلـس ... به يعمر النادي ويسمـر سامـــر
تسائل عنه كـل بكـــر وثيـــب ... ويكتبه فى الصحف قـوم عباقـــر
لكـل زمـان آيـة يعتلـي بهـــا ... ومأثرة تنسـى لديهـا المآثـــر
وآية هـذا العصر ثـورة سيـــد ... غدا فى المعالي اولا وهـو آخـــر
به تشرق الدنيا ويسعد اهلهـــا ... وتهتز فخرا ان علاهـا المنـابـــر
يذكرنـا سحبـان فى كـل خطبـة ... مهذبة تهتـــز منهـــا المشاعـــر
اذى كلمات ام لآلىء قـد بـــدت ... فلا تعجبوا فالملك للـــدر ناثـــر

فما شانها لحن ولو قدر ذرة ... ولا سوء القاء بها الحسن ضائر
فايده الله الكريم بنصره ... واعداؤه كل غدا وهو بائر
ومنذ قرون لم ير الناس مثله ... ومن شك فى ذا فهو غمر مكابر
فباقومنا كفوا عن الخلف واجمعوا ... شتيت قواكم للجهاد وحاذروا
فان عدو السلم ما زال فاتكا ... باخوانكم فى ارضكم وهو غادر
هلموا جميعا نقتفي الملك الذي ... دعانا لعز فائنى وهو ظافر
ففي قفوه كل السعادة والمنى ... وفى تركه الخسران باد وظاهر
فذاك النطاسى الحكيم الذي له ... بامراضنا فى الاجتماع بصائر
سيشفيكم لو تسمعون نصائحا ... يفوه بها فى الناس وهي جواهر
فداؤكم منكم وهذا دواؤكم ... فأوبوا الى نهج الرشاد وبادروا
الستم ترون الجيش جيش عدوكم ... يرابط فى اوطاننا وهو كاشر
وصحراؤنا ما ان تزال اسيرة ... فيا نعم مأسور ويا بئس آسر
وجيش ليوث فى الجزائر رابضا ... يدافع عن اوطاننا وهو صابر
ولا مدد يلفى لديه ولا قوى ... واعداؤه امدادهم متواتر
وما من سلاح غير ما هو غانم ... من الحمر اذ يرديهم وهو قاهر
فعار على الاسلام والعرب ان يروا ... وقد خذلوا جيشا حوته الجزائر
بني لهم مجدا وفخرا مؤزرا ... امام علاه تضمحل المفاخر
فلله ما ابدى ويا سوء فعل من ... يرى خاذلا اخوانه وهو قادر
وان كنت لا تدري حدود بلادنا ... فدونك فاحفظ ما اتالك ذاكر
فمن سنكال فى الجنوب حدودها ... الى ارض مصر قد حوتها القماطر
تناضل عنها الدهر من جاء غازيا ... وتحصده منا السيوف البواتر
ومهما عدا عاد على اي بقعة ... فذلك عدوان على الكل ظاهر
فاما حياة العز تجمع شملنا ... والا فموت يغسل العار ساتر
ومن ظن ان العز يدرك والمنى ... بكفر والحاد فذلك هاذر
غراب يقود القوم للهلك والفنا ... ويرديهم من طيشه وهو خائر
اوائلنا بالدين والسلم افلحوا ... وبالدين والاسلام تعلو الاواخر
وما خدم المستعمرين كمثل من ... يصد عن الاسلام وهو مهاتر
ومن بدل الشرع الكريم برايه ... وقد رد احكاما رواها الاكابر
ورد كتاب الله والسنن التي ... عن المصطفى جاءت وفيها البصائر
فاياكم ان تقبلوا ترهاته ... فما الجاهل الاعمى كمن هو ناظر

من مناقب عالم الملوك وملك العلماء في زمانه سيدي محمد بن عبد الله العلوي رحمه الله :

تجديد الدعوة إلى عقيدة السلف

للدكتور
محمد تقي الدين الهلالي

ليس عندي الان من المراجع الا كتاب الاستقصاء فسانقل النبذة اليسيرة التي حكاها مؤلفه رحمه الله في هذا الموضوع واشرحها بما ييسره الله تعالى من النقول والايضاح .

قال المحقق ابو العباس احمد الناصري في الجزء الثامن في صفحة 68 من تجزئة الطبعة الاخيرة ما نصه : ((وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهي عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد الماخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تاويل وكان يقول عن نفسه حسبما صرح في آخر كتابه الموضوع في الاحاديث المخرجة عن الائمة الاربعة انه مالكي مذهبا حنبلي اعتقادا يعني انه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المتاخرين وله في ذلك اخبار وما جريات .

قلت وهو مصيب ايضا في هذا فقد ذكر الامام ابو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه الاحياء ان علم الكلام انما هو بمنزلة الدواء لا يحتاج اليه الا عند المرض فكذلك علم الكلام لا يحتاج اليه الا عند حدوث البدعة .

((توضيحات))

1 ـ سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل بويع سنة الف ومائة وواحد وسبعين ، وتوفي سنة الف ومائتين واربع ، عالم سلفي وملك عبقري عظيم وغصن جليل من دوحة الدولة العلوية الكريمة ، من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع فيه من المزايا ما تفرق فيمن سبقه من ملوك هذه الدولة واكثر من جاء بعده ومن شاء ان يعرف فضله ومناقبه فاليرجع الى تاريخ المغرب ولو لم يكن له الا هذه المنقبة التي نذكرها هنا في هذا المقال لكانت كافية في بلوغه اوج المعالي .

2 ـ قوله وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهي عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية وكان يحض الناس على مذهب السلف بلا تاويل الخ .

اعلم ايها القارىء الكريم ان اهل المغرب كانوا على عقيدة السلف حتى جاء محمد المهدي ابن تومرت الذي بنيت الدولة الموحدية على مذهبه فدعا الناس الى ترك عقيدة السلف والتمسك بعقيدة المتاخرين الذين ينفون بعض صفات الله تعالى او يتاولونها تاويلا باطلا ، ونجح في دعوته فعم ظلام بدعة علم الكلام في جميع ارجاء المغرب والف ما يسمى بست وستين عقيدة بالعربية للمتكلمين بها وبالبربرية للقبائل التي لا تحسن العربية ، وشاع القول بأن من لا يعرف هذه العقيدة فهو مقلد في الاعتقاد ، والراجح عندهم انه كافر كما بين ذلك السنوسي في عقائده الثلاث وغيره وبقي الناس على ذلك الا من رحمهم الله تعالى حتى جاء الامام الملك الهمام محمد بن عبد الله رحمه الله تعالى

فأنكر هذه العقيدة وهي تدرس في كل مدرسة وكل مسجد ولم يكن احد في زمانه يتجرأ على انكارها وما اشار اليه مؤلف كتاب الاستقصاء من ان اولئك العلماء الذين انتخبهم السلطان محمد بن عبد الله كانوا يساعدونه ويؤلفون له الكتب، يحتاج الى بيان فانهم لم يكونوا يعلمونه شيئا يجهله ولم يكونوا اساتذته في هذه المنقبة بل كانوا تلاميذه وكتابا له ، لم يقم بهذا الاصلاح قبله احد في زمانه وقبله بمئات السنين لا هم ولا غيرهم .

3 ـ اما ذم ائمة السلف لعلم الكلام الذي في السنوسيات ونظم ابن عاشر والجوهرة واضاءة الدجنة وبدء الامالي وغيرها من كتب علم الكلام التي تدرس اليوم بالمشرق والمغرب، فحدث عن البحر ولا حرج،وقد ذكر الامام الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري في كتابه جامع بيان العلم وفضله في الجز الثاني من صفحة 92 الى صفحة 99 اخبارا كثيرة رواها باسانيده عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين ومنها ما هو مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم اقتصر على نقل قليل منها خوفا من الاطالة . قال ابو عمر اجمع اهل الفقه والاثار من جميع الامصار ان اهل الكلام اهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في جميع الامصار في طبقات العلماء ، وانما العلماء اهل الاثر والتفقه فيه ويتفاضلون فيه بالاتقان والميز والفهم ثم روى بسنده المتصل الى محمد بن احمد ابن اسحاق بن خويزمنداد المالكي انه قال في كتاب الاجارات من كتابه في الخلاف قال مالك لا تجوز الاجارات في شيء من كتب الاهواء والبدع والتنجيم وذكر كتبا ثم قال وكتب اهل الاهواء والبدع عند اصحابنا هي كتب اصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم وتفسخ الاجارة في ذلك ، قال وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما اشبه ذلك . وقال في كتاب الشهادات في تاويل قول مالك لا تجوز شهادة اهل البدع واهل الاهواء قال اهل الاهواء عند مالك وسائر اصحابنا هم اهل الكلام فكل متكلم فهو من اهل الاهواء والبدع اشعريا كان ام غير اشعري ، ولا تقبل له شهادة في الاسلام ابدا ، ويهجر ويؤدب على بدعته ، فان تمادى عليها استتيب منها ، قال ابو عمر ليس في الاعتقاد كله في صفات الله واسمائه الا ما جاء منصوصا في كتاب الله او صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، او اجمعت عليه الامة وما جاء من اخبار الاحاد في ذلك كله او نحوه يسلم له ولا يناظر فيه ، ثم روى بسنده الى الاوزاعي قال كان مكحول والزهري يقولان امروا هذه الاحاديث كما جاءت .

وقد روينا عن مالك بن انس والاوزاعي وسفيان ابن عيينة ومعمر بن راشد في الاحاديث في الصفات انهم كلهم قالوا امروها كما جاءت نحو حديث التنزل وحديث ان الله خلق ادم على صورته وانه يدخل قدمه في جهنم ، وما كان مثل هذه الاحاديث ، وقد شرحنا القول في هذا الباب من جهة النظر والاثر وبسطناه في كتاب التمهيد عند ذكر حديث التنزل ، فمن اراد الوقوف عليه تأمله وبالله التوفيق ، ثم روى بسنده الى الحسن يعني (البصري) انه كان يقول لا تجالسوا اهل الاهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم ، ثم روى بسنده الى سعيد بن جبير انه قال ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين (المراد بالبدريين اهل غزوة بدر الذين شهدوها مع النبي صلى الله عليه وسلم وعددهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكانت في السنة الثانية للهجرة) ثم قال جعفر بن محمد الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس كلما ازداد نظرا ازداد حيرة (اقول جعفر هذا هو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة رضوان الله عليهم) قال ابو عمر رواها (يعني احاديث الصفات) السلف وسكتوا عنها وهم كانوا اعمق الناس علما واوسعهم فهما واقلهم تكلفا ولم يكن سكوتهم عن عي وهم كانوا اعمق الناس علما واوسعهم فهما ، فمن لم يسعه ما وسعهم فقد خاب وخسر . ثم روى بسنده عن ابي امامة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ضل قوم بعد هدي الا لقنوا الجدل ، ثم قال (ما ضربوه ، لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) وتناظر القوم وتجادلوا في الفقه ونهوا عن الجدال في الاعتقاد لانه يؤول الى الانسلاخ من الدين .

الا ترى مناظرة بشر في قوله جل وعز (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) حين قال هو بذاته في كل مكان ، فقال له خصمه هو في قلنسوتك وفي حشك وفي جوف حمار تعالى الله عما يقولون ، حكي ذلك وكيع رحمه الله وانا والله اكره ان احكي كلامهم قبحهم الله ، فمن هذا وشبهه نهى العلماء وقال الحافظ بن عبد البر قال يونس بن عبد الاعلى سمعت الشافعي يوم ناظره حفص الفرد قال لي يا ابا موسى لان يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من ان يلقاه بشيء من الكلام لقد سمعت من حفص كلاما لا اقدر ان احكيه ، وقال احمد بن حنبل رحمه الله انه لا يفلح

صاحب كلام ابدا ولا تكاد ترى احدا نظر فى الكلام الا وفى قلبه دغل اهـ .

وبما نقلته هنا يظهر جليا ان الامام محمد بن عبد الله العلوي ناقد بصير بذل جهده اثابه الله رضوانه ليخرج الناس من ظلمات علم الكلام الذي شاع فى المغرب لكن من سوء الحظ انه لم يستجب لدعوته الا القليل ، ولكن الذي يبشرنا بازالة هذه الظلمات وطلوع شمس الاعتقاد الصحيح ورد الناس الى ما كانوا عليه فى الزمان الاول ، ان جلالة الملك المعظم ابا محمد الحسن الثاني ايده الله بنصره وبالمؤمنين شرع فى تجديد هذه الدعوة المباركة باحيائه درة ثمينة من كنوز العلم والمعرفة والعقيدة الصحيحة الا وهي طبعه لكتاب التمهيد للحافظ ابى عمر بن عبد البر الذي قال الحافظ عماد الدين بن كثير صاحب التفسير المشهور وغيره من الكتب النفيسة ، قال فى ابي عمر انه حافظ المغرب ذكر ذلك فى تفسير قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) من تفسير سورة البقرة فان قيل انك ادعيت ان كتب العقائد المنتشرة فى المغرب كالسنوسيات وقسم من بن عاشر والجوهرة وغيرها كتب بدع وضلالات فاقم لنا الدليل على ذلك لتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون على ذلك من الشاهدين ، فالجواب حبا وكرامة . ومن المعلوم ان هذا المقال لا يتسع لسرد البراهين ونقل كلام الائمة فاقتصر على ذكر نبذ يسيرة مما يتسع له المقال وارجو ان اردفه بمقالات فى هذا الموضوع ، واول ما ابدا به كلام حافظ المغرب ابو عمر يوسف بن عبد البر فى كتاب التمهيد وهو الكلام الذي اشار اليه فيما نقلته عنه من كتاب جامع بيان العلم وفضله ، قال الحافظ شمس الدين بن القيم فى كتابه الجيوش الاسلامية فى غزو المعطلة والجهمية ما نصه ، قول الامام الحافظ ابن عمر بن عبد البر امام السنة فى زمانه رحمه الله ، قال فى كتاب التمهيد فى شرح الحديث الثامن لابن شهاب عن ابي سلمة عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ينزل ربنا فى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الاخير ، فيقول من يدعوني فاستجب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فاغفر له ، هذا الحديث ثابت من جهة النقل صحيح الاسناد لا يختلف اهل الحديث فى صحته ، وفيه دليل على ان الله عز وجل فى السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية فى قولهم ان الله فى كل مكان وليس على العرش ، والدليل على صحة ما قال اهل الحق فى ذلك قوله تعالى (الرحمان على العرش استوى) وقوله تعالى (ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون) وقوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهي دخان) وقوله تعالى (اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا) وقوله تبارك اسمه (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) وقوله تعالى (أامنتم من فى السماء ان يخسف بكم الارض) وقال تعالى (سبح اسم ربك الاعلى) ، وهذا من العلو وكذلك قوله تعالى (العلي العظيم) و (الكبير المتعال) و (رفيع الدرجات ذو العرش) و (يخافون ربهم من فوقهم) ، والجهمي يقول انه اسفل ، وقوله تعالى (يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه) (والذين عند ربك يسبحون له)، وقوله (تعرج الملائكة والروح اليه) ، والعروج هو الصعود ، واما قوله (اني متوفيك ورافعك الي) وقوله تعالى (بل رفعه الله اليه) و (ليس له دافع من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح اليه) ، واما قوله (أامنتم من فى السماء) فمعناه من على السماء يعني العرش وقد تكون فى بمعنى على الا ترى الى قوله تعالى (فسيحوا فى الارض) اي على الارض وكذلك قوله تعالى (ولاصلبنكم فى جذوع النخل) ، وهذا كله يعضده قوله تعالى (تعرج الملائكة والروح اليه) .

وما كان مثله مما تلونا من الآيات فى هذا الباب وهذه الايات كلها واضحات فى ابطال قول المعتزلة ، واما ادعاؤهم المجاز فى الاستواء وقولهم فى تأويل استوى استولى فلا معنى له لانه غير ظاهر فى اللغة، ومعنى الاستيلاء فى اللغة المغالبة والله تعالى لا يغالبه احد وهو الواحد الصمد ، ومن حق الكلام ان يحمل على حقيقته حتى تتفق الامة انه اريد به المجاز اذ لا سبيل الى اتباع ما انزل الينا من ربنا تعالى الا على ذلك وانما يوجه كلام الله تعالى على الاشهر والاظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم ولو ساغ اتباع المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبادات ، وجل الله ان يخاطب الا بما تفهمه العرب من معهودات مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين والاستواء معلوم فى اللغة مفهوم وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه ، قال ابو عبيدة فى قوله تعالى (الرحمان على العرش استوى) ، قال علا ، قال وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت ، وقال غيره استوى استقر واحتج بقوله تعالى (ولما بلغ اشده واستوى) انتهى شبابه استقر فلم يكن فى شبابه مزيد ، قال ابن عبد البر الاستواء الاستقرار فى العلو

وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه المكنون فقال (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) ، وقال تعالى (واستوت على الجود) ، وقال تعالى (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك) ، وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفـــــرة
وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز ان يتأول فيه احد استولـــى لان النجم لا يستولى ، وقد ذكر النضر بن شميل وكـــان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة ، قال حدثنـــي الخليل وحسبك بالخليل قال أتيت ابا ربيعة الاعرابي وكان من أعلم ما رأيت فاذا هو على سطح فسلمنا فرد السلام ، وقال استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال فقال لنا أعرابي الى جانبه انه امركم ان ترتفعوا فقال الخليل هو من قول الله تعالى (ثم استوى الى السماء وهي دخان) ، فصعدنا اليه قال واما من نازع منهـــم بحديث يرويه عبد الله بن داود الواسطي عن ابراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن ابيه عن بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (الرحمان على العرش استوى) قال استوى على جميع بريته فلا يخلو منه مكان ، فالجواب ان هذا حديث منكر على بن عباس رضي الله عنهما ونقلته مجهولة وضعفاء ، فاما عبد الله ابن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان وابراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف وهم لا يقبلون اخبار الاحاد العدول فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث ، لو عقلوا وانصفوا ، اما سمعوا الله تعالى حيث يقول (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع الى اله موســـى واني لاظنه كاذبا) فدل على ان موسى عليه الصـــلاة والسلام كان يقول الاهي في السماء وفرعون يظنـــه كاذبا ، وقال الشاعر .

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره
ومن هو فوق العرش فرد موحـد
مليك على عرش السماء مهيمـــن
لعزته تعنو الوجوه وتسجـــــد

وهذا الشعر لامية بن أبي الصلت وفيه يقول في وصف الملائكة :

وساجدهم لا يرفع الدهر رأســـه
يعظم ربـــا فوقـــه ويمجـــــد

قال فان احتجوا بقوله تعالى (وهو الـــذي في السماء اله وفي الارض اله) ويقول تعالى (وهو الله في السموات وفي الارض) وبقوله تعالى (ما يكون مـــن نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم) وزعموا ان الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاتـــه تبارك وتعالى جده قيل لا خلاف بيننا وبينكم وسائـــر الامم انه ليس في الارض دون السماء بذاته ، فوجب حمل الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه وذلك انه في السماء اله معبود من اهل السماء وفي الارض اله معبود من أهل الارض ، وكذا قال اهل العلم بالتفسير وظاهر هذا التنزيل يشهد انه على العرش فالاختلاف في ذلك ساقط واسعد الناس به من ساعده الظاهر ، واما قوله في الآية الاخرى (وفي الارض اله) فالاجتماع والاتفاق قد بينا ان المراد انه معبود من اهل الارض فتدبر هذا فانه قاطع ومن الحجج أيضا في انه عز وجل على العرش فوق السموات السبـــع ان الموحديـــن اجمعين من العرب والعجم اذا اكبرهم امرا ونزلت بهم شدة رفعوا وجوههم الى السماء ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها الى السماء يستغيثون الله ربهم تبـــارك وتعالى ، وهذا اشهر واعرف عند الخاصة والعامة من ان يحتاج فيه الى اكثر من حكايته لانه اضطـــراري لا يوافقهم (1) عليه احد ولا انكره عليهم مسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم للامة التي اراد مولاها عتقها ان كانت مؤمنة فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قال لها أين الله فأشارت الى السماء ثم قال لها من أنا قالت انت رسول الله ، قال اعتقها فانها مؤمنـــة فاكتفى رسول الله صلى الله عليـــه وسلـــم منهـــا برفع رأسها الى السماء واستغنى بذلك عما سواه ، قال واما احتجاجهم بقوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية لان علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرءان قالوا في تأويل هذه الاية هو على العرش وعلمه في كل مكان وما خالفهم في ذلك احد يحتج به ، وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) ، قال هو على عرشه وعلمه معهم أينما كانوا ، قال وبلغني عن سفيان الثوري مثله ، قال سنيد حدثنا حماد بن زيد عن عاصم ابن بهدلة عن زر بن حبيش عن بن مسعود رضي الله عنه قال الله فوق العرش وعلمه في كل مكان لا يخفى عليه شيء من اعمالكم .

---

(1) اضطرار كذا في الاصل وفيه اضراب فلعله فيه تحريـــف .

((عقيدة بن ابي زيد القيرواني صاحب الرسالة))

قال الحافظ بن القيم فى الكتاب المذكور ذكر قول الامام مالك الصغير ابي محمد عبد الله بن ابي زيد القيرواني ثم ذكر عقيدته فى الرسالة وهي مشهورة ثم قال بن القيم وذكر اي بن ابي زيد فى كتابه المفرد فى السنة تقرير العلو واستواء الرب تعالى على عرشه بذاته اتم تقرير فقال له فصل فيما اجتمعت عليه الامة من امور الديانة فى السنن التي خلا فيها بدعة وضلالة ان الله سبحانه له الاسماء الحسنى والصفات العلى وذكر صفات الله تعالى التي اثبتها لنفسه واثبتها له رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى الى ان قال وان يديه مبسوطتان والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، وان يديه غير نعمته فى ذلك ، وفى قوله تعالى (ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي) وانه يجيء يوم القيامة بعد ان لم يكن جائيا والملك صفاصفا لعرض الامم وحسابها وعقابها وثوابها فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وانه يرضي ويحب الثوابين ويسخط على من كفر به ويغضب فلا يقوم شيء لغضبه وانه فوق سمواته على عرشه دون ارضه وانه فى كل مكان بعلمه ومضى فى ذكر عقائد اهل السنة الى ان قال وكل ما قدمناه فهو قول اهل السنة وائمة الناس فى الفقه والحديث وكله قول مالك فمنه منصوص من قوله ومنه معلوم من مذهبه ، ثم قال بن القيم فى الكتاب المذكور وقال يعني ابن ابي زيد القيرواني فى مختصر المدونة وانه تعالى فوق عرشه بذاته فوق سبع سمواته دون ارضه رضي الله عنه ما كان اصلبه فى السنة واقومه بها .

قال محمد تقي الدين فان قلت اليس مؤلفو كتب الاشعرية المتاخرون الذين طعنت فى عقائدهم قد اخذوا عقائدهم عن الامام الاشعري وهو علم من اعلام السنة فالجواب ان ابا الحسن الاشعري رحمه الله برىء منهم براءة الذئب من دم يعقوب فانه رحمه الله ذكر عقيدته التي هي عقيدة جميع اهل السنة فى كتابه مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين وهو مطبوع موجود فى الاسواق وذكر عقيدته ايضا فى كتابه الابانة فى اصول الديانة وهو مطبوع كذلك فى حيدر اباد الهند ، وذكر الحافظ بن عساكر عقيدة الامام ابى الحسن الاشعري فى كتابه تبين كذب المفترى فيما نسب الى فن ابي الحسن الاشعري فهذه الكتب الثلاثة تبرىء ابا الحسن الاشعري من عقيدة الجهمية التي نسبها اليه المتاخرون كذبا وافتراء وينبغي ان يعلم ان هذا الامام مرت عليه ثلاثة اطوار كان فى اول امره معتزليا ثم صار كلابيا ثم انتقل الى عقيدة السلف والف ما تقدم فلا يحل لاحد ان ينسب اليه شيئا من العقائد التي تاب منها ورجع عنها وسانقل هنا نبذة يسيرة من كلام الامام رحمه الله تعالى قال الامام ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري المتوفى سنة 330 من الهجرة فى الكتاب المذكور اعلاه صفحة 320 طبعة مكتبة النهضة المصرية سنة 1369 ما نصه (حكاية جملة قول اصحاب الحديث واهل السنة) جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يردون من ذلك شيئا وان الله سبحانه اله واحد فرد صمد ثم مضى فى ذكر صفات الله تعالى الى ان قال وان الله سبحانه على عرشه كما قال (الرحمان على العرش استوى) وان له يدين بلا كيف كما قال (خلقت بيدي) وكما قال (بل يداه مبسوطتان) وان له عينين بلا كيف وكما قال (تجري بأعيننا) وان له وجها كما قال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) ومضى الى ان قال ويقولون ان القرءان كلام الله غير مخلوق والكلام فى الوقف واللفظ من قال باللفظ او بالوقف فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرءان مخلوق ولا يقال غير مخلوق ، ويقولون ان الله سبحانه يرى بالابصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لانهم عن الله محجوبون ، قال الله عز وجل (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ومضى الى ان قال ويصدقون بالاحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان الله سبحانه ينزل الى السماء الدنيا فيقول هل من مستغفر كما جاء فى الحديث ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال الله تعالى (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول) .

ويرون اتباع من سلف من ائمة الدين والا يبتدعوا فى دينهم ما لم يأذن به الله ويقرون ان الله يجيء يوم القيامة كما قال (وجاء ربك والملك صفا صفا) وان الله يقرب من خلقه كيف يشاء كما قال (ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) ويرون العيد والجمعة خلف كل امام بر وفاجر ومضي الى ان قال فى آخر المقال ولكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب وما توفيقنا الا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل واليه المصير انتهى .

قال محمد تقي الدين الهلالي فقد تبين ووضح وضوح الشمس فى الضحى ان السلف الصالح من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين من اصحاب مالك

وغيرهم يمرون ايات الصفات واحاديثها على ما تفهم العرب في كلامها على ظواهرها من غير تحريف ولاتأويل ولا تشبيه ولا تمثيل ، وعلمت ان الامام محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي رحمه الله تصدى لاصلاح عظيم وهو اصلاح العقيدة التي ينبني عليها دين المؤمن وسائر اعماله و نخافه جلالة الملك الحسن الثاني ايده الله بروح من عنده ينسج على منواله، ونرجو ان يوفقه الله تعالى لاتمام هذا الاصلاح ، وما ذلك على همته العالية بعزيز ، وقال الامام ابو محمد عبد الله بن يوسف الجويني والد امام الحرمين المتوفى في سنة 438 هـ في رسالته الموسومة برسالة اثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت وتنزيه الباري عن الحصر والتمثيل والكيفية ما نصه اعلموا ايدكم الله ووفقكم لطاعته انني كنت برهة من الدهر متحيرا في ثلاث مسائل ، مسألة الصفات ومسألة الفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرءان المجيد ، وكنت متحيرا في الاقوال المختلفة الموجودة في كتب اهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها او امرارها والوقوف فيها او اثباتها بلا تاويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل فاجد النصوص في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ناطقة مثبتة بحقائق هذه الصفات ، وكذلك في اثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت ثم اجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم منهم من يؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء ويؤول القدم بقدم صدق عند ربهم ويؤول النزول بنزول الامر ويؤول اليدين بالقدرتين او النعمتين وامثال ذلك . ثم اجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائما بالذات بلا حرف ولا صوت ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم وممن ذهب الى هذه الاقوال او بعضها قوم لهم في صدري منزلة مثل طائفة من فقهاء الاشعرية الشافعيين لاني على مذهب الشافعي رضي الله عنه ، عرفت فرائض ديني واحكامه فاجد مثل هؤلاء الشيوخ الاجلة يذهبون الى مثل هذه الاقوال وهم شيوخي ولي فيهم الاعتقاد التام ، لفضلهم وعلمهم ، ثم انني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التاويلات حزازات لا يطمئن قلبي اليها واجد الكدر والظلمة منها ، واجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقرونا بها فكنت كالمتحير المضطرب في تحيره المتململ من قلبه في تقلبه وتغيره وكنت اخاف من اطلاق القول باثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه ، ومع ذلك فاذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اجدها نصوصا تشير الى حقائق هذه المعاني واجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد صرح بها مخبرا عن ربه واصفا له بها واعلم بالاضطرار انه صلى الله عليه وسلم كان يحضر في مجلسه الشريف والعالم والجاهل والذكي والبليد والاعرابي والجافي ، ثم لا اجد شيئا يعقب تلك النصوص التي كان يصف ربه بها لا نصا ولا ظاهرا مما يصرفها عن حقائقها ويؤولها كما تؤولها هؤلاء مشايخي الفقهاء المتكلمين مثل تأويلهم الاستواء بالاستيلاء والنزول بنزول الامر وغير ذلك ، ولم اجد عنه صلى الله عليه وسلم انه كان يحذر الناس من الايمان بما يظهر من كلامه في صفته لله من الفوقية واليدين وغيرها ، ولم ينقل عنه مقالة تدل على ان لهذه الصفات صفات اخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها مثل فوقية القهرية ويد القدرة والنعمة وغير ذلك ، واجد الله عز وجل يقول (الرحمان على العرش استوى) (خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش) (يخافون ربهم من فوقهم) (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) (أامنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض) (أم امنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصبا) (قل نزله روح القدس من ربك) (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا) ، وهذا يدل على ان موسى أخبره بان ربه تعالى فوق السماء ، ولهذا قال واني لاظنه كاذبا ، وقوله تعالى (ذي المعارج تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة) ، ثم اجد الرسول صلى الله عليه وسلم لما اراد الله أن يخصه بقربه عرج به من سماء الى سماء حتى كان قاب قوسين او ادنى ، ثم قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح للجارية (اين الله فقالت في السماء) فلم ينكر عليها بحضرة اصحابه ، وقال اعتقها فانها مؤمنة وفي حديث جبير بن مطعم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم الله فوق عرشه فوق سمواته وسمواته فوق ارضه مثل القبة ، واشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده مثل القبة ، وقوله صلى الله عليه وسلم (الراحمون يرحمهم الرحمان ، ارحموا اهل الارض يرحمكم من في السماء) ، اخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ، وعن ابي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اشتكى منكم شيئا او اشتكى اخ له فليقل ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك امرك في السماء والارض كما رحمتك في السماء اغفر لنا حوبنا وخطايانا انت رب الطيبين انزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على الوجع فيبرأ) اخرجه ابو داود وعن ابي سعيد الخدري قال بعث علي من اليمن بذهيبة

في اديم مقروظ لم تحصل من ترابها فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اربعة زيد الخير والاقرع ابن حابس وعيينة بن حصن وعلقمة بن علاثة او عامر بن الطفيل شك عمارة فوجد من ذلك بعض الصحابة من الانصار وغيرهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الا تأمنوني وانا امين من في السماء ياتيني خبر من في السماء صباحا مساء اخرجه الخباري ومسلم ، ثم ذكر حديث ابي هريرة الذي رواه الامام احمد والحاكم وقال على شرطهما وفيه صفة قبض روح المؤمن وان الملائكة يصعدون بها من سماء الى سماء حتى تنتهي الى التي فيها الله عز وجل ، ثم ذكر حديث البخاري ومسلم عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من رجل يدعو امراته الى فراشها فتأبى عليه الا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها ، وسرد أحاديث اخرى لا يتسع المقام لذكرها الى ان قال ومن عرف هيئة العالم ومركزه من علم الهيئة وانه ليس له الا جهتا العلو والسفل ثم اعتقد بينونة خالقه عن العالم فمن لوازم البينونة ان يكون فوقه لان جميع جهات العالم فوق وليس السفل الا المركز وهو الوسط ، ومضى في تقرير ما تقدم توضيحه الى ان قال واما مسالة الحرف والصوت فتساق هذا المساق فان الله تعالى قد تكلم بالقرءان المجيد وبجميع حروفه فقال تعالى (الم) وقال (المص) وقال (ق والقرءان المجيد) وكذلك جاء في الحديث فينادي يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وفي الحديث لا اقول الم حرف ولكن الف حرف لام حرف ميم حرف فهؤلاء ما فهموا من كلام الله تعالى الا ما فهموه من كلام المخلوقين فقالوا ان قلنا بالحروف فذلك يؤدي الى القول بالجوارح واللهوات وكذلك اذا قلنا بالصوت ادى ذلك الى الحلق والحنجرة عملوا في هذا من التخبط كما عملوا فيما تقدم من الصفات والتحقيق ، هو ان الله تعالى قد تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فانه قادر والقادر لا يحتاج الى جوارح ولا الى لهوات ، وكذلك له صوت كما يليق به يسمع ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس الى الحلق والحنجرة . كلام الله تعالى كما يليق به ، ثم قال فان قيل فهذا الذي يقراه القارىء هو عين قراءة الله تعالى وعين تكلمه هو قلنا لا بل القارىء يؤدي كلام الله تعالى والكلام انما ينسب الى من قاله مبتدئا لا الى من قاله مؤديا مبلغا ولفظ القارىء في غير القرءان مخلوق وفي القرءان لا يتميز اللفظ المؤدي عن الكلام المؤدي عنه ، ولهذا منع السلف عن قول لفظي بالقرءان مخلوق لانه لا يتميز كما منعوا عن قول لفظي بالقرءان غير مخلوق فان لفظ العبد في غير التلاوة مخلوق وفي التلاوة مسكوت عنه كيلا يؤدي الكلام في ذلك الى القول بخلق القرءان وما امر السلف بالسكوت عنه يجب السكوت عنه والله الموفق .

قال محمد تقي الدين قوله ولهذا منع السلف عن عن قول لفظي بالقرآن مخلوق لانه لايتميز رب مشاغب يقول كيف لا يتميز كلام الخالق من كلام المخلوق ، اليس هذا هو التشبيه الذي فررتم منه او اتحاد الكلامين ، فالجواب ان الكلام ينسب الى قائله الاول كما أشار اليه الشيخ فيما تقدم ، فما تقول ايها المشاغب في قوله تعالى في سورة التوبة (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه) ، وهذا المستجير انما يسمع كلام الله من لسان النبي صلى الله عليه وسلم لا من الله تعالى ومع ذلك سماه الله كلامه ، فالقرءان كلام الله اذا تكلم الله به او تكلم به رسوله صلى الله عليه وسلم او غيره من القراء هو في ذلك كله كلام الله ، واللفظية المبتدعون ينكرون ذلك وهم محجوجون بهذه الآية وغيرها من الحجج المتقدمة ، وكان بودي أن أوضح مواضع أخرى مما نقلته لكني رايت ان هذا المقال قد طال ، واختمه بأن اتضرع الى الله تعالى متوسلا اليه باسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا لنبيه الكريم واتباعنا له أن يطيل عمر مليكنا الهمام ابي محمد الحسن الثاني وولي عهده سيدي محمد ويبارك فيه وفي ذريته وأهل بيته ويوفقه لبناء صروح المعالي ويحرصه بعينه التي لا تنام من كيد الكائدين ومكر الماكرين انه سميع مجيب. وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين وصحبته الاكرمين . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة : د محمد تقي الدين الهلالي

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

وافتنا صحيفة « التخطيط التربوي في البلاد العربية » الصادرة في بيروت وفيها محاضرة للاستاذ رينه حبشه ، مصوغة في شكل بحث تربوي حسب زعم صاحبها ، ولكنها تحتاج الى تقويم ما فيها من تنكر للمقدسات وادعاآت لا تقوم على أي أساس علمي ، فاحلناها على الناقد الخبير السلفي المشارك الدكتور تقي الدين الهلالي ليتولى نقد المحاضرة ، والرد على ما فيها من مهاترات فوافانا بسلسلة من مقالاته القيمة سننشرها تباعا في مجلة : (دعوة الحق) معتذرين لحضرة الدكتور على عدم نشر طالعة مقاله الذي اطرى فيه القائمين على تحرير هذه المجلة .

والى القارىء الكريم الحلقة الاولى من هذه السلسلة .

اول ما ابدأ به حمد الله سبحانه على نعمة الاسلام ، التي اكرمنا بها في زمان الغربة ، غربة الدين والحق ، كما قال الشاعر :

وما غربة الانسان من شقة النوى
ولكنها والله من عدم الشكل

فأقول مستعينا بالله على رغم كل ختار كفور : سأقسم هذا النقد الى قسمين ، قسم علمي ، وقسم قومي ، على انني لا اتعرض لكل ما جاء في ذلك المقال ، وانما اقتصر على تلك العبارات الخبيثة التي اشار اليها وخط عليها الاستاذ المذكور . العبارة الاولى . افتتح بها الكاتب مقاله وهي :

شرقنا العربي بحاجة الى تطوير عام مخطط . ولكي ندرك ذلك ، علينا ان نفهم ذواتنا ونتخطى العقبات التي تقف في سبيل هذا التطوير ، اما طاقات الانسان البناءة فهي ثلاث فئات :

1 ــ الطاقات الغريزية التي تحصر الانسان في اطار ذاته
2 ــ الطاقات العقلية التي تفتح للانسان الكون المنظور .
3 ــ طاقات الايمان التي تقيم الصلة بين الانسان وبين ما وراء المنظور .

ومضى الى ان قال :

اما تطوير الايمان بسيطرة الغريزة ، فهو يحتاز ازمة عميقة في بلداننا العربية نتيجة العلم الذي بدأ يشرح بعض الظواهر الطبيعية الغامضة ، والتي ساد الاعتقاد الخاطيء انها وظيفة الله . ان الايمان وليد الحرية ، فهو يمكننا من فرض بعض الادلة المنطقية على الفرد ، ولكنه لا يمكننا ابدا فرض الايمان . ولكن متى طغت الغرائز على خاصية الايمان انقلبت هذه الميزة المساعدة للتخطيط الى انانية وعنصر تفريق يمكن تسميته تعصبا .

ثم مضى الى ان قال : ان الايمان بشخص بشري ، او بالله يستهدف صلب الكائن الذي يستحق هذا الايمان ، وما ينطوي عليه هذا الكائن من بساطة ووضوح .

فليس من عمل اكثر مباشرة من الايمان . ثم مضى الى ان قال : فالمتعالي بالنسبة للغريزة هو المجهول والمغلق . وكلما زاد خوف الغريزة من امر ، ازداد اعتقادها بانه يستحق الايمان .

ولذا يجتاز اليوم الايمان بالله ازمة عميقة في بلداننا العربية . فبعد ان افترضنا ان فكرة الله يجب ان تشرح كل ما يبدو لنا غامضا ومغلقا في ظاهر الطبيعة ، وبعد ان رأينا العلم الحديث يشرح بسهولة هذه الظواهر عينها . شاع الاعتقاد بان ذلك انما هو انتصار للعلم على الايمان الديني ، وان الله لن يلبث ان يتقهقر يوما بعد يوم حتى ينبذ نهائيا .

وربما اننا نسينا الى الله وظيفة ليست له ــ الله ليس ظاهرة لا متناهية الصغر او لا متناهية العظمة ــ اردنا ان نصلحه هو بانكاره نهائيا بدلا من ان نصلح ذواتنا . وربما اعتقد البعض انني احيد كثيرا عن موضوعي ، ولكن هل يظن ان من الصواب

بالنسبة الى حالتنا النفسانية وتربيتنا ان نقبل هذا التناقض الخاطيء بين العلم والدين . فنتعرض لفقدان قيم طالما كانت غالية على قلب شرقنا العربي .

اما الغريزة فتستتمر الايمان كسلاح وتستعمله كخطة . فلا اكثر مغايرة للايمان من التهديد ، او استعمال القوة ، الا ان الغريزة خوذة وترسا لأهدافها الهجومية . ولذا يقسو الايمان بيد الله ، انه اعزل يعرض نفسه على حربنا ، فتتخذ منه الغريزة خوذة وترسا لاهدافها الهجومية . ولذا يقسو الايمان في السياسة ويتصلب ، وبدلا من وسم الغريزة بروحانيته يتمثل هو بطابع الغريزة اللا عقلي . ان العاقبة التي تهمنا هنا هي ان الدين ، اذا تجمد في انفعالات الغريزة والخرافات التي لا طائل تحتها يعطي الغريزة ذرائع ــ ذرائع مقدسة ــ للبقاء في جمودها ولرفض كل تطور ، عوض ان يكون خميرة تقدم .

وبدلا من ان يكون الله سبب تقدم لا متناه ، يسبي علة جمود وركود لا حد لها . ان تربية مصابة بهذا الجرثوم لابد من ان تتجه الى التعبد للماضي والتقليد ، بدلا من ان تتطور وتتكيف مع تغير الحاجات في مجتمع سلك طريق التصنيع .

انتهى ما اردنا نقله والرد عليه .

1 ــ قوله ، شرقنا العربي في حاجة الى تطوير عام مخطط .

اقول نحن موافقون على ان الشرق العربي والمغرب العربي كذلك ، وذلك ينتظم جميع العرب ، اذ ليس العرب محصورين في الشرق ، اقول نحن موافقون على حاجة الى التطور غسن مجدهم وحسبهم وتراثهم العظيم ، وذلك كله يرتكز على الاسلام الذي هو مصدر حياتهم وعظمتهم ، فان العرب قبله لم يكونوا شيئا مذكورا ، فلم تكن لهم مدينة محفوظة ممتدة ولا حضارة ولا علم ولا عز ولا دولة ولا اجتماع ولا اجتماع ولا تعاون ولا شريعة يجتمعون عليها وتنظم بها احوالهم ، بل كانوا عشائر متفرقة جاهلة همجية تعبد الاوثان وتئد البنات وتقتل اولادها للفقر او خشية الفقر . ومن كان له منهم شيء من الحضارة كان ذلك تحت سيادة الفرس او الروم ، وسائرهم متوحشون يقتل بعضهم بعضا ويسبي بعضهم بعضا . فلما جاء الاسلام صاروا سادة اهل الارض حكما وعلما وقوة وسلطانا ، وتغلبوا بقوة الايمان والاخلاق الكريمة على اكبر دولتين تجاورانهم الروم غربا ، والفرس شرقا ، وسادوا العالم في مدة لا تتجاوز خمسا وعشرين سنة . وهذه الثورة السليمة الخليقة المحمدية المباركة عديمة النظير في التاريخ كله ، قديمه وحديثه ، لا ينازع في ذلك الا مكابر متعسف يريد ان يستر الشمس بالغربال .

وبعد ما اعرضوا عن الاسلام فقدوا كل ما كان عندهم من عز ومجد وعظمة واجتماع وتعاون وسيادة ورقي ، حتى صاروا عبيدا لمن كانوا تحت حكمهم . وهذا ايضا مسلم ، يعرفه كل من يعرف شيئا من تاريخ العالم عامة ، وتاريخهم خاصة . واذا تسامحنا وتنزلنا الى لغة هذا الكاتب ، نقول ، ان ذلك كان اعظم تطور عام مخطط . ولو استمر العرب على ذلك المنهاج لما فقدوا شيئا من سعادتهم وسيادتهم وعظمتهم . والاسلام الذي كان سبب حياتهم ، ثم كان تركه وبالا عليهم وتخلفا وانحطاطا هو وحده الكفيل باسترداد مجدهم وعظمتهم وقوتهم وسعادتهم ، لا اعني الاسلام بشكله الحاضر ، ولكني اعني الاسلام بالشكل الذي دعا اليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونفخ به روح الحياة باذن الله في العرب . والاسلام لا يتنافى مع التقدم في المدنية والحضارة والعلم والعدل . والدليل على ذلك ما انشأه العرب وسائر المسلمين من مدنية وحضارة ، وما خلفوه من علوم خالدة باقية يشع نورها في جميع انحاء الارض . وهي مقدسة عند العلماء المنصفين من جميع الامم . اما التطور الذي معناه انكار الماضي واهماله والانسلاخ من القومية والعلم والدين ، واضاعة التراث العظيم ، وتقمص تطور محدث مبني على غير اساس ، او على شفا جرف هار ، فانه ينهار باهله في نار جهنم ويشقي اهله في حاضرهم ومستقبلهم . بل هو داء العرب الذي قعد بهم عن التقدم والرقي والسير في ركب الحضارة . والدين المبدل هو من اكبر العوائق عن كل تقدم واصلاح واجتماع وتعاون . قلت ان بناء التطور على غير اساس التراث المجيد هو سبب تأخر العرب . برهان ذلك ان الدول العربية غير متمسكة بالشريعة الاسلامية كما كان اسلافها متمسكين بها علما وعملا وانقيادا وطاعة . فغالب ما حرمه الاسلام هو حلال في قوانينهم . وكل ذنب اوجب الاسلام العقاب عليه هو مباح في تلك القوانين ، لا يخشى مرتكبه نكالا ، يفعل جهارا من غير خوف ولا وجل ، حتى الردة عن الاسلام وسب مقدساته لا يخشى مرتكب ذلك مؤاخذة . ودليل ذلك صدور مجلة تشتمل على ما تقلناه اعلاه في بلد اغلب سكانها مسلمون ، وطائفة منهم نصارى ، والزنادقة منهم الذين لا يدينون لا بالاسلام ولا بالنصرانية قليلون جدا . فادعاء كاتب المقال المنقود ، ان الايمان بالله يعوق العرب ويمنعهم من التطور والتقدم ، هو اختلاق من بنات غيره . واذا ثبت ان الاسلام وحده هو سبب حياتهم وانتقالهم من الشقاء والجهل والفقر والتخاذل وغير ذلك من الامراض الاجتماعية الى اضدادها ، وثبت ان اعراضهم عن الاسلام هو سبب انحطاطهم وبلوغهم الى الدرك الاسفل من الضعف والتأخر ، والتاريخ اصدق شاهد ، فلا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها . واذا كان غير الاسلام من الاديان البعيدة عن العقل التي لا تمس حياة الانسان الاجتماعية لا من قريب ولا من بعيد لم تمنع المتمسكين بها من بلوغ غايات الرقي والتقدم ، فكيف يمنع من ذلك الاسلام الذي هو نصير العقل والعلم والحرية والعدل والمساواة . وقد جرب العرب الاعراض عن الاسلام وشريعته عشرات السنين فلم يزدادوا الا خبالا ، فما يريد منهم هذا الكاتب ؟ لا شك ان وراء الاكمة ما وراءها ، فلعله يريد ان يدخلهم في ايمان جديد ودين جديد يزيدهم خبالا ووبالا فيحرم عليهم البقية الباقية من حرية الاعتقاد وحرية العمل وحرية التنقل

وشيء من حرية القول ويجعلهم انعاما سائمة يرعاها ذئب مكشر انيابه للافتراس . ولعمري ، ما هو بناصح ولا امين . وانا اقول بعكس ذلك : جربوا ايها العرب الرجوع الى طريقكم الاول ، الى المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ، جربوا ولو سنة واحدة ، تجدوا انكم لا تسعدون اليوم الا بما سعدتم به امس .

2 ـ قوله ، اما طاقات الانسان البناءة فهي ثلاث فئات :

1 ـ الطاقات الغريزية التي تحصر الانسان في اطار ذاته

2 ـ الطاقات العقلية التي تفتح للانسان الكون المنظور

3 ـ طاقات الايمان التي تقيم الصلة بين الانسان وبين ما وراء المنظور .

اقول : هذا التقسيم غير صحيح ، فالايمان ليس قسيما للغرائز والعقل ، وانما هو ثمرة العقل نفسه ، اذا اجتمع معه الالهام والتوفيق . فان المدركات ، تنقسم الى قسمين ، حسي ، وهو ما يدرك هو او مادته بالحس ، ويدخل فيه الخيالي كقول الشاعر : وهو ابو بكر احمد بن محمد بن الحسن الصنوبري .

وكأن محمر الشقيـ

ـق اذا تصوب او تصعد

اعلام ياقوت نشر

ن على رماح من زبرجد

فرايات الياقوت على رماح الزبرجد خيال لا وجود له في الخارج . والقسم الثاني ما يدرك بالعقل ، كالعلم والحياة ، فانهما لا يدركان بشيء من الحواس . ويدخل في العقل الوهمي ، وهو ايضا غير مدرك بشيء من الحواس الخمس ، مع انه لو ادرك ، لم يدرك الا بها ، كقول امرئ القيس :

ايقتلني والمشرفي مضاجعي

ومسنونة زرق كانياب اغوال

فان الغيلان وانيابها لا تدرك بالحواس الخمس ، ولو ادركت ، لم تدرك الا بها . وهذا تقسيم صحيح للمدركات ، وانت ترى ان الايمان ليس منها . اما كون الايمان يعطي صاحبه قوة لا يجدها بدونه فصحيح . وقد اعترف الكاتب بان الموجودات قسمان ، منظور وغير منظور ، حيث قال : اما طاقات الانسان البناءة فهي ثلاث فئات :

1 ـ الطاقات الغريزية التي تحصر الانسان في اطار ذاته

2 ـ الطاقات العقلية التي تفتح للانسان الكون المنظور .

3 ـ طاقات الايمان التي تقيم الصلة بين الانسان وبين ما وراء المنظور .

فما ذا يعني هذا الكاتب بغير المنظور ؟ وما ذا يعني بطاقات الايمان التي تقيم الصلة بين الانسان وبين ما وراء المنظور ؟ . اليس الله سبحانه هو مما وراء المنظور ، وان طاقات الايمان على حد تعبيره تقيم الصلة بين الانسان وبين الله تعالى ، وكذلك مما وراء المنظور ، الجزاء الاخروي ، وهو اثابة المحسن وعقاب المجرم . وتعبيره بالمنظور وغير المنظور فاسد ، لان المنظور هو واحد من المدركات بالحس ، وبقيت اربعة اشياء تحس ولا تنظر ، وهي المسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات . ولكننا لسنا بصدد مؤاخذته على فساد العبارة ، وانما نؤاخذه الآن على فساد المعاني ، ونؤخر انتقاد المباني الى القسم الثاني . ونقول له اذا كنت ماديا لا لا تؤمن الا بما يدرك بالحواس الخمس كالحيوان الاعجم ، فما معنى الكون غير المنظور ، على حد تعبيرك الفاسد ، او غير المحس ، على حد التعبير الصحيح . وهناك نوع آخر من المدركات يدرك بالوجدان ، كاللذة والالم ، يضاف الى الاقسام المتقدمة الذكر ، ويرى بعض العلماء ان للانسان حاسة سادسة باطنة . وسينكر فيما بعد وجود الله تعالى ، حيث يقول : ولذا يجتاز اليوم الايمان بالله ازمة عميقة في بلداننا العربية . وحينئذ نورد عليه من البراهين القاطعة ما يحتم عليه الايمان بالله ، او المكابرة والجحود المفضوح . وجحده لوجود الله في هذا الموضع ينقض ما تقدم من قوله « ان طاقات الايمان تقيم الصلة بين الانسان وبين ما وراء المنظور » .

ومن المعلوم ان الغرائز يشترك فيها الحيوان الاعجم مع الحيوان الناطق . وقد فضل الله الانسان وكرمه بالعقل كما قال تعالى في سورة الاسراء 70 (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ولا تزال الغرائز في صراع ونزاع مع العقل ، فمتى تغلب الغرائز عمي العقل وسيطرت عليه النحق الانسان بالحيوان الاعجم كما قال تعالى في سورة الانفال 22 (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) صدق الله العظيم ، ان الدواب الانسانية التي تغلبت غرائزها على عقولها فلم يبق لها من الانسانية الا الصورة والشكل ، شر من الدواب العجم التي لا عقل عندها يكبح جماح غرائزها ويهديها الى الحق ويقيم لها البرهان عليه . ومتى تغلب العقل على الغرائز وسيطر عليها سار في طريق الكمال الانساني حتى يصل الغاية القصوى، وهي العلم والمعرفة . واول ما يدركه العقل بعد تغلبه على الغرائز التي يشترك فيها مع البهائم معرفة ان هذا العالم العجيب المتقن الصنع في دقة ونظام لا يكاد العقل يدرك كنههما ، لا بد له من صانع مبدع متصف بصفات عالية لا تشبه صفات المصنوع . ولا يقبل العقل المتغلب على الغرائز دعوى المصادفة . وهي ان كل ما نرى وندرك بسائر حواسنا من اسرار هذا الكون وعجائب احكام صنعه لم توضع له خطة سابقة ولا منهاج ولا تدبير ، وانما

وجد على سبيل الاتفاق ، وليس وراءه مدبر ولا موجد ، وقد نشأ بلا علم ولا حكمة ، حتى لو اراد العقل الحر الذي لم تستعبده الغرائز ان يجبر نفسه ويرغمها على قبول فكرة المصادفة ، لم يقدر على ذلك ابدا ، لانه بعد تغلبه على الطباع الحيوانية يصل الى درجة من العلم والايمان لا يدخلها الريب ابدا ، فكما انه لا يعقل ان ضرب سبعة في سبعة ينتج اربعين او خمسين بدلا من تسعة واربعين ، فكذلك لا يستطيع ان يتصور وجود منعه محكمة في غاية الدقة توجد بلا صانع . وستأتي الامثلة على ذلك في موضعها ان شاء الله .

3 ــ قوله : اما تطوير الايمان بسيطرة الغريزة فهو يحتاج ازمة عميقة في بلداننا العربية ، نتيجة العلم الذي بدأ يشرح بعض الظواهر الطبيعية الغامضة ، والتي ساد الاعتقاد الخاطيء انها وظيفة الله ، الخ .

اقول : انما تسيطر الغريزة على عقول الجاهلين امثال هذا الكاتب الذي يهرف بما لا يعرف . ولو سألناه عن هذا الشيء الذي يجحده ، وهو معرفة الله ورسالة رسله وما جاءوا به من النور والهدى ، هل تلقى في ذلك ، ولو درسا واحدا ، وهل انعم النظر فيه وقتله بحثا وتحقيقا ليرد عليه ردا محكما ويضع النقط على الحروف كما يقولون ، ويفصل القول تفصيلا ، ويقيم البرهان على مدعاه ، لوجدناه فارغا كالطبل يخوض فيما لا يعلم ويخبط خبط عشواء ، في ليلة ظلماء .

والدعاوي ما لم يقيموا عليها
بينات ابناؤها ادعياء

فقد ادعى في هذا المقال دعاوي كثيرة دون ان يقيم عليها برهانا واحدا ، وكأنه يظن ان العرب اطفال كلهم ليس فيهم عالم ولا حكيم ولا عاقل ، حتى تروج عليهم خزعبلاته ، الا ساء ما سولت له نفسه ، واوهمه وسواسه .

خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت ان تنقري
لا بد من اخذك يوما فاحذري

والتلاذ الملحدون من الامريكيين والاوربيين يسرأون بأنفسهم ان يقدموا على انتقاد دين عظيم دان به الوف الملايين من الحكماء والعلماء في قرون متطاولة دون ان يدرسوا ذلك الدين درسا دقيقا ويستخرجوا منه المواضع التي يلبسون بها على قرائهم ويتخذونها شبهات لدعاياتهم . اما « رني الحبشي » فلم يكلف نفسه عناء الدرس والبحث والتحقيق ، بل اقتحم البحر بلا فلك ولا آلة وقاية من الغرق ، فغرق في بحر تتلاطم امواجه ، فلا لعن له اذ عثر ، لانه تقليدا كفر .

وادعاؤه ان الايمان يجتاز ازمة عميقة ، الخ . تهويل وتضليل ، فان البلاد التي يرفع اهلها رايات العلم يحق من اوربا وامريكا لا يزال اهلها متمسكين بدينهم ، لا يتساهلون فيه ابدا ، وقد جبتها في الصيف الماضي فقطعت من اسبانيا الى الاراضي القطبية في اقصى شمالي نرويج ، حيث لا تغيب الشمس لمدة ثلاثة اشهر فرأيت القوم في ايام الآحاد يعطلون الاعمال ويؤمنون الكنائس صبيانا وشبانا وكهولا وشيوخا ، ذكورا واناثا . ولو اطلع مطلع في سجلات الاشخاص ومديريات النفوس وسجلات الكنائس ، لما وجد من الخارجين على الكنيسة الا عددا ضئيلا جدا ، لا يزيد على واحد الى اثنين في المائة في الشعوب العظيمة التقدم في العلم والمدنية ، كسويسرة والمانية وبريطانية والشعوب السكندنافية . وهؤلاء الخارجون على الكنيسة ليسوا كلهم ملحدين ، فاكثرهم اخرج منها مضطرا وحرم وطرد لمخالفته لبعض قوانينها كتزوج الكاثوليكية برجل بروتستانتي مثلا ، او الامتناع من دفع ضرائب الكنيسة امتناعا كليا ونحو ذلك . وترى في كل جامعة كلية اللاهوت تحتل اسمى مكان في الجامعة . وجميع الاساتذة يحضرون صلوات كنيستها في الاحتفالات المهمة . ويتخرج في هذه الكليات كل سنة عدد كبير من الدكاترة فيتولون اعمالهم ووظائفهم في الكنائس والاعمال الدينية ، ولا يبقى احد منهم عاطلا . فاذا كانت الشعوب المتقدمة في العلم والحضارة قد تركت التدين والايمان ، كما يزعم هذا الداعية المضلل ، فلما ذا تؤسس المدارس الدينية من رياض الاطفال الى الجامعة في تلك الشعوب الحرة الديمقراطية . ولا توجد مدرسة خالية من دروس الدين في المانيا ، ولا تقبل الكنيسة ان يتولى تدريس الدين في المدارس كلها الا قسيس مجاز يقدر ان ينوب عن الكنيسة في مراقبة التعليم الديني في المدارس ويصلي بالتلاميذ كل يوم في قلب المدرسة ويلزمهم الحضور الى الكنيسة في كل يوم احد ، ومن لم يحضر يعاقب . بل آل الامر بهم في التمسك بدينهم الى ان اجبروا الحكومة ان تهيء للتلاميذ مدارس كافية على حسب اعتقادهم في البلدان التي تختلف عقيدة سكانها ، بعضهم كاثوليكيون ، وبعضهم بروتستانتيون ، يجب على وزارة التعليم ان تهيء نوعين من المدارس ، للكاثوليكيين مدارسهم الخاصة بهم ، وللبروتستانتيين مدارسهم الخاصة بهم . اذ لا يسمح اب كاثوليكي ان يتعلم اولاده في مدرسة بروتستانتية ، ولا اب بروتستانتي ان يتعلم ابناؤه في مدرسة كاثوليكية ، سواء اكانت ابتدائية او ثانوية ، وامهات التلاميذ كذلك . واذا وجدت قرية جميع سكانها على احد المذهبين لا نفرا قليلا لا يستحقون ان تبنى لهم مدرسة يأمرهم آباؤهم وامهاتهم ان يركبوا في القطار ويتوجهوا الى مدرسة توافقهم في الدين .

ومن الاسباب التي حملت الكاثوليكيين في المانيا على الانضمام الى اليهود في عداوة هتلر وحزبه توحيد التعليم الذي قامت به حكومة هتلر . ولم تقم به بقصد محاربة الدين ، وانما قامت به لغرض سياسي ، وهو تربية جميع الناشئين والناشئات على العقيدة الهتلرية ، وهي الاشتراكية الوطنية ، او القومية ،

اذا اردنا الدقة في التعبير . وقد كان هتلر متمسكا بالدين ، لم تصدر منه قط مضادة له ، الا انه كان يكره بعض قوانين الكنيسة ، ككنز الاموال والذخائر في الكنائس وعدم انفاقها في مصلحة الشعب ، والتفرقة في مناهج التربية والتعليم . وكان ذلك كافيا لا يقاد نار العداوة والبغضاء في قلوب رجال الكنيسة الكاثوليكية واتباعهم . ولو ذهبنا نورد البراهين على تمسك الاوربيين بدينهم ، بل يبالغ في ذلك بعضهم الى حد التعصب الممقوت ، لطال بنا القول . فما بال هذا التمسك لم يضر الاوربيين شيئا ، ولم يجعلهم متأخرين ، واقتصر ضرره فقط على اهل الشرق العربي ، مع تهاونهم للدين . الم يجد « رني الحبشي » الاعجمي الاسم ، ولعله اعجمي المسمى ايضا ، لم يجد ما ينصح به العرب الا ان يحضهم على ترك الايمان بالله والتهور بالسب والشتم للمقدسات بلا علم ولا هدي ولا كتاب منير . ارآهم كاملين في جميع العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية ، ولم ير فيهم نقصا الا التمسك بالدين ؟ ام هو احد معاول الهدم والتخريب والفساد من المأجورين الذين يريدون الخرق توسيعا ، والطين بلة ، اولئك عبيد اعداء العرب ، بل عبيد الدينار والدرهم ، ودعاة زيادة الفوضى والتفرق والشتات

جمعني مجلس في بون ، في السنة الماضية ، مع الاستاذ الدكتور اندري ، استاذ علم الحياة في احدى الجامعات الالمانية المتقاعد ، فقمت مع شخص يرافقني ، فصلينا المغرب والعشاء قصرا وجمعا ، فمنذ قمنا للصلاة وقف ، وبقي واقفا الى ان اتممنا الصلاة ، وهو في غاية التأثر والخشوع ، فلما انصرفنا من الصلاة قال لي ما معناه بترجمة دقيقة (اعتراني خوف اجلال عند مشاهدة صلاتكما . ثم قال لي ، اني لست قسيسا ، وما عرفت الله وآمنت به ايمانا كاملا راسخا الا بدراستي لعلم الحيوان والنبات ، ولا يزال هذا العالم حيا يرزق .

فاين « رني الحبشي » وسفسطته الباطلة من كلام العلماء المحققين .

ان الايمان بالله وآياته الباهرة التي تدل على عظمته وعلمه وحكمته ، لا يجتاز اي ازمة عند اهل العلم والايمان . ولكن الشرق العربي هو الذي في ازمة شديدة لن يجتازها ولن يخرج منها ما دام فيه امثال هذا الكاتب الذين يريدونه خبالا بخدمتهم لأعدائه الطامعين وبلبلتهم لأفكار اهله بتعميدهم نشر الفوضى الفكرية والفساد وتضليل العقول . واذا فتشت تجدهم ممن دسهم اعداء العرب في صفوف العرب ليوسوسوا في صدورهم ويمنعوهم من التفكير الجدي في اصلاح التربية في بلادهم ، وما اكثر هؤلاء المفسدين في بلاد العرب ، فقد شقيت بهم البلاد واهلها ، فلسان حالها ينشد :

زعم العواذل انني في غمرة
صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

والغريزة لم تسيطر على اهل العلم والايمان بالله وآياته ، وانما سيطرت على الدجاجلة المفسدين ، فهم كالمكاريب تتبع الامراض وتفتك بالجسم المريض حتى يجيء الطبيب بالدواء فيقضي عليها . فما هي الظواهر الطبيعية التي شرحها العلم وانكرها الايمان ، اذكر لنا واحدة منها ان كنت صادقا . ؟ فهل قال الايمان ان الشمس تطلع من المشرق ، فجاء العلم المزعوم ووجد انها تطلع من المغرب ، ام قال الايمان ان الموت حتم على الانسان والحيوان ، فجاء العلم المزعوم فمحا الموت واثبت الخلود ؟ ام قال الايمان ، ان الحيوان لا بد له من الغذاء ومثله النبات ، فجاء العلم المزعوم فاثبت ان الحيوان والنبات يعيشان بلا غذاء .

يقولون اقوالا ولا يعلمونها
اذا قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

ونحن نتحدى هذا الكاتب ان يذكر لنا مثالا واحدا يؤيد به ما ادعاه حتى نرد عليه بالتفصيل ونلقمه الاحجار . اما الدعاوي الفارغة المجملة المبهمة ، فهي شأن المهوشين ، ولا تضر اهل العلم والايمان ، كما لا تنفع اعداء العرب والاسلام . وقد مضت عشرات السنين على هذا الشرق العربي ، والمهوشون ، والمأجورون المجهولون يروجون امثال هذا الهراء فلم يستطيعوا ان ينقضوا حقا ولا ان يثبتوا باطلا .

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها واوهى قرنه الوعل

بقيك الجنادل ، ان الله ليس بفكرة يفترضها مفترض ، بل هو خالق السموات والارض ، فكل ما بدا فيهما فهو بعلمه وحكمته ، وهو الذي خلقه واوجده واتقن صنعه . وكذلك العقول التي انكشف بها ذلك السر هو خالقها ومدبرها (ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون ؟ ام خلقوا السموات وارض بل لا يوقنون .

(يتبع)

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 2 -

3 ـ قوله : اما تطوير الايمان بسيطرة الغريزة فهو يجتاز ازمة عميقة في بلداننا العربية ، نتيجة العلم الذي بدا يشرح بعض الظواهر الطبيعية الغامضة، والتي ساد الاعتقاد الخاطيء انها وظيفة الله .

تقدم الرد على صدر هذه العبارات ، وبقي عجزها ، وهو قوله (والتي ساد الاعتقاد الخاطيء انها وظيفة الله) . هل هذا الكاتب لايعرف اللغة العربية، ولا ندري هل يعرف اللغات العجمية أم لا ، ويضاف الى جهله باللغة العربية عدم الاخلاص في البحث والدرس وسوء القصد وارادة الاستفزاز باطلاق العبارات الخارجة عن الموضوع ليرضي بها من اشلوه للعض والنباح ، والا فكيف يطلق على الله خالق السموات والارض ومدبر شؤونهما ، أن له وظيفة . قال الفيروزابادي في القاموس و (الوظيفة) كسفينة ما يقدر لك في اليوم من طعام او رزق ونحوه والعهد والشرط . ج وظائف ووظف بضمتين . والتوظيف تعيين الوظيفة ، انتهى . فكل موظف بالفتح له موظف بالكسر ، وهو الذي يقدر له وظيفته ، والله رب العالمين وخالقهم ورازقهم ، وهو الذي يحيي ويميت بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، ويحكم ولا يحكم عليه . ولولا سوء القصد والجهل باللغة العربية لقال بدل تلك العبارة ، لقد كشف العلم أمورا كان بعض الناس يظن انها خاصة بالله لا يقدر عليها غيره ، وذلك كالقضاء على بعض الامراض المعدية، كالجدري وحصر الاوبئة في مكان معين ، ثم القضاء عليها بالعلاج ، والتزود بالهواء والطعام والآلات التي تصل باراسلة والمحادثة الخارج من جو الارض باهل الارض . وهذه الامور نفسها هي من فعل الله ايضا ، لانه هو الذي خلق العقول التي اخترعتها ، وهو الذي وهب الحياة والقدرة للقائمين بها . وقد ظهرت امور كثيرة ، كالراديو والتلفزيون والطيران والمكالمات التلفونية ، كان الناس يظنونها من خوارق العادات ، ثم اصبحت عادية . ولا يوجد في الكتاب ولا في السنة ما يدل بأي نوع من انواع الدلالة على ان تلك الامور خارجة عن طاقة الانسان . بل جاءت الاشارة الواضحة اليها في الكتاب العزيز في قوله تعالى في سورة النحل8 (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لاتعلمون) يعني ويخلق ما لاتعلمون من المركوبات كالطائرات والسفن الهوائية والبواخر المواخر للبحور والسيارات والقطر . ومما قد ذكره أشال هذا المهوس، ما كان العامة يظنونه ، من ان الارض غير كروية وينسبونه للقرآن في قوله تعالى في سورة الغاشية 20 (والارض كيف سطحت) هذا لا يعتقده الا العامة . اما العلماء كشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والغزالي ، وابن رشد ، والنيسابوري ، فقد صرحوا واقاموا الحجج على ان الارض كرة . وقد يذكر بعض المهوسين ، اكتشاف دوران الارض على نفسها وحول الشمس ، ولم يتعرض له القرآن بنفي البتة ، بل اشار اليه في قوله تعالى في سورة يس بعد ذكر الارض والشمس والقمر ، (وكل في فلك يسبحون) 40 .اما ما صرح القرآن بأنه خاص بالله تعالى كخلق السموات والارض بانسانها وحيوانها ونباتها وما اودع في ذلك من الاسرار ودقة الصنع والتدبير الذي يستحيل عند كل من كانت له ذرة من العقل أن يكون وليد المصادفة والاتفاق . قال الله تعالى في سورة الحج في الرد على المشركين 73 : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ، ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » هذا هو

التحدي المخزي . فهل وجد في هذه القرون الطوال منذ نزول هذه الآية الى الآن من استطاع ان يخلق ذبابا فضلا عن غيره . وقال تعالى في سورة الانبياء 35 « كل نفس ذائقة الموت » فهل استطاع العلم المزعوم ان يخلد احدا من الناس او من الحيوان او من النبات. وقال تعالى في سورة الانعام 59 : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وقال تعالى في آخر سورة لقمان « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما في الارحام ، وما تدري نفس ما ذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي ارض تموت ، ان الله عليم خبير » قال الامام ابن كثير في تفسير هذه الاية :

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها فلا يعلمها احد الا بعد اعلامه تعالى بها ، فعلم وقت الساعة، لايعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، لايجليها لوقتها الا هو ، وكذلك انزال الغيث ، لا يعلمه الا الله ، ولكن اذا امر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما في الارحام مما يريد ان يخلقه تعالى سواه ، ولكن اذا امر بكونه ذكرا او انثى او شقيا او سعيدا ، على الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها واخراها . وما تدري نفس بأي ارض تموت في بلدها ام في غيره من اي بلاد الله كان ، لاعلم لاحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو) الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

اخرج البخاري بسنده الى ابن عمر قال ، قال رسول الله (ص) : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله . ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الارحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي ارض تموت ، ان الله عليم خبير » .

فهل يستطيع العلم المزعوم ان يعلم شيئا من هذه الخمس ؟ لعل قائلا يقول ، ان الناس في هذه الايام يعرفون ان المطر سينزل غدا او لا ينزل ،وان السماء ستكون مصحية او غائمة . فاقول : ان هذا العلم مكتسب بآلات وامارات ، ولو سألنا العالم الفلكي عن وقت نزول المطر بعد شهر من يومنا الحاضر لايستطيع ان يجيب بشيء . اذن لايعلم متى ينزل المطر الا الله ، وعلمه لا يحتاج الى آلات ولا امارات ، فهو يعلم متى ينزل المطر ، والمقدار الذي ينزل من المطر بعد عشرة آلاف سنة ، بل علم سبحانه اوقات نزول المطر ومقاديره قبل ان تخلق الارض الى ان تفنى . وسيقول قائل ، ان الطبيب يعرف ما في بطن الحامل اذكر ام انثى ، والجواب عن هذا كالذي قبله ، انما يعلم ذلك بالاشعة او بامارات ، ولو سألناه عن طفلة في العاشرة من عمرها ، ماذا ستلد من الاولاد ، بعدما تبلغ وتتزوج لما وجد جوابا . وهكذا يقال في كل امر اخبر الله سبحانه انه استأثر بعلمه او بخلقه في كتابه العزيز او على لسان نبيه الكريم (لاتبديل لكلمات الله) واظن ان هذا القدر كاف لتكذيب دعوى الحبشي المدعي انه عربي ، ولا تعترف به الحبشة ولا العرب ، لان الحبشة نصارى ، والعرب اكثرهم مسلمون ، وقليل منهم نصارى ، ولا يستطيع ان يصرفهم عن دينهم الدساسون المجهولون ، فهم يضربون في حديد بارد .

4 ـ قوله : ان الايمان بشخص بشري ، أو بالله ، يستهدف طلب الكائن الذي يستحق هذا الايمان . الخ

هذا كلام ركيك فاسد لا طائل تحته . وقد انحط في الركاكة والتعمية الى حد لا يستحق أن يقرأ ولا ان يجاب عنه ، وعلى ذلك تجاريه فنقول ، ما معنى الايمان بشخص بشري ؟ ، هل معناه ان يعتقد فيه انه الله كما يدل عليه قوله ، يستهدف صلب الكائن، فكأنه يعرض بعقيدة النصارى في الاقانيم الثلاثة ، وعقيدة الصلب والفداء . فان كان الامر كذلك نترك الجواب عنه للمسيحيين ، لاننا معشر المسلمين لا نعتقد في البشر كلهم ، الا انهم مخلوقون لله ومفتقرون اليه ، والله غني عنهم ، ليس له ند ولا كفؤ ولا شبيه ولا نظير ، ولا نعتقد صلبا ولا فداء .

5 ـ قوله : فالمتعالي بالنسبة للغريزة هو المجهول والمغلق . وكلما زاد خوف الغريزة من امر ، ازداد اعتقادها بانه يستحق الايمان .

قوله ، فالمتعالي بالنسبة للغريزة هو المجهول والمغلق ، كلام فاسد لامعنى له ، لان المتعالي صفة لايتعين موصوفها ، فان اراد به اسم الله تعالى ، فان من اسمائه المتعالي ، فانه ليس مجهولا الا عند الجهال امثاله ، ومن عرفه حجة على من لم يعرفه . واذا كان يجهله ، فكيف يحكم عليه ، فان الحكم على الشيء فرع تصوره . فهو وصف شيئا بالتعالي ، ولم يعين الموصوف ، ثم حكم عليه بانه مجهول ومغلق . والصفة في اللغة العربية وفي غيرها تدل على امرين ، على

عين متصفة بصفة . فمن السخافة تصور شيء ، وصفته بالتعالي ، ثم الحكم عليه بانه مجهول ، وما معنى الاغلاق هنا ، انما يتصف بالاغلاق الباب ، والمعنى الغامض ، ولعله يريد هنا المعنى الاخير ، فان كان الامر كذلك ، ففكره هو المغلق ، وتعالى الله وتنزه ان يكون مجهولا او مغلقا ، وقد عرفه اهل السموات واهل الارض وشهدوا بربوبيته وكماله المطلق وهيمنته وقيوميته . ولماذا ابهم وهرب الى الصفة ، ولم يقل الاله او الله كما صرح بذلك فيما بعد بغاية الوقاحة والنذالة . وليس ذلك من شأن الباحثين ، لان الشتم والسفاهة سلاح الدساسين . واي علاقة للغريزة بالاعتقاد ، فان الاعتقاد خاص بالعقلاء ، والغريزة مشتركة بين الناطق والناهق ، ولكن من فقد نصيبه من العقل وغلبت عليه الغريزة كالبهائم ينسب كل شيء اليها .

اما قوله ، وكلما ازداد خوف الغريزة من امر ، الخ . تقدم ان الغريزة لا شان لها بالاعتقاد ، وانما الاعتقاد يكون بالعقل ، والمعتقد هو الانسان . وصحيح ان الانسان اذا خاف من امر آمن به وعبده ، فعباد الاوثان والاصنام يعتقدون ان لتلك الاوثان والاصنام ارواحا متلبسة بها تضر وتنفع وتقضي حاجات من يخضع لها ويذبح لها ويطوف بها ويهتف باسمائها اذا حز به امر ، فهم يخافونها ويرجونها ، ولكن المؤمنين بالله ليسوا كذلك ، فانهم آمنوا بالله بعد ما نظروا في خلق السموات والارض ورأوا كل شيء من المخلوقات يدل دلالة واضحة قاطعة على خالقه .

وفي كل شيء له آية ✻ تدل على انه الواحد

قال تعالى في سورة آل عمران 190 ـ 191 (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والارض) . وسأفصل القول فيما بعد في الادلة والبراهين القطعية التي تدل على وجود الخالق وربوبيته وعلمه وحكمته وتدبيره لمملكته العظيمة بحول الله وحسن عونه .

6 ـ ثم قال : فبعد ان افترضنا ان فكرة الله يجب ان تشرح كل ما يبدو لنا غامضا ومغلقا في ظواهر الطبيعة ، وبعد ان رأينا العلم الحديث يشرح هذه الظواهر عينها ، شاع الاعتقاد بأن ذلك انما هو انتصار للعلم على الايمان الديني .

هذا الكاتب ليس من اهل العلم ولا من اهل الدين ، فهو جاهل بهما جميعا . ولو كان من طلاب المعرفة لعرف واعترف بأن الانسان لا يزال في غاية الجهل بنفسه وبما حوله من حيوان ونبات وجماد ، ولم ينكشف له من اسرار ذلك الا شيء ضئيل جدا . فما يعلمه بالنسبة الى ما يجهله كنقطة في بحر ، فهو لا يعلم على الحقيقة والتدقيق مستقر العقل والادراك الذي فضل به الانسان على الحيوان الاعجم . والادراك انواع ، فأين يستقر كل نوع منها ، كالحفظ والنسيان والذكر والذهول والتفكير ، واين خزانة المعلومات من جسمه . واين تستقر الحياة ، وما هي الحياة ؟. واين يكون عقله حين ينام ؟ وهل هناك عقلان ، عقل باطن وعقل ظاهر ، وهذه الامور التي يراها في المنام باي قوة يراها . ؟ ثم ان العلم بأمراض الانسان وعلاجها لا يزال ضئيلا ، والمجهول منه اكثر من المعلوم ، والمعلوم منه يقينا اقل من ذلك . ثم ما هي جاذبية الارض التي تؤلف بين اجزائها ، وتجذب اليها كل ما هو في الغلاف الهوائي المحيط بها ، واين هي هذه الجاذبية ؟ . ومن ادعى العلم بكل شيء فهو جاهل بكل شيء . ثم ان العلم والايمان بالله متلازمان ، لا ينفك احدهما عن الآخر ، اذ لا يمكن ان يعرف الانسان دقائق المصنوعات وأسرارها وعجائبها ويشتد اعجابه بها ، وهو يجهل الصانع جهلا تاما ، بل ينكر وجوده .

7 ـ ثم قال ـ فض فوه ـ وعاش من يجفوه ـ ما نصه بالحرف : وان الله لن يلبث ان يتقهقر يوما بعد يوم حتى ينبذ نهائيا . وبما اننا نسبنا الى الله وظيفة ليست له . الله ليس ظاهرة لا متناهية الصغر ، او متناهية العظمة . اردنا ان نصلحه هو بانكاره نهائيا ، بدلا من ان تصلح ذواتنا . انتهى هذيانه .

« البراهين العقلية التي تضطر كل عاقل ان يؤمن بالله »

قبل ان ابدأ في سرد البراهين أريد ان انقل كلاما لبعض العلماء المعاصرين الناصحين لامتهم الذين هم سرج هداية وهداة الى الحق . قال الاستاذ محمود صالح الفلكي في مقدمة كتابه (العلم يدعو للايمان) ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم . قد يبدو غريبا ان رجلا درس العلوم الاقتصادية والمالية وشغل منصب وكيل وزارة المالية والاقتصاد ، ومركز نائب المحافظ لصندوق النقد الدولي بواشنطون . والان هو سفير مصر في باريس ، يعمد الى ترجمة كتاب كهذا الكتاب،

يتكلم في الفلك والجيولوجيا والطبيعة والكيمياء والطب وعلم الوراثة ، ومثل ذلك من العلوم ، التي لاتمت الى عمل المترجم ، ولا الى دراسته ، بسبب من الاسباب .

ولكن الواقع اني حين قرات هذا الكتاب اثناء اقامتي في امريكا ـ ضمن ما قرأته من كتب في موضوعات شتى ـ قد اعجبتني الغاية السامية التي توخاها المؤلف الكبير من تاليفه ، الا وهي اثبات وجود الله ووحدانيته بأدلة من العلم المادي الحديث .

وكان العهد بدعاة الالحاد ان يحتجوا لدعوتهم بادلة يحسبونها علمية ، حتى لقد ظن البعض أن العلم والايمان نقيضان لا يجتمعان . بل الف احد العلماء الغربيين ، وهو جوليان هكسلي ، كتابا في ذلك سماه (الانسان يقوم وحده) (Man stands Alone) زعم فيه ان العلم ينكر وجود الله . ولكن ها هو ذا عالم من اكبر العلماء الامريكيين ، وقد شغل حينا مركز رئيس المجتمع العلمي في امريكا ، قد تصدى له ورد عليه ، وبين له وللناس جميعا أن العلم الحديث يثبت وجود الله وينتهي الى الايمان به وبوحدانيته بما لا يحتمل الشك او الجدل . وقد سمى كتابه (الانسان لايقوم وحده(Man does not stand Alone) اثبت فيه بمختلف العلوم ان الله باريء الكون وهو خالق كل شيء .

لذلك وحده عنيت بترجمة هذا الكتاب لعله ينتشر بين قراء العربية كما انتشر في امريكا حيث كان له اثر كبير في صد موجة الالحاد وتثبيت قوة اليقين

وقد وجدت كثيرا من آيات القرآن الكريم تؤيد ما ذهب اليه المؤلف فوضعتها في مواضعها من فصول الكتاب . والله الهادي الى اقوم سبيل .

التعريف بمؤلف كتاب : الانسان لا يقوم وحده

وضع العلامة الامريكي كريسي موريسون هذا الكتاب للقاريء العادي ، سواء أكان شابا ام شيخا ، رجلا ام امراة . وبينما يعالج مسائل علمية جديدة ، تراه يطلعك على غرائب في الكون ما كانت تخطر لك ببال .

وهو كتاب علمي قبل كل شيء ، اذ يعالج مسائل تختص بالفلك والجيولوجيا والطبيعة والكيميا والطب وعلم الاحياء ونحوها . ولكنه بسط هذه المسائل العلمية لدرجة تقربها الى ذهن كل قاريء . ومن عجب ان يستوعبها كلها في هذا الحيز الصغير ، وان يعرضها بشكل جذاب .

اما ما كشفه المؤلف في هذا الكتاب من حقائق جدير بأن يثير خيال الانسان ، غير ان النتائج التي انتهى اليها هي ثمرة (تكييف) الانسان ، كي يلائم الطبيعة بشكل ظاهر ، كما هي ثمرة تكييف الطبيعة لتلائم الانسان بشكل خفي أدعى الى الدهشة . ولا ريب ان هذا الكتاب سيكون موضع التقدير من جميع المفكرين الذين يروقهم أن يجمعوا التأمل والتفكير الى الايمان والدين .

وقد برهن المؤلف بالبراهين القاطعة على أن عجائب علاقات الانسان بالطبيعة ، ووجود الحياة نفسها ، تتوقف كلها على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى وجود قصد من خلق الكون ، ويتمثل هذا القصد في اعداد روح الانسان للخلود .

وهذه الغاية التي توخاها المؤلف هي غاية جليلة بلا ريب ، ولا تعارض بينها وبين الاديان على اختلافها، بل انها على العكس تؤيدها ، اذ تثبت الايمان بالله الذي هو اساس كل دين . ومن ثم يروق هذا الكتاب العالم العصري ، والعالم الديني ، والواعظ ، ويرضي المتدين ، كما يقنع الذي بنفسه شك .

ولا ريب ان الموضوع الذي عالجه هذا الكتاب هو موضوع اليوم ، فقد انتشرت فكرة الالحاد في كثير من البلدان ، وزعم الملحدون انهم ينكرون الايمان على اساس من العلم . ولكن ها هو ذا عالم كبير يؤيد الايمان ببراهين من أحدث العلوم .

هذا والعلامة كريسي موريسون ، هو الرئيس السابق لاكاديمية العلوم بنيويورك ، ورئيس المعهد الامريكي لمدينة نيويورك ، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة ، وزميل في المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي ، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي لبريطانيا العظمى .

وقد قرظت هذا الكتاب صحف ومجلات امريكية عدة . ومن ذلك ما نشرته مجلة (هارتفورد كورانت) ضمن مقال طويل ، اذ قالت :

ان المؤلف الذي هو رئيس سابق لاكاديمية العلوم في نيويورك ، قد اشتق الوقائع من مختلف

العلوم ، وجمعها معا في هذا الكتاب الذي يفتح الاذهان ويضيئها بشكل يدعو الى العجب ، مثله في ذلك مثل صانع الساعة الدقيقة الجميلة ، اذ يبحث عن عجلة صغيرة او ترس هنا وهناك ويضم اداة دقيقة الى مسمار ، حتى يتم صنع تلك الساعة .

وقد استعان المؤلف بامثلة من علم الفلك والجيولوجيا وعلم الحشرات وعلم النبات وعلم الاحياء وعلم الطبيعة وعلم النفس والفلسفة . وقد جمع هذه المادة بعناية بالغة ، وعرضها بدقة وبراعة .

واشتق من هذه العلوم المختلفة المتشابكة ، حقائق عجيبة مرتبطا بعضها ببعض في انسجام كامل بشكل يؤدي بالضرورة الى ايمان كل انسان مفكر سليم الفكر بوجود الله .

ان بعض المؤمنين يؤمنون على اساس الشعور ، والبعض الآخر على اساس تعاليم يحفظونها دون تفكير . ولا يصلح هذا الاساس ولا ذاك ، وانما يصلح الايمان القائم على العقل ، ليفي الانسان في هذا العصر الذري المدهش .

ومن كلام الشيخ احمد حسن الباقوري في الاعجاب بالمؤلف المذكور :

وبعد ، فهذا المؤلف ثمرة عقل كبير ناضج ... عقل وسع ثقافة العصر واحاط بالكثير من دقائقها ، حتى صار صاحبه رئيسا للمجمع العلمي بامريكا ، وذلك منصب لا يرقى اليه الا العباقرة الافذاذ من العلماء .

وغاية المؤلف من هذا البحث ، الوصول الى الله عن طريق العقل وما يتكشف له بالعلم والمعرفة من اسرار الكون وعجائبه . فكلما تكشفت له حقيقة من الحقائق هتف من اعماقه ، سبحان الخالق المبدع ، اعترافا منه بأن الانسان وما سخر له العلم والمعرفة من وسائل القوة والاقتدار ، اضعف من ان يبلغ من اسرار هذا العالم شيئا مذكورا .

« يا ايها الناس ضرب لكم مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ـ ضعف الطالب والمطلوب » لم يكن المؤلف عالما وحسب، ولكنه كان ايضا شاعرا ، كلما تناول عقله حقيقة من الحقائق اشرق قلبه بها ، فسرت في كيانه هزة الاكبار والاجلال لخالق الكون ومبدعه ، وتلك هي دعوة الفطرة السليمة الى الله وطريقها اليه . ومن هنا كان هذا البحث جديرا بان ينظر فيه المسلم بعين الاعتبار ، وان يجعل من مباحثه دروسا نافعة يرى من خلالها قدرة الله وعظمته ، فيقوى يقينه ويزداد ايمانه .

كلام الدكتور احمد زكي مدير جامعة القاهرة سابقا في التعريف بهذا المؤلف :

في الانشغال بمطالب العيش ، والاغتمار في غمرة الحياة ، ينسى الناس ان يفكروا فيتساءلون : من الغاية من هذا الوجود ؟ وما اشتغال بعيش ، وما اغتمار حياة ؟ وقد ينتبه الناس من غفلة ، او يستيقظون من نومة ، اذ اصابهم مرض ، او اصابهم عجز ، او نابتهم نائبة . وشر النوائب عندهم الموت ، ينزل بقريب او ينزل بحبيب . ففي هذه الفترات السوداء ، البارقة في سوادها ، يتوقف الناس يستخبرون ، من اين جئنا ، والى اين المصير ؟ ولكنها فترات لا تطول . فحوافز العيش تعود فتحفز ويشتد حفزها ، والحياة تعود تهتف بحاجاتها ويشتد هتافها. والانسان منا يلبي جبرا لا اختيارا ، ويتركز على يومه، وينسى امسه الذي كان ، وينسى يومه الذي سوف يكون ، الا من حيث ما يطعم ، ويلبس ، ويلذ ، ومن حيث ينعم او يشقى بالحياة .

ولكن مع كل هذا ، فمن تحت صخب النهار ، ومن بين الاصوات الصارخة في معركة العيش ، يحس الانسان منا صوتا خافتا يحاول دائما ان يصل الى الآذان . وهو يصل اليها عندما يتعب القائم فيحتاج الى القعود ، وعندما يجهد الجاهد فيتصبب عرقا، فياوي الى ركن هادىء يجفف عن وجهه عرقه الصبيب . او هو يصل اليه في هدأة من الليل ، وهو قاعد في العراء ، يرعى اشياء هذه الارض ، ويرعى على الاكثر اشياء هذه السماء .

وهو اذ يرعى هذه السماء ، يرعى اشياءها ، يرعى نجومها . يزداد هذا الصوت الخافت في آذانه ثم يزداد ، حتى يصير صراخا . هذه السماء ما هي ؟ وهذه النجوم ما اعدادها وما ابعادها ؟ وما فتات من النور مبعثر في هذه القبة البلقاء ، بعثرة الرمال في الصحراء ؟ وكيف تحور هذه القبة وكيف تدور ؟ وما شروق لها وما غروب ؟ وما نسق وانساق تجري عليها ومواعيد تضربها فلا تختلف ابدا ؟ .

ويأخذ ينعم النظر رافعا بصره ، وهو اذ يملأ بالذي يراه عينا ، يملأ به فكرا ويملأ به قلبا . وعندئذ

يرى تلك الصور وهي تجري في أزمة يجمعها آخر الامر زمام واحد ، ويرد تلك المعاني ، وهي مختلفة كاختلاف الوان الطيف من احمر واصفر وازرق ، ثم تجتمع كما يجتمع الطيف ، فيكون منه لون ابيض واحد ، ويرد كل هذه المعاني ، ويرد كل هذه الصور وكل هذه المباني ، الى يد صناع واحدة ، تحركها ارادة عاقلة منسقة هادية واحدة .

فتلك يد الله ، وتلك ارادة الله .

على هذا جرى الاقدمون واهتدوا الى كشف حقيقة الله . وما اعسره كشفا كان ، عند قوم ، لانه كشف مخلوق تستتر وراء مخلوقاته ، وما ايسره كشفا كان ، عند اقوام ، لانها مخلوقات عجيبة رائعة ، ما اسرع ما رقت فنفذ اليها الفكر الانساني العاقل ، فشفت عما وراءها . وكان الفكر احد اعاجيبها .

ثم جرى الزمان فجاء العلم ، اشرق على الناس العلم الحديث منذ ثلاثة قرون . وهو بعد ما بلغ الضحى .

وكشف العلم عن عجيب ما صنع الصانع . كشفه في النبات ، وهو صنوف لا عداد لها . وكشفه في الحيوان ، وهو اجناس لاحصر لها . وكشفه في الانسان ، اسمى حيوان . وكشف عن انساق واحدة في كل هذه الصنوف والاجناس جميعا . وكشف عن قوى في كلها تعمل واحدة ، على اختلاف في درجات، ولكن على اتحاد في غاية . وهدى ، وهدى المنطق ، وهدت الفطرة ، الى ان صاحب هذه الانساق لابد واحد ، ومجري هذه القوى لتعمل على هذه الاساليب الواحدة ، لابد واحد . ونسق العلم ما بين الارض الجامدة وما عليها من احياء . ونسق ما بين الارض ، جامدها والحي ، وبين هذه الشمس وذاك القمر ، واثبت ان المعدن واحد ، والاصل واحد ، واثبت ان الذي صمم عين الانسان بعدستها ومائها ، وما وراء الماء من شبكة تلقي عليها الصور ، هو هو لابد الذي صمم هذه الشمس واخرج منهاتلكالاشعة ووجهها الى الارض . فهذه العين تكون عبثا لولا هذا الضياء .

وجاء العلم ، وجاء العلماء بالف الف دليل على وحدة الارض ، وما عليها ، ووحدة السماء . ومن هذه الوحدة درج الناس والعلماء الى وحدة رب هذه الارض ورب السماء .

ومع هذا بقيت في العلماء بقية تقول بالخلق والتخلق طبعا ، وتنكر وجود الله . ومن هذه البقية العالم الانجليزي ، جوليان هكسلي فكتب في ذلك كتابا اسماه (الانسان يقوم وحده) (Stands Alone) وهو في ذلك يسير على درب سار عليه جده من قديم . فجده توماس هكسلي 1825 – 1895) ، صاحب دارون وناصره في القرن الماضي .

وظهر هذا الكتاب لهذا العالم فانبرى له عالم آخر ، فكتب كتابه هذا ، الذي بين يدينا ، واسماه (ان الانسان لا يقوم وحده) (Man does not stand Alone) اراد بذلك ان يقول انه يقوم في هذه الدنيا ومعه الله .

والكتاب يعدد ، في ايجاز جميل ، هذه الانساق التي تجمع بين الخلائق جميعا ، وبين الحي والحي ، وبين الحي والجامد . وعبر حدود الارض ، واتجه الى السماء ، يربط ما بينها وبين الحياة على هذه الارض. وهو يدلل من صفات هذا الشيء وهذا الشيء ، على ان صانعها لابد واحد ، فهما كالمفتاح وقفله اتساقا ، لايمكن ان يكون ابتدعهما ودبرهما الا عقل مبتدع مدبر واحد .

فالكتاب عون على الايمان الذي عماده الفكر والفطنة : كبير . اهـ .

قال محمد تقي الدين : فتامل ايها القاريء النبيل في كلام هؤلاء الجهابذة الذين هم اقطاب الادب العربي والاوربي معا كيف اقاموا البراهين القاطعة على مقام الربوبية الاعلى وحاجة المخلوق الى خالقه المتعالى . وسيرد عليك في المقالات الآتية بحول الله وقوته ما يثلج صدرك ، ويملأ قلبك يقينا وايمانا ، فتفمرك سعادة المؤمنين ، وتنقشع عنك سحائب الغافلين . وأين هؤلاء الفحول من ذلك الكويتب المجهول (ريني الحبشي) هيان بن بيان ، وضل بن ضل .

وابن اللبون اذا ما لز في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

وموعدنا المقال التالي . بحول الله وقوته .

الدكتور تقي الدين الهلالي

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 3 -

قبل ان ابدأ هذه الحلقة اريد ان اجيب عن اعتراض تقدم به الي مشافهة نفر من طلبة الجامعة . وينحصر انتقادهم في امرين : احدهما ما قرأوه في المقال الاول من الكلمات الجافية الخشنة الموجهة الى المدعو ريني الحبشي . والثاني قالوا كيف تحتج بالقرآن والحديث على خصمك ، وهو لا يؤمن بهما ، فأجبتهما عن الاول بأن الجفاء والشتم والبذاء كانت ابتداء من الحبشي ، ولم تكن موجهة الي ، ولا الى ابي ، ولا الى شخص احترمه ، بل كانت موجهة الى خالق السموات والارض الذي اعبده ويعبده جميع المؤمنين به فلو ان شاتما شتمني فأجبته بشتم مثل شتمه لرأيتم انني معذور ولم تعتبوا علي ، بل كنتم تلومونه لابتدائه بالظلم والشتم . وهكذا ، لو شتم شخصا محترما عند قومه فعوقب على ذلك بعقاب شديد كالسجن والقتل لقلتم انه يستحق ذلك ، فهل ذلك الشخص في نظركم اعظم من الله ، ام تريدون ان اغضب لنفسي ولقومي ولرؤسائهم ، حتى اذا جاء شخص دمه اعداء قومنا ودينا والهروه بشتم الاعنا واهانة مقدساتنا ، حينئذ نعفو ونصفح ، هذا شأن المنافقين الذين لا مبدأ لهم ولا ايمان . واما ايراد الآيات والاحاديث ، فلم اوردها للاحتجاج بها عليه ، وانما اوردتها تحديا له ان يجد فيها مطعنا ، على ان القرآن لا يفرض على الناس ان يؤمنوا بلا دليل ولا برهان ، وانما امرهم بالنظر في البراهين التي عرضها وبسطها بأسلوب بليغ ، لا ينظر فيه ناظر عاقل منصف الا كان مضطرا للايمان والتصديق .

« من اين سرق الحبشي ذلك الرأي السخيف ؟؟ »

بعد ما كتبت ما تقدم وجدت النص الذي سرقه الحبشي وتظاهر بانه رأيه الخاص الذي وصل اليه بتفكيره العبقري ، واراد ان يقدمه هدية للتربية العربية تبرعا منه دون ان يلتمسه ملتمس او يسأله سائل .

من حسن المصادفة اني بعد ما فرغت من كتابة الحلقة الثانية ، وذكرت فيها تأليف جوليان هكسلي الانكليزي Julian Huxley الذي اسماه Man Stands Alone اي الانسان يقوم وحده .) ورد العالم الامريكي كريسي مورسن Cressy Morrison بكتابة الذي اسماه Man Does Not Stand Alone الانسان لا يقوم وحده . ومعنى الاسم الاول ان الانسان مستقل بنفسه لا يحتاج الى اله يدبر شؤونه . ومعنى الرد عليه ليس الانسان قائما بنفسه ، بل هو محتاج الى خالقه . وقفت على ملخص لكلام هكسلي في مجلة البعث الاسلامي الهندية في الجزء الرابع والخامس من السنة التاسعة للدكتور وحيد الدين خان ، بعد ما لخص كلام المؤلف الانكليزي عاد عليه بالنقض واورد عليه ردا مفحما لعالم امريكي آخر اسمه (سيسيل بيس هامن . Cecil Bayce Hamann وسألخص كلام هكسلي ليتبين القارىء العربي ان الحبشي سرقه ليتحف به العرب ، ولم يذكر الرد عليه طبعا ، لانه سارق يقصد الهدم والتخريب . وهذا كلام هكسلي مختصرا بعد الترجمة :

ان الديانة لدى مفكري العصر الحديث لا تحمل قيمة ، بل وانها غريزة الانسان التي تدفعه الى تأويل هذا الكون . ان الداعي الى البحث عن التاويل ليس خطأ في نفسه ، غير ان قلة المعلومات هي التي دعت آباءنا الاولين الى ردود خاطئة تعبر عن الاله او الديانة ، والانسان الذي عثر على اخطائه القديمة في كثير من امور الحياة بفضل نهضته العلمية وتقدمه الثقافي بلغ اليوم الى موقف يستطيع فيه اصلاح اخطائه الفاحشة حول تاويل هذا الكون .

وبناء على هذا النوع من التفكير تصبح الديانة تاويلا غير حقيقي لحقائق غير ثابتة ، وبما ان الانسان كان محدود العلم والثقافة قديما لم ينجح في تاويل الوقائع والاحداث ، فاضطر الى اختراع فروض خاطئة باسم الدين ، ولكن قانون التقدم العلمي العام اخرجه اليوم من ظلمات الاوهام الى نور العلوم الحديثة ، فامكن له في ضوء المعلومات الجديدة ان يطلع

على حقائق الاشياء عن طريق التجربة والمشاهدة بدلا من ان يؤمن بعقائد لا صلة لها بالحقيقة اصلا . ولذلك فان الاشياء التي كانت نتيجة اسباب ما فوق الطبيعة في الزمن القديم اصبحت اليوم حقيقة ملموسة مصدرها الاسباب الطبيعية . وقد اثبت الاسلوب الحديث لدراسة الاشياء ان الايمان بوجود الاله لم يكن اكتشافا حقيقيا ، وانما كان ذلك تخمين العهد الجاهلي الذي قضى عليه نور العلم الحديث .

لقد اثبت (نيوتن) انه ليس هناك اله يحكم دورة الافلاك والكواكب ، كما ان نظرية (لابلاس) تصدق ان النظام الفلكي لا يحتاج الى اله يسيره بانتظام . وقد قام (داروين) و (ياسجر) باثبات هذا المبدأ في المجال البيولوجي . ان تقدم علم النفس ، وزيادة المعلومات التاريخية في القرن الحاضر ازاح الاله عن مقامه المفروض ليحكم الحياة الانسانية وسير التاريخ .

ان بطل هذه الثورة في عالم الطبيعة انما هو (نيوتن) الذي قدم نظرية ان الكون مرتبط بمبادىء غير قابلة للتغيير والحدوث . وهناك قوانين ثابتة تشرف على حركة الاجرام السماوية كلها . وظهر في الاخير كثير ممن قاموا بهذا التحقيق حتى بدا لهم ان جميع ما بين السماء والارض من الاحداث ، انما هي طوع اشارة لنظام خاص محكم يدعى باسم قانون الطبيعة (Law of nature) وهذا التحقيق يقضي طبعا على وجود اله قادر وراء هذا الكون قائم بتسيير نظام الكون الدقيق . واكثر ما يقال في هذا الصدد هو ان هناك الها حرك جهاز الكون مرة في البدء ، ولذلك كان الناس قديما يؤمنون باله كأول محرك للكون . ويقول (والتير) ان الاله يشبه في تكوين نظام الكون صانع الساعات الذي يركب الآلات الدقيقة في شكل خاص ثم يتركها للناس يستعملون ، دون ان تبقى له علاقة بها . وجاء (هيوم) فقضى على هذا الاله العاطل بقوله : انا رأينا الساعات تصنع ، ولكننا لم نر الاكوان تصنع وتكون ، فكيف يمكن لنا ان نؤمن باله قام بصنع هذا الكون .

تقدم العلوم الطبيعية وتوسعها مكن الانسان مما لم يكن يحلمه من قبل . فقد كنا لا نعرف حادثة كيف حدثت لعدم اطلاعنا على اوضاع الوقائع والاحداث ، ولكنها اصبحت اليوم شيئا معلوما لظهور اوضاعها . وأقرب لذلك مثلا ، وهو ان الانسان عند ما لم يكن يعرف كيف تطلع الشمس وتغرب ، كان يعتقد بوجود اله يامر بطلوع الشمس وغروبها . وهكذا نشأت فكرة قوة ما وراء الطبيعة التي كانت تحول كل شيء تجهل مصدره الى تلك القوة . ولكننا الآن حينما عرفنا ان طلوع الشمس وغروبها انما يحصلان بدوران الارض حولها لا تحتاج الى فرض اله ينظم طلوع الشمس وغروبها . وهكذا كل شيء كان مصدره غير معلوم ، وكان يحول الى قوة خفية اصبح اليوم نتيجة عمل القوى المعلومة ورد فعلها في ضوء دراسة العلوم الحديثة . كأن العلوم باسباب الاحداث الطبيعية قضى على حاجة فرض اله ، او قوة ما وراء الطبيعة التي كان الناس قد سلطوها عليهم . ان تسمية قوس قزح علامة الله فوق الشمس ظن خاطىء اذ كان ذلك ينشأ من انعطاف اشعة الشمس على المطر النازل .

رد العالم الامريكي « سيسيل بيس هامن » على هكسلي :

كيف يحتج هكسلي على مبدئه بمثل هذه الافكار ، يقول : ان كانت الاحداث تصدر من اجل اسباب طبيعية ، فلا شك ان قوة ما وراء الطبيعة لا تستطيع ان تكون مصدرها . وينبغي ان نبحث الآن عن الحجة التي عرضت في ضوء دراسة الطبيعة . وهي ان دراسة الكون تعطي فكرة ان الوقائع لا تحدث الا وفق مبدء الفطرة . اذن لا حاجة لتاويلها الى فرض اله ، لان المبدأ المعلوم انما هو دليل على وجود الوقائع والاحداث .

وقد رد على هذا النوع من الاستدلال احسن رد العالم الامريكي سيسيل بيس هامن (Nature is a Fact Not an Explanation) يعني ان مبدأ الفطرة حقيقة الكون ، وليس تاويل الكون . سلمنا انكم اطلعتم على مبدأ الفطرة ، ولكن الذي اطلعتم عليه ليس جوابا لتلك المسألة التي يحتج فيها بالديانة . ان الدين يعطي فكرة عن تلك الاسباب والعوامل التي تعمل عليها وراء هذا الكون . على حين ، الاكتشاف العلمي يتعلق بمسألة الكون وهيكله الخارجي . ان العلم الحديث يفسر لنا تفاصيل الاحداث فقط ، وليس هو تاويلها الحقيقي . ان العلوم الطبيعية كلها تدور حول الموجود وماهيته ، وهي لا تقدر على ان تبحث عن الموجود ، كيف ظهر الى حيز الوجود ولما ذا ؟؟ بالرغم مما يعلم الجميع ان علاقة التاويل ، انما هي بهذا الجانب الآخر .

ولكي نفهم ذلك جيدا اضرب لكم مثلا . كلنا يعلم ان فرخ الدجاج يتربى في جوف البيضة وبانكسارها يخرج الى العالم الخارجي . فكيف يحدث هذا الواقع ، وكيف تنكسر البيضة ويخرج الفرخ الذي لا يعدو ان يكون مضغة لحم ؟ . لقد كان الانسان يجيب على هذا السؤال قديما بان الله هو الذي يفعل ذلك ، ولكن اليوم بعد المشاهدة الآلية بدا ان مدة (21) يوما لا تكاد تتم ، اذ يبدو على منقار الفرخ شيء خشن مثل القرن الصغير ، وذلك هو الذي يساعد الفرخ على كسر البيضة ، والخروج منها . واما هذا القرن الصغير فيسقط بنفسه بعد ولادة الفرخ بايام .

هذه المشاهدة تكذب الوهم القديم بوجود اله يامر بخروج الفرخ لمن جاحدي الدين اليوم ، لان الآلة تبين لنا بكل وضوح ان هناك قانون 21 يوما يحدث خلالها كل ما يساعد الفرخ في خروجه من جوف البيضة ، ولكن ذلك مغالطة صريحة لا غير لان المشاهدة الجديدة تفسر لنا عدة حلقات الواقع ، وبعض اشكاله فقط ، دون ان توضح السبب الاصلي للواقع . ان الفرق الذي حدث بعد هذه المشاهدة الجديدة هو ان مسألة انكسار

البيضة ، انما توقفت على القرن الصغير الذي يحميه الفرخ . اما كسر الفرخ البيضة بقرنه فحلقة متوسطة للواقع ، وليس ذلك سببا له . فان السبب يتضح عند ما نعلم كيفية ظهور القرن على منقار الفرخ . وبعبارة اخرى ، يجب ان نبحث عن السبب الاخير الذي كان يعرف بحاجة الفرخ الى شيء خشن على منقاره للخروج من جوف البيضة . فامر المادة بان يظهر على منقار الفرخ كقرن صغير بتمام 21 يوما ثم يسقط بعد ولادة الفرخ بنفسه . فكأن المسألة تحولت من كسر البيضة الى خلق القرن. والمعلوم انه ليس هنا فرق نوعي في الحالتين كليهما . واكثر ما يسمى ذلك مشاهدة واسعة للحقيقة ، دون ان نسميه تاويل الحقيقة . كان الناس فيما مضى من الزمان ينسبون عمل عظم الغذاء وتحلله في الجسم الى الاله ، ولكن العلم الحديث اثبت ان ذلك نتيجة تأثير كيميائي ، فهل كان ذلك نفيا لوجود الاله ؟ ولي ان اسأل ، ما هي تلك القوة التي اوحت الى الاجزاء الكيميائية ان تبدي مثل هذا التأثير النافع ؟؟ . والغذاء عند ما يدخل المعدة ويمر بمراحل متعددة عن طريق نظام متحرك يبدو جليا ان هذا النظام المدهش الغريب ليس مصادفة من المصادفات، ولم يأت الى حيز الوجود بنفسه ، والحقيقة ان هذه المشاهدة تحتم الايمان بوجود اله يقوم باملاء ارادته على الخلق بواسطة قوانينه العظيمة التي خلق الحياة من اجلها .

وبذلك نستطيع ان ندرك حقيقة الاكتشافات الحديثة . ومما لا يسعنا انكارهو ان علم الطبيعة زاد من معلومات الانسان حول الكون ومشاهداته فيه ، انه استطاع ان يقدم له تلك القوانين الطبعية التي تحكم الكون وتحركه . واضرب لذلك مثلا وهو ان الانسان في قديم الزمان لم يكن يعرف عن المطر سوى انه ينزل من السماء ، ولكنه عرف الان جميع مراحل المطر التي يمر بها من بخار البحار يصعد الى السماء وينزل الى الارض امطارا ، ولكن هذه الاكتشافات كلها صورة للواقع ، وليست تاويل الواقع ، لان علم الطبيعة لا يعلم الانسان عن قوانين الفطرة كيف اصبحت قوانين ، وكيف هي مستمرة في عملها بشكل نافع في السماء والارض ، وبصورة صحيحة يقوم عليها اساس القوانين في علم الطبيعة . والحقيقة ان الطبيعة التي اطلع عليها الانسان فبدأ يدعي انه تمكن من اكتشاف تاويل . مثلا اذا سألت طبيبا عن لون الدم وقلت له ، لم يكون للدم على السؤال الحقيقي ، وتعبير خاطيء عن الحلقة الاخيرة للواقع .

ان الطبيعة لا تؤول الكون ، وانما هي في حاجة الى تاويل . مثلا اذا سألت طبيبا عن لون الدم وقلت له ، لم يكون لون الدم احمر ؟؟ يرد عليك فورا ، ان الدم يحمل كرات صغيرة حمرا ، وهي التي تسبب له لونا احمر . صحيح ، ولكن ما الذي جعل هذه الكرات الصغيرة حمرا ؟؟ . ان هذه الكرات تحمل مادة اسمها (هيمو جلوبين Haemoglobin) وعند ما تدفعها نبضات القلب داخل شبكة شعيرات الرئة الهائمة تتصل كل كرة منها بأوكسجين الهواء الجوي وتتحول الى لون احمر قان .

صحيح ، ولكن من اين جاءت هذه الكرات الحمر التي تحمل مادة (هيموجلوبين ؟؟ انها تتكون في الكبد . فهمت قولك ايها الطبيب ، وهو يثير الاستغراب بدون شك ، غير انني لم اتمكن من ان افهم ذلك القانون الذي يجعل الدم والكرات الحمر والكبد الى غير ذلك من اشياء كثيرة مما يحمله جسم الانسان مرتبطا في نظام دقيق لا يتخلف عن وظيفته في حال ما ؟؟ انه قانون الفطرة .

ما ذا تعني بقانون الفطرة ؟؟

ان معناه ، وظيفة القوة الكيميائية والطبعية الخرقاء . ولكن ما الذي يجعل هذه الطاقات الخرقاء تعمل عملها بوجه معلوم على الدوام وتدفعه الى مصير معلوم ، وكيف تنظم نشاطها بطريق يوحي الى طائر ليطير ، وسمك ليسبح ، وانسان ليظهر على مسرح الكون بمواهبه الخاصة وكفاءاته المدهشة ؟؟ . وانزعج الطبيب وقال :

لا تسأل عن هذه الحقائق ، فان عالم الطبيعة انما يخبرك عن شكل الواقع وكيفية وجوده في الكون ، ولكنه لا يستطيع الاخبار عن حقيقة الواقع وعن السبب الذي يدفعه الى حدوثه في ذلك الشكل .

ان هذا الحوار يكشف لنا القناع عن وجه الاكتشافات العلمية ، بالرغم مما اعطانا اياه علم الطبيعة من آلات ومرافق وزاد في معلوماتنا زيادة قيمة ، ولكنها لا تنوب عن (الدين) ولا تغني الانسان عنه في اي حال ، وانما هو في حاجة اليه في كل لمحة من حياته مهما تضخمت هذه الاكتشافات وتكدست العلوم الحديثة وتضاعفت ملايين الاضعاف مما هي عليه الان . وذلك لان هذه الاكتشافات تخبر بالواقع الموجود ، ولكنها لا تجدي علما بالسبب الاخير الذي يبعثه الى الوجود ومصدره الذي ينبع منه .

ان الاكتشافات التي تحملها العلوم الحديثة ، انما هي حلقة متوسطة للواقع والحوادث ، على حين الدين حلقة اخيرة لها . وكل شيء يريد ان يحتل محل الدين يجب ان يكتشف الشرح الاخير والكامل للواقع . واضرب لذلك مثلا :

اذا كانت هناك ماكينة مغطاة بغطاء نعلم عنها انها تتحرك فقط ، ولكن اذا رفعنا الغطاء عن وجهها نرى العجلة التي في خارجها كيف تتحرك بعجلة اخرى في داخلها . ثم تلك العجلة الصغيرة كيف تتحرك بقوة آلات كثيرة في داخلها . وهكذا نستطيع ان نطلع على جميع آلاتها وحركاتها ، ولكن ذلك لا يعني اننا كشفنا السر عن وجودها وصانعها . وهل الاطلاع على عمل ماكنة وآلاتها ، يعني وجدت بنفسها وبدون ان تكون وراءها يد صانعة ؟؟ .

كذلك اذا تسنى لنا ان نكشف بعض اسرار هذا الكون ، لم يتسن لنا ان نقوله ان الكون وجد بنفسه ، وهو مشتغل بوظيفته بدون ان تكون هناك يد خالقة قوية . وما اصدق قول (هربرت):

ان قانون الطبيعة ، انما يؤول وجود مظاهر الحياة الجميلة ، ولكنه لا يخبر عن تلك الحياة كيف وجدت . انتهى.

حاصل كلام جولين هكسلي

يقول هكسلي : ان الاقدمين كانوا جاهلين بحقائق الكون واسباب مبانيه ، فبحثوا عن تاويل يفسرون به تلك الحقائق والمسببات ، والبحث في نفسه لا يعاب عليهم ، غير انهم لما كان علمهم بأسرار الطبيعة قاصرا افترضوا ان هناك الها هو الذي يعمل تلك الاعمال ويظهر تلك المسببات ويوجدها بلا اسباب ، وظنوا انهم بذلك قد حلوا المشكلة . ولما ظهر العلم الحديث الذي اكتشف حقائق الكون وعرف لكل حادثة سببها لم يعد يعبأ بذلك الافتراض . وبعبارة اخرى ، ان الاقدمين كانوا يخافون من كل ظاهرة تبدو لهم فقدروا وجود الاله ونسبوا اليه كل شيء من شدة فزعهم . فاذا سمعوا الرعد يجلجل قالوا ، ان الله هو الذي خلق تلك الجلجلة ، واذا رأوا المطر ينزل قالوا، ان الله رأى حاجة الارض الى المطر فخلق المطر وانزله عليها. واذا رأوا البرق يلمع قالوا انه نور خلقه ، وتارة يخوف بهما الناس . واذا شهدوا زلزلة فسروها بان الله هز الارض بهم ليعرفهم قدرته . واذا رأوا قوس قزح ، قالوا ، هذه علامة الله فوق الشمس ، الى غير ذلك .

اما في عصرنا هذا ، فكل هذه الامور قد عرف منشأها وحقيقتها واسبابها،فلا حاجة بالناس الى افتراض وجود الاله. ثم نقل كلام والتر الذي قال : ان الاله يشبه في تكوين نظام الكون صانع الساعات الذي يركب الآلات الدقيقة في شكل خاص ثم يتركها للناس يستعملونها ، دون ان تبقى له علاقة بها.

قال محمد تقي الدين كاتب هذا المقال والعجب من هكسلي امام الملحدين في هذا العصر كيف نقل قول والتر ، مع انه ينقض مبداه ويأتي على بنيانه من القواعد ، لانه اثبت الصانع للساعات ، ثم زعم انها تستغني عنه بعد ذلك ، ولم يحسب حسابا لاختلالها وفسادها وحاجتها الى الاصلاح وادارتها وتسييرها ، ثم انها لا تخلد آلاف السنين ، بل يأتي عليها الفناء فيحتاج الناس الى ساعات جديدة ، ويزيد عدد المستعملين للساعات ، فاذا مات صانعها بقي من يخلق من الناس بعد موته بلا ساعات . وهذا اسفاف من القول ينزه عنه كل من عنده ذرة من العقل. وكيف تشبه السموات بكواكبها وشموسها واقمارها، والارض بحيواناتها ونباتاتها ، فضلا عن الذرة واجزائها التي اكتشفت في هذا العصر بنظام دقيق ، يستحيل ان يكون صنيعة الاتفاق ووليد المصادفة بلا خالق قدره بعلمه وحكمته وسيره بقدرته .

ثم نقل كلام (هيوم) الذي قال ، انه شاهد صانع الساعات يصنعها ، ولم ير صانع الاكوان يكونها ، فاين الحواس الاخرى غير البصر ، واين العقل الذي كرم الله به الانسان وفضله به على من سواه من الحيوان والنبات والجماد ، وبخر له به كل شيء ، وجعله سيدا مطاعا متصرفا به في غيره من المخلوقات . فالحمد لله الذي حسرم الجاحدين من نور العقل وفضحهم بهذه الاقوال السخيفة المتهافتة المتناقضة ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الظالمين .

بيان رد العالم هامن على هكسلي

المتبع هامن رده بان الطبيعة هي حقيقة ، وليست تفسيرا للحقيقة . ثم ضرب لذلك امثلة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . الاول ، الفرخ في جوف البيضة عند ما يتناهز ثلاثة اسابيع يخلق له ثقب القرن على منقاره فينقب به البيضة ويخرج ، ثم يزول ذلك القرن . فمن الذي خلقه وصوره من سائل في البيضة الى عظم ولحم ، واعطاه كل ما يحتاج اليه من ساقين يمشي بهما، وجناحين يطير بهما ، وسمع وبصر ومنقار ، وجهاز للتنفس ، وآخر للهضم ، وثالثا للتناسل الى غير ذلك من بدائع الصنع . ولما اذا لم ينبت له ذلك القرن الا عند ما احتاج اليه ليكسر به البيضة ، ثم لما ذا زال عنه بعد ان لم تبق له حاجة اليه ، فهل هذا كله وقع بدون قصد ولا تخليط على حد لغة الحبشي ولا منهاج ولا تدبير ولا علم ، وانما هو اتفاق ومصادفة ، فاين تذهبون ، وانى تؤفكون وتأفكون ، فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

المثل الثاني ، عظم الفناء . من المعلوم عند جميع الباحثين في نشأة الارض انها كانت في اول امرها غازا ، ثم اخذت تتجسم في ازمنة متطاولة . وحين كانت غازا ، كانت حرارتها اثنى عشر الف درجة مئوية كما حققه رئيس المجمع العلمي الفلكي الامريكي « كريسي مورسن » في كتابه (الانسان لا يقوم وحده » المتقدم الذكر ، واخذت تبرد بانقلاب الغازات الى امطار ، وتكتل مادة الارض وتجمدها في احقاب واحقاب . ولم يكن هنالك مجال لوجود الحياة فيها بأي شكل من الاشكال حتى بردت ، ثم دحيت وتميزت جبالها من سهولها واوديتها في المقدار القليل الذي هو اليابسة ، واستقرت البحور في اماكنها بعد الطوفان المتكرر الذي كان يغمر وجهها ، وحينئذ تهيأت لوجود الحياة فيها .

واتفقوا ايضا على ان اصل الحياة كلها واحد ، وهو ذرة لا ترى بالبصر ، ولكنهم عجزوا ان يعرفوا كيف تشأت هذه الذرة ، ومن اين جاءت امن داخل الارض التي كانت نارا حامية ، ام من كوكب آخر ، وكيف تنوعت الحياة من تلك الذرة الى انواع لا تعد ولا تحصى مختلفة الاشكال والحجوم

والطباع ، فمن الذي اوجدها ، ومن الذي نوعها ، وعين لكل نوع منها ما يصلح له ويلائمه على احسن وجه . ومن هنا تنتقل الى عظم الغذاء كل شيء يتصف بالحياة من انسان وحيوان ونبات،لا بد له من عظم وتعويض ، وذلك التعويض هو الغذاء، فان مادة الحي يتحلل جزء منها دائما ويستعاض عنه بتكون جزء جديد بواسطة الغذاء ، حتى قيل ، ان الحيوان عموما يتعدم في سبع سنين ويجدد بناء جسمه . وسواء اكان هذا كما قيل ام لا ، فالغذاء والهضم ضروريان لكل حي . وقد اكتشف العلم الحديث ان الجسم الحي مركب من عناصر مختلفة ، وكل ما يتحلل منها يعوض بمثله من الغذاء . وانتقال الغذاء من حاله كاللحوم والخضر والحبوب بالنسبة الى غذاء الانسان الى ان يصير لحما وعظما وعصبا وغضاريف وغيرها ، ثم الى ان يتحد كل عنصر بما يماثله في الجسم يمر بأطوار كثيرة دقيقة ، ويحتاج الى آلات ومعامل كيماوية ، كل منها يقوم بما يختص به في تناسق وتضامن مع الآلات الاخرى . وقد بسطت القول فيما ترجمته وعلقت عليه من كلام كريسي موريسن في رده على جوليان هكسلي الذي سرق الحبشي كلامه . ونشر في المقال السادس عشر تحت عنوان (دواء الشاكين وقامع المشككين) في الجزء الثاني من السنة الخامسة من مجلة « دعوة الحق » . في الفصل الذي عقده المؤلف المذكور للبحث في الهضم تحت عنوان (اكبر معمل في العالم) فارجع اليه ايها القارىء ان اردت تفصيل القول في الغذاء وهضمه ، والاستدلال بذلك على ان لهذا الكون مدبرا حكيما عليما . والحاصل ان نظام الهضم يدل على منهاج موضوع من قبل ، وتطبيق دقيق ناشيء عن علم وارادة وحكمة ، ولا يقبل العقل غير هذا ابدا .

المثل الثالث ، نزول المطر .

عوام الناس قديما وحديثا لايعرفون من حال المطر الا انه ماء ينزل من السماء لري الارض وانعاد ثمارها وحاصلاتها ، وهو مقدر بقدر ، وموقت باوقات تناسب حاجة الناس اليه . اما الباحثون فيعلمون ان المطر يتبخر من البحار بسبب الحرارة ويصعد الى الطبقات العليا من الجو فيبرد وينقلب ماء فينزل على الارض مطرا وبردا وثلجا وجليدا . وقد عرف الناس هذا منذ زمان قديم . قال ابو ذؤيب يصف سحابا .

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجج خضر لهن نئيج

قال العيني في شرح الشواهد : قاله ابو ذؤيب يصف به السحاب من قصيدة من الطويل . الضمير في شربن يرجع الى السحب ، وضمن معنى روين ، فلذلك وصلت بالباء ، وقيل شاذ . وترفعت اي توسعت . والشاهد في متى لجج ، فانها حرف جر هاهنا بمعنى من ، وهي لغة هذيل . ولجج جمع لجة ، وهي معظم الماء . ونئيج مبتدا ، ولهن خبره ، من نأجت الريح تئأج نئيجا تحركت ولها نئيج ، اي مر سريع مع صوت . انتهى .

يعني شربت السحائب من ماء البحر ثم ارتفعت من معظم ماء البحر وهي لجبه يسمع لمر الريح فيها صوت . وهذا يثبت ان العرب كانت تعرف ان اصل المطر من البحر . قال الخضري في حاشيته على ابن عقيل . والصبان في حاشيته على الاشموني: تزعم العرب والحكماء انها (اي السحائب) تدنو من البحر الملح في اماكن مخصوصة ، فتمتد منها خراطيم عظيمة كخراطيم الابل فتشرب من مائه بصوت مزعج ، ثم تصعد في الجو فيلطف ذلك الماء ويعذب باذن الله تعالى في زمان صعودها في الهواء ، ثم تمطره حيث شاء الله تعالى . انتهى . وقال المتنبي :

كالبحر يقذف للقريب لآلئا
ابدا ويبعث للبعيد سحائبا

وهذا يدل على ان المتنبي كان يعرف ان السحاب من البحر ، والمطر من السحاب . ومعرفة ذلك ليست جوابا عن سؤال ، لما ذا تبخرت البحار وصعد بخارها الى اعالي الجو ، ثم وزع نقط مطر او حبات برد ، او ثلج ، كل ذلك بقدر معلوم . ولما ذا ينزل في اوقات معلومة ولا ينزل في اوقات اخرى ، وما الذي جعل فيه الحياة بخلاف الماء الذي يبخره الانسان من ماء البحر فيصير عذبا صالحا للشرب ، ولكنه لا ينبت شيئا . وما احسن قوله تعالى في سورة الزخرف 9 ــ 11 (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذي جعل لكم الارض مهادا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون » .

المثل الرابع مناظرة الطبيب في حمرة الدم

وهي واضحة لا تحتاج الى تعليق . وما مثل الذي يكشف قوانين الكون ونظمه ، يقنع بذلك ويزعم انه بلغ الغاية في العلم باسرار الوجود وينفي ما عدا ذلك الا كمثل بدوي دخل السينما لاول مرة فرأى فيها اشخاصا يتحركون ويتحدثون ، ورأى فيها معامل ورجالا يشتغلون فيها، وبحورا وجبالا وغيرها من المناظر فتعجب منها كل التعجب ونفى ان يكون هناك احد قد صورها ورتبها واخرجها بتلك الصور . هذا على سبيل التقريب ، والا فان عجائب السموات والارض واحكام صنعها لا مناسبة بينها وبين السينما ..

هذا وموعدنا المقال الرابع حيث نذكر اقوال الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين في هذه المسألة ان شاء الله .

الدكتور تقي الدين الهلالي

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 4 -

التدين والالحاد في أوربا وامريكا

من الامور التي شاعت وذاعت عند ادعياء الثقافة والمعرفة والتجديد والعصرية وانتقلت منهم الى عامة الناس ان الاوربيين والامريكيين ، وخصوصا الولايات المتحدة ، التي تساوي اوربا في الرقي او تفوقها ، قد تركوا دينهم ونبذوه نبذ النواة ، او نبذ الحذاء المرقع بعد حصول الجديد ، كما يقول الحريري ، قالوا : وبذلك تمكنوا من ادراك العلوم الكونية وتسخيرها في مصالحهم السلمية والحربية وقطعوا شأوا بعيدا في المدنية والحضارة ، وتركوا الامم المتخلفة بسبب تمسكها بالدين ، وما يسمونه بالتقاليد العتيقة ، تركوها تغط في نوم ثقيل وتتخبط في جهالة عمياء ، وزعموا كما يزعم ريني الحبشي ان هذه الشعوب لا تنهض ولا تحيى وتسير في طريق الرقي الا اذا تركت الدين . وانا لا اتعجب من الذين يسمعون هذه الدعاية الاستعمارية الروحية فيتلقونها بالقبول والتصديق مثل ما اتعجب من الوفد المتعلمين في جامعات اوربا وامريكا من العرب وسواهم من الاسيويين والافريقيين الذين يرون هذه الدعاية ولا يكذبونها ، بل قد يشجعونها (وقد ، هنا للتحقيق) ويبثونها بأنفسهم ، فاما ان يكونوا قد ذهبوا الى اوربا وامريكا واشتغلوا باللهو واللعب والحصول على الشهادات ، ولم يهمهم شيء من احوال سكان تلك البلاد فلم يطلعوا عليها ، واما ان يكونوا قد اطلعوا على الحقيقة وكتموها واخبروا بخلافها تدليسا وغشا لشعبهم ، فهما خطتا خسف لا خير فيهما لمختار .

ومنذ اقمت في اوربا وخالطت اهلها ، اي منذ ما يزيد على ثلاثين سنة علمت علم اليقين ان الاوربيين متمسكون بدينهم ، وكثيرا ما يبلغ بهم هذا التمسك الى حد الغلو والتعصب . وقد شاهدت من ذلك حوادث عجيبة ، لست الآن بصدد ذكرها ، ولكن مناقشتي لريني الحبشي وشيعته من معاول الهدم والتخريب اوحت الي بفكرة جديدة ، وهي ان اعمد الى سفارات الدول الاوربية والامريكية التي بلغت اعلى مستوى في الحضارة فأوجه اليها سؤالا عن عدد المتدينين وعدد الملحدين من سكان بلدانهم . وقد حصلت الآن على جوابين رسميين من سفارتين لدولتين في مقدمة الدول الراقية . وهما سفارة الولايات المتحدة بالرباط وسفارة الجمهورية الاتحادية الالمانية في الرباط عاصمة المغرب . وقد ترجمت الجوابين باللغة العربية ، واصلهما محفوظ باللغة الاصلية . فدونكم ايها القراء الاعزاء جواب سفارة الولايات المتحدة الامريكية .

جواب مكتب الاستعلامات بالسفارة الامريكية بالرباط في 25 نوفمبر 1964 .

عزيزي البروفسور الدكتور تقي الدين الهلالي .

ارجو من فضلكم المعذرة في تأخير الجواب عن سؤالكم المتعلق بالحياة الدينية في الولايات المتحدة ، فان هناك امورا مستعجلة منعتني من مراجعة الاحصاء الذي التمستم معرفته .

تفضلوا فانظروا في الاحصاء اسفله تجدوا العدد الذي تهمكم معرفته .

مجموع عدد الاشخاص الذين اعلنوا عدم انتسابهم لاي دين في احصاء سنة 1960 ثلاثة ملايين ومائة وخمسة وتسعون الفا (3 195 000) من مجموع السكان البالغ عددهم مائة وتسعين (190) مليونا . والعدد الاكبر من هؤلاء ، هم بلا شك من المتوقفين اللا ادريين ، او غير المتمسكين بالمسيحية تمسكا عمليا ، لا من الملحدين المنكرين (لوجود الباري) .

المخلص مالكولم ماكونيل مساعد ملحق الشؤون الثقافية .

فاذا كان العلم والتقدم في المدنية لا يكون الا بترك الدين ، كما يزعم الافاكون ، كان ينبغي ان يكون عدد المتدينين في الولايات المتحدة الامريكية قليلا جدا ، وقد رأيتم ان عدد الذين لا ينتسبون الى الدين لا يزيد على واحد ونصف في المائة

تقريبا . واكثر هؤلاء ليسوا ملحدين منكرين لوجود الله ورسله ، ولكنهم مهملون ومتكاسلون ، فهذا الاحصاء الرسمي يكذب مزاعم ادعياء التجديد ويأتي على بنيانهم من القواعد فينهار بهم في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

جواب السفارة الالمانية

وقد طلبت من السفارة الالمانية بالرباط ان تخبرني بعدد الملحدين من سكانها ، فجاءني الجواب التالي ، وهذه ترجمته :
سفارة الجمهورية الالمانية بالرباط . في 11 فبراير 1965 .

سيدي الاستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي مكناس .
جوابا عن طلبكم ، لي الشرف ان اخبركم اسفله بالاحصاء الاخير فيما يتعلق باعداد الاقليات الدينية المختلفة في الجمهورية الاتحادية الالمانية .

1 ـ المسيحيون البروتستانتيون : 51،13 = 28.725.600
ثمانية وعشرون مليونا وسبعمائة وخمسة وعشرون الفا وستمائة وواحد وخمسون فاصلة ثلاثة عشر في المائة .

2 ـ المسيحيون الكاثوليكيون : 44،12 = 24.786.100
اربعة وعشرون مليونا وسبعمائة وستة وثمانون الفا ومائة واربعة واربعون فاصلة اثنا عشر في المائة .

3 ـ اليهود : 0،04 = 22.700
اثنان وعشرون الفا وسبعمائة وصفر فاصلة صفر اربعة في المائة .

4 ـ المسلمون واهل اديان اخرى : 4،05 = 2.272.100
مليونان ومائتان واثنتان وسبعون الفا ، واربعة فاصلة صفر خمسة في المائة .

5 ـ الملحدون الذين لا ينتمون الى اي دين ، اما اهالا وتهاونا ، واما ادعاء انهم احرار الفكر : 0،66 = 368.400
ثلاثمائة وثمانية وستون الفا ، واربعمائة وصفر فاصلة ستة وستون في المائة .

هذا على مقتضى الاحصاء السنوي الثابت في مكتب الاحصاء الاتحادي لسنة 1964 . هذا وارجو ان تكونوا دائما بصحة طيبة وثقوا ياسيدي الاستاذ بمشاعري الطيبة نحوكم .

« فسترنك سكرتير السفارة الاول »

فانت ترى ان الملحدين في الشعب الالماني الاتحادي اقل من واحد في المائة . وهؤلاء الملحدون ليسوا كلهم ينكرون وجود الله ورسله ، بل بعضهم لا يعترف بالكنيسة ولا يريد ان يخضع لها ويؤدي الضريبة الدينية الشهرية ولا يتزوج الا باذنها ، ولا يطلق الا باذنها ، ولا يدفن الميت الا باذنها ، فلذلك حرمتهم وكفرتهم .

اما القسم الآخر فيزعمون انهم احرار الفكر وينكرون الدين كله . ومجموع الطائفتين لم يبلغ واحدا في المائة . فأين ما يدعيه ادعياء التجديد ؟ ومن اين جاءتهم هذه العلوم ، بل الجهول التي علموا بها ان الدين ينافي الرقي والتقدم ، وان الانحلال من جميع القيود الاخلاقية والاباحية والفوضى والتحت والجبن والعبودية لداعي الشهوات وموت الارادة التي تنشج عن ارتكاب الدنايا ، وما اشبه ذلك من مساوىء الاخلاق هو الوسيلة الوحيدة للتقدم والرقي . فهذه الامم التي بلغت اوج المدنية والعلم والتقدم وذاقت ثمرة ذلك وسعدت شعوبها به متمسكة بدينها اشد التمسك ، ولم يمنعها ذلك من احراز ما احرزته من المراتب العالية والحياة السعيدة والعيش الرغيد . وسأستمر في هذه الطريقة ان شاء الله من توجيه الاسئلة الى سفارات الدول الديمقراطية الحرة التي بلغت الغاية القصوى في العلم والحضارة . اما الدول التي تفضل الحكم الدكتاتوري الاستبدادي فسأؤخر الكلام عليها الى حينه المناسب ، ولا اترك لربي الحبيب وامثاله متعلقا يتعلقون به ، ولا ملجأ يلتجئون اليه فيفتضح امرهم ويظهر مكرهم وينكشف دسهم . قال الله تعالى في سورة الانبياء 18 (بل نقذف بالحق الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) .

« اقوال الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين وآراؤهم في وجود الباري عز وجل وفي تدبيره للعوالم كلها » .

يقول محمد تقي الدين سأذكر المصادر في آخر ما انقله من كلام الفلاسفة . قال العلامة الاستاذ محمد فريد وجدي في دائرة المعارف له :

ولما كان الانسان لا يقف من معقولاته عند حد تألف بعض افراده من الفلاسفة والمفكرين فانكروا وجود الخالق ، وزعموا ان الكون قديم ، وان ليس فيه غير المادة وتواميسها الازلية الابدية ، وسرت تعاليمهم الى بعض الجهال فالحدوا بالله واستتبع الحادهم خروجا على نظام الخليقة ، وتعديا على حقوق الغير ، فتصدى الفلاسفة قديما وحديثا للرد على هؤلاء الملحدين . ولا بد لنا من ايراد الكثير مما قالوه في هذا الكتاب ليكون مرجعا يرجع اليه من يريد استعراض مواهب الحكماء في في هذا الامر الجدير بالعناية والنظر ، ثم نتبع ذلك بمذهبنا الخاص في هذا الباب ان شاء الله . ونحن قبل ان نخوض لجة هذا البحث الخطير نأتي على كلمات لكبار الفلاسفة في هذا الصدد فنقول . قال الفيلسوف اليوناني ابيكتيت :

(العقيدة بالله يجب ان تكون مستمرة كاستمرار التنفس) وقال الفيلسوف باسكال (الخالق كرة لا نهاية لها ، مركزها

في كل مكان ، ومحيطها ليس له مكان) وقال هو ايضا (كل شيء غير الله لا يشفي لنا غليلا) وقال شاتو بريان (لم يتجرأ على نكران الله غير الانسان) وقال لامنيه (الكلمة التي تجحد الخالق تحرق شفة المتلفظ بها) وقال هو ايضا (البحث عن شيء خارج عن الله هو البحث عن العدم المحض) وقال لوكورديو (الله هو الشمس الوحيدة التي تمد اشعتها الخالدة الموجودات) وقال فيو (الله عليم بكل شيء ، متصرف في كل شيء ، ومدبر لكل شيء ، ادارة الرب المطلق السلطة) وقال جوردان (الله هو الناموس الأزلي الثابت الذي تستمد منه الكائنات وجودها وترقيها) وقال هو ايضا (الله هو كل ما هوموجود) وقال كوتيه (الجمال في حقيقة ، معناه هو الله .

وفي دائرة معارف القرن التاسع عشر قال العلامة الاقتصادي برودون (الله هو الكائن الذي لا يدرك ولا يوصف، ومع هذا فهو ضروري) وكقوله (ان ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل ان تكشفه لنا عقولنا) ونقلت عنه ايضا قوله (اني لا اعرف الها ، لان ذلك من الامور الغامضة ، وقال (كل من يكلمني عن الله ، انما يقصدني في دراهمي او حريتي) ونقلت عنه دائرة المعارف ما هو اشد في الالحاد مما يدل ظاهره على ان الرجل شديد العداء لهذه العقيدة ، فلما انتشر هذا الجزء الذي يشمل لفظة (الله) ورأى اقواله ممثلة فيه كتب الى لجنة تحرير الدائرة يخبرها ، انه ليس ملحد بالله كما تدل عليه بعض الفاظه ، وانما هو يقصد ان رجال الدين يتخذون العقائد احابيل لصيد حطام الدنيا واستغلال عقول البسطاء ، فوافق ذلك ما روي عنه من العبارات المفيدة لايمانه) .

وقال لامارتين ان (ضميرا خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضي) ، وقال بيلوتان (الله هو الحياة العامة ، فهي الاصل والمرجع لكل حياة) وقال توريه (الله كل شيء ، وكل شيء هو الله)

بعد هذا يحسن ان نورد براهين اشهر الفلاسفة اقدمين ومحدثين على وجود الخالق ثم نتبعها برأينا الخاص فنقول : (براهين سقراط) سقراط فيلسوف يوناني كان عائشا قبل عيسى عليه السلام بنحو اربعة قرون . قال المسيو بوشيت في كتابه المسمى (التذكرة في تاريخ البراهين على وجود الخالق) قال : ان اعتقاد الافراد والنوع الانساني باسره في الخالق ، اعتقادا اضطراريا ، قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده .ومهما صعد الانسان بذاكرته في تاريخ طفوليته (كذا) . فلا يستطيع ان يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التي نشأت صامتة ، وصار لها اكبر الآثار في حياته . فقد حدثت هذه العقيدة في انفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا . ولا شك انها تحت تأثير الاغاني الامومية (كذا) والدروس التهذيبية الاولى قد نمت تدريجيا ، وزادت نموا في ادوار الحياة ، سواء بالدرس والبحث او بالتغييرات التي تحدثها الاحوال على ارق عواطفنا . وكل ما يحدث في طفولة الانسان يحدث نظيره بالضبط في طفولة الامم ، سواء اعتبرنا ذلك في اول الخليقة او درسناها في الازمنة القريبة منا حيث تجتمع قبائل وثنية ذات تقاليد خرافية على ديانة جديدة . ففي الحالة الاولى يرينا التاريخ الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة وحافظة للعالم ، وحاكمة بين الناس بالعدل ، تكافيء على الحسنة والسيئة ، سواء في هذه الدنيا او في الحياة المستقبلة .

في هذا الدور لم تظهر الشكوك باي مظهر من مظاهرها ، وعلى ذلك لم تك من حاجة تدعو الى ظهور البراهين المثبتة لوجود الله . وفي الدور الثاني ، لم تظهر الحاجة ايضا الى الاستدلال على وجود الخالق بالبرهان والعقل والفكر . والرجال الذين يتصدون لنشر هذه العقيدة جعلوها ارقى من ان يجادل فيها وايدوا دعاويهم باحداث المعجزات او بالانتصارات الباهرة .

من هذا القبيل كان في الازمنة المتقدمة زورووا ستر وموسى ومشرعو المصريين القدماء الخ . وقريبا منا عيسى ومحمد . ففي المسألة الخاصة التي تشغلنا اليوم لم تستفد البراهين على وجود الله شيئا من زورووا ستر ولا من موسى ولا من عيسى ولا من مشرعي المصريين . فقد اكتفى الجميع باعلانهم انهم رسل الله الى خلقه . وقد خلفهم عيسى ناهجا خطة الاسرائيلية (كذا) فقرر عقيدة وجود الخالق تقريره لامره لانزاع ، ولا يصح النزاع فيه . ولم يشك لحظة في ان هذه العقيدة يقول بها جميع الذين ارسل اليهم على السواء . اما محمد فقد بنى العقيدة بوجود الله ووحدانيته على انقاض العقيدة المشوشة بتعدد الآلهة التي كان يدين بها العرب ، والتي اخذ على عهدته مكافحتها ، ولكنه في مواعظه المختلفة لم يظهر بمظهر من يريد ان يعطي على هذه المسألة البرهان الدقيق . فقرر الحقيقة وطالب بالاعتقاد بها ، وامر منها بما امر ، وفرض فيها ما فرض ، ولم يظهر منه او لم يكد يظهر منه انه مال لسد حاجة العقل منها بطريق منطقي او جدلي . انتهى كلام المسيو بوشيت .

التعليق على كلام بوشيت

يقول كاتب هذا المقال محمد تقي الدين : يفهم من كلام العالم بوشيت ان الانبياء والرسل الذين جاءوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم لم يقيموا دليلا على وجود الله وربوبيته ، ولا على توحيده في الهيته ، وانما قرروا الحقيقة دون ان يقيموا عليها برهانا . اما محمد (ص) فقد اقام البرهان على توحيد الالهية والعبادة ، ولم يقم دليلا على وجود الله وربوبيته بالطريق المنطقي . وانا اقول ، ان القرآن قد اقام البرهان المنطقي على وجود الله وربوبيته لكل من سواه . قال الخازن في قوله تعالى في سورة الطور 35 ــ 36 (ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون.

ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون) قال ابن عباس، من غير رب خالق . والمعنى ام خلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق ، وذلك مما لا يجوز ان يكون ، لان تعلق الخالق بالخالق من ضرورة الاسم، فان انكروا الخالق لم يجز ان يوجدوا بلا خالق (ام هم الخالقون) اي لأنفسهم ، وذلك في البطلان اشد ، لان ما لا وجود له كيف يخلق ، فاذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بان لهم خالقا فليؤمنوا به وليوحدوه وليعبدوه .

وقال البيضاوي : ام احدثوا وقدروا من غير محدث ومقدر، فلذلك لا يعبدونه .

وقال محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره لهذه الآية . « الم تر الى الذي حاج » البقرة 258 ، اي جادل (ابراهيم في ربه) كيف اخرجه الطاغوت من نور نسبة الاحياء والاماتة الى ربه الى ظلمات نسبتهما الى نفسه (ان اتاه الله الملك) اي لان اتاه الله ، يعني ان ايتاء الملك ابطره واورثه الكبر فحاج لذلك ، او حاجة لاجله . وضعا للمحاجة التي هي اقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه الشكر . كما يقال : عاداني فلان ، لأني احسنت اليه . تريد انه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لاجل الاحسان ، ونحوه قوله تعالى في سورة الواقعة 82 (وتجعلون رزقكم انكم تكذبون) .

قال الحرالي : وفي اشعاره ان الملك بلاء وفتنة على من اوتيه . (اذ قال ابراهيم) حين سأله من ربك الذي تدعونا اليه (ربي الذي يحيي ويميت) اي بنفخ الروح في الجسم واخراجها منه (قال انا احيي واميت) اي بالقتل والعفو عنه . ولما سلك الطاغية مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء والظهور ، بحيث لا يخفى على احد ، والتصدي لابطاله من قبيل السعي في تحصيل الحاصل ، انتقل ابراهيم عليه السلام ، ارسالا لعنان المناظرة معه ، الى حجة اخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية ان يخرج عنها بمخرج مكابرة او مشاغبة او تلبيس على العوام . وهو ما قصه تعالى بقوله (قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) اي اذا كنت كما تدعي من انك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود ، في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته . فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فان كنت الها ــ كما ادعيت ــ فأت بها من المغرب (فبهت الذي كفر) تحير ودهش وغلب بالحجة ، لما علم عجزه وانقطاعه ، وانه لا يقدر عن المكابرة في هذا المقام (والله لا يهدي القوم الظالمين) اي لا يلهمهم حجة ولا برهانا . بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . انتهى

وقال تعالى في سورة الانعام 76 ــ 79 (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما افل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما افلت ، قال يا قوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا ، وما انا من المشركين . »

قال القاسمي في تفسير هذه الآيات : (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي) قال المهايمي : لما رأى ــ يعني ابراهيم عليه الصلاة والسلام ــ الملكوت ، وايقن ان شيئا منها لا يصلح للالهية، اراد الرد على قومه في اعتقاد الاهيتها لخستها ، باعتبار افتقارها في افعالها الى اجسام لها دناءة الافول وان كانت علوية ، وكذا في اعتقاد الاهية تلك الاجسام ، كما رد عليهم في اعتقاد الاهية الاصنام ، فلتظهر ظهور الكواكب التي كانوا يعبدونها . انتهى

وبالجملة ، فالآية بيان لكيفية استدلاله عليه الصلاة والسلام ، ووصوله الى رتبة الايقان . ومعنى (جن عليه الليل) ستره بظلامه . و (الكوكب) قيل ، الزهرة ، وقيل ، المشتري.

اقول ، (الكوكب) لغة ، النجم . قال الزبيدي في شرح القاموس : وكونه علما بالغلبة على الزهرة غير معتد به ، وانما هي الكوكبة بالهاء . انتهى .

قال الزمخشري : كان ابوه وقومه يعبدون الاصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد ان ينبههم على الخطأ في دينهم ، وان يرشدهم الى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم ان النظر الصحيح مؤد الى ان شيئا منها لا يصح ان يكون الاها، لقيام دليل الحدوث فيها ، وان وراءها محدثا احدثها ، وصانعا صنعها ، ومدبرا دبر طلوعها وافولها وانتقالها ومسيرها وسائر احوالها . وقول ابراهيم لقومه (هذا ربي) ارخاء للعنان معهم باظهار موافقته لهم اولا ، ثم ابطال قولهم بالاستدلال ، لانه اقرب لرجوع الخصم .

قال الزمخشري : قول ابراهيم ذلك ، هو قول من ينصف خصمه ، مع علمه بانه مبطل . يحكي قوله كما هو غير متعصب ، لمذهبه ، لان ذلك ادعى الى الحق ، وانجى من الشغب . ثم يكر عليه بعد حكايته ، فيبطله بالحجة .

(فلما افل) اي غاب (قال لا احب الآفلين) اي لا احب عبادة من كان كذلك ، فان الافول دناءة تنافي الالهية ، بل تمنع من الميل الى صاحبها ، فضلا عن اتخاذه الها او معبودا، فضلا عما يفتقر اليه .

(فلما رأى القمر بازغا) اي طالعا منتشر الضوء (قال هذا ربي) على الاسلوب المتقدم (فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) فان ما رأيته لا يليق بالالهية لدنائته ونحوه .

قال الزمخشري : وفيه تنبيه لقومه على ان من اتخذ القمر الاها ، وهو نظير الكواكب في الافول فهو ضال ، وان الهداية الى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه .

وفي (الانتصاف) : التعريض بضلالهم ثانيا اصرح واقوى من قوله اولا (لا احب الآفلين) وانما ترقى الى ذلك ، لان الخصوم قد اقامت عليه ، بالاستدلال الاول ، حجة فانسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الاول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون الى الاستدلال . فما عرض صلوات الله عليه بانهم في ضلالة ، الا بعد ان وثق باصغائهم الى تمام المقصود ، واستماعهم الى آخره . والدليل على ذلك انه ترقى في النوبة الثالثة الى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بانهم على شرك حين تم قيام الحجة ، وتبلج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود .

وقوله تعالى (هذا اكبر) اي اكبر الكواكب جرما ، واعظمها قوة ، فهو اولى بالالهية . وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من اظهار النصفة ، مع اشارة خفية الى فساد دينهم من جهة اخرى ، ببيان ان الاكبر احق بالربوبية من الاصغر .

(فلما افلت قال) صادعا بالحق (يا قوم اني بريء مما تشركون) اي من الاجرام المحدثة المتغيرة من حالة الى اخرى ، او من اشراككم .

(اني وجهت وجهي) اي وجه قلبي وروحي في المحبة والعبادة ، بل جعلته مسلما (للذي فطر السموات والارض حنيفا) اي مائلا عن الاديان الباطلة ، والعقائد الزائغة ، (وما انا من المشركين) .

ثم قال ، قال الرازي : تدل هذه الآية على ان الدين يجب ان يكون مبنيا على الدليل لا على التقليد ، والا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة البتة .

وقال تعالى في سورة الاعراف 54 (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ، الا له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين)

تلخيص واستدلال

لو اردت ان اورد من مثل هذه البراهين القرآنية شيئا كثيرا جدا لفعلت ، ولكني اقتصر على هذه النقول الاربعة واوضح وجه الاستدلال على الطريق الجدلي ليعلم من يقرأ كلام بوشيت ان القرآن لم يهمل الاستدلال على وجود الله تعالى ، وعلى كونه الخالق المهيمن على خلقه المدبر لجميع شؤونهم .

1 ــ آية الطور ، تقدم ان حبر الامة عبد الله بن عباس فسرها بقوله (ام خلقوا من غير رب خالق ، والاستفهام هنا انكاري ، فهو نفي لان تكون هذه العوالم المحكمة الصنع المتقنة وجدت من غير موجد يتصف بالربوبية ، وهي القدرة على التربية .

قال البيضاوي : الرب في الاصل مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء الى كماله شيئا فشيئا انتهى . وهذا هو الاستدلال بالمصنوعات الكاملة على الصانع الكامل . وقوله سبحانه (ام هم الخالقون) ينفي كون المصنوعات قادرة على صنع نفسها ، فضلا عن غيرها لما سبقها ويلحقها من العدم ، ولما يلازمها من التغير الذي اثبت لها جواز الوجود ونفى عنها وجوبه . وبهذا البرهان استدل جميع الحكماء على وجود الله تعالى واتصافه بصفات الكمال ، كما سترى ذلك صريحا في اقوالهم التي ننقلها بعد ان شاء الله .

2 ــ قصة ابراهيم مع نمرود ملك العراق ، فقول ابراهيم له في محاجته (ربي الذي يحي ويميت) معناه ، الذي اوجدني واوجدك واوجد جميع العالمين ، ورباهم بقدرته ونعمته ان بلغهم كمالهم وحفظه عليهم ، وهو المتصرف فيهم بالاحياء والاماتة ، واظهار الشمس واخفائها ، ومثلها جميع الطوالع . وكل ما سواه مصنوع فان ، ويستحيل ان يوجد شيء منه بدون صانع ، او ان يقوم بنفسه ويدبر شأنه . وهذه حجة الفلاسفة بعينها بطريق اللزوم ، وهو فيما يقول علماء البلاغة ابلغ من دلالة التصريح .

3 ــ استدلال ابراهيم واحتجاجه على قومه بطريق لطيف لانهم كانوا عبادا للاجرام السماوية ، فبدأ باصغرها في عين الرائي واقلها ضوءا وهو الكوكب ، وقال على سبيل الفرض ايتاسا للخصوم ودفعا لهم الى الامام (هذا ربي) فلما تغير النجم بالافول والاختفاء قال ، هذا لا يصلح ان يكون ربا ، اي صانعا ومدبرا ، لانه مصنوع ومدبر بفتح الباء . فلما طلع القمر وهو اعظم حجما وضوءا في اعين الناظرين قال مثل ذلك ، فلما تغير بالافول وظهر انه مصنوع ومسير قال ، لا يصلح ان يكون ربا . فلما طلعت الشمس التي هي اعظم ضوءا وحجما ، فضلا عما تعطيه من الحرارة والحياة باذن الله لما يتبعها قال مثل ذلك ، فلما اختفت وتغيرت قامت حجته عليهم فقال ، يا قوم ، اني بريء مما تعبدون ، اني وجهت وجهي بقلبي وكل حواسي ومشاعري للذي خلق تلك الاجرام السماوية والارض وسائر العوالم ، اذ لا يمكن ان تخلق نفسها ولا ان تسير نفسها ، بل هي متغيرة ، وتصرف غيرها فيها واضح . فالمتصرف فيها بالايجاد والامداد هو ربها ، وهو واجب الوجود وخالق كل شيء ، والحجة في قوله فطر السموات والارض ، استدلال بالصنعة على الصانع ، وهذا هو الطريق الجدلي المنطقي بعينه . ولا حاجة ان يكون على طريقة العجم ، لان اسلوب العربية يأباه ، والمعنى واحد .

4 ـ من سورة الاعراف ، اكد القرآن بلفظ (ان) والجملة الاسمية كون الله ، وهو علم على الباري ، ربا لجميع العالمين . ولم ذلك ؟ لانه خلق السموات والارض في ستة اوقات ثم استوى على العرش ، وتصرف في خلقه تصرف الصانع في مصنوعاته . وعلى قدر كمال الصنعة يكون كمال الصانع ، ثم اخبرهم بتصرفه في مصنوعاته واحتياجها اليه بقوله (يغشي الليل النهار) اي يغطيه به فيتعاقبان متصلا ، وهو الذي يسخر الشمس والقمر والنجوم ويديرها في افلاكها بغاية الاتقان ، ثم عقب ذلك بالنتيجة المطلوبة ، وهي قوله (الا له الخلق والامر) فله وحده الصنعة والابداع ، والتربية والتسيير ، وله وحده الامر القدري الكوني والشرعي ، تبارك وتعالى رب العالمين .

وهذا ايضا احتجاج منطقي كامل لايمتري فيه الا جاهل بالعربية او معاند .

خـــاتمـــــة

قد يخفى على العالم الفرنسي بوشيت وامثاله ، ان القرآن يرعن على توحيدين اثنين ، توحيد الربية ، اي توحيد الصانع المدبر مع ما يلزم من صفات كماله ، وتوحيد الالهية ، وهي العبادة ، وقد يغلط بينهما كثير ممن يدعي العلم ، او يدعي له من المسلمين ، فكيف بالاجانب ؟ ومن ذلك اتى مسيو بوشيت ، فظن ان محمدا صلى الله عليه وسلم ، انما خاصم المشركين واقام لهم الحجة على توحيد الالهية ، واهمل اقامة الحجة على توحيد الربوبية ، وقد علمت بطلانه .

وموعدنا المقال التالي لذكر اقوال الفلاسفة ، ان شاء الله.

الدكتور تقي الدين الهلالي

النمـلـــــة

(انظروا الى النملة فى صغر جثتها ، ولطافة هيئتها . لا تكاد تنال بلحظ البصر ، كيف دبت على ارضها ، وصبت على رزقها . تنقل الحبة الى مسكنها ، وتعدها فى مستقرها . تجمع فى حرها لبردها ، مكفولة برزقها مرزوقة بوفقها ، ولو فكرت فى مجاري أكلها ، فى علوها وسفلها ، وفى الجوف من شراسيف بطنها وما فى الراس من عينها واذنها ، لقضيت من خلقها عجبا ، ولقيت من وصفها تعبا) .

نهج البلاغـــة

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 5 -

يقول كاتب هذا المقال : قمت بزيارة للسفارة السويسرية فتلقاني الموظفون المختصون بكل حفاوة ولطف ، واقترحوا علي ان اقدم لهم السؤال مكتوبا ، فقدمته شاكرا لهم ، فجاءني الجواب التالي . وها انا ذا اتحف به القراء المؤمنين ، فاضعه تاجا على رأس هذه الحلقة من المقالات التي تفضح دعاة الهدم والتخريب المروجين للاباطيل الكائدين للاسلام ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . وهذه ترجمة الجواب .

السفارة السويسرية بالرباط في 15 مارس 1965

سيدي الاستاذ البروفسور الدكتور تقي الدين الهلالي .

جوابا عن رسالتكم المؤرخة ب 14 مارس 1965 وعلى زيارتكم التي قمتم بها ذلك اليوم لادارة السفارة . لي الشرف ان ابعث لكم بعد ذلك المطالب التي تهمكم نحو مختلف الاديان لسكان بلادنا المتجنسين بالجنسية السويسرية .

طبقا لاحصائيات 1960 :

1 ـ البروتستانتيون : خمسمائة وواحد وسبعون في الالف ..... ‰ 571
2 ـ الكاثوليكيون الروم : اربعمائة وثلاثة عشر في الالف ..... ‰ 413
3 ـ الكاثوليكيون المسيحيون : ستة في الالف .. ‰ 6
4 ـ الاسرائيليون : اثنان في الالف .. .. ‰ 2
5 ـ مجموع الاشخاص المختلفي الاديان ، والذين لا يدينون بأي دين : ثمانية في الالف ... ‰ 8

التوقيع سفير سويسرا ب ... فدشر

فتأملوا ايها القراء الاعزاء جواب هذه السفارة التي تمثل اعظم دولة بلغت الغاية في الديمقراطية والحرية ، مع ان سكانها لا يتجاوزون خمسة ملايين ، هم محافظون على حياد سلبي لا يشاركون في اي تكتل ولا يتحيزون الى اي جانب . وقد مضت عليهم مائت السنين لم يدخلوا في اي حرب منذ حرروا انفسهم بحد السيف ومضاء العزم من السيطرة النمسوية لم يستطع اي محارب بالغا ما بلغ ان يستميلهم الى مشاركته في حربه مع عدوه ، لا طوعا ولا كرها . ومن المعلوم ان هتلر كان مجاورا لهم ، بل محيطا بهم من كل جانب ، ولم يستطع ان يضمهم اليه مع احتلاله على جيرانهم جميعا ، وكذلك اعداء هتلر لم يستطيعوا جرهم الى جانبهم لانهم حافظوا على حيادهم بسلاحهم وعبأوا جيشهم الصغير وفرضوا التسوين في الاقوات واستعدوا لمحاربة اي فريق تبدر منه بادرة جرهم الى الحرب . هذا الشعب العظيم الحر كم عدد الملحدين من افراده اربعة في الالف ، على اعتبار اربعة منتمين اديان مختلفة ، واربعة كفرة ، هذا اذا بلغ الملحدون نصف العدد .

ومن خصائص هذا الشعب ان نساءه لا يشاركن في الانتخاب ، وفي ذلك عبرة لمن يدعي من الشعوب المتخلفة ان التقدم والرقي لا ينالان الا بمشاركة النساء في الانتخاب .

وقد حصلت على جواب في هذه المسألة سأتوج به هامة المقال التالي ان شاء الله فانتظروه ، وهذا الجواب من السفارة البريطانية في الرباط .

اقوال الفلاسفة في وجود الله عز وجل

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر : فليس لنا اذن ان نبحث عن ادلة وجود الخالق بطريقة دقيقة في الكتب المقدسة الهندية والفارسية والاسرائيلية والمسيحية والاسلامية . ومع ذلك ، فانا ان لم نصادف فيها برهانا منطقيا على وجود الخالق ، فلن يفوتنا ان نعترف بأن هذه العقيدة في تلك الكتب تعبر عن العلل التي تنبني عليها ، باعتمادها على اصل سبب الكون وغايته ، وهو الاصل الذي يعتبر بداية للبرهان الذي يدعى بالطبيعي الالهي . هذا البرهان الذي قال عنه الفيلسوف (كانت) انه

يستحق الالتفاف والاعتبار ، وانه اقدم البراهين واشيعها يلبس في الكتب المقدسة حلة ، هي الى ان تكون شعرية اقرب منها الى ان تكون فلسفية . ولكن يمكن ان يقال : ان هذا البرهان هو روح الايمان الذي اثر على عقول الجماهير واسس سلطة الداعين اليه ، وان لم يلحظ او يظهر تمام الظهور . انتهى

نقول : ليس يحط من قدر الكتب المقدسة ان لا يأتي فيها الدليل على وجود الخالق لانها حلة منطقية جدلية ، فان تلك الكتب انزلت لتؤثر على العقول من جهة ارقى من الادراك، ولذلك كان تأثيرها اكبر من تأثير الفلسفة التي تفتخر بالمنطق والعلوم الجدلية ، بل لو جاءت للامم بتلك الآلات الكلامية المصطنعة لما تعدى تأثيرها تأثير فلسفة ارسطو وافلاطون ، وليس هذا المقصود من ايحائها .

على ان القرآن الكريم قد اختص من بين الكتب السماوية بما يعتبر انه اصل ادمغ البراهين الجدلية . فقد قال تعالى (افي الله شك فاطر السماوات والارض) فانت ترى انه جاء في هذه الآية الكريمة بالاصل الذي استمدت منه اقوى البراهين وجودها ، وهي البراهين التي يعبر عنها الفلاسفة بالسببية ، فكأنه قال : اذا لم يكن اله ، فمن فطر السموات والارض .

وقد قرأنا في مجلد 1893 من مجلة كوسموس بحثا كتبه الاستاذ مومنيه يثبت به وجود الخالق ، فقال : « ان افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل ان الكون خلق اتفاقا بلا فاعل مريد مختار ، وان الاتفاقات المتكررة توصلت الى تكوين رجل ، فهل يعقل ان الاتفاقات او المصادفات تكون كائنا آخر مماثلا له تماما في الشكل الظاهر ، ومباينا له في التركيب الداخلي ، وهو المرأة بقصد عمارة الارض بالناس وادامة النسل فيها . قال ، اليس يدل هذا وحده على ان لهي الوجود خالقا مريدا مختارا ، يبدع الكائنات ونوع بينها ، وغرز في كل نوع غرائز ومنحه مواهب يقوم بها امره ، ويرتقي عليها» .

نقول ان هذا البرهان الذي ظن الاستاذ مومنيه انه اول من استلفت الانظار اليه ، مستمد من قوله تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فاذا لم يكن في القرآن براهين منطقية مبينة على اسلوب صناعي ، ففيه ارقى من ذلك كما ترى في قالب يستهوي المدارك والارواح معا . الا يرى القارىء معي ان قوله تعالى (ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون) ينطوي على اصول جمهور كبير من البراهين التي يسميها الكتاب منطقية او جدلية؟

قال اكسونوفون في كتابه (مذكرات اكسونوفون) قال سقراط لأريستوديم : قل لي يا اريستوديم ، ايوجد رجال تعجب بهم لمهارتهم ، وجمال صنائعهم ؟ . اريستوديم ــ نعم حقيقة . سقراط ، اخبرني عن اسمائهم . اريستوديم ــ اعجب في الشعر القصصي بهوميروس ، وفي المراثي بسفوكل ، وفي صناعة التماثيل بوليكنيت . ثم ذكر سائر الذين يعجب بهم من اهل الفنون كل واحد وفنه . قال سقراط : اي الصناع في نظرك اولى بالاعجاب ، الذي يخلق صورا بلا عقل ولا حراك ، ام الذي يبدع كائنات ذات عقل وحياة . اريستوديم ــ وحق جوبتير ، ان اولاهما بالاعجاب هو الذي يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياة ، اذا لم تكن هذه الكائنات من نتائج الاتفاق . سقراط ــ ولكن اي الكائنات اولى ان تعتبرها من نتائج الاتفاق او من نتائج الادراك ، التي غايتها ظاهرة ام التي منافعها مشكوك فيها . اريستوديم ــ من العدل ان اقول ، ان الكائنات ذات النفع هي اولى بان تنسب الى عمل الادراك .

سقراط ــ الا ترى ان الذي فطر الناس قد اعطاهم ما لديهم من الاعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فاعطاهم الاعين للنظر، والآذان للسمع ، وما ذا كانت تجدينا الروائح ان لم تكن لنا انوف . وهل كنا نشعر بمرارة المر ، وحلاوة الحلو ، ان لم تكن لنا السنة تميز بين هذه الطعوم ؟ ثم الا ترى من دلائل التبصر والحيطة ان تكون الاعين لرقتها وسهولة تأثرها قد منعت بالاجفان ، تقفل ، وتفتح بالارادة ، وتتدلى على العينين وقت النعاس ، وقد حليت اطرافها باشبه شيء بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح ، وان الحواجب قد وضعت لتمنع تساقط العرق اليها . وان الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع الاصوات بدون ان تمتلي قط . الى ان قال ــ كل هذه الاعمال التي تدل على تبصر واحتياط الى اي شيء تعزوها ، الى الاتفاق ام الى الادراك . اريستوديم ــ لا وحق جوبتير ، ان هذه الاعمال اذا نظر اليها الانسان تدل على ان قد صنعها صانع يحب الكائنات الحية .

سقراط ــ وما ذا تقول في الميل المودع في النفوس للتناسل ، وفي الحنان المخلوق في قلوب الامهات للهيمنة على فلذات اكبادهن ، وفي الخوف الموجود في تلك الكائنات من العطب ؟ . اريستوديم ــ لا شك ان كل هذا يدل على انه اختراع كائن قرر خلق الحيوانات .

سقراط ــ اتعقل انك وحدك قد تحليت بعقل وادراك ، وانت كما تعلم لا تقارن بشيء من الوجود ، وان هذه المخلوقات كلها المتمتعة بادراك مثلك لا تحتاج لعقل يرتب علاقاتها ، ويقيم امرها على قاعدة النظام . اريستوديم ــ انا انكر ذلك وحق جوبتير ، فاني لا ارى ذلك الصانع كما ارى الصناع من الناس .

سقراط ــ انك لا ترى كذلك روحك التي تتسلط على اعضائك ، فهل تستطيع ان تقول ان جميع افعلك صادرة بلا عقل ولا ادراك ، بل بالاتفاق .

براهيـــن افلاطـــون

استدل افلاطون على وجود الخالق بالبرهان الذي يدعى بالسببي ، فقال في كتابه المسمى (تيمية) من البديهي ان كل حادث له سبب احدثه ، ولا يعقل حدوث شيء بلا سبب .

ومن المعلوم بالضرورة ان العالم حادث ، لانه مشاهـــد ومحسوس ومادي ، وكل هذه الصفات محسوسة فيه . ولما كان كل ما هو محسوس ممكن ادراكه بواسطة الحواس فهو حادث ومصنوع . فيكون الوجود ، وهو اجمل الاشياء الحادثة لـــه سبب احدثه ، هو اكمل الاسباب كلها .

براهيـــن ارسطـــو

ارسطو اشهر فلاسفة اليونانيين ، وهـــو تلميذ افلاطـــون (384 ــ 322) ق.م. قال في اثبات الخالق في كتابه المسمى (اثولوجيا . عقل واجب الوجود) ثم قال ان واجب الوجـــود هو عقل لذاته ، لانه مجرد عن المادة منزه عن اللوازم المادية ، فلا تحتجب ذاته عن ذاته . اما كونه عقلا لذاته ، فلأنه مجـــرد لذاته ، فهو يعقل ذاته ، ومن ذاته يعقل كل شيء ، فهو يعقل العالم العقلي دفعة واحدة من غير احتياج الى انتقال وتردد من معقول الى معقول ، وانه ليس يعقل الاشياء على انهـــا امـــور خارجة عنه كما نعقلها نحن ، بل يعقلها من ذاته ، وليس هو عاقلا وعقلا بسبب وجود الاشياء المعقولة ، بل الامر بالعكس ، اي ان عقله للاشياء قد جعلها موجودة ، وليس لـــه شـــيء يكمله ، فهو كامل بذاته مكمل لغيره ، ولمـــا كان هو لـــم يزل ولن يـــزال موجودا بالفعل فيجب ان يكون له من ذاته الامر ، الاكمـــل والافضـــل .

واجب الوجـــود لا يتغيـــر

ثم قال : ان واجب الوجود لا يتغير ، لان انتقالـــه عـــن حالته يكون الى الشر لا الى الخير ، لان كل رتبـــة هـــي دون رتبته ، وكل شيء يناله هو دون نفسه . ثم قل محمد فريـــد وجدي ما نصه : هذه اصول براهين الاقدمين في اثبات الخالق جل وعز . وقد نحا العرب نحوهم ، وحذا فلاسفة القرون الوسطى في اوربا حذو العرب ، فلم تزد البراهين على وجود الخالق على ما كانت عليه قبل عيسى عليه السلام بنحو اربعة قرون . فلمـــا ظهرت بواكر العلم في اوربا فتح على العقول ببراهين جديدة ، رأينا ان نلم بها على ترتيب حدوثها .

واول من جاء بشيء جديد فيها العلامة الكبير (ديكارت) الفرنسي (1596 ــ 1650 م)

ديكارت هذا حول وجهة الفلسفة وجدد قواعدها ، فبعد ان كانت مستقرة على مذهب ارسطو اقعدها على قاعدة العلم الصحيح المجرد عن الظنون والمسلمـــات ، فجعـــل اساس الفلسفة الشـــك ودليلها الوضوح والجلاء . وقـــد جرى في استدلاله على وجـــود الخالق على سنة لم يجر عليها احد ممن سبقه ، فجرد نفســـه من جثمانيته واخذ يبحث عن الحقيقة في اعماقهـــا لا في الوجـــود الخارج عنه ، ليصل الى الحق بذاته لا بوسائل خارجة عنه . فلم يسائل الوجود عن صانعه ، ولم يناج العوالـــم عن عللها ، بـــل اقتصر على نفسه ورغب ان ينكشف له ما غمض عليه منها هـــي وحدها دون سواها . فاعطى على وجود الخالـــق ادلة ثلاثـــة . كلها ادلة نفسانية .

اولها ــ قال اني مـــع شعوري بنقص ذاتي احـــس في الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة ، واراني مضطرا للاعتقاد بان هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال ، وهي الله .

ثانيها ــ قال ديكارت : اني لم اخلق ذاتي بنفسي ، والا فقد كنت اعطيها سائر صفات الكمال التي ادركهـــا . اذن انـــا مخلوق بذات اخرى ، وتلك الذات يجب ان تكون حائزة جميع صفات الكمال ، والا اضطرت ان اطبق عليها التعليل الذي طبقته على نفسي .

ثالثها ــ قال ديكارت : ان عندي شعورا بوجـــود ذات كاملة ، لا يفترق في الوضوح عن شعوري بان مجموع زوايـــا اي مثلث تساوي زاويتين قائمتين . اذن فالله موجود .

ثم ذكر محمد فريد وجدي طريقة ديكارت في الاستدلال واطال في بيانها الى ان قال فيما نقله عنه : ان لفظـــة (الله) ان لفظت بها ، فانما اعني بها هيول لا نهاية لها ازلية دائـــة مستقلة عالمة بكل شيء ، وقادرة على كل شيء . وانـــي انـــا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها وناتجة منها . وهذه معارف جمة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقادا بأني لم استنبط الشعور بوجود الله من ذاتي وحدها ، وعليه فيجب ان استنتج من ذلك ان لله وجودا مستقلا ، وان شعوري بوجود هيولي غير متناهية لا يمكن ان يكون اصله في ذاتي انا ذلك الكائن المتناهي ، بل غرست في ذاتي من قبل هيولي غير متناهية في الحقيقة .

تعليقـــات

١ ــ يقول محمد تقي الدين : قول دائرة معارف القرن التاسع عشر : فليس لنا اذن ان نبحث عن ادلة وجود الخالـــق بطريقة دقيقة في الكتب المقدسة . الخ .

فيه نظر كما بين من قبل ، لان اذا اردنا ان القرآن ، وهو احد الكتب المقدسة ، لم يسلك في البرهنة سبيل المنطق اليوناني الشكلي ، فذلك صحيح . واما اذا قيل ان القرآن لم يتعرض لاقامة البرهان على وجود الخالق اصلا ، فليس بصحيح ، لان القرآن قد استدل بوجود الاثر البديع على الخالق المبدع في آيات لا تعد ولا تحصى ، فبرهان (ديكارت) مثلا على وجود الله تعالى موجود في القرآن . قال تعالى في سورة الذاريات 20 ــ 21 : (وفي الارض آيات للموقنين . وفي انفسكم افلا تبصرون) . قال البيضاوي في تفسير الآيتين : (وفي الارض آيات للموقنين) اي فيها دلائل من انواع المعادن والحيوانات ، او وجوه دلالات من الدحو والسكون ، وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف اجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع ، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وارادته ووحدته وفرط رحمته . (وفي انفسكم) اي وفي انفسكم آيات ، اذ ما في العالم شيء الا وفي الانسان له نظير يدل دلالته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الافعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة . (افلا تبصرون) تنظرون نظر من يعتبر . انتهى

هذا ما انكشف للمفسرين في زمان البيضاوي من البراهين الدالة على وجود الله وربوبيته وتدبيره للعالمين في الارض وفي الانسان نفسه . وقد انكشفت بعد ذلك للعلماء المفكرين آيات وتفصيلات هي اعظم دلالة ، واعلى برهنة على وجود الله تعالى . آخرها الذرة وما يدور حولها من الالكترونات . اما ما في الانسان من الآيات التي انكشفت لديكارت وجعلته يوقن بوجود الله تعالى ، فقد انكشف للعلماء بعده اسرار هي اعظم واوضح مما انكشف له هو ، وسأذكر بعضها ان شاء الله في المقالات الآتية ليعلم ريني الحبشي ومن يفرح بتفيقه من الذين استهوتهم الشياطين بوساوسها فأصبحوا حيارى ان ريحه لاقت اعصارا ، وان الحق لا يعدم ، ــ حتى في هذا الزمان ــ انصارا .

ومثل ذلك قوله تعالى في آخر سورة فصلت : «سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق . »

هذه السورة مكية نزلت على النبي (ص) وهو واصحابه يلاقون الامرين من اذى المشركين . والسين للتنفيس تدل على حدوث الفعل في المستقبل ، اي سيرى الله اولي الالباب اهل العلم والمعرفة من الآيات الدالة على وجوده وتدبيره للعالم بأسره في آفاق الارض والسموات على مرور الزمان ما لا يبقي ريبا ولا شكا في نفس اي طالب للحق ، وسيرى الله اهل العلم والمعرفة في اسرار خلق الانسان آيات واضحات تكشف لهم الحق ولا تبقي عندهم لبسا . قال القاسمي في تفسير الذاريات . انشد ابن ابي الدنيا في كتابه (التفكر والاعتبار) لشيخه ابي جعفر القرشي :

واذا نظرت تريه معتبرا
فانظر اليك ، ففيك معتبر
انت الذي تمسي وتصبح في
الدنيا وكل امروء عبر
انت المصرف كان في صغر
ثم استقل بشخصك الكبر
انت الذي تنعاه خلقته
ينعاه منه الشعر والبشر
انت الذي تعطي وتسلب ، لا
ينجيه من ان يسلب الحذر

وهناك آيات في هذا المعنى كثيرة ، فالعجب من قولهم ، ان القرآن لم يقم برهانا عقيب على وجود الله وتصرفه في خلقه .

2 ــ كل من له عقل ينتزه به عن ردك الحيوان الاعجم ، وتأمل مناظرة سقراط لأريستوديم يرى ان القول بالاتفاق والمصادفة غباوة عظيمة ، او مكابرة تزري بصاحبها وتنزل به الى اسفل سافلين .

3 ــ العلمون للارواح اطباء القلوب المرشدون للشعوب المخرجون الامم من الظلمات الى النور هم الانبياء ، لا الفلاسفة ، لان الانبياء مرسلون من الله لاصلاح العباد واقامة الحجة عليهم ، ومؤيدون بروح منه . اما الفلاسفة فقد امتازوا بعقول كبيرة تغوص في بحور الافكار فتستخرج درر المعرفة وتعرضها على طلابها ، ولا يلتزمون اصلاح فاسد ، ولا تقويم معوج ، وليسوا معانين على ذلك ، لانهم لم يكلفوا به . الا ترى الى اريستوديم الذي كان سقراط يحاوره ، كيف يحلف بجوبتير ، ومعناه الكوكب السيار الذي يسمى بالعربية (المشتري) فان اليونانيين كانوا يعبدون الكواكب وينحتون لها تماثيل ويعبدونها ، ولم يستطع فلاسفتهم ان ينقذوهم من عبادة الاحجار حتى جاءتهم المسيحية فدانوا بها وتركوا اصنامهم . ولو كانت الفلسفة تقدم للارواح غذاءها وتنقذ النفوس من جهالتها وتربي الامم بالاخلاق العليا ، لكان الرسل المعلمون لدين الله الحق كلهم يونانيين . ونحن لا نسوق حجج الفلاسفة على وجود الله تعالى وتصرفه في خلقه لاقامة البرهان على صحة ذلك ، وانما نوردها حجة على من يزعم ان الفلسفة والبحث الحر يوجب على الباحث انكار وجود الله وتكذيب رسله ليعلم من لا يعلم ان الفلسفة ورجالها الاقدمين والمتأخرين براء مما ينسبه اليهم هؤلاء الجهال الكسالى .

ومن المعلوم ، عند اهل العلم والايمان ان الحلف بغير الله كفر وشرك كما جاء في الحديث الصحيح ، لان الحلف من العبادة ، كالدعاء والاستغاثة والنذر والذبح بقصد التعظيم ، والخوف بالقلب ، والاستعاذة ، والتوكل ، والخضوع بالقلب

الى غير ذلك من انواع العبادات المفصلة في كتب التوحيد . فالفلاسفة يثبتون توحيد الربوبية ويقيمون عليه الحجج الدامغة ويهملون توحيد الالهية والعبادة ، ولذلك لم يستطيعوا انقاذ قومهم من الشرك والوثنية .

4 — قوله : هي الى ان تكون شعرية اقرب منها الى ان تكون فلسفية ، ممنوع ، لان البراهين القرآنية التي اشرت اليها سابقا كقوله تعالى في سورة الطور (ام خلقوا من غير شيء) معناه كيف يعقل ان يخلق هذا العالم البديع الصنع المحكم من غير خالق عالم حكيم قدير منزه عن مشابهة الخلق ذلك محال ، لان وجود الصنعة بلا صانع لا يقبله العقل . وهذا بعينه ما توؤل اليه براهين الفلاسفة التي تقدم بعضها وسيأتي ان شاء الله ما ثرهـــا .

فان الاستدلال بالمصنوع على الصانع قياس حقيقي يقال فيه : هذا العالم مصنوع ، وكل مصنوع لا بد له من صانع ، ينتج : هذا العالم لا بد له من صانع . ثم يقال : هذا العالم محكم الصنع كامله ، وكل صنعة محكمة كاملة لا بد ان يكون صانعها كاملا ، ينتج (خالق هذا العالم متصف بصفات الكمال . ثم يقال : هذا العالم محتاج الى صانع ، وما احتاج الى صانع لا يكون صانعا ، لان فاقد الشيء لا يعطيه ، وذلك يدل على تنزه الله تعالى عن مشابهة المخلوق . والقياس الثالث توكيد وبيان، والا فهو من لوازم القياسين السابقين .

اما القياس الشعري فقد قالوا فيه (انه قياس مؤلف من مقدمات متخيلة) . والبراهين القرآنية الدالة على وجود الله تعالى وخلقه للعالم مقدماتها حقيقية بعيدة عن الخيال بعد الموجود من المعـــدوم .

5 — على ان قائل ذلك قد استدرك فقال عقبه مباشرة: ولكن يمكن ان يقال : ان هذا البرهان هو روح الايمان الذي اثر على عقول الجماهير ، واسس سلطة الداعين اليه . انتهى . وهذا اعتراف من الفلاسفة ان اقيستهم الجامدة العارية عن البلاغة والبيان لا تنفذ الى قلوب الجماهير ولا تؤثر فيها ، لانها لا تفهمها . والله سبحانه حين يرسل رسوله وينزل كتابه ، لا يرسله الى الفلاسفة وحدهم ، بل يرسله الى جميع طبقات البشر كما قال تعالى في سورة اقتربت (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) .

والمحققون من العلماء يعتقدون ان البرهان لا يحتاج الى مقدمات شكلية ، بل متى كان معنى المقدمات موجودا في اي عبارة بدون مغالطة يستنتج السامع والقارىء البرهان القاطع من تلك العبارة كيفما كانت . ومن تأمل محاورات الناس التي تجري بينهم في كل يوم يستطيع ان يستخرج منها جميع الاقيسة المنطقية . وانما وضعت الاقيسة المنطقية لتدريب المفكرين . يوضح لك ذلك ان الفرق المختلفة في العقائد كل واحدة منها تدعي ان الحق معها وتزن عقائدها بالميزان المنطقي وتستخرج النتائج المتفقة مع هواها . فاذا نظر فيها اللبيب يتبين له درها من مخشلبها وجيدها من زيفها ولا يروج عليه التمويه بالاقيسة الخطابية والشعرية والسفسطية . ومن نظر في المواعظ المروية عن المسيح عليه السلام في مجادلته لمعارضيه يرى كلامه موزونا بأدق الموازين المنطقية دون التزام اشكالها .

وتقدمت مناظرة ابراهيم الخليل عليه السلام لنمرود حين استعمل السفسطة فقال : انا احي واميت ، كيف جاءه بحجة دامغة لا تقبل المغالطة ولا السفسطة ، وهي قوله : (فان الله ياتي بالشمس من المشرق) الآية .

6 — قول ديكارت : ان لفظة (الله) ان لفظت بها فانما اعني بها هيولي لا نهاية لها ازلية دائمة مستقلة عالمة بكـــل شـــيء ، الخ .

قال محمد تقي الدين : الهيولي عند الفلاسفة هي مادة الكون التي منها تنشأ الصور والاشكال كالحيوان والنبات والجماد بجميع انواعها ، واذا فنيت هذه الاشياء تصير هيولى كما كانت من قبل ، وشبهها ابن عربي الحاتمي بالخشب ، بالنسبة الى الكراسي والموائد والواح الكتابة والمقاعد والاسرة والسفن والقوارب والبيوت الخشبية ، كل ذلك ، وان اختلفت صوره واسماءه فهو ناشيء من الخشب ، فمادته واحدة . وشبهها غيره بالبحر وامواجه ، فالامواج ، وان اختلفت بالكبر والصغر، فهي راجعة الى ماء البحر ، ويمكن ان تشبه بالشمع الذي تصنع منه تماثيل حيوانات من اشكال الحلوى يشتريها الصبيان في العيد يفرحون بها ، ثم ياكلونها . فالخشب هيولي الادوات والاواني التي تصنع منه ، وماء البحر هيولى الامواج التي تثور منه . والشمع هيولى التماثيل التي تصنع منه . وما قاله ديكارت في الهيولى قد سبقه اليه الفلاسفة الاقدمون من اليونانيين واليهود فأفضى بهم ذلك الى عقيدة وحدة الوجود ، فزعموا ان المخلوق هو عين الخالق — تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

واننا لم اسق كلام ديكارت وغيره من الفلاسفة موافقـــة لهم في آرائهم ، وانما سقته حجة على ادعياء الفلسفة من اهـــل هذا الزمان في زعمهم ان الفلسفة اوجبت عليهم الالحاد والتعطيل. واذا تأملت الدليل الثاني من ادلة ديكارت الثلاثة يتبين لك انه لا يقصد ظاهرة تلك العبارة ، بل ينزه الله عن مشابهـــة خلقه ويوحده ، ولا يقول بوحدة الوجود . وكذلك ما تقدم من كلام ارسطو يدل على تنزيه الله تعالى عن مجانسة خلقه .

هذا وموعدنا المقال التالي بحول الله .

مكناس : تقي الدين الهلالي

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

(6)

جواب السفارة البريطانية بالرباط عن عدد الملحدين في بلادها .

الرباط في 25 مارس 1965

سيدي استاذ الدكتور تقي الدين الهلالي .

بناء على زيارتكم ، أؤكد لكم في هذه الرسالة المعلومات التي اعطيت في مسألة الملحدين في بريطانيا العظمى . من دواعي الاسف ، انه لايوجد احصاء حقيقي في هذا الصدد ، الا ان الجمعية الانسانية البريطانية اعلنت في دعايتها الالحادية ان عدد الملحدين التابعين لها يبلغ عشرة آلاف في جميع البلاد البريطانية .

ثم قالت الجمعية : ان هذا العدد يرجح انه غير دقيق ، ولكن كثيرا من الناس لايصدقونها في هذا العدد .

ومن دواعي اسفي انني لا استطيع ان اساعدكم باكثر من هذا .

اما عدد سكان المملكة المتحدة حسب الاحصاء الاخير سنة 1961 فانه يقل بقليل عن 53 مليونا من النفوس .

وثقوا يا سيدي بعواطفي الطيبة نحوكم .

التوقيع : ا . ف . وارد

تعليق على هذا الجواب

والآن يا ريني الحبشي ، وياامن يروجون دعاية الالحاد المنتنة في البلاد الاسلامية والعربية الا تستحون، الا تخجلون ؟ ؟ فهذه البلاد البريطانية ؛ ولا يستطيع احد في الدنيا كلها ان يتردد في الشهادة لها بانها في مقدمة البلدان التي بلغت في المدنية اوجها ، وفي العلوم والاعمال والسياسة والحرب والسلم الغاية القصوى فهذه جمعية الالحاد فيها ، ومنها ـ طبعا ـ جوليان هيكسلي ، الذي سرق ريني الحبشي كلامه الاعرج وادعاه لنفسه ، تدعي أن عدد افرادها بلغ عشرة آلاف من مجموع 53 مليونا ، ثم لايصدقها الناس ، كما يقول الملحق الصحفي في السفارة البريطانية بالرباط . ولنفرض ، انها صادقة في دعواها . فما هي نسبة عشرة آلاف من ثلاثة وخمسين مليونا يا مسيو ريني الحبشي ومن يعمل على شاكلته من المتهوكين ؟

والدعاوي ما لم يقيموا عليها
بينات ابناؤها ادعياء

شهادة عالم انكليزي كبير وهو ارنولد توينبي
(Arnold Toynbee)

بينما انا افكر في كتابة هذه الحلقة ذكرت انني قرات كلاما مهما في الموضوع للعالم الانكليزي الكبير ارنولد توينبي في مجلة البعث الاسلامي الهندية اللكناوية بقلم الاستاذ ابي الحسن علي الندوي فاحببت انباءه هنا صفعة اضافية لريني الحبشي ومن لف لفه من المدلسين والغوغاء . نشر الاستاذ ابو الحسن الندوي في مجلته (البعث الاسلامي) مقالا قيما تحت عنوان « الاقطار الاسلامية والحضارة العصرية » الجزء السادس من السنة التاسعة تاريخ ذي القعدة 1384 الموافق مارس سنة 1965 م جاء فيه ما نصه :

ان مستقبل الانسانية يتوقف على اخوة روحية لايمنحها غير الدين ، وهو الشيء الذي يحتاج اليه النوع الانساني في هذا الوقت . الشيوعية تزعم انها تستطيع ان توحد النوع البشري ، كما ان الاسلام يثبت صلاحيته كقوة موحدة للانسان في افريقيا . المسيحية

ايضا تستطيع ان تلعب هذا الدور اذا عملت بمبادئها. ولكن القومية لاتستطيع ابدا ان توحد الانسانية ، بل انها توزعها وتشتت شملها . ومن اجل ذلك ليس لها مستقبل ، انها لا تستطيع الا ان تدفن الانسانية في ركامها .

انه يجب علينا ان نختار احدى النتيجتين في عصر الذرة واننا اذا اردنا ان ننقذ انفسنا من الهلاك والدمار ، فينبغي لنا ان نحتضن الانسانية كلها من غير استثناء ونتعلم كيف نعيش كاسرة واحدة . انتهى . نقل هذا الكلام من مجلة اسلامك رفيو ..

Islamic Review - Mars 1961

عود الى حجج الفلاسفة على وجود الباري وعموم ربوبيته سبحانه

براهين فنيلون

فنيلون من كبار فلاسفة القرن السابع عشر قال في كتابه « وجود الله وصفاته » :

انما علمت ببحثي في نفسي اني لم اخلق ذاتي؛ لان ايجاد الشيء يقتضي الوجود قبله ؛ فيلزم على ذلك اني كنت موجودا قبل ان اوجد ؛ وهو تناقض صريح . فهل انا موجود بذاتي ؛ فلاجل ان اجيب على هذا السؤال يلزمني ان اعرف ما ذا يجب ان يكون عليه الكائن الموجود بذاته . يجب ان يكون ازليا ثابتا لانه يكون حاصلا من ذاته على علة وجوده ، ولا يكون محتاجا لشيء من الخارج عنه . فكل ما يمكن ان ياتيه من الخارج لا يعقل ان يتحد به ولا ان يكمله ، لان الحادث المتغير لا يمكن ان يتحد مع الموجود بذاته الذي لايقبل التغيير . فالفرق بين هاتين الطبيعتين يجب أن يكون لانهاية له . اذن فلا يمكنهما ان يؤلفا مجموعا حقيقيا. اذن فالموجود بذاته لايمكن ان يزاد شيء على حقيقته ولا على رحمته ولا على كماله . فهو في ذاته كل مايمكن ان يكون ولا يجوز عليه ان يكون اقل مما هو عليه . فالموجود على هذه الحالة هو على ارقى درجات الوجود

بقي علي ان اسال هل الشيء الذي اسميه (انا) الذي يفكر ويعقل ويدرك ذاته هو تلك الذات غير المتغيرة ام لا ؟ ؟ . ان الشيء الذي اسميه (انا) بعيد جدا عن الكمال المطلق . فانا اجهل وانخدع واشك . ويكون احيانا هذا الشك الذي يعد نقصا من احسن ما يجب علي الاتصاف به . ومما هو اشد من ذلك اني قد اريد ولا اريد فارادتي تتذبذب ولا تستقر على حال، فتناقض نفسها بنفسها . فهل يصح ان اعتقد في نفسي الكمال المطلق ، وانا في وسط هذه التقلبات والنقائص ، في وسط هذه الجهالات والاضاليل غير الارادية ، بل والارادية ايضا . اذن فلست انا الكامل كمالا مطلقا ، ولست انا القائم بنفسي ، فلا بد اذن من قيوم اوجدني . واذا كان غيري اوجدني فلا بد انه يكون موجودا بذاته ، ويلزم من ذلك ان يكون كاملا كمالا مطلقا . فهذا الكائن القائم بذاته ، والذي انا قائم به هو الله .

وله برهان آخر مؤداه : اني وان كنت محدودا منتهيا ، الا اني احمل في ذاتي شعورا بلا نهاية وبكمال لاحد له . فمن اين حدث لي هذا الشعور الذي يعلو مداركي ويدهش لبي احيانا ؟ هل حدث من العدم ؟ لا شيء مما هو محدود يستطيع ان يبعث في هذا الشعور ، لان المحدود لايشعر بغير المحدود . ومما لا شبهة فيه اني لم اوجد لنفسي هذا الشعور ، لانني انا ايضا محدود ومتناه فلا مناص اذن من ان نستنتج من هذا ان الذي اوجد لي هذا الشعور هو الكائن الذي لانهاية لكماله ، وهو الله .

براهين بوسويت

بوسويت كان معاصرا لفنيلون المتقدم ذكره وهو فرنسي مثله . له برهان خاص به مؤداه : (ليس علينا الا ان ننظر الى انفسنا لنتحقق اننا صادرون من اصل رفيع . نرى انفسنا اهلا لان نفهم الاشياء وندرك الموجودات . وانها قد تجهل بعضها فنشك فيها ، او نرى الاحوط لها ان لانحكم عليها بحكم حتى نصل منها الى حقيقة ما ، وما ذلك الا لانها تعتقد ان بها نقصا يمنعها الوصول الى الحقيقة المطلقة . واذا كان في الوجود عقل ناقص يشك ويتردد ويجهل ، وهو مع ذلك موجود ، فمن باب اولى يكون موجودا عقل كامل ليس عقلنا منه الا قطرة من بحر او شعاع من شمس ؛ لانه مما لا يعقل ان تكون نحن وحدنا المتمتعين بعقل وادراك ، ويكون الوجود العظيم كله خاليا منهما اذ يقال انه اذا كان الوجود كله مكونا من مواد صماء عمياء لاعقل لها ولا ادراك ، فمن اين نشا للانسان هذا العقل والادارك ، وفاقد الشيء لايعطيه كما هو معلوم ؟ اذن فلا بد ان يكون في الوجود عقل مطلق وادراك لا حد له .

نقول ، هذا كلام جيد ، فان الانسان معلوم انه خلق من طين ، والطين لايعقل ولا يدرك ، فمن اين ينشا للانسان هذا الادراك ان لم يكن فوق طبيعة الطين طبيعة ارقى منها الادارك مظهر من مظاهرها. ولبوسويت برهان آخر فحواه :

كل ما هو ثابت في العلوم الرياضية وفي العلوم الاخرى يجب ان يكون من النظام الازلي الثابت . هذه الحقائق كانت ، وستكون على ممر الاحقاب حقائق مقررة ، ولو رآها الانسان في أي زمان وفي اي مكان لاعتبرها كذلك على الاطلاق ، لانه ليست حواسنا هي التي تريناها على هذه الصفة ، بل لانها هي في الواقع كذلك . ولو اتفق تلاشي الوجود كله وبقيت انا وحدي فلا ازال اتصور تلك الحقائق واعتقدها حقائق، وانها كانت حسنة نافعة . ولو زلت انا ايضا ، وزال كل عاقل في العالم ، فلم ينقص ذلك من قدر تلك الحقائق ، ولم يخرجها عن كونها كانت حقيقة ونافعة ، فاذا بحثت عن الذات التي تتركز فيها هذه الحقائق ازلية ابدية كما هي الواقع كنت مضطرا للاعتقاد بوجوب وجود كائن مستقرة فيه كل هذه الحقائق ومدركة لديه . وهذا الكائن يجب ان يكون هو الحقيقة بعينها ، بل منه تشرق الحقيقة ذاتها في كل وجود .

اذا تقرر هذا ، فمن بين الحقائق المقررة الازلية التي ادركتها حقيقة جليلة القدر ، وهي انه يوجد في العالم شيء موجود بذاته ، وهو ابدي لايدركه تحول ولا يعتريه تبدل . لانه اذا فرضنا انه كان وقت ليس فيه شيء مطلقا في العالم ، اي لاشيء قائم بغيره ولا شيء قائم بنفسه من القدم ، فلم يكن غير العدم ، والعدم لايصلح لايجاد شيء . فلا يصح ان يقال ان العدم حقيقة ابدية ، وان لاحق الى الابد الا العدم ، اذن فلا بد ان يكون في الوجود شيء كان قبل كل شيء فيه من الازل ، وفيه تركزت جميع الحقائق الكونية . وان تلك الحقائق الابدية التي تدرك بالنظر في الوجود بلا تحول ولا تبدل هي صادرة من الله ، او بعبارة احسن، هي الله نفسه ، لان جميع الحقائق الابدية ليست في الواقع الا حقيقة واحدة .

براهين ليبنتز

ليبنتز هو فيلسوف الماني مشهور (1646 – 1716) م ومصلح اسلوب علم الطبيعة وما وراء الطبيعة الذي قرره ديكارت المتقدم ذكره وبين الجهات الضعيفة منه احسن تبيين .

ارتضى من براهين ديكارت على وجود الخالق برهانه الذي رمى به الى ضرورة وجود كائن واجب الوجود . لليبنتز برهان جليل القدر على وجود الخالق اليك مؤداه . قال في كتابه (تيوديسيه) الله هو العلة الاولى لوجود الاشياء ، لان كل ما هو محدود ومتناه كل شيء تقع عليه انظارنا وتتأثر له مشاعرنا هو من الممكنات ، أي ليس بضروري الوجود ، فقد يوجد او لا يوجد ، وليس في احدها شيء يوجب له الوجود بذاته ، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها تستطيع ان تقبل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالي .

اذن يجب البحث عن الاولية لوجود العالم الذي هو مجموع هذه الكائنات الممكنة ، يجب البحث عنها في الهيولي التي تحمل معها علة وجودها ، فهي الواجبة الوجود والازلية . يجب ان تكون هذه العلة عاقلة ، لان الكون الموجود لما كان ممكنا اي قد يكون ولا يكون، وفي الامكان حدوث دنياوات اخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك ان تكون علة الوجود محيطة بعلاقات اجزائه قبل ان تتمكن من احداث دنيا جديدة فيه ، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل ارادة واختيار ، ولا شيء يجعل تلك الارادة فعالة الا القدرة التي لها هذه العلة الحكيمة يجب ان تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه وكاملة كمالا مطلقا من حيث القدرة والحكمة والرحمة ، ولما كان الوجود كله مرتبطا ببعضه ومفرغا في قالب واحد فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها .

براهين نيوتن

نيوتن اكبر علماء الفلك في عصره من الانجليز ، وهو يعتبر من العقول النادرة التي ظهرت في العالم (1642 – 1727) وهو مكتشف قانون الجاذبية العامة وغيره من القوانين الفلكية واساليب حلول مسائلها مما خلد ذكره في تاريخ النهضة العالمية . الذي يقارن بين مذهب نيوتن في اثبات الخالق ومذهب ديكارت الطبيعي الفرنسي المتقدم الذكر ، يجدهما على طرفي نقيض . فان الثاني كما رأينا اطرح جميع البراهين الحسية المنتزعة من الوجود واعتمد على البراهين النفسانية ، فجاء نيوتن على عكسه متخطيا البراهين النفسانية وغير معتمد الا على البراهين الحسية . ذلك لان بين الفيلسوف الانكليزي والعالم الفرنسي فرقا اساسيا في الوجهة والاسلوب وكيفية التفكر والتعليل والبرهنة .

فديكارت جعل التحقق من وجود ذاته ووجود الله قاعدة بناء فلسفته ، ومنهما تحقق من الوجود واستنتج نواميسه وخواص مادته قائلا : ان غرضي من ذلك تفسير المعلولات بعللها لا العلل بمعلولاتها .

ولكن الفيلسوف جعل قاعدة فلسفته النظر في خواص المادة ونواميس الطبيعة ، واستنتج من ذلك عقيدة وجود الخالق ومعرفة صفاته . ولم يتأثر اقل تأثر بذلك النفوذ الكبير الذي نالته فلسفة ديكارت على عقول معاصريه . فكان نيوتن يقول : كل ما لم يستنتج من حوادث الوجود يجب ان يسمى فرضا ، والفروض مهما كانت انواعها لاقيمة لها في الفلسفة الطبيعية . بهذا الاصل احدث نيوتن انقلابا عظيما في عالم العلم الطبيعي واهدى للعقول المتعطشة للحقائق احسن المدركات على الوجود ونواميسه ، فلما اشتهر ببعد النظر وقوة الاقناع ساله الناس من كل مكان ان يأتيهم بدليل على وجود الخالق يكون في درجة المحسوسات ، فاجابهم قائلا : لا تشكوا في الخالق ، فانه مما لا يعقل ان تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود ، لان ضرورة عمياء متجانسة في كل مكان وفي كل زمان لايتصور ان يصدر منها هذا التنوع في الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب اجزائه وتناسبها مع تغيرات الازمنة والامكنة ، بل ان كل هذا لايعقل ان كان يصدر الا من كائن اولي له حكمة وارادة . ثم قال : من المحقق ان الحركات الحالية للكواكب لا يمكن ان تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة ، لان هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لاجل ان تدور هذه الكواكب حول الشمس ان توجد يد الاهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها . ثم قال : ومن الجلي الواضح بانه لا يوجد اي سبب طبيعي استطاع ان يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة ، وعلى مستوى واحد بدون حدوث اي تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم انه لايوجد سبب طبيعي استطاع ان يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبا دقيقا مع مسافتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة تلك الدرجات الضرورية لان تتحرك هذه الاجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها . فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة في الاجرام السماوية المختلفة وادرك ما يجب ان يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن وجوبيتر والارض ، وقرر السرعة التي يمكن ان تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول اجسام تصلح ان تكون مراكزها .

اذن فمقارنة هذه الاشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين اجزائه ، كل هذا يشهد بوجوب وجود (سبب) لا اعمى ولا حادث بالاتفاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة

ثم قال : ليس هذا كل ما في المسالة ، فان الله ضروري ايضا ، سواء لادارة هذه الاجرام على بعضها وهو الامر الذي لا يمكن ان ينتج من مجرد قوة الجاذبة او لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق مع دورات الكواكب ، كما يرى ذلك في الشمس والكواكب وتوابعها ، على حين ذرات الاذناب تدور في كل وجهة على السواء .

ثم قال : وغير هذا ، ففي تكون الاجرام السماوية كيف ان الذرات المبعثرة استطاعت ان تنقسم الى قسمين ، القسم المضيء منها انحاز الى جهة لتكوين الاجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم . والقسم المعتم يجتمع في جهة اخرى لتكوين الاجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها . كل هذا لا يعقل حصوله الا بفعل عقل لاحد له .

ثم قال : كيف تكونت اجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولاي المقاصد وضعت اجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل ان تصنع العين الباصرة بدون علم باصول الابصار ونواميسه ، والاذن بدون المام بقوانين الصوت كيف يحدث ؟ ان حركات الحيوانات تتجدد بارادتها ، ومن اين جاء هذا الالهام الفطري في نفوس الحيوانات ؟

ثم قال : وهذه الكائنات كلها في قيامها على ابدع الاشكال واكملها ، الا تدل على وجود اله منزه عن الجسمانية حي حكيم ، موجود في كل مكان ، يرى حقيقة كل شيء في ذاته ويدركه اكمل ادراك ، الخ .

جاء في كلام العالم الفرنسي بوسويت ايضاح قوله : (او بعبارة احسن ، هي الله نفسه) لا يدل على انه يعتقد وحدة الوجود ، لكن جاء في كلام بعض الفلاسفة ما يوهم اعتقاد وحدة الوجود ، كما جاء في كلام اكثرهم ما هو صريح في بطلانها ، فكل ما جاء في كلامهم مما يدل على وحدة الوجود ، فانا اتبرأ منه واعتقد بطلانه ، وانما اوردته حجة على الخصم الذي ينفي كل شيء غير هذا الوجود الناقص المتغير المحتاج الى موجد ومدبر .

قول نيوتن (لا اعمى ولا حادث بالاتفاق) يعني ان السبب في وجود هذا العالم لا يجوز ان يكون

متصفا بالعجز ولا يجوز ان يحدث على سبيل المصادفة ، لانه واجب الوجود ، ووجوده من ذاته ، لا من غيره ، وهو متصف بالعلم الذي لا حد له ، وبالقدرة التي لاحد لها ، وبالارادة التي لا نهاية لها . فهذه صفات واجبة له يمتاز بها الصانع عن المصنوع قول الاستاذ محمد فريد وجدي (الذي يقارن بين مذهب نيوتن فى اثبات الخالق ، ومذهب ديكارت الطبيعي الفرنسي المتقدم ذكره يجدهما على طرفي نقيض ، الى قوله (ان غرضي من ذلك تفسير المعلومات بعللها لا العلل بمعلولاتها)

يقول محمد تقي الدين الهلالي : لم تظهر لي صحة ما قاله ، لان نفس ديكارت التي نظر فيها واستدل بها على وجود الله تعالى هي ايضا معلولة ، وليست علة ، لان العلة والسبب هو الله ، وما سواه معلول ومسبب . فالفرق بين العالمين فى الاستدلال على وجود الله تعالى ، هو ان ديكارت اقتصر على النظر فى بعض المعلولات ، وهي نفسه ، ومنها استنبط الدليل على وجود الباري بخلاف نيوتن ، فانه نظر فى جميع الموجودات ، وخصوصا الاجرام السماوية فاستنبط منها الدليل على وجود الخالق المدبر لها ، فليتأمل .

الرباط : الدكتور تقي الدين الهلالي

الثنـــاء بعـــد البـــلاء

قال الاحنـــف لزيـــاد حين قـــدم البصـــرة ، وخطب خطبته المشهـــورة :

« اصلـح الله الامير ! ان الجـــواد بشده ، وان السيف بحـــده ، وان المـرء بجده ، وان جدك قـد بلـــغ بك ما تـــرى ، وان الثناء بعد البلاء . ولسنا نثني عليك حتـــى نبتليـك ، فاول خبـــرا نثـــن بـــه .

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 7 -

جواب السفارة النرويجية

زرت السفارة النرويجية فتلقاني الموظفون بحفاوة واكرام وسألت الموظف المختص ان يجيبني كتابة عن عدد الملحدين من رعايا المملكة النرويجية فكتب الي بالانجليزية ما ترجمته :

بنا ءعلى طلب البروفسور الدكتور تقي الدين الهلالي نعطي المعلومات التالية على اساس كتاب الاحصاء السنوي للمملكة النرويجية سنة 1964 لسنة 1960 :

1 ـ مجموع السكان	3.591.234
2 ـ عدد الاشخاص الخارجين عن الكنيسة القومية	134.551
3 ـ عدد الاشخاص الذين لا ينتمون الى اي دين	22.413

الطوائف المتدينة غير التابعة للكنيسة القومية

1 ـ الكاثوليكيون الروم	7.875
2 ـ الارثودوكسيون اليونانيون	610
3 ـ الانكليكانيون	494
4 ـ طوائف انجيلية اخرى	1.054
5 ـ النظاميون	11.196
6 ـ طائفة من النصارى لا يعمدون الاالبالغين	9.315
7 ـ الادفينتسيون « السبتيون »	5.272
8 ـ طائفة من النصارى ، يسمون المهتزين	208
9 ـ اللوتريون اتباع الكنيسة الحرة	16.773
10 ـ جماعة جارليسبرك الاحرار	196
11 ـ جماعة الله	1.417
12 ـ جماعة المرسلين الالينيين	4.421
13 ـ الجمعية الانجيلية	438
14 ـ ارساليات اخرى متفرقة	453
15 ـ جمعية عيسى المسيح	496
16 ـ البنتكو ستاليون	34.122
17 ـ طوائف اخرى تلتزم التعميد بعد البلوغ	1.252
18 ـ الكنيسة الرسولية	375
19 ـ طائفة شهود جهوفا	4.188
20 ـ المسيحيون العلميون	134
21 ـ الموحدون	17
22 ـ المرمونيون « الذين يبيحون تعدد الزوجات	1.241
23 ـ طائفة يهودية	841
24 ـ طوائف دينية اخرى	3.458
25 ـ اناس خارجون عن نظام الكنائس السابق ذكرها	6.392

ختم السفارة ـ والتوقيع غير مقروء

فتاملوا ايها القراء المنصفون هذه النسبة الضئيلة من الملحدين فى تلك البلاد ، وفى ذلك الشعب الذي هو عريق فى الحرية والديمقراطية ، كل افراده

مطمئنون على حقوقهم وملتزمون لاداء واجباتهم ، يدلك على ذلك كثرة الطوائف الدينية مع قلة عدد سكان تلك البلاد الشاسعة المترامية الاطراف ، فقد سافرت من عاصمتها اوسلو الى مدينة نارويك في اقاصي الشمال مسافة الف ومائتي كلومترا ، لم ابلغ منتهى حدودها الشمالية ، حتى ان طائفة الموحدين وهم الذين يوحدون الله ولا يقولون بالهية المسيح ، ولا بانه ابن الله ، وانما هو بشر كسائر البشر اكرمه الله بالنبوة والرسالة ، لايزيد عددهم على سبعة عشر شخصا . والحكومة مع ذلك معترفة بهم ، وهم احرار في التمسك بعقيدتهم التي هي مضادة كل المضادة لعقيدة سائر افراد الشعب . ثم ان هذه الدولة كذلك من الدول العريقة في المدنية والحضارة . فاين ما يزعمه المخادعون لانفسهم ولشعوبهم من زعمهم ان شعوب اوربا لم تستطع ان تضرب بسهم في المدنية حتى تركت دينها واصبح اهلها كلهم ملحدين الا قليلا جدا . هذه دعاية اجرامية جاهلة كاذبة خاطئة ، كانت تروق للمستعمرين الماديين . والان يروجها المستعمرون الروحيون والغوغاء الجهال اتباع كل ناعق ، والمستهترون بالشهوات وفساد الاخلاق . وقد ظهر بما نقلناه وما سننقله ان شاء الله غشهم وكذبهم .

وقد سبقت الاشارة الى انني اؤخر الكلام على عدد الملحدين في البلدان التي ليس فيها حرية راي ولا حرية اعتقاد ولا غيرهما من الحريات ، اذ لا يمكن ان يعلم ما في ضمائر الناس الا اذا كانوا احرارا في التصريح بآرائهم واظهار عقائدهم غير خائفين على حقوقهم ان تفقد بسبب مخالفتهم لغيرهم من المواطنين المتعصبين .

عود الى سرد حجج الفلاسفة والعلماء على اثبات وجود الخالق سبحانه .

براهين كلارك

كان تلميذا وصديقا للعلامة نيوتن المتقدم ذكره ، وهو من اشهر فلاسفة الانجليز « 1675 – 1729 » قال في كتابه « اثبات وجود الله » :

لاجل ان اثبت وجود الله الفت نظر القارىء الى اننا نحمل في انفسنا فكرة على الابدية واللانهائية « يريد اننا ندرك ابدا لا اخر له ونهاية لا حد لها » وهي فكرة يستحيل علينا ان نلاشيها او نطردها عن عقولنا ، وهي صفات يجب ان يكون موصوفا بها كائن موجود .

كان كلارك يريد ان يقول : ان لم تكن الابدية واللانهاية موجودتين ، فمن اين حدثت في اذهاننا فكرة عنهما .

ثم قال كلارك ما مؤداه : لابد لنا من فرض ان شيئا وجد من الازل بدليل وجود الاشياء الان ، وهذا الفرض حقيقة لا شك فيها، لان كل موجود يجب ان يكون سبب اوجده او اصل قام عليه وجوده ، وهذه الاشياء ، اما موجودة بذاتها ، فهي اذن قديمة ازلية واما ان تكون موجودة بموجد تقدم عليها ، فيكون هو القديم الازلي .

ثم قال كلارك ما خلاصته : لا يمكن ان يكون هذا الوجود المادي مستقلا بنفسه ولا ابديا ، الا اذا كان هو واجب الوجود بذاته . ولكن مما لا شك فيه ان الوجود ليس هو واجب الوجود ، لانه سواء تاملت في شكله الظاهري مع قابليات اجزائه وحركاتها المختلفة ، او اعتبرت مادته التي هو مكون منها بدون التفات الى شكلها الذي هي ظاهرة به الان ، فلا ارى فيها الا آثار ارادة واختيار ، فمجموعها في جملته ، وكل من اجزائها في موضعه وحركته ومادته وشكله . وبالجملة كل ما فيه يظهر لي انه متعلق بغيره غير مستقل ، وبعيد من ان يكون موجودا بذاته . انا اعترف ان الوجود لاجل ان يكون صالحا يجب ان تكون اجزاؤه على الترتيب الذي هي عليه اليوم ، ولكني لا ارى ان ذلك الترتيب وجد بضرورة طبيعية ، وهي الضرورة التي يستند عليها الملحدون ويدافعون عنها.

براهين لوك

لوك فيلسوف انجليزي شهير قال في كتابه على العقل الانساني : انه لاجل اثبات الخالق لا نرانا في حاجة الا الى التامل في انفسنا وفي وجودنا ، فانه مما لا مشاحة فيه ان كلامنا يعتقد انه موجود ، وانه شيء من اشياء الوجود . اما الذي يشك في وجود نفسه فليس لنا معه كلام .

وانا نعلم ايضا ببداهة العقل بان العدم لا ينتج مطلقا كائنا حقيقيا . ومن هنا يظهر لنا بوضوح جلي وباسلوب رياضي بانه لابد من ان يكون قد وجد شيء في الوجود من الازل ، لان كل ما له بداية يجب ان يكون ناتجا من شيء تقدمه . ومما لا ريب فيه ان كل كائن

يكتسب وجوده من وجود غيره يستمد منه كل ما هو متمتع به من الخصائص والصفات . اذن فالينبوع الازلي الذي نتجت منه جميع الكائنات يجب ان يكون هو اصل جميع قواها ، فهو اذن قادر على كل شيء . وغير ذلك فان الانسان يرى في نفسه قوة على العلم ، فيجب ان يكون الاصل الازلي الذي نتج منه الانسان عالما ، لانه لا يعقل ان ذلك الاصل يكون مجردا عن العلم وتنتج منه كائنات عاقلة . ومما يناقض البداهة ان المادة المجردة من الحس تمتع نفسها بعقل لم يكن لها من قبل . فيجب بالبداهة ان يكون اصل الكون عاقلا ، بل لا حد لعقله ، وهو الله .

براهين فولتير

فولتير اشهر فلاسفة الفرنسيين واكبر كتابهم وبحاثيهم « 1694 – 1778 » تعزى الى تعالمه هو وروسو المبادىء التي اججت نار الثورة الفرنسية المشهورة ، وهو فوق ذلك يعتبر من العقول الكبيرة في العالم . قال في قاموسه الفلسفي ما يأتي :

ان الطريقة الطبيعية للوصول الى معرفة الله واكمل الاساليب الصالحة للمدارك العامة هو عدم قصر التأمل على نظام الوجود ، ولكن يجب مده على المقاصد التي خلق لها كل شيء . وقد انشاوا على هذه الفكرة اسفارا ضخمة، وكلها في الحقيقة يمكن ان تلخص في هذا البرهان وهو : اني اذا رايت ساعة يشير عقربها الى الاوقات المختلفة استنتج من ذلك بان لابد من ان يكون عقل قد رتب لوالب هذه الالة حتى استطاع العقرب ان يدل على الساعات دلالات حقيقية . وكذلك اراني ان تاملت في ءالات الجسم الانساني استنتج ان لابد من ان يكون عقل قد نظم اجزاءه واجهزته وجعله قابلا لان يتغذى في الرحم تسعة اشهر متوالية ، وانه قد متع باعين لينظر بها وباليد يتناول بها الخ .

من هذا البرهان وحده لا استنتج انا شيئا ، غير ان كائنا عاقلا صور المادة على ابدع الاشكال ، ولكني لا استطيع ان استنتج منه ان هذا الكائن خلق المادة من العدم ، وانه لا نهاية له من كل وجه . ولقد حاولت ان امثل بفكري هذه الافكار الاتية وهي : انا مخلوق لكائن اقوى مني ، اذن فيكون هذا الكائن موجودا من القدم ، وعليه فيكون قد خلق كل شيء ، وهو غير محدود بحد الخ .

بحثت لامثل هذه الافكار بذهني فلم اجد سلسلة الاستنتاج تؤدي الى هذه النتائج وغاية ما رايته اني تحققت انه يوجد شيء في الوجود اقوى مني ليس الا .

يكفي من مثل فولتير ، وهو ذلك العقل الثوري المستعصي ان يقر ويعترف بوجود شيء اقوى منه في الوجود خلقه واحكم صنعه ، ولو لم يكن هذا الاستنتاج من البداهة بالمكان المعهود لسمعت له صيحات ضد المعتقدين تصم الاذان ، يفخر الملحدون بها في كل مكان . وكم لفولتير غير ما قدمنا من كلمات تمينة واستهزاءات وجهها على الماديين الذين لا يرون في الكون الا نواميسه الصامتة .

فمما قاله في قاموسه الفلسفي ضد الماديين الذين يزعمون ان الكون خلق بالاتفاق المجرد ، وان اعضاء الانسان مثلا لم تخلق لتؤدي غرضا مقصودا ، ولكنها ادت هذا الغرض اتفاقا ، فقال فولتير حين بلغه هذا التهوس الفلسفي : ان الادعاء بان العين لم تخلق لنا لننظر بها ، ولا الاذن لنسمع بها ، ولا المعدة لنهضم بها ، بعد اقطع الغباوات العقلية وباكشف العمايات الجنونية التي تلم بالعقل الانساني .

براهين جان جاك روسو

روسو من اشهر فلاسفة الفرنسيين ، بل العالم كله ، هو صاحب نظرية العقد الاجتماعي المشهورة التي سار المشرعون والساسة عليها سنين طويلة ، ويعتبر اكبر مهيىء للثورة الفرنسية بما بثه في مؤلفاته من ايقاظ الهمم واحياء النفوس ، وتنبيه العواطف « 1712 – 1778 » بدا روسو في كتابه الاعتراف بالعقيدة بالادلال على ان المادة المحسوسة تكون تارة متحركة ، وتارة ساكنة ، واستنتج من ذلك انه لا الحركة ولا السكون صفة اصلية من صفاتها .

ثم قال : ولما كانت الحركة عملا فهي نتيجة سبب لو ارتفع حدث السكون بعدها . فاذا لم يؤثر شيء على المادة فلا تتحرك مطلقا ، وهي لا يعنيها ان تتحرك او تسكن ، والسكون هو حالتها الطبيعية .

ثم لاحظ روسو ان هناك نوعين من الحركة : حركة وقتية ارادية وحركة قهرية ءاتية من مؤثر خارجي ، والتمييز بين هذين النوعين من الحركة مؤسس على التجربة وشهادة الضمير . فقال بالحرف الواحد :

انك لتسالني من اين علمت بوجود حركة وقتية ، فاجيبك باني علمتها ، لانني احسست بها ، فاراني اردت ان احرك ذراعي تحرك في الحال بدون ان يكون لحركته سبب مباشر غير ارادتي .

ثم تساءل روسو عن الحركة المشاهدة في الوجود هل هي صادرة من سبب خارج عنه ، ام هي ارادية فيه . فقال : من المستحيل ان نفترض بانها ارادية فيه لان هذا الوجود المشاهد ليس في مجموعة الشامل ولا نظام آلي ، ولا حس عام كما يوجد بين اجزاء الجسد الحي . ومما هو محقق اننا ونحن جزء منه لا نشعر بشعوره الكلي . والوجود في حركاته المنتظمة المتلائمة الخاصة لقوانين ثابتة لا توجد له تلك الحرية التي تظهر في الحركات الارادية للانسان والحيوان .

فاستنتج روسو من ذلك ان الوجود ليس بحي في نفسه يتحرك بذاته وبارادته ، اذن فحركاته عاتية اليه من سبب خارج عنه .

ثم قال روسو بعد ذلك : ان التجربة والمشاهدة تكشفان لنا نواميس الحركة في الوجود . وهذه النواميس تعين نتائج الحركة ولا تعين اسبابها . فهي لا تكفي لتعليل نظام العالم وسير الوجود . ان ديكارت، قد كون السماوات والارض « بالكشتبانات » ولكنه لم يستطع ان يطبع في كشتباناته حركاتها الاولى ، ولا ان يضع قوة هذه الاجرام المبعدة لها عن المركز بالاستعانة بقوة دورة رحوية فرضها فيها . وقد وجد نيوتن ناموس الجاذبية العامة ، ولكن الجذب وحده يحيل الوجود كله الى كتلة واحدة لا حراك لها ، فلزمه ان يضيف على هذا الناموس قوة اخرى ، هي قوة الدفع لتطبع في الاجرام السماوية حركة تدبرها دورات انحنائية . ليقل لنا ديكارت اي ناموس طبيعي ادار له تلك الزوابع التي تكلم عنها . وليرنا نيوتن تلك اليد التي دفعت الكواكب لتجري على مماسات مداراتها .

فالوجود في راي روسو لا حركة ذاتية له ، وانما حركاته كلها مكتسبة من محرك خارج عنه يطبع فيه تلك الحركات على النحو الذي تطبع ارادتنا الحركات على اعضائنا المختلفة . ثم صعد روسو من السبب الطابع للحركة الى السبب المريد المختار فقال :

كلما امعنت النظر في الحوادث التي تحدثها قوى الطبيعة وما يقابلها من رد الفعل ، وتاملت في كيفية تاثير بعضها في بعض تحققت من الانتقال من نتيجة الى نتيجة بانه لابد من ان يكون السبب الاول متمتعا بارادة ، لان فرض تسلسل الاسباب الاولية الى ما لا نهاية هو كفرض عدم وجود اسباب اولية بالمرة . وبالاختصار كل حركة ليست نتيجة حركة اخرى ، لا تكون الا نتيجة عمل وقتي ارادي. ولما كانت الاجسام الجامدة لا تنفعل الا بحركات ، فلا يوجد عمل صحيح الا بارادة ، هذا هو الاصل الاول الذي اعتمد عليه . فانا اعتقد اذن ان ارادته تحرك الوجود وتحيي موات الطبيعة .

بعد ان اثبت الفيلسوف روسو من عرض حركات الوجود ان لابد انها صادرة عن قوة وارادة ، اخذ في اثبات ان هذه الارادة يمدها عقل وادراك فقال: ان التاثير والمقارنة والاختيار هي اعمال كائن مؤثر مفكر . هذا الكائن موجود . ولكنك ستقول لي اين هو ؟ فاقول : انه موجود ، لا في السموات التي يحركها ، ولا في الكوكب الذي يضيء علينا ، ولا في فقط ، بل يوجد ايضا في النجمة التي ترعى ، وفي الطائر الذي يطير ، وفي الحجر الذي يسقط ، وفي الورقة التي يستطيرها الريح . انا احكم بان في العالم نظاما ، وان كنت اجهل غايته ، لانه يكفي في الحكم على وجود هذا النظام المقارنة بين اجزائه ودرس مظاهر تضامنها وعلاقاتها وعرض نظامها وتلاؤم ابعاضها .

انا اجهل لماذا الوجود موجود ، ولكني لا اغفل النظر الى كيفية تغييره وملاحظة هذا التبادل الصميم الذي تتساعد بواسطته اجزاؤه ، فلنقارن بين غاياتها الخاصة ووسائلها وعلاقاتها المنظمة في كل ضرب من الضروب ، ثم لنسمع صوت ضميرنا الداخلي عن حكمه عليها ، فاي عقل سليم يستطيع ان يرفض شهادته لها . اي عين ليس عليها غشاوة لا يكشف لها نظام هذا الوجود عن انه صنع حكمة ليس فوقها حكمه عليها ، فاي عقل سليم يستطيع ان يرفض نظام هذه الكائنات والتضامن العجيب الذي بينها في حفظ مجموعها ، لا يوجد في هذا الوجود كله كائن لا يمكن اعتباره من بعض الوجوه انه وسط مشترك لجميع امثاله المحتفين به ، بحيث يظهر للناظر انها جميعا مقاصد ووسائل ، بعضها لبعض ، ان العقل ليرتبك اذا تامل في ان هذه العلائق التي لا تحصى بين

الكائنات لا تضيع منها واحدة ، ولا تختلط بغيرها في المجموع . فما ابعد تلك الفروض عن العقل ، تلك الفروض التي تزعم ان هذا النظام البديع المتلائم الاجزاء هو نتيجة الحركة العمياء المطبوعة في المادة بالاتفاق . ان الذين يجحدون وحدة القصد الظاهر في العلائق الموجوده بين جميع اجزاء هذا الودالعظيم ، انما يحاولون عبثا ان يخفوا سفسطتهم تحت ستار التجريدات ، والترتيبات ، والاصول العامة والعبارات الخالية ، مهما عملوا ، فمن المحال ان ادرك نظاما للكائنات مستمرا كما ارى ولا ادرك معه تلك الحكمة التي وهبتها هذا النظام . فلست انا الذي يستطيع ان يعتقد بان المادة الميتة تستطيع ان تنتج كائنات حية ، وان الضرورة العمياء تستطيع ان تخلق كائنات عاقلة. وان ما لا يعقل يستطيع ان يوجد كائنات مدركة .

اقوال بعض كبار العقول

قال العلامة هرشل الانجليزي من اكابر علماء الفلك في العالم كله : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق ازلي لا حد لقدرته ولا نهاية . فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم ، وهو في الواقع صرح عظمة الله وحده .

وقال العلامة العمراني الكبير هربرت سبنسر الانجليزي كما نقله العلامة « جون لوك » الانكليزي في كتابه ، ثمرة الحياة الذي نقله للعربية الفاضل حسن افندي رياض ، قال سبنسر : نرى من بين كل هذه الاسرار التي تزداد غموضا « تامل » كلما زاد بحثنا فيها حقيقة واضحة لابد منها ، وهي انه يوجد فوق الانسان قوة ازلية ابدية نشا عنها كل شيء .

وقال العلامة الطائر الصيت « لينيه » الفزيولوجي الفرنسي كما نقله عنه العلامة كامل فلامريون في كتابه « الله في الطبيعة » قال لينيه : ان الله الازلي الكبير العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء ، قد تجلى لي ببدائع صنائعه حتى صرت دهشا متحيرا ، فاي قدرة ، واي حكمة واي ابداع او دعه مصنوعات يده ، سواء في اصغر الاشياء او اكبرها . ان المنافع التي نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذي سخرها لنا ، كما ان جمالها وتناسقها ينبيء بواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجددها يقر بجلالته وعظمته .

وقال العلامة فونتنل في دائرة معارفه : ان اهمية العلوم الطبيعية لا تنحصر فقط في اشباع نهمة عقولنا ، ولكن اهميتها الكبرى هي رفع عقولنا الى خالق الكون وتحليتنا باحساسات الاعجاب والاجلال لذاته المقدسة .

تعليقات

1 – قول كلارك « ان الوجود ليس هو واجب الوجود ، لانه سواء تاملت في شكله الظاهري مع قابليات اجزائه وحركاته المختلفة ، او اعتبرت مادته التي هو مكون منها » .

هذا يبطل دعوى القائلين بوحدة الوجود الذين يزعمون ان الوجود واحد ، فاذا اعتبرت مادته وهيولاه سميته حقا ، واذا اعتبرت اشكاله الظاهرة سميته خلقا واذا اعتبرت اشكاله الظاهرة سميته خلقا . ويمثلون لذلك بالذهب وانواع الحلي والاواني المصنوعة منه ، فان كل ما صنع من الذهب ذهب يمكن ان يذاب ويرجع الى مادته وهيولاه . وكذلك الادوات الخشبية كلها خشب ، والاسماء التي جاءتها انما كانت بسبب الاشكال المحدثة ، وقس على ذلك سائر المواد ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . والحق كما قال كلارك ، ان هناك وجودين ، احدهما واجب ، وهو وجود الحق سبحانه ، والاخر ممكن ، فهو محتاج الى موجد يرجح وجوده على عدمه ويضمن بقاءه الى نهاية اجله . وهذا الوجود الثاني له مادة واشكال ، وكل ذلك محدث وجوده جائز غير واجب ومستمد من غيره غير قائم بنفسه . ووجود التجانس بين المادة والشكل يحتم ذلك . وادعاء ان المادة واجبة الوجود ، اي موجودة بذاتها ومستقلة بنفسها ، يخلاف الاشكال والصور باطل ، لتحتم وجود التضاد بين واجب الوجود القائم بنفسه وجائز الوجود الذي استمد وجوده من غيره .

2 – قول لوك «اننا لاجل اثبات الخالق لا نرانا في حاجة الا الى التامل في انفسنا » هو مثل قوله تعالى في سورة الذاريات « 21 وفي انفسكم افلا تبصرون »

3 – القوة الجاذبة التي اكتشفها نيوتن ، هي التي تربط بين الشمس وبين كل ما يدور حولها ويتبع نظامها من الكواكب ، ولكن هذه القوة الجاذبة محتاجة

الى موجد ومعدل يعدل جذبها حتى لا يستمر الى ان تلتصق الكواكب التابعة بمحورها فتصير معه كتلة واحدة .

وهكذا يقال في تابعية الشمس لجرم ءاخر هو اكبر منها كالشعرى مثلا ، فان القوة الرابطة بينهما تحتاج الى موجد يحفظ ابعادها وافلاك دورانها ويمنعها من التكتل والاختلال .

4 ـ قول روسو « لابد من ان يكون السبب الاول متمتعا بارادة » اقول : ولابد ان يكون متصفا بعلم غير محدود وقدرة غير محدودة ، وهذه بعينها الصفات الضرورية للخالق العلي العظيم . وما يسمونه بالطبيعة ونواميسها لا يتصف بشيء من ذلك فلا يصح أن يكون هو السبب الاول .

5 ـ قوله « وباي سفسطة يستطيع الانسان ان يجحد نظام هذه الكائنات والتضامن العجيب الذي بينها في حفظ مجموعها» اقول : يستطيع ذلك بسفسطة الجهل والاقتناع به واهمال نعمة العقل ، وبذلك يلتحق بالحيوان الاعجم « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ويستطيع ذلك بسفسطة التملص من الواجبات الخلقية والاجتماعية، والانغماس في حمأة الشهوات البهيمية مندفعا مع ماتسوله له نفسه من ارتكاب الموبقات ، والتدنس بالدنايا المخزيات .

انتظروا في المقال التالي جواب سفارة دولة السويد عن عدد الملحدين في بلادها وذكر شبهات الملحدين التي اوردوها في الاستدلال بزعمهم على التعطيل وجحود الخالق تعالى والرد عليها . وبالله التوفيق .

الرباط : الدكتور تقي الدين الهلالي

العلم وعدوله

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف القائلين ، وانتحال المبطلين ، وتاويل الجاهلين » .

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 8 -

جواب سفارة المملكة السويدية بالرباط عن عدد الملحدين في بلادها .

زرت السفارة السويدية غير مرة ، وفي كل مرة تلقاني الوظفون بالترحيب والاكرام ، وسألت الوظف المختص عن عدد الملحدين في بلادهم ونسبتهم الى عدد السكان ، فكتب الي ما ترجمته :

الرباط في 31 مارس 1965 .
سيدي الاستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي .

بناء على زيارتكم الاخيرة لسفارتنا ، لي الشرف ان اخبركم انه من سنة (1952 ــ 1964) يعني اثناء مدة (12) سنة .

مجموع عدد الذين تركوا كنيسة الدولة بالنسبة المائوية ، صفر فاصلة خمسة في المائة .

من مجموع السكان البالغ عددهم سبعة ملايين وستة اعشار المليـــون .

اما تفاصيل الطوائف المسيحية وعدد كل منها ، فاطلب معرفة ذلك من وزارة الشؤون الخارجية في استوكهلم ، ومتى حصلت على جواب فاتشرف بارساله اليكم .

وتفضلو يا سيدي الاستاذ بقبول عواطفي الممتازة نحوكم .
التوقيع **هيمنك كاد** ، المستشار بالسفارة .

من المعلوم ان الشعب السويدي في مقدمة الشعوب البالغة الدرجة القصوى في المدنية . ومع ان الشعوب السكندنافية كلها عريقة في الحضارة والرقي، ومن اقدم الشعوب اخذا بالديمقراطية والحكم النيابي . ومن مزاياها الاستقرار والطمأنينة والبعد عن الثورات والقلاقل وتطاحن الاحزاب المفرط ، فمن ذلك اخذها بالحكم الملكي الدستوري واغتباطها به ، وعدم المبالاة بالاضطرابات والانقلابات التي وقعت في جيرانها من الاوربيين. ويمكن ان يقال ، ان الشعب السويدي هو انشط هذه الشعوب واقواها ، فانه استطاع ان يحافظ على حياده في الحرب العالمية الاخيرة ، ولم يستطع هتلر ان يخضعه الى نفوذه ، فضلا عن احتلال بلاده ، ولا استطاع احد من اعداء هتلر الاقوياء ان يستليمه ولا ان يبسط عليه نفوذه ، وبذلك سلم من ويلات الحرب وبقي محفوظ الكرامة مرفوع الرأس ، لا يشاركه في ذلك الا الشعب السويسري والشعب الايرلاندي المستقل . ومن آيات الاستقرار في هذه الشعوب السكندنافية انني لما زرتها في السنة الماضية ، مع اني كنت حاصلا على سمات الدخول من سفاراتها الثلاث في الرباط لم يسألني احد عن جواز السفر الا حين وطئت قدمي ارض دانمارك بعد عبور بحر بلطيق في معدية من المانيا الشرقية الى دانمارك ، ومنها عبرت الحدود الى الاراضي السويدية ومن الاراضي السويدية الى الاراضي النرويجية، وقع ذلك مرارا وتكرارا ذهابا وايابا ، فلم يوقفني احد ولم يسألني احد ، لا في الحدود السويدية ولا في الحدود النرويجية، حتى كأن هذه البلدان الثلاثة بلد واحد .

وكل هذه الشعوب متمسكة بدينها اشد التمسك مع حرية الاعتقاد الواسعة التي يتمتع بها افرادها ، وقد رأيت ايها القارئ في الحلقة التي قبل هذه تدين الشعب النرويجي ، وانت ترى في هذه الحلقة ان عدد الملحدين الخارجين عن الكنيسة ــ بقطع النظر عن الاسباب التي دعتهم الى الخروج عليها ، وكثيرا ما تكون غير الالحاد، كالتزوج بين شخصين، احدهما كاثوليكي والاخر بروتستانتي وكالتأخر عن دفع ضريبة الكنيسة والالحاح المفضي الى الكفر بها ، لا بالدين نفسه الى غير ذلك من الاسباب، ومع ذلك لم يخرج عن الدين من سكان البلاد السويدية الا نصف واحد في المائة . فأين ما يتبجح به دعاة التحلل من قيود الاخلاق والمروءة الذين غلبت عليهم الطبيعة البهيمية فأهملوا عقولهم واخلدوا الى ارض الحيوان الاعجم واقتنعوا بالعيش للاكل والشراب والنوم وما اشبه ذلك من الغرائز التي يشاركهم فيها كل صاهل وناهق وعاو وخائر ، ومن هو اقل من هذه الحيوانات شأنا حتى يبلغ الامر الى الاميبات التي لا

تبصر بالعين المجردة (أرأيت من اتخذ الهه هواه ، افأنت تكون عليه وكيلا . ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم اضل سبيلا) ، الفرقان 43 ــ 44 .

شبهـــات الملحديـــن

تقدم ابطال شبهـات « جوليان هكسلـي » الفيلسـوف الانكليزي في المقالات الاربع والعشرين التي نشرت في مجلة دعوة الحق من الجزء الرابع ، السنة الثالثة الى الجزء الثالث ــ السنة السادسة . ثم عدت لنقل كلامه والرد عليه باختصار لما سرق كلامه « ريني الحبشي » وتبجح به عدت لذلك في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة ، ونشرت السلسلة الاولى تحت عنوان (دواء الشاكين وقمع المشككين) وهذه السلسلة تنشر تحـت عنوان (نقد مقال الوثـوق النفسانيـة للتخطيط) وفي كلتـا السلسلتين يؤخذ « ريني الحبشي » فيغل ويسلك ، ثم يعتل هو واضرابه الى سواء الجحيم ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهـم في الآخرة عذاب عظيم . وسنرى هنا شبهات سائر الملحدين والرد عليها وازهاقهـا بالبراهين العقلية القاطعـة والحجج الدامغـة بحول الله وقوته .

شبهـات الدكتور بخنـر الالمانـي

قال الاستاذ محمد فريد وجـدي رحمـه الله : من اكبـر الداروينيين الدكتور « بخنر » الالماني ، وقد اورد شبهات على الخالق ، نقلها عنه العلامة « كامل فلامريون » الفلكي الفرنسي في كتابه (الله في الطبيعة) منها انه لما كتب العلامة « أوستيد» قوله (ان الكون محكوم بحكمة ازلية تظهر لنا آثارها بواسطة القوانين الثابتة في الطبيعة) لم يرق قوله هذا في عين الدكتور « بخنر » فكتب يرد على « أوستيد » بما ياتي :

« لا يمكن ان يتصور احد ان تتفق حكمة ازلية مع نواميس طبيعية ثابتة . فاما ان تكون النواميس هي الحاكمة ، واما ان تكون الحاكمة هي تلك الحكمة الازلية . فاذا كانـت الحكمـة الازلية هي الحاكمة فلا لزوم لقوانين الطبيعة ، واذا كان الامر بالعكس ، وكانت النواميس الطبيعية هي الحاكمة ، فان ذلك ينفي كل تدخل سماوي . انتهى

قال « كامل فلامريون » عقب هذا : اتفق ان « بخنـر » هذا ناقض نفسه بنفسه ، واقام الدليل على فساد استشكاله وهو لا يشعر وذلك انه لما انتشرت الكوليرا في بـلاد الانجليـز ، واخذت تفتك بالناس فتكا ذريعا ، طلبت هيئة « الأكليروس » الانجليزي من اللورد (بالمرستون) وزير الدولـة اذ ذاك ان يدير امره ، بأن يصوم الناس يوما ليرفعوا فيه اكف الضراعـة الى الله بأن يزيل الكوليرا عن بلادهم .

فأجابهم اللورد ، بأن ملاشاة الكوليرا لا تتأتـى الا باتخاذ الوسائط الصحية ، وان لا دخيل للدعاء والعبادة في مثل هذا الحادث . فمدحه الدكتور « بخنر » هذا واثنـى عليـه في مقالة كتبها جاء منها : (كيف يظن ان المشرع الأقدس يخالف ما وضعه من النواميس والقوانين الثابتة بدعوات الداعين وبكاء الباكيـن) .

فانظر كيف ناقض نفسه بنفسه ، لأنه قال في رده على الاستاذ « أوستيد » : انه لا يمكن تصور وجود النواميس ثابتة متحدة مع حكمة ازلية . وهنا يستبعد ان الخالق الاقدس يعارض سير النواميس التي وضعها بنفسه وحكم بها مخلوقاته .

يلوح لنا ان الملحدين حين يهمون بالاشتباه على وجـود الخالق يمثلون في عقولهم تلك العقيدة على النحو التي هي عليه عند احط الناس عقولا .

يقول كاتب هذا المقال : هذه شبهة واهية ، بل مغالطـة جلية ، زيادة على كون « بخنر » تناقضت اقواله فأثبت وجود الخالق سبحانه في موضع ونفاه في موضـع آخـر ، يقال لـه ، أرأيت هذه النواميس التي تزعم انت انها تحكم العالم ، اهي واحدة ، ام متعـددة كما يـدل عليـه لفظهـا ؟ ثم ألها علـم وقدرة وارادة وخطة مرسومة ، ام هي عمياء صماء تعمل اعمالا دقيقة مختلفة موقتة مطردة بلا علم ولا قدرة ولا ارادة ولا خطة مرسومة ، فان قال ، انها متعددة عمياء لا علم لها ولا ارادة فقد ابطل زعمه ، لانها حينئذ تحتاج الى واضع خالق مدبر مسير كما اعترف به في الموضوع الآخر . ثم يقال له : اخبرنا عن هذه النواميس ، أهي أزلية ابدية ، ام محدثة ، فان قال انها ازلية كذبه ما تقدم من براهين الفلاسفـة والعلماء ، وان قال ، انهـا محدثة ، اورد عليه ما يلزم المحدثات من العجـز والافتقـار الى غيرها كما تقدم مبسوطا ، فلا حاجة الى اعادته . انظـر اقوال الفلاسفة في الحلقات السـابقة .

الشبهة الثانية « لبخنر » ايضـا

زعم « بخنر » ، ان عموم النظام في كل ما يدركه الانسان من الاجرام القريبة والبعيدة ، حتى التي لا تدرك الا بأكبـر مجهر (تلسكوب) وعدم شذوذ شـيء منها عن النظام يدل على انه ليست هناك قوة تحركها اذا شـاءت ، وتوقفهـا اذا شـاءت وتبيدها اذا ظهر لها ذلك ، وتعكس سيرها تارة ، وهذه الحجة بنفسها هي حجة المثبتين، فان هذه الاكوان القريب منها والبعيد، والمدرك بالحواس ، والمدرك بالآلات بلغت في الاتقان والنظام الى حد يستحيل على العقل ان يصـدق انها تسير بالمصادفـة ، وكان حدوثها بالمصادفة بدون قصد ولا علم ولا خطة سابقـة . راجع كلام « روسـو » « وفولتيـر » وغيرهمـا من الفلاسفـة المثبتيـن .

قال كاتب هذا المقال : كل من حصر العلم في معلوماته او مشاهداته وحكم ببطلان كل ما لا يعلمه فقد سد على نفسه باب المعرفة وصار اجهل الجاهلين . وفي كل يوم تتكشف للانسان معلومات كان يجهلها كل الجهل ، بل كان ينكرها ويعتقد انها من قسم المستحيل ، ثم بعد اكتشافها صارت عنده من البديهيات ، وما احسن قول الله تعالى في سورة الاسراء 85 (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) وقوله تعالى يخاطب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم (وقل رب زدني علما) وحكاية الخضر مع موسى لما سافر اليه لطلب العلم ، وهي مفصلة في سورة الكهف ترشد العقلاء الى ان العلم لا حد له ، وان الانسان كلما ازداد علما ازداد معرفة بقلة علمه .

ونقل محمد فريد وجدي عن الفيلسوف (اجوست سباتييه) في كتابه (فلسفة الاديان) : ان العلماء اول المترفين في كل فرع من فروع العلم بأنهم لم يدركوا منه الاجزاء محدودا ، وان اكثرهم تواضعا هم اكثرهم علما . على ان كلهم يعترفون بان ما حصلوه للآن من الاكتشافات ، وما درسوه من هذا الجزء اليسير من الطبيعة ليس الا عدما بالنسبة لما يجهلونه . فهم مستعدون لتنقيح القوانين التي قرروها ، وتوسيع الفروض التي فرضوها ، وضم كل ما يشاهدونه من المشاهدات الصحية الى ما لديهم منها .

نعم ، انه يوجد من بين هذه المشاهدات ما يدهشهم ويشوش افكارهم كما تراه كل يوم ، ولكنك لو تلاحظ موقف العالم الحق امام هذه الظواهر الجديدة تراه لا يشك في انها تابعة لنواميس مجهولة ، ولكنها حقيقة وموجودة ، وتراه لا ييأس من امكان عزوها الى تلك القوانين وزيادة مواد العلم بها . وتجاحه السابق يضمن له نجاحه في المستقبل ، وتراه يتبع ابحاثه بدون طيش ، لانه لا يعرف الجبن الأدب .

شبهات الحسيين

نقل محمد فريد وجدي عن احد ائمتهم وهو « ليتريه » في كتابه المسمى (كلمات عن الفلسفة الحسية) قوله : لما كنا نجهل اصول الكائنات ومصائرها ، فلا يليق بنا ان ننكر وجود شيء سابق عليها او لاحق لها ، كما لا يليق بنا ان نثبت ذلك . فالمذهب الحسي يتحفظ كل التحفظ في مسألة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن ، كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسي يلزمها ان تتحفظ من الحكم على اصول الاشياء ونهاياتها . بمعنى اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلا نتعرض لاثباتها ، فنحن على الحياد التام بين النفي والاثبات .

قال محمد فريد وجدي عقب نقله كلام « ليتريه » ما نصه : هذا قول عمدة من عمد الفلسفة الحسية ، ومنه يرى كل انسان ان ليس لدى القوم برهان ولا شبه برهان على نفي الصانع . وانهم ناس حبب اليهم عدم التدخل في هذه المسألة بالمرة . وبعبارة اصرح ، انهم ناس يريدون في اثناء حكمهم على الاشياء كما يقول الدكتور (روبنيه) في كتابه (الفلسفة الحية) ان يبعدوا كل ما لا يدرك بالحس ، وان لا يعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة .

نقول : ان كان الامر كما يدعون فالخطب سهل ، ولا يهمنا امر قوم اخذوا على انفسهم ان يثبتوا ولا ينفوا شيئا الا بدليل محسوس ، ولكن ما قولهم في انهم خالفوا قانونهم ، وكان اول من خالفه شيخهم « ليتريه » . وذلك ان هذا الاستاذ نفسه كتب في مقدمة وضعها لكتاب « المذهب المادي » تأليف (لابليه) هذه العبارة : ان الطبيعي يعلم ان للمادة وزنا ، كما ان الفزيولوجي يعلم ان المادة العصبية تفتكر ، ولكن بدون ان يدعي واحد منهما معرفة كيف تزن المادة ولا كيف تفتكر الاعصاب .

انظر كيف خالف « ليتريه » قانونه بنفسه ، وزعم ان الاعصاب هي التي تفتكر ؟ هل لديه دليل محسوس ان لا روح للانسان ، وان الاعصاب هي التي تفكر ؟ اما كان الاجدر به ان يقر بالعجز امام هذه المسألة ، وهي اعوص المباحث الفلسفية على الاطلاق ، ان كان يريد ان يحرص على قانون الفلسفة الحسية .

اتريد دليلا آخر على نفي الحسيين للاشياء بدون برهان ؟ قال « ليتريه » نفسه في كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) : يظهر لنا ان الاسباب التي اوجدت الكون ، هي ذاتية فيه غير متميزة عنه ، وهي التي نسميها نحن بالنواميس الطبيعية .

انظر كيف ادعى بدون برهان (محسوس) ان الاسباب التي خلقت الكون ذاتية فيه ، وانها هي المسماة بالنواميس . على ان الناس في بحثهم عن الخالق لا يضربون في الخيال ، ولا يخوضون في الاوهام ، انهم يبحثون عن السبب الاول الذي اوجد الكون على النحو الذي يبحث به العلماء عن النواميس .

يقول محمد تقي الدين الهلالي : من امثال العرب السائرة (اذا كنت كذوبا فكن ذكورا) اراد هذا المادي المتطرف بالعجز والجهل ان يطبق عقيدته التي لا يختلف فيها الانسان عن الحيوان الاعجم . فلما وصل الى الاداة التي خلق الله فيها التفكير ، وهي الاعصاب ، خانته الذاكرة فأثبت التفكير للأعصاب ، وهذا مخالف لعقيدته ، لان نسبة التفكير الى الاعصاب من نسبة الفعل الى الفاعل بالمعنى اللغوي . ولا يوجد دليل حسي حسب مذهبه يثبت ان الاعصاب هي التي تفكر ، فظهر تناقضه . وكان ينبغي له — لولا ان الله اراد ان يفضحه — ان يلجأ الى الجهل عند العجز كعادته فيقول : ان الفكر موجود في العصب ، ولكن لا ادري من اين جاء هذا الفكر الى العصب .

فنقول نحن : ان كنت انت لا تدري فنحن ندري ان الذي اوجده في الصب هو الذي رجع وجود العالم الممكن على عدمه (الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل) وقد تقدم البرهان على ان العالم ليس ازليا ، وتقدم البرهان كذلك على ان العالم لا يمكن ان يوجد نفسه ، لان وجوده آت من غيره . وهذه اركان البرهان على وجود الله سبحانه وقيوميته وتدبيره لجميع الكائنات .

ثم لخص محمد فريد وجدي بحث الماديين وبحث الفلاسفة المثبتين لوجود رب العالمين فقال ما نصه ، قال «ليتري» يظهر لي ان الاسباب التي اوجدت الكون ذاتية فيه ، وهي التي نسميها بالنواميس .

وقال قائل الطائفة الثانية : يظهر لي ان للكون سببا واحدا بصيرا بما يعمل ، والا فمن اين نشأ هذا الابداع المستفيض على الاكوان ، وكيف خلقت هذه الكائنات لمقاصد متنوعة ، وغايات مقررة ؟؟

فالبحث عن الخالق ، ليس من باب البحث عما لا ينفع ، لان ادراك السبب الاول للوجود رغيبة من رغبات العقل ، بل حاجة من حاجات الروح ، فليس الانسان كالحيوان خلق ليأكل ويشرب ثم يموت ، بل له وراء هذه الحاجات الجسدية حاجات لا يحددها وهم الواهم ، ولا يصورها خيال المتخيل .

ان الكائن الذي سخر الهواء والماء والمغناطيس والكهرباء وما وراء ذلك من الاشعة الخفية ، والقوى غير المرئية ، لا يقنعه ان يعيش معيشة الحيوان ، فهو ميال بطبعه لاكتشاف سر الحياة والموت ، بل سر الوجود كله ، وكائن هذه صفاته لا ينصرف عن البحث في السبب الاول للكون ، ولو جعلت عقابه على البحث فيه الموت .

يقول كاتب هذا المقال : والماديون يريدون منا ان نطفيء نور العقل ونقنع بالجهل ، او ان ننسب الاعمال الباهرة الدقيقة المتنوعة المختلفة المتضامنة التي يسير كل جزء منها ، وان كان دقيقا في منهاجه المرسوم ، لا يحيد عنه ابدا ، يريدون منا ان ننسب ذلك الى المادة الصماء العمياء التي هي فاقدة للحس والشعور وللعقل والادراك ، ونعتقد انها تعطي حسا ، ولا حس لها ، وتعطي شعورا ، ولا شعور لها ، وتعطي عقلا . ولا عقل لها ، وذلك منهم خبط ما بعده خبط ، وتعسف تجاوز الحد ، وليس في قدرة عاقل ان يقبله ، ولعل قائلهم يقول : نحن مضطرون الى ذلك التعسف لنخرج من سلطان الكنيسة الذي ارهقنا وضيق علينا الخناق ، وتدخل في كل شيء من شؤوننا ، فنقول له : لقد اخطأت طريق الرشد وسلكت سبيل الغي ، فهلا ناقشت الكنيسة الحساب مع الاعتراف بحكمة الملك الوهاب ، لترجع الى الصواب ، او تخرج انت من ربقتها متمتعا بنعمة عقلك غير ملوم ، فنحن لا نؤله البشر ، ونجعل الحكم كله لله مستنيرين بنور العقل ، طالبين زيادة العلم ، غير متعسفين في الحكم ، فان ابيتم فلكم دينكم ولي دين .

وموعدنا الجزء التالي لسرد بقية الشبهات والجواب عنها بحول الله .

ليعلم ذو « الرين الحبشي » ان ريحه لاقت اعصارا ، وان الحق لا يهدم انصارا ، وقل اعملوا على مكانتكم انا عاملون ، وانتظروا انا منتظرون .

مكناس ـ تقي الدين الهلالي

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 9 -

تقدم ان اقوى دسيسة يتذرع بها المتهوسون بالدعوة الى الالحاد والتعطيل ، هي زعمهم ان الشعوب الاوربية والامريكية التي بلغت اوج الرقي في العلم والمدنية ، والحضارة والحرية ، لم تبلغ ذلك الا بنبذ الدين ، قالوا : فاذا شئنا معشر المسلمين ان تبلغ ما بلغوا ، فعلينا ان نترك الاسلام ، وبدون تركه نبقى دائما متأخرين ، وهذه الحجة المزعومة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وبناء باطل على باطل ، وفاسد على فاسد ، كما يحكى عن بعض العجم انه ادعى التحقيق في علم التاريخ والانساب ، فسئل عن الحسن والحسين فقال « هزا وازح حسن وحسين ، بنات معاوية ابن ابي طالب » يعني ، هذا امر واضح ، فالحسن والحسين ابنا معاوية بن ابي طالب . وقد بدات في هدم بنيانهم من الاساس ، فبينت بالرقوم الدقيقة الرسمية من سفارات الامم الراقية ، كالولايات المتحدة وبريطانيا وسويسرا والمانيا الاتحادية والسويد والنرويج ، ان عدد الملحدين في مجموع سكان هذه البلدان ، المتباعدة في الاوطان ، المختلفة في اللغات ، ونظام الحكم ، وغير ذلك من وجوه الخلاف ، اذا جمعت الملحدين فيها لا يكاد عددهم يبلغ واحدا في المائة ، فتهدم الاساس الذي بنوا عليه كذبهم الوقح ، ومنهم من يزعم انه بلغ الغاية في العلوم العصرية والفلسفة .

والحق انه لم يدرك منها الا الوتد ، وهو « سفه » وفاته السبب ، وهو « قل » فهل كان هؤلاء المتحذلقون المتهوسون الفاتنون المفتونون ، يعلمون هذه الحقائق وكتموها ، وحاولوا اثبات نقيضها ، غشا لشعوبهم ، وتدليسا ومؤامرة مع اعدائها ، واصطيادا في الماء العكر ، ام كانوا يجهلونها ، فان كانوا يعلمونها ، فحسبهم خزيا وعارا ، خيانتهم لقومهم واوطانهم ، وخيانة للعلم واضاعة للامانة . وان كانوا لا يعلمونها ـ مع انهم يزعمون ـ انهم يعلمون من احوال اوربا ما لا يعلمون من شؤون اوطانهم وقومهم ، فكيف خفيت عليهم هذه الحقائق ؟؟ ام ذهبوا الى اوربا وامريكا لتعلم الرقص وشرب الخمر ، والتزي بازيائهم اكتفاء بالقشور ، ورجعوا بشهادات مزيفة يصولون بها على ابناء وطنهم ، ويتكبرون عليهم ويبتزون اموالهم ، ويبثون الفتن والبلبلة في افكارهم ، والتفرق في صفوفهم ويسممون افكار الشباب ، لا يرقبون فيهم الا ولا ذمة ، فبعدا للقوم المفسدين .

وقد شهد اربعة من اقطاب الادب والثقافة لهذه المقالات التي انشرها في هذا الموضوع انها حق ، وهم الاستاذ العبقري المؤلف الطائر الصيت السيد عبد الله كنون . والاستاذ الطبيب النطاسي الدكتور المهدي ابن عبود . والاستاذ العالم الاديب السيد محمد الطنجي والاستاذ الصحفي القدير الاديب السيد عبد الكريم غلاب : وهؤلاء الاقطاب ادوا شهادتهم دون ان يسألها منهم احد . ولا شك ان هناك من فطاحل العلم والمعرفة في هذا الوطن ، وفي غيره كثيرا من المعجبين بها امثالهم ، لو بحثنا عنهم وسألناهم عن ارائهم ، فان ظن المفسدون ان الجو خلا لهم ليبيضوا ويصفروا وينقروا ما شاءوا ان ينقروا ، فقد اخطأوا في حسابهم ، فلا يزال ـ ولله الحمد في هذا الوطن المنكوب بامثالهم ـ بقية باقية يفضحون دسائسهم ، ويأتون على بنيانهم من القواعد ، فيخر عليهم السقف من فوقهم ، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . اولئك رجال جمعوا بين الثقافتين ، القرءانية والاوربية ، ولم تشغلهم اوربا بزخارفها ، ولا اعشت اعين بصائرهم اشعة مدنيتها عن انتقادها نقد الدنانير والدراهم ، فاخذوا جيادها ، وتركوا زيوفها ، كما قال تعالى في سورة الزمر « 17 ـ 18 فبشر عبادي

الذين يستمعون القول ، فيتبعون احسنه ، اولئك الذين هداهم الله ، واولئك هم اولوا الالباب » .

وسأتوجه بالسؤال الى سفارات اخرى وانشر اجوبتها ليزداد وجه ريني الحبشي ومن يفتر بسفاسفه اسودادا يوم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، ويزداد اهل الحق اغتباطا وابتهاجا .

اذا رضيت عني كرام عشيرتي
فلا زال غضبانا علي لئامها

« ذكر بقية شبهات الملحدين والرد عليهم »

يقول الاستاذ ليتريه : يظهر لي ان الاسباب الاولية التي خلقت الكون ذاتية فيه ، وانما هي التي تسمى بالنواميس .

ونحن نلقي عليه اسئله فعليه ان يجيبنا عنها هو او من ينشر المبادىء الالحادية في هذه البلاد وهي: كيف ان المادة ، وهي عمياء صماء ، استطاعت ان تتكون هذا التكون البديع وتشكل هذا الوجود الضخم على تنوع كائناته ، وتباين موجوداته ؟

اننا نرى باعيننا ان المادة منقادة بواسطة قوانين ونواميس الى التشكل على حسب نسب مقدرة ، فكيف نتصور ان شيئا محروما من نعمة الادراك والتعقل يتجه من نفسه الى غاية كمالية تدهش لها عقول البشر ، وتحار لها مدارك الفكر ؟ كيف ان المادة المجردة من العقل والادراك تكون كائنات متمتعة بعقل وادراك كالانسان مثلا ، وكيف ان المادة تحكم نفسها بنواميس حكيمة ، وهي لا تعرف معنى الحكمة ولا تحس بها ؟ وكيف يسود النظام والوئام بين مكوناتها ، وهي لا لا تعرف للنظام معنى ، ونحن نرى رقيا محسوسا في مكوناتها من جماد الى نبات الى حيوان الى انسان ، وكل هذه الممالك الاربع في رقي مستمر الى غاية اسمى مما تتصور ؟ كيف ان المادة العمياء غير المدركة تتبع من نفسها خطة التدرج والترقي ؟ وكيف تخلق المادة هذه المبدعات في عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات ، وتهبها كل ما تحتاج اليه من حيل الحياة واسباب حفظ النوع ، واسباب البقاء والارتقاء والمادة في نفسها لا تعي ولا تدرك ؟ وكيف ان المادة المجردة عن الشعور تتوصل الى خلق الحواس الحيوانية بهذه الدقة والمهارة ؟ ولماذا كل هذه الحواس مركبة تركيبا يدهش له العقل ، ولم يوجد منها ما هو مختل الوظيفة «1» عبء ثقيل على صاحبه ؟ ولماذا لم تكن الطبيعة ذات قوى مختلة ، ونظامات معتلة ، ونواميس متعاكسة ، يبطل بعضها اثر بعض ؟ ولماذا هذا التضامن بين النواميس ، وهذا التلاؤم بين قوى الوجود ؟

ليس للماديين على هذه المسائل اجوبة مقنعة ، واكثرها لا جواب له عندهم ، وكل ما لديهم الفاظ فارغة نسردها على القارئين ليروا رأيهم فيها .

نظريات الماديين في نظام الكون

الكون عند الماديين مادة ونواميس ، فان قلنا لهم كيف نشأ هذا الوجود على ما فيه من جمال وابداع؟ قالوا ، نعم ، اسمعوا ، حصل كل ذلك بواسطة ناموس الانتخاب الطبيعي .. ما هو ياترى ناموس الانتخاب هذا ؟ يقول معناه ، ان الطبيعة مندفعة .. للرقي الدائم .. ومسوقة ، لان تنتخب الجيد الصالح من الكائنات وتبيد الردى الفاسد منها ، فهي تميل دائما من كامل الى اكمل ...

هل هذا جواب ايها الحكماء ؟ ايحسن بك ان تجيب من يسألك لماذا تسير الباخرة بقولك ، انها مدفوعة الى السير ومسوقة لقطع المسافات .

لا يليق بنا في شرعة الانصاف ان ندحض هذا الجواب حتى نعطيه كل ما يحتمله من قوة وسلطان فنقول : قول الماديين ، ان الابداع الوجودي حدث بواسطة ناموس الانتخاب الطبيعي الذي من مقتضاه

«1» ارجو من القراء الكرام الذين يتتبعون هذه المقالات ان ينعموا النظر بهذا المقال والذي بعده ، فانهما يشتملان على محاسبة الماديين ومناقشتهم بحجج قاهرة خانقة ، لا قبل لهم بالجواب عنها ، فضلا عن مناهضتها . راجع خلقة العين وتركيبها العجيب في سلسلة مقالات « دواء الشاكين وقامع المشككين » بقلم كاتب هذه السطور المنشور في مجلة « دعوة الحق » ، الجزء الثاني من السنة الرابعة ، فانك اذا قرات ما كتبه العالم «كريسي مورسن» في اسرار تركيب العين ، لا يخامرك اي ريب في ان من يقول بان العالم خلق بالمصادفة ، اما ان يكون مكابرا يتعمد الكذب ، او يكون اجهل من حمار اهله .

ان لا يبقى الا الاصلح للبقاء «2» ، معناه : ان المادة لما كانت قديمة هي ونواميسها دائما الحركة والتشكل بمقتضى تلك النواميس ، فلنفرض ان قد حدث نوع من الحيوان ، فالمعروف ان كل اشخاص ذلك الحيوان لا تكون على درجة واحدة من النماء والقوة ، فيحدث ان الانمى والاقوى من افراد هذا النوع يسبقون الضعاف الى مظان الغذاء وينازعونهم البقاء ، فيزداد الاقوياء قوة على قوتهم ، ويزداد الضعاف ضعفا على ضعفهم ، فيلد الاقوياء افرادا اقوياء يكتسبون مع الزمن صفات جديدة ترسخ فيهم فتصير احوالا ، ويلد الضعاف ذرية ضعيفة تنحط عن اصلها درجات ، ثم ينتهي الامر بتلاشي الضعاف وبقاء الاقوياء ، فاذا تغير الوسط الذي يعيش فيه هؤلاء الحيوانات واشتد عليهم البرد ، او صعب عليهم الغذاء ، او احتاج لشيء من التحايل او التسلق او الجراءة مالت افرادهم الى مشاكلة الوسط الجديد فلا يقوى على ذلك الا افراد منهم بمجهود عظيم ، وبعد اجيال عديدة يكونون في اثنائها اكتسبوا صفات جديدة صارت فيهم احوالا راسخة ، وربما طالت اعناقهم بعد ان كانت قصيرة ، ودقت سيقانهم بعد ان كانت غليظة ، وكسوا بوبر كثيف ، بعد ان كانوا مجردين منه .

ولما كانت النواميس عاملة ، والاوساط في تغير مستمر ، فلا شبهة عندهم في ان الكائنات تدخل من طور الى طور ، وتتنوع من حال الى حال ، وقد حدث ذلك حين انفصلت الارض عن الشمس «3» في مبدأ تكونها ، فنشأت اولا الحياة في خلية نباتية ، ثم اختلفت الفواعل والاوساط، فتشكلت تلك الخلية، ونشأ من بعضها حيوانات،ومن بعضها نباتات مختلفة،وما زالت الاوساط تتغير والكائنات تتطور في مئات الالوف من السنين، حتى نشأ الانسان وبقي اكثر ما نشأ قبل ذلك من نبات وحيوان الى الان ، وباد كثير من انواعه كما يشاهد في الطبقات الارضية « انظر جولوجيا » وكلمة حفريات.

فالوجود في نظرهم كان على ما هو عليه اليوم، لا بقصد ، بل بمجرد الاتفاق ، او كما يقولون«بالصدفة» فقد اتفق ان تكون ءاثار النواميس العاملة على المادة المتحركة بطبيعتها هي ما نشاهده من نباتات وحيوانات واتفق ان تكون الكائنات التي وجدت على المريخ او المشترى«4» او الدنياوات الاخرى على غير هذا الشكل

هذه نظريتهم في كل قوتها وغاية ابهتها ، فلنرد عليها الان مطمئنين لا غالين ولا مقصرين : هب ان المادة ونواميسها قديمة ، اي موجودة من الازل ، فهلا يعقل حتى مع هذا الفرض ان يخلق الكون بالاتفاق المجرد من العقل والاختيار ، لانه ان عقل ان يخلق بالاتفاق حيوان ما ، فكيف يعقل ان تخلق بجانبه بالاتفاق ايضا اشى تناسبه تمام المناسبة لاستدامة

2» الاصول التي بنى عليها داروين نظرياته اربعة :النشوء والارتقاء ، وتنازع البقاء ، وبقاء الاصلح . فاما النشوء ، فقوله : ان جميع الكائنات الحية من انسان وحيوان ونبات ، اصله خلية واحدة لا تكاد تبصر بالعين المجردة ، وسترى صفتها في هذاالمقال .
واما الارتقاء فقوله : ان الكون دائما في رقي مستمر ، لا يمكن الرجوع فيه الى الوراء ابدا .
واما تنازع البقاء ، فمعناه عنده : ان انواع الحيوان والنبات تتنازع البقاء ، كل منها يسعى ليبقى ولو بفناء غيره ، فيبقى منها ما هو صالح للبقاء،وهم الاقوياء ، ويفنى منها الضعفاء الذين لا يصلحون للبقاء .

3» قوله : حين انفصلت الارض عن الشمس . اعلم ان نظرية انفصال الارض عن الشمس لم يقم عليها اي دليل يقيني ، وانما هي افتراء وتخمين ،ولكن هذه النظرية ساعدها الحظ فانتشرت وشاعت اكثر من سائر النظريات ، حتى صارت عند العامة حقيقة لا تقبل الشك ، ولكن القول بهذه النظرية ــ على تسليمه ــ لا حجة فيه للماديين ،وانما هو وبال عليهم ، كما سيأتي في هذا المقال او في الذي بعده عند البحث في حدوث الحياة على وجه الارض .

4» قوله : على المريخ او المشتري الخ. لم يثبت الى حد الان وجود اي نوع من انواع الحيوان في المريخ ، ولا في غيره من الكواكب السيارة . غير ان بعض علماء الفلك يظنون ظنا ، وما هم بمستيقنين ، ان في النواحي الشمالية من المريخ بعض انواع النبات في شكل بدائي ، والله اعلم .

نوعه ، وان عقل حصول ذلك فى نوع من انـــواع الحيوانات ، فهل يعقل حصوله فى جميع الانـــواع على السواء ؟

هب انه يعقل ذلك ، فهل يعقل ايضا ان الاتفاق يرغم الانثى على تربية صغارها وتجشم الصعـــاب فى سبيـل ذلك ، ويجبر الذكـر احيانا ـ كثيـــرة لمعاونـة الانثى فى هذا العمل الشاق .

هل لذلك « الاتفاق » عقل ادرك به ان ابـــداع هذا الميل فى قلوب الذكور والاناث ضروري لحفـــظ بقاء نوعها ، وما للضرورة وذلك ، بل ايـن هـي مـن هذا الترتيب ، وهي لا تدركـه ولا تعقله ؟

انا نرى اثمار البلاد الباردة مغطاة بوبر ليحفظ فيها مقدارا كافيـا من الحرارة ، فلا تهلك فى الشتـاء وكذلك الحيوانات ، فانها محلات هنالك بفرو لتحميها من انزمهريـر ، فهل يعقل ان الاتفـاق المجرد مـن العقـل تصدر منـه جميع هذه الاعمال الدالة علـى مقاصد وغايـات حكيمـة ؟

نقول انها تحلت بكل هذه الاعضاء الواقيـــة بحكم « الضرورة » ومعنى ذلك ان تلك الاصقاع لـم تكـن باردة على الدرجة التي تشاهد عليهـا الان ، وكانت عائشة عليها تلك النباتات والحيوانات ، فلمـا اخذت فى البرودة تدريجيـا احست تلك الكائنـات بلزوم دثـار يحميها عوادي ذلك الجو البارد وباد من اشخاصها الضعيف المجرد من كل وبر ، وبقـي القوي المحلى بشيء منه ، فنمـا وبره « بالضرورة تدريجيا » حتى اذا وصل الجو الى ما هو عليـه الان وصل هـو ايضـا من التحلي بالوبر الى حالته الراهنة .

« فالضرور » هي التي اوصلته الى هذه الحال . نقول ، ان امثال هذه التعليلات الكلامية لا تكفي لتفسير وجود الكون على هذا الابداع الباهر الذي اعجز عقل الانســان ، ولا تـزال اكثـر اياته غامضة لم تصـل المدارك الى ادراك اسرارها المعجزة ، ومع ضعـف هذا التعليل ووهن اركانه نرى ان الاحسن مجـاراة الماديين ومقارعتهم عليـه فنقول : انكـم تقولون ، ان الضرورة هي التي تدفـع المادة بتاثيـر الوســط للتحلـي بكل ما يمكنها من البقاء فيه ، ولسنا نفهـم لهذا الكلام معنى ، بل هو لا معنى له على الاطـلاق ، واليـك البيـان :

سلمنا لكم جدلا ان المادة قديمة ، وان فيهـا نواميـسها ، فهل عاثار النواميس فى عرفكم الا حركـات بسيطـة ، كناموس الجذب يجذب الاجسام ، وناموس الدفع يدفعها ، وناموس الساكن مستمر على سكونه حتى تاتيه قوة تحركه ، والمتحرك مستمر على حركتـه حتى تاتيه قوة تقفه الخ . مما لم يخرج عن حركـات بسيطة غير مركبة ، لا يمكن ان تفسر خلق اصغـــر الكائنات ، فضلا عن الكون وما فيه .

مكنـاس : الدكتور تقـي الدين الهلالي

العلـم وعدولـه

قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له : ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتاويل الجاهلين » .

مناقشات

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

الدكتور تقي الدين الهلالي

- 10 -

أيها القراء الاعزاء ارجو ان تقرءوا هذه الحلقة بتدبر وامعان ، فان فيها حججا خانقة للماديين الجاحدين تقطع عليهم كل سبيل وتحبسهم في اجحارهم مختنقين وتدعهم متحيرين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين

ذكر بقية شبهات الملحدين والرد عليهم

نشأة الارض

دعونا ننظر معكم الى الارض ، وهي منفصلة من الشمس ، فماذا نرى في مادتها ونواميسها ؟ ؟ نرى كتلة ملتهبة انفصلت من جرم كبير كما تقولون . بأي ناموس انفصلت ؟ ؟ والمعروف ان الجسم الكبير يجذب الصغير ، كما تجذب الارض كل ما عليها من الاجسام فتمنعها التناثر في الجو . لنقل معكم : انها انفصلت، ولكن لاتنسوا ان ذلك ضد ناموس الجذب ، فما حدث بعد ذلك ؟ ؟

حدث ان الارض وقعت على مسافة من الشمس، لاي سبب وقفت في هذه المسافة ولم تمعن في الهبوط الى ما لانهاية له ؟ السبب غير معروف ، ولا يوجد ناموس يمنعها من امعان التدهور الى ما لاحد له .

قلتم : انها انجذبت الى الشمس والكواكب الاخرى . ليكن ما قلتم ، وقفت الارض في مركزها ، ثم رأيناها دارت على نفسها ، أي ناموس ادارها ؟ . تقولون ، انها انفصلت، عن الشمس دائرة فاستمرت كذلك . نقول ، انها كانت في الشمس دائرة ، ولكن غير دورتها حول مركزها ، بل حول مركز الشمس لانها كانت قطعة من سطحها لا من مركزها كما هو المعقول . لنمش معكم الى حيث تريدون . فلنسلم لكم بدورانها حول مركزها ، فأي ناموس أدارها حول الشمس بعد ذلك ؟ لايوجد في العلم ناموس من هذا القبيل ، بل ولا يعقل وجوده (انظر ما قاله العلامة الفلكي نيوتن) في براهينه المتقدمة

لنسلم لكم انها دارت حول الشمس بسبب مجهول ، فما حدث بعد ذلك ؟ ؟ حدث ان قشرتها اخذت تبرد . سلمنا ، ثم ماذا ؟ فتكونت عليها سحب من الابخرة فهطلت عليها امطار .

نقول ، ان الابخرة المتصاعدة من الاحتراق لاتكون سحبا كما هو مشاهد ، فكيف نشأت المياه على سطحها . لنرد على هذا . ثم ماذا ؟ فتكونت بحار وانهار ومستنقعات . حسن ، فماذا حدث بعد ذلك ؟ حدثت الحياة النباتية في ابسط اشكالها . فكيف حدثت وبأي ناموس نشأت ؟ هذه عضلة العقد ، والطلسم الذي لاحل له . فان الحي لاينتج الا من حي . والنواميس المعروفة كلها تعجز عن تعليل حدوث احقر الاجسام العضوية . اراكم تقولون : دع الحياة جانبا فسيكشف العلم سرها في يوم من الايام ، ولنستمر في تعليل خلق الكون . نقول ، على رسلكم، كفاكم ما مضى من التحكم في تعليل انفصال الارض عن الشمس وفي دورانها على نفسها حول الشمس ، وفي تكون السحب . اما وقد وصلت المسألة الى وجود الحياة فلا نتسامح معكم فيه ، فان الحياة سر الوجود، بل هي قيومه ، اذا عرف سرها فقد عرف سر كل شيء .

انكم تقولون ، ان اول ما حدث من آثار الحياة الخلية البسيطة . فما هي هذه الخلية ؟ هي كل شيء. وهل الانسان بما افيض عليه من ابداع الا مجموع خلايا بسيطة تركبت فيه تركبا خاصا . فاذا اغضينا عن الخلية فقد اغضينا عن كل شيء ، فهو دونها في الحقيقة .

فما هي الخلية وما تركيبها ؟ الخلية هي غشاء حي على شكل الكرة يحوي في داخله مادة لزجة يقال لها (البروتوبلاسما عالم فيها نويات صغيرة ، وهي بما حوت لاتدرك الا بالمنظار . هذه هي الخلية ، فكيف حدثت بمجرد فعل النواميس ؟ ؟ ما الذي نسج ذلك الغشاء بتلك الرقة التي لايكتشفها الا اقوى منظار ، مع علمك بان الارض كانت بلاقع مقفرة ، او سهوبا قاحلة ؟ ان كان ذلك الغشاء نشأ بالاتفاق ، فما هي النواميس التي اقتضت تكوينه ، وما هي تلك المادة اللزجة المشمولة فيه ؟ من اين اتت ، وفي اي معمل كيماوي تركبت بعد ان تنقت من قذر الطبيعة وخلصت من اقذائها وكثافتها ؟

هب ان ذلك كله حصل ، فلماذا هي حية اي نامية ؟ ما هو ذلك السر المودع فيها ؟ الى هنا يرى الماديون ان نواميس الطبيعة المعروفة اعجز من ان تكفي لتعليل اصغر الكائنات الحية ، بل هي لم تكف لتعليل الحركات المجردة من الحياة كدوران الارض حول الشمس بشهادة الفلكي نيوتن وغيره ، فما معنى التبجح بها والترنم بذكرها وترديدها في تعليل الموجودات بمناسبة وغير مناسبة ، بل ما معنى تلك التعليلات الفاقدة لاعظم اركانها ؟ من المحال تعليل وجود كل هذه الكائنات البديعة بمجرد حركات النواميس الميكانيكية ، فاما ان تخضعوا لبداهة العقل فتقولوا بضرورة وجود عقل لا حد له قاد نواميس الوجود قيادة حكيمة ، واما ان لاتتعرضوا لتعليل خلق الوجود وتفسير تنوع الكائنات .

اراكم تكثرون من قولكم (الضرورة) في تعليل وجود كثير من اعضاء الحيوانات والنباتات كما فعلتم في تعليل وجود الوبر الطويل في حيوانات البلاد الباردة ونباتاتها ، فما هي تلك الضرورة ، وما تاثيرها ؟ يقولون ، ان اردت معرفة بعض آثار الضرورة ومبلغ قوتها في الايداع ، فانظروا الى الحيوان المسمى بالزرافة مثلا ، فانك ان تعجبت من طول عنقها ، مع طول ايديها وقصر ارجلها ، فما ذلك الا لان (الضرورة) اثرت عليها فاحدثت هذا التغيير في جسمها . اما الزرافة في اصلها فكانت كجميع الحيوانات عنقها مناسبة لجسمها ويداها في طول رجليها . ولكن (اتفق) ان امهاتها ولدتها في مكان لم يكن فيه ما تتغذى به من الاوراق الا على رؤوس اشجار عالية ، فاضطرت هذه الكائنات المسكينة لان تشراب باعناقها كلما وخزها الجوع باسنته لتصل الى غذائها ، فقضت (الضرورة) بان تطول اعناقها تدريجا حتى وصلت الى حالتها الراهنة

هكذا يقولون ، وهو كلام لا يفهم ولا يعقل ، ولكنا نناقشهم فيه من باب التسامح فنقول : هل الزرافة كانت في جهة فيها اوراق الاشجار تعلو عن متناول صغارها من اول وجودها على سطح الارض ، ام حدث لها ذلك بعد ؟ ان قلتم وجدت على هذه الصور بطل تعليلكم (بالضرورة) ولكنكم تقولون ، انها كانت قصيرة العنق متناسبة الاطراف ، ثم حدث لها ذلك .

قلنا فكيف يعقل ان يكون حدث ذلك بكل الزرافات في كل قارة . فهل يتصور ان يتفق ان جميع الزرافات وقعن في جهات فيها اوراق الاشجار بعيدة عن سطح الارض ؟ هب انه (اتفق) ذلك ، ــ مع انه مستحيل ــ فلم لم تهلك هذه الزرافات بدل ان تطول اعناقها وايديها ؟ ولم لم توجد لها خاصة تسلق الاشجار بدل ان تطول اعناقها وايديها ؟ ان كان كل ما في الطبيعة مخلوقا بغير قصد ، بل بمحض النواميس والضرورة ، فما هي الضرورة التي اوجبت ان يكون كثير من انواع الطيور مزينا باجمل النقوش مزدانا بارق الالوان ، ما هي الضرورة التي حتمت ان تتحلى الازهار بهذه الروائح العطرية الزكية ، بل ما هي الضرورة التي جعلت تلك الالوان والروائح متنوعة الى ما لا نهاية له ، ولم تجعلها لونا واحدا ورائحة واحدة ؟

الا يسمح لي حضرات الماديين ان اقول لهم بان لاضرورة لذلك ، وقد شهد بذلك داروين نفسه ، ولم يكن من المنكرين للخالق ، مع انه صاحب مذهب تسلسل الانواع .

من هنا يتبين القارىء عجز الماديين عن تعليل وجود الكون بدون خالق حكيم . اذن فلا بد من وجود خالق متصف بجميع صفات الكمال المطلق الذي لاحد له . ومن صفاته العلم والقدرة والارادة والحياة التي لا اول لها ولا آخر ، وهي غير مستمدة من غيرها كسائر صفاته تعالى . هذه الصفات مذكورة في الكتب السماوية وموضحة في القرآن اتم توضيح في سورة الاخلاص وآية الكرسي ومواضع اخرى . فهذا الخالق العظيم هو الذي افرغ الوجود في هذا القالب البديع وله القدرة والحكمة التي لاسبيل لعقل الى نكرانها ، ولا سلطان لمتعنت في الجحود بها .

توضيح وتفصيل

1 ــ الراي السائد عند الباحثين في هذا الزمان ان الارض التي نعيش فيها انفصلت عن الشمس وكانت قطعة منها ، فكيف سمحت قوة الجذب والاتحاد التي

اودعها الله فى الشمس لقطعة كبيرة كهذه الارض ان تقتطع منها وتنفصل عنها وتبتعد عنها دون ان يحدث خلل فى الشمس يؤدي الى تفرق اجزائها وتلاشيها ، مع فرض ان ذلك وقع على سبيل المصادفة ، فهذا الاصل الذي بنوا عليه بحثهم فى نشاة الارض فى غاية الضعف يفتقر الى دليل يثبته حتى تطمئن اليه النفس وتؤمن به .

والمعروف الثابت فى الاجرام السماوية بالمشاهدة الحسية ان كل جرم كبير يجذب الاجرام الصغيرة ، ولا يمكنها من الافلات كما تتجاذب اجزاء جرم الارض وتجبر كل ما عليها من جماد وحيوان ونبات ان يبقى على ظهرها . فاذا حاول الحيوان ان يقاوم هذا الجذب وينفصل عن الارض ثم يستطع ان ينفصل حين يثب منها الا لحظة ، ثم يجد نفسه قد اجبر على العودة اليها . واذا ذلك الجذب لانفصل كل ما على وجه الارض عنها ، ثم لم يعد اليها . فاول ما ينفصل عنها الغلاف الهوائي الذي كساها الله به ليستنشقه الحيوان البري من الناس والدواب والطير ويعيشوا باستنشاقه، ولو فقدوه لحظة لفقدوا معه حياتهم .

وبعد انفصال الهواء تنفصل مياه البحار ، ثم يتلوها تفكك اجزاء الارض . وقد يستطيع بعض الحيوان اذا اعطي آلة لمقاومة الجذب ان ينفصل عن الارض الى مسافة محدودة ، كالطير التي اعطيت اجنحة تحركها ، فتنفصل عن الارض وتسبح فى الهواء، ولكنها لاتستطيع ان تنفصل عن الهواء ، ولا تستطيع ان تنفصل عن الارض الا لوقت محدود جدا ، ثم ترجع الى مستقرها . ومثل ما قيل فى الطير يقال فى طيران الانسان ، فان الله اعطاه عقلا صنع به آلات لمقاومة الجذب الارضي ، فاستطاع ان يحلق فى الجو بتعمل وتكلف لوقت محدود يضطر بعده ان يعود الى المستقر الاصلي ، وهو الارض التي منها خلق ، واليها يعود .

وكان العقل قبل هذا الزمان عاجزا عن اختراع آلة تقاوم ضغط الغلاف الجوي وما فى اعاليه من العوائق التي منها ضعف الهواء بحيث لا يكفي لاستنشاق الانسان والحيوان الذي يحفظ به حياته ، ثم هدى الله العقل الى اختراع آلة تقاوم تلك العوائق، فيتزود الانسان بالهواء الصالح للتنفس لمدة طويلة ويصواريخ لها من قوة الاندفاع ما يتغلب على الضغط والجذب ، ولها اجسام تقاوم الاحتراق الذي تتعرض له عند الخروج من هذا الغلاف ، والامعان فى الارتفاع، وبذلك استطاع الانسان ان ينفصل عن الارض وعن غلافها الجوي ، ولكنه بقي مرتبطا بها وعالة عليها ، لان الغذاء والهواء اللذين يحفظ بهما حياته هما من الارض

والمدة التي يبقى منفصلا فيها عن الارض محدودة اقصى ما بلغته الى حد الآن اربعة عشر يوما ، ثم اضطر ان يرجع الى المستقر . وللانسان آمال فى تطويل مدة الانفصال ، واكن مهما طالت مدته خارج الارض ، فانه يبقى مرتبطا بها ، لان الزاد والمدد الذي يحفظ حياته من الارض . فانفصال هذا شانه لايمكن ان يقاس بما افترضوه من انفصال الارض عن الشمس. اذن لم يقم دليل مقنع على ان الارض انفصلت من الشمس . وانما هو افتراض وخرص ، وليس من العلم فى شيء .

2 ـ سلمنا جدلا ان الشمس سمحت لتلك القطعة ان تنفصل عنها ، فلماذا ابتعدت عنها الى مسافة محدودة ثم وقفت الى الابد ، ولم تبتعد بعد ذلك قيد انملة ولا اقل منها . راجع مقال (دواء الشاكين وقامع المشككين) المنشور فى مجلة دعوة الحق رجب 1379 الجزء الخامس السنة الثالثة تجد فيه مانصه:

والشمس التي هي مصدر جميع الحياة . تبلغ الحرارة على وجهها اثنى عشر الفا (فارنهايت) ، وارضنا بعيدة من الشمس التي هي نار حامية ، بعدا كافيا بالقدر الذي تعطينا فيه الحرارة الكافية لحياتنا ، لا اكثر ولا اقل ، انه لنظام عجيب .

ومع مضي الملايين من السنين لم تختلف حرارتها الا قليلا ، ولذلك بقيت الحياة مستمرة ، لو تغير مقياس الحرارة على وجه الارض حتى بلغ معدله خمسين درجة لمدة ستة لمات كل نبات على وجه الارض ، ولاحترق الانسان او جمد . وتدور الارض حول الشمس بسرعة ثمانية عشر ميلا فى كل ثانية. ولو ان سرعة دورانها كانت ستة اميال ، او اربعين ميلا فى كل ثانية لبعدنا كثيرا جدا من الشمس او لقربنا منها كثيرا ، وحينئذ لايمكن ان تكون حياتنا على الشكل الذي هي عليه الآن .

فمن الذي جعل دوران الارض حول الشمس ثمانية عشر ميلا فى الثانية ، وقدر ذلك عالما به وجعله على القدر الذي تصلح عليه حياة الحيوان والنبات، لايزيد ثانية ولا ينقصها ، اليس هو العليم القدير ؟؟؟

3 ـ ثم بعد ما وقفت فى تلك المسافة المحددة تحديدا دقيقا اخذت تدور على نفسها ، فمن الذي

ادارها على نفسها ؟ ثم من الذي جعل دورانها محددا بثمانية عشر ميلا في الثانية ، لاتزيد سرعته ولا تنقص؟ وكيف علمت الطبيعة الصماء البكماء العمياء التي ينسب اليها الماديون كل شيء ، كيف علمت ان تحديد سرعة الدوران بهذا المقدار هو المناسب لحياة الحيوان والنبات اللذين على وجه الارض ، وان السرعة ان زادت او نقصت اضرت بحياتهما . اليس هذا غاية في التحكم والتعسف وقلة الحياء من انفسهم ومن الناس؟

4 ـ ثم من ادارها حول الشمس في مدة محدودة هي سنة شمسية ، لاتزيد شيئا ولا تنقص على ممر الاحقاب ؟ وما الذي جعل مدة دورانها مناسبة للفصول الاربعة في بعض اجزاء الارض ، وفي النواحي القطبية قدر لها تجزئة اخرى . بحيث تغيب الشمس عن الارض لمدة تسعين يوما دون ان يموت الحيوان من شدة البرد . وفي الصيف تبقى الشمس تسعين يوما مشرقة لاتغيب دون ان يحترق الحيوان والنبات . وفي الربيع والخريف تطلع وتغيب . (انظر جغرافية شمالي النرويج وشمالي السويد والاراضي القطبية ، اليس ذلك تقدير العزيز العليم ؟) بلى والله ، ولكن الماديين قوم مغالطون .

5 ـ قالوا ، لما انفصلت الارض عن الشمس كانت درجة حرارتها اثنى عشر الفا بمقياس (فارنهايت) ، وهو مقدار حرارة الشمس ، فما الذي بردها ؟ ان زعموا انه الدوران . فاذا كان الدوران يبرد الحرارة فلماذا لم يستمر في تبريدها الى ان تنقضي ، فلا يمكن ان يعيش على ظهرها حيوان ولا نبات ، ولماذا وقف ذلك التبريد عند حد محدود ، هو القدر المناسب لحياة كل حي على وجه الارض . لايزيد هذا القدر ولا ينقص ؟

6 ـ وكيف حدثت الامطار التي زعموا انها ليّنت قشرة الارض وجعلتها صالحة لوجود النبات والحيوان وحياتهما . زعموا ان الابخرة ، بل الادخنة التي كانت تتصاعد من تلك الكتلة النارية صارت سحابا ، ثم عاد السحاب ماء ووزع على قطرات محدودة الحجم ، وصار يمطر على الارض حتى بردت ولانت ، وانبتت النبات .

والدخان ليس من طبعه ان يصير سحابا ابدا، اذ لا ماء فيه ، والسحاب انما هو ماء ناشيء عن بخار صعد من الماء كبخار القدر، وكل ماء اغليته وبخرته لتقطر ماء ورد او غيره ، فانما هو ماء يختلف شكله ولا تختلف حقيقته ، فالماء يأتي من الماء . اما الدخان فلا ينقلب ماء ابدا

قالوا ان الماء الناشيء عن الدخان ـ بزعمهم ـ تجمع حتى غمر وجه الارض كله ثم انحسر وتجمع في بحار وانهار ومستنقعات ، وانكشف نحو ربع الارض فصار يابسا ، فما الذي حسره وحدده بهذا المقدار لايزيد زيادة ذات بال ولا ينقص .

7 ـ ثم تجيء المسألة الكبرى ، بل الطامة العظمى التي تنزل على رؤوس الماديين فتبهتهم حتى لايبقى عندهم عرف ولانكر ، وهي عضلة العضل واللغز الذي لايحل ، الا وهي وجود الحياة في البحار والياسة ، حياة النبات وحياة الحيوان ، فهذه المسألة هي التي حيرت الباب الماديين والطبيعيين والحسيين ، وطمست قلوبهم واحساساتهم ، فما لهم بجوابها يدان .

فقد قال الطبيعيون انفسهم ، ان الحياة لاتجيء الا من الحياة ، فمن اين جاءت الحياة الاولى؟ لم يجدوا لهذا السؤال جوابا يحسن السكوت عليه ، فتشاغلوا عنه بوصف الحياة ووحدتها واطوارها وتنوعها ، آملين ان ينسى الناس السؤال عن اصلها ويشتغلوا بما وراء ذلك ، وهيهات هيهات ، ان طلاب العلم لايشتغلون بالفروع الا بعد معرفة الاصول ، فاذا عجزوا عن معرفة الاصول ، فهم عن معرفة الفروع اعجز ، كما قال بعض العلماء في امثالهم من المقلدين : (انما حرموا الوصول بتضييع الاصول) وقلت في قصيدة مخاطبا احد المقلدين :

حرمت وصولا للحقيقة عندما
اضعت اصولا من يضعها يلدد

ايها القراء الاعزاء انتظروا المقال التالي الذي يعرض نظريات الماديين في اصل الانواع ويناقشهم فيها الحساب ، ويسد عليهم كل باب ، وذلك بحول الله وحسن عونه ، من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

مع الاستاذ عبد الهادي الشرايبي :

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

للدكتور تقي الدين الهلالي

-11-

ملاحظة على ملاحظة

اطلعت على النقد الموسوم « بالعدد الماضي في الميزان » للاستاذ عبد الهادي الشرايبي فرايت فيه ما نصه : اما بحث الدكتور الهلالي في نقد مقال العوائق النفسية ، فاولى به ـ كما لوحظ في اعداد سابقة من المجلة ـ ان ينشر في كتاب ، اذ انه يعني قلة من الباحثين ، بالاضافة الى انه ينشر على اجزاء متفرقة اهـ.

وكان ينبغي للاستاذ الشرايبي ان يبدي رأيه اولا في الموضوع ، هل هو حق او باطل ؟ وهل هو مستقيم الحجج او معوجها ؟ وهل وفى بالفرض المطلوب منه ام لا ؟ فهذه امور جوهرية يجب البدء بها قبل النظر في نشره مجموعا او متفرقا ، لان ذلك امر عرضي كمالي في نظر حضرته . والانظار تختلف في هذا الامر .

وهل علم الاستاذ الشرايبي ما هو الباعث على كتابة هذه السلسلة من المقالات دفاعا عن اقدس شيء عند مئات الملايين من البشر . كل من يقرأ هذه المجلة بانتظام يعلم ان السبب في ذلك هو ان احد المتهورين الفوضويين الذين يدسهم اعداء الاسلام واعداء العرب بقصد بلبلة الافكار وبث التفرقة بين ابناء امة واحدة والملة الواحدة نشر مقالا بعنوان « العوائق النفسانية للتخطيط » في مجلة لبنانية تسمى « صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية » في الجزء الخامس من سنتها الثانية الصادر في شهر يوليوز ـ تموز 1964 .

فلما وصل هذا الجزء الذي يتضمن ذلك المقال الى ادارة مجلة دعوة الحق ، وقراه اعضاء لجنة تحريرها وجدوا فيه من الهجوم الطائش على مقدسات الاسلام ما لا يسكت عليه الا منافق او خائن مارق من اعداء الاسلام واعداء الشعب المغربي المسلم فكتبت الي لجنة التحرير المحترمة تقترح علي الرد على ذلك الكاتب الكاذب الشتام ، فشكرت الاساتذة المحترمين المشرفين على تحرير مجلة دعوة الحق على حسن ظنهم بي واستعنت بالله على القيام بهذا الواجب ، فجاء بحمد الله قرة عين لكل مسلم مخلص داخل المغرب وخارجه ، لكنه كان سخنة عين وشجى في حلوق المارقين وحاملي معاول الهدم والتخريب . ثم لا يخفى على المعية الاستاذ الشرايبي ان النشر في بلادنا لا يزال محدودا جدا ، فايهما احسن ، السكوت على سب الله تعالى والطعن في دين الاسلام حتى يتيسر لنا من ينشر الرد على شكل كتاب ؟ ام نشره مجزأ في مجلة واسعة الانتشار تقرأ تحت كل بحم ، وفي كل صقع ، فيه ناطق بالضاد .

ثم ان المردود عليه لم ينشر في كتاب ، وانما نشر في مجلة ، والرد يتبع المردود ، على ان كل مشترك في دعوة الحق ، او ملتزم شراءها هي مجموعة عنده من اعز مقتنياته متصلة الاجزاء ، وليست كالصحيفة اليومية التي يقراها ويلقيها ليستعملها البقال في لف مبيعاته لزبنائه .

وهل يعلم الاستاذ الشرايبي ان خلقا كثيرا من جميع طبقات القراء في داخل المغرب وخارجه ينتظر حلقات هذه السلسلة بشوق وتلهف ، فما يكاد يظهر الجزء منها حتى يتلقفه ويقرأ الحلقة ويعيد قراءتها . وها انا ذا انشر من ذلك ما ورد علي في هذا اليوم نفسه فقط .

الرسالة الاولى من الاستاذ عبد الرحمن محمد صالح المحامي لرئيس ملاحظي الدائرة والذاتيـــة لسكك الحديد العراقية في بغداد .

ونص ما قاله بهذا الصدد : انني اطالع مجلة دعوة الحق المغربية ، واتتبع مقالاتكم القيمة حـــول « نقد مقال العوائق النفسية ـ لربني الحبشي » الذي افحمتموه بالحجج والبراهين الدامغة ، فجزاكم اللـه خيـر الجـزاء اهـ.

الرسالـة الثانيـة

جاءتنـي من السيد عبد الكريم بن الحـــاج عمر الناسخ بالمحكمة الشرعية بمدينة ارفود جـــاء فيها ما نصه : لقد رايت في مقالكم القيم بدعـــوة الحق في الرد على الملحدين « خـن خـين بنـــات معاوية » ولم اعرف معناها ، ارجو منكم تفسيرهااه.

على ان نشر الكتب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة ستة درجت عليها كثير من المجلات الاجنبية والعربية. فمنها ان الاستاذ خوجة كمال الدين نشر شرحـــا لاسمـاء اللـه الحسنى باللغة الانجليزيـة في مجلـة اسلامك رفيو موزعا علـى اجزائها الشهرية استغـرق سنتيـن .

ومنها ان السيد رشيد رحمه الله كان ينشـر تفسير القرءان موزعا على اجزاء مجلة المنار التـــي استغرقت «35» سنة ، في كل جزء منها تفسير آيات من القرءان ونشر لي رحمه الله بطلب منه كتابا الفتـه في حكم البناء على القبور ، سميته « القاضي العدل » موزعـا على سبعـة اجزاء .

ونشـر لي الاستاذ عبد الرحمن الوكيلي في مجلة «الهدى النبوي» التي تصدر بالقاهرة كتابين كل منهما وزع على اجزاء كثيـرة ، وللقراء اذواق مختلفـة ، يريد ان يقرا الموضوع الطويل قراءة متواصلة حتـى يتمه ، وبعضهم يطيب له ان يقرا في كل شهر ، او في كل اسبـوع حلقـة منـه .

ثم ان نشر البحث الطويل مجزا على اجـــزاء عديدة في مجلة لا يتنافى مع نشره في كتـاب واحد ، اذ يجوز ان ينشر متفرقا ، ثم يجمـع في كتاب واحد ، فيكون نفعه اعـم .

والخلاصة ان الطعن في دين الاسلام فساد وباطل يجب رده ـ على كل حـال ـ مجزا او مجموعـا ، ولا يجوز السكوت عنه ابدا ، لان الساكت عن قول الحـق شيطان اخرس .

وفي شرح السنة عن ابي بن كعب قال : سمعـت رسول الله «ص» يقول : من تعزى بعـزاء الجاهليـة فاعضوه بهن ابيـه ولا تكنوا .

يعني من احي سنة من سنن الجاهلية كالدعوى الى العصبية القبلية فاجرى سب الله والرســـول ودين الاسلام فاغلظوا له في القول ، وصرحوا له بذكر ما يكره ، ولا تستعملوا الكنايـة .

وقال تعالى في سورة القلم 9ـ12 «ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . همـاز مشـــاء بنميم . مناع للخير معتد اثيم . عتل بعد ذلك زنيم .»

قال البيضاوي في تفسير هذه الايـات : « ودوا لو تدهن » تلاينهـم ، بان تدع نهيهم عن الشرك او توافقهم فيه احيانا « فيدهنون » فيلاينونك بتـرك الطعن والموافقـة . « ولا تطع كل حلاف » كثيـــر الحلف في الحق والباطل « مهين » حقير الراي مـن المهانة ، وهي الحقارة «همـاز» عياب « مشاء بنميـم » نقال للحديث علـى وجه السعاية « مناع للخير » يمنع الناس عن الخير ، من الايمان والاتقان والعمـل الصالح « معتد » متجاوز في الظلم « اثيـم » كثيـر الاثام « عتل » جاف غليظ ، من عتله اذا قاده بعنـف وغلظة « بعد ذلك » بعد ما عد من مثالبه « زنيـم » دعي ، مأخوذ من زنمتي الشاة ، وهما المتدليتان مـن اذنيها وحلقها . انتهى .

اقول : المداهنة ان يتساهل المرء في دينه وشرفه ليربح جاها او مالا ، وهي مذمومـة لا يرتكبها الا مـن كان عديم المروءة فاقد الشـرف ، عبد الدينار والدرهم، بخلاف المداراة ، فهي التساهل في حفظ المال لسلامة العرض والشرف والدين . وقال بعضهم واجـــاد : المداهنة ان تتنازل عن دينك لاصلاح دنياك . والمداراة ان تتنازل عن دنياك لاصلاح دينـك .

وكل من يدعو المسلمين والعرب الى الانـــلاخ عن دينهم وشرفهم ومناقب آبائهم الكرام التـــي يثمناها كثير من الامم ، ولو بجدع انوفهم ، تنطبق عليه الاوصاف المذكورة في هذه الايات ، ولا يجوز التساهل معه ابدا . قال الله تعالى في سورة التوبة 73 « يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهـم جهنـم وبئس المصيـر » .

قال العلماء : جهـاد المنافقيـن بمقارعتهـــم بالحجج واخذهم بها وتضييق الخناق عليهم وفضيحتهم وتوبيخهم حتى يخزيهم الله . ومجاهدة الكفـــار اعداء الاسلام المعلنين عليه الحرب تكون بقوة السلاح.

وقوله تعالى « واغلظ عليهم » قال صاحب فتح البيان : اي شدد عليهم بالانتهار والمقت والجهاد اهـ.

وقال تعالى في سورة الاحزاب « 57–58 ان الذين يؤذون الله ورسوله ، لعنهم الله في الدنيا والاخرة ، واعد لهم عذابا مهينا . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا »

قال ابن كثير في تفسير الآية : في الصحيحين عن ابي هريرة قال ، قال رسول الله «ص» : يقول الله عز وجل يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وانا الدهر اقلب ليله ونهاره .. ومعنى هذا ان الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا ، فيسندون افعال الله تعالى الى الدهر ويسبونه ، وانما الفاعل لذلك هو الله عز وجل انتهى.

اقول : وهذا الحديث المروي في الصحيحين يدل على ان من سب الدهر ، فقد آذى الله ، وان اعداء الاسلام الاولين كانوا يسبون الدهر ، فلعنهم الله لذلك واعد لهم عذابا مهينا ، مع ان هذا السب مؤول ، لان الدهر ظرف للحوادث وليس بفاعل لها ، فآل السب الى الفاعل المختار وهو الله تعالى، فما بالك بهذا المدعو «ريني الحبشي» الذي صرح بسب الله تعالى ، وآذى جميع رسله وجميع المؤمنين من لدن آدن الى يوم القيامة ؟ فكيف لا نلقمه الاحجار ونقرعه بالحجج التي تكبته ونعامله بالاحتقار .

وينبغي ان يعلم ان وزارة الاوقاف الموقرة اسست هذه المجلة اولا لنصرة الاسلام والذياد عن حوضه . وثانيا لنشر العلوم النافعة من دينية ودنيوية ، والآداب الرائقة ، والفوائد والنكت اللطيفة . فلو سكتت عمن يسب الله تعالى ويؤذي رسوله والمؤمنين لاخلت بواجبها الاول ، وخرجت عن منهاجها الذي خطته لنفسها ، وبه كان نجاحها وارتقاؤها ، هذا رأيي ، ولا اشك في انه راي القائمين على تحريرها ، ومكانتهم في العلم والادب لا تخفى على احد .

وكاني بالمؤمن المخلص الذي يحب الله ورسوله والمومنين ، ويعظم حرمات الله ويغار عليها يقول زدنا يرحمك الله من هذه الحجج القرآنية المحمدية التي هي سيوف قواضب لرقاب اعداء الاسلام ، وانوار لوامع للمؤمنين بالله ، فاقول : لبيك .

قال الله تعالى في سورة التوبة « 12–15 وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا ائمة الكفر ، انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون . الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم ، وهموا باخراج الرسول وهم بداوكم اول مرة ، اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم .»

ايها القارىء الموفق المتحلي بالانصاف ، تامل هذه الايات الكريمات تجد فيها مسائل ، الاولى ، ان كل من نقض العهد من المسلمين والمعاهدين يجب على المسلمين قتله او قتاله ، وكل من طعن في دين الاسلام ، فان كان من المنتسبين اليه تجب استتابته ، فان تاب والا ضربت عنقه ، لان الاسلام دين ودولة . فمن نقض عهده فقد ارتكب ما يسمى في هذا الزمان « بالخيانة العظمى » فاستحق القتل في حكم الاسلام وفي حكم جميع قوانين الدول .

اما دليل حكم الاسلام فقد اخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد ان لا اله الا الله ، واني رسول الله الا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمارق لدينه التارك للجماعة .

الثانية ، قوله تعالى : فقاتلوا ائمة الكفر . يدل على انه يجب على المسلمين ان يهتموا بقتال الدعاة الى الكفر بالله الطاعنين في الاسلام ، وان يوجهوا اليهم من العناية اكثر مما يوجهونه الى الاتباع والمقلدين . والمدعو ريني الحبشي نصب نفسه اماما من ائمة الكفر وسب الله وطعن في الاسلام ودعا الى الكفر بالله ، فيجب على كل مسلم ان يقاتله بقدر ما يستطيع ويرد باطله ويكيل له الصاع صاعين ويدمغه بالحجج العقلية والنقلية .

الثالثة : ان من هم بالقضاء على شريعة الرسول وازالتها من الوجود كمن هم باخراج الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته من بلده .

الرابعة ، قوله تعالى : وهم بدءوكم اول مرة . ينطبق على ريني الحبشي ، لانه بدا بالطعن في الاسلام وافحش في ذلك واقذع وجاء بكلام بذيء .

وكل اناء بالذي فيه ينضح

فوجب علينا ان نناضل عن دين الله ونناضح عنه ونبلي في ذلك البلاء الحسن ، ولو سخط الكافرون وغضب المنافقون .

الخامسة : قوله تعالى : اتخشونهم ، فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين . يدل على ان المؤمن لا يجوز له ان يخشى اعداء الاسلام ، بل يجب عليه ان يخشى الله ويجاهدهم ، والا فليس بمؤمن .

يزيد ذلك وضوحا قوله تعالى في سورة التوبة «56»«ويحلفون بالله انهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون . »

المعنى ان المنافقين يحلفون بالله انهم لمن جملة المسلمين ، وهم كاذبون لان السنتهم آمنت وقلوبهم كفرت . وقوله تعالى « ولكنهم قوم يفرقون » اي يخافون ان تبطشوا بهم لو اظهروا ما في قلوبهم ، فالخوف من غير الله ينافي الاسلام الصحيح . « لو يجدون ملجأ» لو تهيأ لهم حصن يتحصنون فيه فرارا من الجهاد « او مغارات » غيرانا وكهوفا « او مدخلا » اي نفقا تحت الارض ينجحرون فيه ويختبئون فيه ، لانطلقوا اليه وهم يسرعون كالخيل الجمح الشاردة. وفي كتاب الله آيات اخرى تدل على هذا المعنى .

السادسة قوله تعالى « قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم » يوجب على المسلمين ان يقاتلوا اعداء الاسلام المحاربين لهم ، ليكون عذاب الله لهم بايدي المسلمين وذلك اوجع لهم واكثر ايلاما ، ولو شاء الله لاهلكهم بعذاب من عنده .

وقد وعد الله المؤمنين بالنصر واخزاء عدوهم ، وبذلك يحل الشفاء والانشراح بصدور المؤمنين التي يؤلمها ويوجعها محاربة اعداء الاسلام وطعنهم في الاسلام ، وتركهم سالمين يصولون ويجولون دون ان يصابوا باذى ، وبقتالهم بقدر الطاقة يزول الغيظ من قلوب المؤمنين ويحل محله الانشراح والسرور والاستبشار .

فهذا وجه اطالتي في الرد على ذلك العدو المهين، وانا على يقين ان كثيرا من القراء يجدون هذه المقالات بردا وسلاما على قلوبهم ، علمت ذلك بالرسائل التي تلقيتها ، واخبار المشافهة ، وهذا في نظري من اجل الخدم التي تؤديها مجلة « دعوة الحق » لقرائها . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مكناس ـ تقي الدين الهلالي

ـ واتقوا فتنة ـ

يا ايها الذين امنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم،واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه ، وانه اليه تحشرون،واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا ان الله شديد العقاب . ـ قرءان كريم ـ

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

للدكتور تقي الدين الهلالي

-12-

اقوال علماء المذهب الروحي وتجاربهم وشهادتهم :

اعلموا ايها القراء الطالبون للحق ، البريئون من الغش ، الموفقون للحق ، انني مسلم لا احتج الا بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في العقائد والاحكام والاداب ، ولكن من القواعد المسلمة في علم المناظرة ان ما يعتقده الخصم حجة عليه ، ولمخاصمه ان يحتج به عليه ، وان لم يعتقده هو . ولما سردت طائفة من شبهات الماديين وكررت عليها بالرد والنقض من طريق الماديين انفسهم واغلقت عليهم كل باب حتى صار كيدهم في تباب ، وانقشع عن المفتر بهم الضباب، بدا لي ان لا ازيد على ما تقدم من مراوغاتهم وحججهم الواهية ، ومغالطاتهم الواهنة ، لانها ظلمات يشبه بعضها بعضا ، والاكثار منها يفضي الى الملل ، وبدا لي ان اذكر طائفة من حجج اضدادهم الروحيين من اساطين العلم والمعرفة الذين رسخت في المعارف اقدامهم ، واصمت المخالفين سهامهم ، لتعلم هذه الضفادع التي تنق نقيقا ، وتوهم العامة ان جميع الباحثين والفلاسفة والمفكرين في اوربا وامريكا وصلوا الى عين اليقين انه لا شيء وراء المادة ، وان المتدينين انما يتمسكون باوهام وخيالات اكل عليها الدهر وشرب ، ومضى زمانها . فمن كان منهم يعرف الحقيقة فهو دجال مجرم خائن لوطنه ولابناء شعبه ، ومن كان يجهلها فهو مفتر كذاب عديم المروءة والشرف لا يستحي من نفسه ولا من الناس .

قال المحقق الاستاذ محمد فريد وجدي ما نصه : ان من يطلع على ما كتبه بعض علماء المادة في القرن الثامن عشر ومقدمة التاسع عشر يخيل له ان مستقبل الاعتقاد بوجود النفس والاخرة محفوف بالمخاطر ، وانه سيؤول الامر بالناس الى نبذ هاتين العقيدتين والتيقن بان المادة هي مصدر الحياة وموردها ، وان دار الثواب والعقاب ليست الا من موضوعات العقول البشرية . وفي الواقع اخذت هذه الفكرة السيئة تنتشر بين الطبقات المثقفة في اوربا انتشارا ادى كثيرا من الكتاب الى المجاهرة بها على رؤوس الاشهاد والمشافهة بها في كل ناد .

وكان العلماء المضادون لها من اهل الوجدان السليم ، قاصري الحجة امام اولئك الذين يصرحون بانهم لن يقبلوا نظرية في العلم الا اذا كانت مما تقبل الامتحان باحدى مشاعر الانسان . ولا مشاحة في انه لو كان الحال دام على ذلك المنوال لكان الامر آل اليوم الى فشو الالحاد دفعة واحدة ، وطروء اليأس على الافئدة البشرية من الحياة الخالدة . ولا يخفى ما كان ينبني عليه من الفساد الخلقي الذي هو ميكروب السل الاجتماعي ، ولكن خالق هذا الكون العالم بما ينتهي اليه حال الجمعية البشرية الضئيلة من الخلل والخطل من جراء ذلك المذهب المادي ، خلق بازاء هذه الحركة الشيطانية عقبة وقف امامها غطاريف المادة حيارى لا يحيرون جوابا ، ولا يرجعون

وعزم من راى تلك العقبة منهم على تطليق مذهب المادة بتاتا واقامة الادلة الحسية لاقرانه بانهم عن الحقيقة ضالون ، وان الروح لها وجود متميز عن الجسم ، وان الاخرة لا شك فيها . وما احسن ما كتبه

الدكتور الالماني الشهير (كارل دوبرل) في مجلة (توكونفت) الالمانية قال : « ان العلوم الطبيعية قد تجارت على نكران خلود النفس ، فعاقبها الله بان حكم عليها بان تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع » .

ما هي تلك العقبة التي اصطدم بها مذهب المادة فارتد طرفه خاسئا وهو حسير ؟ هي ظهور طائفة الروحيين الذين يزعمون الاتصال بارواح الموتى ومكالمتهم ، ويعملون بواسطتهم من الخوارق ما لا يصدقه الا من كان على مرآى منهم ومسمع

كاني ببعض القراء من ذوي الافكار الحادة ينكر علي ذلك ويعده من الخرافات التي لا تليق ان تسطر على صفحات الكتب ، اقول مهلا مهلا ، فسترى ان اعضاء هذا المذهب الذين بلغوا الان نحو عشرين مليونا ليسوا الا من رجال العلوم الطبيعية والعقول النقية .

قال (جان فينو) : مدير مجلة (المجلات) بعد ان ذكر عدد الروحيين : ولنضف الى هذا صفة اشياع هذا المذهب . فهم اما علماء او اساتذة فنيون او اطباء او مهندسون . وقال في موضوع اخر : ونحن مع ثنائنا على الذين يريدون كشف اسرار المشعوذين منهم لا يجوز ان ننسى انه يوجد بجانب هؤلاء رجال اذكياء من الطبقة الاولى وذوو ذمم طاهرة لا يشك فيها ، وكيماويون وطبيعيون وعلماء مثل (كروكس) و (نير) و (ولاس) و (زلنر) و (اوليفيه) و (لودج) و (باريت) و (دومرجان) و (بوتليروف) الخ .

ولا يصح ان يفرض ان هؤلاء الرجال يستعملون الغش والتدليس لانجاح الخرافات التي اهبطت كثيرا من العظمة الروحية . كما انه من الصعب ان تتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة ، فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية اشهر من ان تذكر . اه

لما انتشر هذا المذهب بين علماء اوربا تالفت سنة 1869 جمعية من اكابر علماء لندن لفحص هذه الخوارق فحصا دقيقا علميا ، وكانت هذه الجمعية مركبة هكذا : (جون لبك) رئيسا لها و (توما هكسلي) اشهر علماء بريطانيا و (لويس) الفيزيولوجي الطائر الصيت وكيلان لها . ومن اعضائها (الفريد رسل ولاس) و (هوندين دارون) الشهير وزميله (مرجان) رئيس الجمعية الرياضية و (فارلي) رئيس مهندسي شركات التلغراف و (جان كوكس) المشترع الفيلسوف و (اكسون) استاذ في كلية اكسفورد . الخ

فلما تكونت هذه الجمعية المهمة اشرأب الناس من كل صوب الى معرفة نتائج ابحاثها لعلمهم ان حكمها لا يقبل الاستئناف ، فاستمرت في الفحص الدقيق (18) شهرا ، وكانت النتيجة تأكيدها صحة تلك الاعمال ، وكتبت بذلك تقريرا مطولا منه هذه العبارة : ان اللجنة اقتصرت في تقريرها على الاعمال التي شاهدها كل الاعضاء مما كانت محسوسة لمشاعرهم ، وكانت صحتها مقترنة بالبرهان القاطع . ان اربعة اخماس الاعضاء ابتدأوا البحث ، وهم في اشد درجات الانكار لهذه الاشياء ، ومعتقدون قلبا وقالبا انها ليست الا نتيجة الغش او الوهم ، او بالاقل ، نتيجة العمل الاضطراري للاعصاب . ولكن بعد ان وضحت لهم هذه الاشياء وضوحا تاما في شروط نفت كل تلك الفروض ، وبعد تجارب دقيقة جدا تكررت مرارا لم ير هؤلاء الاعضاء المنكرون بدا من اعتقاد ان هذه الخوارق حقيقة رغم انفسهم . الخ

وهذا هو (كروكس) الطائر الصيت رئيس الجمعية الملكية البريطانية قد اكد في خطبته التي تلاها يوم توليه الرئاسة انه لم يزل كما كان منذ ثلاثين سنة ، يؤكد انه يعتقد بوجود قوة في الطبيعة متمتعة بعقل وارادة ومتميزة عن المادة .

وهذا هو الدكتور (لمبروزو) اشهر البحاثين في الجرائم بعد ما وصم في مؤلفاته الروحيين بالجنون اقر بغلطه . والف كتابا قال في اخره ناصحا لغيره : ولنحذر من ادعائنا دقة العقل واعتقاد ان كل الناس من قبيل المخرفين ، والظن باننا نحن فقط العلماء ، فان ذلك يوقعنا في الضلال .

وهذا هو الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الانكليزي الشهير ، كان اقسى الناس قلبا ، وامض العلماء لسانا على هذا المذهب ، ثم حبب اليه ان يدرسه فاستمر في ذلك (15) سنة ثم انتهى امره باعتقاد صحته ، وصار الان من كبار اشياعه ومشيعيه وهذا هو الدكتور (شمبر) الشهير بعد ما كافح هذا المذهب مدة مديدة

فحصه واعتقد صحته ، وكتب اقراره بغلطه السابق في مجلة (سبرتيوالي مكازين) وكذلك كان حال الدكتور المشهور (جمس جللي)

وقد تالفت جمعية في بريطانيا وامريكا تحت رئاسة الاستاذين الشهيرين (هيزلوب) عن امريكا والدكتور (هودسن) عن بريطانيا ، فاستمرت هذه الجمعية في الفحص والبحث نحوا من (12) سنة ، ثم اعلنت اخيرا في سنة 1899 انها قد اقتنعت بصحة تلك المشاهدات ، واعتقدت انها فعل ارواح الموتى .

وقد وردت في المجلة الروحية بعض من افكار رئيسي هذه الجمعية نترجم منها ما ياتي : قال الاستاذ (هيزلوب) اوّمل ان اثبت بعد مضي سنة للعالم اجمع ببراهين لا تحتمل شبهة انه يوجد حياة بعد هذه الحياة. ثم قال : وقد رأيت بعيني خوارق ومدهشات حقيقية ليست منسوبة للتدليس ولا للوهم .

وقال الاستاذ (هودسن) : العالم على وشك رؤية حوادث خطيرة جدا . فاوّمل بعد مضي سنتين او اقل ان اهدي للعالم اجمع تفسيرا جديدا لنواميس الحياة الانسانية ، ولهذه الديانة القديمة التي لا يمكن ان يعارضها دين ، ولا ان تصادمها طائفة من الطوائف . ثم قال : فسيتضح كل شيء للنوع الانساني الذي يئن ويتالم من الشكوك ويتذبذب معها الى هنا وهناك . ثم قال: واذا كان الاستاذ (هيزلوب) قد اعلن انه تحادث مع ارواح الموتى ، فانه لم ينطق الا بحقيقة نقية . اهـ

ولما قابله احد مكاتبي الجرائد وساله عن سبب ايمانه اجابه قائلا : قد ابتدأت ابحاثي انا والاستاذ (هيزلوب) منذ (12) سنة ، وكنا ماديين دهريين لا نصدق بشيء مطلقا ، ولم يكن لنا الا غرض واحد ، وهو كشف الغش والتدليس ليس الا . اما اليوم وما ادراك ما اليوم، فاني اعتقد واجزم بامكان المحادثة مع ارواح الموتى وقد قام لي الدليل على هذا الامر ، بحيث لا اتصور ان يتطرق اليه الشك مطلقا .

وقد اشاعت بعض الجرائد يوما ان الاستاذ الفلكي الشهير (كامل فلامريون) قد ترك ما كان يعتقده في الارواح فقصده مكاتب (الفيكاروا) وحصلت بينهما هذه المحادثة :

الكاتب ـ نهارك سعيد يا حضرة الاستاذ ، ما الذي طرأ ، ولم رفضت مذهبك ؟

الاستاذ ـ اني لدهش من الاشاعات التي ذاعت بشاني منذ ايام ، فاني لم ارفض مذهبي مطلقا .

المكاتب ـ اذن هذا الامر كذب محض ؟

الاستاذ ـ يقينا ، فاني ادرس دائما هذه الظواهر الروحية،واني لمعتقد اكثر مما كنت باننا في غاية الجهل باسرار هذا الوجود . ومع هذا فاني مشتغل منذ بضعة شهور بعمل كتاب سيظهر قريبا اسمه (المجهول والمسائل الروحية) وساتكلم فيه بالخصوص على ظهور ارواح الموتى .

ثم انتقل بهم الكلام الى مسائل فلكية فقال الاستاذ (كاميل) : في هذه المناسبة اقول لك : انه توجد مسائل مهمة (يعني الاسبرتزم) يجب ان تدرس ، وهي اولى بالعناية من كل المسائل الفلكية ، وساستمر على درسها باستقلال وامانة .

قال الاستاذ (كروكس) الذي تولى رئاسة الجمعية الملكية العلمية البريطانية ، وهذا اللقب وحده يكفي في تعريف قيمته ، ويغني عن سائر الالقاب ، قال امام (مئين) من اقرانه في الجمعية في مناسبة الكلام على (الاسبرتزم) : انا لا اقول ، هذا ممكن ، بل اقول ، لكم ، انه حقيقة موجوده

وقال في كتابه المسمى (الابحاث على الظواهر الروحية) الذي طبع عشرات المرات : وبما اني متحقق من صحة هذه الظواهر ، فمن الجبن الادبي ان ابى الشهادة لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئا في هذا الشأن ، ولا يستطيعون لما علقوه من الاوهام ان يحكموا عليها بانفسهم . اما انا فساسرد بغاية الصراحة ما رايته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة المدققة .

تعليقات وتوضيحات

1 ـ قوله : **وكان العلماء المضادون لها من اهل الوجدان السليم قاصري الحجة ، الخ.** كذا الامر الذي كان واقعا في اوربا في القرن الثامن عشر بتاريخ النصارى وفي اوائل القرن التاسع عشر هو بعينه الواقع اليوم في الشعوب المتخلفة ، فان علماء الدين المؤمنين بما في كتاب الله وسنة رسوله (ص) من الملائكة والثواب والعقاب الاخرين ، ووحي الله الى رسله وغير ذلك مما وراء المادة اذا جاءهم معلم في المدرسة الابتدائية ، او طالب راسب في الثانوية يعرض عليهم اراء الملحدين من اهل القرن الثامن عشر ، فتصيبهم صدمة عظيمة لا قبل لهم بها ، ولم يطلعوا على الحجج التي تقضي على تلك الاراء وتزهقها . فمنهم من يغضب ويسب ذلك المعلم وذلك الطالب ويقوم من ذلك المكان، ويمتنع من الاكل معه ، ان جمعتهم وليمة او مادبة ويشنع على خصمه بانه كافر يجب ان يقتل ، فيبلغ بذلك المعترض مراده من اهانة ذلك الشيخ واضحاك السفهاء عليه،ويوهمهم انه جاءه بالبراهين التي لا يستطيع ردها، ولذلك لجأ الى الشتم والفرار ، فيضلهم بذلك ضلالا بعيـــدا

ومن الشيوخ من يكظم غيظه فلا يزيد على الحوقلة والاسترجاع ويذم الزمان واهله ، ويقول لمن حوله : هذا ءاخر الزمان ، هذا هو الزمان الذي جاءت الاخبار التي ورد فيها ، سياتي على الناس زمان ، يكون فيه بطن الارض خيرا من ظهرها ، ويمر الحي على قبر الميت فيقول : ليتني صرت مكانك ، وهذا هو الزمان الذي جاء فيه الخبر (اذا رأيت هوى متبعا ، وشحا مطاعا ، واعجاب كل ذي راي برايه ، فعليك بخويصة نفسك ، ودع امر العامة) .

اقول : والاخبار الواردة في هذا المعنى بعضها واه ضعيف لا يثبت ، وبعضها ثابت ، ولكن عامة الشيوخ لم يفهموا معناه ، ولم يجمعوا بينه وبين الايات والاخبار التي تدل على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل ، وجهاد الكافرين والمنافقين ، والصبر على اذاهم . والذي يلقم اولئك الشياطين الفاتنين الاحجار ويأخذ منهم بالثار ، ويسل عليهم من الحجج السيف البتار ، حتى يلوذوا بالفرار ، هو التسلح بسلاح العلم الديني والعلم الكوني ، ومناهضة اولئك الجاهلين الفاتنين ، والقضاء على اباطيلهم بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، حتى يخساوا ويستبشر المومنون ويفرحوا بنصر الله .

ولما كنت في الهند رئيسا لاساتذة اللغة العربية في كلية ندوة العلماء (بلكناو) جاءني متفلسف لم يحصل من الفلسفة الا نصفها الثاني وهو السفه ، فقال لي : القرءان يقول : ان الله خلق الكواكب والنجوم زينة للسماء ، والزينة تحتاج الى اشكال هندسية مضبوطة الاقيسة كما نرى في الزرابي وفي الحدائق التي جعلت فيها الازهار على اشكال جميلة . اما الكواكب والنجوم فانها مبثوثة في السماء على غير نظام ، فصارت زينة المخلوق جميلة متقنة ، وزينة الخالق غير متقنة ولا منظمة . فقلت له : قولك ، انها مبثوثة على غير نظام لا نسلمه ، لاننا لا نرى الا بعضها بالعين المجردة ، وحتى باكبر منظار فقد ثبت عند علماء الفلك انهم لم يستطيعوا ان يدركوا نهايتها ، فكيف علمت انها مبثوثة بلا نظام ، وانت لا ترى الا جزءا قليلا منها .

ولو سلمنا انها في الواقع مجعولة على غير نظام ما جاز لنا ان ننفي انها زينة ، لاننا لو نثرنا لالىء على بساط ازرق كيفما اتفق بدون ضبط لابعادها لكانت زينة لذلك البساط بلا شك ، ولكان الناظر الى البساط المزين بها يفضله على البساط الخالي منها ، كاني بك تقول : ان تنظيمها يكون اجمل واكمل ، وهي ناشئة عن قدرة الله وصنعه المتصف بالكمال المطلق ، فكيف تجيء ناقصة . والجواب ان الله لم يخلقها للزينة وحدها ، بل خلقها كذلك ليهتدي الناس بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى (وبالنجم هم يهتدون) ولاغراض اخرى يقصر عنها علمنا ، فضحك وقال لي : اني قصدت ان اغضبك كما اغضبت كثيرا من علمائنا بهذا السؤال ، فهل علماء العرب كلهم مثلك يقرعون الحجة ولا يغضبون ، فقلت له : انا لا استطيع ان احكم على علماء العرب كلهم ، ولكني اعرف كثيرا منهم ، يسلكون طريق المناظرة وهم اكبت للعدو واهدى للصديق .

2 ـ قوله : **الذين يزعمون الاتصال بارواح الموتى ومكالمتهم الخ.** اعلم ايها القارىء العزيز انني لا اقصد بما نقلته هنا ان اثبت ما ادعوه من الاتصال بارواح الموتى او مكالمتهم ، فذلك ما لا علم لي به ،

واتما اريد ان اهدم ما بناه الجهال من بيوت العنكبوت التي اوهموا بها الناس ، ان جميع علماء اوربا وامريكا في هذا العصر نفاة معطلون ، وكما زعم ذو الريسن الحبشي انه عن قريب سيقضي على الايمان بالله ولا يبقى له اثر في نفوس الناس ، وهذا كلام بال سرقه ممن سرقه من هكسلي واضرابه المكابرين . وانت ترى هنا جما غفيرا من علماء اوربا وامريكا ، بعد ما كانوا اشد الناس تكذيبا لما وراء المادة واقاموا سنين طويلة في البحث والتنقيب ليقهروا رجال الدين وعلماء الروح بدا لهم ما لم يكونوا يحتسبوه ، فاصبحوا اشد الناس ايمانا بالله واليوم الاخر والملائكة والكتب السماوية، فلا يستطيع الجاحدون ان يطعنوا في علمهم ، ولا في تحقيقهم ، ولا في امانتهم، كما لا يستطيعون ان يتهموهم على كثرتهم بالشذوذ . على ان هؤلاء الضفادع اذا سالت احدهم من اين جاءك هذا العلم يقول : من فلان ، فاذا بحثت عنه تجده ضفدعا بشريا مثله ، ولتسمح جمعية الضفادع البشرية اذ استعملت هذا اللفظ في هذه الضفادع الضارة الحقيرة ، فاني لا اقصد تشبيهها بهم ، فانهم رجال يغوصون في البحار ويكتشفون اسرارها ودفائنها وينقذون الغرقى من الناس والقوارب والسفن .

اما هذه الضفادع ، فانها تسبح في بحور الجهل وتغرق معها الجهال ، ولا تنفع الناس بشيء .

وقوله : وقال (كارلدوبرل) في مجلة (توكونفت) الخ . اعلم ان لفظة (توكونفت) معناها باللغة الالمانية المستقبل ، ونستطيع ان نفهم من تسميتها بالمستقبل ، ومن كلام ذلك الاستاذ العظيم ان المستقبل للمؤمنين المتبتين لا للكافرين النفاة المعطلين ، قال تعالى : (سنريهم اياتنا في الافاق ، وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) .

وساثبت هنا امرا شاهدته بعيني من امور الغيب ، وقد خاب من افترى . كنت مشارطا في دوار المغوالية من قبيلة حميان ، دائرة عين الصفرة بالجزائر ، وكان الفصل شتاء ، والثلج يكسو السهول فضلا عن الجبال والخيمة التي اعطاني اولئك القوم هي حصير منصوب على عمود قصير على قدر جلسة الانسان ، وفي اطرافه الاربعة قد ربطت اربعة اوتاد مثبتة في الارض ، وليس لي فراش ولا غطاء الا غرارتان باليتان قد خيطت احداهما بالاخرى ، فالهمني الله تعالى فحفرت قبرا في وسط الخيمة ، وعمقته حتى صار طرفه يستوي مع خاصرتي ، وجمعت نوعا من الحلفاء يسمى (الصنفة) وملأته بها واوقفت الحلفاء الخشنة الى جوانب القبر، وحفرت الى جانب راسه حفرة بقدر عمق ذراعين ، واوصيت المسافرين الى المدن فاشتروا لي قديرة بقدر فوهة الحفرة ، فصرت التقط العيدان الصغيرة اليابسة من الحطب واملأ تلك القديرة بالثلج ، واضع العيدان في اسفل الحفرة واوقد فيها النار ، فيمتد لهبها الى اعلى ، ولكنه لا يكاد يتجاوز فم الحفرة ، واضع عليه القديرة ، وهي من الخزف ، فيذوب الثلج ويصير ماء فاتوضا به ، واجلس على فم الحفرة ، وفي اسفلها الجمر ، فادفا حتى اعرق ، واقوم للصلاة في جوف الليل ـ خارج الخيمة طبعا ـ وفي ذات ليلة بينما انا قائم اصلي اذ رايت غماما ابيض ، اسفله في الارض واعلاه في السماء قد سد الافق حتى لا يبصر شيء سواه ، وجاء من بعيد واخذ يدنو حتى لم يبق بيني وبينه الا بضعة امتار ، فخرج منه شخص عليه ثياب تشبه ثياب النساء ، ووقف غير بعيد مني واخذ يصلي بصلاتي كانني امامه، الا انه كان يخالفني قليلا في القبلة ، فلا ادري اينا كان مخطئا واينا كان مصيبا . وما ان ابصرته حتى اخذت ارتجف من الخوف ، وكنت اقرأ في سورة السجدة ، فخرجت منها الى سورة اخرى ، وايقنت انني من شدة الخوف لا استطيع ان اقرا السور الطوال التي فيها الايات المتشابهة ، فعمدت الى قراءة السور القصار التي لا احتاج في قراءتها الى احضار ذهني . وخطر ببالي ما يوصي به المتصوفة،وكنت اذ ذاك على طريقتهم، وهو قولهم : يجب على السائر الى الله تعالى ان لا يلتفت الى اي شيء يعرض له في طريقه ، فلذلك لم ارد ان اكلمه ، فصلى معي ست ركعات ، اسلم بعد كل ركعتين ، فالتفت بالسلام عن يميني فيفعل هو مثل ما افعله ، فلما كنت في سجود الركعة السادسة دعوت الله، فقلت : يا رب ان كان في محادثة هذا الشخص لي خير فاجعله هو يكلمني والا فاصرفه عني ، فلما سلمت من تينك الركعتين قام فمشى متئدا حتى دخل في الغمام الذي كان ينتظره ، وبمجرد دخوله فيه واختفائه اخذ الغمام يتراجع ويبتعد حتى اختفى عن بصري .

فلما التقيت استاذي الاول الشيخ الصالح الرباني محمد بيدي بن حبيب الله رحمه الله حكيت له ذلك فقال لي : اظن ان ذلك شيطان ، اذ لو كان ملكا لما اصابك منه ذلك الخوف ، واعتقدت صحة هذا الجواب مدة طويلة من الزمان ، ثم بدا لي انه غير صحيح ، لان النبي (ص) لما جاءه جبريل وهو في غار حراء خاف منه خوفا شديدا . والى الان لا اعرف حقيقة ذلك الشخص .

وسيقول الضفدع المغتر باقوال الماديين : حديث خرافة يا ام عمرو ، او يقول : انما استولى عليك الوهم والخيال ، فاقول على رسلك ايها الضفدع . فقد رأى العلماء المذكورون في هذا المقال من الخوارق اعظم بكثير مما رأيت انا ، وهيهات ان تستطيع تكذيبهم او نسبتهم الى التخيل والوهم . وقد اذكر في المقالات التالية بعض مشاهداتهم ان شاء الله .

3 ـ قوله : (سبرتبوالي) معناه المجلة الروحية .
4 ـ قوله : (سبرتزم) معناه علم الارواح .

انتظروا المقال التالي لتطلعوا على نتائج اخرى وتقريرات لأشهر العلماء الباحثين ..

واختم هذا المقال باهداء اطيب الشكر وازكى التحيات للاستاذ الاديب النقاد السيد ادريس الكتاني على ذلك النقد النزيه الذي جاء في وزنه للجزء الثاني من السنة التاسعة لهذه المجلة الحافلة ، واخبر سيادته باني جمعت هذه المقالات ، ومقالات سابقة لها في هذا الموضوع ، نشرت تحت عنوان (دواء الشاكين وقامع المشككين) ودعوت وزارة الاوقاف الموقرة على صفحات هذه المجلة لنشر هذا الكتاب ، واكدت لها ان الناس في هذا الزمان في اشد الحاجة الى قراءته ، وان نشره في المجلة لا يسد حاجتهم ، ولا ازال انتظر واامل ان توفق وزارة الاوقاف الى القيام بهذا العمل .

وبالله التوفيق

هم لها سابقون

... فذرهم في غمرتهم حتى حين ، ايحسبون انما نمدهم به من مال ، وبنين ، نسارع لهم في الخيرات ، بل ، لا يشعرون ! . ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يومنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يوتون ما اتوا ، وقلوبهم وجلة ، انهم ، الى ربهم راجعون ، اولئك يسارعون في الخيرات ، وهم لها سابقون .

قرءان كريم

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 13 -

دونكم ايها القراء الاعزاء آراء طائفة اخرى من العلماء ونتائج تجاربهم على اختلاف اختصاصهم في العلوم ، واختلاف اوطانهم وشعوبهم . واعيد ما قلته من قبل ، اني مسلم ، اومن بالكتاب والسنة ، واجماع الامة ، واقبل كل راي لايناقض ذلك ، ولا يلزمني اعتقاد كل ما اوردته هنا ، ولكنه حجة على الماديين المعطلين الذين يزعمون انهم لا يؤمنون الا بما يدرك بالحواس الخمس .

وقد ادرك هؤلاء العلماء ما ننقله عنهم بعقولهم وبالحواس الخمس ايضا ، ولا يستطيع الماديون تكذيب هذه الجمهرة من العلماء ، او نسبة التوهم لها ، فما لهم من ملجا يلجاون اليه ، ولا مهرب يفرون اليه ، والحق ابلج ، والباطل لجلج ، ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم .

1 — ومن القائلين بهذا المذهب الدكتور « جورج سكستون » الانكليزي ، وبعد ركنا من اركان النهضة العلمية في هذا العصر ، وكان في مبدأ امره من اشد اعداء هذا المذهب ، وقد كان كثيرا ما يجرد عليه عضبا من لسانه مرهفا حتى كاد بفصاحته ان يتغلب على شهادة الحس عند اولئك الباحثين فخشي الكل تأثيره ، لا سيما ولم يكن من الرجال الذين يمكن اقناعهم بشيء ، لانه كان مشهورا بشدة الانتقاد والتشكك ، ولكن لامر يريده الله ، حبب اليه بحث هذا المذهب ، فظل يحاول خمس عشرة سنة ، لا ليعتقده ان كان صحيحا ، ولكن ليجد الوسيلة التجريبية الى دحضه فلم يسعه — رغم انفه — الا الانقياد للحق واعتقاده ، وكتب مقرا بغلطه عن نفسه يقول : انني تحصلت في بيتي الخاص ، وبمعزل عن كل واسطة «للتحضير» ، غير اصحاب لي ، لديهم قوة استحضار الارواح على البرهان الذي يستحيل دحضه والذي هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت بيان المخاطبات التي حصلت عليها هي من احباب واقارب ميتين .

2 — اما الاستاذ « لودج » الذي يلقبه العلماء « دارون الطبيعة » فقد وقف امام الجمعية العلمية الانكليزية وقفة الذين لا يخشون في الحق لومة لائم وترجى اخوانه ان يهتموا غاية الاهتمام بهذه المسائل الروحية التي هي كما يقول : تأسر الباحث بغرائبها المدهشة اسرا .

3 — ومثل هؤلاء كان حال الدكتور «شامبير» الذي له القدح المعلى في العلوم الطبية .

4 — والدكتور « جمس جللي » صاحب كتاب «القانون الصحي للامراض المزمنة» الذي طار صيته في جميع اقطار العالم الطبي .

5 — ومثلهم الاساتذة «اكسون» استاذ كلية اوكسفورد اشهر المدارس الانكليزية .

6 — « وسيرجون كوكس » الفيلسوف المشترع الانكليزي الشهير .

7 — والاستاذ «باركس» الجيولوجي الانكليزي الشهير . كل هؤلاء غير الثلاثين عالما الذين كلفتهم جمعية العلوم بتحقيق خوارق هذه المسالة كما تقدم تفصيلا قبل قليل .

8 ـ وكان المستر «غلادستون» من كبار المصدقين بهذا المذهب ، قال في بعض كتاباته كما هو مكتوب في المجلة الروحية « ادرس مشاهدات الاسبرتزم . فاذا وجدت فيها غشا وتدليسا ، فاهزأ بسائر المصدقين بها ، واسخر بي في مقدمتهم .

9 ـ قال اللورد «بالفور» ، وهو السياسي المشهور : عندي الاسبرتزم افضل من السياسة لانها تفيدني اكثر منها » ونحن لم ننقل كلام هذين الرجلين الاخيرين الا لكونهما معدودين من رجال العلم .

10 ـ وقال العلامة « كرمويل فارلي » المتقدم ذكره : ان الشتائم والسخرية التي تكبدناها في سبيل الاعتقاد بالاسبرتزم لم تات الا من جهة الذين لا يحصل لديهم اقدام على البحث والتنقيب الا بعد معادات ما يجهلونه .

11 ـ وكتب الاستاذ الشهير « باركس » في مجلة « يوتلنيس اوف انفستيجشن انتومودرن سبيريتواليزم » اي فائدة البحث في علم الروح العصري . قائلا انه قبل ان يعتقد حقيقة الاسبرتزم قرأ كل كتاب الف للدفاع عنه او في دحضه ، وجادل كل متكلم فيه ، ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشرة سنوات ، قال وبعد هذا كله استطعت ان اتكلم في مشاهداته ، واخطب فيه بعلم ودراية .

12 ـ وكتب العلامة « اجست مورجان » المتقدم ذكره في مجلة « فروم ماستر اوف سبيريت » من معلمي الروح ـ قال : انا مقتنع بصحة الاسبرتزم مما رايته بعيني وسمعته بأذني ، اقتناعا يجعل تطرق الشك الي مستحيلا عندي ، وان الروحيين لعمل الطريق الذي تقدم العلوم الطبيعية ، وليس اضدادهم الا مشخصين للذين يريدون وضع العقبات في سبيل الترقي .

13 ـ وكتب الاستاذ «اكرومويل فارلي» الى الاستاذ الشهير «تندل» يقول : انا لندرس الان من «الاسبيرتزم» ما كان قبل الفي عام ، الشغل الشاغل للفلاسفة ، ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليوناني واللاتيني والواقعين على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضي لراينا ان الذي يحصل الان ليس هو الا جانبا قديما من التاريخ ، لدرجة تعلي مقام اولئك العقلاء الاقدمين لكونهم استطاعوا ان يرتفعوا عن الاوهام الضيقة التي كانت سائدة في زمانهم ، ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسالة بتوسع يفوق في اشكاله الكثيرة معلوماتنا الحالية فيها .

14 ـ وقال القس « سنتون موزس» مدرس علم اللاهوت بلندن بعد فحص الاسبرتزم عدة سنين هو وطائفة من رجال العلم معه قال : ان وضوح وجود هذه القوة المحكمة بعقل يرتكز على ما يأتي :

ا» وضوحها لحكم الحواس . ب» تكلمها غالبا بلغة يجهلها المستحضر . ج» سمو الموضوع الذي تتكلم فيه على معلومات المستحضر غالبا . د» ثبوت استحالة انتاج هذه النتائج بواسطة الغش في الشروط التي حصلت فيها .

15 ـ وقال الاستاذ «كروكس» احد رؤساء جمعية العلما ءالانكليزية : انا اقول بغاية البساطة ، كل ما رايته ، وكل ما ثبت لي بالتجارب المتكررة المدققة ـ وانا لا اقول : ان هذا ممكن ، ولكني اقول انه ثابت محقق .

16 ـ وقال العلامة الفسيولوجي «ولاس» مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي مع دارون في كتابه المسمى « خوارق العصر الحالي » : لقد كنت دهريا صرفا مقتنعا بمذهبي تمام الاقتناع ، ولم يكن في ذهني ادنى محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ، ولكني رايت ان المشاهدات الحسية لا تغالب ، فانها قهرتني واجبرتني على اعتبارها اشياء مثبتة قبل ان اعتقد نسبتها الى الارواح بمدة طويلة ، ثم اخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئا فشيئا . ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتاثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة اخرى « اي بغير نسبتها الى الارواح » .

17 ـ وقال الاستاذ «اليوت» رئيس جمعية العلماء الامريكية في مجلة « انال بسيشك » ما ياتي : منذ مدة وجيزة كان يشق علي الامر كلما افتكر في انني سأكون كاتبا لتاريخ مثل هذا « تاريخ مشاهدات الاسبيرتزم» ولكني اراني لا استطيع ان اخون اعتقادي بدون ان اهبط من كمالي العقلي ، ولا يمكنني السكوت امام هذه المشاهدات الحقة ، لئلا انسب للجبن الادبي .

18 ـ ومن ضمن مشهوري انصار هذا المذهب الاستاذ « تسولنر » الفلكي الالماني الشهير المعدود نادرة الزمان في الذكاء ، اعتنى هذا العلامة بالبحث فيه ومعه الاساتذة الالمانيون المشهورون :

19 – « ويبر » .
20 – « فيشنر » .
21 – « شيبنر »
22 – « التريسي »
23 – « وينـدت » .

24 – وكان الواسطة معهم « سلاد » المشهور. بعد شدة البحث والتدقيق اعتقد هو ورفاقه صحة الاسبرتزم كما اعتقدها الوف غيره من العلماء . ولم يكد ينتشر اعتقاده بذلك المذهب حتى تصدى له الاساتذة :

25 – « فيرخو »
26 – « هلمولتز »

27 – « هيكل » . ونشروا فى بعض الجرائد العلمية ان الاستاذ زولنر قد انخدع وانغش ، وكادوا يؤثرون على مقامه العلمي تأثيرا سيئا فبرز اليهم « زولنر » ودعاهم لمناظرته ، ثم نشر كتابه المسمى « اوراق علمية » اثبت فيه بغاية الوضوح والدقة ما رآه هو ورفاقه من المشاهدات الحسية، فلم يسع اولئك الاساتذة الا السكوت والانهزام امام تلك الحجج الناطقة .

28 – وكتب الاستاذ « شارل فوقتي » فى كتابه المسمى « الوحي الجديد – الحياة » يقول : لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الارواح ، صارت الحياة الادبية مهددة بالزوال ، واحس المجتمع الانساني من نفسه بانه قد دخل فى دور الفتن والانحلال الذي يجب ان يعقبه الخراب التام ، ولكن لما اشرقت فى الاذهان هذه الفكرة الجديدة « الاسبرتزم » وان لم تكن بينة الحدود للان – احست النفوس بقرب حدوث تغير جديد فى الافكار ، فى المؤتمر الاسبيرتي العام الذي انعقد فى لندن 22 يونيه 1898 قام العلامة .

29 – « دوروشاس » وتلا مقالة عنوانها « حدود الطبيعة » جاء منها « والحاصل فان هذه المشاهدات الخارقة للعادة ، والتي يغضب النطق بها رجالا يحسبون انفسهم علماء ببحثهم الكثير او القليل فى بعض الفروع العلمية ، ليست هي بالنسبة لنا الا امتدادا للمشاهدات التي رأيناها بانفسنا ، وصار الشك فيها من قبيل المستحيلات .

وقام الاستاذ « لودج » الرياضي الشهير الذي يفخر به الانكليز فى مؤتمر جمعية تقدم العلوم الانكليزية الذي انعقد فى سنة 1891 وتلا مقالة كان لها تأثير عظيم فى العالم كله ، قال منها مشيرا للاسبيرتزم : ان الحد الفاصل بين العالمين المادي والروحاني قد قرب ان ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره ، وبهذا سنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة ، وان الاشياء الممكنة لا حد لها ، كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية ، وان الذي نعلمه الان منه لا يساوي شيئا بالنسبة لما غاب عنا علمه ؛ ولو اكتفينا بما كشفناه للان واقتنعنا به ، نكون قد خنا اقدس الواجبات العلمية .

اجتمع فى سنة 1893 عند الاستاذ :

30 – « فنزي » فى ميلان الاساتذة :

31 – «الكسندر اكزاكوف» مستشار القيصر الروسي ومدير مجلة « بسيشيش ستوديان »

32 – والاستاذ « جيوفاني » مدير مرصد ميلان الفلكي .

33 – والدكتور الالماني الطائر الصيت «كارل دوبرل » .

34 – والاستاذ « انجلو بروفيربو » .

35 – والاستاذ «جيوزب جيروزل» مدرس الطبيعيات فى مدرسة « بورتيسي » العليا .

36 – والاستاذ الشهير « شارل ريشه » المدرس بمدرسة الطب ، ومدير المجلة العلمية .

37 – والاستاذ « لومبروزو » اجتمع كل هؤلاء العلماء ، وفحصوا المشاهدات الاسبيرتية فى سبعة عشر مجلسا ، وكانت الواسطة « مدام اوزانيه بلادينو » فكتبوا تقريرا ، وقع برمته فى مجلد سنة 1893 من المجلة الروحية ، وفيه يشهدون علنا امام العالم بان كل ما شاهدوه من الخوارق لا غش ولا تدليس فيه ، وان هذه المشاهدات جديرة بالدخول فى سلك المسائل العلمية .

تقدم قبل بضع صفحات ان الاستاذين « هيزلوب » و « هودسن » وعدا بان يكشفا اللثام عن معتقدهما فى الاسبيرتزم ويثبتا للعالم ببراهين دامغة خلود الروح ففعل كلاهما ما وعد به . وابتدا الاستاذ « هيزلوب » فسرد مشاهداته المدققة وختمها بهذه العبارة : لا يمكن تفسير هذه المشاهدات بغير الاسبرتزم . اي بغير نسبتها الى ارواح الموتى .

اما الدكتور « هودسن » فقد كتب تقريره في الجزء 22 من نشرة جمعية الابحاث النفسية الانجليزية نقتطف منه ما يأتي مترجما عن اللغة الفرنسية . قال في صحيفة 396 : لقد جربت « التلباتيا » بين الاحياء مدة سنين عديدة ، وها انا لا اتاخر عن التاكيد بطريقة مدققة ، بان الفرض الاسبريتي « اي كون هذه المشاهدات منسوبة للارواح » حق لا شبهة فيه ، وتدل عليه نتائجه بخلاف الفرض الاول .

وجاء في صحيفة 405 ان وضوح هذه المسائل هذا الوضوح التام قد ازال عني كل ما كان يصرفني عن التصديق بان هذه الظواهر نتيجة افعال الموتى .

وجاء في صحيفة 406 : الان لا يمكنني ان اقول بان لدي ادنى شك او ارتياب في ان المرائي المهمة التي تكلمت عنها في الصحائف المتقدمة ، هي حقيقة عين الاشخاص الذين تدعي هي انها هم ، وانهم لم يزالوا احياء بعد تلك الاستحالة التي نسميها نحن الموت ، وانهم بواسطة جسم مدام « بيبر » المتشنجة يتعرفون مباشرة الينا نحن الذين نسمي انفسنا احياء .

39 — اما الدكتور « جيبيه » المؤلف الفرنسي الطائر الصيت ، ومعتمد الاستاذ « باستور » في مكتشفاته البديعة ، حبب اليه البحث في الاسبرتزم منذ زمان طويل . وله في هذه المسالة كتابان جليلان جدا ، احدهما اسمه « الاسبرتزم » والاخر اسمه « تحليل الاشياء » ظهر الاول في سنة 1886 والثاني في سنة 1890 .

اخذ هذا الدكتور في فحص الاسبرتزم مدة ثلاثين سنة ، فدقق النظر فيه ، وجرب بنفسه تجارب يقصر عنها من لم يكن على شاكلته ، ثم الف كتابيه المذكورين على التعاقب ، فيرى المطالع لهما انه لم يصل الى نتيجته الاخيرة الا بعد تردد عظيم من كثرة تشككه ودقة نظره .

فاذا تصفحت كتابه المطبوع في سنة 1886 تجد انه لم يكن لذلك الوقت حاصلا على البرهان القاطع بخلود الروح ، ولو كان فكره « المادي » قد تحول عن مركزه تماما . فانه قال في آخر مقدمته : لنعلن على رؤوس الاشهاد باننا اول ما بدانا درس هذه المباحث النفسية ، كنا نعتقد من صميم فؤادنا باننا امام عالم من خيالات واباطيل يجب علينا كشف الستار عنها وفضحها . وقد صرفنا كثيرا من الزمن للتخلص من هذه الفكرة « اي فكرة كونها خيالات واباطيل » .

ولكنه مع اعترافه ، بان مشاهدات الاسبرتزم ليست بخيالات ولا اباطيل لم يحصل على البرهان القاطع بخلود الروح ، لانه ختم عبارته بقوله : فلنصرح اذن بفكرنا ونقول : كلا ، ان كل هذه الظواهر المدهشة التي لا يمكن تفسيرها بمقارنتها بالشيء القليل الذي نعلمه لا تثبت لنا بطريقة مطلقة ان الموت يهب الحرية للذات الانسانية المدركة الباقية .

ولكنه لم يجبن امام صعوبات هذا البحث ، ولم يكتف بهذا الموقف المشكك ، بل مشى للامام بقدم الشجاع الثابت الجاش ، ثم كتب بعد اربع سنوات كتابه الجليل المسمى « تحليل الاشياء » فصرح فيه بعقيدته حيث قال : في جلسات التجسد « اي التي تتجسد الارواح فيها ، وتظهر في جسم يلمس ويحس » يمكن لكل انسان ان يرى شخصا من اسرته قد مات منذ زمان بعيد او قريب ، فيظهر له عيانا ويكلمه .

نعم يكلمك بسريرته الخاصة التي لا يعلمها غيرك ، وترى ان صورته لم تتغير ولم تتبدل ، وان له قلبا يخفق ، ويمكن ان تاخذ صورته الفوتوغرافية ، ويترك لك شكل يده ، بل وشكل راسه بالجبس . كل هذه الاشياء الفوتوغرافية والجبسية تبقى لك برهانا محسوسا دامغا على انك لم تر ذلك في الحلم ، بل يقظة .

ولنضف لك هنا ان هذا التسجيل يحصل بواسطة الارواح العاملة على قوة الواسطة المستعارة منها . فثبت من هنا لدى العلماء الذين راوا هذه الآثار الخارجية الحاصلة بحضور الواسطة ، بان هذه المرئيات تحتوي على البرهان المفحم الذي لا تتحصل على مثله قط ، بان لنا روحا مدركة ومتميزة ومخلدة بعد الموت .

بعد الموت يجد الانسان نفسه في عالم اسميه «ما بعد الحياة » في حالة ليست في الحقيقة الا ذاته الكاملة . اما هذه الحالة التي يعيش فيها الآن فليست الا حالة وقتية ولا اقول بدون فائدة .

واذا اراد المطالع ان يتحقق من صدق هذه المشاهدات بنفسه ، فانه سيقتنع بسرعة ، باني لم ابالغ فيما قلته وانه سيرى اعتقاده يقوى ويشتد على قدر ما تكون ابحاثه حازمة ومتكررة ، ولو كانت هذه المرئيات باطلة لحصل عكس ذلك .

توضيحات لما تقدم

نقلت ما تقدم من دائرة المعارف ، وقراته مرارا فرايته واضحا لا يحتاج الى شرح الا قول الدكتور جيبيه فى كتابه الاول « الاسبرتزم » : ان الموت يهب الحرية للذات الانسانية المدركة الباقية اهـ. يعني ان الدكتور جيبيه لم يحصل على نتيجة تامة عندما الف كتابه « الاسبرتزم » ولم يقم عنده البرهان القاطع على الموت يعطي الحرية الذات الباقية المدركة .

فان قلت : كيف يتصور ان الموت يعطي الانسان شيئا ، والذي يظهر لنا انه يسلبه كل شيء ، فالجواب: اذا كانت الروح مستقلة بوجودها قبل الموت وبعده وخالدة لاتفنى يمكننا ان نتصور ان الانسان فى حال حياته يكون فى اسر وقيود ترابية منها حاجته الى المعيشة الى المكان والزمان والغذاء ، ومنها خوفه على حياته وعلى جسمه من المرض والموت والمصائب التي تنغص عليه عيشه ، فاذا مات تحرر من تلك المخاوف كلها .

ثم ان كثافة الجسم الترابي تضيق معلوماته ، وتصعب عليه فهم الحقائق حتى اذا تخلصت الروح من الجسم الترابي يعود لها صفاؤها ، وتدرك حقائق المعلومات بدون تعب ، ويكون اتصالها بخالقها ، وبالعالم العلوي تاما ، وترتفع عنها الحجب. وانشد علماء الزهد فى هذا المعنى :

سبيت الورى طرا وانت محجب
فكيف بمن يهواك ان زالت الحجب

واصبحت محبوب القلوب بأسرها
ولا ذرة فى الكون الا لها قلب

وقد ثبت الدكتوز جيبيه بعد دراسة اربع سنين اخرى ان الموت يهب تلك الحرية للانسان على اكمل وجه كما رايت .

قال المحقق نعمان خير الدين ، الشهير بابن الالوسي البغدادي فى كتابه « جلاء العينين ، فى محاكمة الاحمدين » ص 148 .

اختلف الناس ايضا فى الروح : هل تموت ام لا ؟ فذهب طائفة الى انها تموت ، لانها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت . واذا كانت الملائكة يموتون ، فالارواح البشرية اولى .

وقالت طائفة : انها لا تموت ، للاحاديث الدالة على نعيمها وعذابها بعد المفارقة الى ان يرجعها الله تعالى الى الجسد .

قال فى روح المعاني : والصواب ان يقال : موت الروح هومفارقتها الجسد ، فان اريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقة الموت ، وان اريد انها تعدم وتضمحل ، فهي لا تموت ، بل تبقى مفارقة ما شاء الله تعالى ، ثم تعود الى الجسد وتبقى معه فى نعيم او عذاب ابد الابدين اهـ.

وللروح معان اخر ، ليس هذا موضع ذكرها ، من ارادها فليرجع الى كتب التفسير . والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .اهـ

وقد اجاد الرئيس ابو علي ابن سينا عميد فلاسفة الاسلام فى قصيدته العينية فوصف الروح وصفا دقيقا جدا بطريق الاشارة . انقل هنا بعض ابياتها . قال رحمه الله تعالى :

هبطت اليك من المحل الارفع
ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع
انفت ومـا انست فلما واصلت
الفت مجاورة الخراب البلقع
واظنها نسيت عهودا بالحمى
ومنازل بفراقها لم تقنع
حتى اذا اتصلت بهاء هبوطها
عن ميم مركزها بذات الاجرع
علقت بها تاء الثقيل فاصبحت
بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد ذكرت عهودا بالحمى
بمدامع تهمي ولم تتقطع
وتظل ساجعة على الدمن التي
درست بتكرار الرياح الاربع
اذ عاقها الشرك الكثيف فصدها
نقص عن الاوج الفسيح المربع
حتى اذا قرب المسير عن الحمى
ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فابصرت
ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق
والعلم يرفع كل من لم يرفع

واخرج البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من احب لقاء الله احب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ــ فقالت عائشة او بعض ازواجه : انا لنكره الموت ، قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس احب اليه مما امامه ، فاحب لقاء الله واحب الله لقاءه ، وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء اكره اليه مما امامه ، فكره لقاء الله ، وكره الله لقاءه.

وقال تعالى فى سورة فصلت 30 ــ 31 « ان الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الاخرة ، ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم » .

قال ائمة التفسير فى قوله تعالى ، قالوا ربنا الله ، اي وحدوه فى ربوبيته وعبادته ، ودعائه ، والرغبة اليه والرهبة منه ، والالتجاء اليه وحده لا شريك له فى تفريج الكربات وقضاء الحاجات . «ثم استقاموا » على طاعته واتباع سنة رسوله «تتنزل عليهم الملائكة» عند موتهم يبشرونهم قائلين لا تخافوا مما تقدمون عليه ، فانكم مقدمون على سعادة لا حد لها « ولا تحزنوا » على ما خلفتم من اهل ، فالله يخلفكم فيهم « وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون » فى كتاب الله وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الاخرة » معناه ان الملائكة لم يزالوا مع المؤمنين فى حياته الدنيا يثبتونه ويستغفرون له ، ولن يزالوا معه بعد موته يؤنسونه ، غير انه لا يراهم الا عند خروج روحه حين يتغلب سلطان الروح على الجسد . اما بعد الموت فانه يشاهدهم عيانا دائما «ولكم» فى الاخرة كل ما تشتهي انفسكم ، وكل ما تريدونه اكراما وضيافة من رب عظيم المغفرة واسع الرحمة . انتهى تفسير الآية .

وهذا برهان قاطع على بقاء الروح ونعيمها وسعادتها بعد الموت كما قرره اولئك الفلاسفة . وقال تعالى فى سورة الواقعة 83 ــ 95 « فلولا اذا بلغت الحلقوم ، وانتم حينئذ تنظرون .. ونحن اقرب اليه منكم ، ولكن لاتبصرون . فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين . فاما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . واما ان كان من اصحاب اليمين ، فسلام لك من اصحاب اليمين . واما ان كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم وتصلية جحيم ، ان هذا لهو حق اليقين . »

يقول الله تعالى : فلولا ، اي هلا « اذا بلغت الحلقوم ، اي الروح المفهومة من السياق وانتم ايها الحاضرون عند الميت تنظرون اليه ولا تدركون حقيقة امره . ونحن اقرب اليه بعلمنا منكم. لكن لا تبصرون. كما قال تعالى فى سورة الانعام 103 « لاتدركه الابصار، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير » هذا فى الدنيا ، واما فى الاخرة فيراه المؤمنون فى دار الكرامة بابصارهم كما يرون القمر ليلة البدر ، صحت الاخبار بذلك .

فلولا ، هلا ، ان كنتم غير مدينين محكومين ومجزيين ــ كما تزعمون ايها الكفرة ، ترجعونها ، اي تردون الروح وتدفعون عنها الموت ، ان كنتم صادقين فى زعمكم انه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ، ولا حياة بعد الموت . فاما ان كان ، اي الميت من المقربين اي السابقين من الاصناف الثلاثة المذكورة فى اول السورة ، فروح ، اي فله راحة ، وريحان ، اي رزق كريم ، وجنة نعيم ، فيها ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

واما ان كان الميت من اصحاب اليمين فسلام لك ايها المخاطب من اصحاب اليمين ، اي سلامة لهم ، او سلام يصلك منهم ، او تاهيك بما هم فيه من الكرامة كما يقال بالعامية : يا سلام عليه . واما ان كان من المكذبين لله ولرسله الجاحدين ربوبيته او الهيته ، او ارسال رسله الى خلقه ، فنزل من حميم ، اي فلهم ضيافة من الماء الحميم البالغ درجة الغليان . وتصلية جحيم ، اي احراق بنار جهنم ، ان هذا الذي ذكر لهو حق اليقين ، اي اليقين الحق الذي لاشك فيه .

وقد تبين الان ان الروح بعد الموت باقية خالدة ، اما فى نعيم ، واما فى جحيم ، وفى القرآن آيات كثيرة تدل على هذا المعنى . وقد توصل الفلاسفة بطرقهم الخاصة الى بقاء الروح وخلودها بعد الموت ، ولكن ما توصلوا اليه بالنسبة الى ما جاء به رسل الله نقطة فى بحر . فالحمد لله الذي احق الحق وازهق الباطل ولو كره المجرمون ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

مكناس : تقي الدين الهلالي

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 14 -

ذكرت فيما مضى اقوال طائفة كبيره من علماء اوربا وامريكا جماعات وافرادا ، كلهم اطالوا البحث والتنقيب فى العالمين المادي والروحي ، وانتهت مباحثهم بنتيجة واحدة ، لا يختلفون فيها ، وهي ان هناك عالمين، عالم الغيب وعالم الشهادة ، وبعبارة أخرى عالم المادة وعالم الروح . ونتائج البحوث الباهرة ارغمت اشد الماديين عنادا ان يومن بعالم الروح ، وبخالق جميع العوالم وفى هذه الحلقة اضيف الى ما تقدم مباحث اخرى ونتائجها مما تقر به عين المؤمن المخلص ، والباحث المنصف ، وتسخن به عين المكابر المتعسف .

قال الاستاذ فريد وجدي : من بين الدافعين صدر الالحاد فى اوربا والطاعنين كبده العلامة الفلكي الطبيعي الشهير كامل فلامريون ، فان كتبه فى هذه المواضيع اشهر من ان تذكر ، من بينها كتاب نشره تحت عنوان (المجهول والمسائل الروحية) بمجرد ما طبع هذا الكتاب اكب الناس على مطالعته حتى توالت منه عدة طبعات فى ايام معدودة ، لان الكاتب عالم طبيعي من الطبقة الاولى وفيلسوف حسي ، شديد العارضة فما زال فى كتابه يحاكم المشاهدات ويقارن احوالها المختلفة ، ويردها الى القوانين والنواميس المعروفة ، حتى اتضح له صحة اربع نظريات وضوحا محسوسا اتى بها فى كتابه نتائج لمقدماته السابقة ، تلك النظريات هي :

1 — الروح ، موجودة وجود كائن مستقل عن الجسم .

2 — وهي متمتعة بخصائص لم تزل للان مجهولة لدى العلم .

3 — يمكن الروح ان تؤثر او تتاثر من بعد بدون اعانة الحواس .

4 — المستقبل مقدر من قبل وقوعه ومحدد باسباب ستحدثه فيما بعد . فالروح قد تدرك هذا القدر قبل وقوعه احيانا .

هذه هي النظريات الاربع التي برهن الاستاذ الفرنسي على حقيقتها ببراهين حسنة مهمة . ومن ضمن ما طالعناه فى ذلك الكتاب قوله فى ص 246 (الانسان مسوق بطبعه لانكار كل ما يظهر انه مشكوك فيه ، وكل ما لا يعلمه وما لا يستطيع ان يفهمه، فاننا اذا قرانا فيما كتبه (هيرودوت) او (بلين) ان امراة كان لها اذي فى فخذها الايسر ، وكانت تغذي ولدها منه ، نضحك ونستهزىء ، ومع ذلك ، فانمثل هذه المشاهدات قد تقررت صحتها فى جمعية العلماء الفرنسية فى باريس بجلستها المنعقدة فى 25 يونيو سنة 1827 وان اخيرنا مخبر بان رجلا وجد فى احشائه ولد بعد تشريحه ، وان هذا الولد كان توأما لذلك الرجل ومحبوسا فى جثمانه ، وانه قد شاخ فيه والتحى ، فاننا نعتبر هذا خرافة محضة مع اننا قد شاهدنا بانفسنا من مدة ليست ببعيدة مولودا ولد ميتا ، وله من العمر (56) سنة .

قال احد مترجمي كتب (هيردورت) ان زعمهم أن روكسان (امراة الاسكندر) ولدت طفلا بغير راس يعد من الاشياء المنافية للعقل التي نتيجتها ان تهبط من شرف كيزياس (مؤرخ يوناني) ومع ذلك ، فان جميع النواميس الطبيعية فى هذا العصر تثبت الاطفال الذين يولدون بغير رؤوس .

كل هذه الامثلة وكثير غيرها تدعونا الى الاحتياط والتبصر ، فان الذين ينكرون الاشياء بدون تحفظ هم الاغبياء الجاهلون . وقد يمكننا ان نكثر من هذه الامثلة ، ولكن رأينا ان ذلك غير مفيد اقرائنا الافاضل ، فلنكتف بقولنا : ان المشاهدات التي نقلناها هنا مطابقة للاسلوب التجريبي نفسه تمام المطابقة .

نقول هذا كله يدل على ان في الوجود حركة اعتقادية مهمة جدا ستؤدي الى نتيجة غير منتظرة تحقيقا لوعد الله (كتب الله لاغلبن انا ، ورسلي ، ان الله قوي عزيز) .

سبحانك اللهم ما اكبر سلطانك ، ان هؤلاء الرجالات العظام الذين نقلنا اقاويلهم في مكالمة الارواح، لو قيل لاحدهم قبل ردح من الزمن قصير ، ان لله روحا اضحك من عقل مخاطبه واستهزأ به ، وعده واحدا من المتاخرين في العلم ، ولابى ان يحاوره في هذه المسالة الا بالنكتة اللطيفة تمضية للوقت ، لكن انظر هم الآن تجدهم يثبتون لك ما يترفع ان يقوله احد جهلة الشرقيين ، وبمضي احدهم ثلاثين سنة من عمره في بحث واستحضار واخذ ورد ، ثم يؤلف كتابا عقب ذلك يقر فيه امام الملأ انه كان ماديا كافرا فاصبح الآن بفضل الاسبرتزم روحيا مؤمنا ، ثم ينبري للطعن فيما كان يقول به بالامس طعن المنتصر للحق على الباطل ، والمغلب للفضائل على الرذائل اليس هذا بعجيب .

نعم جلت رحمة ربي وعظمت حكمته ، كم له في تاديب البشر من وسائل ، وفي كبح عرامهم من ذرائع لو تدبرها الانسان لرأى بعين بصيرته يد العناية الرحمانية ترفع الانسان مما يرتطم فيه من مهاوي سقطاته ، وتقيمه على نهج السبيل ووضح المحجة .

تخيل قوما راوا ما وقع فيه الاقدمون من الخيالات وما حملوه عواتقهم من الاوهام وما استلزم ذلك من بعدهم عن الحقيقة التي هي ضالة الانسانية ، وما استدعاه من عشوتهم عن تنور الظواهر الجلية لما ران على ابابهم من تلك القواعد الاعتقادية ، قلنا تخيل قوما راوا ذلك بأعينهم ثم انظر كيف يكون مبلغ كراهيتهم لبنات الافكار التي لا يؤيدها من الواقع دليل ولا يعززها من الحس برهان . قالوا ، ماذا يفيد الدليل والبرهان ان كانا عقليين ، وقد ثبت ان مدارك العقل كثيرا ما تحيد عن الجادة وتلقي بالانسان الى متالفه من الاضاليل لا يميز فيها بين الحقائق والاباطيل ، ما الذي اوقع الاقدمين في أوهاق الخرافات فحرموا بذلك انفسهم انوار العرفان ؟ ما الذي دهورهم في تيهور المدركات السافلة، والتصورات النازلة ، فسدوا دونهم طريق الحقيقة التي هي الغاية لمحاولات الانسان ؟ اليس لانهم اطلقوا لافكارهم عنان الجولان ، ولعقولهم حرية الجزم في الاحكام ؟ اليس لانهم عموا عما يتنازع الوجدان من المؤثرات ، وما يتقاسمه من الاعراض التي تجعله في واد والحقيقة في واد .

ثم قالوا اذا كان الامر كذلك ، وكان محض الدليل العقلي غير كاف في اثبات شيء او نفيه ، فلا سبيل الى معرفة الحقيقة الصحيحة الا اذا سندها من الحس دعامة ركينة ، وكان لها من الواقع شهادة قوية . فهم اذن لا يسلمون بغير امتحان ، ولا يخضعون لغير المحسوسات، وينبذون كل بحث يتعلق بمنشا الوجود ومصير الانسان كما نقلنا ذلك في الفصل السابق عن احد زعمائهم الاستاذ (ليتريه) . وعليه فمدار فلسفتهم على العلوم الحقيقية التي موضوعها الموجودات والنواميس التي تتسلط عليها . فقسموا العلوم الى ستة اقسام ، الفلك والطبيعيات ، والكيمياء والرياضيات ، وعلم الحياة والهيأة الاجتماعية . وقالوا ، ان العلوم سلسلة مؤلفة من حلقات ، متصلة بعضها ببعض ، لا تدرك الواحدة حتى تدرك ما قبلها من الحلقات واولها الرياضيات ، ثم ذهبوا الى ان المعارف تقطع في ارتقائها ثلاثة ادوار مهمة . الاول الدور الديني . الثاني دور ما فوق الطبيعة . الثالث دور العلوم الحسية ، وهو دور الانسان الحالي .

قل لي بربك اذا كان هؤلاء لا يريدون ان يعتقدوا وجود أصل من الاصول ، او حقيقة نظرية من النظريات الا اذا كان لمشاعرهم الظاهرة سلطان على تحقيقها ، فكيف يمكنك مهما أوتيت من مواهب الجدل ودقة التعبير وحسن صياغة البراهين ان تثبت لاحدهم ان له روحا ، وانه سيحيا بعد ان يموت في عالم غير هذا العالم ؟ وكيف تستطيع مهما كنت بليغا ان تقنع احدهم بوجود عوالم نورانية كعالم الملائكة واشياء اخرى وراء ما ندركه بمشاعرنا الغليظة ما دام لا يريد ان يصدق بعقله الا ما اذا لمس بيده ؟

عنت الوجوه للحي القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما ، ان الذي خلق الانسان على هذه الصورة من الطماح الفكري والجماح الحسي لا يعجزه ان يرده الى العدل كلما جار ، ويلفته الى الهدى كلما ضل ، سنة بالغة وحكمة غير متناهية .

ان الذي قال في محكم كتابه (كتب الله لاغلبن انا ورسلي ، ان الله قوي عزيز) يعرف من اين تقتاد

العقول المستعصية ، وكيف تستلان القلوب القاسية ، وبأي وسيلة تلجأ تلك الحياة العالية العاتية الى السجود والاخبات أمام عظمته وجبروته .

(سبحان ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا) الذي امهل هؤلاء الطغاة حتى ملأوا الكون صياحا ، واستنفدوا كل وسعهم ومجهودهم في الحملة على العقائد الفطرية حتى ظنوا انهم ملكوا زمام مشاعر البشر بما شنوه من الشبه والشكوك ، وانهم توصلوا الى اطفاء نور العقائد من القلوب ، ثم ارسل عليهم آية من آيات القهر والجبروت ، فقلبت كل ما اقاموه راسا على عقب ، وحولت مجرى افكارهم دفعة واحدة الى ما زعموا انهم ارفع من الخوض فيه ، فآبوا الى عقولهم وحشو اهابهم الندم والحسرة على ما غلوا فيه من قبل ، وعلموا أن للوجود الها تعنو له الجباه الشم ، وتستخذي امام عرشه الهمم القعساء ، وان للانسان روحا ستخرج من الجسد الى عالم ينتظرها فيه عذاب اليم او نعيم مقيم .

بالله اي فؤاد لا يمتلىء ايمانا ، واي احساس بشري لا يتضلع يقينا وثباتا حينما يرى بعينيه أن اساتذة الماديين قاموا يجأرون الى الله منيبين اليه ملتجئين الى جنابه مقرين بسابق غلطاتهم ، بعد ان كانوا بالامس ، وليس العهد ببعيد يشمخون بانوفهم كبرا وعتوا ، وينبجحون بأنهم ارفع مقاما من ان ياخذوا بعقيدة من العقائد ، واسمى نفسا من ان يأسروها لدين من الاديان .

من كان يصدق ان مثل الاستاذ العلامة (روسل ولاس) الانكليزي ، وهو اكبر فسيولوجي في العصر ، ومكتشف اعظم نواميس الطبيعة ، وهو ناموس الانتخاب الطبيعي ، وندد العلامة (داروين) في تأسيس مذهبه الذي كفر الملايين من العالم . قلنا من كان يصدق ان مثل هذا الاستاذ الكبير يرجع بعد تلك الكبرياء فيقول : لقد كنت دهريا حربا مقتنعا بمذهبي تمام الاقتناع ، ولم يكن في ذهني ادنى محل للتصديق بحياة روحية ، ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ، ولكني رايت أن المشاهدات الحسية لا تغالب ، فانها قد قهرتني واجبرتني على اعتبارها اشياء محسوسة قبل أن اعتقد روحانيتها بمدة مستطيلة ، ثم اخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئا فشيئا ، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة اخرى (اي بغير نسبتها لارواح الموتى) .

ولقد مر بك من مثل هذه الشهادات ما لا يمكن الزيادة عليه في مثل هذا المختصر وكل تلك الشهادات منسوبة لكبار اساطين العلم ورجال المعارف ، فانظر رحمك الله كيف يداوي الله تعالى امراض القلوب ويعالج جراح العواطف .

لما قام هؤلاء يقولون ، نحن لا نصدق الا ما نحس به ، وقالوا ما دام عليم الغيب مستورا عنا ، ولا يمكن تحيققه فهو ليس بموجود الا في الوهم ، وتذرعوا بذلك لاغطاء نور العقائد ، فتح الله لهم نافذة صغيرة من نوافذ ذلك العالم المغيب عن المشاعر ، واعطاهم القوة على تحقيقه بالحس والمشاهدة (لكيلا يكون للناس على الله حجة) كل ذلك رحمة منه تعالى بهذا النوع الانساني الذي جعله قمة ابداعه وغاية اختراعه . وكم في المستقبل من آيات سيظهرها الله لعباده تحقيقا لوعده (سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي انفسهم) .

اسبرتزم — علم استحضار الارواح والتحدث معها

كنت وعدت القراء فيما مضى أن اذكر لهم شيئا من هذا العلم الذي اذعن له كبار علماء اوربا وامريكا ، وتبعهم كثير من الباحثين في البلاد العربية ، والفوا في ذلك كتبا ، وذكروا الوقائع التي شاهدوها كالاستاذ محمد فريد وجدي ، فانه الف كتابا سماه (على اطلال المذهب المادي) ورجال دار الهلال في مصر على ما اذكر ، وقد تدمت ان اقوال اولئك الرجال وبراهينهم حجة قاطعة على كل غراب ناعب من الاسبويين والافريقيين ، انما يصولون على خصومهم بما يزعمون انهم اخذوه من علماء اوربا وامريكا ، فاذا راى القراء الاعزاء ان كبار علماء اوربا وامريكا على خلاف ما تنسبه اليهم اولئك الغربان سقط في ايدي الغربان ، واستحقوا الاحتقار ، ولا يلزم المحتج عليهم بذلك ان يكون معتقدا له ، او قائلا به .

وبيان ذلك ان كل من احتج علينا معشر المسلمين بدلائل القرآن او السنة الصحيحة لزمنا قبول احتجاجه ، وان كان المحتج غير مسلم .

جاء في دائرة المعارف ما نصه : (اسبرتزم) هو فن استحضار ارواح الموتى ، يقول اشياعه : ان الحد الفاصل بين الاحياء والاموات ليس على ما يظنه الناس من الخطارة ، فان الموت ليس في ذاته الا انتقالا من حال مادي جسدي الى حال مادي آخر ، ولكن ارقى منه والطف بكثير ، فانهم يعتقدون ان للروح جسما ماديا شفافا

لطيفا الطف من هذه المادة بكثير ، ولذلك لا تسري عليه قوانينها .

ويقولون : ان الموتى بعد الموت مباشرة يكونون في عالمنا هذا بين ايدينا وعن ايماننا وشمائلنا ، ولا يزالون كذلك مدة تختلف باختلاف درجتهم الروحية ، ثم ينتقلون الى حال ارقى من هذا ، وان كانوا لا يبرحون هـذا العالم ، فان العوالم في نظرهم اختلاف حالات ومقامات لا اختلاف جهات وامكنة .

ويقولون : ان الروح ، وهي في حالها الاول بعد خروجها من الجسد يمكن مكالمتها ، بل ورؤيتها مجسمة بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لان يقع في خدر عام عند ارادته تحضير الروح ، فتستفيد الروح من استعداده فتكلم الناس بفمه بلغات يجهلها كل الجهل ، وتنبىء عن امور للحاضرين من اقاربها وخاصتها ، لا يدري الواسطة منها شيئا ، بل وتكشف من اسرار العلم والفلسفة والرياضيات الغويصة ما يجهله الواسطة والسامع ، ولا يدركه ممن فوق سطح الارض الا نفر يسير ، وقد تستولي على يده فتكتب وعيناه مغمضتان صحفا ورسائل .

وقد تظهر بجسم مادي محسوس ، على حين يكون الواسطة ملقى امام المجربين مكتوفا على كرسيه ، وسبب ربطه هكذا ان الذين يبحثون في هذه الامور المدهشة من العلماء ملحدون ماديون لا يعتقدون بشيء ، ولاجل ان يثقوا من صدق مشاهداتهم التي تهدم لها كل مقررات فلسفتهم لا يرضون في حالة تجسد الروح الا ان تكون الغرفة مغلقة والفرش مفتشة ، والواسطة مربوطا على كرسيه بأربطة متينة مسمرة اطرافها بالارض . ولا يكتفون بذلك ايضا ، بل منهم من وضعه في قفص حديدي ، ووضع كرسيه على سطح مائي ، واوصل بيده سلكا كهربائيا متصلا بجلوانومتر ليسجل عليه كل حركة وكل نفس ، ولم يكتف بذلك ، بل ارصد له من يراقبه من اخوانه العلماء . ورغما عن ذلك كله تظهر الروح مجسمة ، تبتدىء اولا بشكل سحابة منيرة ثم تأخذ في التشكل شيئا فشيئا حتى تصير على شكل انسان منير ، فتقف امامهم وتطوف حولهم عالية بقدميها عن الارض قليلا ، لابسة هيئة عربية بدوية متمثلة بشرا سويا ، ولكن شوهد ان جسمها يكون لينا لدرجة ان الانسان لو ضغط يدها بين اصبعيه تنبعج يدها بينهما حتى يتلاقيا كأنهما عجين ذو قوام متماسك ، ولكن شوهد ان لها نبضا وقلبا وتنفسا وكل ما للجسم الحي .

وحين تسأل من أين لها هذا الجسد تقول : انها استعارته من جسم الواسطة وفي الواقع اذا وزنت الواسطة وجدت ان جسمها قد نقص وزنه ، وقد شوهد ان الجزء الاسفل من الواسطة تلاشى بالمرة وصار لا وجود له ، فلما ذهبت الروح عاد اليها .

هذه الامور جربت في كل عاصمة وتولى شأنها العلماء الاعلام من كل قبيل فلم تزد على مر الايام الا انتشارا وثبوتا ، وقد بلغ عدد اشياعها كما روته مجلة المجلات الفرنسية نقلا عن الاستاذ (روسل ولاس) اكبر الفزيولوجيين الانكليز الى عشرين مليونا .

تعليقات

1 — قول كامل فلا مريون في الروح : وهي متمتعة بخصائص لم تزل للآن مجهولة لدى العلم . يتلقاه المسلم بالترحيب والاجلال والاغتباط ، لانه تفسير لقوله تعالى في سورة الاسراء (85 ويسألونك عن الروح ، قل الروح من امر ربي ، وما اوتيتم من العلم الا قليلا) .

قال الامام ابن حزم في كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى : وذهب سائر اهل الاسلام والملز المقرة بالمعاد الى ان النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان ، عاقلة مميزة مصرفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناهما واحد .

ثم قال : واما من ذهب الى ان النفس ليست جسما فقول يبطل بالقرآن والسنة ، واجماع الامة . فاما القرآن فان الله عز وجل قال : (هنالك تبلو كل نفس ما اسلفت) وقال تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم) وقال تعالى (كل امرىء بماكسب رهين) فصح ان النفس هي الفعالة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى (ان النفس لامارة بالسوء) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب) وقال تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات ، بل احياء ولكن لا تشعرون) وقال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا ، بل احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) فصح ان الانفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة فيعذب ، ومنها ما يرزق وينعم فرحا ، ويكون مسرورا قبل يوم القيامة .

ولا شك ان اجساد آل فرعون واجساد المقتولين في سبيل الله ، قد تقطعت اوصالها واكلها السباع

والطير وحيوان الماء ، فصح ان الانفس منقولة من مكان الى مكان ، ولا شك فى أن العرض لا يلقى العذاب ولا يحس ، فليست عرضا . وصح أنها تنتقل فى الاماكن قائمة بنفسها ، وهذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائل به ، فصح ضرورة انها جسم .

واما من السنن فقول النبي (ص) : ان ارواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى الجنة) فصح أن الانفس مرئية فى اماكنها . وقوله عليه السلام (ان نفس المؤمن اذا قبضت عرج بها الى السماء وفعل بها كذا . ونفس الكافر اذا قبضت فعل بها كذا) . فصح انها معذبة ومنعمة ومنقولة فى الاماكن ، وهذه صفة الاجسام ضرورة .

واما من الاجماع ، فلا اختلاف بين احد من اهل الاسلام فى ان انفس العباد منقولة بعد خروجها من الاجساد ، الى نعيم او الى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الاجسام ثم قال : ومعنى قول الله تعالى : (ويسالونك عن الروح ، قل الروح من امر ربي) انما هو لان الجسد مخلوق من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم عظما ، ثم لحما ، ثم انشاجا. وليس الروح كذلك . وانما قال الله تعالى آمرا له بالكون (كن فيكون) فصح ان النفس والروح والنسمة اسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح ايضا على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الامين ، والقرآن روح من عند الله

ثم قال ابن حزم ايضا : صح ان الله عز وجل خلق الارواح جملة ، وهي الانفس ، وكذلك اخبر عليه السلام (ان الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) وهي العاقلة الحساسة . اهـ .

وقال شيخ الاسلام احمد بن تيمية فى تفسير سورة الاخلاص بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة فى الملائكة هل هي متحيزة ام لا ؟ وكذلك نزاعهم فى روح الانسان التي تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضا من اعراض البدن كالحيوان وغيرها . ولا جزءا من اجزاء البدن كالهواء الخارج منه ، فان كثيرا من المتكلمين زعموا انها عرض قائم بالبدن ، او جزء من اجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الامم . ومخالف للادلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من اهل الكلام . اهـ

قال ابو المعالي : ان الروح اجسام لطيفة مشابكة للاجسام محسوسة . أجرى الله العادة بحياة الاجساد ما استمرت مشابكتها لها . فاذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار المادة . ومذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وسائر سلف الامة وائمة السنة ، ان الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن ، وتنعم وتعذب، ليست هي البدن ولا جزءا من اجزائه كالنفس المذكور .اهـ

واقوال علماء الاسلام وفلاسفته فى مباحث الروح كثيرة . وقد الف فيها الامام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية مجلدا وهو مطبوع . وفيما ذكرته ما يدل بغاية الوضوح على أن ما توصل اليه فلاسفة اوربا وامريكا فى القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى بتجاربهم المكتسبة ممن تقدمهم ، ومعلوماتهم الخاصة التي افنوا فيها اعمارهم هو عين ما توصل اليه فلاسفة الاسلام بافكارهم الثاقبة ، وتحقيقاتهم البالغة ، مع زيادة تفصيل عند الاوربيين والامريكيين ، يخرج المطلع عليه من دائرة المعقولات الى دائرة المحسات التي لا تمكن المكابرة معها. افلا يحق للمسلم الحنيف المتمسك بدينه ان يفتخر باولئك الاقطاب الذين سبقوا الزمن ، ووصلت افكارهم الى حقائق لم يكتشفها العلم الحديث الا بعد مآت السنين مضت على وفاتهم .

اولئك آبائي فجئني بمثلهم
اذا جمعتنا يا جرير المجامع

فهل بقي للضفادع البشرية التي تنق بالهذيان ، والقردة المحاكية التي تقلد الانسان ، هل بقي لهم فى مسالة وجود عالم الروح ما يهرفون به ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولهم الويل مما يصفون .

مكناس : **تقي الدين الهلالي**

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

للدكتور تقي الدين الهلالي

(15)

اعتراض وجوابه :

جاءني احد الاخوان فاخبرني ان معلما في المدارس الابتدائية في وجدة قال له : ان الدكتور الهلالي ياتي بالمتناقضات ، فبينما نراه يثبت كرامات الاولياء في الخوارق التي سردها في مجلة «دعوة الحق» في استحضار الارواح ، نراه في دروسه يقول : لا ينفع الا الله ولا يضر الا الله ، ولا يتصرف في العالم الا الله ، وهذا انكار لتصرف الاولياء وكراماتهم ، فقال له الاخ المذكور : اتقرأ القرءان ، قال نعم ، واحفظه عن ظهر قلب ، قال : فهل قرات قوله تعالى في سورة الاعراف ، (188 قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسني السوء ، ان انا الا نذير ، وبشير لقوم يومنون) .

قال : اعرف هذه الاية ، ومع ذلك اعتقد ان النبي (ص) ينفع ويضر ، وان الاولياء يتصرفون في العالم . والرد على ذلك من وجوه :

الاول : ان هذا المعترض يجهل توحيد الربوبية الذي كان يعترف به المشركون الذين قاتلهم رسول الله (ص) ، قال تعالى في سورة العنكبوت 61 ــ 63 : (ولئن سالتهم من خلق السموات والارض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ، فانى يوفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، ان الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله ، بل اكثرهم لا يعقلون) .

قال الامام ابن كثير في تفسيره : يقول تعالى مقررا انه لا اله الا هو ، لان المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بانه المستقل بخلق السموات والارض ، والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار ، وانه الخالق الرازق لعباده ومقدر اجالهم واختلافها واختلاف ارزاقهم ، ففاوت بينهم ، فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر انه المستقل بخلق الاشياء المتفرد بتدبيرها ، فاذا كان الامر كذلك ، فلم يعبد غيره ، ولم يتوكل على غيره ، فكما انه الواحد في ملكه ، فليكن الواحد في عبادته . وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الالهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم : (لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك) .

قال القاسمي في تفسير اية الاعراف : (قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا) اي لا اقدر لاجل نفسي على جلب نفع ما ، ولا على دفع ضر ما (الا ما شاء الله) اي تمليكه لي من ذلك بان يلهمنيه فيمكنني منه ويقدرني عليه . وهذا كقوله تعالى في سورة يونس (48 ــ49 ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين . قل لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ، لكل امة اجل) (ولو كنت اعلم الغيب لا ستكثرت من الخير) ، اي النفع بترتيب اسبابه ، فكنت مثلا اعد للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص (وما مسني السوء) اي الضر للتوقي عن اسبابه (ان انا الا نذير وبشير) اي عبد ارسلت نذيرا وبشيرا ، وما من شاني ان اعلم الغيب . اه

وقال تعالى في سورة يونس 31 ـ 32 : (قل من يرزقكم من السماء والارض ، امن يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الامر ، فسيقولون الله ، فقل افلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق ، فما ذا بعد الحق الا الضلال ، فانى تصرفون) .

قال القاسمي في تفسيره : (قل من يرزقكم من السماء والارض) بالامطار والانبات ، وهل يمكن الا ممن له التصرف العام فيها (امن يملك السمع والابصار) اي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة كقوله تعالى في سورة الملك 23 ، (قل هو الذي انشاكم وجعل لكم السمع والابصار)

ومن يخرج الحي من الميت ، يعني النسمة من النطفة ، او الطير من البيضة ، او السنبلة من الحبة ، (ومن يدبر الامر) اي ومن يلي تدبير امر العالم كله ، بيده ملكوت كل شيء ، تعميم بعد تخصيص ، (فسيقولون الله) اذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه (فقل افلا تتقون) اي افلا تخافون بعد اعترافكم من غضبه لعبادة غيره اتباعا للهوى اه

وقال تعالى في سورة الانعام 50 : (قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ، ولا اعلم الغيب ، ولا اقول لكم اني ملك ، ان اتبع الا ما يوحى الي ، قل هل يستوي الاعمى والبصير ، افلا تتفكرون) .

قال ابن كثير : يقول تعالى لرسوله (ص) ، قل لا اقول لكم عندي خزائن الله) اي لست املكها ولا التصرف فيها (ولا اعلم الغيب) اي ولا اقول اني اعلم الغيب ، اي ما غاب من علم الله ، انما ذاك من علم الله عز وجل ، لا اطلع منه الا على ما اطلعني عليه ، (ولا اقول لكم اني ملك) اي ولا ادعي اني ملك ، انما انا بشر من البشر (ان اتبع الا ما يوحى الي) من الله عز وجل شرفني بذلك وانعم علي به ، ولهذا قال : (ان اتبع الا ما يوحى الي) اي لست اخرج عنه قيد شبر ، ولا ادنى منه . اه

والايات في هذا المعنى اكثر من ان تحصى فالعجب ممن يحفظ القران ولا يعرف معنى لا اله الا لله ، ولو قرأ ترجمة هذه الايات انكليزي او فرنسي لعرف معناها كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون

الوجه الثاني، ما معنى الاولياء وما معنى كراماتهم؟ قد ذكر الله سبحانه وتعالى في الكتاب العزيز ولايته واوليائه في مواضع ، منها قوله تعالى في سورة البقرة 257 : (الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ، اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون)

وقال تعالى في سورة المائدة 55 ـ 56 : (انما وليكم الله ورسوله والذين امنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين امنوا ، فان حزب الله هم الغالبون) وقال تعالى في سورة الاعراف 196 : (ان ولي الله الذي نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين) .

وقال تعالى في سورة يونس 62 ـ 64 : (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين امنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم»

وقد نظرنا في هذه الايات وغيرها فعلمنا ان اولياء الله هم الذين يتصفون بالايمان والتقوى ، فكل من تولى الله بان امن به وبرسوله (ص) وبما جاء به واتقى الله بفعل ما امر به واجتناب ما نهى عنه فهو ولي الله ، ومن لم يكن ولي الله فهو عدو الله، ولا يشترط في ولي الله ان يكون معصوما من الذنوب ، الا انه لا يصر عليها اذا حدثت منه ، بل يتوب الى الله منها

وقد قرأت في كتب الصوفية ان الجنيد رحمه الله سئل ، ايزني الولي ؟ فاطرق برأسه ثم رفع رأسه وقال : وكان امر الله قدرا مقدورا . وصدق رحمه الله ، فان ماعزا الصحابي الذي جاء الى النبي (ص) واعترف بالزنى وسأل النبي (ص) ان يقيم عليه الحد ، فاقامه عليه ، بان رجم حتى مات من اولياء الله الصالحين رضي الله عنه .

والمرأة الغامدية التي جاءت الى النبي (ص) فاعترفت بالزنى مرارا فامر النبي (ص) برجمها فرجمت ، وصلى عليها فقال له بعض اصحابه كيف

تصلي عليها وقد زنت ؟ فقال النبي (ص) : انها تابت توبة ، لو قسمت على سبعين منكم لغفر الله لهم ، او كما قال ، فهي من اولياء الله .

ولا يشترط في الولي ان تجري على يديه خوارق العادات ، فان اكثر اصحاب رسول الله (ص) واكثر التابعين والائمة المجتهدين لم تنقل عنهم خوارق ، وهم افضل اولياء الله . وقد قال النبي (ص) في فضل السابقين من اصحابه على المتاخرين منهم : لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصفه يعني ان السابقين من اصحاب رسول الله (ص) لهم فضل عظيم على المتأخرين من الصحابة ، حتى ان الواحد من المتأخرين لو انفق مثل احد ذهبا ، وهو جبل عظيم بقرب المدينة لا يساوي اجر انفاقه نصف حفنة مما انفقه السابقون . هذا في فضل السابقين من الصحابة على اللاحقين فكيف بفضل الصحابة على التابعين ؟ فكيف بفضل التابعين على من بعدهم . وقد قال النبي (ص) خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم ياتي قوم تسبق شهادة احدهم يمينه، ويمينه شهادته ، يشهدون ولا يستشهدون ، ويعدون ولا يوفون ، او كما قال . والقرن عند المحققين اربعون سنة . فقرن النبي (ص) ينتهي على راس سبع وعشرين من الهجرة في خلافة علي بن ابي طالب . والقرن الثاني ينتهي بنهاية سنة سبع وستين من الهجرة . والقرن الثالث ينتهي سنة مائة وسبع من الهجرة ، في زمان هشام ابن عبد الملك .

الوجه الثالث : ان خوارق العادات تجري على يد الكفار والفساق والصالحين ، ولا تعتبر كرامات الا اذا جرت على ايدي الصالحين المحقق صلاحهم كمريم ام عيسى ، وابي بكر الصديق ، واسيد بن حضير ، وغيرهما من الصحابة .

اما مريم ، فمن كرامات الله لها ان الله كان يرزقها حين كانت في المحراب بدون سبب ولا اكتساب كما قال تعالى في سورة ال عمران 37 : (كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم انى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

قال المفسرون كان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم في محرابها ، اي المقصورة التي تتعبد فيها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، قال يا مريم ، من اين لك هذا ؟ قالت هو من الله رزقنيه بلا سعي ولا سبب .

ومن كرامات الله لها انه رزقها ابنا سريا مباركا نبيا رسولا من اولي العزم دون ان يمسها بشر ، فجعل ولادته بلا فحل من اياته الدالة على عظمته وكمال قدرته .

ومن كراماته لها انه اوجد لها رطبا يسقط عليها عند هزها لجذع النخلة ، ومن ذلك نطق عيسى ببراءتها وهو في المهد .

ومن كرامات الله لابي بكر ما اخرجه البخاري في صحيحه عن ابي عثمان عن عبد الرحمن بن ابي بكر ان اصحاب الصفة كانوا اناسا فقراء ، وان النبي (ص) قال : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، وان اربع فخامس او سادس ، وان ابا بكر جاء بثلاثة ، فانطلق النبي (ص) بعشرة ، قال : فهو انا وابي وامي ـ فلا ادري ، قال : وامراتي ـ وخادم بيننا وبين بيت ابي بكر ، وان ابا بكر تعشى عند النبي (ص) ، ثم لبث حيث صليت العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشى النبي (ص) فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله . قالت له امراته: وما حبسك عن اضيافك ، او قالت ضيفك ؟ قال : او ما عشيتهم ، قالت : ابوا حتى تجيء ، قد عرضوا فابوا، قال: فذهبت انا فاختبات فقال : يا غنثر ، فجدع وسب وقال : كلوا لا هنيئا ، فقال : والله لا اطعمه ابدا ، وايم الله ما كنا ناخذ من لقمة الا ربا من اسفلها اكثر منها ، قال : يعني حتى شبعوا ، وصارت اكثر مما كانت قبل ذلك ، فنظر اليها ابو بكر ، فاذا هي كما هي او اكثر منها فقال لامراته : يا اخت بني فراس ، ما هذا ؟ قالت : لا ، وقرة عيني ، لهي الان اكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فاكل منها ابو بكر وقال : انما كان ذلك من الشيطان ، يعني يمينه ، ثم اكل منها لقمة ، ثم حملها الى النبي (ص) فاصبحت عنده ، وكان بيننا وبين القوم عقد ، فمضى الاجل ، ففرقنا اثنا عشر رجلا ، مع كل رجل منهم اناس ، الله اعلم كم مع كل رجل ، فاكلوا منها اجمعون او كما قال .

حاصله ان عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق رضي الله عنهما اخبر ان اهل الصفة كانوا يكونون في المسجد النبوي في مكان خاص بهم مسقف ، يسمى الصفة ، وكانوا فقراء مهاجرين غرباء ليس لهم اهل ولا بيوت ولا مال ، متى جاء الجهاد جاهدوا مع رسول الله (ص) واذا لم يكن جهاد غرقوا من بحر علم النبي (ص) وكان الناس يطعمونهم ، فقال النبي (ص) لاصحابه من اهل المدينة : من كان عنده طعام اثنين فليأخذ واحدا من اهل الصفة يتعشى معه ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليجعل رابعهم واحدا من اهل الصفة ، ومن كان عنده طعام اربعة فليأخذ معه خامسا ، وان شاء فلياخذ اثنين

وقد جاء في موضع اخر من صحيح البخاري عن النبي (ص) ، طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الاربعة ـ الحديث . ولكن النبي (ص) لم يشأ ان يشق عليهم فلم يقل : من كان عنده طعام واحد فليذهب باثنين ، ومن كان عنده طعام اثنين فليذهب باربعة ، ومن كان عنده طعام اربعة فليذهب بثمانية ، لكن ابا بكر الصديق رضي الله عنه اخذ ثلاثة من اهل الصفة ، وكان عنده طعام خمسة هو وزوجته ام رومان ، وابنه عبد الرحمن وزوجة ابنه اميمة ، وخادم كان يخدمهم .

اما النبي (ص) فانه اخذ عشرة من اهل الصفة . قال اهل الحديث : وكان عند النبي (ص) في تلك الليلة طعام عشرة ، فخفف على اصحابه وثقل على نفسه واهل بيته وذلك كان شانه صلى الله عليه وسلم ، يتحمل من الاعمال اكثر مما يامر الناس به ، فكان يواصل الصيام ، اي يصوم يومين او اكثر وينهى اصحابه عن ذلك فاذا قالوا له : انا نراك تواصل يقول : اني لست كهيئة احدكم ، اني ابيت يطعمني ربي ويسقيني ، يعني طعاما روحيا وشرابا روحيا .

وترك ابو بكر الصديق الاضياف الثلاثة لابنه عبد الرحمن وزوجته ام رومان وذهب الى بيت النبي (ص) وتعشى عنده ، واقام الى ما بعد صلاة العشاء ، فلما رجع سال زوجته اعشيتهم ؟ يعني الاضياف ، فقالت : انهم امتنعوا من قبول العشاء حتى تجيء انت ، وخاف ابنه عبد الرحمن من غضبه فاختبأ ، فاخذ ينادبه ، يا غنثر ، معناه يا لئيم فلم يجبه خوفا منه ، فسبه ثم قدم العشاء الى الاضياف ، وقال : كلوا لا هنيئا ، قال ذلك غضبا عليهم، لانهم اساءوا الادب ، اذ لم يقبلوا عشاءهم فاخذوا ياكلون والطعام يزيد حتى صار كما قالت ام رومان اكثر مما كان بثلاث مرات وحلف ابو بكر في وقت غضبه ان لا ياكل من ذلك الطعام ، فلما راى الكرامة ظهرت في زيادة الطعام اكل منه لينال من تلك البركة ، فاكل اهل البيت وضيوفهم وعددهم ثمانية ، ثم حملت تلك الجفنة مفعمة بالطعام الى النبي (ص) فرحا بما اكرمه الله به فباتت الجفنة كذلك الى الصباح فاكل منها اثنا عشر عريفا، كل عريف معه جماعة من الناس جاءوا للتفاوض مع النبي (ص)

واما كرامة اسيد بن حضير ، فاخرج البخاري في صحيحه من كتاب المناقب بسنده الى انس ان رجلين خرجا من عند النبي (ص) في ليلة مظلمة واذا نور بين ايديهما حتى تفرقا ، فتفرق النور معهما . والرجلان هما اسيد بن حضير وعباد بن بشر .

والكرامة التي اكرم الله بها عباده الصالحين كثيرة لا ياتي عليها الحصر ، وقد اجمع اهل السنة على قبولها، وما جاء في القران منها يومن به جميع المسلمين، ولكن ليس كل من جرت على يديه خوارق العادات هو من الصالحين ، فان الخوارق تقع للكافر والمسلم ، فاذا وقعت للمومن المتقي فهي كرامة ، ولكن لا يجوز ان يامن من مكر الله بعد حصولها ، لان الخاتمة مجهولة . فقد اخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ، قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : فوالله الذي لا اله غيره ، ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها ، وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها .

اذن فلا يثبت انه من اولياء الله الصالحين يجريان الخوارق على يديه حتى تثبت له الاستقامة ، والاستقامة لا يعلمها الا الله . وعقيدة اهل السنة والجماعة كما قرر الامام الصابوني في عقيدته وغيره انهم لا ينزلون احدا جنة ولا نارا الا من شهد له المعصوم صلى الله عليه وسلم كالعشرة المبشرين بالجنة ، وخديجة وعكاشة ابن محصن ، وكل من صح الحديث بانه من الجنة . اما

غيرهم فمن رأيناه يطيع الله ويتبع رسوله نرجو له الخير ولا نجزم بانه من اهل الجنة ، ومن رايناه من المسلمين الموحدين المصلحين منهمكا في المعاصي نخاف عليه ان يكون من اهل النار ولا نجزم ، لان الخاتمة مجهولة

وفي الصحيحين عن ام العلاء قالت : مات عثمان ابن مظعون ، قلت : شهادتي عليك ابا السائب ، لقد اكرمك الله فقال لها رسول الله (ص) : وما يدريك ان الله اكرمه ؟ والله وانا رسول الله ما ادري ما يفعل بي .

وروى الحافظ بن عبد البر في الاستيعاب عن ابن عباس ، قال : لما مات عثمان بن مظعون ، قالت امراته : هنيئا لك الجنة يا عثمان بن مظعون ، فنظر اليها رسول الله (ص) نظر غضب ، وقال : وما يدريك ؟ قالت : يا رسول الله ، فارسك وصاحبك ، فقال رسول الله (ص): اني رسول الله ، وما ادري ما يفعل بي .

وروى الترمذي بسنده عن عائشة ، قالت : قبل النبي (ص) عثمان بن مظعون وهو ميت ، وهو يبكي وعيناه تذرفان ، ولما توفى ابراهيم بن النبي (ص) قال : الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون . ومن اخبار عثمان بن مظعون انه كان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، وقال : لا اشرب شرابا يذهب عقلي ويضحك بي من هو ادنى مني ، ويحملني على ان انكح كريمتي ، فلما حرمت الخمر اتى وهو بالعوالي فقيل له : يا عثمان قد حرمت الخمر ، فقال : تبا لها ، قد كان بصري فيها ثاقبا

وقال سعد بن ابي وقاص : رد رسول الله (ص) التبتل على عثمان بن مظعون ، ولو اذن له لاختصينا ، وكان عابدا مجتهدا من فضلاء الصحابة ، وقد كان هو وعلي بن ابي طالب وابو ذر هموا ان يختصوا ويتبتلوا، فنهاهم رسول الله (ص) عن ذلك اهـ

فانظر يا رعاك الله هذا الصحابي الجليل وما له من المناقب ، حرم الخمر على نفسه قبل ان تحرم ، بل قبل الاسلام ، وكان من السابقين الى الاسلام ، وهاجر الى الحبشة ثم الى المدينة ، فهو من اهل الهجرتين ، وكان النبي (ص) يحبه حبا كثيرا ، حتى انه قبله بعد موته وبكى عليه ، ومع ذلك لما قالت امرأته : هنيئا لك الجنة ، غضب عليها النبي (ص) ، وقال لها : اني رسول الله ، وما ادري ما يفعل به ، وسماه النبي (ص) سلفا صالحا

ولما قالت ام العلاء : شهادتي عليك ابا السائب ، لقد اكرمك الله ، ونهاها عن ذلك ، فمن شهد على ميت كيفما كانت درجته من الصلاح انه من اهل الجنة ، او انه من المكرمين عند الله ، فقد عصى الله ورسوله وقفا ما ليس له به علم . وقد بلغ الجهل باكثر الناس في هذا الزمان الى ان صاروا يقيسون درجات الاموات عند الله بالقباب التي تبنى على قبورهم . فعلى قدر جمال القبة وزخرفتها وكثرة تحفها وزوارها ، والذبائح التي تذبح عندها ، والمواسم التي تقام لها ، تكون منزلة صاحبها عند الله بزعمهم . اللهم علمنا ما جهلنا وارزقنا العمل بما علمناه ، ولا تجعله حجة علينا يا رب العالمين

الوجه الرابع : ان ما نقلته من الخوارق التي وقعت لمستحضري الارواح في سلسلة المقالات التي نشرتها مجلة « دعوة الحق » بالعنوان المذكور اعلاه وقعت تلك الخوارق لاناس لا يومنون بالله ولا باليوم الاخر ، ولا باحد من الانبياء ، فلم تكن من كرامات الاولياء ، كما زعم ذلك المتوهم ، ونسبتي من اجل ذلك الى التناقض . ومن ذلك تعلم ان الخوارق في حد ذاتها ، وان بلغت في الغرابة كل مبلغ لا علاقة لها بالايمان ولا بالصلاح ، فانها تقع للمومن والكافر ، والصالح والطالح .

والميزان الصحيح لاولياء الله الصالحين هو الاستقامة . قال تعالى في سورة فصلت 30ـ32 : (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ، الا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياوكم في الحياة الدنيا وفي الاخرة، ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم) .

فقوله تعالى : قالوا ربنا الله ، معناه وحدوا الله فلم يشركوا به شيئا، لا في ربوبيته ولا في عبادته . ومعنى استقاموا امنوا بالرسول (ص) واتبعوه في كل ما جاء به وقال الجنيد رحمه الله : لو رأيتم رجلا يطير في

السماء او يمشي على الماء ، فلا تلتفتوا اليه ، فان الاستقامة افضل من الف كرامة

وقال ايضا رحمه الله : امرنا هذا مبني على اربعة امور ، اولها اتباع السنة ، وثانيها اكل الحلال ، وثالثها كف الاذى ورابعها حمل الاذى اه

وهذه الامور الاربعة التي بنى عليها الجنيد رحمه الله طريقة اهل الزهد موافقة لكتاب الله وسنة رسوله ولولا خوف الاطالة لسردت براهينها

وقول سعد بن ابي وقاص : رد النبي (ص) على عثمان التبتل ، ولو اذن له لاختصينا المراد بالتبتل هنا ، الترهب والانقطاع عن متاع الحياة الدنيا ، والاشتغال بالعبادة وقد استأذن جماعة من الصحابة ، منهم المذكورون هنا ، ومنهم ابو هرة في الاختصاء ، وهو ازالة القدرة على مباشرة النساء بعمل جراحي معلوم ، وانما ارادوا ذلك حتى يأمنوا اشتهاء قرب النساء ، فلا يشغلهم شاغل عن عبادة الله ، ومن خلال ذلك يرى كل منصف عاقل ان اصحاب محمد (ص) كانوا افضل من اصحاب الرسل السابقين واتباعهم فلم نر في اتباع الرسل السابقين من هم بالاختصاء ، وان فيهم من اعتزل النساء وحرم قربهن على نفسه ، ولكن النبي الحكيم الذي جاء بدين قويم منعهم من الاختصاء لما فيه وفي الترهيب من المفاسد فالشجاع هو الذي يثبت في مواجهة العدو ويستعين بالله ويحمي نفسه من هجماته والاختصاء والترهب فرار من وجه العدو وهزيمته وحرمان للنفس من بركة التعاون مع الزوجة على طاعة الله ، وعلى انجاب الابناء الصالحين والبنات الصالحات وحسن تربيتهن والسعي عليهم في اكتساب رزقهم

فالمختصي والترهب عضوان ميتان في جسم الامة وقد قال النبي (ص) لما علم ان ثلاثة من اصحابه هموا ان ينقطعوا للعبادة ، فقال احدهم : اما انا فاصلي الليل ابدا وقال الاخر : انا اصوم النهار ابدا ولا افطر وقال الاخر : انا اعتزل النساء فلا اتزوج ابدا ، فجاء النبي (ص) اليهم فقال : انتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ اما والله اني لاخشاكم لله واتقاكم له ، لكني اصوم وافطر ، واصلي ، وارقد ، واتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني رواه البخاري ومسلم .

مكناس ـ تقي الدين الهلالي

نقد مقال العوائق النفسانية للتخطيط

للدكتور تقي الدين الهلالي

- 16 -

ختام السلسلة

قراء مقالات هذه السلسلة ، وهم كثير في المغرب وفي الخارج يعلمون الباعث على كتابتهما ، وهو ان احد دسائس الاستعمار الروحي الخبيث الذي هو شر الف مرة من الاستعمار المادي ، بل هو سل الشعوب وشرطانها نشر مقالا سب فيه الله جل جلاله وفي به سبحانه وتعالى سب لجميع المؤمنين من المسلمين واليهود والنصارى والبوذيين والهندك وكل من يومن بما وراء المادة . فدبتني لجنة ادارة مجلة دعوة الحق لرجم هذا الشيطان المارد واسكات هذا الغراب الناعب بشهب ثواقب من براهين العقل والنقل ، واقوال الفلاسفة والعلماء المتقدمين والمتأخرين ، وشهادات سفراء الدول الديمقراطية التي تكفل الحرية التامة لكل فرد من شعوبها في اعتقاده ، وابداء رايه في حدود القانون امنا من كل طائلة عقاب او حرمان كما يقع في غير الدول الديمقراطية التي يحكم الشعب فيها نفسه بنفسه بواسطة مجلس نواب منتخب انتخابا حرا .

اما الشعوب التي لا ترى دولها هذا المسلك ، سواء اكانت مؤمنة بالله ام كافرة ، فاني لم اتوجه الى سفاراتها ولم التمس منها احصاء لعدد المومنين بالله من شعوبها ، لان حرية الاعتقاد وابداء الراي محظور على افراد شعوبها . ولا يمكن التوصل الى معرفة آراء تلك الشعوب الا اذا كانوا احرارا في ابداء آرائهم وليس مقصودي بهذا الكلام مدح احد الفريقين ولا ذم الاخر ، وانما ذكرت هذا اعتذارا للقراء عن عدم تعميم الزيارة لجميع السفارات والتماس الاحصاء منها على انني تركت زيارة سفارات توفرت فيها الشروط كالسفارة الفلاندية مثلا اكتفاء بما ذكر ، وفيه مقنع لكل منصف

والان اختم هذه السلسلة بفقرات لم استطع اغفالها لقوتها ووضوحها واعجابي بها . ولو ذهبت انقل كل ما وجدته في هذه القضية لاستمرت الكتابة سنين ، ولكني اردت الاقتصار على هذا القدر ، فقد قرت به عيون المومنين وسخنت عيون الكافرين والمنافقين ، وخصوصا المردود عليه ذو الرين الملقب بالحبشي .

قال الاستاذ فاضل صالح السامرائي في كتابه (نداء الروح) نقلا عن كتاب الرد على الدهريين للفيلسوف الاسلامي العظيم جمال الدين الافغاني

اصل الحياة

يقول بعض الطبعيين : ان تركيب الخلايا هذا التركيب الكيماوي المعروف ، وبهذه النسب الثابتة من العناصر المختلفة هو الذي منحها الحياة ومن عليها بالاحساس ،ووهبها هذه الصفات .

وابسط ما يرد عليهم ، انه قد اظهر لكم المختبر جميع اجزاء الخلية ، وعرفتم جميع عناصرها واوزانها ونسبها وتركيبها ، فلم اذن لم تفلحوا في انشاء خلية واحدة تنبض بالحياة وتتغذى وتنمو وتشعر وتتكاثر وتحتاط في الدفاع عن نفسها احتياطا يعجز العقول ويأخذ بالالباب شأن (ذوات الخلية الواحدة ؟)

انه طلب معقول ، كان وجهه احد الكتاب المعروفين (هذه عناصر الخلية ، هاتوا لنا خلية واحدة) .

هل تستطيع اجهزتكم ان تكون لنا (نواة تمر) لها صفات النواة وخصائصها خشبة صغيرة متى غرست في الارض انفجرت عن جذير وسويق وامتدت خارجة في الهواء تحمل الرطب الجني والتمر الشهي .

هل تستطيع اجهزتكم ان تكون (نواة) مرة كنواة المشمش مثلا او بذرة البرتقال حتى اذا غرست في الارض وسقيت بالماء وصارت شجرة وارفة اتت بالثمار الحلوة والفاكهة الشهية ..؟

كيف يعقل ـ يا هؤلاء ـ ان يكون تركيب الخلية اصل حياتها ، والحياة هي التي تغذيها وتنميها وتحول المواد الجامدة فيها الى مواد حية ؟

ان الحياة هي التي تحفظ على الخلية وجودها ، وتجمع عناصرها ، وتمسكها من التحلل والافتراق ، فان فارقتها الحياة ذهب وجودها واختفى تكوينها ، وافترقت عناصرها ، وتحللت موادها ، ان الحياة هي التي تمنعها من التفرق ، وتعصمها من التحلل ، وبدونها تفرق شملها ، وتمزقت اوصالها . كيف يعقل اذن ان يكون تركيب الخلية اصل حياتها ، مع ان الحياة هي التي حفظت على الخلية تركيبها ، ولولاها لتفتت وضربتها الرياح وذهبت سدى . ولتحللت عناصرها وتمزقت اوصالها .

ان الحياة هي التي تجعل من المواد الميتة ، ومن العناصر المتحللة مواد حية تضع كل مادة بمحلها ، وتجمع بين هذا وذاك بنسب ثابتة ، وتحفظ تماسك هذه المواد على الوضعية التي انتجتها

ان الكائن الحي ذا الخلية الواحدة مثلا من حيث هو مخلوق بسيط : من يحفظ مواده من ان تعبث به الرياح ؟ من يمسك عناصره حتى لا تحطمه الطبيعة بحملاتها الشديدة ؟ انها الحياة .

ترى ، ما ذا يحدث لو فارقتها الحياة ؟ ان هذه المواد المتماسكة التي يزعم الزاعمون ان تماسكها وتركيبها هو اصل الحياة ستفقد تماسكها ، وتتحلل تراكيبها بعد خروج الحياة منها .

لقد عجزت الطوائف عن بيان السبب لحياة الجراثيم ، حياة نباتية او حيوانية ، خصوصا بعد ما تبين لهم ، ان الحياة فاعل في بسائط الجراثيم ، موجب لالتئامها ، حافظ لكيانها ، وان قوتها الغاذية هي التي تجعل غير الحي من الاجزاء حيا بالتغذية ، فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ، ثم صارت الى الانحلال

ثم نقل المؤلف المذكور كلام العلامة (كريسي موريسن) في حقيقة الحياة ، وقد ترجمت هذا الفصل برمته ونشرته في سلسلة مقالات (دواء الناكبين وقامع المشككين) في الجزء العاشر من السنة الثالثة من هذه المجلة فليراجعه من اراده

ثم قال المؤلف المذكور ، وقال جـ . ارثر فندلاي: فما السبب في ان الشجرة المزهرة تحتفظ بشكلها واوراقها ، على حين تساقط نجرة اخرى من تلك التي نسميها (ميتة) وتساقط اجزاؤها عند لمسها وتفتت في الثرى ؟ لا بد ان يكون هنالك ثمة شيء ، وهو ما سميناه (حياة) هو الذي يوجد في الكائن الحي وينعشه ويختفي من الكائن الميت ، ولهذا الشيء قدرة على اكتساب المادة الشكل واللون ، فاذا ما اختفى ذهب باختفائه الشكل واللون ، ويتوى الشيء الذي كان حيا فيما مضى الى الارض مكونا جزءا منها

من ثم يتضح ان هناك شيئا لا يمكن ان نراه ولا ان نلمسه ، ولكنه مع ذلك حقيقي وقادر ، وله خاصية تشكيل الصور من الارض غير الحية . اقول : انه لا بد ان يكون قادرا ، لانه يقوى على رفع المادة رغم قوة الجاذبية ، ويستطيع الاحتفاظ بها في وضع معتدل ، فاذا ترك المادة عادت لقوة الجاذبية بسطرتها ، وتأثرت المادة بقوى الطبيعة كلها . فالانسان او الحيوان او النبات يمكنه ان يقف معتدلا عند ما تسري فيه هذه القوة ، فاذا ما وقف سريانها هوى هؤلاء جميعا الى الارض . فالحياة اذن قوة منظمة تقاوم في المادة ميلها الى الاختلال وعدم الانتظام .

الحياة قوة منظمة مفكرة تسري في المادة فتنظمها ، وبدونها تكون المادة مختلة النظام . فهي اذن لا يمكن ان تكون جزءا من المادة الا اذا كان صاني الخزفة جزءا

من التسلسل الذي يصوغه اواني ، وعدا هذا للحياة شخصيـــة

لكل كائن حي شخصية ، لان كل كائن حي يختلف عن غيره من الكائنات الحية . وبهذا التدليل يكون لهذه الحياة قوى تقصر عنها القوى المادية ، فهي اقوى من المادة ، وهي تستطيع تنظيم المادة اه

ايضاح وشرح لحجة جمال الدين الافغاني

انما احتج به هذا العالم المفكر المسلم على الطبيعيين الجاحدين واضح لا يحتاج الى شرح بالنسبة الى ذوي الكفاءة العلمية من القراء ، ولكني حريص على تعميم الفائدة وابلاغ ذلك الى اذهان سائر القراء ، فلذلك ازيده توضيحا فأقول : زعم عباد الطبيعة الجاهلة العمياء الصماء ان الحياة في الانسان والحيوان والنبات انما نشأت لتركب كل من هذه الانواع من عناصر مختلفة باجزاء متناسبة . فمتى تألف جسم الانسان او الحيوان او النبات من تلك العناصر بتلك النسب والاجزاء جاءت الحياة من تلقاء نفسها ، فتحداهم العلماء المتدينون لوجود الخالق المبدع لجميع ما في العالم والحافظ عليه وجوده والمدبر لشؤونه بقولهم : ها انتم اليوم تملكون مختبرات كيميائية تحلل كل مركب حتى ترده الى عناصره الاولية وتعلمون علم اليقين اجزاء المركبات ونسبها وحقائق البسائط غير المركبة ، فهلا جمعتم اجزاء نوع من النبات او الحيوان ، فضلا عن الانسان وركبتم ذلك ؟ فتجيئكم الحياة وتستقر فيه وتعرضونه على خصومكم المؤمنين بالله وبعالم الغيب فتفحمونهم بحجة يحسونها ، وانتم تزعمون انكم لا تؤمنون الا بما يحس كالبهائم ، فكيف تريدون من خصومكم ان يؤمنوا بخيال باطل لفقته عقولكم السخيفة ، وانتم ترددون الحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، وقد تستطيعون ان تقنعوا بذلك الصبيان ومن في معناهم من كبار الاجسام المغرورين بسوط الاستعمار الروحي الذين يتلقون كل هذيان تفوهون به بالتصديق . اما اهل العقول النيرة والابصار الثاقبة فلا تجوز عليهم ترهاتكم ، ولا تنطلي عليهم تلفيقاتكـــم

ثم قال العلماء المؤمنون : بل الامر بالعكس ، فان الحياة هي التي تحفظ الاجسام متمتعة بخصائصها ، ومتى فقدت منها الحياة تلاشت . ونحن ناخذ نواة تمر جامدة جمود الاحجار لا حياة فيها ولا اثر للحياة ، ولا حركة ولا نمو ، فنغرسها في ارض طيبة ونسقيها بالماء فتشق ويخرج منها جذر يمد عروقه في الارض الى اسفل ، ونبتة تمتد الى اعلى في شكل وريقة ضعيفة ، ولا تزال تنمو حتى تصير جذعا ، له خشب وكرب وليف وسعف وخوص وشوك وقلب ، ثم تثمر ، فتجني منها رطبا يانعا وتمرا لذيذا ، وتعيش ما شاء الله في زيادة ونمو حتى تصير نخلة باسقة صاعدة في السماء ، فان لم يطرأ عليها مرض ميت تطول حياتها حتى يدركها ضعف الهرم كالانسان والحيوان فتقطع وينتفع بخشبها في البناء وغيره ، وان اصابها مرض كمرض (بيوض) المنتشر في نخيل تفيلالت يذبل قلبها ثم ييبس ويتلوه سعفها فتموت وتفتت ويسري الفساد في جذعها فلا ينتفع به في بناء ولا غيره . فقد رأينا ان الحياة هي التي تحفظ وجود الجسم وتماسكه وازدهاره ، وفقدانها يؤدي الى تلاشيه حتى يصير ترابا كما كان .

ومثل هذا يقال في كل نبات وكل حيوان ، فالحياة هي سر الوجود ، سواء اكانت بسيطة كما في الخلية الواحدة او الاميبة التي هي اصغر حيوان ، ام كانت في المركبات التي تتالف من ملايين الخلايا ، فالحياة هي التي تحفظ وجودها وتضامنها واتحادها واتصافها بخصائصها من حركة ونمو واعمال . وهذه الحياة هبة من الخالق جل وعلا لا حيلة لاحد في ايجادها ابتداء ، ولا في ردها بعد فقدانها . قال تعالى في سورة الحج (73 ــ 74) « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ، ان الله لقوي عزيز »

ومن اين جاءت الحياة لتلك النواة الجامدة حتى نشأت منها تلك النخلة العظيمة ثم لما قبضت الحياة تلاشت النخلة ولم يبق لها وجود . وهكذا يقال في كل نواة ، وفي بذرة من بذور المزروعات قال تعالى في سورة الانعام 95 : « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ، ذلكم الله ، فانى توفكون » .

فالنواة تكون ميتة فيفلقها الله ، اي يشقها ويخرج منها شجرة تتدفق بالحياة . والحبة تكون ميتة فيفلقها الله تعالى فتخرج غطاءها ويستغلظ ويستوي على سوقه ويخرج منه حبا متراكبا رزقا للانسان والحيوان يحفظ عليه حياته الى اجل مسمى ، ذلكم الله فانى تصرفون .

2 ـ قوله : لانه يقوى على رفع المادة رغم قوة الجاذبية الخ . بيان ذلك ان الله اودع في هذه الارض التي نعيش عليها قوة ، يسميها علماء هذا العصر ، الجاذبية ، وبهذه القوة تتماسك اجزاء الارض ويثبت عليها كل ما هو متصل بها من بحار وجبال واحجار وحيوان وهواء محيط بها فلا يقوم شيء منها ويرتفع الا اذا كانت فيه قوة تقاوم تلك الجاذبية . فالنواة قبل ان تغرس تبقى في مكانها لا يرتفع منها شيء ، اذ ليس فيها قوة تقاوم الجاذبية ، فاذا غرست اشربها الله الحياة وفلقها فارتفعت منها نبتة مقاومة للجاذبية حتى تبلغ ما قدر لها من الارتفاع ، ولا تزال كذلك حتى تفقد الحياة فتفقد القوة التي كانت تقاوم بها الجاذبية ، ويؤول بها الامر الى ان تهوى على الارض ثم تصير ترابا ميتا .

مثال اخر هو او ضح ، اذا اراد الانسان ان يثب الى فوق ، فانه يجمع قواه فيثب في الهواء مقدار متر او نحوه ، والجاذبية تعاكسه وتقهره وتجبره على الرجوع الى الارض فلا يلبث ان يعود اليها مقهورا . واذا رمى الانسان بحجر الى اعلى يرتفع الحجر مقاوما الجاذبية على قدر القوة الدافعة ، ثم تجبره الجاذبية على ان يعود الى الارض . وهذه القوة الجاذبية لا تدرك بالحس ، وانما يدرك اثرها ، ومركزها في جوف الارض ، وهي حجة على اشباه البهائم الذين يزعمون انهم لا يومنون الا بما تدركه الحواس الخمس .

3 ـ قوله : الا اذا كان صانع الخزفة جزءا من الصلصال الخ . يعني ان المادة التي يتألف منها اجسام الحيوان والنبات لا تستطيع ان تهب الحياة لهذه الاجسام الا اذا كان صانع القلة من الطين جزءا من ذلك الطين الذي يصنع منه القلل وغيرها من الاواني .

4 ـ قوله : لكل كائن حي شخصية . يعني ان الله يهب لكل حيوان وكل نوع من انواع النبات صورة خاصة وحياة خاصة ، فعمل الحياة في البعوضة ليس كعملها في الفيل ، وقس على ذلك جميع انواع الحيوان ، وبذلك يكون التباين والاختلاف بينها ، وهكذا يقال في النبات ، فالحياة التي وهبها الله لنوع من الاشجار تؤثر فيه شكلا ونوعا وثمرا ولونا غير الحياة التي وهبها الله للنوع الاخر .

يقول محمد تقي الدين الهلالي : بهذا المقال اختم هذه السلسلة ، وقد بلغ عدد مقالاتها ست عشرة اذا ضمت الى السلسلة الموسومة بـ (دواء الشاكين وقامع المشككين) التي بلغ عدد مقالاتها اربعا وعشرين وتضمنت كتاب العالم (كريسي موريسن) الموسوم بـ (ليس الانسان مهملا) يكون مجموع المقالات اربعين اشتملت على براهين قاطعة وانوار ساطعة يؤيدها العقل ويكملها النقل . يثبت الله بها المومنين ويشفي صدورهم ويطهر نفوسهم ، وتطمئن اليها نفوس المنصفين وتكبت بها نفوس المنافقين والجاحدين .

فلو جمعت في كتاب واحد ، ويسر الله من ينفق على طبعه لكان حصنا حصينا لطلبة العلم الصادقين ، وسلاحا فتاكا في ايدي المناضلين ، وسيفا صارما في نحور اعداء الاسلام والمسلمين . والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على الظالمين .

انتهى

الدكتور تقي الدين الهلالي

هل اختصت الامامية بفتح باب الاجتهاد

للدكتور: تقي الدين الهلالي

من خطباء يوم الثلاثاء الباحثين فضيلة الاستاذ الشيخ محمد رضا مظفر عميد كلية الفقه بالنجف واحد اعضاء الوفد العراقي للمشاركة في الاحتفال بمرور الف ومائة سنة على تاسيس جامع القرويين ، وكان موضوع بحثه المقارنة بين جامعة القرويين ومدرسة النجف ، وقد اجاد في وصف مدرسة النجف وفصل القول فيها تفصيلا شمل جميع احوالها ، وقد جاء في خطبته ان الامامية ويقصد بهم هنا الاثنى عشرية خاصة ، وهم القائلون بوجوب امام معصوم بعد النبي (ص) مباشرة ، والائمة عندهم اثنى عشر اماما اولهم علي بن ابي طالب واخرهم محمد بن حسن العسكري المسمى عندهم بالمنتظر ، جاء في خطبته ان فتح باب الاجتهاد مختص بالاثنى عشرية ، وهم قرابة نصف سكان العراق واكثر سكان بلاد فارس التي يسمونها في هذا الزمان ايران ، وعددهم في الهند كثير ايضا ، ولما سمعت منه هذا الكلام تقدمت الى رئيس الاحتفال وطلبت منه دقيقتين اصحح فيهما خطأ الشيخ الخطيب وابين بالبرهان ان الاجتهاد عند اهل الحديث المتمسكين بسنة الرسول من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين لم يقل احد منهم بسد باب الاجتهاد البتة ، وانما قال ذلك العوام الذين لا تحقيق عندهم فسدوا على انفسهم باب الاجتهاد فبقي مسدودا عليهم وحدهم . ومن شك في هذا فعليه بكتب الحديث . واختصرها له في كتابين فيما يتعلق بمسألة الاجتهاد احدهما كتاب جامع بيان العلم وفضله للامام الحافظ ابي عمر يوسف بن عبد البر النمري وهو من اهل القرن الخامس الهجري طبعا ، وثانيهما كتاب ايقاظ همم اولي الابصار للاقتداء بسيد المهاجرين والانصار وتحذيرهم من الابتداع الشائع في القرى والامصار من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الاعصار للامام المحقق المحدث الشهير صالح بن محمد بن نوح العمري الفلاني من سودان المغرب توفي سنة الف ومائتين وثماني عشرة للهجرة اي منذ مائة واثنتين وستين سنة فقط 162 . وازيدك كتابا ثالثا وهو كتاب الرد على من اخلد الى الارض وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض للحافظ المتقن عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي المتوفى سنة تسع مائة واثنتى عشرة للهجرة . فمن قرا هذه الكتب الثلاثة لا يشك ابدا فيما ذكرنا من ان باب الاجتهاد لم يزل مفتوحا على مصراعية الى يومنا هذا وسيبقى مفتوحا ما وجد على وجه الارض مسلمون متبعون لسنة النبي (ص) .

ومن دواعي الاسف ان رئيس الاحتفال تلقى طلبي باستثقال ، ولكن الله سبحانه الذي تكفل بنصر الحق انطق احد الخطباء بمعنى ما كنت اريد ان اقول، وهذا الخطيب هو الاستاذ عبد الجواد مندوب المملكة الليبية فانه ذكر في بحثه ان الامام السيد بن علي السنوسي المغربي مؤسس الدعوة السنوسية في طرابلس وبرقة وبلدان اخرى درس في جامع القرويين ودرس فيه ودعا الى ابطال التقليد والف في ذلك ، فجاء الرد على الاستاذ مظفر ضمن المنهاج ولله الحمد.

وازيد على ما قال الاستاذ عبد الجواد ان الامام محمد بن علي السنوسي ابطل التقليد في جميع البلدان التي انتشرت فيها دعوته ولا يزالون على ذلك الى الآن والف في ذلك كتبا قيمة ، منها كتاب في اصول الفقه بخط اليد قراته في مدينة الرسول حين كنت مجاورا فيها ، ومنها كتاب المسائل العشر في احكام الصلاة رد

فيه على المقلدين من المنتسبين الى المذهب المالكي وبين مخالفتهم لكثير من السنن المحمدية ، وهو مطبوع متداول في ايد الناس ؛ وقد جمعني مجلس في دار بالمدينة مع المجاهد البطل الاستاذ السيد احمد السنوسي الكبير فذكر بعض الحاضرين تقليد اقوال المذهب المخالفة للنص فغضب الشيخ وتكلم بحماس عظيم كانه فحل هائج بلسان فصيح نحو نصف ساعة في رد التقليد والجمود على المذهب مع قيام الدليل على خلافه .

ولا يحسبن احد اني تألمت من عدم السماح لي بالكلام واني مصر على عدم قبول الاعتذار بضيق الوقت وكثرة الخطباء والباحثين وانما آلمني ذلك الجواب بالشكل المذكور .

هذا ونرجو ان يوفقنا الله جميعا للعمل بقوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) وبقول النبي (ص) : (وخالق الناس بخلق حسن) وبقوله عليه الصلاة والسلام (لا تحتقرن من المعروف شيئا ولو ان تلقى اخاك بوجه طليق) .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

نظر الحافظ بن الجوزي في التفضيل بين الغني والفقير

قال ابن الجوزي واما التفضيل بين الغني والفقير فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير ولكن لابد من تفصيل فنقول انما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالاضافة الى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات، او فقير حريص مع غني حريص ، فلا يخفى ان الفقير القانع افضل من الغني الحريص ، فان كان الغني متمتعا بالمال في المباحات فالفقير القنوع افضل منه ، وكشف الغطاء في هذا انما يراد لغيره ولا يراد لعينه ، ينبغي ان يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها بل لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى والفقير ليس مطلوبا لعينه لكن لان فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم التشاغل عنه ، وكم من غني لا يشغله الغنى عن الله تعالى كسليمان عليه السلام وكذلك عثمان وعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنهما وكم من فقير شغله فقره عن المقصود وصرفه عن حب الله تعالى والانس به ، وانما الشاغل له حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله تعالى ، فان المحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه او في وصاله ، بل قد يكون شغله في فراقه اكثر ، والدنيا معشوقة الغافلين فالمحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها وان اخذت الامر باعتبار الاكثر ، فالفقير عن الخطر ابعد لان فتنة السراء اشد من فتنة الضراء ومن العصمة ان لا تجد ولما كان ذلك في طبع الاداميين الا القليل منهم جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر .